

سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى

■ ٢ ■

**السيرة النبوية والدعوة
في العهد المكي**

تأليف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق

جامعة الأزهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خاتمة في كلمة



للطباعة والنشر والتوزيع

١٤ شارع الجمهورية
عابدين - القاهرة

تليفون / ٣٩٠٦٧٢٧

فاكس / ٣٩٥٦٨٠٤

ص ب / ٦٣٢ القاهرة

الرقم البريدي / ١١٥١١

*Resalah
Publishers*

Tel.: 3906727

Fax : 3956804

P.O.Box : 632

Cairo - Egypt

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

حقوق الطبع محفوظة © ١٩٨٢ م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى

— ٢ —

السيرة النبوية والدعوة

في العهد المكي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . . . وبعد ،،،

فإن دين الله واحد ، ورسوله جميعاً يتحركون بعقيدة واحدة ، يعلنون كلمة الله ، ويعملون لنقل الناس من الضلال إلى الهدى ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ ^(١) ، ويقول تعالى ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ^(٢) ، ويقول تعالى : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٣) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ^(٤) .

والآيات واضحة الدلالة في إثبات وحدة الدين ، الذي جاء به الرسل أجمعين وهذه الوحدة بادية في أركان العقيدة ، فهي عقيدة واحدة معلومة من لدن آدم " عليه السلام " ، إلى محمد " ﷺ " ، تناسب الفطرة البشرية ، وتنسم بالصدق ، والحق ، والواقعية .

ولو كان الإنسان واحداً ، والواقع البشرى ثابتاً ، لجاء للناس رسول واحد ، صالح للناس أجمعين .

^(١) سورة الشورى الآية (١٣) .

^(٢) سورة آل عمران الآية (١٩) .

^(٣) سورة آل عمران الآيات (٨٤ ، ٨٥) .

لكن الإنسان ليس واحداً ، وإنما هو متعدد الترععات ، متنوع الفكر ، يتأثر واقعته دائماً بعوامل جغرافية ، وبيئية ، واقتصادية ، وثقافية ، واجتماعية .. إلخ ولذلك قضى الله بحكمته أن يبعث رسولاً لكل أمة يبلغها بالعقيدة الدينية الواحدة ، وبأسلوب يتلاءم معها ، ويمنهج يقرها من دعوته ، مع تكليف الناس بأعمال ، وتطبيقات ، تظهر حياتهم ، وتقوى عقيدتهم ، وتساعد في القضاء على مواريث الجهل والضلال ، وبناء الحياة على الحق والصواب .

وقد رأينا في الكتاب الأول الخاص بدعوة الرسل " عليهم السلام " أن كل رسول دعا قومه بمنهج خاص ، وبطريقة خاصة ، مع اتحادهم في العقيدة الواحدة . ورأينا — كذلك — أن كل رسول بعث لقوم معينين سواء تابعوا زمنياً ، أو بعثوا في وقت واحد كإبراهيم ولوط " عليهما السلام " .

ورأينا — أيضاً — أن كل رسالة كانت تراعى أحوال المدعويين ، وتلاحظ مستواهم العقلي ، والحضاري في التوجه ، والمناقشة .

إن هذا الموكب الطويل من الرسل جاءوا للناس بصورة واحدة للاعتقاد الصحيح ، القائم على التوحيد الخالص ، التوحيد المطلق ، الناصع ، القاطع ، توحيد الألوهية التي يجب أن يتوجه إليها البشر جميعاً ، كما يتوجه إليها سائر الخلائق بالتسليم والخضوع ، والعبودية .

إن هذا التوحيد يعني أن القوامة المطلقة لله لازمة على خلقه جميعاً ، فلا يقوم شيء إلا لله ، ولا سيادة على الخلق إلا من الله ، ومن ثم فإن الاستسلام كله من البشر يجب أن يكون لله ، صاحب الحول والطول ، ورب العالمين .

وقد علم الله رسله أن يتلاءم كل منهم مع واقعته في الشريعة ، وإن اختلفت عن الشرائع الأخرى ، يقول تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾^(١)

وقد رأينا لكل رسول شريعته ، المناسبة لقومه ، فيها الحلال ، وفيها الحرام ،
وفيها التكاليف العملية المتنوعة ، وهي مع اختلافها مع كل رسول فهي منزلة من الله
، ولذلك اتسقت مع العقيدة الربانية الواحدة ، التي تلزم المعتقد بضرورة التلقى من
الله الواحد ، والتحاكم إلى الوحي المنزل ، والأخذ من توجيهات النبي المبعوث ،
وبذلك يتحد الضمير الخفى مع الواقع العملى ، ويعيش الناس ، كل الناس مع رسلهم
مؤمنين مخلصين ، مطيعين لله رب العالمين .

وكما اختلف الرسل فى الشريعة اختلفوا كذلك فى المنهج، والأسلوب
ليتحقق المراد من الدعوة، يقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ
لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

إن طريقة التوجه لقوم ما لا تتناسب مع التوجه لغيرهم، لما بين الفريقين من
اختلاف ، وتنوع ، وتلك دروس مستفادة من تاريخ دعوة رسل الله تعالى .
وقبيل بعثة محمد " ﷺ " ، أقرب الناس فكراً ، وترقت عقولهم حتى وصلت
إلى التصور المجرد ، والقدرة على مناقشة الدليل ، إلا أنهم مع ذلك كانوا مختلفين واقعاً
وسلوفاً ، وعقيدة .

ووسط هذا الحال بعث محمد " ﷺ " رسولاً للعالم كله ، بالعقيدة الإلهية
الواحدة ، والشريعة الملائمة للناس أجمعين ، والصالحة للتطبيق فى كل زمان ، ومكان
إن الواقع البشرى يلتقى مع العقيدة الإلهية لأنها نفس العقيدة التى نادى بها
جميع الرسل ، وخطب بها سائر الأقوام ، وآمن بها الكثيرون فيما مضى من الزمان .
ورسالة محمد " ﷺ " هى خاتمة الرسالات فلا دين بعده ، ولا رسول بعده
ولذلك جاء الإسلام بعقيدته ، وشريعته ، صالحاً لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة .
وحتى تلتقى الشريعة الإسلامية الواحدة مع جميع الناس ، وعلى امتداد الزمن

جعلها الله على نوعين : —

النوع الأول : ما يتصل بالعبادات المشروعة، والأعمال التامة، والأحكام

الثابتة ، وهذه فصلها الإسلام تفصيلاً ، لا يقبل تغييراً أو تبديلاً ، وقد شرعها الله بهذه الدقة ، والدوام لتنظيم حياة الناس جميعاً إلى يوم القيامة ، وهي المعروفة بالثوابت في الإسلام ، كالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، وأحكام النكاح ، والطلاق ، والميراث ... وهكذا .

النوع الثاني : وهو ما يتصل بالأعمال التي تختلف من مكان إلى مكان

وتتغير من زمن لزمن آخر ، ومن جماعة لغيرها كصورة الشورى ، ومناهج العمل اليومي ، والطبائع المرتبطة بالعادات والتقاليد، ومع هذا النوع كان وضع القواعد العامة المنضبطة بالأصول الشرعية، لتكون إطاراً للمتغيرات، تأخذ الحكم منها بواسطة اجتهاد علماء الإسلام ... ومن أمثلة ذلك القوة فهي تختلف نوعاً ، وصورة ، فهناك القوة الخلقية، وهناك القوة الإيمانية، وهناك القوة العلمية وهناك القوة العسكرية ، من سيف ، ورمح ، ومدفع ، وصاروخ ، وطائرة ... إلخ .. وأمام هذا التنوع للقوة يضع الله تعالى مبدأ كلياً حيث يقول تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ ^(١) وعلى مثال ذلك وضعت المبادئ الكلية للمتغيرات العملية .

وهكذا ملكت الشريعة القدرة على الالتقاء مع الناس جميعاً ، وهي تنظم لهم كافة جوانب الحياة مع اختلافهم وتنوعهم .

والعالم كله لا يجتمع على منهج واحد ، ولذلك احتاجت الرسالة المحمدية إلى عديد من المناهج لتتوجه إلى الناس ، أينما كانوا ، وكيفما كانوا ، وبخاصة أنها

^(١) سورة الأنفال الآية (٦٠) .

تمتد إلى آخر الزمان ، وتشمل العالم كله ، ولم يكن المطلب عسيراً أبداً ، فقد قص الله تاريخ الأنبياء ، وسجل حركة الدعوة الإسلامية من خلال الوحي المنزل على محمد " ﷺ " ليقدّم العديد من المناهج ، والوسائل ، للقائمين بأمر الدعوة إلى الله تعالى .

إنّ مناهج الرسل تعد طرقاً عملية ، تطبيقية للدعوة ، تحتاج إلى من يفهمها ويطبقها في حركة الدعوة للناس .

ولم يبق تعدد اللغات ، واللهجات عائفاً أمام الدعوة ، بعدما هبّ الله من المسلمين دعاة يتقنون كافة اللغات ، ويعرفون الجوانب النفسية ، والفكرية التي تساعد في نجاح الدعوة .

وهكذا ..

جاء الإسلام للناس صالحاً لكل زمان ومكان ..

ومحمد " ﷺ " هو الرسول المختار لتبليغ دعوة الإسلام للناس ، ولذلك أنزل الله عليه القرآن الكريم محكماً ، مفصلاً ، قيماً ، مهيمناً ، لا عوج فيه ، ولا ريب . وقد استمرت البعثة المحمدية ثلاثاً وعشرين سنة ، أقام خلالها رسول الله " ﷺ " في مكة ثلاث عشرة سنة ، والمدة الباقية عاشها في المدينة المنورة بحجرته " ﷺ " إليها .

في مدة البعثة نزل وحي الله للناس ، وكمل الدين ، وتمت النعمة ، وأصبح الإسلام دين البشرية جميعاً ، في كافة أرجاء الأرض ، وعلى طول الزمن إلى يوم القيامة .

وقد هبّ الله محمداً " ﷺ " للدعوة، وصنعه للرسالة ، وأمدّه بكل ما يحتاجه لتصل الدعوة إلى الناس على وجه صحيح ، واضح ، قطعاً للأعذار ، ﴿لَعَلَّأ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ .

وقد ترك الرسول ﷺ " لأمته رصيذاً هائلاً ، يمكنهم من نشر الدين ، وتبليغه إلى العالم ، والتعامل مع كل إنسان بواقعه ولغته ، لأن هذا الرصيد كما يقدم موضوعه يقدم معه الأسلوب الأمثل ، والطريق السديد .

وقد أعانني الله تعالى فكتبت في تاريخ دعوة الرسل " عليهم السلام " وفيه حاولت إبراز منهجهم في الحركة بالدعوة ، وتوضيح أهم الركائز المستفادة من تاريخهم ، من أجل أن تكون أسساً للدعاة إلى الله من بعدهم ، وإلى يوم القيامة . وأصبحت أمام الدعوة المحمدية لأكتب بعون الله فيها ، ورأيت ضرورة إتباع المنهج الذي أتبعته مع تاريخ الرسل حيث الأسس التالية : —

أولاً : التعريف بقوم الرسول ، من ناحية موطنهم ، وحضارتهم ، وأديانهم ومستواهم الفكري ، لأن هذا يساعد على اكتشاف الجوانب الفنية التي واجه بها الرسول قومه ، منهجاً ، وأسلوباً ، وحتى يتمكن دعاة العصر من الاستفادة بهذه الناحية ، كاختيار الموضوع المناسب ، والطريقة اللائقة ، والأسلوب المفيد ... وهكذا

ثانياً : التعريف بالرسول نفسه من ناحية أصله ، ونشأته ، ورحلاته ، وكافة المؤثرات في شخصيته ، وصفاته ، وكلها عوامل تحتاج في تكوين الدعاة ، لأنه " ﷺ " قائدهم ورائدهم ، يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ ﴾ ^(١)

ثالثاً : تتبع حركة الرسول بالدعوة ، وإبراز كيفية مواجهته للناس على اختلافهم ، فمنهم الملائ ، ومنهم الضعفاء ، ومنهم السادة ، ومنهم العبيد ، وبذلك دعا الرسول قومه جميعاً ، ووصل إلى عقولهم ، وناقش حججهم ، وهدم ضلالهم ، وبذلك ظهرت منهجية الدعوة ، والطريقة المثلى للحركة كما مع الطوائف المختلفة وأصحاب المذاهب ، والمثلل المخرفة .

^(١) سورة الأحزاب الآية (٢١) .

رابعاً : استنباط أهم الركائز المستفادة من دعوة الرسول " ﷺ " لتكون

ركيزة يستفاد بها في الدعوة إلى الله تعالى .

خامساً : المحافظة مع الأسس المذكورة على ذكر الوقائع ورواية الأخبار

وتصحيح الخطأ للمحافظة على التاريخ ، وأحداثه ، وبخاصة أنه تاريخ الدعوة .

إن إتباع هذا المنهج مع الدعوة الإسلامية دفعني إلى عدة أمور : —

الأمر الأول : التعريف بأهم العالم كله ، فإليها جاء الإسلام، ومن أجلها

بعث محمد " ﷺ " ، يقول تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ

لِّلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ (١) ، ويقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

لِّلْعَالَمِينَ ۝ (٢) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا

وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ (٣) ، ويقول سبحانه قال تعالى :

﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ

لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۝ (٤) ، ويقول النبي " ﷺ " : (كان كل نبي يبعث لقومه

خاصة وبعثت إلى الناس كافة) (٥) ..

ويقول الرسول " ﷺ " : (إني رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة) (٦)

.. وهذا التعريف بالعالم له أهميته ، لأنه يعرف بمدى حاجة العالم إلى الدعوة ، ويبين

الحكمة في تنوع المناهج ، والطرق ، والأساليب ، التي وجه الله رسوله " ﷺ " إلى

(١) سورة الفرقان الآية (١) .

(٢) سورة الأنبياء الآية (١٠٧) .

(٣) سورة سبأ الآية (٢٨) .

(٤) سورة الأنعام الآية (١٩) .

(٥) صحيح البخاري — كتاب التهمم ج ١ ص ٤٣٦ بشرح فتح الباري .

(٦) المرجع السابق — كتاب التفسير — باب سورة المسد ج ٨ ص ٧٣٧ .

استخدامها في مجال الدعوة ، ويشير إلى السر في تكليف الرسول أصحابه بحمل الدعوة في حياته ، وتحملهم مسئولية التبليغ من بعده إلى أن تقوم الساعة .

الأمر الثاني : في قضية التعريف بالرسول وحدث نفسي أمام السيرة

النبوية ولاحظت أن مرحلة ما قبل البعثة حيث التنشئة ، والتربية ، والتكوين الشخصي لرسول الله " ﷺ " لها ارتباط وثيق بالبيئة والواقع ، ولذا كان الاهتمام بدراستها ، لما لها من تأثير في التربية الإسلامية ، وإظهار قيمة الحق ، والصواب ، ومكارم الأخلاق الذي عاشه رسول الله " ﷺ " وسط واقع ملئ بالفساد ، والضلال إن مرحلة ما قبل البعثة المحمدية تعد دراسة للسيرة ، ولها صلة مباشرة في التعريف بالرسول " ﷺ " ، ومن الممكن الاستفادة بأحداث هذه المرحلة وأثرها في نشأة رسول الله " ﷺ " في اختيار الدعوة ، وتربيتهم ، وتكوين شخصياتهم النفسية ، والاجتماعية ، والخلقية ، والقيادية ، ليتمكنوا من حمل الدعوة ، وتبليغ الإسلام على الوجه المطلوب .

أما مرحلة ما بعد البعثة ، فقد لاحظت أن تاريخ السيرة تاريخ الدعوة متداخلاً بحيث يصعب الفصل بينهما ، فقد كانت حياة الرسول " ﷺ " خلالها حركة دائمة للدعوة ، حيث عد نومه " ﷺ " ، ومشيه ، وصمته ، وحياته في بيته ، ومع الناس جزءاً من حركته " ﷺ " بالدعوة ، وقد اعتبرها المسلمون ركائز يأخذون منها ، ويستفيدون من توجيهاتها ، وإيحاءاتها .

وتبعاً لهذه الحقيقة سأعيش مع السيرة النبوية في مرحلة ما قبل البعثة ، وأدرسها دراسة تفصيلية ، وأخذ منها الركائز التربوية في مجال التكوين ، والتنشئة .

أما مرحلة ما بعد البعثة فسأوردها بمحملة ، مع التركيز على الأحداث المتصلة بشخصية محمد الرسول " ﷺ " تاركاً تفصيل الجانب الحركي لمبحث حركة الرسول بالدعوة ، مع أن هذه الحركة جزء من شخصيته " ﷺ " العملية ، وإظهار لرسائله

مع الناس .

الأمر الثالث : سأحاول مستعيناً بتوفيق الله تعالى إبراز الركائز التي فيها

فائدة للدعوة والدعاة ، متصلة بكل دراسة سواء كانت الدراسة للواقع البشري ، أو في السيرة قبل البعثة ، أو الحركة بالدعوة بعد البعثة على أن تكون هذه الركائز في فصل مستقل يجمعها جميعاً .. وبذلك التزم نفس المنهج الذي اتبعته مع تاريخ رسل الله تعالى .

ونظراً لطول دراسة تاريخ الدعوة خلال البعثة المحمدية فقد قسمتها إلى قسمين :

القسم الأول : ويشمل دراسة المرحلة المكية قبل الهجرة ، بحيث يتكون منه

الكتاب الثاني من سلسلة تاريخ الدعوة .

القسم الثاني : ويشمل دراسة المرحلة المدنية الذي ستصدر بإذن الله

تعالى في كتاب مستقل ، يمثل الكتاب الثالث في سلسلة تاريخ الدعوة .

وسيتضمن تاريخ المرحلة المكية بعون الله تعالى النقاط التالية تبعاً للمنهج

الذي رجوته في دراستي لتاريخ الدعوة ، وهي كما يلي : —

الأولى : التعريف بالعالم قبيل ظهور الإسلام ويشمل دراسة أوضاع أقاليم

العالم المختلفة ، لأن موطن الدعوة الإسلامية هو العالم كله .

الثانية : التعريف بالرسول ﷺ " من الميلاد إلى الهجرة .

الثالثة : الحركة بالدعوة في مرحلة ما قبل الهجرة .

الرابعة : إبراز الركائز المستفادة من سيرة الرسول ﷺ " وحركته

بالدعوة ، وبخاصة ما لها صلة بالدعوة والدعاة في العصر الحديث .

وسوف أورد كل نقطة من هذه النقاط في فصل مستقل ، لما لكل منها من دراسة

مطولة ، وعمق علمي ، وفوائد عديدة .

وهذا التقسيم أكتب في السيرة، وهو الأمل الذي كنت أتمناه ، كما أكتب في تاريخ الدعوة الذي أرجو له أن يصير علماً ، شامخاً بين سائر العلوم الإسلامية ، وأكتب للدعاة الذين هم أمل الأمة في النهوض ، والتقدم ، ولسوف أستفيد من سائر العلوم الإنسانية والدينية ، لأن الدعوة في الحقيقة هي غاية كل العلوم ، والحركة بها تحتاج لدراسات عديدة .

إن الدعوة إلى الله تعالى من أهم علوم الإسلام في أى جانب من جوانبها ، ويكفى شهادة على ذلك موقف القرآن الكريم معها ، فهو الذي حدد موضوعها ، ورسم مناهجها ، وقص تاريخها ، وأنزل العديد من أساليبها ، ووسائلها .. ومن المعلوم أن كل العلوم الإسلامية نشأت لخدمة القرآن الكريم ، وخدمة أهدافه والدعوة هي هدفه الأول ، وغايته الأساسية ... وأملى في الله ، ودعائى له أن يهيئ العلماء المخلصين ، ويسر لهم العمل لإبراز علوم الدعوة ، متميزة بموضوعها ومنهجها ، وغايتها ، وشرفها ، ليتلمذ بها ومعها ، وعليها ، المؤمنون المخلصون

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۖ ﴾^(١)

ويقول سبحانه : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ۝ قِيمًا لِّنُذِرٍ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ۝ مَّكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۖ ۝ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ ۝ ﴾^(٢) ويقول سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۖ ۝ ﴾^(٣)

فالقرآن الكريم هو كتاب الدعوة ، ولا جديد في الدعوة بعد القرآن الكريم ، اللهم إلا اجتهادات عقلية في مجال التطبيق ، والملاءمة بين القضية والواقع في إطار

(١) سورة الأنعام الآية (١٩) .

(٢) سورة الكهف الآيات (١ - ٤) .

(٣) سورة الفرقان الآية (١) .

مفهوم القرآن الكريم .

والرسول ﷺ ، بعث للدعوة ، فهي مسئولية ، ووظيفته ، يقول الله تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْغُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾

وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾ ^(١) ، ويقول

سبحانه: ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٧٨﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ،

وَسِرَاحًا مُبِيرًا ﴿٧٩﴾ وَكَثِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ هُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٨٠﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ

وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذْلَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ^(٢) ، ويقول

سبحانه: ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْغُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ

رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٢﴾ ^(٣)

هذا التزاوج الواضح بين القرآن الكريم وبين رسول الله ﷺ " مع الدعوة ،

وكذا الصلة الوثيقة بينهما ، فالقرآن الكريم دعوة تعليمية ، توجيهية ، ورسول الله "

ﷺ " دعوة تطبيقية عملية ، وهذا التلاقى تحققت المثالية الإسلامية في مجال الواقع

والتقت الفطرة البشرية مع الوحي الإلهي العظيم ، وتجسدت في رسول الله ﷺ "

الذي جعل القرآن تطبيقاً عملياً في خلقه ، وسلوكه .

يروى مسلم بسنده عن سعد بن هشام قال : (قلت لعائشة " رضي الله

عنها " : يا أم المؤمنين أنبئني عن خلق رسول الله ﷺ " .

قالت : ألسنت تقرأ القرآن ؟

قلت : بلى .

^(١) سورة المائدة الآية (٦٧) .

^(٢) سورة الأحزاب الآيات (٤٥ — ٤٨) .

^(٣) سورة المائدة الآية (٦٧) .

قالت : فإن خلق نبي الله ﷺ " كان القرآن " (١) .

ومن هنا تكون السيرة إبرازاً لشخصية الرسول ﷺ في خصائصها وكمالاتها، ويكون تاريخ الدعوة إظهاراً لجهاد الرسول ﷺ، وتحمل مشاق الدعوة وهو يتحرك بها مع الناس .

ولي قصة مع السيرة أحب أن أذكرها هنا :

فلقد كان شيخاي اللذان حفظت القرآن الكريم على يديهما وهما الشيخ/عيسى أحمد طه، والشيخ / إبراهيم ويح^(٢)، يحكيان لي ولزملائي تتفاً عن رسول الله ﷺ حين نقرأ على أحدهما سورة من السور التي تتحدث عن رسول الله مثل سورة " الضحى " و " الانشراح " و " الفيل " وكان الشيخ يشرح لنا خواطره بأسلوب مبسط، مما حببني في السيرة منذ الصغر، حيث كنت مع زملائي الصغار، نتداول كلام الشيخ، ونسعد معه بحب رسول الله ﷺ ونتمثله بحركة معجبين بها . ولما انتسبت للأزهر الشريف ، ودخلت المرحلة الابتدائية على النظام القديم^(٣) ، صارت السيرة مقررأ دراسياً ، يعيش تاريخ رسول الله ﷺ ، من

(١) فيض القدير ج ٥ ص ١٧٠ .

(٢) ولد الشيخ عيسى أحمد طه ونشأ بقرية " منية مسير " من أعمال محافظة كفر الشيخ ، وأسس كتاب القرية ، واهتم به مع زميل له هو الشيخ / إبراهيم ويح " عليهما رحمة الله " ، وقد بارك الله في عملهما ، وتخرج من هذا الكتاب علماء أفذاذ ، وظهر جيل من علماء القرية يدين هما بالفضل ، ويكفي أن قرية ريفية صغيرة هي قرية " منية مسير " تخرج من أبنائها أكثر من ثلاثين أستاذاً بجامعة الأزهر يدينون لكتاب القرية بالفضل ، ومن الراضح أن أبناء هذه القرية قد بارك الله لهم وحبب أبناءهم في العلم والتعلم .

(٣) كان النظام القديم في الأزهر يقصر الدراسة قبل الجامعة على مرحلتين ، المرحلة الابتدائية ومدتها أربع سنوات ، والمرحلة الثانوية ومدتها خمس سنوات ، على أن يكون التحاق الطالب بالمرحلة الابتدائية بعد امتحان للقبول في مستوى نهاية التعليم الأساسي ، وحفظ القرآن الكريم

مولده، إلى لقائه ربه ، ونالت مقررات السيرة إهتمامى ، إذ كنت أحفظها مع بداية الدراسة ، وأذكر أن بعض زملائى كان يشيد بذلك عند الأساتذة .

ولما بدأت فى دراسة المرحلة الثانوية القديمة ، لاحظت أننا فى الدراسة كلها نعيش مع رسول الله " ﷺ " .

فالتفسير بيان لوحى الله إلى الرسول " ﷺ " .

والحديث شرح لأقوال رسول الله وأفعاله " ﷺ " .

والفقه أحكام مأخوذة عن رسول الله " ﷺ " .

وعلوم اللغة تدور كلها حول القرآن لمعرفة معانيه ، وبيان إعجازة، وإظهار

سمو الوحي إلى رسول الله " ﷺ " .

وأذكر أن مدرس الخط كان يورد الآيات، والأحاديث، ويكلفنا

بكتاباتها (رحمه الله) ويشرح لنا معناها ، وما يستفاد بها ، وبذلك عملت

المقررات كلها فى بناء الصورة الإسلامية ، وكان الأساتذة خير من يتفاعلون مع

أهداف هذه المناهج ، وتحويلها إلى عنصر يتفاعل معه الطالب الأزهرى فى النظام

القديم .

ومن هنا لم تعد السيرة مجرد تاريخ ، وإنما صارت الدين كله ، مما رغبتى فى

أن أكتب فيها منذ صغرى، وأذكر هنا أنى كتبت عن محمد اليتيم ، وعن غزوة أحد ،

وغزوة الحديبية .. وغير ذلك وأنا فى المرحلة الثانوية .

وكلما تقدم بى السن كبر معى الأمل ، وأخذت أتصور نفسى أمام مؤلف

ضخم عن رسول الله " ﷺ " ، أتناول فيه كافة جوانب شخصيته " ﷺ " .. فأخذت

أقرأ ، وأطلع ...

ومع القراءة ، وعمق النظرة ، وتكشف الحقيقة ، أخذت أستشعر ضالة همتى

أمام هامة المصطفى " ﷺ " ، وبان لى أنى كنت فى أمنية حائلة، صعبة المنال ، لكنى لم

أفقد الرغبة ، ولم يملكنى اليأس والقنوط ، عشت مع أمنيى راجياً مؤملاً فى توفيق الله

أن يسدد الخطي ، ويسر الصعب ، ويقرب البعيد والله على كل شيء قدير .
وزاد من تباعد الأمنية بروز المؤلفات الضخمة ، العديدة ، حول شخصية
المصطفى " ﷺ " متناولة أهم جوانب العظمة في السيرة النبوية ، حتى خيل إلى أن هذه
المؤلفات لم تترك لي ولمن يأتي بعدى مجالاً نبرزه في حياة رسول الله " ﷺ " .

وحدثت الله ، ولجأت للسكوت الهادئ ، واكتفيت بالقراءة ، والتعلم ،
وقلت لنفسي : لأكن متعلماً ما دمت قد عجزت عن أن أكون عالماً معلماً .

ولم يطل بي الحال إذ وقع أمر قدرى أعاد لي الأمل مرة أخرى ، حين حدث
حوار علمي ، حول ماهية الفروق بين السيرة النبوية ، وبين تاريخ الإسلام في عصر
النبي " ﷺ " ، أو بين فقه السيرة النبوية ، وبين الدعوة في عصر النبوة ، ووجدت
نفسى في خضم المناقشة أؤكد أن السيرة النبوية : لا بد معها من فقه يعيش مع الحدث
ويأخذ العبرة حتى لا تروى السيرة في صورة جامدة ، خامدة ، لا تليق برسول الله " ﷺ "
الذى أفنى حياته في خدمة الإسلام ، وتبليغ الدعوة ، والدفاع عن دين الله تعالى ،
وتلك كانت مهمته ، يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا
عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (١) .

إن السيرة النبوية إذا درست مع التحليل ، واستباط العبر ، فإنها تعد تاريخاً
للدعوة في عصر رسول الله " ﷺ " .

وفي زيارة لمسجد رسول الله " ﷺ " وقفت أمام قبره " ﷺ " ، وجاشت الخواطر
في ضميري ، ودارت تصوراتي دورة سريعة حول حياة وجهاد المصطفى " ﷺ "
، وقلت لنفسي : إني أقف أمام محرك البشرية كلها ، وأرى الآن التاريخ مجسداً في
قوته النابضة ، وألفت ضميري يلتصق بعالم اللاشعور الخفي ، متنقلاً بين روابي
مكة ، وبادية بني سعد ، وفي غار حراء ، وثور .. وعند بدر ، وأحد ،

والأحزاب ، وتبوك ، وأخذت أتصور المسلمين مع رسول الله " ﷺ " وهم يواجهون الطواغيت وهم يعملون للقضاء على الإسلام ، وتضليل المسلمين .

وسرح خاطري بعد ذلك إلى واقع المسلمين المعاصر ، ورأيت ما فيه من تباعد عن المجتمع الإسلامي الذي رباه محمد " ﷺ " ، وقلت متسائلاً :

— لم كل هذا التباعد الذي ألحقه المسلمون بأنفسهم ؟ !

— وما أسباب هذا التباعد ؟ !

— وهل من عودة مرة أخرى إلى حيوية الإسلام، وعظمة الحياة فيه ؟ !

— ألم يتأكد المسلمون من فشل كافة السبل اللا إسلامية ؟

— وهل يتصور المسلمون نصرهم في غير الإسلام، وهم مسلمون ؟ !

— وهل يضع مجد الإسلام غير المسلمين ؟ !

— ماهي العراقيل ؟ وكيف نتغلب عليها ؟ !

— ومن للإسلام في عالم اليوم ؟ !

وهكذا :

عشت الإسلام كله، ونظرت أمامي إلى قبر حبيبي، وسيدى المصطفى " ﷺ "

ودعوت الله أن يجزيه عن الإسلام والمسلمين الجزاء الأوفى .

وعشت مع المسلمين ودعوت لهم بالفوز والفلاح ..

في هذه اللحظات عشت السيرة كلها ، بأحداثها ، وحركاتها ، وقيمتها ،

وقيمتها .. وتأكدت أن أملي القديم ضرورة نفسية تسرى ، وتسعدني .

وهو في الوقت نفسه ضرورة إيمانية ، لأن العصر الأول — سيرة ودعوة —

هو منهج الإسلام وعبرة التاريخ للمؤمنين ..

كما أنه ضرورة اجتماعية يحتاجها الناس في وقت تتنازع فيه المذاهب ،

وتكثر المعارضات، وتشند الحاجة إلى العلم والمعرفة بالإسلام ، لأن به وحدة النصر ،

والفوز ، والفلاح .

إن عرض السيرة بصورة حركية ، ومنهجية فنية ضرورة ليعيش الناس السيرة ، ويحيوا بها ، ويعيدوا الإسلام للحياة كما حققه النبي ﷺ للناس .

وزاد إقتناعي بهذا التصور بعد أن اطلعت على مناهج أقسام ، وكليات الدعوة في الجامعات التي قمت بالتدريس فيها ^(١) ورأيت أنها تهم بدراسة تاريخ الدعوة ، وتخص عصر النبوة بالدراسة الموسعة ، وشرفني الله تعالى فقمت بتدريس مقررات تاريخ الدعوة ، لسنوات عديدة في جامعات مختلفة الأمر الذي أحيا الأمل القديم مرة أخرى في أن أكتب عن رسول الله ﷺ من هذه الزاوية المنهجية ، وبذلك أكتب سيرة رسول الله ﷺ ، وأؤرخ للدعوة في عصره ﷺ ، وأقدم للدعوة والدعاة الفوائد والعبر المأخوذة من السيرة النبوية ، وتاريخ عصر النبوة ، وأوضح منهج التقدم للمجتمع كله .

إن سيرة الرسول ﷺ غنية بالأحداث ، مليئة بالوقائع ، متنوعة في العطاء رائدة في التربية والتوجيه ، وعلى دارسها أن يوسع اهتمامه ليشمل جوانبها جميعاً ، من شخصية ، وسياسية ، ودعوية ، واجتماعية ... إلخ .

وسأحاول بإذن الله تعالى أن أكتب في الجوانب كلها إيفاء لحق السيرة النبوية وإبرازاً للدعوة في إطار السيرة الكاملة ..

وسوف أعمل على إبراد الحقائق المدعمة بالدليل ، الخالية من المبالغة ، أو التهويل ... ولن أقف موقف الدفاع أمام أكاذيب أعداء الإسلام ، وسأترك الحقيقة التاريخية تعلو بصدقها ، وأحققتها ، فليس أقوى من الحق نصراً للحقيقة في مجال المنازعة العلمية ، وفي كل مجال .

ولن أجرى وراء المبالغة والتهويل في ذكر الحوادث ، والوقائع ، حتى لا أتعارض مع مسلمات العقل ، وأكون كالدبة التي قتلت صاحبها ، وهي تحبه .

^(١) قام المؤلف بتدريس مقررات تاريخ الدعوة في قسم الدعوة بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر ، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، وجامعة الملك سعود بالرياض ، وفي كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر بالقاهرة .

لقد كان " ﷺ " في حركته بالدعوة واقعياً ، ربي أصحابه على الصبر ، وتحمل المشاق ، وتحمل " ﷺ " من أذى أعدائه ما لا يتصوره عاقل ، وبذلك بين أمته على الإيمان بسنن الله في الحياة والأحياء ، وأبعدها عن الجري وراء الخيال والأوهام . إن الحقيقة يجب أن تعرض في ثوب يليق بها ، ثوب خال من المبالغة ، والتهويل بعيد عن الإخفاء ، والصمت ، لأن كل ذلك يبعدها عن صورتها المستقيمة .

والسيرة النبوية هي شخصية رسول الله " ﷺ " الحقيقية ، وتاريخ الدعوة هو الحركة الحقيقية بدين الله تعالى وتبليغه للناس .

وهاتان القضيتان — السيرة وتاريخ الدعوة — من أمهات الحقائق التي يجب أن يعيشها الناس ، بعقل مفتوح ، وتأمل دقيق ، وتفهم واع ، من أجل أن تظهر فترة الدعوة المكية والمدنية — كما كانت — بنبضها الحي ، وقوتها المتدفقة .

ومن أفضل السبل لعرض حقائق السيرة والدعوة أن نأخذ من المؤرخين القدامى والمحدثين ما يفيد ، فمن القدامى نأخذ حشد الآثار ، ونمحيص الأسانيد ، وحقائق الوقائع والأحداث ، .. ونأخذ من المحدثين التفحص ، والتحليل ، والموازنة ، واستنباط الدروس ، والعبر .

وبذلك نعرض أحداث السيرة ، ووقائع الدعوة بوسطية حية ، محبة ، يتأسى بها ، من كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً .

إنني أكتب في السيرة كمؤمن محب لصاحب السيرة ، سيدى محمد " ﷺ " تدفعه عواطفه المحبة إلى مواصلة المديح ، والإشادة ، ويدفعه إيمانه إلى التزام الدقة والصدق ، الذى دعا إليها رسول الله " ﷺ " ، والحمد لله أن رواية الصدق لا تظهر إلا عظمة رسول الله " ﷺ " .

وأكتب في الدعوة كذلك كعالم شرفه الله بالتخصص في علوم الدعوة ، وقدر الله تعالى بفضله ، ومنته ، على العمل لها ، ولذلك فإنى أود أن آخذ من السيرة الدروس المفيدة للدعوة والدعاة ، وأحب الدعاة في أن يعيشوا مع السيرة فهماً ، واستفادة ، وعملاً .

وليس من اللائق أن يبقى رسول الله ﷺ " بين الكتب حبيساً ، أو في ثنايا الألسنة ذكراً فقط ، وإنما الواجب أن يصير عملاً وسلوكاً ، وقدوة ، لتحيا الأمة مرة أخرى ، ويعيش الإسلام حاضره العظيم .

لقد عاش أصحاب النبي ﷺ " حياة رسول الله ﷺ " وتمثلوها في نومهم ، ويقظتهم ، وحركتهم ، وسكوتهم .. وهو الأمل الذي أرجوه لنفسي ، وللمسلمين أجمعين ، ولذلك جعلت دراستي للسيرة والدعوة في إطار واحد .

وبذلك أكون قد سلكت منهجاً وسطاً ، لا إفراط فيه ، ولا تفريط ، لتحقيق الفائدة ، ويبدو الإسلام بواقعيته وشموعه .

وهذه الوسطية المنهجية أشعر أني مع الحق والصواب ، أورده بدليله الصحيح بعيداً عن الشطط الذي لا أرتضيه ، سواء كان مدحاً ، أو ذمناً .. وبذلك التزم مع السيرة والدعوة بالصدق والأمانة ، واضعاً أمام عيني قول النبي ﷺ " : (من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) (١) .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقني في مقصدي ، ويبارك لي فيه ، ويجعله ذخراً لي في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ...

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

مدينة نصر ١١ / ٣ / ١٤٢٤ هـ

١٢ / ٥ / ٢٠٠٣ م

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري — كتاب العلم — باب إثم من كذب على النبي ﷺ " ج ١

الفصل الأول

الواقع العالمي قبيل مجئ الإسلام

(التعريف بأمة الدعوة)

ويشمل

المبحث الأول : " واقع العرب "

المبحث الثاني : " واقع الروم "

المبحث الثالث : " واقع الفرس "

المبحث الرابع : " واقع الهند "

المبحث الخامس : " ملائمة الواقع العالمي

للحركة بالإسلام "

تمهيد :

العالم هو أمة الدعوة ، فإليه بعث محمد ﷺ ، وأمر بتبليغ الإسلام إلى الناس أجمعين .

فمن أجاب ، ودخل في دين الله تعالى صار من أمة الإجابة ، التي عرفت الحق ، وآمنت به ، واستقامت على الصراط المستقيم .

والتعريف بهذا العالم ضرورة مهمة ، لأنه يبين واقعه ، وما ساد من انحراف وضلال ، ويظهر المناهج التي دعا بها الرسول ﷺ " الأمم كلها على اختلافهم ، وتنوعهم ، ويوضح طريقة المواجهة بين الإسلام ومعارضيه في هذا الزمان السحيق وبذلك تستفيد الدعوة ، يأخذ الدعاة الدروس ، والعبر ..

لقد انقسم العالم في هذا الزمان إلى أمم كبرى هي الفرس ، والروم ، والعرب والهنود وكان لكل منها وضعه ، ونظامه ، ودينه ، وانضوت بقية الأقاليم تحت سلطان إحدى هذه الأمم ، كولايات تابعة لها ، تعيش بنظمها ، وتمذهب بمذهبها .. وهكذا .

وفي هذا الفصل سأتناول هذه الأمم بالدراسة ، وأعرف بواقعها ، وأهم نظمها ، وأديانها ، وأخلاقها ، وسأعقد لكل أمة مبحثاً على أن أعقد مبحثاً آخراً أبين فيه مدى حاجة العالم يومذاك لحمل الإسلام ، وكيف تهيأت الظروف العالمية لاستقباله ، وبذلك سيكون هذا الفصل مكوناً من خمسة مباحث هي :

- **المبحث الأول :** " واقع العرب " .
- **المبحث الثاني :** " واقع الرومان " .
- **المبحث الثالث :** " واقع الفرس " .
- **المبحث الرابع :** " واقع الهنود " .
- **المبحث الخامس :** " ملائمة الواقع العالمي للحركة بالإسلام " .

وبذلك ينتهي الفصل بتوفيق الله تعالى ،،،،

المبحث الأول

" العرب "

١ .

جغرافية بلاد العرب

العرب هم أبناء إسماعيل " ~~الشيخ~~ " ، نشأوا في مكة أولاً ، وبعدها انتشروا في شبه جزيرة العرب ^(١) ، وهاجروا إلى البلدان المجاورة .

وتنقسم الجزيرة العربية إلى خمسة أقاليم تبعاً لجغرافية الأرض ، وطبيعة المكان ذلك أن جبل السراة بدأ من ثغر اليمن جنوباً ، وأمتد حتى بلغ أطراف الشام شمالاً ، فسمى بإقليم " الحجاز " لأنه يحجز إقليم " تهامة " الواقع في غربه على ساحل البحر الأحمر ، عن إقليم " نجد " الواقع شرقه .. وتسمى المنطقة الواقعة جنوب جبل السراة بإقليم " اليمن " ، والمنطقة الواقعة شرق نجد بإقليم " العروض " .

وهذه الأقاليم تتمايز عن بعضها على النحو التالي :

١ - تهامة : يشمل الأرض المنخفضة ، الساحلية ، المخاضية للبحر الأحمر بدءاً من ينبع في الشمال ، إلى نجران في جنوب السعودية ، وسميت تهامة بتهامة لشدة حرها ، وركود ريحها ، كما تسمى " الغور " لانخفاض أرضها بالنسبة لغيرها .

٢ - الحجاز : ويتكون من عدد من الوديان التي تتخلل جبال السراة ، الممتدة من الشام شمالاً إلى نجران جنوباً ، وسميت بالحجاز لأنها تحجز تهامة عن نجد ، وفي هذا الإقليم تقع مدينتا " مكة " ، " والمدينة " ، ويرتبط هذا الإقليم بالبحر الأحمر بعدة طرق عرضية كما يرتبط بسائر الجهات .

(١) يسمى العرب بلادهم بـ " جزيرة العرب " على سبيل التجوز ، لأن المياه تحيط بها من ثلاث جهات فقط هي : الشرق ، والجنوب ، والغرب ، ويحدها من الشمال بلاد الشام ، والعرب يدخلون في جزيرتهم برية سيناء ، وفلسطين ، وسوريا .

٣ - نجد : ويمتد من اليمن جنوباً ، وبادية السماوة والعروض والعراق شمالاً ،

والخليج العربي شرقاً ، والحجاز غرباً ، وسمى " نجد " لارتفاع أرضه .

٤ - اليمن : ويمتد من نجد شمالاً إلى المحيط الهندي جنوباً ، والبحر الأحمر غرباً إلى

حضرموت ، والشمر ، وعمار شرقاً ، وقد أقيم باليمن سد مأرب ، وقصر غمدان .

٥ - العروض : ويشمل اليمامة ، وعمان ، والبحرين ، والإمارات العربية ، وقطر

وسمى بـ " العروض " لاعتراضه بين اليمن ، ونجد ، والعراق .

وبلاد العرب صحراوية ، شحيحة المياه ، نادرة الزرع ، إلا في بعض المناطق

كالطائف ، واليمن ، ولذلك إتجه الناس إلى الرعى ، والتنقل ، والتجارة ، طلباً للرزق

والمعاش ، وساعدهم على ذلك تعدد الطرق الممهدة التي تربط الشمال بالجنوب ،

والشرق بالغرب ، بطرق ومسالك عديدة ، وكانت الجزيرة قبيل البعثة معبر

التجارات المختلفة الآتية : من وإلى الهند ، وروما ، والحبشة ، ومصر ، وغيرها .

وتعد مدينة " مكة " ، حاضرة الجزيرة العربية ، لوجود الحرم بها ، وقد حفظ

العرب لمكة حقها ، وصانوا حرمتها ، وتعارفوا على الأشهر الحرم ، لينتشر السلام في

الحرم ويحج الناس إليه آمنين .

وكان العرب على اختلاف قبائلهم ، وأديانهم يؤمنون بأن دعوة إبراهيم "

الطَّائِلُ" الواردة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا

وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ

قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَتُسْمِنُ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ 》 ^(١) قد استجيب ، حتى

صارت مكة ، التي دعا لها إبراهيم " الطَّائِلُ " بلداً ، يأمن فيه الخائف ، ويشبع الجائع ،

وتأتيها الثمرات من كل الآفاق ويخيب فيها الظالم ، ويهلك المعتدى ، وقد رأوا

^(١) سورة البقرة الآية (١٢٦) .

" أبرهة " يهلك أمامهم بجيشه ، وفيه ^(١) ، عندما جاء لهدم الكعبة ، وصرف الحجيج عنها إلى الـ " قليس " الذي بناه في اليمن ليقصده الناس بدل الكعبة .
وقد سمي العرب مكة بـ " ناسة " لأنها تطرد من يظلم فيها ، كما سموها " بكة " لأنها تبك أعناق الجابرة ^(٢) .

يقول جصاص بن عمرو بن الحارث لقومه الجراهمة : (لا تستخفوا بحق الحرم ، وحرمة البيت ، ولا تظلموا من دخله ، وجاء معظماً لحرمة ، أو آخر جاء بايعاً لسلعته ، أو راغباً في جواركم ، فإن فعلتم ذلك تخوفت أن تخرجوا منها خروج ذل وصغار) ^(٣) .

ومن أقوال سبيعة بنت الأحب بن عيلان توصي ولدها باحترام مكة ، وبأهمية تجنب الظلم في الحرم ، تقول :

أبني لا تظلم بمكـــــــــــــــــ	ة لا الصغير ولا الكبير
وأحفظ محارمها بــــــــــــــــ	ى ولا يغرنك الغرور
أبني من يظلم بمكــــــــــــــــ	ة يلق أطراف الشرور
أبني يضرب وجهــــــــــــــــ	ويلح بخديه السعير
أبني قد جربتــــــــــــــــها	فوجدت ظالمها يــــــــور
الله أمنها ومــــــــــــــــا	بيت بعرضتها قصــــــــور
والله آمن طيرهاــــــــــــــــا	والعصم تآمن في ثــــــــير
ولقد غزاها تبــــــــــــــــع	فكسا ببيتها الحبــــــــير
وأذل ربي ملكــــــــــــــــه	فيها فأوفى بالنــــــــذور
والفيل أهلك جيشــــــــــــــــه	يرمون فيها بالصخــــــــور

(١) أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ١١٣ .

(٢) سورة النحل لابن هشام ج ١ ص ١٢٦ .

(٣) غرقة خالد ج ١٧ .

فاسمع إذا حدثت وافهم ————— كيف عاقبة الأمور ^(١)

إن هذه المرأة العربية تشير في نصيحتها تلك إلى مقام مكة في ضمير أبنائها ،
والعرب جميعاً منذ القدم .
وقد أعتبر العرب مكة حاضرتهم ، ومقصدهم ، ولذلك سموها بأم القرى .
وقد ازدادت أهمية " مكة " بعد الإسلام بمبعث محمد " ﷺ " فيها ، وشرق
الإسلام من بين جنباتها ، وتوجه المسلمين في كافة أنحاء الكون إليها ، قاصدين الكعبة
في صلواتهم ، وحجهم .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٦ ، بيور : يهالك ، وشتر : اسم جبل بمكة ، بيتها : الكعبة .

٢٠

الأوضاع السياسية والاجتماعية

والأخلاقية عند العرب

اختلفت الأقاليم العربية في أنظمتها السياسية ، وأوضاعها الاجتماعية والأخلاقية .

ففي إقليم اليمن قامت مملكة " حمير الثانية " التي ضمت إلى سلطاتها مناطق كثيرة ، وكان ملكها يسمى بملك " سبأ ، وذى ريدان ، وحضرموت ، ومخانات ، وعربهم في الجبال ، وفي تهامة (١) .

وكان هذا الإقليم محل صراع ، وتنافس بين الفرس والروم ، خلال القرن السادس الميلادي ..

حكمهم " ذونواس " الحميري وكان يهودياً ، متعصباً ، حاول فرض يهوديته على أهل نجران النصراني ، فلما أبوا خذ لهم أخدوداً ، وأحرقهم بالنار ، وأعمل فيهم السيوف ، فاستجدوا بأميراطور الروم ، فأعانهم بجيش نصراني حبشي بقيادة " أبرهة " قوامه سبعون ألف جندي ، فقضى على دولة " حمير " الثانية (٢) وسار في اليمنيين بجبروته ، وطغيانه حتى ملوا من ظلمه ، وعدوانيته وبخاصة بعدما بنى " القليس " ليصرف العرب إليها ، ويهجرها الكعبة الموقودة بمكة ، فاستعان اليمنيون بالفرس الذين أسسوا دولة لهم بقيادة " وهرز " الفارسي ، وقد استمرت هذه الدولة حتى ظهور الإسلام .

وقد سار ملوك اليمن التابعين للفرس أو للروم ، على نظام سياسي واحد ، قائم على وراثة الحكم بين الأبناء والإخوة ، وكان يساعد الملك مجلس من شيوخ

(١) عصر ما قبل الإسلام ص ٧٩ .

(٢) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ج ١ ص ٣٦ .

القبائل ، يتولون شئون الأقاليم ، حيث يرأس كل قبيلة شيخها على أن يقدم الأموال التي يكلف بجمعها إلى حاكم اليمن .

وكان المجتمع في اليمن ينقسم إلى طبقات أربع هي : —

١ . **طبقة الجند** : وتتكون في أغلبها من جنود الفرس أو الروم .

٢ . **طبقة الفلاحين** : وهم الذين يقومون بالزراعة والرعى .

٣ . **طبقة الصناع** : وهؤلاء يقومون بالصناعات المطلوبة التي يحتاجها الناس .

٤ . **طبقة التجار** : وهم جماعات في المدن والقبائل كثيرو السفر والتنقل .

وقد أدى الثراء المادى في إقليم اليمن إلى تعاون الناس ، وإلى قيام حضارة مزدهرة ، وإلى بعدهم عن الشحناء والتحارب ، كما ساعدتهم على الحركة وركوب البحر ، والانتقال إلى أقاليم العالم المختلفة ، وكانوا دائماً حلقة وصل بين العرب وسائر الأمم في الشرق ، أو الغرب ، أو الشمال ، أو الجنوب ، وكان لهم نشاطهم الواسع مع أقاليم الجزيرة الغربية ، وقبيل ظهور الإسلام تأثر اليمنيون بحادثة محاولة أبرهة هدم الكعبة ، وبناء القليس ، وشعروا بأن هذا يتعارض مع مشاعرهم القومية ، ويتناقض مع توجه عرب الجزيرة جميعاً إلى الكعبة بيت الله تعالى الذى بناه إبراهيم وإسماعيل " عليهم السلام " .

وقد تبدلت أوضاعهم الاقتصادية بهدم سد مأرب ، بسبب بغيهم ، وظلمهم ، وإعراضهم عن الحق ، والصواب ، يقول الله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۚ وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٨﴾ ﴾ ^(١) وهكذا انقلبت أوضاعهم ، وعاشوا في اضطراب ، وضجر حتى جاء الإسلام .

^(١) سورة ميثا الآية (١٦ ، ١٧) .

وفي شمال الجزيرة العربية ، حيث قرب قبائلها من الفرس والروم ، تأسست مملكتان ، هما مملكة الحيرة في الشرق تابعة للفرس ، ويحكمها المناذرة ، ومملكة الغساسنة في الغرب تابعة للروم .

وقد اتخذ الفرس والروم هاتين المملكتين حائلاً بشرياً لكل منهما ، يتقن به هجوم الدولة الأخرى .

وقد تشبه ملوك العرب في كل دولة بأسيادهم ، وساند كلاً منهم جيش كبير مدعوم من الفرس أو من الروم .

وكثيراً ما قامت الحروب بين الغساسنة ، والمناذرة ، وبذلك تحقق للدول الكبرى ما أرادت ، حيث كان الصدام بين العرب والفرس ، ولم يقع صدام بين الفرس والروم بصورة مباشرة .

إلا أن هذا الحال أدى في الوقت نفسه إلى عدم العدوان على داخل الجزيرة العربية ، حيث لا مطمع لأحد من الفرس ، أو من الروم فيها ، لأنها بدت في نظرهم أماكن صحراوية ، متباعدة ، خالية من الخير والنفعة ، وتحتاج لجهد كبير من أجل السيطرة عليها .

وأما أقاليم نجد ، والعروض ، والحجاز ، وقهامة ، فقد عاشت حياة بدوية ، تعتمد على الرحلة ، والتنقل ، ماعدا أهل مكة والمدينة ، والطائف ، فقد سكنها أهلها وعاشوا حياتهم بين الحضارة والبداءة ، فقد أخذوا الحضارة من الحجاج ، والزوار ، والتجار ، وتمسكوا ببدائتهم التي ورثوها ، وعاشوا نظامهم عليها .

ومن هنا كان لهم شيء من الحضارة ، ففي مكة أنشأ " قصي بن كلاب " نظاماً سياسياً ، فأسس داراً سماها " دار الندوة " ، وجعل بابها يؤدي إلى الكعبة ، وخصصها لاجتماع كل من بلغ أربعين سنة ، متمتعاً بالحكمة ، والفصاحة ، وتدبر الأمور من أهل مكة ، ولا يشتكى من شرط السن فقط إلا أبناء قصي ^(١) .

حمل قصي قومه على دفع ضريبة سنوية تسمى بـ " الرفاة " . . . ينفق منها على الحجيج ، ضيوف الله ، فهم أحق الناس بالكرم .

وقد اتفق القرشيون فيما بينهم ، منذ عهد قصي ، على توزيع مناصب المسئولية العامة ، على مختلف القبائل ، مع استقلال كل قبيلة بشئونها ^(١) .

استمر هذا النظام إلى ظهور الإسلام حيث كانت توزع المناصب على النحو التالي :

١ . الحجابة والسدانة : والمقصود بها حراسة مفاتيح الكعبة ، وكانت في

بيت " عبد الدار " .

٢ . السقاية : وهي الإشراف على بئر زمزم ، وكانت في بيت هاشم .

٣ . الديات : وتسمى الأشتاق ، وكانت في بيت " تيم " .

٤ . السفارة : وتختص بالبت في الصلح ، وكانت في بيت " الخطاب " .

٥ . اللواء : وحامله هو كبير القواد إذا هوجمت مكة ، وكان في بني أمية .

٦ . الرفاة : وهي الإشراف على جمع الأموال ، وكانت لـ

" عبد المطلب " .

٧ . الندوة : وهي الإشراف على دار الندوة ، وكانت لأبناء عبد العزى .

٨ . الخيمة : وهي حراسة دار الندوة وتولاها بنو مخزوم .

٩ . الخازنة : وهي إدارة أموال الكعبة وكانت لبني كعب .

١٠ . الأزلام : وهي الاستخارة لمعرفة رأى الآلهة في القضايا العامة ، وكانت

في بني أمية ^(٢) .

وقد أرضى هذا التقسيم قبائل مكة ، فعاشوا في استقرار ، وتعاون ،

واستقلت كل قبيلة بشئونها ، ونشاطها ، وحركتها .

(١) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ١٣٨ .

(٢) عصر ما قبل الإسلام ص ١٧٨ .

وظهرت في الجزيرة طبقات اجتماعية متعددة أهمها : —

١ - **الصرحاء** : هؤلاء يتكونون من أبناء القبائل المعروفين بانتسابهم إلى آبائهم الموالين لهم ، ولقبيلتهم .

٢ - **العبيد والموالي** : وهم الأسرى الذين ملكتهم القبائل ، أو الرقيق المشترون ، أو الموال الذين لجأوا إلى القبيلة ، أو المحررون من العبيد .

٣ - **الصعاليك** : وهم الأحرار الذين فروا من قبائلهم ، واجتمعوا في الصحاري ، وكونوا مجتمعات جديدة معارضة لقبائلهم الأولى وتعتمد على السلب ، والنهب ^(١) .

وأغلب نشاط العرب قائم على الرعي ، والتجارة ، وبخاصة بعد أن نظم هاشم بن عبد مناف رحلتى الشتاء ، والصيف ، وعقد تحالفات عدة ، ضمنت الأمن للتجار ، كما أخذ الأمن (الإيلاف) من القبائل المنتشرة على الطرق في مختلف أرجاء الجزيرة .

وقد استفاد أهل مكة من الحركة التجارية كثيراً ، لأن التجارة مدرسة تعلم السياسة ، والكياسة ، وحسن الجوار ، وعمق الفهم ، فتعلموا من الحيرة القراءة والكتابة ، وأخذوا من الروم السياسة ، ونقلوا من الفرس ما للسلطة من سيادة وطاعة وفي — يشرب — كثرت الآبار ، والأشجار ، واعتدل ريحها عن مكة ، سكنها اليهود منذ القرون الأولى بعد الميلاد ، ونزل عليهم الأوس والخزرج ، وكان لكل من اليهود ، والأوس ، والخزرج ، وضع خاص ، ونظام معين ، فاليهود انطووا على أنفسهم واهتموا بالزراعة ، والتجارة ، وتحصين المساكن ، خاصة وأنهم رأوا قبيلتي الأوس والخزرج ، في قتال دائم جعلهما يقدمان شباكهما ، وأموالهما ، للحروب الطويلة المستمرة بينهما ، وأغلب أيام العرب كانت في يشرب .

^(١) الشعراء الصعاليك ص ١٠٣ — ١٠٦ بتصرف .

وقد أدت هذه الحروب إلى اضطراب الحياة في المدينة ، فافتصادهم مهلهل ،
وأفراد القبائل كلهم محاربون ، ورؤساء القبائل لا يعدون إلا للحرب ، وطالت الأيام
بين الأوس والخزرج مما جعلهم ينتظرون الخلاص من هذا التنافس ، وقد حاولوا أن
يتوجوا " عبد الله بن أبي الخزرجي " ملكاً عليهم يخضع له الجميع ، لكنهم فوجئوا
بالبعثة المحمدية في مكة فوجهوا أملهم إليها .

وأما — الطائف — فإنها تتمتع بخصوبة التربة ، وجودة المناخ ، وحسن الثمر ^(١)
وجمال الموقع ، حيث يمر بها الطريق التجاري القادم من الجنوب ، وترتبط بمكة ،
وبالمدينة بأكثر من طريق ، وقد نشأت بها صناعات عديدة وإن كانت بدائية ، كل هذا
جعل أبناء الطائف يتمتعون بما فيها ، فعاشوا في رغد ، ورفاهية ، مع تمسكهم ببدونهم
فكانوا يرعون الإبل ، والغنم ، ويهتمون بالزراعة ، وكانت القبيلة هي النظام السائد
فيها ، حيث يدير شئونها رؤساء القبائل بالتشاور فيما بينهم ، وقد قام بالطائف نظام
يشبه المزارعة في العصر الحديث إذ تنازل " بنو عامر " وهم البدو المخاورون للطائف
عن أرضهم ، وسلموها لمن يعمرها ، ويحييها ، بالغرس والزراعة ، على أن تقسم
الثمار بينهم نصفين ^(٢) وقد اكتسبت الطائف شهرة عظيمة عند ظهور الإسلام .

وأما سكان المناطق الصحراوية في وسط الجزيرة ، فهم مجموعة من القبائل
الرحل يتولى شئوهم مشايخهم بلا دولة ، أو جند ، أو حصون ^(٣) .
وعاشت هذه المناطق الجذب ، والحر ، وقلة المطر ، وكان أهلها دائماً في
تنقل وراء رعيهم ، ومعاشهم ^(٤) .

وعاش أهل هذه البوادي حياة فقيرة ، لبعدهم عن رحلات التجارة ، وغلو

(١) مرآة الأطلاع — ص ٢٦٥ .

(٢) معجم ما استعجم — اليكزي — ج ١ ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) العرب قبل الإسلام — ص ٢٤٠ .

(٤) الشعراء الصعاليك — ص ٦٢ .

مواطنهم من المياه ، وقد أدى الفقر الشنيع بهم إلى قتل أولادهم ، أو بيعهم ، ليستعينوا بأثماتهم على مطالب الحياة ^(١) .

وكان مجال العمل أمام البدو ضيقاً جداً ، لأن الخير فوق رمال الصحراء القاحلة نادر ، ومن هنا لم يكن أمامهم إلا أن يعملوا للأغنياء في رعي الإبل ، أو في خدمتهم ، فإن أبت ذلك نفوسهم تحولوا للغزو والإغارة ^(٢) .

وقد وقعت بين قبائل البدو المتناثرة في الجزيرة حروب ، ومنازعات ، هي أيامهم ، ورغم كثرتها فإن الدم لم يرق فيها كثيراً ، لأن البدوى لم يكن يرمى إلى سفك الدماء بلا مبرر ^(٣) ، وكثيراً ما كانت هذه المنازعات بسبب دفاع البدوى عن خلق كريم ، أو رد لظلم واضح ، وتعتبر " حرب البسوس " وهي أطول حروبهم صورة رائعة لاحترام البدوى لواجب الضيافة المقدس ^(٤) . عند العرب ودفاعه عن الأضياف ، وقد اشتهر البدوى بالشجاعة ، والكبرياء منذ القدم ، وقد اكتسبتهم الصحراء بما فيها من مخاطر ، صفات جعلتهم أشجع من الحضرة ^(٥) ، وعودتهم الاعتماد على أنفسهم .

وكان لعرب الجزيرة تصرفات أخلاقية راقية ، فالوفاء بالوعد صفة بارزة لا تنقص ، حيث يرون أن العذر من كبائر الأمور ، ذكروا أن الحارث بن عباد مر على عدى بن ربيعة ، وهو قاتل أبيه في يوم " قضه " وكان يبحث عنه ليثأر منه لأبيه فلما لقيه وهو لا يعرفه قال له : (دلى على عدى بن ربيعة .

فأجابه عدى : إن دلتك عليه أتؤمنى ؟ !

قال الحارث : نعم .

(١) الكامل — للمبرد — ج ٢ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٢) الشعراء الصعاليك — ص ١٤٧ .

(٣) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم — ص ١٨ .

(٤) سيرة النبي ﷺ — لابن هشام — ج ١ ص ٢٠٠ .

(٥) ابن خلدون — المقدمة — ج ١ ص ١٢٥ .

فقال له عدى : أنا عدى بن ربيعة فخلاه (١) ، احتراماً لكلمته ، ووفاء بوعدده .
 وكانوا أهل حلم ولين ، ويكفيهم عند الغضب كلمة يقولونها فتهدأ ثأثرهم
 وهى " إذا ملكت فاسجح " وما حروهم إلا لحماية المنزل ، والمحافظة على المجد
 والشرف ، وكانوا يتحرزون عن سفك الدم بقدر إمكانهم ، ولذلك ندر عدد القتلى
 في معاركهم ، ففى يوم " شطة " ، وهو أول أيام الفجار لم يقتل أحد من قريش ،
 كذلك لم يقتل أحد من بنى بكر بن عبد مناف ، وفى يوم " الشعب " وكان أهله
 ثلاثين ألفاً ، وكان أعداؤهم أضعاف ذلك ، فى هذا اليوم لم يقتل إلا رجل من كل
 طرف (٢) ، ولم تكن الحرب تقوم ، أو تتوقف ، إلا بعد أن يجتمع أهل الحل والعقد من
 القبائل ليقرروا ما يستقر عليه الأمر (٣) .

وأما سخاؤهم وكرمهم فهو مضرب الأمثال ، ويكفى أنهم كانوا يوقدون
 ناراً تسمى " نار القرى " توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل ، وكانوا يوقدونها
 على الأماكن المرتفعة لتكون أشهر ، وكثيراً ما أوقدوا معها عطراً يطير مع الريح
 ليهتدى إليها العميان (٤) .

وقد اشتملت أخلاقهم على صرامة وجدية ، والناظر لأسباب حرب الفجار
 وقيام حلف الفضول ، يدرك ذلك .

إن سبب حرب الفجار كان قتل رجل فى الحرم (٥) الأمر الذى أدى إلى ثورة
 القبائل وتجمعها فى مواجهة من فجر فى الأشهر الحرم ، لتستقم للقتيل ، ولتبقى درساً
 بعدها لكل من يفكر فى هتك حرمة مكة أو التعدى فى الأشهر الحرم ، وحتى لا يفجر

(١) بلوغ الأرب — ج ١ ص ١٣٦ .

(٢) بلوغ الأرب — ج ١ ص ٧٠ ، ٢٦٨ .

(٣) بلوغ الأرب — ج ١ ص ٢٧١ .

(٤) سيرة النبی " ﷺ " — لابن هشام — ج ١ ص ١٩٩ .

(٥) سيرة النبی " ﷺ " — لابن هشام — ج ١ ص ١٩٩ .

أحد بعد ذلك في الحرم ، ويظلم غيره .

وأيضاً فإن قيام حلف الفضول كان لضيانة حقوق المظلومين الضعفاء
وضرورة الانتصار لمن وقع عليه عدوان من أهل مكة ، أو من يقصدها من العمار
والزوار .

إن حلف الفضول يتميز بنبل الهدف ، وروعة الطريقة ، والتجرد الكريم من
الأنانية ، والذاتية ، ولذلك مدحه النبي ﷺ " بعد ذلك ، وقال عنه " لو دعيت إليه
في الإسلام لأجبت^(١) لأنه يلتقى مع غايات الإسلام ، ومراميه .

* * *

(١) سورة النبي ﷺ " — لابن هشام — ج ١ ص ١٤٤ .

أوضاع العرب الدينية

يشير ذلك الحشد الهائل للأصنام التي شيدها العرب ، وأقاموها حول الكعبة وفي جوفها إلى وجود عقيدة دينية ، وانتشار أفكار مقدسه عند العرب جميعاً ، فلقد وجد يوم فتح مكة حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ^(١) .

يمثل هذا العدد بكثرته ، آلهة القرشيين الثابتة عند الكعبة ، وفي جوفها ، حيث كان يأتونها أصحابها للطواف حولها بين الحين والحين ، وكانت كل قبيلة تعرف صنمها الذي تعبده عند الكعبة ، أما ما وراء هذا العدد فهو كثير بعضه أقيم في البيت وبعضه في مكان العمل ، والبعض الآخر ينتقل مع قوافل السفر ، وكان لأهل كل بيت صنم يعبدونه ^(٢) وينحتون على صورته أصناماً صغيرة يصطحبونها معهم في الرحلة والسفر ، ويلازموها حتى يعودوا إلى مكة ^(٣) .

وقد اشتهر العرب بتقديسهم لما اتخذ من حجر ، أيا كان شكله ، فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن كان يعجز منهم عن بناء البيت ، واتخاذ الصنم ينصب حجراً في مكان يستحسنه ، ثم يطوف به ويسميه النصب ^(٤) ، ومن بيوت العرب المقدسة " يرثام " وكان بيتاً لأهل اليمن يعظمونه وينحرون عنده ^(٥) ، ومنها " رضاء " وكان بيتاً لبني ربيعة بن كعب ^(٦) .

ومن أصنامهم " هبل " وهو أول صنم أقيم في الكعبة بعد أن أحضره عمرو

^(١) أخبار مكة — ج ١ ص ٧٠ .

^(٢) الأصنام ص ٣٣ .

^(٣) الأصنام ص ٦ .

^(٤) الأصنام ص ٧ .

^(٥) ابن هشام — ج ١ ص ٢٤ .

^(٦) ابن هشام — ج ١ ص ٩٢ .

ابن نحى من " ماب " ونصبه على البئر الذى حفره إبراهيم " ~~الملك~~ " في جوف الكعبة، وأمر الناس بعبادته فعبدوه، وكانوا ينادونه " يا إلهنا " ^(١) وكان من تقديس أهل مكة لـ " هبل " أن أظهروه في المشاكل الكبرى، حتى أنهم هتفوا باسمه لما رأوا أنفسهم انتصروا على المسلمين في يوم أحد ^(٢) .

ومع أن " هبل " هو أقدم الأصنام فإن قريشاً ومن سكن مكة كانت تعظم " العزى " أكثر من " هبل " وبعدهما " مناة "

وقد أشار الكلبي إلى أن " مناة " أقدم الثلاثة، وهى المنصوبة ناحية البحر عند المشلل والمتمتعة بتعظيم العرب جميعاً، وكان الأوس والخزرج أكثر تعظيماله واختصاصاً به .

وذكر الكلبي أيضاً أن " اللات " أحدث من مناة، وكان تعظيمه عند أهل الطائف أكثر، و " العزى " أحدث الثلاثة، وهى شجرة بوادى نخلة قرب مكة، ولها منزلة خاصة، وفريدة عند أهلها فهى أعظم الأصنام عند قريش جميعاً، يزورونها، ويهدون إليها، ويدبحون عندها ^(٣) .

وقد تقسمت القبائل أصناماً عدة، واختصت كل قبيلة بصنم ، وعلى سبيل المثال نرى أن هذيل اتخذت سواعاً ، وكلباً اتخذت ودأ ، وأنعم وأهل جرش اتخذت يغوث ، وحيوان اتخذت يعوق ، وحمير اتخذت نسرأ ، وطى اتخذت الفليس وبنو الحارث اتخذت ذا الشرى ^(٤) .

وهكذا توزعت الأصنام على القبائل ، وليس المجال هنا لحصرها فما هى إلا نماذج نعرف منها دين العرب ، ومعتقداتها قبل الإسلام .

(١) أخبار مكة — ج ١ ص ٦٨ .

(٢) سورة ابن هشام — ج ٢ ص ٣٧ .

(٣) الأصنام — ص ١٣ — ٢٧ .

(٤) سورة النبى — ج ١ ص ٨٣ — ٩١ ، الملل والنحل — ج ٢ ص ٢٤٧ .

وقد عظم العرب أصنامهم بأشكال متعددة ، فكانوا يسمون أولادهم باسمها
فباسم " مناة " سمي تميم بن مر ابنه ، " زيد مناة بن تميم " ، وباسم اللات سمي ثعلبة بن
عكابة ابنه " تيم اللات " ، وباسم العزى سمي كعب بن سعد ابنه " عبد العزى " وحمل
عوف بن عذرة " ودأ " معه إلى دومة الجندول وسمى ابنه " عبد ود " .
وكانوا يذبحون ذبائحهم عندها ، ويهدون لحومها من حضر عند الصنم
ويأتونها بالهدية والزيارة ^(١) .

وكانوا يهتمون بالتمسح بها فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في
متراله أن يتمسح بالصنم ، وإذا رجع كان تمسحه بالصنم أول ما يفعله ، وكانت
الحائض لا تقربه ، ولا تتمسح به ، بل تقف بعيداً عنه حتى ينتهي حيضها ^(٢)
وكانوا يخلقون رؤوسهم عنده ، ويلقون حولها شعرهم ، ومعه كمية من دقيق .
وكانوا يخلقون به ، يقول عبد العزى بن ودیعة المزني :

إني حلفت بيمين صدق برة بمناة عند محل آل الخزرج

ويقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دولها وبالله إن الله منهن أكبر ^(٣)

وكانوا يصطحبون أصنامهم معهم في الحروب ، ففري العرب في يوم " أحد " يستغيث
ويستنصر بـ " هبل " ^(٤) ، وكان أبو سفيان في هذه الغزوة يحمل اللات والعزى ،
وكانوا يستهمون عند الصنم ، ويضربون الأقداح لديه في شئون كثيرة كالعقل إذا
اختلفوا فيمن يتحمله ، ولعمل ماء ، أيفعل أم يترك ، يقول ابن هشام ^(٥) : كانوا إذا

(١) الأصنام — ١٨ ، ٥٥ ، ١٣ ، ١٦ ، ٣٤ ، ٥٩ .

(٢) أخبار مكة — ج ١ ص ٦٦ .

(٣) الأصنام — ص ٤٨ ، ١٤ ، ١٧ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك — ج ١ ص ١٣٩٥ .

(٥) سيرة النبي — لابن هشام — ج ١ ص ١٦٥ .

أرادوا أن يختاروا غلاماً ، أو ينكحوا منكحاً ، أو يدفنوا ميتاً ، أو شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل ، وأجروا القداح ، ونفذوا المراد .

ولقد أشار الأزرقي إلى أن عبادة الحجر نشأت في بني إسماعيل بسبب تعلقهم الشديد بالحرم ، وبمكة ، لدرجة أنه كان لا يطعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، وصياغة بمكة ، وبالكعبة ، وحيث ما حلوا وضعوا هذا الحجر أمامهم ، ليبقى رمزاً لبيت الله في غيبتهم عن مكة ، ويطوفون به ، كطوافهم بالكعبة ، وظلوا على ذلك حتى عبدوا ما استحسنوا من الحجارة ^(١) .

ولعل هذه البداية سهلت للعرب تقدير الرمز نيابة عن أصله ، وجعلوا ذلك مبدأ ينطبق على كل الأصنام مهما كانت بدايتها ، وهو الذي جعلهم يتقبلون ما أتى به عمرو بن لحي من أصنام ، حين أحضرها من بلاد الشام لقومه ، ونصبها عند الكعبة ، وذكر لهم أنها تنزل المطر ، وتنصر في الحروب ، وأمرهم بعبادتها فعبدوها ^(٢) ، وهو الذي أمرهم كذلك بعبادة أساف ونائلة ، هذين الصنمين النذيين كانوا في الأصل رجلاً وامرأة فجرا في الكعبة فمسحاً حجرتين للازدجار والعظة ، ولكنهما بتقادم العهد صارا صنمين فلما أمر " عمرو بن لحي " بعبادتهما عبدا ^(٣) .

وقد كان العرب لهذا المبدأ يستحسنون بعض أصنامهم مع علمهم أنها في الأصل صورة لقوم صالحين ، معظمين من قومهم السابقين ، لكنهم مع طول العهد تأولوا وقالوا : ما عظم الأولون هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله ، فعبدوا صورهم ، وعظموا أمرهم ، واشتد كفرهم ^(٤) وما عبدوا الصورة إلا لاعتقادهم أنها رمز يستشفعون به نيابة عن صاحبه .

(١) أخبار مكة - ج ١ ص ٦٧ .

(٢) الأصنام - ص ٨ ، أخبار مكة - ج ١ ص ١٢٥ .

(٣) أخبار مكة - ج ١ ص ٤٤ ، ٦٩ .

(٤) الأصنام - ص ٥١ ، ٥٢ .

وكان تعلق العربي الشديد بصلبه يشير إلى ارتباط عجيب معه، وخمسة من أجل دوام عبادته ، فلقد دخل أبو هلب على أبي أحيحة (وهو سعيد بن العاص بن عبد شمس) ، وهو في مرضه الذي مات فيه فوجده يبكي فقال له : ما يبكيك أمن الموت تبكي ولا بد منه .

قال : لا ، ولكني أخاف أن لاتعبد العزى بعدى .
فقال أبو هلب : والله ما عبدت حياتك لأجلك ، ولا ترك عبادتها بعدك لموتك .
فقال أبو أحيحة : الآن علمت أن لى خليفة ^(١) .

ويبدو أن العرب كانت تعتقد أن هذه الأصنام أثراً جعلهم يمسحون بها ويطلبون نصرتها ، ويرحلون بها ، ويرون أن الأصنام احتوت روحها التي صورت في الأصل على شكلها ، ولولا الروح التي احتوت ما كانت تستحق شيئاً ^(٢) .

من ذلك ما عرف عن " اللات " فإنها كانت في الأصل صخرة يجلس عليها رجل يلت السويق ، فلما مات اعتقدوا أن روحه تقمصت الحجر ، وسكنته فاتخذوه إلهاً هو اللات ، ومنه ما عرف عن " العزى " فإنها ثلاث شجرات اعتقد العرب أن الجن سكنتها ، وأن التأثير فيها للجن الساكن فيها ^(٣) .

وعلى الجملة كانت العرب تعتقد أن لكل صنم شيطاناً ، فمن عبد الصنم قضى الشيطان حوائجه ، بأمر الله الأكبر وإلا أصابه الشيطان بنكية عظيمة ^(٤) وأكد لهم هذا الاعتقاد ما كانت تصدره بيوتهم المقدسة بفعل الريح ، أو بفعل الكهنة من أصوات خفية ، جعلتهم يصدقون أن الأرواح والشياطين تكلمهم ^(٥) .

^(١) الأصنام — ص ٢٣ .

^(٢) أخبار مكة — ج ١ ص ٤٤ ، ٦٩ .

^(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام — ج ٥ ص ٣٤ .

^(٤) بلوغ الأرب — ج ٢ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

^(٥) الأصنام — ص ١٢ .

ورغم صور تعظيم الأصنام السابقة ، وعقيدة العرب فيها ، رغم ذلك لم تنشأ طبقة كهنوتية لها مميزاتها، وخصائصها، كما حدث في البلاد الأخرى ، بل بقي كهنة العرب بين الناس كأحدهم ، يقومون بسائر الأعمال، ويشتركون في الحروب . كذلك لم يحدث صراع من أجل الأصنام رغم تعددها ، ولم تحاول قبيلة ما ضم أخرى لتعبد صنمها ، بل وجدنا العكس، فالقبيلة تقدر صنمها ، وفي نفس الوقت تحترم أصنام الآخرين ، ولكنها لا تقترب إلا إلى صنمها .

كذلك لم تنشأ لدى العرب عاطفة دينية تربطهم بالأصنام ربطاً نفسياً، فيه الحماس والاندفاع، ومعه الغيرة والانفعال ، ولذلك نراهم يتركون أصنامهم في الكعبة يوم قدوم أبرهة، ولا يفكرون إلا في البيت وحده دون معبوداتهم .

ولعل تفسير ذلك هو اعتقادهم أن كل هذه المقدسات من بيوت ، وأصنام ، ونصب ما هي إلا آلهة صغرى فوقها إله أكبر هو الخالق للجميع ، وما عبادة المظاهر الطبيعية المادية إلا لتكون قربى لله الأكبر، لأنه هو المالك لكل الآلهة الصغرى ، وهو رب الحرم، وحاميه ، وكانت التلبية السائدة عندهم تشير إلى أن الله هو المالك للأصنام فهم يقولون فيها " لييك اللهم لييك .. لييك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك " ، وهكذا كانوا يوحدون الله في التلبية، ويدخلون معه ألهتهم ، ويجعلون ملكها بيده ^(١) .

وأيضاً فإنهم يوم قدوم " أبرهة " تركوا مكة، ورحلوا عنها إلى شعاب الجبل المحيطة بها ، على أمل أن ينقذ رب الحرم حرمة ، ولم ينتظروا معونة من هبل، أو الالات، أو غيرهما ، ولم يفكروا في انقاذها هي نفسها من الضم، والتكسير، يروى ابن هشام أن عبد المطلب لما أمر قريشاً بالخروج من مكة أخذ بحلقة باب الكعبة وهو يقول :

لاهم إن العبد يمنع رحله فامنع حلاً لك
لا يغلبن صليهم ومحالمهم عدواً بمالك
إن كنت تاركهم وقبل ستنا فأمر ما بدا لك

ولما حدثت المناقشات بين أبرهة وعبد المطلب وقال أبرهة متسائلاً: تسألني عن الإبل، وترك البيت الذي هو دينك، ودين آبائك، أجاب عبد المطلب: أما الإبل فهي لي وأما البيت فله رب يحميه ^(١) ، ولم يرد ذكر للأصنام في حوار عبد المطلب وأبرهة .
وقد كان العرب يذبحون ، وينحرون ، ويتقربون إلى الأصنام، وهم مع ذلك عارفون بفضل الكعبة، ورب الكعبة ، يقول أوس بن حجر :

وبالللات والعزى ومن دان دونهما وبالله إن الله منهن أكبر ^(٢)

يرى " ورنركاس " أن الله هو الإله الذي كان فوق آلهة القبائل جميعاً، ولهذا ذكره شعراء مختلف القبائل لأنه لا يختص بقبيلة واحدة ^(٣) فهذا امرؤ القيس في معلقته يقسم بالله فيقول :

فقلت يمين الله مالك حيلة وما أن أرى عنك الغواية تنجلي
ونراه يذكر الله بالحمد فيقول :

أرى إبلى والحمد لله أصبحت ثقلاً إذا ما استلهمتها صعودها
ويقول عبيد بن الأبرص :

حلفت بالله أن الله ذو نعم لمن يشاء وذو عفو وتصفاح ^(٤)
ويقول زهير بن أبي سلمى :

حلفت فلم أترك لنفسك رية وليس وراء الله للمرء مذهب

(١) سيرة النبي — ج ١ ص ٥١ .

(٢) الأصنام — ص ١٧ .

(٣) الشعراء الصعاليك — ص ٣٠٥ .

(٤) نفس المرجع ص ١٩٧ ، ٢٩٨ .

وهكذا نراهم يعرفون الله بأنه الخالق، القادر، المدبر، الحكيم، المسخر لكل شئ في الوجود، وقد سجل القرآن الكريم لهم هذه المعرفة بقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١) وبقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٢)، وبقوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٤) وبقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٥) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٦) ، وبقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٧)، فهم يعرفون أن الخالق هو الله، ومسخر الفلك هو الله، ومترل المطر، ومحيى الأرض هو الله، وهو المالك لكل شئ .

وهذه النظرة إلى الله بما فيها من قداسة، وسمو، لم تصل إلى التوحيد الخالص بسبب إنعدام التعاليم الثابتة ، الأمر الذى جعلهم يبحثون عن واسطة تربطهم بهذا الإله الأعلى ، ويبدو أن " ابن حى " كان يتمتع بعقلية فذة استغل بها الوضع القائم فقدم للعرب الأصنام كرمز على شئ آخر عظيم، ولتكون واسطتهم إلى الله فعبدوها وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾، لدرجة أن بعض الجاهلين كانت أصنامهم على صورة تخيلوها للملائكة، لاعتقادهم أن الملائكة ذو منزلة عند الله، فهم أولى أن يكونوا واسطتهم إليه^(٨) .

(١) سورة العنكبوت آية (٦١) .

(٢) سورة العنكبوت آية (٦٣) .

(٣) سورة المؤمنون آية (٨٤ ، ٨٥) .

(٤) سورة المؤمنون آية (٨٦ ، ٨٧) .

(٥) سورة لقمان آية (٢٥) .

(٦) بلوغ الأرب — ج ٢ ص ١٩٧ .

ومما زاد من ضلال نظرة العرب في الواسطة ما كانوا يسمعون من أصوات تصدر من الأصنام ، والبيوت ، ومن رؤيتهم لخيالات الجن قرب معبوداتهم ، وبذلك تأكدت فكرتهم عن الواسطة ، وبمرور الأيام أصبحت هذه الفكرة عقيدة أساسية وما استبعدوا أن يكون الرسول بشراً إلا لاستحالة اتصال البشر بالله من غير واسطة في نظرهم ، وكأنهم كانوا يريدون واسطة بين الرسول والله ، من نوع معبوداتهم الموضوعة عند الكعبة وحولها ، رغم صغر مساحتها لتكون في رعاية الله الأكبر ، وعلى مقربة منه .

وكانت هذه العقيدة ، وذاك الخلط يعيشان عادة عند العرب ، فهم يحجون الكعبة ، ويطوفون بها ، وبعدها يجتمعون حجهم بالتقرب للصنم ، فيحلقون رؤوسهم عنده ، ويذبحون عتائرهم أمامه ^(١) ، ويبدو أن سبب ذلك هو بقايا بقيت من مناسك دين إبراهيم " عَلَيْهِ السَّلَام " تقدم بها الزمن فشابتها بعض العبادات المبتدعة ، هذه البقايا جعلتهم يعظمون البيت ، ويطوفون به ، ويحجون ، ويعتمرون ، ويقفون بعرفه ، ويهلون بالحج والعمرة ^(٢) .

ولعل في تسمية مكة " أم القرى " على الرغم من وقوعها في واد غير ذي زرع إشارة إلى اهتمام العرب بقداسة الكعبة ، أول بيت وضع للناس ، وأحد موارث إبراهيم " عَلَيْهِ السَّلَام " .

وقد سخر بعض عقلاء العرب من هذا الخلط فنظروا إلى مسلك أقوامهم مع الأصنام فوجدوه لهواً لا يفيد ، وعبثاً من غير فكر دقيق ، وعندئذ أخذوا يلتمسون الصواب في الدين .

ولقد حكى ابن هشام عن أربعة منهم هم ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وأهم اجتمعوا في عيد لهم

^(١) أخبار مكة — ج ١ ص ٧٣ .

^(٢) الأصنام — ص ٦ .

عند صنم من أصنامهم ، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نظيف به لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم ، فإنكم والله ما أنتم على شيء ^(١) .

وقد وقف " قس بن ساعدة الأيادي " قبيل البعثة بسوق عكاظ ، وقال : أيها الناس اسمعوا وعوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبراً ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لن تغور ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، أقسم قسماً ، حقاً حتماً ، لئن كان في الأرض ليكونن بعده سخطاً ، وأن لله عزت قدرته ديناً أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه " ^(٢) .

وهكذا وصل فكر هؤلاء النفر إلى أن ما عليه قومهم ليس شيئاً يذكر ، وأن دين الله الحق هو من نوع ما جاء به إبراهيم فبحثوا عنه ، وانتظروا في الوقت نفسه رسولاً يبعثه الله إليهم ، وقد انتشر هذا الفكر بين عدد من العرب ^(٣) مع اختلاف طرقهم التي سلكوها بعد ذلك ، فمنهم من لم يهتد إلى شيء محدد حتى مات كـ " زيد بن نفيل " ومنهم من تنصر وقرأ كتب النصرانية كـ " ورقة بن نوفل " ، ومنهم من بقي على فكره حتى جاء الإسلام وأسلم كـ " عبيد الله بن جحش " ^(٤) .. ومن هؤلاء المفكرين كانت طائفة " الحنفاء " التي عبدت الله على ما بقي من دين إبراهيم ، وبحثوا عن كل ما غاب عنها ، وهكذا لم يقتصر نشاط العرب الديني على الأصنام ، والأوثان فقط ، بل اتجه مفكروهم إلى الإله الحق كما بدا من الحنفاء .

(١) سيرة النبي ﷺ — ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) بلوغ الأرب — ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٣) الملل والنحل — ج ٢ ص ٢٥٠ — ٢٥٣ .

(٤) ابن هشام — ج ١ ص ٢٤٣ — ٢٥٠ .

وكذلك ظهر في العرب عدد من " الحكماء " الذين امتازوا بالخبرة ،
والشجيرة وكانوا مرجع القوم فيما يعرض لهم من مشاكل ، يقضون لهم فيها ، وقد
تنوقلت عنهم كلمات قصيرة موجزة ، لكنها تحمل المعنى الكبير مما جعلها تخلد بين
الناس ومن أمثالهم : —

" مقتل الرجل بين فكيه " .

" إن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى " .

يقول الشهرستاني عنهم : (ومنهم الحكماء وهم شردمة قليلون ، لأن أكثر
حكمهم فلتات الطبع ، وخطرات الفكر)^(١) .

وقد اتجه الحكماء أيضاً إلى فكرة ضرورة الخالق ، وربط المعلول بعلة ، ورأوا
استحالة وجود هذا الكون بلا موجد له ، قدير ، يقول عامر بن الطرب الحكيم
مفكراً في سبب الخلق : (إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً إلا
مصنوعاً ، ولا جائياً إلا ذاهباً ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء)^(٢) .

ومن حكماء العرب كذلك " عبد المطلب " جد النبي ﷺ " الذي وصلت
به الحكمة إلى سن أمور أقرها الإسلام بعد ، فقد منع نكاح المحارم ، وقطع يد
السارق ، ونهى عن قتل الموءودة ، وجعل دية القتل مائة من الإبل ، إلا أن الحكمة
مهما دقت ، فإنها لا تصل إلى الحقيقة بكمالها ، وأصولها ، ولذلك كانت حاجة
الحكماء ، وغيرهم إلى وحي يقنعهم ، ويأخذهم إلى دين الله تعالى ، ضرورة لابد منها
ويبدو أن الفرق بين الخفاء والحكماء أن الخفاء بذلوا الجهد كله لمعرفة الدين
الحق ، الذي كان عليه إبراهيم " عليه السلام " وأهملوا عبادة الأصنام ، أما الحكماء فكان
تفكيرهم في الخلق والخالق عارضاً ، وكانوا بمثابة قضاة مجتمעים ، ومع ذلك عبد
بعضهم الأصنام مثل أقوامهم ..

(١) الملل والنحل — ج ٢ ص ٦٤ .

(٢) تهذيب تاريخ الفلسفة — ص ١١٠ .

وقد وصل الاضطراب الدين عند بعضهم إلى ابتداء رأى الحمس ، وهو اتجاه مبتدع ، سببه حماسة العرب تجاه حرمة البيت ، ووجوب إبراز هذه الحرمة في منهج عملي ، وكان هذا المنهج شديداً ، ويحتاج إلى مال كثير ، فلقد كانوا يلتزمون بإطعام الحجيج ، وكسائهم ، فلا يأكل الحاج إلا من طعام الحمس ، ولا يلبس إلا أثوابهم ، فإذا لم يجد من ثيابهم طاف عرياناً ، ولو طاف بثوبه فإنه يخلعه مباشرة ولا يستعمله أبداً ، وذلك لظنهم أن الحجيج عصوا الله في أثوابهم ، ولذلك لا يصح الطواف بها .

هذا وقد وجدت عند العرب عقائد أخرى وردت إليهم من أقاليم العالم التي اتصلوا بها خلال التجارة ، أو الهجرة ، ومن هذه العقائد : —

المجوسية :

أخذ العرب المجوسية من بلاد فارس ، فجعلوا النور والظلمة آلهة تعبد ، وكانوا يتخذون لهما رموزاً مقدس ، يقول الألوسي : كانت المجوسية في تميم ، ومنهم الأقرع بن حابس ، وكان مجوسياً ، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان كان مجوسياً^(١) ويقول في مكان آخر : كانت الزندقة في قريش أخذوها عن الخيرة^(٢) .

وقد ثبت أن النبي ﷺ " أخذ الجزية من مجوس هجر^(٣) ويذكر أبو عبيدة أن النبي ﷺ " قبل الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوساً^(٤) .

ومنها أيضاً " عبادة الكواكب " وكانت موجودة في العالم على ندره

أصحابها ، وهم الصابئة ، وقد نقلها بعض العرب عنهم فعبدت " طى " الثريا^(٥) وعبد الحخم وجذام " المشتري " وعبد أسد " عطارد " وعبد كنانة " القمر " .^(٦)

(١) بلوغ الأرب — ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٢) المصدر السابق — ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٣) نيل الأوطار — ج ٨ ص ٦٣ .

(٤) الأموال — ص ٣٣ .

(٥) التاريخ الإسلامي العام — ص ١٧٧ .

(٦) بلوغ الأرب — ج ٢ ص ٢٣٩ .

ومنها عبادة الحيوان والطيور : وهذه العبادة أتت من قبل الهند ، وقد

اتخذ بعض العرب أصنامهم على صورة الحيوان ، والطيور .

فصنمهم " نسر " كان على صورة النسر .

وصنمهم " يغوث " كان على صورة الأسد .

ويعوق كان على هيئة الفرس ^(١) .

ومن عبادات العرب عبادة الشجر ، فلقد روى أن النبي ﷺ " خرج إلى

حين وقومه حديثو عهد بجاهلية ، فلما رأى بعض أصحابه شجرة في الطريق ، يقال

لها ذات أنواط ، كانت العرب تقديسها ، فنادوا وقالوا : يا رسول الله أجعل لنا

ذات أنواط كما هم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : " سبحان الله هذا كما

قال قوم موسى لموسى ^(٢) " إجعل لنا إلهاً كما هم آلهة ، والذي نفسى بيده

لتركبن سنن من كان قبلكم ^(٣) .

ومن العرب ظهر بعض الدهريين الذين أنكروا الخالق ، ويوم القيامة ، وقالوا

بالطبع المحيى ، والدهر المفقى ^(٤) وقد أخبر القرآن عنهم بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا

حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ

إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ^(٥) وقد أشارت الآية إلى عقيدة هؤلاء الأفراد الذين جعلوا الدهر

إلهاً ، يحيى ، ويميت .

ولقد أدت المحاولات التبشيرية للفرس والروم إلى وجود عدد ليس بالكثير

تابعاً لإحدى الدولتين ، على منهج الولاء السياسى ، أو الدينى ، ومن هنا وجدت

^(١) تفسير الرخشري - ج ٤ ص ١٦٤ .

^(٢) سنن الترمذى - كتاب النور - باب تركبن سنن من كان قبلكم - ج ٤ ص ٤٧٥ .

^(٣) الملل والنحل - ج ٢ ص ٢٤٥ .

^(٤) سورة الجاثية آية (٢٤) .

المسيحية في شمال الجزيرة ، وجنوبها ، وشرقها .

كما أن اليهودية وجدت في جنوب الجزيرة ووسطها، وسكنت " يثرب "

بمسيرة بعض اليهود إليها ، ولم تكن اليهودية دين أمة، وإنما دين جماعة متعصبة من الرجال المغامرين .

وكان اليهود يسكنون عند الميلاد في فلسطين ، فلما تعرضوا لاضطهاد

الرومان وخاصة على يد " نيطس " الذي دمر لهم " أورشلليم " في المرة الثانية، رحلوا

إلى البلاد المجاورة كالعراق ، ومصر، والجزيرة العربية ^(١) ، فسكنوا أولاً بلاد اليمن

حيث الازدهار والغنى ، إلا أنهم وقعوا في صراع مع المسيحية، كاد يودي عليهم لولا

أن ساعدتهم الفرس ضد الروم ، فلما اشتد اضطهادهم في اليمن، وانهدم سد مأرب

مصدر الغنى، هاجروا إلى يثرب، وأسسوا فيها لأنفسهم المزارع والحصون ، وفي

يثرب باشرُوا مناسك دينهم في حرية ، ونشطوا في أعمال التجارة والصناعة وغيرها .

وقد أشار ابن قتيبة إلى تهود عدد قليل من العرب ، حيث وجد أفراد من

اليهود العرب في حمير ، وبين كنانة ، وبين الحارث بن كعب ، وكنده ^(٢) .

ويبدو أن السبب في عدم انتشار اليهودية هو عنصرية اليهود القائمة على

فكرهم الديني، وإيمانهم بأنهم شعب مختار من الله على الخصوص، حسب ما تعلموا من

نصوص كتابهم المقدس ، فلقد أيقنوا أنهم أعلى من سائر الشعوب ، وأن دينهم وقف

عليهم كما جاء في سفر التثنية : (أنت شعب مقدس للرب إلهك، إياك قد اختار

الرب إلهك، لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب، الذين على وجه الأرض) ^(٣)

وهذا ما جعلهم يعيشون مستقلين، ومنطوين على أنفسهم ، ودفعهم كذلك إلى

التفوق في كافة الشؤون، وخاصة الشؤون الاقتصادية، كما أسسوا القرى المحصنة ضماناً

(١) التاريخ الإسلامي العام ص ١٥٨ .

(٢) المعارف ص ٣٠٥ .

(٣) سفر التثنية — الإصحاح السابع فقرة .

لمصالحهم، وحفاظاً على هذه العنصرية ، التي آمنوا بها ، وأيضاً فإن من طبيعة العربي الاستعلاء ، والثقة ، والرضي ، رغم ما فيه من نقص ، وحاجة ، ولذلك أبي أن يكون تابعاً لهؤلاء المتعصبين .

وقد انقسم اليهود إلى طوائف متعددة ، أشهرها الفريسيون الذين ينادون بالتمسك بنص التوراة من غير تأويل ويسمون أنفسهم بالأصوليين ، والصدوقيون وهم الذين ينكرون الآخرة .

وتؤكد آيات القرآن الكريم وجود اليهود في الجزيرة العربية ، حيث خاطبتهم الآيات المزلّة، وتحدثت كثيراً عنهم ، ويفهم من دلالة الآيات أن اليهود في الجزيرة كانوا من بني إسرائيل لا من العرب ، حيث كان النداء لهم ببني إسرائيل ، يقول تعالى : ﴿ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ ^(١) ، ﴿ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَ ءَاتَيْنَهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ ﴾ ^(٢) ، ويذكر الأستاذ دروزة أن اليهودية لم يعتنقها أحد من العرب في يثرب، ويبدوا أن من هُود من العرب كانوا أعداداً قليلة لا تذكر لقلتها ، وعدم تأثيرها في الناس ، كما أنها لا تستحق نداء باسمها على الخصوص ، ولذلك فهي مندرجة في نداء الله لبني إسرائيل ^(٣) .

هذا ..

والمطلع على هذا التنوع في أديان العرب يدرك حكمة الله تعالى في جعل الإسلام ينبع أولاً في العرب ، حيث يمكن مناقشة سائر المذاهب والأديان ، ومناقشة أصحابها بسهولة ممكنة ، وشمول تام و ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ ^(٤)

(١) سورة البقرة آية (٤٠) .

(٢) سورة البقرة آية (٢١١) .

(٣) سورة الرسول ص ٥١ ، ٥٢ بتصرف .

(٤) سورة الأنعام الآية (١٢٤) .

المبحث الثانى

الروم

١ .

جغرافية الدولة الرومانية

سكنت — الروم — غرب أوربا، واتخذت روما ^(١) حاضرة لها، وامتدت سلطاتها على مساحات شاسعة، شملت سائر البلاد المطلة على البحر الأبيض من جميع جوانبه، وكان الشمال الأفريقي ابتداء من مصر حتى المحيط الأطلسي تحت السيطرة الرومانية، وكانت مصر ثمة الإمبراطورية الرومانية بالحبوب، والغذاء ^(٢). أدى الاتساع الكبير للإمبراطورية إلى أخطار كثيرة، قايلت الدولة من جاراتها في عدد من النواحي ^(٣)، فمن أطرافها الشرقية عند نهر الفرات أتاها خطر الفرس، ومن حدودها الشمالية الشرقية والشمالية، كان خطر القبائل الجرمانية، ومن حدودها الجنوبية الشرقية على حدود الشام كان خطر القبائل العربية الغازية ^(٤)، ولم يسلم من حدودها إلا الجنوبي في أفريقيا، حيث كان الأحباش قوة تحمي هذا الجانب.

وأصبح لهذه الأخطار المتعددة أثر كبير في تفكك الدولة الرومانية. وانقسمها إلى شطريها الشرقى، والغربى، ذلك أن تجمع هذه الأخطار جعلت الإمبراطور " قسطنطين " سنة ٣٢٣ م " والإمبراطور دقلديانوس " سنة ٢٨٤ م يشعران بأن روما " لم تعد تصلح لأن تكون مركزاً لإدارة الإمبراطورية، ومنذ عهدهما بدأ الاتجاه نحو الشرق، وصار غرب البحر الأبيض المتوسط في المرتبة الثانوية ^(٥).

^(١) مرصع الاطلاع ص ١٩٦ .

^(٢) المسلمون والجرمان ص ١٢ ، ١٣ .

^(٣) الإمبراطورية البيزنطية ص ١ ، ٢ .

^(٤) الدولة الجرمانية الشرقية ص ٣٦ .

^(٥) المسلمون والجرمان ص ١٣ .

وبالفعل فلقد عين " دقلديانوس " قسيساً له مقره " رافنا " بشمال إيطاليا يشرف على إدارة القسم الغربى .

وتعتبر سنة ٣٩٥ م هى بداية الانفصال العملى بين الشطر الشرقى ، والشطر الغربى لهذه الإمبراطورية الكبرى ، إذ صار إمبراطور كل قسم يعمل على حماية ممتلكاته دون اعتبار لوحدة الإمبراطورية ^(١) ، وأصبح لها عاصمتان هما " القسطنطينية " عاصمة القسم الشرقى و " روما " عاصمة القسم الغربى ، وأخذ الانفصال فى تزايد بينهما حتى القرن السابع الميلادى ^(٢) .

الأحابش :

الأحابش أمة تابعة للدولة الرومانية ، مع شئ من الاستقلال ، سكنت شرق أفريقيا وأصبحت حارسة لحدود الدولة الرومانية الجنوبية فى القطاع الأفريقى ، واشتهرت بقوتها العسكرية التى مكنتها من شن حملات على جيرانها ، وسعت بها حدودها التى وصلت شمالاً إلى الحدود المتاخمة لجنوب مصر ، التى كانت مستعمرة رومانية ، وأخضعت لحكمها منطقة نهر " نكازه " (الجرى الأعلى لنهر عطبرة) وقبائل " البجة " ووصلت حدودها الجنوبية إلى الصومال ، أما حدها الشرقى فهو البحر الأحمر ^(٣) وحدها الغربى فينتهى عند النيل وسط أفريقيا ^(٤) .

وكانت حاضرة الأحابش هى " أكسوم " الواقعة فى شمال الحبشة ، وقد عرفت دولة الأحابش بالدولة الأكسومية ابتداء من القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن السابع الميلادى ^(٥) .

^(١) المصدر السابق ص ١٩ .

^(٢) الدولة الرومانية الشرقية ص ٣٦ .

^(٣) بين الحبشة والعرب ص ٢٧ ، ٢٨ .

^(٤) سيرة النبی " ﷺ " ص ٣٦١ .

^(٥) بين الحبشة والعرب ص ١٣ ، ١٥ .

وقد كان لدولة الروم نفوذ واسع على الحبشة نظراً لاعتناق الأخيرة
 المسيحية، إذ من المفهوم أن المسيحية كانت تربط الدولة المنتصرة بالدولة الرومانية
 ربطاً قوياً، وكانت المسيحية هي الوسيلة المثلى في بسط النفوذ الروماني في أي
 مكان ^(١) .

^(١) نفس المصدر السابق ص ٤٤ .

أوضاع الرومان الاجتماعية

والسياسية والأخلاقية

كان لكل إقليم في الدولة الرومانية بشطريها أوضاع اجتماعية مغايرة لسواها ونظم سياسية تختلف عن غيرها .

فالرومان في دولتهم الشرقية أو الغربية كانوا يعرفون منهج الدولة المنظمة إلا أنهم عاشوا تحت وطأة ظلم بغض ، وطبقية باغية ، وكان عامة الشعب عبيداً ، وخداماً للطبقة العليا المتمتعة بكل شيء .

ففى الدولة الرومانية الغربية : قامت دويلات عدة ، تكونت من القبائل الجرمانية التي نزلت من الشمال في موجات غازية ، وكونوا طبقة السلطة ، ففى أسبانيا قامت دولة القوط الغربيين التي أسسها الملك " واليا " .

وفي أفريقيا قامت دولة " الوندال " بعد انتزاعها من الرومان بالقوة ، وتمكن القوط الغربيون من تأسيس مملكة لهم في إيطاليا ، وتدعمت في غاليا (فرنسا) مملكة يحكمها الفرنجة البحريون ، وبقيام الممالك المذكورة تصدعت الدولة الرومانية الغربية عملياً ^(١) ومع بداية القرن السادس الميلادى تم استقرار هذه الممالك الجديدة في مواطنها من المدة ما بين سنة ٤١٥ م إلى سنة ٥٠٧ م .

وكان حكم هذه الممالك وراثياً في القبائل الجرمانية ، وقد تشبه أمراء هذه الدول بأباطرة الشرق ، وحوّلوا المجتمع إلى طبقات ، وكانت طبقة الحكم هم الجرمان والعسكريون ، حيث تتمتع بكل شيء في الدولة ، ولا يقرب منها إلا طبقة صغار الملاك ، والحرفيين ، والتجار ، أما عامة الشعب فهم الطبقة الدنيا حيث العبيد ، والأجراء ، والفلاحين ، والخدم .

(١) المسلمون والجرمان ص ٢٢ — ٣٨ بتصرف .

عاش أفراد الشعب يكرهون حكامهم ، وكثيراً ما قامت صراعات بين الحكام والمحكومين في هذا العصر ، الذى عرف بـ " عصر الظلام " في أوروبا .
وقد زاد الملوك البلاء ، فكانوا يسفكون الدم ، ويلحقون بالشعب العذاب ، لأنفسه الأسباب ، أو من غير سبب أصلاً ، ويكفى تدليلاً على ذلك أن القوط ، والبرجنديين أبادوا سنة ٥٣٩ م جميع الذكور من سكان " ميلان " ، وقد قدر " بروكوبيوس " عددهم بثلاثمائة ألف طفل ^(١) .

ورغم أن غالبية المجتمع زراع ، فقد شمل الدمار والتخريب صغار الملاك ^(٢) فسلبت الأرض منهم ، وتحولوا إلى عبيد ، يرتبطون بالأرض التى يقومون بزراعتها لسادتهم بلا مقابل ، وبسبب الحاجة والفقر ، اضطروا إلى أكل لحوم البشر ، وثمار الحشائش ، وورق الشجر .

وقد تدهورت الحالة الاقتصادية تدهوراً تاماً ، وزاد من تدهورها أن الدولة الرومانية الشرقية قاطعت التجارة مع دول الجرمان ، فضلاً عن أن دول الجرمان نفسها كانت فيما بينها متقطعة الأوصال ، وكل منها ينطوى على نفسه ، ولا يتعاون مع جيرانه ، بل وصلت الفرقة إلى قيام عديد من الحروب بينهم ، أما الشمال الأفريقي الذى كان مكاناً لمملكة الوندال ، فقد اضطرب اقتصادياً هو الآخر ، وعجز عن إنتاج القمح كعادته ، ولم يستطع أن يقف ولو قليلاً أمام هجوم " جستنيان " لما كان فيه من ضعف وانحيار .

ولم يسجل تاريخ الجرمان في هذه الدويلات أى نظرة إصلاحية ، بل سادها نظام الإقطاع البغيض الذى مزق غرب أوروبا تمزيقاً كاملاً ^(٣) .
وفي الدولة الرومانية الشرقية التى اتخذت " القسطنطينية " عاصمة لها ، وهى

(١) المسلمون والجرمان ص ٤٨ .

(٢) الإميراطورية البيزنطية " بيتر " ص ٦ .

(٣) المسلمون والجرمان ص ٢٠ - ٥٢ بتصرف .

المدينة التي أسماها "قسطنطين" في موقع ممتاز ^(١) ، واتخذ لها هذا الاسم الديني، المنسوب إليه ، لتكون في الحقيقة رمزاً على مجتمع هذه الدولة ، ونظمها الأوتوقراطية ^(٢) حيث كانت الهوايات ، والترعات ، وكافة الأمور من سياسية ، واجتماعية ، تلبس ثوباً دينياً ^(٣) فإذا ما تعرضت الدولة لهجمات بربرية فإنها في دستورهم أحكام من السماء نزلت على عالم فاسد يستحقها ^(٤) وصار الفرد يعيش بمجموعة من الأوهام، فإذا نزل به مرض فإن ذهابه إلى الطبيب كفر ، وكانت جماهير المرضى من جميع أنحاء الإمبراطورية تهرع إلى القسطنطينية ، لتعالج في كنيسة يوحنا المعمدان ^(٥) .

ولقد مزقت الطبقة أوصال هذا المجتمع ، ذلك أن طبقته العليا المكونة من الإمبراطور ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، كانت تقرب طبقة ثانية تقل عنها، وتتكون من المال، وأغنياء التجار، وأصحاب الحوانيت، ليمثلوا وجهة نظرهم ويقبضوا لهم على زمام الأمور، ويسخروا الشعب المتمثل في مجموعات العبيد، والأجراء، ورعا ع المدن ^(٦) وكثيراً ما صدرت قرارات إمبراطورية تجعل من المستأجر رقيقاً تابعاً ، هو وأولاده ، وزوجته ، للمالك يرتبط بالأرض مملوكاً لسيدته ^(٧) وكان هذا النظام مطبقاً في الولايات التابعة للإمبراطورية الشرقية ^(٨) .

واتصف البيزنطيون بالخدعة ، والخيانة الصريحة ، والوحشية ، والعنف ، نتيجة لقلة عددهم أمام عدوهم ، ولما رأوه أمام أعينهم من ساستهم ، الذين كانوا

(١) الإمبراطورية البيزنطية (بيتر) ص ٨ .

(٢) مصر البيزنطية ص ٢

(٣) الإمبراطورية البيزنطية " بيتر " ص ١٧ .

(٤) الإمبراطورية البيزنطية " أومان " ص ١١٦ .

(٥) الإمبراطورية البيزنطية " بيتر " ص ٢١٠ .

(٦) تاريخ الإمبراطورية الرومانية ص ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٧) المصدر السابق ص ٦٣١ .

(٨) مصر البيزنطية ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

يقترفون التحريق ، والقتل ، وقطع الأيدي ، وسمل العيون ، وجدع الأنوف ، بكل سهولة ، ولأتفه الأسباب ^(١) .

وقد شاعت في أبناء القسطنطينية على الأخص صفات الخين ، والفسق ، والخيانة ، يقول بعض المؤرخين إنها لقصة مزعجة من مكاييد القسس ، والخصيان ، والنساء ، من دس السم ، والمؤامرات ، ونكران الحمل ، وقتل الإخوة بشكل مستمر ^(٢) . ورغم أن تولية الإمبراطور كانت تتم وفق انتخاب يقوم على نظام معين ، لكن النظرة المقدسة إليه من الناس ، جعلته أكثر رسوخاً ، فهو صفى الإله ، وخليقه ، وإذا فالمرشح الناجح هو بالضرورة من اختارته مشيئة الله ، بغض النظر عن الطريقة التي اكتسب بها هذا النصر .

إن نجاح الإمبراطور يلزم الناس دينياً بطاعته ، وعلى ذلك فالإمبراطور رجل دين ، وملكيته أوتوقراطية ^(٣) وقد شهد القرنان الخامس والسادس الميلادى تحول الإمبراطور من رجل مدنى إلى رجل يعتمد على الدين ، في تأييد نفوذه ، ويمثل هذا الاتجاه بوضوح الإمبراطور " جستنيان " سنة ٥١٨ م إلى سنة ٥٦٥ م .

ومع كل هذا الفساد الإمبراطورى فقد تم إلغاء الانتخاب ، وصار الإمبراطور يعين من يخلفه في حياته ، ويدعى أنه اختيار الله .

ويكفى تصويراً للقسوة التي عامل الأباطرة شعوبهم بها ، أن نعرف أن الإمبراطور " جستنيان " لما قامت ثورة الزرقى (أنصار جستنيوس الأرثوذكسى) والخضر (أتباع انستاسيوس اليعقوبى) وطلبوا إقصاء وزير المالية أخذها بالقوة ، وقتل من الثوار خمسة وثلاثين ألفاً في ستة أيام وذلك في يناير سنة ٥٣٢ م ^(٤) .

(١) الإمبراطورية البيزنطية " بيتر " ص ٢٥ .

(٢) الإمبراطورية البيزنطية " أومان " ص ١١٧ .

(٣) الإمبراطورية البيزنطية " بيتر " ص ٨٠ ، ٨١ .

(٤) الإمبراطورية البيزنطية " بيتر " ص ٢٥ ، ٦٣ بتصرف .

وهكذا كثرت الفتن في الإمبراطورية، وكثرت الاضطرابات، وقد لخص أحد الكتاب الإنجليز أسبابها، وذكر أنها تنحصر في الابتداع الديني، واستحداث الضرائب وتغيير القوانين، والعادات، مما أدى إلى الظلم العام، وانتشار المجاعات^(١). وكانت العلاقة بين الإمبراطوريتين الرومانييتين سيئة، وزادت انهماكاً بقيام الحروب بينهما، وقد وجه " جستنيان " أولى ضرباته القاصمة إلى دولة الوندال بأفريقيا، واستولى على المدن الكبرى^(٢) وأخذ بعدها يسلك مسلكاً معيناً فأكثر من فرض الضرائب، واستعمل القسوة في جمعها، فهجر الأهالي مزارعهم، ومناجرهم، واحترقوا اللصوصية وقطع الطرق، وشن الغارات على الحاميات البيزنطية^(٣) فلجأ الإمبراطور إلى قوة أكبر لحكمهم بالأسلوب العسكري، حتى صارت أفريقيا ولاية يديرها قائد عسكري، وله مساعدون عسكريون، وكانت هذه خطوة اتتحت ضرراً ضد الدولة، فعندما شعر القائد العسكري بقوته، وبإمكان استغنائه عن الإمبراطورية أعلن استقلال ولايته.

وهكذا أعلن " جوريجوريوس " استقلاله بأفريقيا قبيل الفتح الإسلامي بقليل^(٤).
أما — الأحباش — فهم أمة عاشت هدوءاً نسبياً، وسادها نظام ملكي مثلته الدولة الأكسومية، التي قامت مزدهرة، قوية منذ القرن الأول قبل الميلاد^(٥). وقد ساعدت قوة هذه الدولة على الاستقرار الاجتماعي، وبسط سيطرتها على جيرانها بعدما قامت بحملات حربية عديدة، وعبرت البحر، وكونت مستعمرات حبشية^(٦) في اليمن، تدر عليهم الأموال والخيرات، وتضمن لهم تجارة آمنة،

(١) المسلمون والجرمان ص ٥٦ .

(٢) الإمبراطورية البيزنطية " بيتر " ص ٣١ .

(٣) المسلمون والجرمان ص ٦٠ .

(٤) المسلمون والجرمان ص ٦١ .

(٥) بين الحبشة والعرب ص ١٧ .

(٦) المصدر السابق ص ٢٦ .

ومتبادلة مبيع الجزيرة العربية ، والتشرق الأقصى ، وكان لفتح الأحباش اليمن أرضاً صارت أرض الحبشة متجراً لقريش ، يجدون فيها رغداً من الرزق ، وأما ورهباناً حسناً ^(١) ، بل وصلت قوة الدولة الأكسومية غرباً حيث النيل ^(٢) تستفيد من مياهه وخيراته ، ولقد كان ساحل أرتيريا موطناً هاماً للتجارة : ففي موايه ترسو السفن التجارية لعديد من الجاليات الأجنبية ، وقد دلت الآثار على وصول نهار من اليونانيين ومصر إلى هذه البلاد .

وقد اشتهر ملوك هذه الدولة قبيل الإسلام بالعدل ، وبكراهية الظلم ، وكان هذا سبباً في اختيار المسلمين للحبشة بالذات للهجرة إليها ، وقد قال الرسول ﷺ " لأصحابه : (لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد) " ^(٣) . وخضعت الدولة الحبشية لنفوذ الروماني ، وبخاصة بعد اعتناقها المسيحية خلال القرن الرابع الميلادي ^(٤) ، حيث كان اعتناق المسيحية هو السبيل الفعال إلى بسط النفوذ الروماني ، ويمكن ملاحظة هذا النفوذ عندما تعرض مسيحيو اليمن للاضطهاد وذهاب " دوس ذو ثعبان " إلى قصر الروم يستنصره ، فأرسله القصر إلى ملك الحبشة الذي أعانه بجيش من عنده ، قوامه سبعون ألف رجل ^(٥) .

(١) تاريخ الطبری ج ١ ص ٣٧ .

(٢) سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ٣٦١ .

(٣) سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ٣٤٣ .

(٤) بين الحبشة والعرب ص ٣٦ .

(٥) سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ٣٦ .

الأوضاع الدينية للرومان

كانت المسيحية هي دين الدولة الرومانية بقسميها الشرقي والغربي ، ودين الولايات التابعة لها كمصر والحبشة وغيرهما ، وكانت الأحداث الدينية تتردد سريعاً في كل أرجاء الدولة من أقصاها إلى أقصاها .

وقد وضعت الكنيسة لنفسها نظاماً معيناً، تسير عليه ، فأقامت رئاساتها في العواصم الثلاث الكبرى لعالم البحر الأبيض حيث توجد كنائس روما والإسكندرية وإنطاكية ، على أن يكون لبقية المدن أساقفة ورؤساء تابعون لأحد الكنائس الرئيسية الثلاث ^(١) .

وظل الأمر على هذا الوضع حتى تأسست القسطنطينية وأصبحت عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، فتحولت كنيستها إلى المرتبة الثانية بعد كنيسة روما ، تليها في المرتبة الثالثة كنيسة الإسكندرية وإنطاكية ^(٢) .

ولم يكن هذا الوضع الجديد محل رضي من رؤساء الكنائس الأخرى ، فحل التنافس بينهم ، وقد ظهرت أفكار جديدة في الفكر المسيحي ، شغلت بال العالم المسيحي ، وقسمته إلى فرق متنازعة ^(٣) .

ذلك أن أفكار " أريوس " الداعية إلى إنكار ألوهية المسيح ، وتأسيس فكرة دينية، تعتمد على التوحيد ، لاقت خلال القرن الرابع الميلادي نجاحاً في عديد من الأماكن، حيث كانت الكنيسة في " أسبوط " على رأيه، وكثر أنصاره في الإسكندرية وفلسطين ومقدونية ^(٤) وكانت الكنائس الجرمانية التي نشأت في الدولة

^(١) الحضارة البيزنطية ص ١٢٤ .

^(٢) الدول الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٣٦ .

^(٣) الحضارة البيزنطية ص ١٢٥ .

^(٤) محاضرات في النصرانية ص ١٢٣ .

الرومانية الغربية على رأيه كذلك ^(١) .

وقد عرف أتباع مذهب " أريوس " بالموحدين ، وقد نشط هؤلاء الموحدون في نشر عقيدتهم ، حتى أنهم في الإسكندرية وثبوا على " اثناسيوس " بطريرك الإسكندرية ، ورأس معارضي " أريوس " والمنادى بألوهية المسيح ، وثبوا عليه ليقتلوه فهرب منهم وأختفي ، وكذلك فعلوا في بيت المقدس مع بطريركها ^(٢) .

وفي قرطاجنة تعرض " الاثناسيوسيون " للاضطهاد ، ولقي كثير منهم حتفهم ، وتحول بعضهم إلى عبيد ، وصارت كنائسهم أماكن عبادة للموحدين ، وفي بلاد الغال وأسبانيا ، لجأ الموحدون إلى القسوة في تبشيرهم ، معتمدين على سلطان " القوط " ^(٣) .

ورغم سيادة أفكار التوحيد فقد استطاع " قسطنطين " ، بقوته أن يقضى عليها فجمع القسس من جميع الكنائس ، وعقد مجمعا في " نيقية سنة ٣٢٥ م " ضم ألفين وثمانية وأربعين من الأساقفة المختلفين في آرائهم وعقائدهم ، وكان من بينهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً يقولون بألوهية المسيح ، فأخذ الإمبراطور برأيهم ، وجعله عقيدة عامة قررها على الناس بقوة الدولة ^(٤) وجعل مخالفته زندقة ، موجهة ضد الدين يعاقب عليها بالهرطقة ^(٥) .

وهكذا انتصرت " الاثناسيوسية " على الأريوسية مما آذن بعلو شأن كنيسة الإسكندرية ^(٦) واختفاء مذهب التوحيد ، ولم يظهر في عالم المسيحية بعد ذلك إلا ألوهية المسيح .

(١) المسلمون والجرمان ص ٤١ : ٤٢ .

(٢) محاضرات في النصرانية ص ١٣١ .

(٣) محاضرات في النصرانية ص ١٢٣ .

(٤) محاضرات في النصرانية ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٥) المحاضرة البيزنطية ص ١٣١ .

(٦) الإمبراطورية البيزنطية " بيتر " ص ١٠٠ .

ولم يكن هذا النصر بداية استقرار في الفكر المسيحي، بل نشأت مسألة أخرى مع بداية القرن الخامس الميلادي، كانت هي السر في الانقسام الكامل للكنائس المسيحية بصورة واضحة.

ذلك أن مجمع "أفسوس" الأول سنة ٤٣١م الذي اجتمع ليقرر رأيه في أفكار "نسطور" القائلة بأن المسيح ليس إلهاً، ولكنه إنسان ملهم معصوم، لا كسائر الناس^(١)، أيد رأى أسقف القسطنطينية، في تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين هما اللاهوتي، والناسوتي، وأتخما امتزجا، وصارا كائناً واحداً.

وكان هذا القرار مبغضاً عند كنيسة الإسكندرية، وروما، وشعب القسطنطينية، لأنه يهدد بعزل "مريم" العذراء من أمومتها للقسم اللاهوتي، ويجرمها من لقب "أم الرب" ولذلك نجد هذه الكنائس تتحد ضد هذا القرار، وتجتمع في أفسوس ثانية، وتقرر أن للمسيح طبيعة واحدة، وتسرع في نشر هذا المذهب في أطراف الدولة، وتقوم كنيسة الإسكندرية بإرسال تسعة رهبان إلى الحبشة، يدعون لمذهب الطبيعة الواحدة^(٢) مما جعل كنيسة القسطنطينية تتأثر لنفسها بقرار مضاد في مجمع "خلقدونية" سنة ٤٥١م وذلك بمساعدة كنيسة روما، وقد أعتبر هذا المجمع القائمين بالطبيعة الواحدة هراطقة، وقرر وجوب تعذيبهم، ومع الأيام تطور هذا الخلاف إلى منافسة حادة، نشط فيها كل طرف لتقوية مذهبه، واتهام غيره بالهرطقة، الأمر الذي حوله إلى خلاف قومي، نادى كل وطن فيه بالانفصال عن الإمبراطورية^(٣).

فشلت كل محاولات التوفيق بين الطرفين المتنازعين، كما اعترف بذلك "يوستينيانوس" في مجمع "القسطنطينية الخامس سنة ٥٥٣م".

(١) محاضرات في النصرانية ص ١٣٥.

(٢) بين الحبشة والعرب ص ٣٦.

(٣) الحضارة البيزنطية ص ١٣٣.

وقد حاول " هرقل " بعد انتهائه من الحروب الفارسية أن يضع حداً لهذا الخلاف، فألف مذهباً جديداً، تخيل من ورائه أنه يرضي الأطراف المتنازعة، معاداً بمذهب التوحيد في الإرادة، وهو ينادى بعدم النقائص في طبيعة المسيح، حيث الاختلاف والتنازع، مع الإيمان بأن له إرادة واحدة، غير أن هذا المذهب جاء بشيعة مضادة لأن " هرقل " استعمل القوة في فرضه، وأمدى على أمراء الولايات أن يفعلوا ذلك، فأخذ " المقوقس " في مصر يستعمل العنف والتعذيب في فرض هذا المذهب، وأقم القوم " هرقل " وولايته بمحاولة إضلال الشعب المسيحي، وغاموا بحركة مقاومة سرية، وقاد " بنيامين " هذه الحركة في مصر حتى أصبح المصريون يتسبون زوال الإمبراطورية ^(١).

ومع الأيام انتشر هذا النزاع في كل الدولة الرومانية بأجزائها، وولاياتها، وقد انتشر مذهب الطبيعة الواحدة في مصر، والحبشة، واعتنقه بعض الغساسنة وتعصبوا له وانتشر مذهب الطبيعة في " القسطنطينية " وروما، وبلاد الحيرة، وعن طريق الحيرة أمتد إلى بعض أطراف الجزيرة العربية الجنوبية ^(٢).

و يجب ملاحظة أن هذه المنازعات لم تقف حائلاً دون نشر المسيحية، بل إنها أدت إلى قيام منافسة، وتسابق، بين الكنائس المختلفة، لتتفوق كل على زميلتها، في نشر المسيحية بمذهبها، في بلاد جديدة وبذلك يتحقق تفوق سياسي واقتصادي يمكن الدولة من محاكمة الصراع الفارسي، والانتصار عليه.

والمسيحية بعد المسيح " التثنية " تعتبر ديناً توسعياً، ولذلك نشط معتقوها قبل الإسلام في توسيع دائرها في البلاد الخارجية.

ففي الولايات التابعة للفرس ظهر لها أتباع من الغساسنة، كما أن امتدادها إلى الحبشة ثم في القرن الرابع، ووصولها إلى اليمن ثم قريباً من هذا التاريخ، وكان

^(١) « دولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٤٠ ».

^(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٢ .

لانتشارها طرق متعددة لاقت تشجيعاً من جميع المسيحيين، وخاصة من الدولة الرومانية الشرقية، وكنائسها المتعددة، ولا غرو فهي دولة "أوتوقراطية" أسست من بدايتها على الدين .

ولم تمنع المنازعات المذهبية تعاون المختلفين في المذهب إذا لزم الأمر، حيث نرى "النحاشي" ملك الحبشة يتعاون مع إمبراطور القسطنطينية، ويرسل جيشاً إلى اليمن للمحافظة على المسيحية بها، رغم اختلاف الإمبراطور والنحاشي في طبيعة المسيح، ورغم أن نصارى اليمن أنفسهم كانوا على القول بالأريوسية المخالفة لكل من النحاشي والإمبراطور .

وكان لموقع الجزيرة العربية بين الحبشة والدولة الرومانية الشرقية أن تعرضت لمحاولات تبشيرية متعددة، أدت إلى اعتناق بعض العرب للمسيحية، وقد وجدت المسيحية بنجران (جنوب الجزيرة) على يد رجل من الشام هو "فيمين" حيث تمكن هو وتلميذه "عبد الله بن الثامر" من نشر المسيحية بهذه المنطقة^(١)، وقد كان فيمين وتلميذه صورتين لمبشرى المسيحية الذين انتشروا في الجزيرة يتاجرون، ويدعون للمسيحية، وكانوا يعتبرون التجارة مع التبشير كسباً مضاعفاً^(٢) .

ويمكن اعتبار حملة "أبرهة" على مكة حملة عسكرية للتبشير بالمسيحية، تمت بعد فشل الوسائل السلمية، وبخاصة بعدما ثبت أن الدولة البيزنطية كانت ترسل تجارها إلى مكة لتتجسس على العرب^(٣)، ومما يساعد على هذا الاعتبار سرعة بناء أبرهة "للقليس" ومضاعفة تحسينها، وتحميلها، قاصداً بذلك صرف العرب عن كعبتهم وتوجههم إلى القليس للحج والزيارة، التي بناها على هيئة الكعبة،

(١) التاريخ الإسلامي العام ص ٥٠ .

(٢) أخبار مكة ج ١ ص ٨٣ .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ٥٨ .

وصورتها، وقد كتب أبرهة إلى النجاشي بعد بناء القليس قائلاً : (ولن أنتهي حتى أصرف حج العرب إليه ويتركوا الحج إلى بيتهم)^(١) .

ولما تبين استحالة تحقيق هذا الأمل جرد حملته إلى الحجاز، لهدم الكعبة، وبذلك لا يجد العرب إلا " القليس " ، فيذهبون إليها مضطرين ، وبذلك يسهل تنصير أبناء الجزيرة العربية كلها .

وقد بذلت الدولة الرومانية الأموال الضخمة في تأسيس عديد من الكنائس والأديرة داخل الجزيرة العربية، وكانت تجلب الإعانات ، والأموال لهذه الكنائس من بلاد العراق والشام، والروم^(٢) ، ومع كل هذه المحاولات التبشيرية فإنه لم يعتنق المسيحية إلا نفر ضئيل من العرب، ويبدو أن السبب ما كان فيها من قصور فكري، وتناقض واضطراب لا يتفق مع الفطرة العقلية .

(١) الفلسفة الشرقية ص ١٨٤ .

(٢) وحدة الدين والفلسفة والعلم ص ١٠٥ .

المبحث الثالث

الفرس

١ .

الموطن الجغرافى

— والفرس — أمة سكنت شرق الجزيرة العربية ، واشتركت معها في الحدود الشرقية ، ويعتبر الخليج العربى حاجزاً طبيعياً بين العرب والفرس .

— والفرس — امتداد للشعب الإيرانى القديم الذى نشأ فى الوديان الخصبة بين جبال الهندكوش ، وسلسلة جبال بخرمان ، وانتشر هذا الشعب فى منطقة آسيا الوسطى ، وانقسم إلى شطرين : شطر سكن فى منطقة ما وراء نهر جيحون وهم الإيرانيون الشرقيون ، وشرط سكن غرب النهر وهم الإيرانيون الغربيون ^(١) .

وقد قامت دولة الفرس فى المنطقة الواقعة بين الجزيرة العربية ، وبلاد الشام ، ونهر الفرات غرباً ، وبين نهر جيحون ، والسند شرقاً ، وبين بلاد أرمينيا ، وصحراء سبىريا شمالاً ، وبين المحيط الهندى جنوباً ^(٢) .

وكانت عاصمة الفرس " المدائن " وهى مدينة كبيرة أقيمت على شاطئ نهر دجلة ، فتحها المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب " رضي الله عنه " ، فى واقعة مشهورة ، عرفت باسمها ، وقد عرف جزؤها الشرقى بـ " المدائن القصوى " وجزؤها الغربى عرف بالمدائن الدنيا ^(٣) .

وقبيل الإسلام وحد الساسانيون فارس تحت حكمهم ، وانهموا إمارات الطوائف التى تقاسمت الدولة ، وجعلوا لدولتهم قوة تناوى دولة الروم الموحدة فى شمال غرب الدولة .

^(١) تاريخ بخارى ص ٤٤ .

^(٢) العرب قبل الإسلام — زيادة — ص ٥٥٢ .

^(٣) نفس المصدر ص ٥٣٤ .

الأوضاع السياسية

والاجتماعية والأخلاقية للفرس

كان الحكم في الفرس مطلقاً قائماً على أساس تقديس بيت معين، يستمد حقه من الله، فلقد كان (آل ساسان) يعتقدون أن حقه في الملك مستمد من الله ونشروا ذلك في الناس، حتى أن العامة اعتقدوا هذا، وصار جزءاً من تدينهم، ومن هنا كان الملك يتوارث للأولاد، والحفدة، فإذا لم يجدوا من الأبناء رجلاً كبيراً جعلوه لطفل لا يعنى، فإن لم يوجد الطفل جعلوه لامرأة، ولقد ملكوا بعد شيرويه أردشير طفلاً عمره سبع سنوات، وملكوا بوران بنت كسرى، وملكوا أخرى اسمها (أرهسي دفت)^(١) ووفقاً لهذه النظرية المقدسة تمتع الأكاسرة، وهم ملوك فارس تزيلاً لا حدة لها، فهم كالآلهة تماماً، وفوق القانون، وفوق البشر، وهم تتشدد الأناسيد المقدسة، وعندهم تكفر الذنوب، وإشاراتهم أمر لا يستحق إلا السمع والطاعة، وكان لكل واحد منهم حاشية خاصة لما تقاليدها، ومظاهرها.

وقد استغل الملوك منزلتهم عند القوم في الإثراء الفاحش الكبير، واعتادوا أن يكثرُوا التقود، ويدخروا الطرائف من الأشياء الغالية، حتى أن "خسرو الثاني" حينما نقل أمواله إلى بناء جديد سنة ٦٠٨ م بلغ ما نقله ٤٦٨ مليون مثقال ذهب، وبعد ثلاثة عشر عاماً من ملكه بلغت مائته ٨٠٠ مليون مثقال^(٢)، يقول شاهين مكاربوس: (لم يرد في التاريخ أن مليكاً بذخ وتنعيم مثل الأكاسرة، الذين كانت تأتيمهم الهدايا، والجزيات، من كل البلدان الواقعة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى)^(٣) وكانت الولايات العديدة تخضع لكسرى بوجهها كما يريد رغم تباعدها،

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٥ - ٥٥ بمصر.

(٢) إيران في عهد الساسانية ص ١٦٣ وما بعدها.

(٣) تاريخ إيران لشاهين مكاربوس ص ٢١١.

ولعل في طلب (باذان) من عامله في اليمن أن يحضر النبي ﷺ " إلى المدائن حياً، أو ميتاً توضيحاً لنوع سطوة كسرى، وخضوع الولاة له .

وقد امتاز الفرس بالنشاط وكلفوا بالمدينة، وطلبوا الاستقرار ما وسعتهم الأرض، ومالوا إلى الاشتغال بالفنون والحرف، وأقبلوا على تجارة الحرير في غيرة وجد، وكانوا خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين يسرون بقوافل الحرير العظيمة عبر الإمبراطورية الساسانية إلى شرق بلاد الإمبراطورية الرومانية^(١) وبسبب ذلك انتشر النشاط الصناعي، والزراعي، في أنحاء الإمبراطورية، وحقق رخاء ورفاهية في أنحاء الدولة.

وكان المقتضى أن ينتشر العدل بين الرعية تبعاً لذلك، إلا أن الوضع أخذ شكلاً رهيباً من الطبقة البغيضة، القائمة على النسب، والحرف، يصوره صاحب كتاب إيران في عهد الساسانية في إيجاز فيقول : (كان المجتمع الإيراني مؤسساً على أساس النسب، والحرف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة، لا يقوم عليها جسر، ولا تصل بينها صلة، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمر، أو كبير، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفه من وظائفهم، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع)^(٢).

ولم تقف إهانة الطبقات الدنيا عند حد إبعادها عن الوظائف العامة، بل فرضت عليها الضرائب الباهظة بلا حساب وضبط، حيث كانت تختلف من سنة إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر، كما، وتوعاً، الأمر الذي ألحق أفدح الأضرار

^(١) تاريخ بخارى ص ٤٥ — ٤٦ .

^(٢) إيران في عهد الساسانية ص ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ .

بالضعفاء وأصحاب الحرف الصغيرة، مما أدى أخيراً بالمزارعين إلى أن يتركوا أعمالهم،
ويجأوا إلى الأديرة يلتمسون فيها المأوى والاستقرار، وكان أسعد المزارعين حظاً
ذلك الذي سمح له بأن يعمل لسيدته بأجر زهيد .

ولم تقف هذه الإهانات الواقعة على الطبقات السافلة في حياتهم المدنية، بل
كانت تلازمهم وهم في الجيش، وفي ميدان القتال، يقول المؤرخ " أميان مارسيلينوس "
:(إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب
عليهم الرق الدائم، ولم يكونوا ينالون إعانة، أو تشجيعاً، من راتب، أو أجر،
وكانت علاقة الفلاحين بالملاك أصحاب الأراضي كعلاقة العبيد بالسادة)^(١) .

وقد أدى هذا الوضع الطبقي إلى نتائج بالغة السوء، فانتشر الحقد والبغضاء
بين الضعفاء، والكبر والاستعلاء بين الكبراء، وهدد المجتمع بانقسامات خطيرة.
سكنت ملامحها نفوس الناس وقلوبهم .

ولعل في هذا الوضع بعض أسباب إنتشار واستقرار الإسلام السريع في ربوع
الدولة الفارسية، حين أتاه، لأن مبادئ الإسلام السامية صادفت وضعاً ظالماً فمحتة،
وطبقت تعاليمها مكانه، فاستقرت، وما ظهر في فارس من قوة وغنى، فقد كان
خاصةً بالطبقات الأعلى، والحاكمة وحدها، وكل ما دونهما، فقد عاش في فقر
وهوان .

(١) المرجع السابق ص ٣٢٤ .

أوضاع الفرس الدينية

كانت المجوسية وهي ديانة الفرس ، مركبة من عناصر مذاهبهم المتعددة ، التي بدأت قبل الميلاد بكثير ، واستمرت في تطورها ، وتشكلها ، حتى جاء الإسلام ، وهي ديانة في الجملة تهتم ببيان أصل المخلوقات وعدد الآلهة ، فمنذ القدم والملوك يقدسون إلهين من بين الآلهة الكثيرة ، التي يعبدها عامة الشعب ، على أساس أن أحدهما أصل الخير ، والثاني أصل الشر ^(١) وبعد تطور المجوسية على يد زرادشت نراه يرجع جميع الآلهة الموجودة إلى إلهين اثنين ، إله الخير ويسمى "أهورامزدا" ، وإله الشر ويسمى "أهريمان" وهما متضادان ، فلقد ورد في كتبهم المقدسة أن "مزدا" قال لـ "أهريمان" ما معناه : (ليس علمنا ، ولا شرائعنا ، ولا مداركنا ، ولا كلماتنا ، ولا أفعالنا ، ولا حياتنا ، أنا وأنت متفقان في شيء ، ولذا فنحن اضداد) ^(٢) .

والفرس يعتبرون أن أقوال زرادشت ، وتعاليمه قد أودعت في كتاب "زند أفستا" ، الذي تم جمعه في القرن السادس الميلادي ^(٣) ، وفي هذا الكتاب سمو خاص ، ومواعظ طيبة ، مما جعل الفرس يرفعون زرادشت بعد وفاته إلى مرتبة عالية ، فزعموا أن وجوده في الدنيا مر بمراحل خيالية خاصة ، وأنه بعث رسولاً إلى الخلق ، ونبياً لكشتاسب الملك وغيره ، هذا مع إثباته للأصلين المتضادين ، النور والظلمة ^(٤) ويظهر من كلام الشهرستاني أن نبوة "زرادشت" صحيحة لأنه يقول : إن زرادشت يدعو إلى أن الباري هو الخالق للظلام والنور ، ومبدعهما ، وهو واحد ، لا شريك له ، ولا ضد ، ولا ند له ، ويدعى كذلك أن كتاباً نزل عليه وهو "زندوفستا" ومن

^(١) الفلسفة الشرقية ص ١٨٤ .

^(٢) وحدة الدين والفلسفة والعلم ص ١٠٥ .

^(٣) الفلسفة الشرقية ص ١٨٧ .

^(٤) الملل والنحل ج ١ ص ٢١٧ .

تعاليمه ضرورة الإيمان بالروح والجسم ، والتكليف القائم على الاعتقاد ، والقول ، والعمل ، وأيضاً فأتباع زرادشت يثبتون له معجزات ، منها دخول قوائم الفرس في بطنه ، وقد بشر " زرادشت " بظهور " الرجل العالم " في آخر الزمان ، ليزين الكون بالدين والعدل ^(١) وهو يدعو الناس إلى الإيمان باليوم الآخر ، والبعث ، والجزاء .

وليس لدينا دليل ، يمنع أن يكون نبياً ما دامت تعاليمه موحدة في العقيدة ومؤمنة بالبعث ، وداعية إلى الخلق الطيب ، والعمل النافع ، وغير ذلك ، والدراجة تحت الرسل المذكورين في قوله : ﴿ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ جازر .

ويمكن تفسير ما ينسب إليه من دعوته لإلهين ، أحدهما للنور ، والآخر للظلام ، أنه من وضع أتباعه الذين حرفوا دعوته .

لكن الذى تذكره بعد ذلك أن ديانة الفرس بعد " زرادشت " داخلها فساد كبير ، أضاع أغلب معالمها ، فلقد جاء " مانى " في القرن الثالث الميلادى ، وعمق الأصلين في الوجود ، وجعلهما إلهين ، مستقلين ، أزليين ، قديمين .

وقد حكى " محمد بن هارون " المعروف بـ " أبى عيسى الوراق " أن الحكيم " مانى " زعم أن العالم مصنوع مركب من أصليين قديمين أحدهما نور ، والآخر ظلمة ، وأنها أزليان لم يزالا ، ولن يزالا ^(٢) .

وفي نهاية القرن الخامس الميلادى جاء " مزدك " فأضاف إلى فساد العقيدة على يد " مانى " فساداً أخلاقياً آخر ، حين قال بالشيوعية المتطرفة ، المنادية بالمساواة في المال ، والنساء ، لأتباعه في نظره سبب الحرب ، والقتال ، وبإلغائهما تتطهر القلوب من الأحقاد ويعيش الناس في سلام ^(٣) ، وجاءت المانوية فأوصلت الأصول إلى ثلاثة هي النار والأرض ، والماء ^(٤) .

^(١) الملل والنحل ج ١ ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ . ^(٢) الفلحة الشرقية ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

^(٣) الملل والنحل ج ١ ص ٢٢٤ . ^(٤) وحدة الدين ص ١١١ .

ولقد كانت المجوسية في عصر ظهور الإسلام خليطاً من كل هذه الآراء ،
فلقد تناسى الفرس وحدانية زرادشت ، وتمسكوا بثنائية المانوية ، بل كان العامة منهم
يؤمنون ببعض القوى الطبيعية ، ويقدمون بعض الحيوانات ، ويؤمنون أن روح
الإنسان بعد الموت تنتظر ثلاثة أيام ، وفي فجر اليوم الرابع تهب ريح إما معطره إن
كان صاحب الروح خيراً ، أو نتنه إن كان صاحبها شراً ، وبعد ذلك تذهب الروح
مع فتاة ، أو عجوز لتحاكم وتأخذ جزاءها ^(١) .

وكان الفرس قبل ظهور الإسلام يعبدون النار ويقدمونها : مؤمنين بقوتها
وشرفها ، حتى لا يعذبوا بها في الآخرة ، وقد بنوا لها بيوتاً للعبادة في كثير من نواحي
الدولة ، ففي طوس ، وبخارى ، وغيرهما أقيمت البيوت ، ومن المعلوم أن عبادة النار مع
طول الزمن تغيب فلسفتها ، وأسباب وجودها ، وتبقى هي بقداستها أمام العامة
والجماهير الغفيرة ، يعقوبها المغيبة ، وبذلك يزداد الفساد والضلال كما حصل لعبدة
الأوثان من العرب ، فإنهم بدأوها تقديرًا لأشخاص ، ثم تصوروها آلهة ، وتناسوا كل
ما يتصل بوجودها .

وقد أطلق مسمى " المجوسية " على هذا الخليط الموروث من الأقدمين ، ومن
زرادشت ، وماني ، وغيرهم ، وصار للمجوسية دولة كبرى تدافع عنها ، هي
الإمبراطورية الفارسية المنافسة لدولة الروم قبل ظهور الإسلام ، وكان الفرس يعظمون
ملوكهم ، ويقدمونهم ، ويزعمون أن الله اختار هؤلاء الملوك ، وأعطاهم ملكه ،
ليكونوا ظله بين الناس ، فلهم الطاعة ، وليس لأحد قبلهم حق ، وبلغ هذا الاعتقاد
أشدّه أيام الأسرة الساسانية ^(٢) ، التي وجدت قبل ظهور الإسلام .

(١) الفلسفة الشرقية ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٢) وحدة الدين ص ١١١ .

المبحث الرابع

الهنود

١ .

الموطن الجغرافى

و — الهنود — أمة سكنت الجزء الجنوبي من قارة آسيا، وسط مجموعة من الحواجز الطبيعية التى هيات لها لوناً معيناً من الحياة المستقرة، وطبعت حضارتها بطابع فريد، وهى أمة تشغل حيزاً كبيراً من الأرض، حيث أن مساحتها تعادل مساحة دول أوروبا مجتمعة باستثناء روسيا^(١).

ويذكر البيروني أن الهند يحيط بها من الجنوب البحر المعروف باسمها وهو المحيط الهندى، وفي جهاتها الثلاث الأخرى توجد سلسلة جبال مرتفعة^(٢). ولمعرفة ما وراء هذه المرتفعات نتطلع على سطحها، فنراه يأخذ شكلاً رباعياً الأضلاع، ضلعاه الجنوبي الشرقي، والجنوبي الغربي يطلان على البحر، ويكونان سواحل الهند وموانئها، أما الضلعان الشمالي الغربي، والشمالي الشرقي فريان يسيران مع الحافة الجنوبية الغربية لمرتفعات وسط آسيا^(٣)، وهذان الضلعان مجموعة من المرتفعات التى تتكون من جبال آسام، وسلسلة جبال الهمالايا، وجبال هندكوش وجبال سليمان^(٤). وهذان الضلعان يكونان حدود الهند مع بلوخيستان، والتركستان والصين، وبورما^(٥). قامت هذه الحدود الطبيعية المنيعة بدور عازل هام، ساعد على ازدهار

(١) أديان الهند الكبرى ص ١٩ .

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٥٧ .

(٣) ملامح الهند والباكستان ص ١١ .

(٤) تاريخ الإسلام في الهند ص ٢ .

(٥) أديان الهند الكبرى ص ٢١ .

الحضارة الهندية، وبروزها في طراز فريد، جعل تأثيرها بغيرها محدوداً، وخاصة في داخل البلاد، أما في الأطراف الشمالية عند الأبواب فكان التأثير أوضح^(١).

ونظراً لتغاير السطح الطبيعي للهند فلقد انقسمت البلاد إلى ولايات عديدة واشتهرت بها مدن كثيرة^(٢).

وأبناء الهند نشيطون منذ القدم، حيث انتشرت مجموعات منهم في البلدان حوله، ووصلوا إلى أقصى شرق آسيا، وأسسوا لأنفسهم مستعمرات لها طابع هندي خاص، وكان من هؤلاء الرجال تجار كبار، ورجال ذوو ثقافات عالية تمكنوا بها من نقل ثقافات الهند إلى المستعمرات التي أسسوها^(٣).

واستمر هذا النشاط لأبناء الهند حيث توقف في القرن الثامن الميلادي^(٤).

(١) ملامح الهند والباكستان ص ٥ .

(٢) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج ١ ص ٣٣ .

(٣) ملامح الهند والباكستان ص ١٥٤ .

(٤) يلاحظ أن الحديث هنا عن الهند يشمل شبه القارة الهندية كلها التي تتكون حالياً من دول ثلاث هي : الهند ، والباكستان ، وباكستان الشرقية .

الأوضاع السياسية

والاجتماعية والأخلاقية للهنود

والهنود أمة سادت فيها الطبقات الاجتماعية بكل وضوح، وقد تنوعت دواعي هذا التقسيم الطبقي بسبب البعد الزمني لوجوده، إلا أن الراجح أنه قام بسبب اختلاف العناصر الهندية، فإن الآريين، والتورانيين، وفدوا على الهند، واختلطوا بسكان الأصليين، يؤيد ذلك أن الآريين قوم بيضو اللون، طويلو القامة، والسكان الأصليون سودو اللون، قصيرو القامة، وكلمة طبقة باللغة الهندية هي " فارنا " ومعناها لون (١) وعند استقرار الآريين في البلاد خافوا مغبة الاختلاط بغيرهم، فوضعوا هذه الطبقات، وجعلوا أنفسهم طبقة برهمية عالية .

تليها طبقة الكشترية، فالجيش تقوده الكشترية، والبراهمة يؤيدونه بالدخيل الذي لا يتم النصر إلا به .

وإلى جانب هاتين الطبقتين الآريتين وضع التورانيون في طبقة ثالثة هي طبقة الويشية .

وتأتى بعدهم الطبقة الرابعة والأخيرة وهي طبقة الشودرا التي تنظم أصحاب المهن الحقةرة والخدم (٢) .

وكان الهنود يمثلون الطبقات الأربع بجسم إنسان، فالبراهمة يمثلون الرأس، والكشترية يمثلون المنكب واليدين، والويشية تمثل الفخذ، والشودرا تمثل القدم . ويعتقد الهنود أن الطبقات خلقت من جسم براهما، ومن العضو الذي تمثله كل طبقة (٣) حيث يقول متو وهو يعدد خلق برهما للكائنات : (تم خلق البرهمي من

(١) ملامح الهند وباكستان ص ١٤٧ .

(٢) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج ١ ص ٩ .

فمه ، والكاشترى من ذراعته ، والویشيا من فخذيه ، والشودرا من رجله (١) .
وقد وردت نصوص دينيه تحدد وظيفة كل طبقة ، فلقد جاء في الفقه
الهندوسى الأكبر وذكره الأستاذ / أحمد شلي في " أديان الهند الكبرى " : (على
البرهمى أن يشتغل بالتعليم ، والتعلم ، وإرشاد الناس في دينهم ، فكان هو المعلم
والكاهن ، والقاضى ، أما كشتريا فعليه أن يقدم القرابين ، ويحمل السلاح للدفاع عن
وطنه ، وشعبه ، أما ويشيا فعليه أن يزرع ، ويتجر ، ويجمع المال ، أما شودرا فعليه أن
يخدم الطوائف الثلاث الشريفة (٢) .

والمسيودون هم طبقة " الشودرا " وهم سلالة العنصر الأصيل من السكان
القدامى ، ولا يجزى في عروقهم الدم الآرى ، أو التوراني ويسمون بـ " زنوج الهند " .
وقد حرمهم المجتمع حقوق الإنسان العادى ، فليس لهم حقوق كطبقة ، ولا منزلة لهم
يشتغلون برذالات الأعمال ، وهم منفيون ، منحطون (٣) لدرجة أنه إذا استمع أحدهم
جلسة لرجل برهمى وهو يتلو " الفيدا " صب في أذنيه الأنك ، وإذا روى جالساً معه
كوى بالنار ، ولا يجوز له أن يتزوج من الطبقات الثلاث الأخرى (٤) .

يقول مانو " أن الخالق قد ذرأهم " الشودرا " عبيداً ، وكل من انتمى إلى
هذه الطبقة فمن المحال أن يكون حراً حتى ولو أعتقه سيده ، ومن الذى يستطيع أن
يحرره من الرق إذا كان الرق طبيعة فيه (٥) .

ومع هذه المنزلة الوضيعة للشودرا ، فقد وجد في المجتمع من هو أدنى منزلة
منهم ، وهم الوافدون إلى البلاد ، الذين ولدوا بعيداً عن براهما ، وهؤلاء لا حقوق

(١) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) أديان الهند الكبرى ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٧ .

(٤) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٧٧ .

(٥) روح الإسلام ص ١٥ .

لهم مطلقاً .

وكان النظام السياسي في الهند ملكياً حيث يرأس الملك الدولة، ويساعده الوزراء، ورجال التشريع^(١) ، ومع ذلك فالملكية تعتمد على نظام مقدس ، فالملك إله في صورة إنسان ، وعليه أن يكون عادلاً، وخداماً لشعبه، ومحافظاً على حقوق الطبقات بكل دقة^(٢) .

وقد ازدهرت الهند بهذا النظام السياسي، فنمت حضارتها وفلسفتها، وكثرت المدن المليئة بالحركة والناس، وانتشرت المستشفيات ، والمدارس ، وعم الرخاء والعدل وخاصة مع بداية القرن الرابع الميلادي ، حيث ظهرت أسرة " كبتا " في الهند .

وقد نعم البراهمة مع هذا النظام المقدس، ونالوا كل حقوقهم وصاروا سادة المجتمع ، لهم ما يريدون^(٣) وهم ملجأ الجميع في كل الحالات .

أما بقية الطبقات فإنها تتمتع بالحقوق التي يسمح بها البراهمة ، وليس عليهم إلا الطاعة ، والخضوع .

وقد أدى تمسك المجتمع بالتعاليم المقدسة في أنظمتها الاجتماعية والسياسية إلى ازدهار اجتماعي، تمتع به أهل الطبقات الشريفة، وما عداهم فلا شيء لهم من حقوق كما أدى هذا النظام الطبقي في الهند إلى إذلال طبقة المنبوذين ، وحرمانهم من كافة حقوقهم ، وقد وصل مستواهم أحياناً إلى أقل من مستوى الحيوان ، وعاشوا حياة بدائية متخلفة ، ولم يتقنوا إلا السخرة ، والطاعة ، في إطار القداسة البوذية .

(١) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ص ٣٢ .

(٢) آديان الهند الكبرى ص ٧٢ .

(٣) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ص ٣٣ .

أوضاع الهند الدينية

يرجع ظهور الهندوكية إلى أقدم العصور، وهي ديانة معقدة، لا تعرف البساطة في تعاليمها، أو السهولة في مناسكها، أخذت كثيراً من معتقدات الوافدين إلى الهند من أقدم العصور^(١).

وللهندوكية كتب عدة أهمها "الويدا" وأهميته ترجع إلى تصويره لحياة الآريين، ومعيشتهم، ونظمهم، وعقائدهم.

وقد مرت هذه الديانة بأطوار مختلفة، جعلت تطبيقاتها تأخذ أشكالاً متعددة فمن أشكائها تأليه قوى الطبيعة والكون، حيث يتصور مؤلهوها أن للطبيعة روحاً، وقوة، تنفع وتضر، ومع تعدد آلهة الهنود إلا أنهم إذا اتجهوا لإله من هذه الآلهة سموه بـ "رب الأرباب" و "إله الآلهة" وهو إحساس منهم بالوحدانية غير مركز^(٢).

وللهندوكية سلوك أخلاقي، يقوم على فكرة الجزاء على العمل في الحياة الأولى للروح، أو بعد الحياة الأولى، لأن الروح عندهم لا تفنى، بل إنها تتقل بعد فناء جسد صاحبها إلى جسد آخر، لتأخذ جزاءها، ولتتمتع بشهوات المادة التي لم تنلها من قبل، وتستمر هكذا في تنقلها من جسد إلى جسد، حتى تغلب على شهواتها وتقنع بما حصلت عليه^(٣) وحيث تمترج بـ "براهما" في مرحلة تعرف عندهم بـ "الانطلاق" ذلك أنهم يؤمنون أن روح الفرد جاءت من روح العالم، ومآلها إليه^(٤) فإذا ما وصلت إلى الانطلاق فقد اتحدت مع أصلها الأول، وهذه أشكال صوفية قائمة على إحساس بوحدة الوجود.

(١) ملامح الهند والباكستان ص ١٤٣.

(٢) أديان الهند الكبرى ص ٤٢، ٤٨.

(٣) ملامح الهند والباكستان ص ١٤٥.

(٤) ملامح الهند والباكستان ص ١٤٥.

وهكذا نرى أن عبادة الهندوكية انتقلت من البساطة إلى التعقيد ، ومن البدائية إلى التفلسف ، وكان من أثر هذا التنقل تعدد طوائف الهنداكة تعدداً يحير العد ، وفي الحملة فإن عقائد الخاصة تختلف عن عقائد العامة ، حيث اتجه الخاصة إلى كون من التوحيد الغامض ، المشوش ، بينما عاش العامة مع التعدد والتجسيد ^(١) إلا أن العقائد كلها كانت تلتقى عند فكرة الجزاء ، وتناسخ الأرواح ، والروح الواحدة للهندوكية ^(٢) وتقوم العقيدة الدينية عند الهنود على أساس النظام الطبقي السابق ذكره . لأن المنبوذين لا يسمح لهم بإعتناق الهندوكية ، ولهم أن يختاروا ديناً آخر ، مما أدى إلى حدوث ثورات عدة ضد هذه النظم ، وخاصة نظام الطبقات ، وأشهر هذه الثورات ثورتان قام بهما الزعيمان " مهاويرا " و " بوذا " وهما من طبقة " الكشتريا " التي ضجت من ظلم البراهمة ، واضعى الهندوسية ، وقد قاما بثورتيهما ضد الهندوسية ، وأدخلوا بعض التعاليم الجديدة عليها ، وأعلنوا ديانتين جديدتين هما : الجينية والبوذية **فالجينية** وهى مذهب " مهاويرا " تنكر الإله ، وتنادى بالمسألة ، ولا تعترف بالطبقات ، إلا أن مبدأ المسألة أدى بأتباع مهاويرا إلى الإقرار بألهة الهندوس للهندوس ، واحترام عبادة البراهمة .

وعلى العموم فالجينية دين يؤمن بالزهد ، والتقشف ، والفناء ، والسلوك السوى ، حتى تصل الروح إلى مرتبة " النجاة " التى تشبه مرتبة " الانطلاق " وكل تعاليمهم المقدسة أتت من خطب " مهاويرا " ومريديه ^(٣) وكان انتشار هذا المذهب ضئيلاً في العدد ، انحصر في طبقة الكشتريا ، والمنبوذين .

والبوذية هى دعوة " بوذا " تلغى نظام الطبقات ، وتدعو إلى الصبر ، وتحمل الألم ، ودعم قوة الذات ، لتقهر سيطرة الشهوة والهووى وترفع النفس عن عالم

(١) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٣٩ .

(٢) أديان الهند الكبرى ص ٥٢ .

(٣) أديان الهند الكبرى ص ١١٣ وما بعدها .

المادة ، وكانت تنادى بالسلوك القويم حتى يمتزج الهندوسى مع " النرفانا " وهى تؤمن بتناسخ الأرواح ، وإمكانية الوصول إلى " النرفانا " ^(١) والاندماج معها كما حدث فى الانطلاق ، والنجاة .

أما فكرة البوذية عن الإله فقد تجاهلته تماماً ، ولم تتكلم عنه ، ولم يشر بوذا إلى ذلك لا نفيًا ولا إثباتًا ، بل كان يدعو إلى اكتشاف الألم ، والبحث عن مصدره من أجل إعدامه لتزول الآلام ، ويصل الإنسان إلى السعادة ^(٢) .

وكان صمت البوذية عن أفكار الألوهية الهندوسية ، وقصرها إلغاء نظام الطبقات على من دخل البوذية ، وتبسيطها العقائد سبباً فى إقبال الناس عليها ، وتمسكهم بأخلاقها ، مع ولائهم لآلهة الهندوس ، وكان هذا الوضع سبباً فى أن مظاهر البوذية لم تكن خالصة بها ، بل كانت خليطاً منها ومن الهندوسية ، الأمر الذى جعلها محل تقبل فى المجتمع الهندى ، وسرعان ما اكتسبت تعاليم الهندوسية ، وذابت فيها وقبلت من الناحية العملية لا النظرية نظام الطبقات الهندوسى .

وأتى القرن السادس الميلادى على الهند والبوذية تنتشر بثقافتها ، وأخلاقها ، وحضارتها ، إلى عديد من الأماكن خارج الهند ، فوصلت إلى البنغال ، والصين ، شرقاً وكشمير ، وكوريا شمالاً ^(٣) ، وكان لاعتقاد الهندوس بتناسخ الأرواح أن عبدوا الحيوان ، على أساس أن روحاً قديمة تقمصته ، فعبدوه على أساس أنه جسد حقيقى ، أو رمزي للأسرة ، وأنه معطيهم الخير بلا مقابل ^(٤) .

وقد اتخذ العامة منهم الأصنام وجعلوها آلهة لهم ^(٥) يتعبدون لها ، ويتقربون إليها بالقرابين ، وهى عندهم تجسيد لشيء قوى وهام ، وكانوا يسمون الصنم باسم

^(١) أدريان ألدن الكبرى ص ١٥٦ وما بعدها .

^(٢) الله ص ٦٥ .

^(٣) أدريان ألدن الكبرى ص ٨٤ .

^(٤) الله ص ٦١ .

^(٥) اللذان والنحل — للشهر ستانى — ج ١ ص ٢٦٧ وما بعدها .

القوة الغائبة عنهم ، فصنعوا للشمس صنماً ، وللقمر آخر ، وللنار مثل ذلك ..
وهكذا .

وقد أقاموا في بعض الأحيان بيوتاً للأصنام يطوفون حولها ، ويسجدون فيها
ويبدو أن هذه الأصنام هي من بقايا آلهة الهندوسية في بدايتها ، وقد بقيت عند النارة
وفي عدد قليل من الشعب الهندي .

المبحث الخامس

ملاءمة الواقع العالمي

للحركة بالإسلام

بالنظر إلى أوضاع العالم قبيل مجئ الإسلام كما ظهرت في المباحث السابقة نلمس مدى حاجته إلى دين ، ينقذه من ضلاله ، وهوانه ، وقد تجلت رحمة الله تعالى بالناس فجاء الإسلام بدعوته ، وعمل عمله في العقول والقلوب ، وأخذ في صناعة العالم بمنهج الله تعالى .

ويمكن إجمال أوضاع العالم التي جعلته ملائماً لدعوة الإسلام في النقاط التالية : —

أولاً : شيوع الضلال الديني : -

يرحم الله عباده ، ويترل عليهم كتبه ، ويرسل فيهم رسله ليخرجهم من ظلمات الشرك والكفر ، إلى أنوار الحق والإيمان .
وجاءت الرسائل تترى ، فكلما احتاج الناس إلى الحق أتاهاهم رسول من قبل الله تعالى بالهداية والخير .

ودائماً تأتي الرسالة في إحدى الحالات التالية : —

١. أن تكون الرسالة السابقة خاصة بقوم معينين ، وحينئذ يحتاج غيرهم إلى رسالة أخرى .

٢. وإما أن يتطور أتباع الرسالة فكراً ، أو اجتماعياً ، مما يجعل الرسالة السابقة فيهم قاصرة بتعاليمها عن ملاءمة التطور الجديد .

٣. وإما أن تختفى معالم الرسالة السابقة ، أو أغلبها لطول الزمن ، مما يجعل أتباعها يعجزون عن معرفتها لتطبيقها .

٤. وإما أن يقوم نفر من الناس بتحريف الرسالة الموجودة لغاية في أنفسهم ، وحينئذ يحتاج الناس إلى رسالة صحيحة خالية من التحريف .

وللناس في كل حالة من الحالات المذكورة عذر في عدم الاتباع ، وترك ما عندهم من رسالة لأنها تكون قاصرة عن الحق ، لا تمثل هدى الله للناس .

فدين إبراهيم " ﷺ " قبيل ظهور الإسلام لم يبق منه إلا بعض رموز لا تمثل شيئاً من الحقيقة ، وقد رأينا كيف امتلأت الكعبة بالأصنام ، وكيف اخترع العرب ألوان الشرك ، وابتدعوا صوراً عديدة للعبادات ، وزعموا أن ذلك من دين إبراهيم " ﷺ " .

ورأينا أهل الكتاب وقد أدخلوا في دين عيسى " ﷺ " ما ليس منه ، وحرفوه وبدلوه وشغلوا أنفسهم بالمجادلات ، والمحاورات حول الألوهية ، والمسيح ، ومنه مما لا يفيد .

ورأينا ما كان عند الهند ، وفارس من ضلال ، وفساد جعلهم يعبدون النار والحيوان ، وكافة مظاهر الطبيعة المخلوقة .

كل هذا يؤكد الضلال الديني في العالم كله ، ويؤكد حاجة الناس إلى دين ينقذهم من هذا الضياع الذي هم فيه ، وفي رواية سلمان الفارسي عن قصة إسلامه دلالة واضحة على هذا الضلال الذي ساد العالم كله لأنه عايش الجوسية، والنصرانية، واليهودية، في هذا الزمان، قبيل ظهور الإسلام .

يروى ابن عباس عن سلمان الفارسي أنه قال : (كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان، من أهل قرية منها يقال لها : (جى) ، وكان أبى دهقان قريته ، وكانت أحب خلق الله إليه ، فلم يزل به حبه إياى حتى حبسنى في بيت كما تحبس الجارية واجتهدت في الجوسية حتى كنت قطن النار الذى يوقدها، لا أتركها تخبو ساعة . وكان لأبى ضيعة عظيمة .

شغل في بنيان له يوماً ، فقال لى : يا بنى إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتى فاذهب فاطلع عليها ، ودبر شئونها ، وأمرنى فيها ببعض ما يريد .

ثم قال لي : لا تحتبس علي ، ولا تغب عني ، فإنك إن احتبست علي كنت أهم من ضيعتي ، وشغلتي عن كل شيء من أمري .

فخرجت أريد ضيعة ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدري سبب حبس أبي إياي في بيته ، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم ، دخلت عليهم أنظر ماذا يصنعون ؟ فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت : هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه ، فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبي ولم آتها .

فقلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟

قالوا : بالشام .

ثم رجعت إلى أبي ، وقد بعث في طلبي ، وقد شغلت عن عمله كله .

فلما جئته قال : أي بني أين كنت ؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟

قلت : يا أبتى مررت بناس يصلون في كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيته من دينهم ، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس .

قال : أي بني ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه .

قلت : كلا والله ، إنه لخير من ديننا .

فخافني ، فجعل في رجلي قيداً ، ثم حبسني في بيته .

وبعثت إلى النصارى وقلت لهم : إذا قدم عليكم من الشام تجار من النصارى

فأخبروني بهم ، فأقبل عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني .

فقلت : إذا قضوا حوائجهم ، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم ، فأذنوني بهم .

فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم ، فألقيت الحديد من رجلي ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام .

فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين ؟

قالوا : الأسقف في الكنيسة .

فجاءته فقلت : إني قد رغبت في هذا الدين ، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك ، وأتعلم منك ، وأصلي معك .

قال : أدخل ، فدخلت معه ، فكان رجل سوء ، يأمرهم بالصدقة ، ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا له منها شيئاً اكتثره لنفسه ، ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهب ، وورق ، وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه .

فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ، ويرغبكم فيها ، فإذا جمعتموها له منها أشياء جثتموها بما اكتثرها لنفسه ، ولم يعط المساكين منها شيئاً .

قالوا : وما علمك بذلك ؟

قلت : أنا أدلكم على كثره .

قالوا : فدلنا عليه .

فأريتهم موضعه فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً .

فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبداً ، فصلبوه ثم رموه بالحجارة ، ثم حاقوا برجل آخر فجعلوه بمكانه .

يقول سلمان : فما رأيك رجلاً يصلي أفضل منه ، ولا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ، ولا أداب ليلاً ونهاراً منه ، فأحبته حباً لم أحبه من قبله ، فأقامت معه زمناً ثم حضرته الوفاة ، فقلت له : يا فلان ، إني كنت معك ، وأحببتك حباً لم أحبه أحداً من قبلك ، وقد حضر بك ما ترى من أمر الله ، فإني من توصي بي ؟ وما تأمرني ؟

قال : أي بني ، والله ما أعلم أحداً اليوم علي ما كنت عليه ، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل ، وهو فلان ، فهو علي ما كنت عليه ، فالحق به .

فلما مات وغيب لحقت بمصاحب الموصل ، فقلت له : يا فلان إن فلاناً أو صاني عند موته أن الحق بك ، وأخبرني أنك علي مثل أمره .

فقال : أقم عندي ، فأقمت عنده ، فوجدته خير رجل (على أمر صاحبه) ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة ، قلت له : يا فلان ، إن فلاناً أوصاني إليك وقد أمرني بالحق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصي بي ؟ وما تأمرني ؟

قال : أي بني ، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين ، وهو فلان ، فالحق به .

قال : فلما مات وغيب ، لحقت بصاحب نصيبين ، فجئته فأخبرته خبري ، وما أمرني به صاحبي .

قال : أقم عندي ، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فو الله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حضر قلت : يا فلان ، إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصي بي ؟ وما تأمرني ؟ قال : أي بني ، والله ما أعلم أحداً بقى على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأته ، فإنه على مثل أمرنا .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية ، فأخبرته خبري .

فقال : أقم عندي ، فأقمت مع رجل على أمر أصحابه وهديبهم ، واكتسبت حتى صارت لي بقيرات وغنيمة .

قال : ثم نزل به أمر الله — عز وجل — .

قال : فلما حضر ، قلت له : يا فلان ، إني كنت مع فلان ، وأنه أوصى بي إلى فلان وأوصى بي فلان إلى فلان ، إلى فلان ، وأوصاني بي فلان إليك فإلى من توصي بي ؟ وما تأمرني ؟

قال : يا بني — والله — ما أعلم أحداً على ما كنا عليه من الناس ، أمرك أن تأتيه ، ولكن قد أظلك زمان نبي ، هو مبعوث بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مهاجرة

إلى أرض بين حرتين ، بينهما نخل ، به علامات لا تخفى : يأكل الحديد ، ولا يأكل
الصدقة ، بين كتفيه حاتم البوة ، فإن استطعت أن تلحق بشك البلاد ، فافعل (١) .
ونلاحظ من القصة ما كان عليه الفرس ، والبسارى ، وما كان عليه الخبيز
من ضلال جعلت سلمان " ﷺ " يترك موطنه ، ودين آبائه ، ويتنقل في العديد
الأماكن باحثاً عن الدين الحق ، حتى وجدته في مبعث المصطفى " ﷺ " .

ومن رحمة الله بالناس أن جاءهم بالإسلام في وقت تلاقت فيه الأفهام .
ونضجت العقول ، وتشابهت في التوجه والتفكير ، حتى صارت البشرية كياناً فكرياً
واحداً في مصاحبة دين الله الواحد ، الذي جاء مناسباً للناس أجمعين .

وقد ضمن الله دينه من التعاليم ما يجعله صالحاً على الزمن كله لا يقصر .
غاية للناس إلى يوم القيامة ، وحفظ الله دينه بثبوت الوحي الذي نزل به ، وهدى
الأسباب الموجهة لهذا الحفظ ، الأمر الذي يؤكد استمرار الإسلام بين الناس كما نزل
من عند الله تعالى بلا تحريف ، أو غموض .

إن الحقيقة التطبيقية تؤكد كفاية الإسلام للناس وعدم حاجتهم لدين جديد .
وكل ما عليهم أن يعلموا دينهم ، ويعملوا بما جاء به .

ثانياً : هوان الإنسان :

سيطر على العالم قبل ظهور الإسلام وضع سيئ ، ضيع حقوق الإنسان
وحرمه من حريته ، وكرامته ، وسائر حقوقه .

ففسى كل مجتمع وجد العبيد ، والمبتودون ، والضعفاء الذين يعيشون تحت
السيادة ، والرؤساء ، لدرجة أن الإنسان الضعيف كان يعد جزءاً من الأرض يتخذ

(١) رواه أحمد في المسند — الفتح الرباني — باب المناقب — باب ما جاء في سلمان ج ٢٢ ص ٢٦١ : والمحاكم
مستبركة ، والطيراني في الكرم بنحوه ، يقول الطيبي : رجال هذه الرواية رجال الصحيح ، وقد صرح محمد
إسحاق بالسماع فأنفست قصة التدليس ، وذكر البخاري في الصحيح أن قصة إسلام سلمان تناوفا بضعة عشر
سنة .

غيره كما يملك الحيوان ، والمتاع ، والعقار .. وانقسمت المجتمعات جميعاً إلى طبقات عديدة يتمتع من خلالها فريق الطبقة العليا بكل شيء ، ويحرم الآخرون من أي شيء ، ولذلك انتشرت الأحقاد ، والكراهية بين أبناء الشعب الواحد .

ومن العجيب أن استغلال الإنسان لغيره ، واستعباده لغايته ، وأمانيه ليس ثوباً دينياً ، فالطبقات العليا في فارس والهند هي آلهة الناس ، وليس على الطبقات الدنيا إلا السمع والطاعة وفي الدولة الرومانية يقسمها شغل القياصرة الناس بأمور جدلية حول طبيعة المسيح ، وأمه ، وحول الألوهية ، وصلة المسيح بالله ... ومع كل هذا الجدل كانت طبقة الكنيسة ، تملك كل شيء ، فهي ظل الله في الأرض ، وعليها المحافظة على ما للمسيح من قداسة ، وتقدير .

وكان السيادة في كافة الأقاليم يرهقون الناس بدفع الضرائب ، وتخصيل الإتاوات المختلفة بمسميات كثيرة ، ويجبرونهم على ذلك ، وإن كان فيسا يدفعون معاشهم وحياتهم ، وحياة أبنائهم .

وهكذا عاش إنسان هذا الزمان مقهوراً ، مظلوماً ، مستعبداً باسم دين العلية الحاكمة وقد تذكر بعض الصور الأخلاقية الكريمة هنا ، أو هناك ، إلا إنها لا تدل على طبيعة العلاقات الاجتماعية بصورة عامة ، لأنها صور وجدت في حياة الرؤساء والقادة ، والطبقات العليا ، ولم ير العامة منها شيئاً .

وهذا الوضع يفسر سر مسارعة الضعفاء إلى اعتناق الإسلام ، والدخول في دين الله تعالى ، لما رأوا فيه من عقيدة كاملة ، ترضى العقل ، وتشبع النفس ، وتحقق للجميع الحرية ، والمساواة ، في إطار الأخوة الدينية التي تؤكد على أن الناس سواسية لا يفضل أحدهم أخاه إلا بالتقوى ، وجزاء الجميع عند الله تعالى .

ثالثاً : سهولة التواصل :

لم تستمر البشرية على بداوتها الأولى ، ولكنها تقدمت تقدماً هائلاً في المدنية ، والتحضر المادي .

وقد برز ذلك بوضوح في اكتشاف طرق الاتصال العديدة ، التي ربطت
العالم كله ، وأصبح التجار يرحلون ببضائعهم إلى كل مكان في المعمورة ، ويركبون
البحر على اتساعه وعمقه ، وصار شرق أفريقيا ، وبلاد الحبشة ، مرتبطاً بالبحر
والجزيرة العربية ، وتمكن تجار مكة من الرحلة بقوافلهم شرقاً ، وغرباً ، وشمالاً
وجنوباً في يسر وأمان .

ولم تعد المحيطات حاجزاً يمنع من التنقل ، وإنما ساهمت الصناعات العديدة
تحقيق التواصل ، وسهولة الانتقال من مكان إلى مكان .

صحيح أن التواصل لم يكن سلاماً كله ، فلقد نشأت الحروب ، وبرزت
الأقوياء على الضعفاء ، وتحولت البلاد الصغيرة إلى ولايات تابعة للفرس أو للروم
تستغل خيرها ، وتستخر أصحابها لخدمتهم ، ومصالحهم .

ومع ذلك ففي التواصل كسب مادي ، وارتقاء عقلي ، ومعرفة بعادات
وفكر الآخرين .

وكثيراً ما انتقلت العادات ، والأفكار ، والمذاهب مع هؤلاء المسافرين .
وقد حاول القسوس ، والأباطرة ، الاستفادة بهذه التطورات المدنية ف عقدت
المؤتمرات ، والمجامع العالمية ، التي كان يحضرها الآلاف منهم ، في كنائس مصر ،
في بيت المقدس ، أو في الشام ، أو في أوروبا ، بسهولة وأمان .
وهاجر المسلمون إلى الحبشة وكأفها بلد مجاور لمكة ..

وظهر في كل إقليم من يتقن المعرفة بالطرق ، وقيادة القوافل في الرحلة
والحركة .

ولما جاء الإسلام ساهمت هذه الخاصية في نشر الدعوة وتبليغها للناس في كل
مكان ، حيث تمكن الدعوة من الوصول إلى كل مكان قصدوا التبليغ فيه ، بل
الطريق معروف لهم ، ومخاطبة أهل البلاد أمر عادي لسابق إحاطتهم بلغتهم
وعاداتهم .

وقد ساعد هذا التواصل على سرعة انتقال الأفكار ، والأخبار ، ولذلك كان كل فريق يعرف أخبار الآخرين ، وكانت العقائد، والأديان، والمذاهب الخاصة بجماعة ما معلومة لغيرهم من الناس .

فلما بعث محمد ﷺ انتشر خبره في الجزيرة العربية ، وفي العالم كله ، ولذلك جاءت الوفود إلى مكة لاكتشاف أخبار الدعوة الجديدة ، فلما رأوا موقف أهل مكة انتظروا نتائج صراعهم مع الدعوة ، فلما فتحت مكة دخلت الجزيرة كلها في دين الله تعالى ..

رابعاً : تعدد الصراع : ■

ساد العالم في هذا الزمان صراع عام ، فلم تخل أمة، أو منطقة منه ، سواء كان الصراع بين عناصر الأمة الواحدة ، أو بينها وبين غيرها ، وأهم ما تتميز به هذا العصر هو تكرار الصراع تكرراً متلاحقاً فمنهمز اليوم ينتصر غداً ، وهكذا دواليك من غير توقف ، وغالباً ما كان الصراع بسبب سياسي ، أو اقتصادي ، أو ديني ، تبعاً لاختلاف البيئات ففي البيئة العربية لم ينشأ صراع بسبب السلطة خاصة بعد أن وزع (قصي) الأعمال بين القبائل وجعلها فيهم وراثية ، وإنما كان صراع العرب بسبب الاقتصاد في أكثر الأحيان .

وفي البيئة الرومانية كان سبب الصراع ينحصر في الدين والسياسة .

وفي الفرس والحبشة كان السبب في الدين .

وفي الهند كان السبب في نظام الطبقات المعروف فيهم .

وقد ساد الصراع الداخلي سائر الأمم ، ففي الدولة الرومانية الشرقية قامت

ثورات عدة أشهرها ثورة الزرق والخضر أثناء حكم جستنيان سنة ٥٣٢م التي

طالبت بإقصاء وزير المالية وإجراء تعديلات كثيرة ، وقد قضى جستنيان على هذه

الثورة بإراقة دماء كثيرة وصلت إلى قتل خمسة وثلاثين ألفاً^(١) .

^(١) الإمبراطورية البيزنطية ص ٦٠ - ٦٣ .

وفي الرومانية الغربية نشأت دولة جرمانية ، وقامت ثورات عدة ، وجرى كثير من أشهرها في بلاد الغال " فرنسا " حيث ظهر الصراع بين كلوفيس وسيجاريوس ، والثورنجيين ، والبرجنديين ، والأليمان ^(١) وكان هناك صراع إيطاليا ^(٢) وبين البربر في شمال أفريقيا ^(٣) .

وبين العرب كانت أيامهم كيوم داحس الذي استمر مدة طويلة ، وكان حرب حاطب ، ويوم بعث بين الأوس والخزرج وقد استمرت إلى قبيل الإسلام . وفي فارس كان الصراع مستحكماً بين أفراد البيت الواحد ، بين الأب والابن ، ومما ساعد على ازدهار الصراع في الفرس ظهور مذهب " ماني " القائم بالشيوعية المطلقة .

ومع الصراع الأقليمي وجد الصراع الدولي بين الفرس والروم ، إذ كانت الحرب مستعرة بينهما على الدوام في أطراف الجزيرة العربية جنوباً في اليمن ، وشمالاً بين الغساسنة والمناذرة .

إن الصراع بكافة أشكاله وصوره يؤدي حتماً إلى تغيرات اجتماعية ، كانت هذه التغيرات متجهة إلى التقدم ، أو إلى التأخر ، وقد سلم علماء الاجتماع بضرورة هذه التغيرات ^(٤) ، إلا أنها تتجه عندهم في النهاية إلى التطور والتقدم يقول إيمانول كانت : إن القوة التي تدفع التاريخ إلى التطور هي الصراع ، وهي يرى أن التعارض هو أهم مؤثر في العلاقات الإنسانية ، وأن حركة التطور الاجتماعي ما هي إلا النماء المستمر للأضداد ثم اندماجها في النهاية لإيجاد مرحلة من التطور ^(٥)

(١) المسلمون والجرمان ص ٣٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٠ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٥ .

(٤) أصول علم الاجتماع ص ٢٢٠ .

(٥) أصول علم الاجتماع ص ٨٥ .

ومن التغييرات التي يمكن أن تحدث بعد أي صراع ظهور قوى جديدة، وبروز أفراد يقابلون المخاطر بفهم وشجاعة ، كما أن التفتح الذهني يجعل المتصارعين لا يتعصبون لشيء معين ، ويبحثون عن أية قيمة إنسانية تخلصهم من هذا الصراع ، فإن الطبقة المستضعفة تمنى الخلاص والهروب مما هي فيه .

وقد استفادت الدعوة الإسلامية من كل هذا، لأن القوى الجديدة التي ظهرت كانت ركيزة لانطلاق الدعوة ونشرها ، وكان أتباع الدعوة الأول من هذه الفئات الجديدة التي لا تتعصب لموارث قديمة .

وأيضاً فإن الانفتاح الذهني وذوبان التعصب الأعمى، يفيدان الدعوة في كثير فبالذهن الصافي تفهم التعاليم والأفكار ، وذوبان التعصب تتخلص الدعوة من عدو بغض يقف في طريقها .

إن فكرة البحث عن قيمة راقية ، وئلاص للضعفاء ، وجدا في الدعوة بغيتها ، فكان الضعفاء هم أتباع الدعوة في العرب وفي كل مكان، لأنهم بها يتخلصون من مهانة الرق ، وذل الطبقية ، وضعة المنبوذين ، وبها كذلك لا يتجهون بالتعظيم والتقديس إلى شخص ما ، لا يبالغون منه سوى الظلم ، والجحروت ، والتعالي وإنما يتجهون إلى الله الخالق ، صاحب النعم كلها ، الذي يملك الخلق كله ، ويحيط به علماً ، وإرادة ، وقدرة ، ويوزع رحمته على جميع الناس ، ويأمر في الدعوة بالقيم الراقية ، والسلوك الممتاز ، ويحث على إقامة أخوة صادقة ، ومساواة حقيقية ، وعدل في الكسب والعمل .

إن وضعية الضعفاء تتفق لأول وهلة مع روح الدعوة ومبادئها ، والمتصارعون يجدون بغيتهم في الدعوة ، لأنها تخدم سبب صراعهم ، وتؤاخي بينهم بالحسن، وتعودهم على الألفة والخير .

إن صراعات هذا الزمن تميزت عن كل ما سبقها بالشمول، والعمق، حيث انتشرت في العالم كله، بشكل مستمر، ومتجدد ، كما أنها لامست سائر حياة الناس

وعاشت في نفوسهم وأحلامهم ، ولذلك كانت هأيتها أمنية صادقة على مستوى هذا التسمول ، وهذا العنق ، فلما جاءت الدعوة الإسلامية هادفة إلى تغيير جذري في المجتمع ، وإزالة الصراع والآلام من حياة الناس ، وتحرير العبيد ، والمسيودين ، والأجراء من وضعهم اليأس ، ووضعهم في الإطار النظيف الذي وضعته للناس أجمعين كما فيه من كرامة ، وحرية ، ومساواة : لما جاءت هكذا آمن بها الجميع وانتشرت بسرعة عجيبة قوية .

خامساً : النضج الفكري :

شاهد القرن السادس الميلادي تطوراً عقلياً في كل أرجاء المعمورة بشكل لم يعهده الناس من قبل حتى كأن البشر قد ترقوا من طفولتهم الذهنية ، إلى مرحلة بلوغ فيها الإنسان أشده ، كما يقول الشيخ / محمد عبده ^(١) ولعل المراد من النضج العقلي المذكور هو وصول الإنسان إلى التفكير الكلي ، المنظم ، الذي يستنتج من المحسوس ومن القضايا العقلية أشياء أخرى غيرها ، وينظر للحياة نظرة فيها الرضى القائم على التحليل ، والنقد ، أو السخوط المعتمد على الدليل والمناقشة ، ويحاول دائماً التمسك بالحق والعلا والتقدم .

إن طفولة الإنسان كانت تقوم على المحسوس فقط ، تنبهر بالعجائب وتندهش بالظواهر الخارقة كعندها مع الرسائل السابقة : لأن الخوارق إليهم كانت حسية ، وكانوا يؤمنون بعدها خائفين ومندهشين ، كما حدث لما أحيى المسيح شأياً في مدينة " نايين " فقد أخذ الجميع خوفاً وشكوا الله قائلين : قد قام فينا نبي عظيم واقتقد الله شعبه ^(٢) .

ولقد كان عصر الدعوة الإسلامية يوافق عصر نهض عظمى وافتتح ساد العالم كله ، وقد تجلى هذا الواقع في نقد ظهر في كل مكان ، متجهاً إلى العقيدة

^(١) رسالة التوحيد ص ١٥٥ .

^(٢) انجيل لوقا - الأصحاح السابع فقرات ١٤ - ١٦ .

الدينية ، وأوهامها ، ولم يجد العلماء مشقة أمام الخوض فيما كان ممنوعاً من قبل باسم الحق المقدس لرجال الدين ، وعقائدهم على اختلاف أممهم وأديانهم .

ففى العالم المسيحى الواسع بدأت الأصوات ترتفع ضد أوضاع لا تتفق مع الطبيعة العقلية، من أمثال المناداة بألوهية المسيح ، وتركيبه من طبيعتين، مع إصرار هذه الأصوات على مذهب الفطرة القائل ببشرية المسيح ، وتكونه من طبيعة إنسانية واحدة ، وقد اختاره الله ليكون رسولاً نبياً، من قبل الإله الواحد، وأحاطه بالحواريين الذى لا توجد مع الناس دفعاً إلى تصديقه في دعواه ، وما دفعهم إلى هذا الرأى إلا عقلهم الذى أبى التصديق بما هو وهم وخيال ، ولأن تصور أصحاب مذهب الطبيعتين تصور بنهار أمام النظرة الفاحصة ، وقد حدثت هذه المعارضات أحداث خطيرة في كل العالم المسيحى انعقدت لها مجامع عدة، على النحو الذى سبق ذكره .

ولم يكن المنادون بمذهب التوحيد عدداً قليلاً ، يقول ان البطريق (إن الذنب ليس على " أريوس " ، وهو رأس المنادين بالتوحيد — بل على فئات أخرى سبقتة فأخذ هو عنها ، ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً كما كان تأثير " أريوس " الذى جعل الكثيرين ينكرون سر الألوهية، حتى انتشر هذا الرأى وعم)^(١) ، وهذا دليل على نضج عقلى وجد بين المسيحيين، جعلهم يحاولون إصلاح معتقدهم . ومن الملاحظ أن المسيحيين الذين عارضوا الإصلاح احتموا أيضاً بعقلهم وحاولوا التدليل على صدق معتقدهم بأدلة جدلية في صورة تشبيه عقلى ، وهذه إن دلت فإنها تدل على تقدم ذهنى، وفهم إدراكى، فيه نوع من التجريد، والعقل ، يقول الشهرستانى — عنهم : (ولهم في كيفية الاتحاد والتجسد كلام ، فمنهم من قال : أشرق على الجسد إشراق النور على الجسم المشف ، ومنهم من قال انطبع فيه انطباع النقش في الشمع ، ومنهم من قال : ظهر به ظهور الروحاني بالجسماني ،

(١) محاضرات في النصرانية ص ١٢٢ .

ومنهم من قال : تدرع اللاهوت بالناسوت ، ومنهم من قال : مازجت الكلمة
جسد المسيح فمازجة اللبن الماء ، والماء اللبن (١٠١) .

فهذه الأدلة ، مع ما فيها ، تدل على تقدم فكري معين ، وبكفى أكما من أنصار
التعصب المسىحي الذين آمنوا بألوهية المسيح ، وحاولوا جعل هذه الألوهية فكرة
مستساغة أمام العقل ، فأثروا هذه التشبيهات ليثربوا فكرة اتحاد الألوهية مع الإنسانية .
ولو تركنا عالم المسيحية إلى غيرهم لوجدنا أن اليهود قد أبدوا ثورة " يهود " ^(١٠٢)
على الهندوكية في بعض تعاليمها ، ومحاولتها تبسيط العقائد ، والاهتمام بالإنجيلي
والعودة إلى الفطرة ، كما إن اليهود قبل عن الدعوة الإسلامية كانوا يتعجبون لوحيد
من الآلهة ، ويخضعونه باسم (رب الأرباب) و (إله الآلهة) ^(١٠٣) وهذا نوع من التوحيد
لم يعهده اليهود من قبل ، فلقد كانوا دائماً يعددون الآلهة ، ويشيدون كثيراً من مظاهر
الطبيعة ، بلا النعات إلى حقيقتها ، أرفهم معنى عبادتهم لها ، إلا أنهم في هذا الصنيع
بسبب الضجج شكوا من تخلف الردة العقائدية ، والغريب من توحيد الآلهة .

وفي الجزيرة العربية وعالي الرغام من بعض القوم في تقليد الأسماء ، وتنظيم
الحجر ، فإن التخصيص الذي اتسم به العصر بدأ يظهر في الحرب ، إذ اتجهوا بعقولهم إلى
حماقتهم ينظرون فيها ، ويضعون لها نظاماً يكفل الأمن والسلام ، ويفلل الصراع
والشرور ، ولذلك نظموا نشاطهم خلال السنة وأحاطوا بفصولها ، ونظموا التجارة
على وفق هذه الفصول ، وأقاموا أسواقاً تدور مع أيام السنة ، وفي جميع أماكن
الجزيرة ، وحتى ينفقوا أكبر فائدة من هذه الأسواق جعلوها مكاناً للكسب النادى ،
وتقوية للشعور القومي ، وللتسابق اللغوي والأدبي ، وكانها مؤتمرات تهجد لو حدة مفيدة
وظهرت دقة تنظيم هذه الأسواق في اختيار الأمكنة والأزمنة . فمن الأمكنة
ورعها في ملتقى جميع أبناء الجزيرة ، وعن الأزمنة جعلوها في الأشهر الحرم ، وهذه

(١٠١) أنبل والنحل ج ١ ص ٢٠١ .

(١٠٢) ملاحم الهند والباكستان ص ١٤٣ .

الدقة ضمنوا لأنفسهم الحركة الآمنة، والقول الجريء، والنقد الحر، وكل هذه أسباب تجعل العقل ينمو باطراد، وخصصوا الأسواق الهامة بشهرى ذى القعدة وذى الحجة إذ جعلوا سوق " عكاظ " في أول شهر ذى القعدة، و " الجحنة " في آخره، وذى الحجاز وعرفه في شهر ذى الحجة ^(١) ربطاً للدنيا بالدين، إذ يقدم الحجاج في هذا الوقت من كل صوب قاصدين مكة، والكعبة، فيعيشون هذه الأسواق، ويكتسبون مع شعورهم الديني بعض معاشهم .

ولعل أوضح مظاهر النضج العقلي عند العرب ظاهرة الخفاء، الذين أخذوا يحللون بعمق وفهم فساد ما عليه الناس، ويبينون الحاجة إلى دين يعرف بالخالق، ويكتشفون الطريق إليه، مدللين على اتجاههم بما وقعت عليه حواسهم من مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم ثور، وبحار لن تغور، وليل داج، ونهار ساج، وقد وصلت هذه الجماعة برجاحة عقلها إلى بعض شريعة إبراهيم " عليه السلام " .

وفي الحق لقد وصل النضج الفكري إلى مستوى ممتاز، ناسب ظهور الدعوة الخاتمة بمعجزاتها التي جعلها الله تعالى في قرآنه الكريم، الذي نزل للناس، يؤمن بالكلمة ويخاطب العقول، ويهتم بالمعاني والأفكار، وينقل الإنسان من عالم الحس إلى عالم الغيب، والإيمان به، مع اشتماله على وسائل تتعدد أمام الفكر، تؤكد وتجادل، وتقرب وتيسر، قاصدة الإقناع العقلي، واليقين النفسي، والثبات مع الروح والوجدان، أكثر من ثباتها مع الانفعالات والأحاسيس .

يقول الشيخ/رشيد رضا: إن الله جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم، والعقل في ثبوتها، وفي موضوعها لأن البشر قد بدأوا يدخلون بها في سن الرشد والاستقلال النوعي، الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر منهم أمور مخالفة للنظام الكوني، وإنما جعل الله تعالى حجة نبيه كتابه المعجز للبشر، بهدايته

^(١) أخبار مكة ج ١ ص ١٢١ : ١٢٢ بتصرف .

وعلموه ، وبإعجازه اللفظي والمعنوي ، ليرى البشر على الترقى في هذا الاستقلال إلى ما هم مستعدون له من الكمال ^(١) .

وقد جعل الله معجزة الإسلام هكذا لتتلاءم مع طبيعة البشر العقلية ، ودائم يجعل الله المعجزة من جنس ما تفوق فيه البشر الذين تأتيهم هذه المعجزة حتى يتمكنوا من تبيان صدق الرسول في دعواه ، وينظروا إلى ما جاءهم به ، ويعلموا أنه وحى من الله ، ودليلهم المعجزة التي يعرفونها يقيناً ، حيث تفوقوا في جنسها ونوعها كما ظهرت لهم .

إن معجزة موسى " الشفقة " في قوم اشتهروا بالسحر كانت قلب العصا ثعباناً ، وإخراج اليد بيضاء من تحت الجحاح ، ومعجزة عيسى " الشفقة " إلى قوم اشتهروا بالطب هي إحياء الموتى وإبراء الكمأة والأبرص ، فكان لازماً أن تأتي معجزة الإسلام على هذه السنة ، ما دام العالم كله على وجه العموم في موجة رشيدة من النضج الفكري .

وكان العرب على الخصوص أكثر اهتماماً بصناعة اللسان ، وعلوم البلاغة والفصاحة ^(٢) ولهذا كانت المعجزة هي القرآن الكريم مناسبة لهذا النضج ، ومراعاة للبلاغة والفصاحة ، ليؤمن العرب سراعاً بها وينطلقوا حاملين الدعوة إلى كل العالم مقدرين نضجه الذي ساعد على أن تكون الرسالة عامة وخاتمة .

ومع ما في القرآن الكريم من إعجاز لغوي ناسب العرب الذي نزل بلغتهم فإنه يشتمل على وجوه عدة للإعجاز تناسب كافة الأمم لأن الرسول بعث للعالم كله ، ففى القرآن من وجوه الأعجاز الكثير منها : —

— الإعجاز التاريخي بما فيه من بيان لتاريخ السابقين وآثارهم ، ومثلهم ، ونخلهم ليناسب أهل الحضارات ، المهتمين بالتاريخ .

(١) الروحي المحمدي ص ٦١ .

(٢) توضيح العقائد ص ١٧٢ .

- الإعجاز العلمى ، مثل إيراد بعض الإشارات عن الحديد ، وألوان الصناعات .
- الإعجاز الفلكى ، مثل الحديث عن الشمس والقمر والليل والنهار .
- الإعجاز البيئى ، مثل الحديث عن الزراعة ، والحيوان ، والنهر ، والبحر .
- الإعجاز الطبى .
- الإعجاز النفسى والاجتماعى .

سادساً : انتظار رسول جديد : ■

كان للنضج الذى ساد العالم ، وكثرة الصراع ، وتنوعه ، وسهولة الاتصال ، وتلافى الأفكار قبيل مجئ الدعوة الإسلامية أن ظهرت موجة من النقد للعقائد يومذاك .

إن النقد على العموم ظاهرة تدل على عدم اكتمال الثقة فى العقائد التى يتوجه النقد إليها ، ومن هنا صاحب عملية النقد شعور بقرب ظهور نبي من العرب يصلح فساد هذا العالم ، ويضع الحقيقة الفاصلة فى مسألة العقيدة ، والسلوك ، وكل ما يعتقده الناس فى الأصنام ، ويطلبونه منها .

وقد وصل هذا الشعور إلى حد الاحتمال المؤكد لدرجة أن اليهود فى المدينة "يثرب" كانوا ينتظرون هذا النبي على وجه اليقين ، وكثيراً ما ذكروا لجيرانهم من الأوس والخزرج أنهم سيتبعون هذا النبي " ﷺ " فور ظهوره ليتمكنوا به من سيادة العالم وتملك الناس ، وقتل الأوس والخزرج قتل عاد وإرم ، والقرآن الكريم يقص ما كان منهم فى هذا الشأن بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِمْ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١)

فهم كانوا يعرفون مبعث النبي ﷺ ، ويعلمون أن زمانه قد حان ، فعن محمد بن إسحاق عن عاصم بن قتادة عن أشياخه أن اليهود في المدينة كانت تقول للأوس والخزرج : قد أظن زمان نبي يخرج بنصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ^(١) . يقول ابن عباس إن اليهود في المدينة كانوا يستفتحون عني الأوس والخزرج برسول الله ﷺ " قبل مبعثه " ^(٢) .

ورأى اليهود له قيمته عند جيرانهم قبل البعثة ، لأنه قد اشتهر عندهم معرفتهم ببعض أسرار الوحي ، وعلاماته ، فلقد روي أن مشركي مكة لما بعث محمد ﷺ فيهم أرسلوا وفداً منهم ، يسأل اليهود عن رأيهم في هذا الرسول الذي أتاهم ، ودعاهم بدعوته ، وكان الوفد مكوناً من النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معبد ^(٣) ، ولم تكن هذه المعرفة خاصة بيهود المدينة وحدهم ، فلقد انتشر خبرها في أماكن كثيرة ، وصلت إلى أقصى الشمال ، لدرجة أن سلمان الفارسي حينما أراد أن يقرأ التوراة ، ويحدث عن الدين الحق ، قال له كاهن عمورية : إنه قد أظن زمان نبي ، وهو مبعوث بدين إبراهيم ﷺ " يخرج بأرض العرب ، مهاجرة إلى أرض بين حرتين ، بينهما نخل ، وبه علامات لا تقتل ، يأكل الحديق ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفة حاتم النبوة " ^(٤) . وليس ذلك بكثير على علماء اليهود والنصارى لأنهم : ﴿ تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ

فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ^(٥)

جاء في تفسير ابن كثير هذه الآية أن صفة النبي محمد ﷺ " وجدت في التوراة والإنجيل ، ولم تزل صفاته موجودة يعرفها العلماء والأخبار ^(٦) من أهل الكتاب .

^(١) الكتاب ١ ج ١ ص ٢٩٦ .

^(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢١٢ حاشي فتح الباري .

^(٣) سورة النبي ﷺ " ج ١ ص ٣٢ .

^(٤) نفس المرجع ج ١ ص ٢٣٧ .

^(٥) سورة الأعراف من آية (١٥٧) .

^(٦) نفس المرجع ج ١ ص ٢٤٨ حاشي فتح الباري .

وكما وصل خبر ظهور نبي إلى أقصى الشمال وصل كذلك إلى أقصى الجنوب ، فلقد روى الأزرقى أنه لما ذهبت القبائل العربية لتهنئة حمير أفضى سيف بن ذى يزن لعبد المطلب بما علمه من كتبه ، من أن نبياً سوف يظهر في العرب يضمن الزعامة لقريش إلى يوم القيامة ^(١) .

وهكذا ظهرت ملامح النبوة المحمدية في عقول الناس ، وفي كثير من الأماكن وهذه الملامح في حد ذاتها تمهد للدعوة ، وتدعو إلى استماعها بشوق ، خاصة وقد وقعت أحداث كثيرة ، جعلت الناس يرجون التغيير على يد هذا الرسول المنتظر الذي كاد أن يلمس في طفولته ، لوضوح صفته في الكتب السابقة ، بل أن بحيرى الراهب عرفه وهو صغير ، يروي ابن هشام قاصداً ما حدث من بحيرى فيذكر أنه أعد طعاماً لقافلة قريش ، وفيها أبو طالب ، ومحمد (وهو صغير) ودعاهم فحضروا جميعاً إلا محمداً ، لصغر سنه ، لكن بحيرى أصر على حضوره ، فلما حضر أخذ يسأله عن أشياء كثيرة ، وأخيراً قال لعمه أبي طالب : إرجع بابن أخيك إلى بلده ، وأحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده ^(٢) ، ولا غرابة في تحديد بحيرى للنبي " ﷺ " في طفولته لأنه ممن يعرف صفته الموحودة في التوراة والإنجيل .

إن عديداً من الرهبان في أديرتهم ، والقسس في كنائسهم كانوا يدركون هذه الحقيقة ، ويتحدثون بها لمن يمر بهم ، وفي مكة نفسها كان كعب بن لؤى بن غالب يذكر بالنبوة ويشرح بها أهل مكة ويقول لهم : (زينوا حرمكم وعظموه فسيأتى له نبأ عظيم وسيخرج منه نبي كريم) ^(٣) .

إن تجمع انتظار رسول جديد ، مع موجة النقد السائدة ضد العقائد ، والمذاهب على يد الحنفاء ، وأتباع أريوس " والبوذية " ، مع وجود الصراع ، والتنافس

^(١) أخبار مكة ج ١ ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ .

^(٢) سورة النحل ج ١ ص ١٩٣ - ١٩٦ بتصرف .

^(٣) بلوغ الأرب ج ١ ص ٢٧١ .

وسرعة الحركة والاتصال ، أدى فائدة عظمى للدعوة الإسلامية ساعدت على انتشارها ، وما لاحظناه من معارضة للدعوة بعد ظهورها فمباشرة التعصب ، ومخاوف المحافظة على القدم الموروث ، وبقيت صراعات قبلية قديمة كما حدث من الأمويين فإنهم تأخروا عن الدخول في الإسلام بسبب كون النبي من بني هاشم ، لدرجة أن ابن سفيان الأموي حمل المعارضة للنبي في مكة بلا سبب غير التناقص بين الهاشميين والأمويين ، وكانت " أم حميلة بنت عبد رب زوجة أبي ذب تحمل الخطيب ، وتضعه أمام بيت النبي ﷺ " وفي طريقه ، وكانت تقول عنه " ﷺ " :

مذمماً عصينا وأمره أيينا ودينه قيننا (١)

كانت مدفوعة بالعصية بسبب كوها تحتاً لأبي سفيان الأموي (١) فدفعها التعصب إلى هذه الحملة على رسول الله ﷺ " وما المانع إذاً أن يكون موقف زوجها أبي ذب عم النبي ﷺ " من تأثيرها فيه .

وكذلك فإن أصحاب المصلحة في مكة عارضوا الدعوة حفاظاً على وضعهم

لكن ...

وهل تجدى الحيل الإنسانية أمام الإرادة الإلهية التي قدرت ظهور الدعوة واختارت لها هذا الزمان الذي تميز بالصراع ، والتضج ، وانتظار الرسالة ، لكن تأثير الدعوة وتظهر على الأديان كلها بقدرة الله وعلى سنن البشر .

وهما لمحمو الحيل الشيطانية من واقع الحياة ، وأفكار الناس ما قدره الله من كافة الشؤون ، والأحوال ، والأعمال .

إن قدر الله غالب ، وقضاه نافذ ، وإرادته شاءت أن نجى الدعوة إلى الله تعالى في هذا الزمان عما فيه من خصائص وصفات .

(١) سورة قمر ، آية ٢٧ .

(٢) سورة مائدة ، آية ٢٩ .

الفصل الثانى
السيرة النبوية
(التعريف بالرسول)

” ﷺ ”

من الميلاد حتى الهجرة

يوم طلب كفار مكة ذلك قال الله تعالى عنهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَبَّنَا
 رَبُّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَئِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
 فَرَجَحْتُمْ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَجَحْتُ رَبُّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْكُمُونَ ﴾ (١) .
 وبذلك أبطل الله أمانيات هؤلاء القوم وأمثالهم ، ووضح لهم أن الرسالة والسوة لا يكون
 لمن شاءه الناس ، وإنما لمن أراد الله واختاره ، ولا دخل لبشر في هذا الاختيار .
 وبين سبحانه في هذه الآية أيضاً أن أوضاع الناس المعيشية قسمة إلهية ، غير
 وفق إرادة الله ، وقدرته ، لأسباب لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى ، وليس لها ارتباط
 بالعظمة ، أو بالحقارة ، وليست تساجاً لجرد العمل ، وعلى الناس أن يعلموا أن القسمة
 خير ما يعطاه إنسان في الدنيا ، بل هي أعظم من كل الخير إذا امتنع ، فإذا ما أضاف الله
 إنساناً فإنه يعظم ، ويعلو باختيار الله إياه ، وقد اختار الله لرسالة الخاتمة العالمين محمداً
 ﷺ ، وهو سبحانه : ﴿ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (٢) ، ولذلك هناك
 تـ . «إِلَىٰ رَبِّكَ تَخَلَّقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ» مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴿ (٣) وَرَبُّكَ
 سَبْحَانَهُ ﴿ اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ (٤) وعلى ذلك قوله
 ﷺ " أعظم العرب قاطبة ، وأعظم البشر أجمعين .

وإن لموقف من بأن حكمة الله في اختيار رسوله محمد ﷺ " للرسالة لا يمكن
 لبشر أن يدركها إدراكاً كلياً ، وأرى في نفس الوقت أن في مفاهيم البشر أن يعظموا
 شيئاً من هذه الحكمة ، وبخاصة بعد انكشاف شيء من أسرارها عند نزول الحكمة
 بالرسالة ، والإسلام .

(١) سورة الفرقان آية (٢٢) .

(٢) سورة الأنعام آية (١٢٤) .

(٣) سورة القصص آية (٦٨) .

(٤) سورة الحج آية (٧٥) .

إن الخصائص التي تميز بها رسول الله محمد ﷺ ، وظهرت خلال قيامه بالدعوة الجديدة ، وشاملة لكافة جوانب شخصيته ، ومتأصلة في أصوله وجذوره ، وملازمة له في تربيته ونشأته ، وملموسة في سائر أعماله ، وأقواله ، وأماجه ، وأمانته وسلوكه مع نفسه ، ومع أسرته ، ومع الناس أجمعين .

والولا أن الرسالة والنبوة اصطفااء وإحسان من الله لقذا : إن محمداً ﷺ " اكتسبها بخصائصه ، وناها بأعماله وجهاده ، لكن جمهور علماء المسلمين — ونحن معهم — يجمعون على أن الرسالة لا تكتسب ، وإنما يخلق الله الناس ، ويختار منهم رسوله ، ويهبه من لدنه استعداداً خاصاً ، يجعله أهلاً لهذا الاختيار ، قادراً على تحمل أمانة التبليغ والدعوة .

والاختيار بهذه الكيفية رحمة من الله بالناس ، إذ به جرت الأمور بين الخلق عني وفق سننه في الكون ، فلم يفاجئهم بشخص سئ : ولم يدعهم إلى أمر شاذ لا يتصور ، ولا يعقل .

ومتابعة خصائص الشخصية المحمدية تبدأ من الأصول والحدود: ترى كيف أودع الله فيه ما جعلنا نؤمن بحكمة الله في هذا الاختيار وهو الله أعلم حيث يجعل رسالته^(١) وفي هذا الفصل سأتناول الحديث عن سيرته ﷺ " من مولده ، ومروره بنشأته ، وزواجه ، ومعته ، وتكريم الله له ، ومعونته إياه ، في مباحث متتابعة حتى نصل إلى الهجرة إلى المدينة المنورة لحاية المرحلة المكية .

وسوف أعتمد بإذن الله تعالى على ما رواه المؤرخون ، وعلماء السير ، وبخاصة ما صح منها .

وسوف تكون الأحداث ممثلة لتسيرة النبوة بكسائها في عدد من المباحث وذلك فيما يلي ..

سورة الأنعام آية (١٢٤) .

المبحث الأول

النسب الشريف

رسول الله ﷺ " هو محمد ، بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، من هاشم ،
ابن عبد مناف ، بن قصي ، بن كلاب .

وأم رسول الله ﷺ هي أمة بنت وهب ، بن عبد مناف ، بن زهرة ، بن كلاب ،
فنسب أبيه وأمه " ﷺ " يلتقيان في كلاب ..

وكلاب هو ابن مرة ، بن كعب ، بن لؤي ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ،
ابن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، بن إلياس ، بن مضر ، بن نزار ، بن
مضر ، بن عدنان .

ونسبه " ﷺ " من جهة أبيه ، ومن جهة أمه محمد بن عبد الله بن عبد مناف ،
ذلك فمختلف فيه ، والكل يجمع على أنه " ﷺ " من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام .

ونسبه " ﷺ " كريم ، جامع لسائر أسباب الفضل والرفعة .

فأبوه " عبد الله " أصغر أبناء عبد المطلب وأقربهم إلى قلبه ، يكنى بأبي القحافة ،
وإن محمد ، وإن أحمد ، ويلقب بالذبيح .

وسبب هذا اللقب أن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، والد المصطفى قال لبيته :
يا عبد المطلب أتستطيل علينا وأنت فد لا ولد لك ؟

فقال عبد المطلب : أبا لقلة تعيرني ؟ فوالله لئن ألقى الله عشرة من الولد ذكورا
لأنحون أحدهم عند الكعبة ^(١) .

فلما توفي بنوه عشرة ، وعرف أنهم سيمنعونه ، جمعهم ثم أخبرهم بشأره
ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فأطاعوه وقائلوا : أوف بتدرك ، وافعل ما شئت .

هم : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ، ثم يكتب فيه اسمه ، ثم اتوني ففعلوا .

هــ عبد المطلب نصاحب القداح ، اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه ،
بحرود بندره الذى نذر ، وأعطاه كل رجل منهم قدحه الذى فيه اسمه ، فخرج
سليم عنى عبد الله . فأتاه عبد المطلب بيده وحده الشفرة ليذبحه ، فقامت إليه
قريش من أنديتها وقالوا : والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه ، فإن كان فداؤه
موت فدد : فذهبوا إلى عرافة خبير فقالت لهم : كم الدية فيكم ؟

فلما : عشرة من الإبل .

ولت : فارجعوا إلى بلادكم ، ثم قربوا صاحبكم ، وقربوا عشراً من الإبل
ثم ضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فريدوا من الإبل
على برصى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فاحرقوها عند فقد رضى ربكم ، ونجا
محكم ففعلوا ذلك حتى بلغت الإبل مائة .

فقالت قريش : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب .

فقال عبد المطلب : لا والله حتى أصوب عليها ثلاث مرات ، فضربوا
على عبد الله وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو الله فخرج القدح على الإبل ،
وعادرا الشافية والذاتة . وعبد المطلب قائم يدعو الله فخرج القدح في كليهما
على لادن فمحوت ثم تركت لا يصد عنها إنسان ، ولا يمنع ^(١) .

والى ابن كثير مستند من أعرابياً فأن نسب " بقره " : يا ابن النذيرين ، فتبسم

... .. مكر عبده فنزل معاوية : من النذيرين ؟

... ..

عسى يجد الله بالعلم والفضل ، وحسن الخلق ، رزواك خاصة ، كذا يقول في
 خاطمة بنت مر الخلعبة مر دنا عبد المطلب : وسعة أبه عبد الله يريد أن يأنس به امرئ
 بسك وحده ، فرأت نور النبوة في وجه عبد الله : فقالت : هل تأبى أن يمسني ونسري
 مائة من الإبل ، فهدمه الله تعالى من إحنها وغال لها :

أما الحرام فالحصاة دونـه

والأول لا يحل فاستبرأ منه

فكيف بالأمر الذي قضيتـه

بمهي المكر من عروضة ديرة

فأسلما تزوجت أمه عبد الله ، وجمعت زورا ، الله فجمع بين

علي الكاهنة مرة أخرى ، وقال لها : هلي الذي فيما ظلمت : قال :

فبظرت إليه ، ولم تر ذلك النور في وجهه فقالت : أله : قد كنت نارا من نور
 اليوم لا ، ماذا صدمت ؟

فقالت : زوجني أبي أمه بنت رعب الزهوية .

وقالت : قد أخذت النور الذي كان في وجهك وأضمت ، فقروا :

الآن قد ضيعت ما كان ظاهرا

عليك (فارقك) من الظاهر

خدوت علي خاليا فهذا

لغيري هدينا فالتقينا بساكن

ولا تحسب اليوم أمس ولدت

رزقت غلاما منك من صبا

وداخلها الأسف علي ما فاقها ، والسورة علي ما تولى عنها (١)

وكسبان عبد الله بارأ بأبيه ، مطربا له ، يروي ابن الصفاق أن عبد الله بن مسعود

صاح أبصيه بحسد الذبح من علي امرأة من بني أسد : وعسى أن يذبحك من ذبح

فشارت إلى وجهه ، وقالت له : أين تذهب يا عبد الله ؟

قال لها : مهي أبي .

قالت له : لك مثل الإبل التي لحرت عنك ، وقع علي فكمنا القدر

قال لها : أنا مع أبي ، ولا أستطيع خلافه ، ولا فراقه ^(١) .

فأخذه أبوه عبد المطلب ، وذهب به إلى وهب بن عبد مناف وزوجه ابنته
آمنة بنت وهب ، وهي يومئذ أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً ، .
ورسول الله هو الابن الوحيد لعبد الله وآمنة ، وقد مات أبوه قبل مولده ،
وماتت أمه وهو ابن ست سنوات .

وعبد المطلب ، والد عبد الله اسمه شيبه الحمد ، واشتهر بعبد المطلب ، لأن
عمه المطلب أحضره من المدينة ، حيث نشأ عند أخواله ، فلما سأله أهل مكة : من
هذا ؟

قال لهم : هذا عبدى ، فثبت معه اسمه هذا ، وترك شيبه .

وكان عبد المطلب شديد الوفاء بوعده ، وقد رأينا ما فعل مع نذره بذبح
أحد أبنائه ، إذا بلغوا عشرة .

ومن وفائه أنه أجاز يهودياً يدعى " أذينة " فتأمر حرب بن أمية على قتله ،
وقتله ، فلم يزل عبد المطلب يسعى في دمه حتى أخذ ديته ، وسلمها لأهله ^(٢) .

وهو شيخ مكة ، وزعيمها يوم قدوم أبرهة ..

وكان عبد المطلب جسيماً أبيض ، وسيماً " طوالاً ، فصيحاً ، ما رآه أحد
قط إلا قدره ، وقد صارت إليه السقاية والرفادة ، وشرف في قومه ، وعظم شأنه ،
وكان يعرف فيه قوة الحق ، وهيبة الملك .

ومكارمه أكثر من أن تحصى ، فإنه كان سيد قريش غير مدافع نفساً ، وأباً ،
وبيناً ، وجمالاً ، وبهاء ، وفعالاً .

وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية ، وأول من جعل دية القتل مائة من
الإبل بعد فداء عبد الله .. .

^(١) سيرة النبي " ﷺ " ج ١ ص .

^(٢) سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣١٠ .

وقد أقام لأهل مكة ما كان يقيمه أبائهم ، فشرف فيها شرفاً لم يبلغه أبائهم قبله ، وأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم .

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيان : —

الأول : حضر بئر زمزم بعدما أمر به في المنام ، ووصف له موضعها ، وبعد كانت السقاية معه ، ولما حاولت قريش منازعته في زمزم ، والسقاية ، أراهم الله عليهم على تخصيص عبد المطلب بـ " زمزم " ^(١) .

الثاني : لما قدم أبرهة بجيشه يريد هدم الكعبة خافت قريش ، وتفرقت في الشعاب ، وتركوا إبلها وغنمها ، فاستولى عليها أبرهة ، فذهب إليه عبد المطلب واستقبله أبرهة وسأله : ماذا جاء بك ؟

قال عبد المطلب : جئت أسألك الإبل والغنم .

فقال أبرهة له : اكبرتك حين رأيتك ، وزهدتني فيك حين كلمتني ، تسألني الإبل ، وتترك البيت الذي هو دينك ودين آبائك ؟ !

فقال عبد المطلب : أما الإبل فهي لي ، وأما البيت فله رب يحميه .

وقد كان حيث هلك أبرهة ، وجيشه بالطير الأبايل ، واسترد عبد المطلب الإبل والغنم ^(٢) وهو أول من طلى الكعبة بالذهب ، وسمي الفياض لجوده ، وكان لأبى أولاده بترك الظلم والبغى ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، ويقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه ، وتصيبه عقوبة ، ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام ، ونهى عن قتل الموعودة ، ونكاح المحارم ، وأمر أن لا يطوف بالبيت عريان ^(٣) .

و " هاشم " واسمه عمرو العلاء والد عبد المطلب .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٣ بتصرف .

(٢) منتخب القول ص ٢٠ ، ٢١ .

(٣) منتخب القول ص ٢١ .

ولقب هاشماً لأنه هشم الثريد لقومه بمكة، وأطعمهم، وذلك أن أهل مكة أصابهم جهد، وشدة، فرحل هاشم إلى فلسطين، فاشترى منها دقيقاً كثيراً وكعكاً، وقدم بذلك إلى مكة فأمر به، فخبز، ثم نحر جزوراً، وجعلها ثريداً، عم به أهل مكة ولا زال يفعل ذلك معهم حتى استكفوا .

وهو أول من سن الرحلتين، رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام^(١) ومن قبله كان تجار مكة لا يغادرون بلدهم، فركب هاشم إلى الشام، ونزل بقيصر، فلما علم به ملك الروم سأل عنه، وكلمه، وأعجب به، وجعل يرسل إليه ويدخله عليه .

فلما رأى هاشم مكانه منه قال له : أيها الملك إن لي قوماً وهم تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لي كتباً تؤمنهم، وتؤمن تجارتهم، فيقدمون عليك بما يستظرف من أدم الحجاز، وثيابه، ليتمكنوا من بيعه عندكم، فهو أرخص عليكم، فكتب له كتاب أمان لمن أتى منهم، فأقبل هاشم بالكتاب فجعل كلما مر بحي من العرب على طريق الشام أخذ لهم من أشرفهم إيلافاً .

والإيلاف أن يأمنوا وهم عندهم، وفي طريقهم، وفي أرضهم بغير حلف، إنما هو أمان الطريق، فأخذ هاشم الإيلاف فيمن بين مكة والشام، حتى قدم مكة فأعطاهم الكتاب، فكان ذلك أعظم بركة، ثم خرجوا بتجارة عظيمة، وخرج هاشم معهم يجوزهم، ويوفيههم إيلافهم، الذي أخذ لهم من العرب، فلم يرح يجمع بينهم وبين العرب حتى ورد الشام^(٢) .

واشتهر هاشم بالدقة، والحكمة، ومكارم الأخلاق، ومن وصاياه الحكمة لقومه وهو يخطب فيهم : —

^(١) مثل الخدي والرشاد ج ١ ص ٣١٦ .

^(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٣١٦ .

أيها الناس نحن آل إبراهيم، وذرية إسماعيل، وبنو النضر بن كنانة، وبنو قصي بن كلاب، وأرباب مكة، وسكان الحرم، لنا ذروة الحسب، ومعدن الحمد، ولكل في كل حلف يجب عليه نصرته، وإجابة دعوته إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم.

يا بني قصي أنتم كفصني شجرة أيهما كسر أو حش صاحبه، والسيف يصان إلا بغمده، ورامي العشيرة يصيبه سهمه، ومن أمحكه اللجاج أخرجه إلى البغي.

أيها الناس الحلم شرف، والصبر ظفر، والمعروف كثر، والجود سودد، والجهل سفه، والأيام دول، والدهر غير، والمرء منسوب إلى فعله، وما خورده بعمله، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد، ودعوا الفضول بجانبكم السفهاء، وأكرموا المجلس يعمر ناديتكم، وحاموا الخليل يرغب في جواركم، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة، وإياكم والأخلاق الدنيئة، فإنها تضع الشرف، وقدم الحمد ألا وإن نهضة الجاهل أهون من حزير الله، ورأس العشيرة يحمل أثقالها، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به (١).

وكان من أجمل الناس، وأحسبهم صورة، يتلأل النور في وجهه كاللؤلؤ يتوقد، لم يره أحد إلا أحبه، وأقبل عليه.

و " **عبد مناف** " والد هاشم اشتهر بأفعال الخير، وأماجد الأعمال، وسمى بالمغيرة لقوته، وإغارته على الأعداء، وسمى بالقمر لحسنه وجماله.

وقد ساد في حياة أبيه، وبرز بآرائه في دار الندوة، وسر به والده " قصي " وهو الذي سماه (عبد مناف) واستبدله بـ " عبد مناة " كما سمته أمه.

قام بعد أبيه قصي بالسقاية، والرفادة، واشتهر بالحكمة، وحسن السياسة.

أحاطت قريش عبد مناف بالتفضيل ، والتكريم ، ومن أشعارهم :

كانت قريش بيضة فتفلقت فالح خالصة لعبد مناف

والمسح : صفرة البيض ، يشيرون بذلك إلى أن قريشاً إذا انقسمت كالبيضة ، فعبد مناف صفرتها ، وهي أصل البيضة ، وأكثرها منفعة .

يروى البلاذري أن النبي ﷺ " سمع جارية تنشد هذا البيت وتقول : فالح خالصة لعبد الدار .

فقال الرسول ﷺ " لأبي بكر " ﷺ : كذا قال الشاعر ؟

قال أبو بكر : لا ، إنما قال : لعبد مناف

فقال النبي ﷺ : كذاك ^(١) .

وهذا تأكيد لمترلة عبد مناف ، وقدرته في قومه .

و " قصي " والد عبد مناف اسم مصغر من " قصي " أي بعد ، لأنه بعد

عن قومه في بلاد " قضاعة " مع أمه حين تزوجت بعد أبيه في بني عذرة ... وقد عاد قصي إلى مكة بعد أن عبر بغيرته ... وعمل بعد أن شب على أن يكون أمر مكة لأهلها ، فأبت خزاعة وبنو بكر ، فقاتلهم قصي ومن معه .. حتى تصالحوا بعد ذلك على أن يكون الأمر لقصي وبنيه ، لأنهم الأحق والأولى .

فلما جمع قصي قريشاً قال لهم : هل لكم أن تصبحوا بأجمعكم (أي أنتم وبيوتكم) في الحرم حول البيت ؟ فوالله لا يستحل العرب قتالكم ، ولا يستطيعون إخراجكم منه ، وتسكنونه فتسودوا العرب أبداً .

فقالوا : أنت سيدنا ، ورأينا تبع لرأيك ، فجمعهم ثم أصبح بهم في الحرم حول الكعبة ^(٢) وبنوا بيوتهم مجاورة للكعبة ، وكانوا من قبل يبنونها بعيداً في الشعاب .

^(١) مهمل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣٢١ .

^(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٣٢٤ .

وأمرهم قصي أن يجعلوا أبواب بيوتهم جهة الكعبة، على أن يتركوا بين كل بيتين طريقاً يؤدي إلى الكعبة ، وفي نهاية هذه الطرق تأسست أبواب الحرم بعد ذلك وقد جمع " قصي " لنفسه أمر الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة واللواء ، وبذلك حاز الشرف في مكة كلها .

وبنى داراً سماها " دار الندوة " ، وجعلها مكاناً للاجتماع ، والتشاور في كافة أمورهم الشخصية ، والاجتماعية ، والسياسية ، وغيرها .

وقد فرض قصي على قريش مالا يدفعونه إليه ، وهو الذي يعرف بالرفادة ، يصرفه على حاج بيت الله تعالى ، قال لهم : (يا معشر قريش : إنكم جيران الله وأهل البيت ، وأصحاب الحرم ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً ، وشراباً أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا . يقول ابن هشام : فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه حتى قام الإسلام ، ثم جرى في الإسلام إلى يومنا هذا ، فهو الطعام الذي يصنع الولاية كل عام ، ويقدمونه للحجيج بمنى حتى ينقضى الحج ^(١) .

وقد قسم قصي المهام الرئيسية في أولاده .. فأعطى عبد مناف السقاية والندوة ، وأعطى عبد الدار الحجابة واللواء ، وأعطى عبد العزى الرفادة والضيافة إليه منى .. وهكذا .

ومن أقوال قصي الحكيمة التي علمها أولاده :

" من عظم لثيماً شركه في لؤمه " .

" ومن استحسن مستقبلاً كان معه " .

" ومن لم تصلحه كرامتكم فداووه بهوانه ، فذاك دواء يحسم الداء " .

" العي عيان : عى إفحام ، وعى المنطق بغير سداد " .

" من سأل فوق قدره استحق الحرمان " .

و " **كلاب** " والد قصي جمع كلب ، وهو مجمع نسب عبد الله ،
وأمه ، أبوى النبی " ﷺ " ، سمي بذلك من المكالبة ، وهو المسارعة في التجمع
على الكسب ، أو جرياً على عادة العرب في تسمية أبنائهم بأسماء موحشة كذئب ،
وأسد ، وضيع ...

قيل لأعرابي : لم تسمون أبناءكم بأشر الأسماء كـ " كلب " ، وذئب ،
وتسمون عبيدكم بأحسن الأسماء كـ " رباح " و " مرزوق " ؟ ...

فقال : إنا نسمى أبناءنا لأعدائنا ، ونسمى عبيدنا لأنفسنا ... يريد أن
الأبناء هم عدة مواجهة الأعداء ، والسهام المصوبة إليهم .
وقيل : سمي بذلك لدفع السوء والحسد عنه ^(١) .

ومن أسماء " كلاب " الحكيم ، والمهذب ، وعروة ، ويكنى بـ " أبي زهرة "
وزهرة هو جد النبي " ﷺ " من قبل أمه .

و " **مرة** " والد كلاب اسم منقول من وصف الحنظلة ، والعقمة ، وقيل
منقول من وصف الرجل بالمرارة .

وقيل مأخوذ من القوة ومنه قوله تعالى : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أى قوة ، وكنيته أبو يقظه ^(٢) .
وهذه المعاني تفيد ما كان له من قوة في الحق ، وشدة وقسوة على أهل الباطل .

و " **كعب** " والد مرة ومعناه العلو في الشرف ، والسؤدد ، والثبات والمتزلة
وكنيته أبو هصيص .

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٨ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣٢٩ .

وهو أول من جمع الناس ، وخطبهم في يوم معين ، هو يوم " **العروبة** "

اليوم المسمى في الإسلام بيوم الجمعة ، ومن خطبه في قومه : —

أما بعد ، فاسمعوا وعوا ، وافهموا وتعلموا ، ليل ساج ، ونهار ضاح ، والأرض
مهتاد والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم أعلام ، لم تخلق عبثاً فتضربوا عن
صفحات ، الآخرون كالأولين ، والذكر كالأنثى ، والزوج والفرد إلى بنى ، فضلاً
أرحامكم ، وأوفوا بعهودكم ، واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أهوالكم ، فإنما قوام
مروءتكم ، فهل رأيتم من هالك رجع ، أو ميت نشر ، الدار أمامكم ، واليقين
غير ما تظنون ، حرمكم زينوه وعظموه ، وتمسكوا به ، فسيأتي له نبأ عظيم
وس يخرج منه نبي كريم بذلك جاء موسى وعيسى " صلى الله عليهما وسلم " .
والله لو كنا ذا سمع وبصر ، ويد ورجل ، لتنصبت فيها تنصب الجمل ، ولأرقت
فيها إرقال الفحل ^(١) .

و " **لؤى** " يكنى باسم ابنه كعب ، اشتهر بالحكمة ، والحلم منذ صغره
وكان مطاعاً ، محبوباً في قومه .

و " **غالب** " من الغلبة والفوز : وكنيته أبو تيم .

و " **فهر** " كان رئيس أهل مكة ، وقيل إنه سمي بـ " قريش " يقول ابن
شهاب : من جاوز فهراً فليس من قريش ^(٢) .

و " **مالك** " يكنى باسم ولده " فهر " ولم ينجب سواه ، تميز بالحكمة
وحسن الخلق .

و " **النضر** " ابن كنانة ، وكنيته (أبو يحد) .

(١) انظر جمع السائق ج ١ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٣٣٤ .

و " **كنانة** " هي ستر السيف ، سمي بذلك لأنه كان ستراً على قومه ، ويكنى بأبي النضر ، يقول عامر العدواني لابنه في وصيته : يا بني أدركت كنانة بن خزيمة وكان شيخاً مسناً ، عظيم القدر ، وكانت العرب تحج إليه لعلمه وفضله ، ومن أقواله لهم : إنه قد آن خروج نبي من مكة يدعى أحمد ، يدعو إلى الله ، وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق ، فاتبعوه تزدادوا شرفاً وعزاً إلى عزكم .

قال أبو الربيع رحمه الله تعالى : إن كنانة رثى وهو نائم في الحجر ف قيل له : تخير يا أبا النضر بين الصهيل والهدر ، وعمارة الجدر ، وعز الدهر ، فقال : كل يارب فصار هذا كله في قریش ^(١) .

و " **خزيمة** " يكنى بأبي أسد ، يروي ابن عباس أن خزيمة مات على دين إبراهيم " **عليه السلام** " ، وهو أول من أهدى البدن للبيت .

و " **مدركة** " اسمه عمرو على الصحيح ، وكنيته أبو هزيل ، وأبو خزيمة .
و " **إلياس** " كان عاقلاً ، أريباً ، يقول ابن الزبير : لما أدرك إلياس وبلغ أنكر على بني إسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم ، وسيرهم ، وبان فضله عليهم ، وجمعهم رأيه ، ورضوا به ، فردهم إلى سنن آبائهم ، ولم تزل العرب تعظمه تعظيم أهل الحكمة .

وهو وصي أبيه ، تميز بجمال الخلق والخلق ، ويذكر عن النبي " **ﷺ** " أنه قال : (لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً) ^(٢) .

ويذكر أنه كان يبشر بني من صلبه ، يصلح الله به شئون الناس .

و " **مضر** " اسمه عمرو ، وكنيته أبو إلياس ، كان على دين إبراهيم " **عليه السلام** " .
أشتهر بالحكمة ، وسداد الرأي ، ومن أقواله : —

(١) مثل المدي ج ١ ص ٣٣٨ .

(٢) الروض الأنف ج ١ ص ١٠ .

" خير الخير أعجله " .

" احمسوا أنفسكم على مكروهاها فيما يصلحكم ، واصرفوها عن شؤنها فيما أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق " ^(١) .

و " نزار " سماه أبوه بهذا الاسم لما نظر في وجهه ، ورأى نور النبوة ^(٢) كان يتنقل في الأصلاب ، لما رأى ذلك فرح ، ونحر ، وأطعم ، وقال : هذا نذر النبوة فسمى بـ " نزار " وكنيته " أبو إياد " .

و " معد " يضرب به المثل في الخلق ، يقول عمر بن الخطاب ^(٣) " احشوشنوا وتعددوا " أى كونوا على خلق معد .

و " عدنان " أول من كسا الكعبة ، وكان الناس يعرفون أن نبياً ^(٤) من صلبه ، ويكنى بأبي معد .

وقد سبق الإشارة إلى إجماع النسابين على معرفة نسب النبي ^(٥) " عدنان " ، وأن عدنان من نسل إسماعيل ^(٦) " ، إلا أنهم يختلفون في عدد أباء عدنان إلى إسماعيل ^(٧) " ، ولذلك اكتفى هنا بذكر نسبه ^(٨) " إلى عدنان مع تأكد أن عدنان من ولد إسماعيل ^(٩) " ، فلقد روى ابن سعد أن النبي ^(١٠) " كان ينتسب لم يجاوز في نسبه عدنان ، ثم يمسك ، ثم يقول : كذب النسابون ويرى السهيلي أن هذا الحديث من قول ابن مسعود ، ويقول عمر بن الخطاب ^(١١) " : إنما تنتسب إلى عدنان ، وما فوق ذلك لا ندرى ما هو ^(١٢) .

ومن هذا الإيجاز نرى شرف النسب ، وعلو المحتد ، فجميعهم كرم ذوو شأن حيث نلمح في سيرتهم كل خير ، فهم حماة البيت ، والمقربون من الله ، والمؤسسون لأهل مكة " دار الندوة " ، وقد نظموا للقبائل سائر المهام ، وعرفوا الله

(١) سبل الهدى ج ١ ص ٣٤٤ ، والفواق : المدة بين حلفتين للناقة .

(٢) الطلقات الكوى ج ١ ص ٥٦ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٥٨ .

يوم العروبة : وجمعوهم فيه كل أسبوع : لسماع الخطب : وتداول الأمور .
 وفي أسمائهم فلاح صناعاتهم ، ففي كعب العلو والنبات ، وفي لؤي الطلوع ،
 والأناة ، وفي غالب القوة القاهرة للأعداء ^(١) وفي فهر الطول والعون ، حتى قرئنا أنه
 كان يقرش أي يقتل عن حاجة المحتاج ليعيه بحاله ونفسه ^(٢) ، وفي مالك السيادة
 ومالك العرب ^(٣) ، وفي النظر الحسن والجمال ^(٤) ، وفي كنانة ستر قومه ، وجمعهم
 بعلمه وفطنه ^(٥) ، وفي عزيمة إصلاح قومه ، وأخذهم على الحق ^(٦) وهكذا إلى
 كنان الذي عاش زمن موسى " ~~الكنانة~~ " ^(٧) .
 هذا نسبه " ~~فهر~~ " من جهة أبيه .

وأما نسبه من جهة أمه فهو إلى كلاب ، وعند كلاب يلتقى نسبها مع أبيه
 نسبه من جهة أمه عال هو الآخر ، يعنه ابن هشام ويقول : (إن أباء أمه من
 فضلاء قريش ، وسادة بني زهرة) ^(٨) .
 ولم يكن للنسب " ~~فهر~~ " أخ ولا أخت من أمه وأبيه ، يقول الماوردي : (لم
 يشركه في ولادته من أبويه أخ ، ولا أخت ، لانتهاء صفوئهما إليه ، وقصور نسبهما
 عليه ليكون مختصاً بنسب جعله الله للنبوة غاية ، وتفرده بها آية ، فيزول عنه أن
 يشارك فيه ويماثل به) ^(٩) .

^(١) المروج الذهب ص ٧٠ .

^(٢) نو القلاء ص ٢٠ .

^(٣) المروج الذهب ص ٢٠ .

^(٤) نو القلاء ص ٢٧ .

^(٥) المروج الذهب ج ٣ ص ٢٧ .

^(٦) سيرة ابن كثير ج ١ ص ١٨٨ .

^(٧) المروج الذهب ج ١ ص ١١ .

^(٨) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٩ .

^(٩) أخذهم إليه ص ١٤٧ .

ولقد تميز آباؤه بعدد من المزايا العامة التي اشتركوا فيها جميعاً ، والى سائرهم معهم تكريماً لرسول الله ﷺ .

وسأين أهم هذه المزايا لما لها من مردود إيجابي على شخصية النبي ﷺ وهيئة النفوس للاستماع له ، والإجابة لدعوته ، وبخاصة أن الناس جيلوا على السريعة لمن علا نسبه ، وسمت أخلاقه ، وكان لهم به صلة وقربى .

وسأوضح بإذن الله تعالى أهم هذه المزايا في عدد من المسائل لتتضمن :

مسألة مزية ، وهي كما يلي : —

المسألة الأولى : أصالة النسب .

المسألة الثانية : بعدهم عن عبادة الأصنام .

المسألة الثالثة : صلتهم بسائر بطون العرب .

وسوف أفصل هذه المسائل فيما يأتي ...

المسألة الأولى

أصالة النسب

اشتهر أبناؤه " ﷺ " جميعاً ، بعلو الأصل ، وشرف النسب ، ومكارم الخلق ،
فكاتبوا من أحسن الخلق وأماجدهم ، وقد رأيتهم سادة الناس ، ورواد القبائل ،
جاءوا مهام البيت ، وقاموا بواجب ضيوف الله .

ولعل أهم ما تميزوا به هو طهارتهم ، وغفرتهم ، وبعدهم عن سفاح الجاهلية ،
وضلالات الشرك والمجوس ، والأحاديث الصحيحة تؤكد هذه الحقيقة : وعن علي
" رضي الله عنه " أن النبي " ﷺ " قال : (خرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من
لدى آدم إلى أبي ولدي أبي وأمي)^(١) ، وعن ابن عباس " رضي الله عنهما " قال : قال رسول
الله " ﷺ " : (ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء ، وما ولدني إلا نكاح كنكاح
الإسلام)^(٢) .

ويروى ابن سعد في طبقاته عن محمد الكلبي قال : (كتبت لنبي الله " ﷺ " خمسمائة أم ، فما وجدت فيهن سفاحاً ، ولا شيئاً مما كان عليه أمر الجاهلية)^(٣) .
وهكذا وضع الله رسوله " ﷺ " في موضع يحمل معه شرف سلسلة طارئة ،
كرامة الخلق والسلوك ، طيبة الشأن والذكر ، وهو اصطفاء من الله تعالى .
فعن عائشة بن الأسقع قال : قال رسول الله " ﷺ " : (إن الله اصطفى كنانة
من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ،
واصطفاني من بني هاشم)^(٤) .

^(١) بحثة الزائد في تحقيق مجمع الزوائد - باب علامات النبوة - باب كرامة نبيه " ﷺ " ج ٨ من ١٠ .

^(٢) تاريخ الإسلام - باب علامات النبوة - باب كرامة نبيه " ﷺ " ج ٨ من ٣٩٥ .

^(٣) سيره النورية - ج ١ ص ١٩٠ .

^(٤) مسند أحمد - كتاب المغاضل - باب فضل النبي " ﷺ " ج ٧ من ٥٨ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه " قال : قال رسول الله ﷺ " : (بعثت قرون بنى آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت منه) ^(١) .

وأخرج البيهقي في دلائل النبوة عن أنس أن رسول الله ﷺ " قال : لا يفرق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما ، فأخرجت من بين أبوي ، فلم يبق من عهد الجاهلية ، وأخرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من كان مني حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم نفساً ، وخيركم أباً) ^(٢) .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ " : (لم يزل الله ينزل الأصباب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً ، لا تشعب شعبتان إلا كانا في خيرهما) ^(٣) .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ " قال : (ما أفرق الناس فرقتين إلا كانا في خيرهما ، فأخرجت من بين أبوي ، لم يصبني شيء من عهد الجاهلية ، وأخرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي) ^(٤) .

وعن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ " : (إن الله اصطفى ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم) ^(٥) .
أنخرجه الحافظ أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي في فضائل العباس من حديث واثلة بلفظ : (إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم وأخذه خليلاً ، واصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، ثم اصطفى من ولد إسماعيل نزاراً ، ثم اصطفى من ولد

(١) صحيح البخاري بفتح الباري — كتاب المناقب — باب صفة النبي ﷺ " ج ٦ ص ٥٦٦ .

(٢) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد — كتاب علامات النبوة ج ٨ ص ٣٩٥ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٢٧٦ .

(٤) ملخص تاريخ دمشق ج ١ ص ٢٧٩ .

(٥) صحيح مسلم بفتح النووي — كتاب فضائل النبي — فضل سب النبي ج ١٥ ص ٢٦ .

مضر ، ثم اصطفى من مضر كنانة ، ثم اصطفى من كنانة قريشاً ، ثم اصطفى من قريش بني هاشم ، ثم اصطفى من بني هاشم بني عبد المطلب ، ثم اصطفاني من بني عبد المطلب ^(١) والاصطفاء أخذ الأحسن من جماعة فيها غيره ليسوا مثله .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (خير العرب مضر ، وخير مضر بنو عبد مناف ، وخير بني مناف بنو هاشم ، وخير بني هاشم بنو عبد المطلب والله ما افتقرت فرقتان منذ خلق الله آدم إلا كنت في خيرهما) ^(٢) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم ، واختار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بني هاشم ، واختارني من بني هاشم ، فأنا من خيار إلى خيار إلى خيار) ^(٣) .

وعن ابن عباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله حين خلق الخلق جعلني من خير خلقه ، ثم حين فرقهم جعلني في خير فريق ، ثم حين خلق القبائل جعلني من خير قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفسهم ، ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم بيتاً ، وخيرهم نسباً) ^(٤) .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً ، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً ، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة ، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً) ^(٥) .

(١) الخواص ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٢٠ .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ج ١ ص ١٦٨ .

(٤) سنن الترمذي — كتاب المناقب ج ٥ ص ٥٨٤ .

(٥) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٠ .

وعن ابن عباس قال : (دخل ناس من قريش على صفية بنت عبد المطلب
فجعلوا يتفاخرون ، ويذكرون الجاهلية ، فقالت صفية : ما رسول الله ﷺ
فقالوا : تنبت النخلة أو الشجرة في الأرض الكبا .

فذكرت ذلك صفية لرسول الله ﷺ " فغضب وأمر بلالاً فنادى في الناس ، فنادى
على المنبر فقال : أيها الناس من أنا ؟
قالوا : أنت رسول الله .

قال : انسبوني .

قالوا : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

قال : أجل ، أنا محمد بن عبد الله ، وأنا رسول الله ، فما بال أقوام يبتلون
أصلي ؟ ! فوالله إني لأفضلهم أصلاً وخيرهم موضعاً ^(١) .

وعن ربيعة بن الحارث قال : بلغ النبي ﷺ " أن قوماً نالوا منه ، فقالوا :
مثل محمد كمثل نخلة نبتت في كناس ، فغضب النبي ﷺ " وقال : (إن الله خير
خلقه فجعلهم فرقتين ، فجعلني في خير الفرقتين ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في
خيرهم قبلاً ، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً ، ثم قال : أنا خيركم قبلاً
وخيركم بيتاً ^(٢) .

وعن عائشة " رضى الله عنها " قالت : (قال لي رسول الله ﷺ : قد
لي جبريل " عليه السلام " : قلبت الأرض مشارقها ، ومغاربها ، فلم أجد أفضل من محمد
وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها ، فلم أجد أفضل من بني هاشم ^(٣) .

هذه النصوص الكثيرة التي أوردتها تطمئن النفس على صدق ما تضمنته
وهو ما نريد إبرازه في إثبات علو نسبه " ﷺ " ، وتمتع آبائه ، وأجداده بكرم الطبع ، وسرف

^(١) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد — باب علامات النبوة ج ٨ ص ٣٩٩ .

^(٢) سب الهدى والرشاد ج ٥ ص ٢٧٦ .

^(٣) دلائل النبوة ج ١ ص ١٥١ .

الأصل ، والبعد عن الدنيا ، وصغائر الأمور .

كان " ﷺ " نتاج هذه السلسلة الكريمة التي يفتخر بها ، وتذكرها العرب له

وقد أقر خصومه في مكة بهذه الحقيقة ، وهم في أشد حالات العداء معه .

يروى البخارى أن هرقل أرسل إلى أبي سفيان ومن معه ، وكانوا في تجارة

بالشام ، فدعاهم إلى مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعا ترجمانه .

فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟

فقال أبو سفيان : أنا أقربهم نسباً .

فقال هرقل : أدنوه مني ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره .

ثم قال لترجمانه : قل لهم إني سائل عن هذا الرجل فإن كذبت فكذبوه .

يقول أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأتروا على كذباً لكذبت عنه ، ثم كان

أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسب .

ثم سأله عدة أسئلة وأبو سفيان يجيبه ، وأخيراً قال هرقل لترجمانه : قل لأبي سفيان

سألتك عن نسبه فقلت : هو فينا ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ^(١)

والمهم أن أبا سفيان يومئذ كان على الكفر ، ولم يدخل في الإيمان بعد ، ومع

ذلك نطق بالحق ، وشهد بعلو نسب رسول الله " ﷺ " وهو أول ما سأل عنه هرقل

لمعرفته بضرورة سمو نسبه ، وطهارته إن كان رسولاً صادقاً ..

إن معرفة خصائص النسب الشريف لرسول الله " ﷺ " يؤثر في تقويم

صاحبه وتقدير شأنه ، وإدراك مستقره في الأمور ، فالخلق الغالب علي الأصل يترع

عنه الفرع ولا يتغير بالإسلام إلا إلى الأفضل .

أخرج الشيخان وأحمد عن أبي هريرة أن رسول الله " ﷺ " قال : (تجدون

الناس معادن فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، ويخجلون من سب
الناس في هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه (١) .

فأصحاب المروءات ، ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا أو فقهوا
خير الناس (٢) .

قال ابن حجر في الفتح : وجد النسيب أن المعدن لما كان إذا استخرج منه
ما اختفى ، منه ولا تغير صفته ، فكذلك صفة الشرف لا تغير في ذاتها ، بل
كان شريفاً في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس ، فإن أسلم أسلم
وكان أشرف ممن أسلم من المشركين في الجاهلية (٣) .

ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : (أنا بن العواتك) (٤) .

والعاتك هو الكار الشجاع في القتال ، والمرأة العاتك هي الشريف الكريمة .

وعند اشتداد المواجهة بين الرسول ﷺ وأهل مكة لم يسمع منهم

سب رسول الله وأصله ، ولا نقداً خلفه وسلوكه ولا همراً حول شيء ، فصل به (٥) .

... ولو وجد شيء من هذا لتحدثوا عنه ، وأظهروه ..



(١) صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب قول الله تعالى : هَلْ يَأْتِيَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَنَحْنُ

ج ٦ ص ٥٢٥ .

(٢) شرح النووي على مسلم ج ٥ ص ٢٣٠ .

(٣) فتح الباري ج ٦ ص ٥٢٩ .

(٤) الطبراني ، قال الطبراني : رجاله رجال الصحيح ، صحيح الرواة - كتاب علامات النبوة - باب في

ﷺ ج ١ ص ٢١٥ .

المسألة الثانية

بعد أبيه " ﷺ " عن الشرك

وعبادة الأصنام

ثبت بالأدلة والبراهين العديدة أن أصول النبي " ﷺ " وأبائه من لادن آدم " ﷺ " إلى والده المباشر عبد الله بن عبد المطلب ، كانوا جميعاً بعيدين عن الشرك ، وعبادة الأصنام .

والأدلة على ذلك عديدة ، يجمعها السيوطي رحمه الله تعالى ^(١) في مقدمتين ليصل إلى نتيجة عقلية مسلمة .

أما المقدمة الأولى فهي أن آباء النبي " ﷺ " هم من خير الناس ، كل منهم أفضل معاصريه ، وأخيرهم ، فهم خيار من خيار ، اصطفاهم الله منذ وجود آدم " ﷺ " ، واستمر هذا الاصطفاء معهم حتى جاء رسول الله محمد " ﷺ " .

أما المقدمة الثانية فإنها تظهر حقيقة دينية ، تاريخية ، وهي أن الأرض لم تخل من عهد آدم " ﷺ " إلى بعثة النبي " ﷺ " ، وإلى أن تقوم الساعة ، من أناس على الفطرة يوحدون الله ، ويعبدونه بما بقي من دين سابق ، ويرون أن الأصنام ، والأوثان ، وما يماثلها ، ما هي إلا اختراعات لا حقيقة لها ، ولذلك فهم بعيدون عنها ، لا يقتنعون بها ..

فإذا انضمت المقدمة الأولى إلى المقدمة الثانية لظهر بجلاء أن آباء النبي " ﷺ " في كل عصر كانوا من هؤلاء الأناس الذين عاشوا بالفطرة النقية ، الموحدة ، ذلك أن الخيرية ، والأفضلية تقوم أساساً على التوحيد والتقوى .

ومن الواجب التسليم بهذا ، لأن الأفضلية إذا لم تقم على التوحيد ، وقامت على المال أو الكثرة ، أو السلطان مثلاً ، فإن الشرك يعلو التوحيد ، ويفضل المشرك

(١) الحاوي للفقاوي ج ٢ ص ٣٦٧ بتصرف .

المؤمن، وهذا غير صحيح ، فوجب بمجموع هاتين المقدمتين أن يكون أباء النبي ﷺ أفضل الخلق في زمانهم على التوحيد ، أصل التفضيل ، وأساسه ، لأن القول بغير ذلك يؤدي إلى أحد أمرين ، لا يسلم بهما أو بأحدهما عاقل .

الأمر الأول : أفضلية المشرك على المسلم ، وهذا أمر غير صحيح ، ولا مسلم ، ولم يقل به أحد من العقلاء .

الأمر الثاني : أن يكون هناك من هم أفضل من أباء النبي ﷺ ، معارض بما ثبت في المقدمة الأولى التي سبق ذكر أدلتها .

يقول الإمام السيوطي : (يجب أن يكون أباء النبي موحدين ، لا شركاء ليكونوا من خير أهل الأرض ، كل في قرنه)^(١) .

وفي الدراسة السابقة عن المقدمة الأولى أوضحت أن أباء النبي هم خيار البشر من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ ، وبذلك ثبتت المقدمة الأولى .

وإثبات المقدمة الثانية بعد ذلك أمر مسلم ، لأن الناس كانوا على الإسلام منذ آدم إلى نوح عليه السلام ، يقول الله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثْنَا

النبيين مبشرين ومُنذرين ﴾^(٢) وفي الآية بيان أن الناس جميعاً بعد آدم عليه السلام كانوا على دين واحد هو الإسلام .

فعن أبي أمامة عليه السلام " أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أنبي كان آدم ؟ قال " ﷺ : نعم نبي مكلم .

فقال الرجل : فكم كان بينه وبين نوح عليه السلام ؟

قال " ﷺ : عشرة قرون^(٣) .

(١) الخاوي للفتاوى ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٢) سورة البقرة آية (٢١٣) .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٦ ص ٣٧٢ .

وهكذا استمرت البشرية على دين الإسلام عشرة قرون ، وبعد هذه المدة بدأ
شرك في الظهور ، واختلف الناس ، فبعث الله رسوله مبشرين ، ومنذرين ، بلاغاً
وإرشاداً ، ولذلك بعث شيث عليه السلام ، وإدريس عليه السلام " نصراً لأهل الحق ،
ومحافظة على دين الله القويم .

يروى عن قتادة رضي الله عنه " أنه قال : (ذكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عشرة
قرون ، كلهم على الهدى ، وعلى شريعة الحق ، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فبعث الله
نوحاً عليه السلام) ^(١) .

وعن ابن عباس : (أنه كان بين آدم ونوح " عليهما السلام " عشرة قرون
كلهم على الإسلام) ^(٢) .

وهذه الآراء بيان لاستمرار الإسلام في الناس منذ آدم إلى نوح " عليهم
السلام " ، فلما اختلفوا ، وانقسموا جاء رسل الله ، وعلى رأسهم نوح عليه السلام .
والتعبير بالاختلاف في الآية بيان لتمسك فريق من الناس بالإسلام الذي
كانوا جميعاً عليه ، حين أرتد فريق منهم ، وعبدوا الأصنام ، وأشركوا في الألوهية ،
وبذلك وجد الاختلاف ، والتفرق بدليل أن الله توعد هؤلاء المشركين الذين أشركوا
وضيعوا وحدة الأمة — وتجمعها على الدين الحق ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ
إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴾ ^(٣) .

ومع الاختلاف على الدين الحق قبيل نوح عليه السلام " نرى أن والد نوح كان
مؤمناً ، موحداً ، امتداداً لأبائه من قبله ، دليل ذلك أن نوحاً عليه السلام " دعا لأبيه كما

^(١) الحاوي ج ٢ ص ٣٧٢ .

^(٢) تفسير الطبري ج ٤ ص ٢٧٥ .

^(٣) سورة يونس آية (١٩) ودلالة الآية أن الله توعد المختلفين ، والله لا يتوعد إلا بسبب كفر أو معصية .

في قوله تعالى ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ^(١) والني " لا يستغفر لكافر بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ
أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَيَّنَ
مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ ^(٢) وبذلك تكون الآية صريحة في إيمان ونسب
" نوح " وهو " سام " لأنه لو لم يكن مؤمناً لما دعا له ، وأيضاً فإن دعوة نوح عليه
السلام كانت بعد الطوفان ، ولم ينج من الطوفان إلا المؤمنون .

هذا عن الفترة من آدم إلى نوح " عليهم السلام " ..

أما ما بعد نوح " عليه السلام " ، فقد روى ابن عباس أن نوحاً " عليه السلام " لما أمر
ومن معه من السفينة هبطوا إلى قرية ، فبنى كل رجل منهم بيتاً ، فسميت القرية
سوق الثمانين نسبة لعدد الناجين فلما ضاقت بهم القرية تحولوا إلى بابل فبنوها . ولم
يزالوا على الإسلام وهم ببابل ، أما من كفر فقد غرق وهلك ، يؤيد ذلك قوله تعالى
﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ ^(٣) ومفهوم الآية يوضح أن ذرية من كفر
غرقوا بغرق آبائهم ، ولم يبق إلا المؤمنون ، الموحدون كما يفيد ضمير المتكسر
الموجود في الآية .

وقيل إن المؤمنين مع نوح كانت لهم ذرية مؤمنة نجت مع الناجين إلا أنها
ماتت بأجلها ، ولم يبق إلا أبناء نوح .

وقيل : إن المؤمنين من ذرية الآخرين تلحق بذرية نوح في البقاء بسبب
إيمانهم ^(٤) .

(١) سورة نوح آية (٢٨) .

(٢) سورة التوبة آية (١١٤) .

(٣) سورة الصافات آية (٧٧) .

(٤) فتح القدير ج ٤ ص ٤٠٠ .

واستمر إيمان آباء النبي ﷺ " من نوح إلى إبراهيم " عليهم السلام " ، غير أن ما ورد عن والد نبي الله إبراهيم ﷺ " (آزر) يتعارض مع هذا حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أُصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١) ويقول سبحانه : ﴿ يَتَأْتَى لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ (٢) ، وفي هذه الآيات تصريح واضح بكفر أب إبراهيم ﷺ " وقد رد العلماء هذا التعارض بأن إبراهيم ﷺ " كان يخاطب عمه (آزر) أما والده فهو (تارح) ، واللغة العربية تطلق اسم الأب على العم ، ولهذا يقول الله تعالى : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (٣) فأطلق سبحانه على إسماعيل اسم الأب ليعقوب ﷺ " مع أنه كان عمه .

وبعد نجاة إبراهيم ﷺ " من النار أمره الله تعالى بأن يهاجر إلى بلاد الشام فهاجر حيث أمره الله تعالى ، وأخذ معه المؤمنين ، وكانوا ثلاثة ، هم زوجته ساره وابن خالته لوط ، وأبوه تارح (٤) ولو كان أبوه مشركاً ما اصطحبه معه في رحلة الهجرة من موطنه إلى بلاد الشام ... وأيضاً فلقد دعا إبراهيم ﷺ " لأبيه بعد هلاك عمه مدة طويلة ، ولو كان مشركاً ما دعا له ، يقول الله تعالى على لسان إبراهيم ﷺ " : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (٥)

(١) سورة الأنعام آية (٧٤) .

(٢) سورة مريم آية (٢٢) .

(٣) سورة البقرة آية (١٣٣) .

(٤) الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٩٦

(٥) سورة إبراهيم آية (٤١) .

أما آباء النبي محمد ﷺ " بعد إبراهيم فهم على النحو المذكور لسائر الآيات
 يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ (١)
 الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣﴾
 بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ (١)

فقد أخبر الله تعالى بأنه بقدرته سبحانه وتعالى جعل كلمة الهدي والتوحيد
 باقية ، متعلقة في عقب إبراهيم عليه السلام " تنتقل من واحد إلى من بعده في عقبه
 والعقب أبناء الرجل الذكور ، دون الإناث .

يقول المفسرون : الكلمة هي شهادة التوحيد ، جعلها الله مستمرة في ذرية إبراهيم
 عليه السلام " يعقب كل جيل ما سبقه ، بحيث لا يزال في ذريته من ينطق ، ويؤمن بها .

ويقول تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ
 أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (٢) وقد دعا إبراهيم عليه السلام " في الآية بدعوتين :
أحدهما أن يجعل مكة بلداً آمناً ، في المقام ، والمعاش .

والثانية أن يجنبه ، وبنيه ، وذريته عبادة الأصنام ، وقد استجاب الله له ، فأكرم مكة
 يجعلها حرماً آمناً ، ورزق أهلها ثمرات كل شيء ، كما استجاب الله سبحانه الدعوة
 الثانية لإبراهيم في أولاده فنجاهم من عبادة الأصنام وجعل النبوة والكتاب فيه
 خاصة .

وقد جاءت أحاديث مستندة تفصل ما جاء في الآيات : —

يقول النبي ﷺ : (لا تسبوا مضر فإنه كان قد أسلم) (٣)

ويقول النبي ﷺ : (لا تسبوا مضر ولا ربيعة فإنهما كانا مؤمنين) (٤)

(١) سورة الزخرف الآيات (٢٦ — ٢٩) .

(٢) سورة إبراهيم آية (٣٥) .

(٣) طبقات بن سعد ج ١ ص ٥٨ .

(٤) الروض الأتق ج ١ ص ١٠ .

ويقول النبي ﷺ : (لا تسبوا قسا فإنه كان مسلماً) ^(١) .

ويقول النبي ﷺ : (لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً) ^(٢) .

وقد رأينا من كلمات آباء النبي ﷺ " ووقفنا على معانيها الدالة على العقل والحكمة ، وروح الإيمان ..

يقول السهيلي : (وكعب بن لؤي أول من جمع يوم العروبة ، فكانت فريش تجتمع إليه في هذا اليوم ، فيخطبهم ، ويذكرهم بمبعث النبي ﷺ ، ويعلمهم أنه من ولده ، ويأمرهم باتباعه ، والإيمان به) .

وعبد المطلب هو الذي قابل أبرهة وقال له : للبيت رب يحميه ..

أما آباء النبي ﷺ " القريون إليه فهم : كلاب ، وقصى ، وعبد مناف ، وهاشم ، وعبد المطلب ، وعبد الله ، فإنهم شيوخ مكة ، وحماة الكعبة ، وإليهم يرجع الفضل في تنظيم أمور البيت الحرام ، والانفاق على الحجيج ، وفي حياتهم إشارات إلى عقيدتهم الدينية .

يقول عبد الله : أما الحرام فالممات دونه .

ويقول عبد المطلب : للبيت رب يحميه .

وقد تميز هاشم ، وعبد مناف بالحكمة ، وكرم الأخلاق ، ودور قصي و كلاب مع الكعبة وأهل مكة لا يخفى ، ولذلك كان " ﷺ " يفتخر بآبائه ويقول " ﷺ " : (أنا ابن الذبيحين) يريد بهما عبد الله وإسماعيل " عليهما السلام " ، وفي يوم حنين قال : —

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ويقول " ﷺ " : أنا خيار من خيار من خيار .

(١) المغاوي ج ٢ ص ٣٨٠ .

(٢) الروض الأنف ج ١ ص ١٠ .

و حديث النبي ﷺ " عن آياته لتعريف منازلهم ، و بيان مراتبهم ، والإشارة إلى نعم الله تعالى التي أحاطه ، وأحاطهم بها .

يقول أبو الحسن الماوردي : (أنبياء الله صفوة عباده ، وخيرة خلقه ، لما كلفهم من القيام بحقه ، والإرشاد لخلقهم ، استخلصهم من أكرم العناصر ، واجتباهم من أكرم الأوصار ، فلم يكن لنسبهم من قدح ، ولمصيبهم من جرح ، لتكون القلوب منه أصفى ، والنفوس هم أوطأ ، والناس إلى إجاباتهم أسرع : ولأوامرهم أطوع ، وإن كان استخلص رسوله ﷺ " من أطيب المناكح ، وحماه من دنس الفواحش ، ونقله من أصلاب طاهرة إلى أرحام مبرهة ، وقد قال ابن عباس في تأويل قول الله : ﴿ وَتَقْلُكُ فِي السَّجْدِينَ ﴾) أي تقليك من أصلاب طاهرة ، من أب بعد أب إلى أن جعل نبياً ، فكان نور النبوة ظاهراً في آياته : ثم لم يشركه في ولادته من أبويه أخ ، ولا تحت لائتهاء صفوتهما إليه ، وقصور نسبهما عليه ، ليكون مختصاً بنسب جعله الله للنبوة غاية ، وتفرده هاية ، فيزول عنه أن يشارك فيه ، ويحتمل فيه ، فلذلك مات عنه أبواه في صغره ، فأما أبوه فمات وهو حمل ، وأما أمه فماتت وهو ابن ست سنين . وإذا خبرت حال نسبه ، وعرفت طهارة مولده ، علمت أنه من سلالة آباء كرام ، ليس في آياته مسترذل ، ولا مغرور مستبدل ، بل كلهم سادة قادة ، وشرف النسب ، وطهارة المولد من شروط النبوة (١) .

ويقول الشهرستاني : (ظهر نور النبي ﷺ " في أسرار عبد المطلب بعد الظهور ، وببركة ذلك انور ألمم النور في ذبح ولده ، وببركته كان يأمر ولده بترك الظلم والبعث ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن ذنوب الأمور ، وببركة ذلك النور كان يقول في وصاياه : إنه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منها ، وتصيبه عقوبة ، إلى أن هلك رجل ظلوم لم تصبه عقوبة ، فقبل لعبد المطلب في ذلك

ففكر وقال : والله إن وراء هذه الدار دار يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب فيها المسيئ بإساءته ، وببركة ذلك النور قال لأبرهة : إن هذا البيت رباً يحفظه (١) .
ومع سلامة النسب النبوي وأصالته أرى توضيح أمرين : —

الأمر الأول : يتصل بتوحيد آباء النبي " ﷺ " لأن منهم من عاصر الأنبياء ومنهم من كان بعيداً عنهم ، أما من كان نبياً أو عاصراً نبياً ، فإنه كان على التوحيد الخالص ، الواضح الذي جاء من عند الله تعالى ، بكل ما يلزمه من اعتقاد وشرعية وأخلاق ، أما من بعد منهم عن زمن الأنبياء فإنه كان على توحيد يبعده عن تأليه الصنم ، وعبادته ، مع غياب تعاليم الرسالة السابقة ، ولذلك لم يكن لهم دين واضح بتعاليمه ، وتفصيلاته .

إنهم لم يتغمسوا في الشرك ، ولم يكونوا سدنة الأصنام ، ولا كهنة الآلهة ، مع ما لهذه الأعمال من أهمية في الحياة الجاهلية ، ومع مترلتهم في قبائل مكة ، التي تمكنهم من الحصول على ما يريدون ، ولو كانوا من الكهنة ما منعهم أحد ، لكن الله أنقذهم منها .

إن بعدهم الزماني عن رسالات الله أنساهم كثيراً من الحقائق الدينية ، شأنهم في ذلك شأن الخنفاء الذين رفضوا عبادة الأصنام ، ورأوا ضرورة وجود إله واحد قدير ، واهتموا في البحث عن دين إبراهيم " عليه السلام " ، ولذلك لم تكن لأباء النبي " ﷺ " دعوة دينية ، ولم يقوموا بنشر عقيدتهم في الناس ، إلا أن الله أكرمهم بالتوحيد ، وخصهم بالخيرية ، وفضلهم على الناس ، ليذكر الرسول بهم ، وحتى لا تلحقه منقصة بسببهم ، يعيره بها المشركون والكافرون .

الأمر الثاني : أهل الفترة وأباء النبي : يراد بالفترة المدة الزمنية بين

رسولين ، وبخاصة إذا طالت المدة ، وغابت تعاليم الرسول السابق كلياً ، أو جزئياً .

ودرس العلماء ، والفقهاء أحكام أهل الفترة لأنهم بعدوا عن الرسالة السابقة ، ورسالة جديدة ، وهذا حال يرفع عنهم المسئولية أمام الله تعالى عند جمهور العلماء ، والعرب من الأمم التي طالت الفترة بهم ، ولم يأثم رسول منذ إسماعيل " عليه السلام " بين الله ذلك لمحمد " ﷺ " : ﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١) .

وصلة هذا المبحث بأباء النبي " ﷺ " تلمس الإنصاف لهم لأن آباءه " القرين " ابتداء من كلاب لم يكن لهم دور ديني واضح ، مع ثبوت عدم تأليههم للأصنام وسبب ذلك أنهم كانوا من أهل الفترة التي لا وجود فيها لدعوة دينية ... وأقصى كانوا فيه أنهم من الخنفاء الموحدين ، الباحثين عن الحقيقة ، التي تجلت أمامهم نبوة النبي " ﷺ " .

يذهب جمهور العلماء إلى أن أهل الفترة ناجون ، لأنه لا تكليف قبل النبوة بدلالة الآيات التالية : —

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٢) والآية أساس للحجج الذين يرون أن وصول الرسالة إلى الناس شرط للمسئولية ، يقول قتادة : (إن الله ليس بمعذب أحداً حتى يسبق إليه من الله خبر ، أو تأتبه من الله بينة) (٣) .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) والآية واضحة في ثبوت العذر لأهل الفترة على عدم إيمانهم ، ودلالتها على ضرورة الدعوة على وجهها الصحيح عن طريق رسول الله ، أو بواسطة من يكلفه من الدعوة

(١) يس آية (٦) .

(٢) سورة الإسراء آية (١٥) .

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٥١ .

(٤) سورة القصص آية (٤٧) .

وعلى هذا فأبأ النبي ﷺ " القرييون كانوا من الخنفاء، على أقل تقدير وليس بضروري أن يكونوا على رسالة دينية كاملة (عقيدة وشريعة) وأما الأبوان الشريفان فهما من أهل الفترة بإجماع ، لتأخر زمانهما ، وبعد ما بينهما وبين الأنبياء السابقين ^(١) ، فأخر نبي بعث للعرب هو إسماعيل ، وبينه وبين محمد ﷺ " ثلاثة آلاف سنة ، ولم يعمر طويلاً ، وكان العرب في جهل بالنسبة للرسالة لدرجة أنهم تعجبوا، حين بعث الله تعالى نبيه محمداً ﷺ " وقالوا ما حكاه الله تعالى : ﴿ أُبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ ^(٢) ، وقالوا أيضاً ما حكاه الله تعالى : ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ^(٣) وقد صور الله تعالى أحوالهم متعجباً فقال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ ^(٤) .

وهذا محمد ﷺ " لما حبب إليه الخلاء ، كان يذهب إلى غار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، وكانت عبادته على ما بقى من دين إبراهيم وإسماعيل " عليهما السلام " ، إذ لا سبيل له إلى غير ذلك .

إن تباعد الزمان بين رسالة إسماعيل " عليه السلام " وآباء النبي القرييين غيب عنهم حقيقة رسالة الله بكمالها ، وتمامها ، ولكنهم تمسكوا بما أبقاه الله بينهم ، فلم يعبدوا غير الله ، ولم يشركوا معه إلهاً آخر .

ومن هنا نرى أن توحيد الخنفاء كاف في القول بإيمان آباء رسول الله ﷺ " .

^(١) أرجح الرأي القائل بأن أبأ النبي ﷺ " من أهل الفترة على الآراء الأخرى ، هذا وقد فصل السيوطي الآراء

كلها بأدلتها في كتابه الخاوي .

^(٢) سورة الإسراء آية (٩٤) .

^(٣) سورة فصلت آية (١٤) .

^(٤) سورة المؤمنون آية (٦٩) .

المسألة الثالثة

صلة بني هاشم بسائر بطون العرب

تعرف أسرة النبي ﷺ " بالأسرة الهاشمية نسبة إلى هاشم بن عبد مناف
وهي أسرة عربية يمتد نسبها إلى إبراهيم عليه السلام " .
فرسول الله ﷺ " واحد من العرب يتصل مع كل عربي نسباً ، وطناً
لأنهم جميعاً أبناء إسماعيل ، وعروبة النبي ثابتة موطناً ، وجنساً ، ولغة .

يقول الله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَ
أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ ^(١) وفي هذا بيان لقريّة النبي ﷺ " التي أخرج منها
وهي مكة ، موطنه الذي أخرج على تركه ، والهجرة منه إلى يثرب ، المدينة التي
هجرته ﷺ " إليها ، يقول قتاده وابن عباس : (لما خرج النبي ﷺ " من مكة
المدينة التفت إلى مكة وقال : اللهم إنك أحب البلاد إلى الله ، وأنت أحب
إلى ولولا المشركون أهلك أخرجوني ما خرجت منك) ^(٢) .

ويقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ ^(٣) ، ويقول : ﴿ لَا يَتَّبِعُونَ
الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ ^(٤) وعلى هذا فالنبي أمي ، أي عربي ، لأن
صفة ، ومسمى للعرب قبل المبعث في مقابل أهل الكتاب وهم بنو إسرائيل ^(٥) .
وجاء الإسلام بلغة العرب ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ^(٦) ، ويقول : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ ^(٧) فهذه العرب

(١) سورة محمد آية (١٣) .

(٢) الحديث صحيح ، رواه الثعلبي ، تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٣٥ .

(٣) سورة الجمعة آية (٢) .

(٤) سورة يوسف آية (٢) .

(٥) سورة الأعراف آية (١٥٧) .

(٦) سورة مريم آية (٩٧) .

(٧) الملل والنحل ج ١ ص .

الثابتة لرسول الله تؤكد قرابته العامة لكل عربي ، وتؤكد التقاءه مع كل منهم في نسب بعيد أو قريب .

وقد وضع ابن حزم الأسباب النسبية التي ربطت النبي ﷺ " بقبائل العرب جميعاً ، فقال : (وفي عبد المطلب يجتمع معه " السليلا " : بنو علي ، وجعفر ، وعقيل - بن أبي طالب - ، وبنو العباس ، وبنو الحارث ، وبنو أبي هب .

وفي عبد مناف يجتمع معه : بنو أمية ، وسائر بني عبد شمس ، وبنو المطلب ، وبنو نوفل ، وبنو عبد المطلب .

وفي قصي يجتمع معه : بنو عبد العزى ، وبنو عبد الدار ، الذين منهم حجة الكعبة .
وفي كلاب يجتمع معه : بنو زهرة ، وأمه منهم ، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة .

وفي مرة يجتمع معه : بنو تيم بن مرة ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة .

وفي كعب يجتمع معه : بنو عدي ، وبنو جمح ، وبنو سهم .

وفي لؤي يجتمع معه : بنو عامر بن لؤي .

وفي غالب يجتمع معه : بنو تيم الأدرم .

وفي فهر يجتمع معه : بنو الحارث ، وبنو محارب ، وفهر هذا : هو أبو قريش كلها ، من لم يكن من ولده فلا نسب له في قريش ، ومن كان من ولد فهر فهو قرشي .

وفي كنانة يجتمع معه : كل من ينتمي إلى كنانة من بني عبد مناة ، وملك ، وملكبان ، وحنظلة ، وعمرو بن كنانة .

وفي خزيمة يجتمع معه : بنو أسد ، والقارة ، وهم بنو الهون بن خزيمة .

وفي مدركة يجتمع معه : بنو هذيل .

وفي اليأس يجتمع معه : بنو قليم وإخوانهم ، وبنو ضبة ، ومزينة ، والرباب وخزاعة ، وأسلم ، فأما الرباب فهم : تيم ، وعدي ، وثور ، وعكل .

وفي مضر يجتمع معه : قبائل قيس كلها : سليم ، ومازن ، وفزارة ، وعسى وأشجع ، ومرة ، وسائر بني ذبيان ، وغطفان : وعقيل ، وقشير ، والحريش ، ورجل والعجلان ، وكلاب ، والبكاء ، وهلال ، وسواءة ، وبنو جشم ، وبنو ثعلبة وثقيف ، وسعد ، وسائر هوازن ، ومخارب ، وعدوان ، وفهم ، وباهلة ، وغيره والطفافة ، وسائر قيس .

وفي نزار يجتمع معه : قبائل ربيعة ، وهم بكر ، وتغلب ، وعثر بني وائل وعبد القيس وقبائلها ، وعثرة ، والنمر بن قاسط .

وفي معد يجتمع معه : إباد .

وفي عدنان يجتمع معه : بنو عك (١) .

هذه واحدة ..

وأخرى وهي أن جميع بطون مكة قبيل البعثة كانت ترتبط بيني هاشم بن عبد مناف ورحم ، فعن بن عباس (أن النبي ﷺ " لم يكن بطن من بطون قريش إلا وله سهم قرابة) (٢) وبسبب هذه القرابة نرى القرآن الكريم يكرر في معرض دعوته لأهل مكة أن الرسول "منكم" و "من أنفسكم" و "منهم" يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٣) ، ويقول سبحانه : ﴿ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (٤)

(١) جوامع السيرة ص ٢ ، ٣ ، ٤ .

(٢) صحيح البخاري — باب المناقب ج ٤ ص ٢١٧ .

(٣) سورة النبوة آية (١٢٨) .

(٤) سورة آل عمران آية (١٦٤) .

ويقول : ﴿ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ ﴾ ^(١) ، فالرسول " ﷺ " منهم ، وهم أقرباؤه ، ومع ذلك فدعوته للعالم كله ، وعليهم أن يؤمنوا به ليؤكدوا تشرفهم بحمل الرسالة ، وتبليغها للعالمين .

إن بطون قريش يرتبطون بقراية مع رسول الله فهم أحواله وأعمامه ، وله منهم عمات ، وخالات ، كما يقول تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ ^(٢) ودلالة هذه الآية صريحة في وجود أعمام ، وأحوال ، وعمات ، وخالات له " ﷺ " في مكة ، وأنه " ﷺ " تزوج من بناتهم المهاجرات بعد الهجرة ، وبالبحث في زوجات النبي " ﷺ " القرشيات نجد أنهن لسن من بني هاشم ، ولكنهن من بقية بطون مكة ..

فعاثشة من بطن : تيم " ، وتلتقي برسول الله في جده مرة .

وحفصة من بطن " عدى " ، وتلتقي برسول الله في جده كعب .

وأم حبيبة من بطن " بني أمية " ، وتلتقي برسول الله في جده عبد مناف .

وأم سلمة من بطن " بني مخزوم " ، وتلتقي برسول الله في جده كلاب .

وسودة من بطن " بني عامر " ، وتلتقي برسول الله في جده لؤى .

وزينب من بطن " بني أسد " ، وتلتقي برسول الله في جده خزيمة .

وهذا يثبت القرابة القريبة لرسول الله مع بطون مكة جميعاً ، فهم أعمام وعمات وأحوال وخالات ، أقرباء لمحمد " ﷺ " .

إن قرابة النبي " ﷺ " لبطون مكة تعود لعدة أجيال قديمة ، وهي حقيقة لا شك فيها

^(١) سورة النحل آية (٥٠) .

^(٢) سورة الأحزاب آية (٥٠) .

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه القرابة في مجال حث أهل مكة على الإيمان حيث يقول تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ ^(١) .

فهى تشير إلى القرابة المعروفة بين رسول الله ﷺ " وأهل مكة ، والنبي يحرم أن تدفعهم إلى الإيمان بالإسلام أداء حق المودة ، والقرابة مع رسول الله ﷺ " .
ويقول تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ^(٢) ..

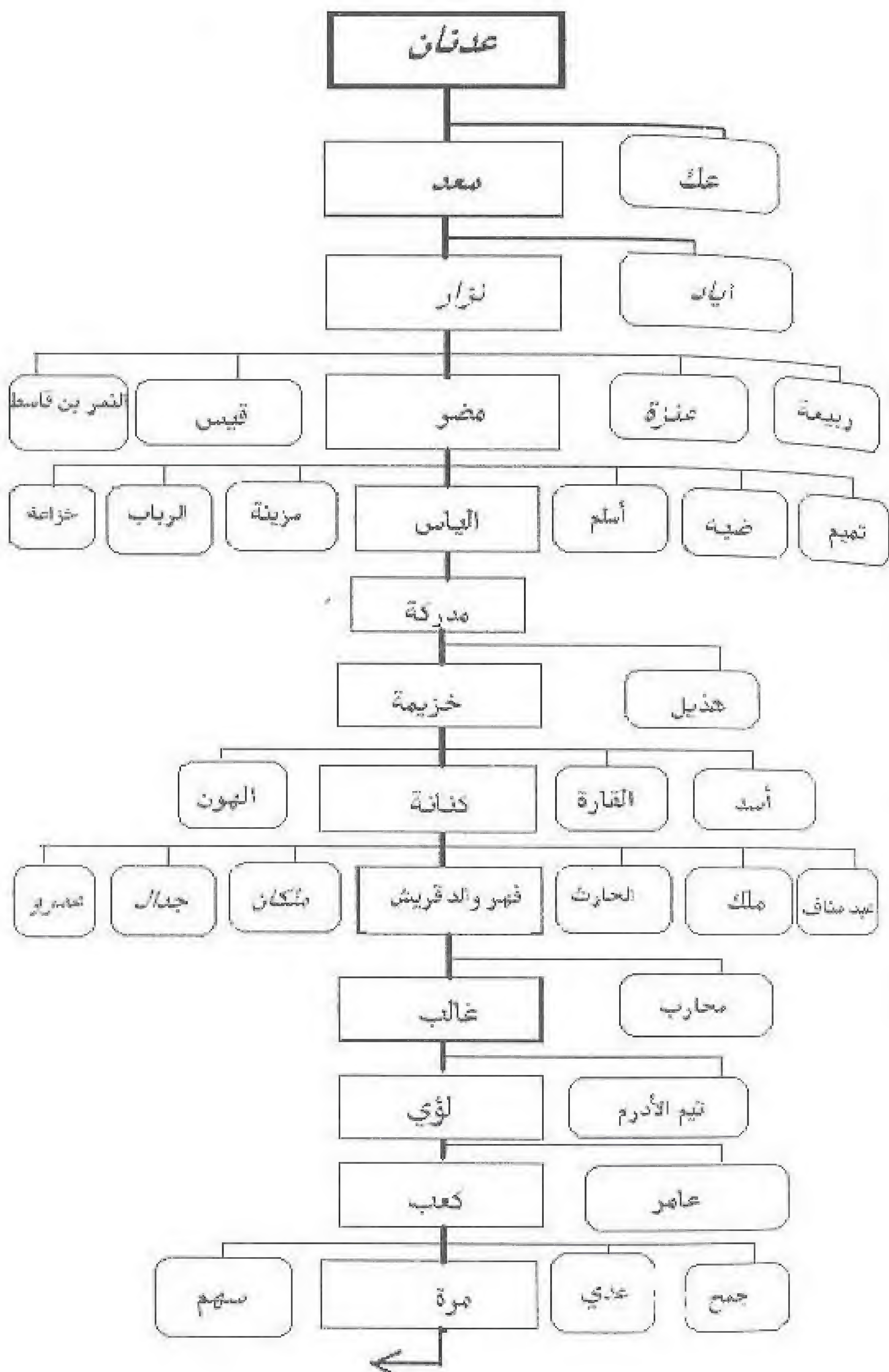
والآية تتضمن — كما هو ظاهر — دلالة قاطعة على أن النبي ﷺ " كان له في مكة عشيرة ، أو بطن خاص يلتحم به التحام القرابة العصبية المباشرة ، مع النحام هذا البطن الخاص بوشائج القرى مع سائر بطون قريش ، والقرائن القرآنية مضافة إلى أخبار السيرة والروايات ، تدل على أن هذا البطن الخاص كان ذا مكانة محترمة وملك جانباً عزيزاً بين الناس .

لقد أمر النبي ﷺ " كثيراً من المسلمين بالهجرة من مكة إلى الحبشة بسبب ما نالهم من اضطهاد قريش ، لتابعيهم النبي ﷺ " وعدم وجود من يحميهم وينصرهم ، في حين أن النبي ﷺ " ومعه غيره من رجالات المسلمين القرشيين لم يهاجروا ، وظل يقوم بدعوته قوياً ، صريحاً ، واضحاً في الإنكار ، والتخويف ، والإنذار بلسان القرآن ، معتمداً على الله تعالى الذى جعل له من أقربائه أنصاراً ، مع أنهم لم يؤمنوا بالإسلام ^(٣) .

(١) سورة الشورى آية (٢٣) .

(٢) سورة الشعراء آية (٢١٤) .

(٣) يراجع في هذه القضية مواقف عمه أبى طالب الذى عاش حياته مدافعاً عن محمد ﷺ " مع أنه لم يهاجر . وقصة إسلام حمزة بنى قامت دفاعاً عن محمد ﷺ " ، واشترك بنى هاشم والمطلب مع المسلمين في حصر الكفار لهم .. وكلها تدل على ما كان للقرابة والعصبية من نصرة ومساندة .
ويجب أن ينظر إلى أن الهجرة إلى الحبشة كانت للمحافظة على روح وقوة الجماعة المسلمة ، وللإيمان بالإسلام خارج جزيرة العرب .





وفى نهاية هذا البحث أجد شبهة تستحق أن نرد عليها ، فلقد عرض الدكتور / محمود علي مراد لأحداث السيرة في المرحلة المكية في رسالته للدكتوراه ، ورأى أن أغلب مروياتها وضع تمجيداً لبني هاشم ، أجداد العباسيين ، الذين دونت السيرة في عهدهم ، ولذلك جاءت أحداث سيرة ابن اسحق وبخاصة في الفترة المكية تمجيداً لبني هاشم خدمة للعباسيين على حساب الأمويين أعدائهم .

ويرى أن النصوص التي تصور عبد المطلب مؤمناً غير صحيحة ، ولا تتناسب مع بعض الشواهد التي ذكرها الدكتور في مؤلفه ، فقصة حفر عبد المطلب لزمزم ، ومواجهته لأبرهة ، وإصراره على الوفاء بنذره ، بذبح أحد أبنائه العشرة .

هذه الأحداث يردها الدكتور ويستدل في ردها برضى عبد المطلب على وضع الأصنام حول الكعبة ، وعدم قيام عبد المطلب بدعوة دينية في قومه ، وتسميته أحد أبنائه بـ " عبد العزي " ، وجحود أبنائه الديني ، حيث لم يؤمن أحدهم بمحمد إلا بعد ثلاث سنوات من البعثة ^(١) ، مما يدل على عدم توجيههم دينياً .

ونحن لا نرتضي ما ذهب إليه الدكتور لما يلي : —

١. التشكيك في راوي السيرة (ابن اسحاق) غير صحيح فهو من رواة السنة ، وأحاديثه ، ورواياته مقبولة ، وقد وثقه علماء الجرح والتعديل ^(٢) .

^(١) سيرة رسول الله " ﷺ " — د / محمود علي مراد ص ٤٢ بتصرف ، وهي رسالة حصل بها المؤلف على الدكتوراه من جامعة السوربون ، وهي مترجمة من الفرنسية إلى العربية .

^(٢) محمد بن اسحاق صاحب السيرة التي لخصها ابن هشام من العلماء الثقات يقول عنه البخاري : روي عنه إبراهيم بن سعد سبعة عشرة ألف حديث ، ومن أشهر مشايخه عاصم بن قنادة ، والزهرري ، وعبد الله بن أبي ، وهشام وعمر بن عروة بن الزبير ، وإبان بن سعيد .

يقول ابن هشام عنه : هذا أعلم الناس بالمغازي ، ويقول عاصم بن عمر : لا يزال في الناس علم ما بقى ابن اسحاق ، ويقول ابن معين عنه : إنه ثقة ، حسن الحديث .

وقد جرح بعض العلماء ابن اسحاق لإكثاره في الرواية ، واتهامه بالقدر ، وتبعه لأولاد اليهود الذين روى أحاديث الغزوات ، وهي أسباب ردها علماء الحديث ، ويختصر نقد ابن اسحق عند إمامين جليلين —== هما الإمام مالك بن أنس ، وهشام بن عروة ، بناء على أسباب وجدوها فيه ، وهي :

٢. لأجداد الأمويين والعباسيين أمجاد ، ومزايا ، فلم ينتهم ابن إسحاق

أمجاد العباسيين مع أن إيرادهم هنا مع أحداث السيرة ضرورة علمية لا من من صلة مباشرة بصاحب السيرة رسول الله ﷺ " ؟ ! !

ولم لم نفهم سبب سكوته عن أمجاد الأمويين ، مع أن مجال الدراسة بعد عنهم ، ولم يشر ابن إسحاق إلى الأمويين بأي سوء .

٣. رد الأحاديث المروية اعتماداً على العقل وحده لا يكفي ، لأن ابن عبد المطلب لم يكن بصورته التامة ، فهو يشبه الخفاء كما قلنا . الدكتور يتصوره رسولاً ، وينقد على هذا الأساس .

٤. شكك ابن هشام في صحة القصائد التي عزاها ابن إسحاق إلى بني عبد المطلب ، وقد أبرز الدكتور هذا التشكيك ، واستشهد به ، فلم ابن هشام صادقاً هنا . . . وغير صادق في مروياته الأخرى عن عبد المطلب .

الأول : حرصه على الإكثار من الرواية ، وهو أمر كرهه الإمام مالك في حياته ، قال عبد الرحمن بن مهزيب : مالك : (يا أبا عبد الله سمعنا في بلدكم — أي بالمدينة — أربعمئة حديث في أربعين يوماً ، ونحن في يوم واحد نسمع هذا كله — أي بالعراق — فقال له : يا أبا عبد الرحمن من أين لنا دار الضرب التي عندكم ؟ دار الضرب تضربون بالليل ، وتنقرون بالنهار) .

الثاني : إتمامه بالقدر ، وهي مهمة أهم بها كثير من المحدثين ولم تنل منهم ، وقد أخرج مسنداً صحيحاً عن بعضهم .

أخرج الخطيب عن أبي زرعة الدمشقي قال : (ومحمد بن إسحاق رحل قد أجمع الكبراء من أهل المدينة على الأخذ منه منهم سفيان ، وشعبة ، ومن عينة ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وابن المبارك ، وقد انفرد أهل الحديث فرأوا صدقاً ، وخيراً ، مع مدحه بن شهاب له ، وقد ذكرت دحيماً قول مالك في ابن إسحاق أنه أن ذلك ليس للحديث ، إنما هو لأنه أتمه بالقدر) .

وقال الجرجاني : الناس يشتهرون حديثه ، وكان يرمي بغير نوع من الدخ ، وقال موسى بن هارون سمعت محمد بن عبد الله بن عمر يقول : كان محمد بن إسحاق يرمي بالفساد وكان أبعد الناس منه .

الثالث : تتبعه لغزوات النبي ﷺ " من أولاد اليهود الذين أسلموا وحفظوا قصة خيبر وغيرها .

(انظر : مع الرسول ﷺ " ص ١٢٤ — ١٢٥ بتصرف) .

المبحث الثاني

إرهاصات الميلاد والرأى فيها

الإرهاص أمر خارق للعادة يظهره الله قبيل مبعث نبي ما ، وهو يختلف عن خوارق العادات الأخرى ، لأن المعجزة تظهر على يد مدعى النبوة تصديقاً له ، والكرامة تظهر على يد عبد صالح تكريماً له ، والمعونة تظهر لعبد صالح معونة له . وقد أورد مؤرخو السيرة الحمديدية ، عدداً من الإرهاصات ذكرها أنها وقعت عند ولادته " ﷺ " .

من هذه الإرهاصات : —

- ما رواه محمد بن إسحاق عن حسان بن ثابت ، قال : (والله : إني لغلام يفعلة ، ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقل كل ما سمعت ، إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أظمة — (يثرب) : يا معشر يهود ! حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك ؟ ! مالك ؟ !
- قال : طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به)^(١) .
- وعن أسامة بن زيد قال : (قال زيد بن عمرو بن نفيل ، قال لي حبر من أحبار الشام : قد خرج في بلدك نبي ، أو هو خارج ، قد خرج نجمه ، فارجع فصدقه ، واتبعه)^(٢) .
- ما رواه ابن سعد بسنده عن ابن عباس أن آمنة بنت وهب قالت : لقد علقت به ، تعني رسول الله " ﷺ " ، فما وجدت له مشقة حتى وضعته ، فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب ، ثم وقع على الأرض معتمداً على يديه ، ثم أخذ قبضة من تراب فقبضها ، ورفع

^(١) صحيح السيرة ص ١٤ .

^(٢) المرجع السابق ص ١٦ .

رأسه إلى السماء ، وقالت أيضاً : لما ولدته خرج مني نور أضاء
الشام ، فولدته نظيفاً ، ولدته كما يولد السخل ما به قدر ، ووقع في
الأرض وهو جالس على الأرض بيده ^(١) .

• ويروى بن سعد أيضاً أنه لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله
أربعين إيوان كسرى ، وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وحدثت نار فارتدت
تحمداً قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة ، ورأى **الموبدان** إبلاً صعباً
خيلاً عرباً ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلادهم ، فلما أصبح كسرى
ذلك ، فتصبر عليه تشجعاً ، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرأته فجمعهم
تاجه ، وجلس على سريرته ، ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده .

قال : أتدرون فيم بعث إليكم ؟ ! .

قالوا : لا إلا أن يخبرنا الملك .

فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب حمود النيران ، فازداد غمّاً إلى غمهم
أخبرهم بما رأى ، وما هاله .

فقال **الموبدان** وأنا — أصلح الله الملك — قد رأيت في هذه الليلة رؤيا ، ثم قص
رؤياه في الإبل ، فقال أى شيء يكون هذا يا موبدان ؟

قال حدث يكون في ناحية العرب — وكان أعلمهم من أنفسهم — فكتب عند ذلك
كتاباً من كسرى ملك الملوك ، إلى النعمان بن المنذر ، أما بعد فوجه الى برجل عادي
أريد أن أسأله عنه ، فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيلة النسائي
فلما ورد عليه قال له : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟

فقال : لتخبرني أو ليسألني الملك عما أحب ، فإن كان عندي منه علم وإلا أخبر
بمن يعلم .

فأخبره بالذى وجه به إليه فيه .

قال : علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام يقال له سطيح .

قال : فأنه فأسأله عما سألتك عنه ، ثم اتنى بتفسيره ، فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح ، وقد أشفى على الضريح ، فسلم عليه وكلمه ، فلما سمع سطيح قوله ، رفع رأسه يقول : عبد المسيح ، على جمل مشيح ، أتى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وحمود النيران ، ورؤيا الموبدان رأى إبلاً صعباً ، تقود خيلاً عرباً ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلادها ، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وحمدت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاماً ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات وكل ما هو آت آت ، ثم قضى سطيح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته ^(١) .

والإرهاصات التى ذكرها مؤرخو السيرة عديدة ، وكلها تشير إلى حدوث أمر جديد يتأثر به العالم كله ، ويصل خيره ، ونفعه إلى كل مكان في أرض الله تعالى . أدرك من شاهد هذه الإرهاصات ، أو بعضها حدوث هذا التغيير ، لكنه لم يرتبط في أذهانهم بالمولود الجديد ، اللهم إلا نفر قليل من أهل الكتاب الذين كانوا يقرأون الكتاب ، ويرون صفة رسول الله ، الذين يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، والإنجيل ، وسار العلماء القدامى على تصديق كل أثر صح سنده ، فلم يبحثوا عن علة الأثر ، أو غايته ، لأنهم رأوا أن من الأخبار ما هو متصل بأمر خارق للعادة ، لا يصل العقل إلى كنهه ، وحقيقته ، مما جعلهم يقفون عند حد ثبوت النص ، وتصديقه والعمل به ، ورأينا العلماء القدامى يروون إرهاصات النبوة في مؤلفاتهم ، ودروسهم ، ولم يعلقوا عليها ، مما يدل على أنهم راضون عنها ، سعداء بذكرها .

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

إلا أننا في العصر الحديث وجدنا عدداً من المستشرقين ، والمسلمين الذين
كتبوا في السيرة ، يرفضون الإرهاسات باسم العلم والعقل من غير نظر إلى السند
أو مصدر رواية الحدث .

فمنهم من رفض هذه الإرهاسات بحجة أن الإسلام لا يحتاج إليها في حركته
وانتشاره ، لأنه يحمل عوامل التصديق به في ذاته ، كما أن هذه الإرهاسات لم تنه
إلى إسلام أحد ، ولم تكن دليلاً على صدق الرسالة يوم بعث محمد ﷺ .
فلقد ولد مع النبي ﷺ في يوم مولده غيره ، ومن الممكن أن يدعى أهل هذا
الأبناء ، وقومهم أن هذه الإرهاسات بسبب ميلاد أبنائهم .

إن هذا الفريق لا يصرح بكذب الإرهاسات ، ولا يقول بها ، لأنها ؟
أمامه فائدة تذكر للدعوة الإسلامية .

يقول عباس العقاد : علامات الرسالة الصادقة هي عقيدة تحتاج إليها الأمة
وهي أسباب تتمهد لظهورها ، وهي رجل يضطلع بأمانتها في أوانها ، فإذا تحققت
هذه العلامات فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها ؟ ..

وإذا تعذر عليها أن تتجمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها ؟
وقد خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولاً مبشراً بدين ، وإلا فالأى شيء خلق ؟
ولأى عمل من أعمال الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات ؟
هاتيك المناقب والصفات ؟ ..

إن المؤرخين يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية
يسردون ما أكدته الرواة منها ، وما لم يؤكدوه ، وما قبله الثقات منها ، وما لم يفلحوا ،
وما أيدته الحوادث ، أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة ، أو عارضته ، ويتفرقون في
الرأى والهوى بين تفسير الإيمان ، وتفسير العيان ، وتفسير المعرفة ، وتفسير الجهالة .
فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت
الميلاد ، أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة ، واستفاض أمر الإسلام ؟ ..

لا موضع هنا لاختلاف ، فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر في إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبي ﷺ " بالرسالة .

ولم يكن ثبوت الإسلام متوقفاً عليها ، لأن الذين شهدوا العلامة المزعومة بيوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ مغزاها ، ومؤداها ، ولا عرفوا أنها علامة على شيء ، أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة ، ولأن الذين سمعوا بالدعوة ، وأصاحوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة منها ، ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه .

وقد ولد مع النبي ﷺ " أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها ، فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره ، ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين ، إلا بعد عشرات السنين ، يوم أتت الدعوة بالآيات والبراهين ، غنية عن شهادة الشاهدين ، وإنكار المنكرين ، أما العلامة التي لا التباس فيها ، ولا سبيل إلى إنكارها ، فهي علامة الكون ، وعلامة التاريخ ، قالت حوادث الكون : إن الدنيا في حاجة إلى رسالة ، وقالت حقائق التاريخ محمد ﷺ " هو صاحب تلك الرسالة ، ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون ، وعلامة التاريخ ^(١) ؟ ؟ .

ومنهم من رأى ضرورة عرض هذه الإرهاصات على العقل ، فهو ميزان

القبول والرفض لأي قول ، في إطار الأسس العلمية ، التي أخذوها من المستشرقين ، حيث يعتمدون على العقل اعتماداً كاملاً في إدراك كل شيء .

وحين تظهر النظرة العقلية في صورة الحياد العلمي عند أصحاب هذا الاتجاه

براهم بعرضون الروايات على القرآن الكريم أحياناً ، فما اتفق معه منها قبل ، وما لم يتفق فمضروه الرفض وعدم القبول ، مع أن القرآن يتحدث عن الخوارق المعجزة وغيرها

وعلى أساس فكرهم هذا رفضوا كثيراً من الإرهاسات ، كما رفضوا كثيراً من أحداث السيرة لخروجها عن عادة العقل ، وسكوت القرآن عنها ، ولزعماء حادوا لموضعها في القرآن الكريم ، وأولوه : بما يؤيد موقفهم الراض لمرويات السيرة والتاريخ ، وذلك كموقفهم من شق الصدر وغيرها .

وحين ننظر إلى هؤلاء ندرك الفرق بينهم ، فكلاهما يرفض الإرهاسات المروية ، إلا أنهما يختلفان في سبب الرفض ، حيث يذهب الفريق الأول في سبب رفضه إلى عدم فائدتها للدعوة ، بينما الفريق الثاني ينكر وجودها لعدم تسليم العقل بها . وقبل أن نرد عليهم أشير إلى أن أحداث هذه الإرهاسات جاءت على غير ما ألفه الناس ، وأقل ما تركه في عقولهم البحث عن فاعلها ، وعن أسباب وقوعها بهذه الصورة الخارقة ، وهذا كاف في توجيه أنظارهم إلى التفكير ، والتدبر ، وإن لم يرضوا بشيء .

إن الفريقين على خطأ فيما ذهبا إليه لأسباب كثيرة أهمها : —

أولاً : ضرورة التفريق بين الجانب العقلي ، والصورة النبوية ، لأن النبوة وحى مستمد من الله تعالى ، وقدرة الله تعالى مطلقة ، تعلو كثيراً عن نطاق العقل البشري ، وطاقته .

وإذا كانت النبوة مخاطبة بخوارق العادات ، فكيف ندرك حقائق هذه الخوارق بالعقل المحدود .

لقد حاول كفار مكة مواجهة النبوة بعقولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا

الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٢١ ٢٢ ﴾ ^(١) وحثهم فيما طلبوه أن ياتوا

رئاسة ، وقيادة ، وحدير بها العظماء المشهورون بالغي ، والجاه ، والسطوة ، وذلك طلبوها لأحد عظماء مكة ، أو الطوائف .

ولو عرضنا هذا المنطق على العقل وحده لكان منطقاً مسلماً ، فالعظيم بحاله

يعطي ويسود ، ويجهده يأمر ويطاع ، وبقوته وسطوته يوجه ، ويسيطر ، ويحكم .

أما لو عرضناه على منطق النبوة والوحي فإن الأمر يختلف كما قال الله تعالى

﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا

بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا

يَجْمَعُونَ ﴿٣١﴾

إن النبوة رحمة من الله تعالى يعطيها لمن اصطفاها ، واختاره ، ولا دخل للعقل

فيها ، لأن العقل محدود التصور ، محدود الإدراك ، فكيف له أن يتدخل في رحمة الله

وعظاته بالرأي ، والتوزيع ، والنقد ؟ !! ..

إن العقل يعجز في إدراك شأن صاحبه ، ولا يستطيع له أمراً ، فأمر الدنيا

تجري بقدر الله تعالى ، ولا يمكن لإنسان أن يخرج عن هذه القدرة الإلهية .

إن الغني ، والفقر ، والسعادة ، والشقاوة ، والصحة ، والمرض ، والتيسير ، والتعسير ..

كل ذلك وغيره قدر لا دخل للإنسان فيه ... فأين العقل إذا في هذه الحالات ؟ ! ..

إن القدر الإلهي قد يرفع إنساناً ، ويعطيه ، وحينئذ يستخدم كثيراً من العقلاء

الموهوبين ، مع أن حظه في العبقريّة قليل ، مما يدل على أن الأمر بيد الله رب العالمين .

إن العقل البشري قد يتصور العظمة في الأمور الظاهرة ، كالغني ، والوظيفة

والسلطان ، وتثبت الأيام والتجارب أن العظمة الحقيقية في الجوانب المعنوية ، المستورة

التي يعلمها الله تعالى وحده ، ولذلك كانت النبوة قدراً إلهياً ، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾

لقد استعمل القرشيون عقلهم أيضاً أمام الوحي ، والقُدرة الإلهية في سوانح الإسراء والمعراج ، وأنكروا على رسول الله ﷺ " ما قاله لهم ، وقالوا له : أبصر بها أكباد الإبل شهراً وترغم أنك تأتيها في ليلة واحدة ؟ ! ..

لقد أملي عليهم عقلهم استحالة ما سمعوا من رسول الله ، لأن العقل لا يستطيع أبداً بأن يسافر إنسان ما في زمان النبوة والبعثة ، من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ويعود في ليلة واحدة ، ونسوا أن الذي أسرى برَسُولِ الله هو قُدْرَةُ الله تعالى ، والذي هو الله ، يقول تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) ، والنبى ﷺ " (يقول أسرى في الليلة) (٢) " ولم يسهل الفعل لنفسه .

إن أصل الخلاف بين الرسول وأهل مكة في هذه الحادثة هو مصدر الوحي والتصور ، فأهل مكة يعتمدون على عقولهم ، بينما الرسول ينطلق من الوحي والنبأ . لقد ذهب الكفار إلى أبي بكر ﷺ " ليكون معهم في تصورهم العقل . وينكر معهم الإسراء والمعراج ..

لكنه ﷺ " بمنطق الإيمان بالنبوة والرسالة يرد عليهم قائلاً : إن قال فقد صدق ، يخبرني أن الوحي يأتيه من السماء في لحظة وأنا معه فأصدق ، أقول أصدقها هنا . إن البعض قد تصور أن إيمان أبي بكر في شأن حادثة الإسراء والمعراج وغيرها — قد بني على غير تفكير ، أو على أساس الإيمان فقط ، وهذا تصور خاطئ . إنه قد علم الجميع درساً فائقاً ، في كيفية استعمال العقل ، وحدوده التي لا ينبغي أن يتجاوزها .

(١) سورة الإسراء آية (١) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، باب الإسراء ، ج ٢ ، ص ٢١٠ .

إن العقل له أن يفكر في قول الرسول إنه رسول، فإذا ثبت لديه صدق الرسول فالنتيجة الحتمية، الموافقة لأى منهج عقلي، أن يؤمن بكل ما صدر عن ذلك الرسول . يسدون تدخل للعقل، لأن الرسالة، مستمدة من الله عز وجل، وقدرة الله صالحة لكل فعل خالف العقل، أو توافق معه، وذلك هو جوهر القياس العقلي الذي أجراه أبو بكر أمام المشركين، لقد قال لهم: إنه يقول لي إن الخبر يأتيه من السماء في لحظة وأصدفه، فأى غرابة في منطق العقل والعلم أن يصدق بعد ذلك في أنه قد أسرى به إلى بيت المقدس ما دامت القدرة التي أنجزت هذا الفعل هي قدرة الله عز وجل . فليدخل أتباع المدرسة العقلية من أنفسهم وليتعلموا ذلك الدرس العظيم على يد أبي بكر في كيفية استخدام العقل^(١).

يقول ابن عطاء الله السكندري: زار بعض السلاطين ضريح أبي يزيد " ﷺ "

وقال: هل هنا أحد ممن اجتمع بأبي يزيد؟

فأشير إلى شيخ كبير في السن كان حاضراً هناك .

فقال له: هل سمعت شيئاً من كلام أبي يزيد؟

فقال: نعم: سمعته يقول: (من زارني لا تحرقه النار) .

فاستغرب السلطان ذلك الكلام، فقال: كيف يقول أبو يزيد ذلك،

وأبو جهل رأى النبي " ﷺ " وتحرقه النار؟

فقال ذلك الشيخ للسلطان: أبو جهل لم ير النبي " ﷺ "، إنما رأى (يتيم

أبي طالب) ولو رآه " ﷺ " رسولاً لم تحرقه النار .

ففهم السلطان كلامه، وأعجبه هذا الجواب منه، أى إنه لم يره بالتعظيم

والإكرام، والأسوة، واعتقاد أنه رسول الله، ولو رآه بهذا المعنى لتغير حاله، لكنه

رآه باحتقار، واعتقاد أنه (يتيم أبي طالب)، فلم تنفعه تلك الرؤية .

(١) السيرة النبوية ص ٥٧، ٥٨ .

ومما كان المستشرقون في تركيزهم على بشرية الرسول إلا متابعين في ذلك لهذه النزعة ، وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين إنما هو بذلك يتابع المستشرقين والمبشرين في هذه النزعة ، أو يتابع أبا جهل وهم في ذلك ليسوا تقدميين ، ولا تطوريين ، وإنما هم من الرجعيين حيث ترجع فكرهم إلى ما قبل خمس عشر قرناً مضت ، يترعمهم فيها أبو الجهل كله ، وأبو الظلمة القلبية كلها إلا أن ليس هناك إذن اجتهاد ، وخطأ ، وصواب ، وإنما هناك تصرفات تصطرع عن الكرم والرحمة ، فيتحدث الله ، مبيناً طبيعة رسوله الكريمة ، وفطرته الرحيمة ، والواضحة ، ويبين في الوقت نفسه : أن بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة ليسوا جديرين بها ، وليسوا أهلاً لها ، لفساد طوبتهم وسوء نواياهم .

ومن الحقائق المعروفة : أن الإنسان يميل إلى التركيز على " بشر " أو على " يوحى إلى " حسب قوة شعوره الديني وضعفه ، فالذي لا إيمان له لا يرى إلا البشرية ، والعقل ، والمنهج الوضعي . ومن ضعف إيمانه يركز على البشرية ، ويحدد التركيز على البشرية كلما قوى الإيمان ، ويزداد التركيز على " يوحى إلى " كلما زدد الإيمان حتى يصل الإنسان إلى مستوى ألا يرى ، أو لا يكاد يرى إلا " يوحى إلى " وهناك إذن طرفان يمثلان طرفين من الناس ، طرف " بشر " أو " قل إنما أنا بشر مثلكم " وطرف : " **يُوحَى إِلَيَّ** " أو " رسولاً " ، وبين الطرفين يتأرجح عدد لا يخصى من المسلمين نزولاً وارتفاعاً ، انخفاضاً وارتفاعاً .

إن مقياس الإيمان قوة وضعفاً ، ومقياس درجة الإيمان الذي لا ينطى ، هو ما وقر في القلب ، أو غلب عليه ، من " البشرية " أو من " يوحى إلى " ، إنما يمثلان ما يوضع في كفتي ميزان .

إن النبوة اصطفاء إلهي ، واختيار رباني ، لا يدرك سرها إلا القادر العظيم ، ومن الضروري أن توضع في موضعها ، ويقف العقل عند حده ، وبذلك يتميز جانب

النبوة عن جانب البشرية في التصور الإنساني .

ثانياً : التفرقة بين الجانب الإلهي ، والجانب البشري تكريم للإنسان ، واحترام للعقل ، لأن الإنسان إن أدرك حقيقة ذاته وعرف حقوقه ، وواجباته ، وتمكن من القيام بما هو مسئول عنه ، ونال ما هو محتاج إليه في كمال ودقة ، كان هذا تكريماً له .

وحيثما يكلف العقل بما هو ممكن ، وحيثما يعيش في إطار قدرته الذاتية ينال رضي نفسه ، ويحسن تفكيره ، وتدبره ، ويصير مصدر السعادة ، والخير لذاته ولصاحبه . وحيثما يخرج الإنسان عن طاقته ، ويتمادى العقل بعيداً فوق مداركه ، واستعداداته ، فإنه يضل ، ويزيغ عن الحق ، ويثلب على صاحبه الاضطراب ، والضياع . من أين للإنسان أن يتصل بقدرة غيبية بعيداً عن ميزان النبوة ؟ ! ومسالكها ؟ ! ومن أين للعقل أن يدرك الغيب الخفي ، مجرداً عن أدواته ومصادره ؟ ؟ .. إن العقل ليس هو النبوة ، ولذلك يجب أن يكون عقلاً فقط ، ويجب أن يؤمن العقل بالنبوة ليعرف ويعلم ، ويؤمن ويهتدى .

ثالثاً : يتصور القائلون بالعقل أنهم تقدميون ، يسلكون منهجاً علمياً معاصراً ، وما دروا أنهم حين أعملوا العقل في مقابل النبوة ، والإرادة الإلهية ، رجعوا إلى عصور سحيقة ، وتشبهوا بمخلوقات قديمة ، اعتمدت على عقلها ، وبذلك أثبتوا رجعتهم ، وتخلفهم .

ألم يقف إبليس بعقله أمام الوحي والنبوة ، حين أمره الله بالسجود لآدم " **الطَّيِّبُ** " ، حيث أبي وقال : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ .. وتمسك برأيه ، وتصور صوابه ، مع أنه قائم على الضلال ، والهوي ..

على هؤلاء القائلين بالعقل فقط أن يروا مدي رجعتهم ، وتخلفهم ، ويعلموا أنهم تشبهوا مع أمثالهم الذين وجدوا مع آدم " **الطَّيِّبُ** " في القول والتوجيه .

رابعاً :

يرى المنكرون للإرهاصات النبوية غرابة فيها لا يستسيغها العقل ولذلك سارعوا إلى إنكارها، أو السكوت عنها، ومن عجب أن هؤلاء المنكرين أغفلوا من المستشرقين غير المؤمنين بالإسلام والذين يدينون بالمسيحية، ولذلك نساخهم أيها أكثر غرابة في عقولكم امرأة تحمل بلا زوج ، أم انطفاء نار ؟ وأيها أقرب للعقل اهتزاز قصر ، أم ولادة طفل بغير أب ؟ ! ..

إن المسلم يصدق بكل هذا ، لأنه يؤمن بالله ، وبنبوة عيسى " عليه السلام " .

ولكن السؤال نوجهه هؤلاء الذين يحاولون تفسير الإسلام تفسيراً غريباً بعيداً عن بيئته ، وطبيعته .

لو وقفنا أمام كل غريبة من الغرائب ، ولم نسلم بها ، وأخذنا نعرضها على التجربة والقواعد العقلية ، فسوف نهدم كثيراً من وقائع الحياة التي نعيشها ، فكم يبتعد من الغرائب والعجائب ؟ ! !

إن كون الله معجز كله ، وتصوير إيجاده فوق مستوى العقل كسائر أسرار الله في الخلق .

كيف وجد العقل ؟ وكيف يتصور ، ويفهم ، ويحكم ؟

كيف للقلب أن يعمل ؟ ومتى ينشط ؟ ومتى يتوقف ؟

كيف تقوم الجوارح ، والأحاسيس ، والعواطف بوظائفها ؟

إن كل ذلك وغيره قدرة إلهية ، لا يدرك العقل حقيقتها ، وكنها مخفية .

نقول هؤلاء : متى تقفون بالعقل عند طاقته ، وحدوده ؟ ... متى ... ؟ ؟

خامساً :

المنكرون للإرهاصات ، والأحاديث يحكمون القرآن الكريم حين يتصورون تعارض الأحاديث ومرويات السيرة معه ، لأنهم لا يريدون تكذيب القرآن — كما يزعمون — ولكنهم يردون السنة فقط ، حتى يظهروا بمظهر الإنصاف والحيادية .

ألم يعلموا أن السنة الصحيحة لها حجة شرعية كحجية القرآن الكريم ؟

يقول النبي " ﷺ " : (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه) .

والأمر المهم هنا ، هو سؤالهم لم صدقتكم بالقرآن الكريم وهو وحي صادر عن الغيب ؟ وهل دفعكم تصديق القرآن الكريم إلى الإيمان بما جاء فيه ؟ وقد جاء فيه ضرورة الإيمان بالنبوة ، والوحي ، وتسليم الأمر لله رب العالمين .

إن إنكار الوحي الغيبي إنكار للإسلام كله ، يقول الدكتور / سعيد البوطي : إن الخمس الذي يدعو المسلمين إلى ثورة علمية إصلاحية في شئون العقيدة الإسلامية يستهدف في الحقيقة نسف الإسلام كله ، لأن تفريغ الإسلام من حقائقه الغيبية ، يعني حشوّه بأمور عقلية غريبة عنه ، لأن الوحي الإلهي — وهو ينبوع الإسلام ومصدره ، يعد قمة الخوارق والحقائق الغيبية كلها ، ولا ريب أن الذي يسرع إلى رفض ما جاء في السيرة النبوية من خوارق العادات بحجة اختلافها عن مقتضى سنن الطبيعة ومدارك العلم الحديث ، يكون أسرع إلى رفض الوحي الإلهي كله ، بما يتبعه ، ويتضمنه من إخباراته عن النشور ، والحساب ، والجنة ، والنار بالحجة الطبيعية ذاتها .

كما غاب عنهم أن الدين الصالح في ذاته لا يحتاج إلى مصلح ، يتدارك شأنه ولا يحتاج إلى إصلاح يغير من جوهره .

غاب عن هؤلاء الناس هذا كله ، مع أن إدراكهم له كان من أبسط مقتضيات العلم لو كانوا يتمتعون بحقيقته ، وينسجمون مع منطقيته ، ولكن أعينهم غابت في غمرة إنبهارها بالنهضة الأوربية الحديثة ، وما قد حف بها من شعارات العلم ، وألفاظه ، فلم تبصر من حقائق العلم والمنطق إلا عناوينها ، وشعاراتها ، وقد كانوا بأمس الحاجة إلى فهم كامل لما وراء تلك العناوين ، وإلى هضم صحيح لمضمون تلك الشعارات ^(١) .

سادساً : من الحقائق المسلمة أن عديداً من الأطفال ولدوا يوم مولد محمد

" ﷺ " لأن هذه من الضرورات المعلومة .

(١) فقه السيرة البوطي ص ٣٩ .

ومع ذلك فلا تعارض بين كثرة المواليد، وهذه الإرهاصات، لأن القائلين به يتخذونها دليلاً على معرفة الله، والتصديق بالرسالة، وإنما يتصورونها رمزاً قوياً لإعلان جزء من القدرة المتحركة في هذا الكون، وهينة العقول لاستقبال ميراث البشرية، ومحرر الإنسان من ظلمات الطغاة، وغيث العاشقين، المرسل من الله العزيز الحكيم.

وحين نقول — والقول حق — إن أيام مولد النبي ﷺ " شهدت بروزاً فريداً لا يمكن للعقل تصوره، مع أنه حقيقة ثابتة، وهو هلاك جيش أبرهة بعد الحصى تثرى على الرؤوس فتجعلها كعصف مأكول ... نعم العقل لا يتصور حبات الحصى الصغيرة تملك قوة فكرية تمكنها من اختراق الرأس، وتقتل بعدد تتحرك كل حصاة نحو من تريد قتله ! ! ، بلا أدنى خطأ وهل يمكن لحصاة صغيرة تدبر وتقتل وتفعل كل هذا ! ؟ ! .

إنها حادثة فوق مستوى العقل ... ولكنها حدثت لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ ﴿٥﴾ وكان حدوثها بعد ميلاد النبي ﷺ " بخمسين يوماً على الأرجح .

وما الذى يمنع أن تكون هذه الحادثة من إرهاصات المولد النبوى .. إن القضية في النهاية ليست منهجاً علمياً ، أو عقلياً ، بقدر ما هي قضية إيمان وتسليم .. فالمؤمن يصدق بالخير إذا اشتمل على صدق روايته ، ويكذبه إذا تأتت الرواية صحيحة ، مقبولة، أما غير المؤمن فإنه ابتداء لا يصدق ، وبعدها يبحث عن مبرر يؤيد مقالته وتكذيبه .

سابعاً : الوجود كله خضع ، واستسلم لله تعالى، إلا أن الإنسان المخلوق الوحيد الذى تمرد عن الحق، ولعب به الشيطان ، يقول تعالى : ﴿ وَابْتَغَى الْوَعْدَ الْوَحِيدَ الَّذِي تَمُرَّدُ عَنْ الْحَقِّ ، وَلَعِبَ بِهِ الشَّيْطَانُ ، يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَابْتَغَى الْوَعْدَ الْوَحِيدَ الَّذِي تَمُرَّدُ عَنْ الْحَقِّ ، وَلَعِبَ بِهِ الشَّيْطَانُ ، يَقُولُ تَعَالَى : ﴿

أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ
وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ
مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ .

والآية توضح هذه الحقيقة التي يجب أن تعرف معرفة من رأى وشاهد، لقوله

تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ .. هذه الحقيقة تبين ما يلي : —

١ . كل من في السموات ومن في الأرض وما بينهما، صغيراً أو كبيراً، خاضع
ومستسلم لله تعالى .

٢ . المخلوقات الكبرى المنتظمة في عملها كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال
والشجر، والدواب، خاضعة ، خاشعة لله رب العالمين .

٣ . أنقسم الناس إلى قسمين ، قسم خشع وخضع لله ، وهو القسم الفائز الناجي
أما القسم الثاني فهو قسم متمرّد ، ضال ، ولذلك حق عليه العذاب ،
ووجبت له اللعنة ، ولحقه الهوان ، لأنه مطرود من رحمة الله تعالى .

إن هذه الحقيقة بعناصرها المذكورة تؤكد حاجة الكون إلى التوازن بعودة
الإنسان إليه ، وائتلافه معه في حركته ، ونشاطه .

ألا يحق لهذا الكون أن يسعد يوم ميلاد رسول الله " ﷺ " الذي سيبحث
لإعادة التوازن بين سائر عناصره ، وليضع الإنسان في إطار الطاعة لله رب العالمين .

يقول الشيخ / محمد متولي الشعراوي : (نقرأ في كتب السيرة أنه حدث في
يوم مولده " ﷺ " : أن انشق إيوان كسرى ، وغاضت بحيرة ساوة ، وحمدت نيران
فارس .. إلى آخره ، وهذه هي المعروفة بإرهاصات النبوة .

نجد بعض الناس يرددونها بأسلوب التأديب مع سيرته " ﷺ " ولكنه لا يتعرض
لها بالنفي، أو التأييد، وإن كان يقترب من الرفض ، وربما ذهب بعض الناس الذين

لا يريدون الإقرار بهذه الظواهر، أو المعجزات الكونية إلى أن الرسول ﷺ " ليس " حاجة إلى هذه المعجزات الكونية .

أما وقد وضح أن الرسول ﷺ " جاء ليعيد إنسجام الإنسان مع الكون الساجد ، وأن كل ما في الوجود يسجد ويسبح لله ، غير أن الجنس البشري هو الذي يشذ بعضه عن الإجماع في الخضوع والسجود لله ، فإن هذه الظواهر الكونية المخفية لله : والعبادة له بلغت كما أثبتها القرآن ليس مستبعداً أن تفرح ، وأن تنهج بمثل هذا المولد ، مولد الإنسان الأعظم " ﷺ " الذي جاء ليعيد إلى الإنسانية رشدها .

فإذا عرضت لنا السيرة أن أشياء من الكون فرحت بمولد الرسول ﷺ " حدثت منها أشياء ، فذلك أمر لا نستبعده على كون مسيح لله ، عارف بحق الله وأيضاً لسنا نحن المطلقين بأن نؤمن بهذا ، ولكن الذين آمنوا بها هم الذين شاهدوها وهم الذين سمعوا عنها ، فالذين سمعوها حجة على أنفسهم ، ونحن نتلقى عنهم الخبر فإن كنا موثقين لهم في الخبر صدقناه ، وإن لم يتسع ظننا لتوثيقهم في خبرهم فمن أحرار في أن نصدق أو لا نصدق ، ولكن منطق الوجود ، لا يمنع حدوث شيء من ذلك أبداً ، فإذا ذكر أن إيوان كسرى قد انشق ، فماذا في ذلك من الدهشة ؟ ، وماذا في ذلك من العجب ؟ .

أنستبعد أن يوقت شق الإيوان بالميلاد الحمدي ؟ ولم يكون هذا الاستبعاد ؟ .
أنكر على الله أن يطفى نار فارس التي تعيد من دونه ، وأن يوقت ذلك بالميلاد الحمدي ؟ وما سبب الإنكار ؟

أتصور أن لاتغيب بحيرة ساوة مع الميلاد الحمدي ؟ ، ولماذا هذا التصور ؟ ^(١) .

ألم ينشق القمر نصفين معجزة لرسول الله ﷺ " ؟

ألم يفيض الماء من بين أصابه الشريفة " ﷺ " ؟

ألم يحدته الحجر ، والشجر ؟

ألم .. ؟ ألم ... ؟ ألم .. ؟

وقد يرد هنا سؤال :

وهل تدرك الكائنات ؟

نعم الكائنات مدركة عابدة لربها ..

لنقرأ قول الله تعالى حكاية عن سليمان " **الْحَمْدُ لِلَّهِ** " : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَتْلُوا الْفَرْقُلُ عَلَّمَنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۚ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ۝ ﴾ ^(١) ونقرأ قوله تعالى وهو يحكي حديث النمل والهدد : يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتْلَاهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ ^(٢) ويقول تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَايِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْخَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ۝ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِمْ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ۝ ﴾ ^(٣) ..

ألا يدل ذلك على أن الكون يدرك ، فلطير منطقته ، وللنمل فكره وحذره ،

وللهدد تخطيط ، وفهم ، وعمل .

ثامنا : ونحن في إطار الدعوة ندرك ضرورة وجود المنبهات الموقظة قبيل

عرض الشيء الهام ، لينتبه الغافلون ، ويستيقظ النائمون .. وهذه قضية علمية معاصرة.

^(١) سورة النمل آية (١٦) .

^(٢) سورة النمل آية (١٨) .

^(٣) سورة النمل الآيات (٢٠ — ٢٢) .

ألا يدفعنا استيعاب هذه القضية إلى اعتبار أن هذه الإرهامات جاءت من
 الله للتنبيه ، وليعلم من يعقل أن لا دوام لمخلوق ، وما يلحقه النقص ، والتغير ،
 وبإله ، وكل ما يلحقه العجز ، والهلاك ، والانهاء ، فهو مخلوق لله رب العالمين .

المبحث الثالث

ميلاد اليتيم محمد ﷺ

ولد محمد ﷺ " يوم الإثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من عام الفيل ، بمكة المكرمة ، في دار أبيه التي كانت موجودة بشعب بني هاشم ، وقيل : إنه ولد بدار عند الصفا ، كانت لمحمد بن يوسف ، أخو الحجاج ، اشتراها زبيدة زوجة هارون الرشيد ، وبنت مكانها مسجداً ^(١) وهي اليوم بناء صغير ، موجود بجوار الساحة الجنوبية للحرم الشريف ، وكما مكتبة صغيرة عامة تعرف بمكتبة الحرم المكي .

ومما يدل علي ولادته يوم الاثنين ما روي أن أعرابياً قال : يا رسول الله ، ما تقول في صوم يوم الإثنين ؟

قال " ﷺ " : ذاك يوم ولدت فيه ، ويوم بعثت أو أنزل علي فيه ^(٢) .
ويشهد لولادته " ﷺ " عام الفيل حديث قيس بن مخزومة الذي قال فيه : (ولدت أنا ورسول الله " ﷺ " عام الفيل) ^(٣) .

يقول محمد بن اسحاق : (ولد رسول الله " ﷺ " يوم الإثنين عام الفيل لاثني عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول) ^(٤) .

كما يروي الترمذي بسنده عن قيس بن مخزومة بن عبد مناف قال : (ولدت أنا ورسول الله " ﷺ " عام الفيل ، كنا لدين) ^(٥) .

^(١) الروض الأنف ج ١ ص ١٨٤ .

^(٢) صحيح مسلم بشرح النووي — كتاب الصيام — باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ج ٨ ص ٥١ .

^(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٧٥ .

^(٤) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ١٧١ .

^(٥) سنن الترمذي — كتاب المناقب ج ٥ ص ٥٨٩ .

وروى عن أبي الحويرث قال : (سمعت عبد الملك بن مروان يقول لعبد
بن أشيم الكناني ، ثم الليثي : يا قباث : أنت أكبر أم رسول الله " ﷺ ")
قال قباث : رسول الله أكبر مني ، وأنا أسن منه ، ولد رسول الله " ﷺ " عام
الفيل ، ووقفت بي أمي على روث الفيل أخضر محيلاً أعقله (١)
يقول ابن عباس " ﷺ " : (ولد نبيكم يوم الإثنين) (٢) .

وجمهور المؤرخين ، وعلماء السيرة يجمعون على أن رسول الله " ﷺ " ولد يوم
الإثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل ، حين طلع الفجر (٣)
وقد مات أبوه عبد الله وهو حمل في بطن أمه ، وكانت وفاته بالمدينة عند
أخواله من بني النجار حيث دفن بدار عدي النابغة ، يقول ابن كثير : (خرج
عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام ، إلى غزة ، في غير من غيران قريش ، يحملون
تجارهم ، فلما فرغوا من تجارتهم مروا بالمدينة ، وعبد الله يومئذ مريض .
فقال : أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار ، فأقام عندهم مريضاً شهراً
ومضى أصحابه فقدموا مكة ، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله .
فقالوا : خلفناه عند أخواله في المدينة وهو مريض .

فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفي ، ودفن في دار النابغة
فرجع إلى أبيه ، وأخبره (٤) ، وكان وقع خبر وفاته على أبيه ، وإخوته مؤلماً .
وكان عمر عبد الله يوم وفاته خمساً وعشرين سنة على الصحيح (٥) .

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٢) الفتح الرباني ج ٢٠ ص ١٨٩ .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٩٩ ، وهناك أقوال ضعيفة تشير إلى غير هذا التاريخ لكنها معارضة لما
جمهروه العلماء ، ومؤلفي التاريخ والسيرة .

(٤) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٦١ ، وهذا رأي الجمهور .

(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٦١ .

المعجب أغلب علماء التاريخ ، وكتاب السيرة ، إلى أن عبد الله والد النبي ﷺ " مات ، والرسول حمل في بطن أمه ، يقول ابن إسحاق : (ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أن توفي وأم رسول الله حامل به) ^(١) ولم يترك عبد الله مالا يورثه لزوجها ، وولده ، اللهم إلا جاريته أم أيمن ، وخمسة جمال ، وقطعة من غنم ^(٢) . ولذلك ولد النبي يتيماً ، فقيراً لحكمة أرادها الله تعالى ..

إن اليتيم في حد ذاته ، منقصة للوليد ، وبخاصة في مجتمع يفتخر بالأنساب ، والأحساب ، والقبيلة ، والجماعة ، إن الوليد في نشأته بعيداً عن أبيه يعيش منعزلاً ، لا يحسن معاملة الناس ، وينمو ضعيفاً في بدنه ، وسلوكه ، لا يتمكن من مواجهة مصاعب الحياة ، وإذا وجد مع اليتيم الفقر ، فإن الصغير يعيش مهملاً ، لا يهتم به أحد ، وإن اهتم به أحد فلتسخره ، واستغلاله .

فمن أين لليتيم بأبوة حانية ؟ ! .. تتعهد غلاماً ، وتربيته طفلاً ، وتوجهه شاباً باقياً ، وتدفعه إلى غمار الحياة رجلاً مسئولاً .

وأين لليتيم من رعاية شاملة ؟ تحافظ عليه في نومه ، ويحفظه ، وسكونه ، وحركته ، وراحته ، وعمله ؟ ..

ومن أين لليتيم من ينصره ، ويعينه في مواجهة الخطوب ، والحوادث ؟

فإذا ما انضم إلى اليتيم الفقر ، فالنتيجة أسوأ ، وأظلم ..

إن اليتيم الفقير لا ينال التعليم الذي يريده ، ولا يتمكن من نيل الأعمال التي يرغبها ، لأن غيره أسبق إليها منه ، وله من يساعده ، أما اليتيم الفقير فإن الجميع ينصرفون عنه ، ولا يهتمون بشأته !!! .

ذلك هو منطق الواقع والحياة .

فاليتيم ضعيف ، مهمل ، منعزل ، تؤثر معيشتة في خلقه ، وسلوكه ..

والله لك كانت وصية الله ناليتامي من أجل إيمانك بالله تعالى : فاعلموا
يراقب الله في معاملاتهم ، ويعطي الله في حسن رعايتهم ، والإيمان بالله تعالى
يقول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ (١) ﴿ ... ﴾

ويقول الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ (٢) ﴿ وَلَا تَهِنُوا عَلَى الْمَوْتِ ﴾
﴿ الْحَيَّاتِ ﴾ (٣) ﴿ ... ﴾ ويقول الله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْتُمُ بِالْغَيْبِ ﴾
﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ (٤) ﴿ ... ﴾

ويقول الله تعالى : ﴿ فَلَا أَفْضَحُ الْعَقَبَةَ ﴾ (٥) ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ (٦) ﴿ فَكُ رَقِيبٌ ﴾
﴿ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ (٧) ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ (٨) ﴿ ... ﴾

ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَسْوَأُ مِنْ أَنْ يَبْلُغَ الْكَافَّةَ ﴾
﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ أَوْفُواً بِهَذَا عَهْدُكُمْ لَأَكْمَلُ أَكْمَلٍ لَكُمْ وَتُعْرفُ الْفَعْلَ وَتُعْرفُ الْفَعْلَ ﴾
﴿ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ ﴿ وَيَقْضِ اللَّهُ أَوْفُواً ذَالِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٩) ﴿ ... ﴾
ويقول الله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (١٠) ﴿ ... ﴾
ويقول الله تعالى : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتِيمِ قُلْ إِصْلَاحُهُمْ خَيْرٌ مِنْ شَأْنِهِمْ فَاحْزَنُوا لَكُمْ
وَاللَّهُ يَكْفِي الْمُسْتَطِيعَ مِنْ الْمُضْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ عَنْ اللَّهِ غَيْرُ شَيْءٍ ﴾ (١١) ﴿ ... ﴾

(١) سورة البقرة الآية (٩)

(٢) سورة البقرة الآية (١٧٧ : ١٨٠)

(٣) سورة البقرة الآية (١٧٧ : ١٨٠)

(٤) سورة البقرة الآية (١٧٧ : ١٨٠)

(٥) سورة البقرة الآية (١٧٧ : ١٨٠)

(٦) سورة البقرة الآية (١٧٧ : ١٨٠)

(٧) سورة البقرة الآية (١٧٧ : ١٨٠)

ويقول الله تعالى : ﴿ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۚ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝ ﴾^(١) ..

ويقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ذَارًا ۚ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝ ﴾^(٢) ..

والآيات كثيرة ، والأحاديث معها مبينة ، وشارحة ، وكلها تدور حول الاهتمام باليتيم حتى لا يضيع في مجتمع يهمله .

إن الآيات تدعوا إلى حسن معاملة اليتيم ، وعدم القسوة معه ، وترك دعه وزجره ، وظلمه ، حتى يجد من المؤمنين من يعوضه فقدان الأب والأم ...

كما تدعو الآيات إلى ضرورة المحافظة على مال اليتيم ، وتنميته بالحق والعدل ، والابتعاد عن أكله بالباطل ، أو الاستيلاء عليه بأى وجه من الوجوه . وتدعو الآيات إلى العمل على إصلاح اليتيم ، والعناية بتربيته ، وتوجيهه نحو الخير والفلاح .

وتدعو الآيات إلى أهمية رعاية اليتيم مالياً، إن كان في حاجة للمال ، حيث الآيات وضحت أن إعطاء اليتيم من المال له أثر كبير على المعطى ، إنه بهذا العطاء يتخلص من العقبة، ويدخل الجنة ، ويشرب السلسبيل ، ويقرب من الله تعالى .

إن الإسلام واجه واقع اليتيم بشريعته العادلة ، لنشر الخير بين الناس أجمعين . وتعامل مع طبيعة البشر ، ومع ميولهم الفطرية ليرقى بها في رفق ولين .

هذا في الإسلام .. وبالإسلام وحده .

أما في الجاهلية حيث لا دين ، ولا شريعة ، فإن الأمر يختلف ..

^(١) سورة النساء آية (٢) .

^(٢) سورة النساء آية (١٠) .

لكن الأمر مع الأنبياء في صغرهم له وضعه الخاص ، لأن الله يصطفيهم بحسنه وإرادته ، ويربيهم بقدرته ومعونته .

ومع قدرة الله تعالى تتوقف سنن الكون ، وتنعدم التأثيرات المادية . العقل مستسلماً : مصداقاً ، وليس له إلا أن يؤمن ، ويصدق ، بعدما يرى المصطفون الأخيار .

هذا هو موسى " عليه السلام " ، ولدته أمه وخافت عليه أن يذبحه فرعون ، فألقى الله تعالى أن تضعه في صندوق ، وترميه في النهر ، وترك الأمر بعد ذلك لله . وهي تتساءل عن مصيره .. وهل سيموت غريقاً ؟ وهل ستأكله الحيتان والأسماك ؟ وكيف يحيا بلا رضاعة ؟ وكيف الطريق لإرضاعه ؟ ..

أسئلة لا يجيب عليها العقل .. لكن مسار القدر مدهش عجيب ، وقد أجاب بالبرهان إلهي حكيم ، لقد وصل الصندوق إلى بيت فرعون ، واتخذ فرعون وزوجته موسى لهما ، وأعاداه لأمه فأرضعته ، ثم سلمته لفرعون يريه تربية ملكية خاصة ، يقول الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ ٦ ١ ﴾

من كان يتصور أن الإلقاء في اليم هو سبب النجاة ؟ ومن يعقل أن فرعون يحضره هو الذي ربي موسى " عليه السلام " ؟ وخلصه من الضعف ، واليتم ، والحاجة . وهكذا الأنبياء جميعاً !!! .

— أين تربي يوسف " عليه السلام " ؟ وهل رباه أبوه مع أنه كان حياً يرزق ؟

— وكيف ولد عيسى " عليه السلام " ، وتربى ، وليس له أب أصلاً ؟

إن الأنبياء صناعة ربانية ، ولذلك يوجههم الله في قوالب معينة ، ومن

حكمته ، ومشينته .

ومن هنا كان في يتم محمد " ﷺ " حكمة يريد بها الله تعالى ، ويتفضل بها على رسوله الأمين " ﷺ " ..

يحمل الله تعالى هذا التفضل على محمد " ﷺ " بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَغَاوًى ﴾ (١) حيث يشير إلى أن محمداً " ﷺ " ولد في رعاية الله تعالى ، رغم يتمه إلا أن الله أحاطه بالإيواء الشامل ، فأحبه كل من رآه ، بدءاً بمراضعه ومروراً بمن شاركهم في طفولته ، وشبابه ، ورجولته .
فهو إيواء يتضمن الرعاية ، والاهتمام ، والمعاملة ، والتضحية في مودة صادقة أغنت محمداً " ﷺ " عن رعاية الوالد الخنون .

وفي ولادته " ﷺ " يتيماً فقيراً إشارة إلى بعض الحكم الإلهية ، التي يمكن استنباطها في العصر الحديث ، ومن أهم الحكم المستنبطة ما يلي : —

١. أراد الله تعالى أن ينشأ محمد " ﷺ " محاطاً بالرعاية الإلهية التامة منذ اللحظة الأولى لوجوده في الدنيا، وحتى لا تفسر خيرات الله له بسبب أبيه ، أو أمه ، أو بتأثير ماله وغناه ،.. ولو فكر عقلاء هذا الزمان في تميز هذا اليتيم عن أقرانه ، ولذاته ، لأدركوا شيئاً عن هذه العناية الإلهية بمحمد " ﷺ " .

٢. في ولادته " ﷺ " يتيماً فقيراً رد لأي شبهة يمكن أن يخلقها الأفاكون الضالون كأن يقولوا : إن محمداً أخذ تعاليم النبوة من أبيه ، أو من أمه ، حيث يحاول الآباء دائماً غرس قيمهم ، وعاداتهم ، واهتماماتهم في أبنائهم ، بل إن الابن يحاول بصورة تلقائية أن يقلد أباه ، ويجتهد في حمل فكره ، ومذهبه .

لقد زعم كفار مكة أن محمداً " ﷺ " يأخذ ما يقوله لهم من رجل غريب قالوا ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ

أَفْتَرَنَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿١٦﴾ وَقَالُوا أَتَسَاءَلُونَ
 الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَتْهَا فَعَلَىٰ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٧﴾ ۚ وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ
 : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ
 أَعْجَمِي ۖ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ ﴿١٨﴾ .

لقد بحث كفار مكة عن شخص له صلة برسول الله ﷺ " ليزعموا أنه
 مؤلف الوحي ، وأن محمداً يأخذ منه ، وقد بين الله كذبهم ، وضلالهم فيما يزعمون .
 فلو كان عبد الله والد النبي حياً ، لسهل عليهم ادعاء أنه المعلم لولده ، وأن
 الوحي من كلامه ، وتأليفه ... لكن الله تعالى قطع عنهم هذا الطريق بوفاة عبد الله
 وميلاد محمد بعد وفاته .

٣ — في ولادته " ﷺ " يثماً تأكيداً لحقيقة غائبة عن الكثير من الناس ، وهي أن
 الأمور كلها بقدره الله تعالى ، وليس للإنسان في عمله إلا الكسب واليأس ،
 والله خالق كل شيء .

ولو عقل الناس لعاشوا مؤمنين حقاً ، عن اقتناع ، ورضي ، وسلموا بالقدر
 وعاشوا مؤمنين .

إن العقل سوف يتساءل أسئلة توصل إلى اليقين ، والإيمان ، ومن هذه الأسئلة : —

- من أين وجد الإنسان ؟ ومن يقدر على هذا الإيجاد ؟
- هل يمكن تصور المستقبل من ناحية الصحة ، والغنى ، والسعادة أم أن ذلك
 مجهول أمام الإنسان ؟
- هل تجري الأحداث وفق تقدير العقل ، أم أن أحداث الحياة تجعل العقل
 عاجزاً عن تفسير اتجاهاتها غالباً ؟

^(١٦) سورة الفرقان آية (٤ ، ٥) .

^(١٧) سورة النحل آية (١٠٣) .

• هل الإنسان يعلم ظواهر الأشياء ، وبواطنها ، أم ماذا ؟

إن النظر في هذه القضايا تدفع الإنسان إلى التسليم بقدرة الله تعالى ، وحين
تقارن محمداً ﷺ " بسائر الناس مع إدراك يتمه ، وفقره ، تأكد أنه صناعة قدرية ،
ربانية ، والعلم بهذه الحقيقة يشير إلى بعض أسرار يتم محمد ﷺ " ..
إن الحكمة الإلهية التي أحاطت بمحمد ﷺ " أحاطت بكافة جوانب مولده ﷺ " .

وبالنسبة للأشخاص الذين أحاطوا به ، وجرياً على أن للإنسان من اسمه
صياً ، يرى أنهم مثلوا مع محمد عدة معان نبيلة ، فمن أمه آمنة كان الأمن والهدوء .
ومن فيلته الشفاء كانت العافية والصحة ، ومن حاضنته أم أيمن كان اليمن والبركة ،
ومن مرضعته حليلة السعدية الحلم ، والسعد ، ومن جده العبودية ، ومن عمه التوجه
إلى التقدير والمطلب منه ، وكأن الله تعالى أوجد في حياة محمد ﷺ " هذه المسميات
لتحول في حياته إلى خلق وسلوك .

وبالنسبة لتسميته فلقد أظم الله جده عبد المطلب حين أخبرته السيدة
آمنة بوضع حملها أن يسميه محمداً .

يقول السهيلي : (سئل عبد المطلب : ما سميت ابنك ؟

فقال : محمداً .

فقيل له : كيف سميته باسم ليس لأحد من آبائك وقومك .

فقال : إني لأرجو أن يحمداه أهل الأرض كلهم .

وكان ذلك لرؤيا كان رآها في منامه ، كأن سلسلة من فضة ، خرجت من
ظهرها ، لها طرف في السماء ، وطرف في الأرض ، وطرف في المشرق ، وطرف في المغرب
ثم عادت كأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب ، كأنهم
يستلقون لها ، فقصها ، فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ،
ويحمداه أهل السماء والأرض ، فلذلك سماه : محمداً .

وذكروا أن أمه حدثته بأنه قد قيل لها : إنك حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا

وضعتيه فسميه محمداً (١).

وكان النبي ﷺ " يذكر فضل تسميته محمداً ويقول : (ألا تعجبون

يصرف الله عني شتم قريش ، ولعنهم ، يشتمون مذمماً ، وأنا محمد) (٢)

يقول القاضي عياض : (وقد سماه الله تعالى في كتابه محمداً ، وأحمد

خصائصه تعالى له أن ضمن أسماء ثناءه ، فطوي أثناء ذكره عظيم شكره ، فأما

أحمد فأفعل مبالغة من صفة الحمد ، ومحمد مفعول مبالغة من كثرة الحمد ، وتكرره

" ﷺ " أجل من حمد ، وأفضل من حمد ، وأكثر الناس حمداً ، فهو أحمد المحمديين

وأحمد الحامدين ، ومعه نداء الحمد يوم القيامة ، ليقم له كمال الحمد ، ويشهر

تلك العرصات بصفة الحمد ، ويعتد ربه هناك مقاماً محموداً كما وعده : الحمد

الأولون والآخرون ، وفي هذين الاسمين من عجائب خصائصه ، وبدائع آياته ،

أن الله عز وجل حمي اسمه أن يسمي بهما أحد قبل زمانه .

أما أحمد الذي أني في الكتب ، وبشرت به الأنبياء ، فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمي

أحد غيره ، ولا يدعي به مدعو قبله حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب ، أو يشك

وكذلك محمد أيضاً لم يسم به أحد من العرب ، ولا غيرهم إلى أن جاء

قبيل وجوده " ﷺ " وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد ، فسمي قوم من العرب بأحمد

بذلك ، رجاء أن يكون أحدهم ، وهم محمد بن أبيحة بن الجلاح الأوسي ، ومحمد بن

مسلمة الأنصاري ، ومحمد بن براء البكري ، ومحمد بن سفيان بن محاشع ، ومحمد بن

حمران الجعفي ، ومحمد بن خزاعة السلمي ، لا سابع لهم ، ثم حمي الله كل من نسب

به أن يدعي النبوة ، أو يدعيها أحد له ، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره

حتى تحققت السماتان (الحمد والثناء) له " ﷺ " ولم ينزع فيهما (٣).

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١٨٢ .

(٢) صحيح البخاري ج ٦ ص ٤٣٥ .

(٣) الشفا للقاضي عياض ج ١ ص ٢٢٩ - ٢٣١ .

وبالنسبة لولادته يوم الاثنين فإنه كان لارتباط هذا اليوم بعدد من

الأفعال الخيرة التي قدرها الله لكونه المخلوق في هذا اليوم ، فلقد ورد الحديث من أن الله تعالى خلق الشجر يوم الاثنين ، يقول بن عباس " ﷺ " : (ولد نبيكم يوم الاثنين ، ونبي يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، ونفع مكة يوم الاثنين ، ونزلت سورة المائدة يوم الاثنين ، وتوفي يوم الاثنين) (١) ، وفي ذلك إشارة إلى ارتباط الحوادث العظيمة بيوم الاثنين ، ومنها مولده " ﷺ " .. إن خلق الأقوات والأرزاق والفواكه ، والخيرات التي يختار بها بنو آدم ، يخجون ويتداوون ، وتشرح صدورهم لرؤيتها ، وتطيب بها نفوسهم ، وتسكن خواطرهم ، لتحصيل ما يبقى حياتهم ، على ما جرت به حكمة الحكيم سبحانه وتعالى ، كل ذلك كان في يوم الاثنين ، فولادته " ﷺ " في هذا اليوم إشارة إلى ما وجد من الخير العظيم والبركة الشاملة للناس أجمعين ببعثته " ﷺ " (٢) .

وبالنسبة لولادته في شهر ربيع الأول فلم في هذا الشهر من خيرات تتوافق

مع خيرات مجيئه إلى الدنيا ، حيث الازدهار ، والجدة ، والحسن ، والنفع العام . ففي الربيع تبدو خيرات الله تعالى في الكون ، حيث ينبت الزرع ، ويفيض الضرع ، ويأتى الحب والنوى ، وتتشجر الخضرة الجميلة في ربوع الأرض كلها ، وفي السهول والجبال ..

والجو في الربيع معتدل المناخ لا حرارة فيه ، كما تقل فيه العلل والأمراض بفضل الله تعالى .

وفي مجئ محمد " ﷺ " ومبعثه تحقيق لهذه المعاني ، فلقد أتى " ﷺ " بما يسعد الناس في الدنيا والآخرة .. ورسالته " ﷺ " قائمة على الاعتدال ، والاستقامة ، دائمة إعطاء ، شاملة لكافة الخلق ، سهلة ، ميسرة .

(١) الفتح الرباني ج ٢٠ ص ١٨٩ .

(٢) مبدئ الهدى والرشاد ج ١ ص ٤٠٦ .

وبالنسبة ليلاد المصطفى في عام الفيل ، لأنه " ﷺ " ولد قبل

الحادثة بخمسين يوماً فمن أجل أن يدرك الناس أن قدرة الله الغاية عنهم تفصيل في موجود ، وكل ما في الكون قدر إلهي محض ، وإذا أراد الله شيئاً قال له كن **فكان** حين إذا جاءهم محمد " ﷺ " علموا أنه المبعوث لهم من الله تعالى .

ومن أين للناس أن يدركوا هذه الأسرار في يوم مولده " ﷺ " ؟

إن هذه الحكم ، وهذه الأسرار لم ترتبط وقتها في أذهان من رآوها بمبعثة محمد " ﷺ " ورسالته ، ولا يراد منها ذلك ، ويكفي أنها تحرك الأذهان نحو عدم تأليه من زار ويستغير مثل النار المنطفئة ، أو البيوت المكسورة ، أو الأصنام المهتزة ، وليتأخروا وجود قوة قاهرة تحقق أعمالاً لا يقدر عليها الناس ، ولا يمكنهم تفهم أسرارها . وذلك أثر ممكن الحدوث ، وبخاصة أن أهل الكتاب ، وحكماء العرب

يؤمنون بمبعث نبي بشرت به الكتب المنزلة ، يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٦٦) ويقول سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي أَنزَلَ مِنَّا مَكْتُوبَهُمْ مَّكْتُوبَهُمْ عَمَّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ (١٦٧) عَلَيْهِمُ الْخَبْرَاتُ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَزَّرُوا وَنَصَرُوا وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٦٨)

يقول ابن كثير: يخبر الله تعالى أن أهل الكتاب يعرفون محمداً كما يعرفون أبناءهم، ويعرفون أنه صادق، وقد جاء وصفه مكتوباً مدوناً في التوراة والإنجيل من أساسيات دعوته في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتحليل الطيبات، وتحريم الخبائث

(١٦٦) سورة البقرة آية (١٦٦) .

(١٦٧) سورة الأعراف آية (١٥٧) .

(١٦٨) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٩٤ بتصرف .

إن العالم كله قبيل بعثة النبي " ﷺ " ، وقبيل مولده كان في انتظار رسول جديد يجمع العالم على الحق ..

وعلى هذا فإن حدوث الميلاد محاطاً بهذه الحكم ، يمثل عوامل تصديق رسالة الرسول بعد مبعثه ، وتعد دوافع إيمانية للعقلاء الذين يعرفون أن النبوة صناعة ربانية ، ولا مانع من جريان الأحداث معها على نحو خارق لعادة الناس .
والله أعلم حيث يجعل رسالته .

المبحث الرابع

محمد ﷺ " في

ديار بني سعد

بعدما وضعت السيدة آمنة بنت وهب حملها أرسلت إلى جده عبد المطلب وأخبرته بولادة حفيده ، فسر به كثيراً ، وأخذه ودخل به الكعبة ، ودعا له بها وعماه محمداً ، فلما سئل عن سبب هذه التسمية مع أنها لم توجد في آبائه أو أقربائه ، قال : أردت أن محمد في السماء عند الله ، وفي الأرض عند الناس ^(١) . يذكر السهيلي أن التسمية كانت لرؤيا رآها عبد المطلب توافقت في دلالاتها مع ما حدثته به أمه " ﷺ " ^(٢) .

يروى ابن عساکر أن عبد المطلب سر بولادة محمد كثيراً ، وعق عنه بكثيراً ، وقد عاش الوليد في كنف أمه سبعة أيام أرضعته فيها ومعها قابله " الشفاء " ، وقد أعماه عميلاد ابن لأخيهم الذي فقدوه صغيراً ، لدرجة أن أبا لهب اعتق جاريته ثوباً عندما أخبرته بميلاد محمد " ﷺ " ، فذهبت إلى أمه " آمنة " : وأرضعته معها ^(٣) . أقبلت آمنة على وليدها بالحنان ، والرفق ، في انتظار مرضعة تستلمه في تربيته في البادية ، حيث الحلاء الواسع ، والطبيعة الجميلة ، وبساطة الحياة ، وفقر الناس ، وكانت عادة أثرياء أهل مكة أن يسلموا أولادهم بعد ولادتهم ، لمرضعة من البادية لقاء أجر ، ورزق .

وأتفق أن جاءت المراضع من بني سعد يلتصقن أبناء الأغنياء ، طمعاً في الرزق وال...

^(١) سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ١٨٢ .

^(٢) الروض الأنف ج ١ ص ١٨٣ .

^(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري — كتاب : النكاح باب : ما يحرم من الرضاع ج ٧ ص ١٢ ، وفيه أن النبي أرضعته عمه حمزة ، وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ليكون لها أخ في الرضاع .

ومسروا جميعاً على آمنة، فأرأوا ولدها يتيماً، فقيراً، فتركه لقلة الأجر، وضالة العطاء
المنظر من يتيم فقير .

ووجد النسوة عند أبناء الأثرياء ما يأملون، ماعدا حليلة السعدية، فإنها
كانت فقيرة ضعيفة، رأت الأمهات منها ما صرفهن عن اختيارها مرضعة لأبنائهم،
فبينها قليل، وجسدها نحيل، وأتاعها هزيل، والفقر باد عليها، فانصرفوا عنها إلى
غيرها .

ووجدت حليلة نفسها مضطرة لأخذ محمد " ﷺ " حتى لا تعود لديارها
بحاجة الوفاض، فكان في أخذها له الخيرة والبركة، وظهر ذلك في كافة جوانب
حياتها، وأسرتها، ونعمت بهذا الخير هي وقومها بعد ذلك .

وحليمة هي بنت أبي ذؤيب، وهو عبد الله بن الحارث بن سعد من هوازن،
وتعرف بحليمة السعدية، وكنيتها أم كبشة .. وزوجها هو الحارث بن عبد العزي بن
رفاعة من هوازن كذلك، ويكنى بأبي كبشة .

وقد شرفها الله تعالى بإرضاع محمد " ﷺ "، فصارت له أمّاً، وصار زوجها
له أباً، وصار أبنائها إخوته وهم، عبد الله بن الحارث، وحفص بن الحارث، وأمّية
ابن الحارث، والشيماء، وهي خدامة بنت الحارث، وقد أكرمها الله تعالى، ففاض
الحسب في كل جوانب حياتها ببر كته " ﷺ "، رغم أنها لم تكن راغبة فيه، ولولا
انصراف الوالدات عنها ما أخذته .

تحكي حليلة قصتها مع رضاعة رسول الله " ﷺ " فتقول : خرجت في
نسوة من بني سعد بن بكر، نلتبس الرضعاء بمكة، على أتان لي قمراء قد أدمت
بالركب، وخرجنا في سنة شهباء، لم تبق لنا شيئاً، ومعني زوجي الحارث بن
عبد العزي، ومعنا شارف لنا، والله إن يبض علينا بقطرة من لبن، ومعني صبي لي ما
نام ليلنا أجمع، من بكائه من الجوع، ما في ثدي ما يحصه، وما في شاربنا من لبن

تغذوه ، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك ، فشق ذلك علينا ضعفاً ، وعجفاً ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء .

فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ " فتأباه ، وإنما كنا نرجو كرامة رضاعة ، من والد المولود ، فكنا نقول يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه ؟ وما يفعل جده ؟ فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غريباً . فلما أجمعنا الانطلاق قلت لزوجي : والله لأرجعن إلى ذلك اليتيم فلا تحزن . والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحي ، ولم أأخذ رضيعاً .

قال : لا عليك أن تفعل عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . قالت : فذهبت إليه فأخذته ، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره ، فلما أخذ رجعت إلى رحلي ^(١) .

وقد رأت حليلة فضل الله عليها عقب عودتها إلى رحلها ، محمد ﷺ تقول : (فلما وضعته في حجرى ، أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه حتى روي . ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجي إلى شارفنا تلك ، فإذا لبناً حافلاً ، فحلب منها ما شرب ، وشربنا معه حتى انتهينا رياء وشبعاً ، فبتنا ليلتنا تلك بخير ليلة شباعاً ، رواءاً وقد نام صبياننا . يقول أبوه — يعني زوجها — والله يا حليلة ما أراك إلا أصبت نسمة مباركة ، فلما نام صبياننا ورويا .

فقلت : والله إنى لأرجو ذلك .

ثم خرجنا وركبت أتانى ، وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليه شيء من حمهم ، حتى إن صواحي ليقن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ، ويحك ، أربعى غيب أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟

واقول لمن : بلى والله ، إنها لهى هي .
ويقول : والله إن لها لشأناً .

ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها ،
فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً ، وتروح أغنامهم جياًعاً
مالكة ما بها من لبن ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في
ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعايتهم : ويلكم ، اسرحوا حيث
يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياًعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح
غنمى شباعاً لبناً .

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب
شباباً لا يشبه الغلمان ، كان " ﷺ " يشب في اليوم شباب الصبي في شهر ، ويشب
في الشهر شباب الصبي في سنة قبله ستاً وهو غلام حفر ^(١) .

إن رعاية الله تعالى مستمرة مع رسول الله تعالى، وهما هي بركاته تحل بحليمة حيث
أخصبت أرضها الجذباء، ودر لبن إبلها الجاف، وصارت ترى النعيم في كل شئونها .
وفد أجمع مؤرخو السيرة على رواية ما حكته حليلة عن قصة إرضاعها محمداً " ﷺ "
وهي مما روت تضيف فصلاً جديداً من تكريم الله لعبده ، ورسوله محمد " ﷺ " ..
ولما بلغ عمره " ﷺ " ستين فصلته حليلة ، وعادت به إلى أمه في مكة ..
ويرجع السبب في عادة أثرياء مكة إرضاع أولادهم ، وتنشئتهم في البادية إلى
أمر تلمس بعضها فيما يلي : —

(١) تتميز البادية بالنقاء والصفاء ، حيث الخلاء الواسع ، والفضاء الرحيب ،
وهذا يساعد في اتساع الأفق ، وبعد المدارك ، ويؤدي إلى هدوء الطبع ،
واستقرار النفس ، فالناس في البادية يعيشون بين الخضرة اليانعة ، والطبيعة
الخلابة ، مع الطمأنينة ، والهدوء ، فلا اشتغال لهم بقضايا السلطة والإدارة ،

ولا عناء معهم في السعي والتجارة ، ولا تعب في الترقى والصناعة
حياتهم الرتيبة تصنع الهدوء ، والاستقرار .

(٢) تصنع البادية من أبنائها رجالاً يعتمدون على أنفسهم ، فليس فيهم خسر
لحميهم ، ولا رجال أمن يحرسوهم ، وإنما يعتمد كل على نفسه ، والليل
ينشأ البدوي على الجراة والشجاعة ، ويتعود الإقدام ، وعدم الخوف
ويعتمد البدو على أنفسهم في الدفاع ، والنصرة ، والحماية .

(٣) يعيش أبناء البادية في مجتمع مغلق ، لا يأتيهم غريب ولا يعيش بينهم أجنبي
وهذا الوضع ساعدهم على المحافظة على الفطرة الطبيعية ، واللغة الفصحى
والنسب الصريح ، والتهمة البدنية ، في تربط الأقارب ، ومودة المخين .
إن الآباء قصدوا تربية أبنائهم في البادية لينشأوا أقوياء البنية ، فصحاء النسل
حسني الأخلاق ، يتميزون بهدوء الطبع ، وشجاعة السلوك ، وحب التعاون والتواضع
وتلك عوامل أرادها الله لرسوله " ﷺ " فأرضعته حليلة السعدية ونشأ في ديار
بني سعد ، ليستفيد بما أراد الله له .

عادت حليلة السعدية محمد إلى أمه السيدة آمنة بعد تمام إرضاعه : ونفساً
وذلك على عادة سائر المراضع مع أبنائهن ، ولم تكن حليلة سعيدة بعودته لأمه لأنه
تخاف توقف الخير الذي تدفق عليها ، تقول حليلة : (فقدمنا به على أمه ، ونحن
أحرص شيء على مكثه فينا ، لما كنا نري من بركته)^(١) .

عرضت حليلة على آمنة أن تعود محمد " ﷺ " إلى ديارها مرة ثانية لتستفيد
بركته ، ولتبتعد به عن وباء كان بمكة يومذاك ، فوافقتها آمنة ، وأعادته معها مرة ثانية
إلى ديار بني سعد ، وبخاصة أن مكة يومذاك كانت موبوءة ، وأملت أن يزكاد محمد
نضارة ، وازدهاراً ، ونمواً في بدنه وعقله ، وشخصيته ، ليشب رجلاً له قدر ومكانة

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٦٤ .

يقوم بدوره مع جده وأعمامه ، وقومه .

وأخذته حليلة وعادت به سعيده مرة ثانية ، وفرحت بذلك ، إلا أنها اضطرت إلى إعادته لأمه حين بلغ عمره خمس سنوات وشهراً ، ولم تره بعد ذلك إلا مرتين ، الأولى : بعد تزويجه " ﷺ " خديجة ، والثانية : يوم حنين ، وسيأتى ذكرهما إن شاء الله تعالى .

وكانت آمنة قد أوصت حليلة بمحمد ، وعرفت بما حصل معها ، في حملها وولادته ، وبيت لها ما رأت ، وما شاهدت من كرامات صاحبت مولده ، وقالت لها : احفظي ابني هذا ، واحذري عليه الرهبان ، والكهان .

تقول حليلة : مر بي بعض اليهود فقلت لهم : ألا تحدثوني عن ابني هذا ؟ ! فإن حملته كذاً ، ووضعته كذاً ، ورأيت كذا ! كما قالت أمه .
تريد حليلة بذلك أن تعرف شيئاً عن الأسرار المتصلة بهذا الغلام المبارك .

تقول حليلة : لما رآه اليهود ، قال بعضهم لبعض : اقتلوه .
وسألوها : أيتيم هو ؟

فقلت لهم : لا ، هذا أبوه ، وأنا أمه .
فقالوا : لو كان يتيماً لقتلناه .

فذهبت به حليلة وقالت : كدت أخرب أماني ^(١) .

يقول ابن إسحاق : وحدثني بعض أهل العلم أن الذي أهاج أمه السعدية على إعادته لأمه أن نفراً من نصاري الحبشة رأوه معها ، حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا إليه ، وسألوها عنه ، وقلبوه ، ثم قالوا لها : لنأخذن هذا الغلام ، فلنذهبن به إلى ملكنا ، وبلدنا ، فإن هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعرف أمره .. يقول ابن إسحاق : إنها لم تكذب فقلت به منهم ^(٢) .

^(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٧١ .

^(٢) سورة النبي ج ١ ص ١٦٧ .

وعاد محمد ﷺ إلى أمه ليبدأ مرحلة جديدة من قومه وعشيرته ..

وفاء النبي لأيام حليلة :

عاش النبي ﷺ أيامه الأولى عند حليلة السعدية ، وثما جسده فلنهنأ
وصفا لسانه بلغات بني سعد ، وصاحب عديداً من الناس .

وعاش محمد ، وهو في ديار حليلة ، مع قبيلة بني سعد ، حيث أحبه كل من
رآه ، وأحاطوه بالرعاية الحسنة ، والتكريم الجميل .

وحفظ " ﷺ " حليلة وأسرتها هذا الجميل ، وكان يذكره ، ويشيد به ..

يقول النبي ﷺ : (أنا أعربكم ، أنا من قريش ، ولساني لسان بني سعد) (١)

يقول محمد بن المنذر : استأذنت امرأة علي النبي ﷺ " كانت أرضعه
فلما دخلت عليه ، سر بها ، وقال : أمي ، أمي ، وعمد إلى رداءه فبسطه لها فقعنت
عليه (٢) ، وعرف أصحابه بأنها حليلة .

يروى ابن سعد بسنده أن حليلة قدمت على النبي ﷺ بحكمة بعد زواجه بخديجة
" رضي الله عنها " ، وشكت إليه جذب البلاد ، وهلاك الماشية ، فكلم رسول الله
ﷺ " خديجة في شأها ، فأعطتها أربعين شاة ، وبعبيراً ، وانصرفت لأهلها (٣) .

وأخرج أبو داود بسنده عن ابن الطفيل " ﷺ " قال : (رأيت رسول الله
يقسم لحماً بالجعرانة — وأنا يومئذ غلام أحمل لحم الجزور — إذ أقبلت امرأة حني
دنت إلى رسول الله فبسط لها رداءه ، فجلست عليه ، فقلت : من هذه ؟
قالوا : هذه أمه " ﷺ " التي أرضعته) (٤) .

(١) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد — كتاب المناقب — باب في حليلة ج ٩ ص ٤١٥ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١١٣ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١١٤ .

(٤) سنن أبي داود — كتاب الأدب — باب في ير الوالدتين ج ٢ ص ٦٣٠ .

وهكذا كان تقدير النبي ﷺ " لمرضعته حليلة ، وفاء لحقها ، وبراً بأمومتها وتكريماً لوفادتها .. لم ينسه تغير الحال ما أسدى له من جميل ..
ولم يتصور أن ما أخذته من أمه أجراً كافياً في حقها ، بل كان " ﷺ " يقدر وجهها ، وأبناءها ، فهم أبوه ، وإخوته ، في الرضاعة ، أخرج أبو داود عن عمر بن الخطاب أن عمر السائب حدثه أنه بلغه أن رسول الله ﷺ " ، كان جالساً يوماً فاقبل أبوه من الرضاعة ، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه ، فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام له رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه ^(١) .

وبعد فتح مكة كانت غزوة حنين ، وأسر النبي ﷺ " عدداً من هوازن قبيلة حليلة ، فجاء وفداهم إلى رسول الله ﷺ " وهو بالجعرانة لفك أسراهم ، وكان رأس القوم ، والمتكلم فيهم "أبو صرد زهير بن صرد" فقال : إن في هذه الحظائر (مكان الأسرى) أخواتك ، وعماتك ، وخالاتك ، وبنات عمك ، وبنات خالاتك وأبعدهن قريب منك ، بأبي أنت وأمي ! إنهن حضنك في حجورهن ، وأرضعنك شديهن ، وتوركنك على أوراكنهن وأنت خير المكفولين .

فقال رسول الله ﷺ " : إن أحسن الحديث أصدقه ، وعندى من ثرون من المسلمين أفأبناؤكم ونسأؤكم أحب إليكم ، أم أموالكم ؟ فقالوا : يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا ، وأموالنا ، وما كنا لنعدل بالأحساب شيئاً فرد علينا أبناءنا ونساءنا .

فقال النبي ﷺ " : أما ما لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وأسأل لكم الناس ، فإذا صليت بالناس الظهر فقولوا : نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ ، فإن سأقول لكم : ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وسأطلب

لكم الناس فلما صلى رسول الله ﷺ ، الظهر ، قاموا فتكلموا بالذي قال لهم رسول الله ﷺ ، فرد عليهم رسول الله ﷺ ، وقال لهم : ما كان لي ولبي عبد المطلب فهو لكم ، وهنا تأثر المهاجرون ، والأنصار ، وقالوا مثل ما قال رسول الله ﷺ ، ثم اتفقوا على قول واحد وقاموا بتسليم الوفد جميع ما أخذوا ، وهم راضون ، سعداء ، وأطلقوا سراح ما في أيديهم من سبي هوازن إلا قوماً تمسكوا بما في أيديهم فأعطاهم الرسول ﷺ " إيلاً عوضاً عن ذلك ، وفك أسرهم جميعاً ^(١) .

إن الإنسان العظيم لا ينسى جيلاً أسدي إليه ، أو أسدي لأحد من صحابته ، ودائماً يحفظ الفضل لأهله ، وعلي رأس العظماء رسول الله ﷺ الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، لقد تذكر جميل آل حليلة في وقت عسرهم ، وضعفهم فما خذلهم وما أهانهم ... بل أكرمهم جميعاً ، وأعادهم إلى ديارهم أحراراً .

وهكذا حافظ رسول الله على الخلق الكريم ، فوفى حليلة "رضي الله عنها" يوم أتت إليه ، وأكرم أهلها وقومها ﷺ ، يوم أن وقعوا أسرى عند المسلمين ، وقد أسلموا بعد ذلك ، وحسن إسلامهم . .

المبحث الخامس

شق الصدر

وتواصل إرهابيات النبوة مع رسول الله ﷺ وهو عند حليمة بعد عودته
 منها مرة ثانية، ومن هذه الإرهابيات حادثة شق الصدر، الثابتة بالروايات الصحيحة .
 يروي مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه : (أن رسول الله ﷺ)
 أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه ،
 فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء ، فقال : هذا حظ الشيطان ، ثم
 غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان
 يسعون إلى أمه — يعني : ظنوه — فقالوا : إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه ، وهو
 منتقع اللون ، قال أنس : وقد كنت أرى ذلك المخيط في صدره ^(١) .

وروى ابن إسحاق عن نفر من أصحاب رسول الله ﷺ .

قالوا له : يا رسول الله ! أخبرنا عن نفسك .

قال : نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه
 يخرج منها نور أضواء لها قصور الشام .

واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعي
 بهما لنا، إذ أتاني رجلان — عليهما ثياب بيض — بعلست من ذهب، مملوء ثلجاً، ثم
 أخذاني فشقا بطني، واستخرجوا قلبي فشقاها، فاستخرجوا منه علقة سوداء فطرحاها،
 ثم غسلوا قلبي، وبعطني بذلك الثلج حتى أنقياء، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من
 أمته، فوزني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بمئة من أمته، فوزني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه
 بألف من أمته، فوزني بهم فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فوالله لو وزنته بأمته لوزنها ،

(١) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب الإسراء ج ١ ص ٣٩٢ .

وإسناد هذا الأثر جيد قوى ^(١) .

ويروي أحمد وأبو نعيم في الدلائل عن عتبة بن عبد : أن رجلاً سأل النبي

" ﷺ " فقال : كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟

قال : كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر ، فانطلقت أنا وابن لها فيهم لنا ،

نأخذ معنا زاداً ، فقلت : يا أخي ! اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا ، فالتفت إلي

وكنت عند البهم ، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه

أهو هو ؟

فقال : نعم ، فأقبلا بيئدراني ، فأخذاني فبطحاني للقفأ ، فشقا بطني ، ثم استخروا

قلبي فشقاه ، فأخرجوا منه علقتين سوداوين ، فقال أحدهما لصاحبه : اتني برد

وثلج ، فغسلأ به جوفي ، ثم قال : اتني بماء برد ، فغسلأ به قلبي ، ثم قال النبي

بالسكينة ، فذرها في قلبي ، ثم قال أحدهما لصاحبه : خطه ، فخاطله ، وخطم علي

قلبي بخاتم النبوة ، فقال أحدهما لصاحبه : اجعله في كفة ، واجعل ألفاً من أمه في

كفة ، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوق ، أشفق أن يجر على بعضهم ، فقال طائر

أمته وزنت به لئال بهم ، ثم انطلقا فتركاني ، وفرقت فرقاً شديداً ، ثم انطلقت إلى

أمي (حليلة) فأخبرتها بالذي لقيت ، فأشفقت أن يكون قد لبس بي ، فقالت

أعيدك بالله ، فرحلت بغيراً لها ، وحملتني على الرحل ، وركبت خلفي ، حتى دنا

إلى أمي ، فقالت : أديت أمانتي ودمتي ، وحدثتها بالذي لقيت ، فلم يرعها

وقالت : إني رأيت نوراً خرج مني أضواء قصور الشام ^(٢) .

وقد تناولت كتب السيرة حادثة شق الصدر ، فهي في سيرة ابن هشام

وطبقات ابن سعد ، ودلائل النبوة لأبي نعيم ، والبداية والنهاية ، والخصائص

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ١٧٥ ورواه الحاكم وصححه .

(٢) تهذيب ابن عساکر ج ١ ص ٣٩ والحاكم في المستدرک ج ٢ ص ٦١٦ - ٦١٧ ، وقال : صحيح عن

الكبرى للسيوطي ، ودلائل النبوة للبيهقي ، وسير أعلام النبلاء ، وسائر المؤلفات الحديثة ، وأشارت إليه بعض كتب التفسير ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ^(١) ، وعند تفسير أول الإسراء .

وهذه الحادثة التي وقعت لرسول الله ﷺ " منذ الطفولة المبكرة ، تكررت معه بعد ذلك أكثر من مرة ، فقد روى الإمام أحمد ، وابن حبان ، وابن عساکر ، عن أبي بن كعب أنا أبا هريرة سأل رسول الله ﷺ " : " يا رسول الله ! ما أول ما رأيت في أمر النبوة ؟

فقال النبي ﷺ " : إني لفي صحراء ، ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسي وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ ، قال : نعم ، فاستقبلاني بوجوه لم أرها خلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلى يمسيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي ، لا أجد لأحدهما هامساً ، فقال أحدهما للآخر : أضجعه ، فأضجعاني بلا قسر ولا هصر ، وقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بلا دم ، ولا وجع ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذي أدخل يشبه الفضة ، ثم هز إهام رجلي اليمنى ، فقال : اغد وأسلم ، فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ، ورحمة للكبير ، وهذه هي المرة الثانية .

وتكررت مرة ثالثة قبيل البعثة ، يروي أنس بن مالك ويقول : لما حان أن ينبا رسول الله ﷺ " كان ينام حول الكعبة ، وكانت قريش تنام حولها فأتاه جبريل وميكائيل ، فقالا بأيهم أمرنا ، فقالا أمرنا بسيدهم ، ثم ذهابا وجاءا من القابلة وهم ثلاثة ، فآلقوه وهو نائم فقلبوه لظهره ، وشقوا بطنه ، ثم جاءوا بماء زمزم فغسلوا ما كان في بطنه ، ثم جاءوا بطست من ذهب قد ملئت إيماناً وحكمة

فملى بطنه وجوفه إيماناً وحكمة^(١) .

وتكررت مرة رابعة لما جاوز النبي ﷺ " الخمسين من عمره ، فعن مالك

ابن صعصعة أن رسول الله ﷺ " حدثهم عن ليلة أسري به ، قال : (بينما أنا في الحطيم — أو قال في الحجر — قال : فاستخرج قلبي ، ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً ، فغسل قلبي ، ثم أحشائي ، ثم أعيد ..)^(٢) .

وقصة شق الصدر هذه تشير إلى تعهد الله — عز وجل — نبيه ﷺ " منذ صغره ، وعلى امتداد عمره " ﷺ " وإبعاده عن مزالق الطبع ، ووساوس الشيطان ، وتلك حصانة حسية للرسول الكريم أضفاها الله عليه ، ليعيش طاهر الظاهر والباطن بتوفيق الله تعالى .

إن الله سبحانه وتعالى — وقد شاءت إرادته — منذ الأزل — أن يكون محمد خاتم المرسلين ، أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الأعلى ، للإنسان السوي ، الذي يسير نحو الكمال بظهارة القلب ، وتعصفية النفس .

ولما شب رسول الله ﷺ " كانت مكة تعج بمختلف أنواع اللهو ، والفساد والملاذ الشهوانية الدنسة .

كانت حانات الخمر منتشرة ، وبيوت الريبة وعليها علامات تعرف بها ، ووجود المغنيات ، والماجنات ، والراقصات ، من الأمور العادية الموجودة في ذلك المجتمع تتوجهها عبادة الأصنام والأوثان .

وكان المجتمع المكي يومذاك يقر ذلك ، ويعتبره جزءاً من حياة الناس .. والله سبحانه وتعالى برأ رسوله ، واختاره من أكرم معادن الإنسانية ، ثم اختاره لحمل أكمل رسالات السماء إلى أمم الأرض ، ولذلك أحاطه بكل أنواع الرعاية والحفظ .

(١) حجة الله على العالمين ص ٢٧٢ .

(٢) أخرجه مسلم ، وأحمد ج ٣ ص ١٢١ ، والحاكم ج ٢ ص ٦١٦ .

وأحاديث شق الصدر صحيحة بالسند ، أجمعت عليها سائر مؤلفات السيرة
في مجال الشك في سندها .

وأحاديث شق الصدر مروية عن رسول الله " ﷺ " بعد مبعثه ، فهي بذلك
من الوحي المنزل على رسول الله " ﷺ " الذي لا ينطق عن الهوى أبداً .
ولا يصح لمسلم أن يشك في هذه الروايات الصحيحة ، ويدعي أن محمداً
قال بها ، وهو طفل صغير لا يتحمل الرواية .

إن شق صدر النبي " ﷺ " كان لإخراج حظ النفس ، والشيطان من قلبه ،
لقد كان بوسع القدر الإلهي أن يضع في محمد ما يشاء الله له من فضل ، وخير ، بصورة
معنوية ، غير مدركة بالحواس ، لكن الله أراد له هذه الصورة الحسية ، ليشهد الناس
على هذه العجبة الخالدة التي جعلت من محمد إنساناً قوياً ، شجاعاً ، طاهراً ، نظيفاً
الظاهر والباطن ... ولا نستطيع القول بأن حظ الشيطان مرتبط في النفس بجزء مادي
أو غدة معينة ، لأن هذا مما يستحيل تحديده .

وكل ما يمكن الإشارة إليه أن شق صدر محمد " ﷺ " من عناية الله به ليترقى
في الظهر ، ويسمو في السفوك ، ويعلو في روحانيته وشفافيته ، ويقترب في نورانيته
من الروح ، والملا الأعلى .

ومن العجب أن رأينا من ينكر حادثة شق الصدر من العلماء المسلمين ، فهي
هو الدكتور / محمود مراد يتحدث عن طفولة النبي " ﷺ " وشق صدره وغيرها من
الإرهاصات فيقول : (يغلب ذكر الأعاجيب فيها ذكر الواقع ، في قصص ساذجة لا
تشبه ما ورد في النص من أحاديث محكمة عن عبد المطلب)^(١) .

فشق الصدر في رأيه كلام ساذج يتضمن أعجوبة لا يتصورها الواقع ، ولا
يسلم بها ، فهي عنده قصة مردودة .

(١) محمد رسول الله " ﷺ " للدكتور / محمود مراد ص ٤١ .

والدكتور / محمد حسين هيكل يرد حادثة شق الصدر بضعف السند ،
محمد رواها وهو طفل صغير ، وبأنه لا حاجة إليها في إثبات الرسالة ، وبأن الإسلام
أقام دعوته على العقل الذي يتعارض مع تصور هذه الحادثة ^(١) .

والمنكرون لشق الصدر فريقان ، **فريق** ينكره إنكاراً تاماً ، وينحصر
مبررات تؤيد إنكاره ، فإن كان مسلماً يذهب إلى ضعف سند روايات شق الصدر
وعدم تحمل الصغير للرواية ، وإن لم يكن مسلماً لجأ إلى التحليل العقلي ، والواقع
التحريبي ليصل الجميع إلى إنكار وقوع شق الصدر ، ويرى هذا الفريق أن شق الصدر
ليس ضرورياً ، لأن الله قادر على إنقاذ ما يرى ، بدون هذه التصورات المزعومة ،
وبخاصة أن حفظ الشيطان في النفس لا يسكن في عضو ما ، وإنما هو يجري في الصدر
كله مجرى الدم .

والفريق الثاني ينظر إلى حادثة شق الصدر ، ويرى صحة الأحاديث
الواردة التي يؤكدونها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ، فقد نزلت من
الآية لتأكيد شق الصدر كما يقول الإمام الخازن في تفسيره ^(٢) ، ولذا يخرج عن
مخرج إنكاره بعدما سلم بصحة أحاديث شق الصدر .

رأى هذا الفريق صحة الأحاديث ، وعلم أنها كانت بعد البعثة ، إذ تحدث
" ﷺ " حين سئل عنها ، فذهب إلى تأويل شق الصدر ، بأنه يعني التطهير المعنوي
لرسول الله " ﷺ " .

إن حادثة شق الصدر وقعت بصورة حسية ، وتكررت مع رسول الله " ﷺ "
والروايات الصحيحة تؤكد ذلك ، فقد جاء في بعضها : فشق من النحر إلى مرق
البطن .

(١) أنظر : حياة محمد ص ١٢٨ - ١٢٩ بتصرف .

(٢) تفسير الخازن ج ٧ ص ٢٦٢ ، وذكر الخازن أن الشق أحد معاني شرح الصدر .

وفي بعضها : إلى أسفل بطنه .

وجاء في إحداها : فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة .

وفوق ذلك كله فأنس بن مالك — " ﷺ " يقول : وقد كنت أرى أثر ذلك

المخيط ، في صدره ^(١) .

يقول الدكتور / محمد سعيد البوطي في رده على كلا الفريقين : رويت هذه

الحادثة بطرق صحيحة وعن كثير من الصحابة .

وليست الحكمة من هذه الحادثة — والله أعلم — استئصال غدة الشر في

جسم رسول الله " ﷺ " إذ لو كان الشر منبعه غدة في الجسم ، أو علقته في بعض

أغنامه لأمكن أن يصبح الشرير خيراً بعملية جراحية ، ولكن يبدو أن الحكمة هي

إعلاء أمر الرسول " ﷺ " وهيئته للعصمة ، والوحي ، منذ صغره بوسائل مادية ،

ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به ، وتصديقهم برسالاته .

إنها إذاً عملية تطهير معنوي ، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي ،

ليكون ذلك الإعلان الإلهي ظاهراً بين أسماع الناس وأبصارهم ، وعلى مستوى

نصورتهم .

وأياً كانت الحكمة ، فلا ينبغي — وقد ثبت الخبر ثبوتاً صحيحاً — محاولة

البحث عن مخارج لصرف الحديث عن ظاهرة ، وحقيقته ، والذهاب إلى التأويلات

المحجوجة البعيدة ، المتكلفة ، ولن نجد مسوغاً لمن يحاول هذا — رغم ثبوت الخبر

وصحته — إلا ضعف الإيمان بالله عز وجل .

ينبغي أن نعلم بأن ميزان قبولنا للخبر إنما هو صدق الرواية ، وصحتها ، فإذا

ثبت ذلك ثبوتاً بيناً فلا مناص من قبوله ، موضوعاً على الرأس ، وميزاننا لفهمه حينئذ

دلالات اللغة العربية وأحكامها ، والأصل في الكلام الحقيقة ، ولو أنه جاز لكل

باحث وقارئ أن يصرف الكلام عن حقيقته إلى مختلف الدلالات المخازية، ليتخبر
بينها ما يروى له : لانشئت قيمة اللغة، وفقدت دلالتها وناء الناس في مفاهيمها
إن الدكتور / محمود مراد يصف رواية الإرهافات بالسذاجة ويصف قصص
عبد المطلب بالإحكام ، مع أنه لا فرق بينهما في التركيب اللغوي . أو الدلالات الفنية
والمعنوية .. لكنه الغرض والموضع !! .

و كلام الدكتور / هيكل مردود، لصحة السند الذي جاء بشق الصدر على ما
ما أوردته، وقد قال النبي أحاديث شق الصدر وهو نبي مرسل فحين مثل عنها، وأيضاً
فإن خوارق العادات جاءت للناس ليسلموا لما جاءهم به الرسول ﷺ "ومن الممكن
أن يخلق الله في عباده التسليم، والإيمان من غير معجزة، أو خارقة للعادة، وذلك مشبهة أن
ولو فرضنا أن هذه الخوارق لم تقع لرأينا من يطالب بها لتكون دليلاً أمام
على التصديق : كما حدث من أهل مكة ، فلقد دعاهم النبي ﷺ " بالقرآن الكريم
وكافة الحجج الموجودة فيه ، إلا أنهم طالبوا بخوارق للعادات ، يقول الله تعالى :
﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ
مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمَتْ
عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِدٌ مِّنَ السَّمَاءِ بَلَدًا ۖ أَوْ تَنْزِلَ عَلَيْنَا مَدِينَةٌ ۚ ﴾
﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً ۚ ﴾
﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ ۖ أَعْلَمُ بِمَا تَدْعُونَ ۚ ﴾
﴿ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴾^(١) .

إن إرهافات النبوة لم تكن ليؤمن الناس بالإسلام : فقد ظهرت قبل المبعث
بزمن طويل ، ولم يبرزها النبي للناس بعد مبعثه ليجعلها دليلاً لهم ، وإنما جاءت هذه

(١) فقه السيرة النبوية ص ٥٣ .

(٢) سورة الإسراء الآيات (٩٠ - ٩٣) .

الإرهاصات تنبهاً للعقلاء ، ليروا عجائب القدرة ، وليعلموا أن الله محيط بخلقهم ، وله الأمر كله ، ولتبعث في عقولهم البحث عن أسرار ما يشاهدون .

إن الأمر في النهاية عقل ونبوة ، وفكر بشري ووحى إلهي ، والفرق بينهما كبير .. والمؤمن يعطي كل جانب حقه .. أما غيره فإنه ينادي بسيادة العقل ، وليس له في تصور النبوة والوحي نصيب .

يقول ابن حجر : (إن جميع ما ورد في شق الصدر واستخراج القلب ، وغير ذلك مما يجب التسليم له ، دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصالحية القدرة ، ولا يستحيل شيء من ذلك)^(١) .

والبشرية كلها تعلم أن النبوات قائمة علي خوارق العادات ، الخارجة عن مألوف العقول ، وطبائع الأشياء ، فمن آمن بالنبوة لزمه الإيمان بالخوارق ، ومن أنكر الخوارق أنكر النبوة من أساسها .. والله أعلم .

المبحث السادس

محمد ﷺ

في مرحلة الصبا

عاد محمد ﷺ " من ديار بني سعد بعدما بلغ خمس سنوات للمرة الثانية ،
والأخيرة ، وسرت أمه بقدمه ، وأخذت في توجيهه ، وتنشئته ، تساعدتها أم أيمن
ويعاونها جده عبد المطلب الذي رأى في محمد صورة ابنه عبد الله .

لاحظت أمنة أن محمداً يتمتع بقوة بدنية ، وعقلية ، تفوق أقرانه من الأطفال
ورأت أن تذهب به لزيارة أحوال أبيه من بني عدي بن النجار ، وليعرف قبره
الذي دفن في دارهم ، وليعلم أصوله من جهة أمه كما علمها من جهة أبيه .
وأخذته " ﷺ " ورحلت به على ناقتين لها ، ومعهما أم أيمن ، ومكثت في المدينة
كاملاً ، ليتمكن وليدها الصغير من التعرف بالمكان ، وأهله ، ويرى ما هم فيه
عادات ، وأديان ، وأعمال ، من خلال لعبه مع الصغار ، أو جلوسه مع الكبار
وعند عودة أمنة من المدينة إلى مكة ماتت في الطريق عند الأبواء ^(١) ودفنت
... ورجعت القافلة مرة أخرى إلى مكة بلا أمنة ، فاستقبلها عبد المطلب ،
حفيدة إليه ، فكفل محمداً " ﷺ " ومعه حاضنته " أم أيمن " تخدمه .

وبقيت ذكريات رحلة المدينة مع رسول الله " ﷺ " طوال حياته لأنه " ﷺ " ^(٢)
هاجر في الإسلام إلى المدينة المنورة بعد سبع وأربعين سنة ، نظر إلى أطم ^(٣) بن النجار
وقال : (كنت ألاعب " أنيسة " (وهي جارية من الأنصار) على هذه الأطم
وكنت مع الغلمان أبناء أخوالي نظير طائراً كان يقع علينا ، وأحسنت العوم في
بني عدي بن النجار ، وقال : وفي دار بني عدي نزلت مع أُمي ، وفيها قبر أبي)

^(١) الأبواء : قرية صغيرة بين مكة والمدينة ، بينها وبين المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً .

^(٢) الأطم : الحصون ، ومفردتها أطم .

^(٣) الطليقات الكبرى ج ١ ص ١١٦ .

إنما ذكريات باقية بصورتها ، وحقيقتها ... وكان " ﷺ " يذكر حاضنته أم

أيمن ويقول : (أم يمين أمي بعد أمي) ^(١) .

وقد زار النبي " ﷺ " بعد البعثة أيضاً قبر أمه فبكي ، وأبكي ، فلما سئل

بما يبكيك يا رسول الله ، قال : تذكرت رحمتها فبكيت ^(٢) .

وعموت أمة فقد الرسول أبويه ، ووجد نفسه وحيداً ، فريداً ، حرم من الآباء

، والإخوة ، ولو كان غير محمد لأصابه الكثير ، إلا أن الرعاية الإلهية كانت معه " ﷺ "

" حيث قام عبد المطلب بكفالته بعد رجوعه إلى مكة مباشرة ، وشمله بعنايته

واهتمامه ، وكان يرعاه أكثر من أبنائه .

كما أحاطته أم أيمن " رضي الله عنها " بالرعاية والخدمة ، وكانت تخاف

عليه من أي أذى يلحق به ، وبخاصة أنها رأت من يهود المدينة ما جعلها تخاف عليه

منهم ، تقول " رضي الله عنها " : (وكان قوم من اليهود يختلفون إليه ، وينظرونه

ويتفرسون فيه ، تقول أم أيمن : فسمعت أحدهم يقول : هو نبي هذه الأمة ، وهذه

دار هجرته ، فوعيت ذلك كله من كلامهم) ^(٣) ، وبقيت هذه الحادثة في ذاكرتها

ولذلك نراها بعد عودتها إلى مكة ، تذهب به إلى جده عبد المطلب ليكفله ، فكفله

مرحباً به ، وقربه منه ، ولما قارب أجله ، وصي ابنه " أبا طالب " ليكفله من بعده ،

وهكذا عاش " ﷺ " مع جده ، ومن بعده مع عمه ، مكرماً ، مصاناً .

عناية عبد المطلب بحفيده :

عاد محمد " ﷺ " وحيداً إلى جده ، فضمه إليه ، وقربه من نفسه ، ورق

عليه رقة لم يلقها أحد من ولده ، وكان يتفقده إذا تحللاً ، وإذا نام .

قال قوم من بني مدلج لعبد المطلب : احتفظ بابنك هذا فإن له شأنًا ، وإنا لم

^(١) المطبوعات الكبرى ج ١ ص ١١٦ .

^(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١١٧ .

^(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١١٨ .

نر قدماً أشبه بقدم إبراهيم الذي في المقام منه ، فسر كثيراً ، وأني بولده أبي طالب
وقال له : إسمع ما يقول هؤلاء ، فسمع منهم ، واحتفظ بما سمع إقراراً بشهرته
الاهتمام بمحمد " ﷺ " .

وجاء عبد المطلب لحاضته " أم أيمن " وكان اسمها " بركة " وقال له
يا بركة لا تغفلي عن ابني هذا ، فإن وجدته مع غلمان قريباً من السدرة ، وأن له
الكتاب يرون أن له شأناً .

وقد عمد عبد المطلب أن ينشئ حفيدة نشأة الرجال الكبار ، يقول ابن
إسحاق : (وكان رسول الله " ﷺ " مع جده عبد المطلب بن هاشم ، وكان يوضع
لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك ، حتى يخرج
إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، يقول ابن إسحاق : فكان رسول
الله " ﷺ " يأتي ، وهو غلام جفر ، يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ، ليؤخروه عنه ،
فيقول لهم عبد المطلب حين رأى ذلك منهم : دعوا ابني ، فوالله إن له شأناً ،
يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع)^(١)

ويبدو أن هذه الواقعة تكررت مع غير أبناء عبد المطلب ، فلقد روى ابن
حريج ، قال : (كنا مع عطاء ، فقال : سمعت ابن عباس يقول : سمعت أبي يقول
كان عبد المطلب أطول الناس قامة ، وأحسنهم وجهاً ، ما رآه أحد قط إلا أحبه ،
وكان له مفروش في الحجر لا يجلس عليه غيره ، ولا يجلس عليه معه أحد ، وكان
الأنداد من قريش ، حرب بن أمية فمن دونه ، يجلسون حوله دون المفروش ، فجاء
رسول الله " ﷺ " وهو غلام لم يبلغ ، فجلس على المفروش ، فجبذه رجل فبكي ،
فقال عبد المطلب ، وذلك بعد ما كف بصره : ما لابني يبكي ؟
قالوا له : إنه أراد أن يجلس على المفروش فمنعوه .

فقال : دعوا ابني يجلس عليه ، فإنه يحس من نفسه شرفاً ، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده ^(١) .

وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا ناداه ليأكل معه ، ويقول لمن حوله : علي بابي ، فيؤتى إليه ، ويأكل معه .

يسري كندير بن سعيد عن أبيه قال : حججت في الجاهلية ، فإذا رجل يطوف بالبيت ، ويرتجز ، ويقول : —

يارب رد لي راكبي محمداً يارب رده واسطع عندي يدا

فقلت : من هذا .

قالوا : هذا عبد المطلب ، ذهبت إبل له ، فأرسل ابن ابنه محمد في طلبها ، ولم يرسله في حاجة قط إلا جاء بها ، وقد احتبس عليه هذه المرة ... يقول الراوي : فما برحت حتى أنظر ما يحدث ، فلما جاء محمد ﷺ " بالإبل ، قال له جده : يا بني لقد حزنت عليك حزناً ، لا تفارقني أبداً ^(٢) .

وكان هذا الاهتمام بمحمد هو شأن عبد المطلب منذ مولد رسول الله ، حتى عرف ذلك عنه ، ولذلك حينما افتقدته حليلة السعدية مرة ، لم تجد سوى جده ، فأنت إليه ، وأخبرته بضياعه لبيحت عنه ..

يقول ابن إسحاق : (إن أمه السعدية لما قدمت به مكة أضلها في الناس ، وهي مقبلة به نحو أهله ، فالتمسته فلم تجده ، فأنت عبد المطلب ، فقالت له : إن قد قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أضلني ، فوالله ما أدرى أين هو ؟ !

فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده ، يقول ابن إسحاق : وجده ورقة بن نوفل بن أسد ، ورجل آخر من قريش ، فأتيا به عبد المطلب ، فقالا له : هذا ابنك

^(١) مع اعلام النبلاء ، ج ١ ص ٥٦ .

^(٢) مع اعلام النبلاء ، ج ١ ص ٥٤ .

وجدناه بأعلى مكة ، فأخذه عبد المطلب ، فحمله على عنقه ، وهو يطوف بالكعبة يعوده ، ويدعو له ، ثم أرسل به إلى أمه آمنة ^(١) .

ولما شعر عبد المطلب بدنو أجله ، وصي ابنته أبا طالب بكفالة ^(٢) فكفله

عمه أبو طالب بعد وفاة جده عبد المطلب ، وعمر النبي ﷺ " ثمانى سنوات ، ولد اشترك في دفن جده ، وسار خلفه وهو يبكي ، وقد دفن عبد المطلب بالحجون ^(٣)

يقول ابن سعد : (ومات عبد المطلب قد دفن بالحجون ، وهو يومئذ ابن

اثنين وثمانين سنة ، ويقال : ابن مائة وعشر سنين .

وسئل رسول الله ﷺ : أتذكر موت عبد المطلب ؟

قال : نعم أنا يومئذ ابن ثمانى سنين .

قالت أم أيمن : رأيت رسول الله ﷺ " يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب ^(٤)

عناية أبي طالب بابن أخيه :

عاش النبي ﷺ " في كفالة عمه أبي طالب ، تحيطه رعاية الله الذى حفظ

من ذل اليتيم ، وضرر الفقر .

وكفيلة أبي طالب لكفالة محمد قدر إلهي خالص ، لأن أبا طالب كان كثير

العيال ، فقير الحال ، وكان الطعام يقدم لأولاده ، فيتناولون عليه لقلته ، وكان النمر

باد عليهم ، يقول السهيلي : كانوا يصبحون غمضاً ، رمضاً ، مصفرة ألوانهم من

الجوع .

ومع هذا الحال فإن أبا طالب أهتم بوصية أبيه ، وضم محمداً لأبنائه ، وخصه

بالرعاية والتوجيه ، وكان يجالسه ، ويناقشه .

^(١) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ١٦٧ .

^(٢) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٨٢ .

^(٣) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٥٦ .

^(٤) اختار عبد المطلب ولده أبا طالب ووصاه بمحمد دون غيره ، لأن أبا طالب هو الشقيق لعبد الله من الأب وال

فأما فاطمة بنت عمرو بن عائذ من بني مخزوم ، وكان جميع أبناء عبد المطلب يهتمون بمحمد ﷺ " .

ومن رعاية الله محمد ﷺ " وهو في بيت أبي طالب أنه كان إذا وضع الطعام لأولاد أبي طالب يسقوه إليه ، ويتقاصر هو ، وتمتد أيديهم ، وتنقبض يده تكمراً ، واستحياء ، وقناعة ، ومع ذلك يصبح صقيلاً ، دهنياً ، كأنه في أنعم عيش ، وأغز كهاية ، لطقاً من الله عز وجل .

رأى محمد رغم صغره حاجة عمه أبي طالب للمال ، فأخذ على عاتقه أن يعمل ، ويكتسب شيئاً يعين به عمه .

وأراد الله لمحمد ﷺ " أن يخرج إلى الناس ، ويختلط بهم ، ويتعامل معهم ، في بيته ، وبعداً عنها .. لينال أهلية الرسالة بصورة عملية ، تطبيقية .

إن التربية العملية لها دور رئيسي في بروز الشخصية السوية ، وكلما اختلط الصغير بالناس اكتسب خبرة ، ومعرفة .. وكلما سافر ، ورحل عرف المزيد .

لذا نرى — والله أعلم — أن الله هياً لحبيه محمد ﷺ " محالاً رحباً هذه التنشئة .. لقد عاش في بادية بني سعد خمس سنوات ، اختلط بالناس وقام بالعمل والنشاط

تقول حليلة : (بينما هو ﷺ " يلعب وأخوه خلف البيوت يرعيان بهما لنا)^(١) .. ورحل إلى المدينة برفقة أمه في رحلتها التي ماتت فيها .. وأقام بالمدينة شهراً .

وفي كفالة جده اختلط بحكماء مكة ، ورجالها .. ومع عمه أبي طالب رأى حنان الأب ، واهتمامه ، حيث كان يصطحبه معه

أينما ذهب ، وكان يحبه حباً شديداً ، لا يتركه ينام إلا بجواره ، ولا يخرج إلا في معيته ، ولا يطعم أبناءه إلا وهو معهم .

وكان عمه لا يطمن عليه إلا وهو معه ، ولذلك كانت ملازمته له دائمة

وتمت.

وهيأ الله محمد ﷺ " أسباب الاتصال بالناس ، والالتقاء بهم ، مع اختلاف المذاهب ، والاتجاهات ، والعادات ، فقام بأعمال عديدة ذكرها مؤرخو السيرة ومنها ما يلي : —

• أولاً •

الرحلة الأولى إلى الشام

وقصة بحيرى الراهب

أراد أبو طالب أن يسير في ركب الشام للتجارة ، فلما عزم على السفر تفرغ به محمد ﷺ " قائلاً له : أى عم إلى من تخلفني ها هنا ؟ فرق له قلب عمه ، وأخذ معه ، وأردفه خلفه على بعيره ، واتجهوا صوب الشام مع القافلة .

وكان للنصارى عدد من الأديرة في الطريق ، يسكنها الرهبان المنقطعون للعبادة ، وهم الذين يعلمون ما بقى من دين عيسى ﷺ " ، ويبدوا أن هؤلاء الرهبان كانوا على علم بأوصاف النبي المنتظر ، ﴿ الَّذِي تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾^(١) ، وكما يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) .

لقد وصلت هذه المعرفة لديهم أن علموا ضرورة أن يكون النبي يتيماً ، وأن يكون موسوماً بخاتم النبوة ، وأن خوارق الطبيعة تحيط به ، وكانوا يعلمون أن هذا النبي سيلقى كراهية اليهود لأنهم يرغبون في أن تكون النبوة لهم ، ومنهم .

ويبدوا أن هذه المسألة كانت معلومة لعدد من الرهبان والقسيس ، لأن ركب أبي طالب ومحمد نزل أولاً في دير قريب بشمال الحجاز ، فالتقوا مع صاحبه ، فنظر صاحب الدير لمحمد ، وقال لأبي طالب : ما هذا الغلام منك ؟

^(١) سورة الأعراف آية (١٥٧) .

^(٢) سورة البقرة آية (١٤٦) .

فقال أبو طالب : هو ابني .

فقال الراهب : ما هو ابنك ، وما ينبغي أن يكون له أب حي .

قال أبو طالب : ولم ؟

قال الراهب : لأن وجهه وجه نبي ، وعينه عين نبي .

فقال أبو طالب : وما النبي ؟

فقال له الراهب : الذي يوحى إليه من السماء فينبئ أهل الأرض ، فاتق

عليه من اليهود .

لقد كانت هذه الأديرة أماكن يستريح بحوارها المارة ، الذاهبون إلى الشام ،

أو العائدون منها ، ففيها من أسباب الحياة ما يشجع على الراحة عندها .

وكان أبو طالب يسمع من راهب الدير الذي ينزل عنده ما سمعه من غيره ،

فقال للنبي ﷺ : يا ابن أخي ، ألا تسمع ما يقولون ؟

فقال له محمد : أي عم لا تنكر لله قدرة ! !

وكانت الوقفة الكبرى حين بلغ الركب مدينة بصرى ، فترل الجميع وجلسوا تحت

شجرة قريبة من دير " بحيرى " .

يقول ابن إسحاق : (فلما نزل الركب أرض الشام ، وبها راهب يقال له ،

بحيرى في صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ، ولم ينزل في تلك الصومعة منذ

قط راهب ، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها ، يتوارثونه كابراً عن كابر ، فلما نزلوا

ذلك العام ببجيرى ، وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك ، فلا يكلمهم ، ولا يعرض

لهم ، حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً ،

وذلك عن شيء رآه ، يذكرون أنه رأى رسول الله ﷺ " وهو في صومعته في الركب

حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم ، تتحرك بحركته ، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل

شجرة قريباً من بحيرى ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتقصرت أغصان

الشجرة على رسول الله ﷺ " حتى استظل تحتها .

فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته ، وقد أمر بالطعام فصنع ، ثم أرسل إليهم .
فقال : إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش ، وأحب أن تحضروا كلكم ، صغيركم
وكبيركم ، وعبيدكم وحرركم .

فقال له رجل منهم : والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم ! ما كنت تصنع هذا يوماً
وقد كنا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟

قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف ، وقد أحببت أن
أكرمكم ، وأصنع لكم طعاماً ، فتأكلوا منه كلكم .

فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم ، لحداثة سنه ، فبقي في رحل
القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف ، ويجدها عنده .
فقال : يا معشر قريش ! لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي .

قالوا له : يا بحيرى ، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث
القوم سناً ، فتخلف في الرحال .

فقال : لا تفعلوا ، أدعوه ، فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال رجل من قريش مع القوم : واللوات والعزى ، أن كان للوم بنا أن يتخلف من
عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيتنا ، ثم قام إليه فاحتضنه ، وأحضره ، وأجلسه
مع القوم .

فلما رآه بحيرى ، جعل يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء من جسده ، وقد كان
يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرى ،
فقال : يا غلام ، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرني عما أسألك عنه ، وإذا
قال له بحيرى ذلك وحلف باللات والعزى ، لأنه سمع قومه يحلفون بهما .

فقال له رسول الله ﷺ : لا تسألني باللات والعزى شيئاً ، فوالله ما أبغضت شيئاً
قط بغضهما .

فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرني عما أسألك عنه .

فقال له : سألني عما بدا لك .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله من قومه ، وهيئته ، وأموره ، فجعل رسول الله ﷺ ينبره ، فيوافق ذلك ما عند بخيري من صفته ، ثم نظر إلى ظهره ، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده .

قال ابن إسحاق : فلما فرغ ، أقبل على عمه أبي طالب ، فقال له : ما هذا

الغلام منك ؟

قال : أبي .

قال له بخيري : ما هو بابك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً .

قال : فإنه ابن أخي .

قال : فما فعل أبوه ؟

قال : مات وأمه حبلى به .

قال : صدقت ، فأرجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبغته شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده ^(١) .

وقد أورد الإمام الترمذي هذه الحادثة وزاد فيه ، حين سأله أشياخ من قريش عن سبب ما فعل قال لهم : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ، ولا حجر ، إلا خر ساجداً ، ولا يسجدان إلا لبي ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ، ثم رجع فصنع لهم طعاماً ، فلما أتاهم به وكان هو في رعي الإبل قال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامة تظله ، فلما دنا من القوم وجدتهم قد سبقوه إلى في الشجرة ، فلما جلس مال في الشجرة عليه .

^(١) سورة النبي ﷺ " ج ١ ص ١ ، يقول البيهقي هذه القصة مشهورة عند أهل المغازي ، ويقول ابن حجر : رواها

فقال : انظروا إلى في الشجرة مال عليه ، وبينما هو قائم عليهم ، يناديهم أن لا يذهبوا به إلى الروم ، فإن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلوه ، فالتفت فإذا به قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم فقال : ما جاء بكم ؟

قالوا : جننا لهذا النبي الذي أظننا زمانه ، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناص منا ، وإنا قد بعثنا إلى طريقك هذا .

فقال : هل خلفكم أحد هو خير منكم ؟

قالوا : إنما اخترنا خيراً لنا لك ، لطريقك هذا .

قال : أفرايتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟
قالوا : لا .

فلما رد الرومان قال لأبي طالب ومن معه : أنشدكم الله أيكم وليه ؟

قالوا : أبو طالب ، فلم يزل يناديهم حتى رده أبو طالب (١) .

ويبدو أنها حادثة أخرى ، لأن رواية ابن إسحاق كان التحذير من اليهود والتحذير في هذه الحادثة كان من الروم ، وأيضاً فإن الحادثة الأولى حدثت مع الراهب وهو بحيرى ، بينما هذه الحادثة لم تذكر اسماً معيناً .

وخلاصة هذه الرويات تثبت هذه الرحلة لرسول الله ﷺ " ومصابيح لعمري ، ومعرفة أهل الكتاب بقرب مبعثه ، وكرهيتهم لعروبة هذا النبي المبعوث الذي تمنوه منهم ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِمْ ﴾ فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢) .

(١) الجامع الصحيح سنن الترمذي ج ٥ ص ٥٩٠ .

(٢) سورة البقرة آية (٨٩) .

وقد روى الهيثمي عدداً من الآثار تشهد على علم أهل الكتاب بأمر نبوة محمد ﷺ ، وهذا تأكيد لما جاء في القرآن الكريم .

يروى سلمة ابن سلامة بن وقش ، وكان من أصحاب بدر ، قال : كان لنا جار من اليهود في بني عبد الأشهل ، فخرج علينا يوماً من بيته ، قبل مبعث النبي ﷺ " يسير ، فوقف على مجلس عبد الأشهل ، وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً ، على بردة ، مضطجع فيها بفناء أهلي فذكر البعث ، والقيامة ، والحساب ، والميزان ، والجنة ، والنار .

قال ذلك لقوم أهل أوثان وأصحاب شرك ، لا يرون أن بعثاً كائناً بعد الموت . فقالوا له : ونحك يا فلان ، ترى هذا كائناً ، إن الناس يبعثون بعد موتهم ، إلى دار فيها جنة ونار ، يخزون فيها بأعمالهم .

قال : نعم ، والذي يحلف به ، لو د أن له بدل تلك النار أعظم تنور في الدنيا يحمونه ، ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه ، وإنه ينجو من تلك النار غداً . قالوا : ونحك وما آية ذلك ؟

قال : نبي يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده نحو مكة واليمن . قالوا : ومتى نراه ؟

ف نظر إلى وأنا من أحدثهم سناً فقال : إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه . قال سلمة : فو الله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله تعالى نبيه ﷺ " وهو حي بين أظهرنا ، فأما به ، وكفر به بغياً وحسداً ، فقلنا له ، ويحك يا فلان أليس قلت لنا فيه ما قلت ؟

قال : بلى وليس به أو من ^(١) .


وكان عمر رسول الله ﷺ " يوم أن سافر مع عمه اثني عشرة سنة ^(٢) ...

^(١) بعثة الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ج ٨ ص ٤٢٠ .

^(٢) أسد الشراف ج ١ ص ٩٦ .

الأمر الذى مكّنه من استيعاب كل ما رأى ، وما سمع ، مما جعل الرحلة تربية عميقة واستفادة تجريبية من المعاشرة والاختلاط ، والنظر ، والتحليل ، والفهم ، والتدبر .
 في هذه الرحلة وقعت عينا محمد على فسحة الصحراء الممتدة الواسعة وتعلقتا بالنجوم اللامعة في سمائها الصافية البديعة ، وجعل عمر محمد بن ، ووادي القرى وديار ثمود ، وتستمع أذناه إلى حديث العرب ، وأهل البادية ، وأخذ يتأمل هذه المنازل ، وأخبارها ، وماضى نبتها .

وفي هذه الرحلة وقف في بلاد الشام عند الحدائق الغناء ، وعرف أخبار الروم ونصرانياتهم ، وسمع عن كتابهم ، وعن مناوأة الفرس (عباد النار) لهم ، وانتظارهم الواقعة بهم .

لقد كان له "  " من عظمة الروح ، وذكاء القلب ، ورجحان العقل ، ودقة الملاحظة ، وقوة الذاكرة ، وغير ذلك من صفات حباه القدر بها ما مكّنه من معرفة الواقع الحياتي لكل من قابله ، ثمهيداً للرسالة العظيمة التي أعده الله لها ، الأمر الذى جعله ينظر إلى ما حوله نظرة الفاحص الخفّ ، فلا يستريح إلى كل ما يسمع ويرى ، فيرجع إلى نفسه يسألها : أين الحق من ذلك كله ؟ .

ويبدو أن أبا طالب لم يستفد من رحلته مالا كثيراً ، فعاد إلى مكة ، ولم يرجع لمثلها بعد ذلك ، وبقي في مكة ، يقنع بالقليل ينفقه على أبنائه الكثيري العدد .

ثانياً .

رعي الغنم

عاد النبي ﷺ إلى مكة ، ورأى قلة مال عمه ، وكثرة أولاده ، فرغب في مساعدته ، وهداه الله للعمل بأجرة لأهل مكة ، فرعي لهم غنمهم .

عن أبي هريرة ؓ " أنه قال : (قال رسول الله ﷺ : ما بعث الله نبياً

إلا رعي الغنم ، فقال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟

قال : نعم ، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة) ^(١) .

والقراريط عملة فضية تمثل جزءاً من الدينار ، أو الدرهم .. ومن قال إنها جزء

من الأرض فقد وهم ، لأن قراريط الأرض لم يعرف إلا في مصر .

عن أبي سعيد الخدري قال : (أفخر أهل الإبل والشاة ، فقال رسول

الله ﷺ : بعث موسى وهو راعي غنم ، وبعث داود وهو راعي غنم ، وبعث

وأنا راعي غنم ، أرهاها لأهلي بأجساد) ^(٢) .

وعن جابر بن عبد الله ؓ " قال : (كنا مع النبي ﷺ " بحر الطهران ،

ونحن نجني الكباش ، فقال النبي ﷺ " عليكم بالأسود منه ، فإني كنت أجنيه إذ

كنت أربي الغنم ، فقلنا يا رسول الله : كأنك رعيت الغنم ، قال : نعم ، وهل

من لي إلا وقد رعاها ! !) ^(٣) .

ومن المعلوم أن محمداً ﷺ " رعي الغنم لحليمة مع غلام لها ، كما سبق في

حديث شق الصدر ، حين جاءه الملكان وشقاً صدره .

وللمرء أن يتساءل ، وما الحكمة في رعي الغنم؟ حتي يقدرها الله لأنبيائه جميعاً ؟ ..

^(١) صحيح البخاري شرح فتح الباري ، كتاب الإجارة — باب رعي الغنم على قراريط ج ٤ ص ٤٤١ .

^(٢) المسند ج ٣ ص ٤٢ ، وفتح الباري ج ٤ ص ٤٤١ .

^(٣) صحيح مسلم شرح النووي — كتاب الأشربة — باب فضيلة الأسود من الكباش ج ٤ ص ٥ ، والكتاب لم

أرى — والله أعلم — أن الحكمة في رعي الغنم هي تربية الأنبياء على ما سيكونون عليه حين تكليفهم بالنبوة ، ولتعلموا حسن التعامل مع الناس وأهم هذه الفوائد ما يلي : —

١ . التعود على المسئولية :

إن ثقل التكليف يحتاج إلى طاقات بشرية تتحملها ، والنبوة تكليف شاق لأنها تعني إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وإنقاذ البشر من ضلالات الهدى ليسعدوا بنور الإيمان ، وبرد اليقين ، إن النبوة قمة الأمانة ، والمسئولية ، وحاجتها إلى رسول يتحمل مشاقها ، ومصاعبها ضرورة لا بد منها .

ورعي الغنم عمل شاق ، يكفي في تصور مشاقته أن الراعي يعيش واقفاً ومتحركاً ، طوال الوقت ، حيث تسرح الغنم ، وتفرح ، وهذه أعمال في حد ذاتها تحتاج إلى قوة ، وطاقات ، ولذلك كان رعي الغنم مقدمة للنبوة لما فيهما معاً من مشقة ونصب .

٢ . تعليم الصبر والتحمل :

تحتاج النبوة إلى التخلق بالخلق الكريم ، والانصاف بالحلم والصبر ، وذلك أمر يحققه رعي الغنم ، لأن القطيع يرعى وهو مطلق السراح ، فيتوزع هنا وهناك ، وكلما يجمعه الراعي يعود من حيث أتى ، وذلك أمر يحتاج إلى الصبر ، والتحمل ، وبدون ذلك لا يمكن للراعي رعي الغنم ..

ومن رعي الغنم إذاً تعلم الأنبياء الصبر والتحمل في دعوة الناس ، لأن المدعويين ليسوا على اتجاه واحد ، وإنما لكل اتجاهه ، ومذهبه ، وجدله ، والي مستول عن تبليغ الدعوة للناس على الوجه الصحيح ، ولذلك وجب أن يكون صابراً حليماً .

يقول ابن حجر : (إن مخالطة الغنم يحقق الحلم ، والشفقة ، لأن النبي إذا صبر على رعيها ، وجمعها بعد تفرقها في المرعى ، ونقلها من مسرح إلى مسرح ، ودفع عدوها من سبع ، وسارق وغير ذلك ، ألف من ذلك الصبر على الأمة ، وأحسن

الخلافا للطبع : وتفاوت العقول ، ويكون تحمله لمشقة ذلك أسهل بعد تدريبه عليه (١) ..

٢ . شمول الرعاية :

راعي الغنم يحتاج إلى سعة الأفق وهو يدير أمر غنمه ، لتعدد جوانب الرعاية التي تحتاج إليها ، ففيها الصغير المحتاج للرعاية ، وفيها الذكر ، وفيها الأنثى ، كما أنها تحتاج دائماً إلى البحث عن مصادر أكلها ، وغذائها ، ولا بد لها من حراسة تحميها من الذئاب والصوص ، ومن الضروري المحافظة عليها من شدة الحر ، وقسوة البرد ، وكثيراً ما تتألم الآلام والأوجاع ، وعلى الراعي متابعة ذلك ، ومن مسؤوليات الراعي تدبير أمر مبيتها في الخلاء ، أو في البناء .

إنها مسؤوليات عديدة ، لا يصلح لها ضيق الأفق ، العاجز عن حمايتها ، وإعداد كافة الجوانب التي تحتاج إليها .

ولذلك كان راعي الغنم تدريباً عملياً على مباشرة أعمال النبوة لتعدد المسؤوليات النبوية ، فعلى النبي أن يعلم حدود ما كلف به ، ويحسن فهم من سيدعوهم ، ولغة من سيخاطبهم ، حتى إذا مثل أجاب ، وإن عورض رد ، وإن واجه عدواً قاومه بالحسن .. كل ذلك في قوالب عديدة ، وصور كثيرة .

إن تعدد المسؤولية في رعي الغنم باب يعلم النبي ضرورة قيامه بالأمر ، والدعوة إليه بصورة كاملة ، تامة ، شاملة .

٤ . التسوية والعدل بين الناس :

يحتاج النبي إلى تبليغ الدعوة لسائر الناس على وجه يتناسب مع كل واحد منهم ، لا يقدم واحداً ، ويترك غيره ، ولا يهتم بغني على حساب فقير ، ولا يتصور أن الخير في هذا أو في ذاك فيفضله على غيره .

(١) فتح الباري ج ٤ ص ٤٤١ .

ورعى الغنم يحقق هذا الخلق ، لأن الراعى عليه أن يفرق بالضعيف ، ويحمي بعنايته ، قلو ولدت نعجة في الطريق فعليه حمل المولود بيده ، ولذلك نراه يسير حذر القطيع ليكون في عون الضعفاء ، ويرعى الأقوياء .

٥ . تعليم التواضع :

إن قيام الأنبياء برعى الغنم يعودهم التواضع ، وترك الكبر ، لأن رعاية الغنم والحرص عليها يحتاج إلى العمل الدؤوب بعيداً عن الخيلاء ، حيث لا فخر بعمل كل تعب ، ومشقة ، تحت حر الشمس ، أو في برد الشتاء ، والنبوة في حاجة إلى هذا التواضع الذي يجعل الأنبياء يتعاملون بالخلق الكريم مع كافة الناس ، مع الرجال والنساء ، مع الأغنياء والفقراء ، مع الكبير والصغير ، مع العظيم والحقير ، وبذلك كانوا أمثلة عليا ، وقدوة سامية .

وفي ذكر النبي ﷺ " بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله أنه رعى الغنم دليل على عظيم تواضعه ، واعترافه بفضل ما من الله عليه به .

٦ . التعامل مع الناس :

يقتني الغنم عديد من الناس ، ورعاها كثيرون ، وكل راع يجد نفسه يتعامل بالضرورة مع كثير من أقرانه الرعاة ، حيث يجلسون في وقت الراحة ، ويتسامون ، ويتناقشون ، وفي ذلك فرصة للأنبياء يتعرفون بها على الناس ، لتتم دعوتهم بعد ذلك بما يناسبهم ، ويفيدهم .

٧ . الشجاعة :

الراعى يعمل على حماية غنمه من الذئاب واللصوص ، وغيرها ، وهو لذلك يحتاج إلى شجاعة تعينه على هذه الحماية ليلاً ، ونهاراً ، والأنبياء وهم يقومون بالدعوة يتصدى لهم الأعداء من شياطين الأنس والجن ، وهم محتاجون للشجاعة والجرأة ، حتى يمكنهم القيام بواجب الدعوة .

٨. التأمل والتفكير :

وراعي الغنم الذكي القلب يجد في فسحة الجو الطلق أثناء النهار ، وفي تلاؤم النجوم إذا جن الليل موضعاً لتفكيره وتأمله يسبح منه في هذه العوالم ، يتغنى أن يرى ما رآها ، ويتشمس في مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون وخلقه .
أليس هو يتنفس هواءه ولو لم يتنفسه مات ! ..

أليست تحيي أشعة الشمس ، ويغمره ضياء القمر ، ويتصل وجوده بالأفلاك والعوالم جميعاً ؟ ! ..

هذه الأفلاك والعوالم التي يراها في فسحة الكون أمامه ، متصلاً بعضها ببعض في نظام محكم ، ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ !
وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد يقتضي انتباهه ويقظته حتى لا يعبث الذئب على شاة منها ، وحتى لا تضل إحداها في مهامه البادية ، فأني انتباه ، وأية قوة تحافظ على نظام العالم كله مع إحكامه الموجود ! ! ..

إن راعي الغنم مدرسة تحتاج إلى قوة البدن ، وقوة العزيمة ، والهدوء والأناة ، مع الصدق والإخلاص ، وقصد الاستفادة ، والتعلم .

وقد جعل الله رسله رعاة للغنم ليتعلموا منها الكثير ، في إطار معونة الله ورعايته لهم .

ولكن :

لم كانت الفوائد في رعي الغنم خاصة دون سائر الأنعام كالإبل ، والبقر وغيرها ؟ ..
وأرى أن السر في اختيار الغنم لذلك — والله أعلم — ، كثرة عددها ، وسرعة حركتها ، وسهولة تفرقها ، لعدم ربطها أو تقييدها ، أما الإبل ، والبقر ، والخيول ، فعددها قليل وربطها وتقييدها بالحبال أمر عادي ، وكأن الله تعالى يعلم رسله " عليهم السلام " حسن التعامل مع الناس ، وهم أحرار .

وأيضاً فإن السيطرة على الغنم المتفرقة سهل ، وانقيادها للراعي لا يحتاج
 لجهد كبير ، لأنها بنداى واحد أو بإشارة بالعصا تعود لمكانها ، أما البقر ، والخيول
 والإبل فلا .

ومن هنا كان اختيار الغنم يرعاها الأنبياء ليتعلموا قيادة أشتات من الناس ،
 ومخاطبة العديد من العقول ، والتفاهم مع كافة لغات ، ولهجات المدعوين ، الذين
 يصيخون للحق ، ويؤمنون به .
 وهكذا رعى النبي ﷺ " الغنم في مكة ..

* * *

. ثالثاً .

حرب الفجار

الإجارة عند العرب عهد لا يمكن الفكك منه ، وهو وعد يعطيه العربي لضعيف يلجأ إليه ، ويلتزم بإنفاذه له ، وكان الضعفاء ، أو المحتاجون يلجأون إلي من لديه قوة للحماية ، والنصرة فيجبرهم ، ويعلن ذلك للناس ، وبعدها تلتزم قبيلته معه في إنفاذ ما وعد به مهما كلفهم ذلك ، وبخاصة إذا كان من المقدمين فيهم .

وقد تقع الحرب بين القبائل بسبب هذه الحماية ، وكثيراً ما وقعت .

وحروب العرب هي أيامهم التي كانوا يتواعدون عليها ، وكثيراً ما جعلوها

قرية من البيت مع أوقات أسواقهم وتجاراتهم .

ومن أشهر أيام العرب التي وقعت بسبب الإجارة حرب الفجار (بكسر

الفاء وفتح الجيم الممدودة) التي هاجت بين العرب ، واستمرت خمسة أعوام ، واشترك فيها محمد ﷺ وعمره خمسة عشر عاماً .

وسبب وقوعها أن النعمان بن المنذر أتى مكة بإبل تحمل الحرير والعطر ،

ويسمونها العرب "لطيمة" ، أتى بها لبيعها في سوق عكاظ ، فلما نزلت عند بشر

"أواره" أراد البراض بن قيس ، وكان صعلوكاً ، خليعاً ، أن يستولي على اللطيمة

لضعف صاحبها المنذري ، وبعد قومه عن مكة ، فاستجار النعمان بـ "عروة

الرحال بن ربيعة" ليقوي ضعفه ، ويصد عنه عدوان كنانة ، فأجار عروة اللطيمة ،

وأصبح العدو ان عليها عدواناً على عروة ، وقبيلته .

فجاء البراض بن قيس أحد بني ضمرة يعاتب عروة ، ويقول له : أبحر

اللطيمة على كنانة ؟ ! !

فقال عروة : نعم ، وأجبرهم على الخلق كلهم .

وأدت هذه المواجهة الساخنة بين الرجلين إلى أن خرج عروة الرحال في

سفره فبعه البراض بن قيس ، يطلب غفلته لينال منه ، حتى إذا وصلا إلى " تيمن ذي

ظلال " وهو واد بعالية نجد ^(١) غفل عروة ، وهو ابن ربيعة بن جعفر بن كلاب
قوثب عليه البراض ، وقتله في شهر شوال ، وهو من الأشهر الحرم ، وتعرف هذه
الحرب بـ " فجار البراض " .

أدى مقتل عروة إلى قيام حرب الفجار (بكسر الفاء ، وفتح الجيم)
وسماها العرب بهذا الاسم بسبب وقوعها في الأشهر الحرم ، لأنهم لما تقاتلوا لم يأمروا
بحرمة الأيام ، ولا بحرمة المكان وقالوا : قد فجرنا وارثكنا ذنباً عظيماً ، وبذلك
سميت الحرب بهذا الاسم ^(٢) .

وقيل إنما سميت بذلك لأن كلا الطرفين استحلا من المحارم بينهم ما لم يكن
يقع في أيام العرب الأخرى ^(٣) .

وقد جاء خبر مقتل عروة إلى قريش ، وهي بعكاظ فتركت السوق ، ورحلت
حيث عروة ، وهوازن لا تشعروا وانفض السوق ولم يبق بعكاظ سوق هذا العام .
علمت هوازن بعد ذلك أن قريشاً ذهبت تيمن ذي ظلال ، فاتبعنها وراثة
راجعة إلى مكة ، وأدركنها قبل أن تدخل الحرم ، فاقتتلوا حتى جاء الليل .
فلما دخلت قريش الحرم أمسكت هوازن فوقفت الحرب ، ولكنهم تواخأوا
على اللقاء في عكاظ من العام القادم حيث كان يوم شطة ، وقد استمرت أيامهم بعد
ذلك مدة طويلة .

وانتظم الفريقان خلال اقتتالهما تحت قيادة واحدة لكل قبيلة ، حيث كان
لكل بطن من قريش ، وكنانة رئيس منهم ، ولكل قبيلة من قيس رئيس منهم ، وعلى
القبائل جميعاً عند كل طرف رئيس واحد ، وهذا التنظيم يلتزم كل فرد مما يوجه عليه
العرف القبلي ، حفاظاً على وضع القبيلة ، وحماية لها من الذل والهوان .

^(١) معظم البلدان ج ٢ ص ٦٨ ، وتيمن ذي ظلال : ليس ليس الموجودة بين جرش ، ونبالة من هذلي اليمن .

^(٢) انظر : لسان العرب - مادة فجر ج ٦ ص ٣٥٤ - ط . الدار المصرية للثقافة .

^(٣) الروض الأنف ج ١ ص ٢١١ .

^(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨٦ .

ولذلك أشرك أبناء عبد المطلب محمداً ﷺ " معهم في حرب الفجار ، وكانت هذه المشاركة تجرية عملية ، عاشها مع أعمامه ، وأقرانه من غير أن يكون منه عدوان أو ظلم ، وبخاصة إذا علمنا أن أيام العرب كانت نادرة الدم ، فهي عبارة عن تدريب ويقظة ، وحراسة مستمرة ، ومواجهة يشغل بها أبناء القبيلة جميعاً ، حتى لا يتركوا غفلة خصوصتهم ، وكانوا يحددون لحروبهم أياماً يتقابلون فيها في مكان معين ، وفي موعد معين ، وكأنها مباراة دورية ، ومبارزة تنتهي بانتصار طرف ، والسحاب الفريق المنهزم ، وبعدها يحددون موعداً جديداً في مكان يتفوق عليه ، وأغلب أيام الفجار كانت في عكاظ .

يبدل علي ندرة الدم في أيام العرب أن هوازن حين عرض الصلح عليها ، أخذت أربعين رجلاً من قريش رهينة لديها حتى تأخذ دية قتلاها ، الذين بلغوا هذا العدد طوال أيام الفجار التي استمرت خمسة أعوام .

إن حرباً تقع بين قريش وكنانة بقياتلهما ، وبطونهما .. وبين هوازن بكل ما تشتمل عليه ، وتستمر خمسة أعوام ، ويقتل من هوازن أربعون رجلاً ويقتل من قريش عشرون رجلاً فقط ، لدليل علي قلة القتلى في أيام العرب .

والجانب الضعيف هو جانب هوازن ، حيث انتصر القرشيون في يوم الشرب أكبر أيامهم ، وانتصرت هوازن في يوم الحرية انتصاراً جزئياً لأن بني نصر من قريش نبوا فيها ، ولم ينسحبوا ، مع أن هذه الأيام كانت تقع قرب ديار هوازن عند عكاظ وقد دفعت قريش هوازن دية عشرين قتيلاً وهو العدد الزائد عن قتلاهم .

وأيام حرب فجار البراض هذه ^(١) ستة هي : —

^(١) فحارات العرب أربعة : الفجار الأول : بين كنانة وهوازن ، وكان الذي هاجمه أن بدر بن معشر ، أحد بني عكرمة بن مزيك من كنانة ، جعل له مجلساً بسوق عكاظ ، وكان حدثاً متبعاً في نفسه ، ثم كان أن افتخر في السوق وتعدي له الأخيمر بن مازن أحد بني دهمان ، ثم تجاوز الحيان عند ذلك حتى كاد أن تكون بينهما الدماء لم يرجعوا ورأوا أن الخطب يسير .

(١) **يوم نخلة** : وهو يوم مقتل عروة حيث ذهبت قريش لغزو بني النضير فبعثهم هوازن ، وأدركتهم قبل دخولهم الحرم ، فاقتتلوا حتى الليل ، فلما دخلت قريش الحرم أمسكت هوازن ، فكان كذاذاً ، علي هؤلاء ، ولا علي هؤلاء .

(٢) **يوم شطة** : وهي الواقعة الثانية للفجار ، والمؤرخون يعدون الأولي ، لأن اليوم الأول تم بصورة تلقائية كرد فعل علي قتل علي بن أبي طالب ، وأنصورهم يعدون الأيام التي يتم التواعد فيها ، وكان النصر في شطة لقريش ، وكنانة ، أول الأمر ثم انقلب هوازن آخره .

(٣) **يوم العبلاء** : وهو جبل صغير قرب عكاظ ، صخره أبيض وقعت فيه الواقعة ، وكان النصر هوازن . .

(٤) **يوم الشرب** : بفتح الشين مشددة وكسر الراء ، وما كانت بني النضير الفجار العظمى التي يقع للقرب مثلها ، وفي هذا اليوم قتل حريص بن أمية ، وسفيان ، وأبو سفيان أنفسهم كيلاً يفروا ، ولذا سمي بـ (العنابس) أي الأسود لشجاعتهم ، وكان النصر في هذا اليوم لقريش .

(٥) **يوم الحريرة** : والحريرة تصغير حرة ، واد بين الأهواء ومكة فماتت نخلة ، وفيه انهزمت قريش ما عدا بني النضير ، فقد ثبتت ولم تنهزم .

الفجار الثاني : وكان بين قريش وهوازن ، وكان الذي هاجمه قبة من قريش ، تعرضوا لامرأة من بني النضير فهاجت الحرب ، وكان بينهم قتال ، ودماء يسيرة ، تحملها حرب بن أمية وأصلح بينهم .

الفجار الثالث : كان بين كنانة وهوازن ، وكان الذي هاجمه أن رجلاً من بني كنانة كان عليه ذبة من بني النضير ، فأعدم الكناني ، فغمر النضري ذلك قومه سبوق عكاظ ، فقام إليه كناني فضربه ، ثم هاجم النضري حتى يكون بينهم قتال ، ثم تراجعوا .

الفجار الرابع : ويعرف بفجار النضار ، وهي التي اشترك فيها رسول الله ﷺ قبل البعث ، وهي أعظم الفجارات الأخرى لم يحدث فيها قتال ، وإنما كانت تنتهي بالصلح ، والحلوة والبيعت هنا يتناول هذا الفجار الرابع .

(٦) يوم عكاظ : وهو اليوم الذي تصالحوا فيه .

وقد استغرقت تلك الأيام خمس سنوات ^(١) .

قصة الصلح بعد هذه الفجار :

تواعدت هوازن وكنانة على التقابل في عكاظ ، وحضروا في الموعد المحدد ،
وقبيل التراشق بالسهام ، وجد الصفان بينهما عتبة بن ربيعة ، وكان حرب بن أمية
رئيس قريش ، وكنانة ، قد ضربه ، ومنعه من الخروج شفقة عليه ليطمه وصغره ، لأنه
لم يكن قد أتم الثلاثين بعد ، إلا أنه خرج سراً ، لم يشعر به أحد ، وفوجئ به حرب
علي بعيره بين الصفين ينادي : **يا معشر مضر علام تفانون ؟** .. وإنما ناداهم باسم
مضر لأنه الجد الجامع لقريش وهوازن وكنانة .

فقلت هوازن : ما تدعو إليه ؟ .

قال عتبة : ادعوكم إلى الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم ، وتعفوا عن دمائنا
قالوا : وكيف ذاك ؟

قال : ندفع لكم رهناً منا .

قالوا : ومن لنا بهذا ؟

قال : أنا .

قالوا : ومن أنت ؟

قال : أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

فرضوا : ورضيت كنانة ، ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلاً ، منهم حكيم بن حزام ،
بعد أن عدوا قتلاهم وقتلى قريش وكنانة ، وجعلوا رجلاً برجل ، ثم أخذوا دية من
زاد منهم ، فأخذوا دية عشرين رجلاً .

فلما رأت بنو عامر بن صعصعة الرهن في أيديهم عفوا عن الدماء ، وانقضت حرب الفجار ^(٢)

^(١) الروض الأنف ج ١ ص ٢١٢ . ^(٢) الروض الأنف ج ١ ص ٢١١ . ^(٣) سورة ابن هشام ج ١ ص ٢١٠ .

إشتراك محمد " ﷺ " في حرب الفجار :

هاجت حرب الفجار وعمر محمد " ﷺ " خمسة عشر عاماً ، وانتهت يوم
في العشرين من عمره .

والروايات عن إشتراك محمد " ﷺ " في هذه الحرب كثيرة ، يذكر ابن هشام
أن رسول الله " ﷺ " إشتراك في هذه الحرب دفاعاً عن أعمامه ، حيث يقول " ﷺ " :
(كنت أنبل علي أعمامي) أي أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها ^(١) .

ويقول ابن سعد : إن محمد حضر الحرب مع أعمامه ، ورمي بالسهم ^(٢)
وأرى — والله أعلم — أن إشتراك النبي " ﷺ " في حرب الفجار كان
لمساعدة أعمامه بإعداد النبال لهم ، والدفاع عنهم ، من غير عدوان علي أحد من
خصوم قومه ، أو محاولة النيل منهم علي غرة ، ومع ذلك كان " ﷺ " يقول :
أحب أني لم أكن فعلت ^(٣) .

إن الله الذي صرف محمداً " ﷺ " في شبابه عن كل ما كانت الجاهلية تعمله
هو سبحانه الذي أبعده عن الفجور في هذه الأيام ، وإنما كان إشتراكه — والله أعلم —
لتحقيق بعض الفوائد ، ومن أهمها : —

(١) مخالطة قبائل العرب ، بسائر أفرادها ، الكبار والصغار ، حين تجمعهم
للحرب والقتال ، لمعرفة أحوالهم ، وطبائعهم ، وطرق تفكيرهم في هذه
الظروف العصيبة .

(٢) معرفة كيفية نظم الحرب التي يباشرها العرب ، حيث سيحتاج إلى هذه
المعرفة فيما بعد .

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٢٨ .

التدريب علي أعمال الحرب الشاقة ، حيث الحاجة إلي جهد كبير ، في الليل والنهار ، وتحت ظروف مناخية متقلبة ، وفي ظروف قد يتعدم فيها الطعام ، ويندر الماء .

المساهمة مع قومه في أعمالهم ، وأداء حق القرابة لهم ، لأنه قريباً سيطلبهم بحق القرابة له ، والمحافظة علي ما للقرابي من مودة ، وتعاون ، ونصرة .

هذا بعض ما يمكن تصويره في مجال الفوائد التي اكتسبها النبي ﷺ

ياشترأكه في حرب الفجار ... مع ملاحظة أن الله سبحانه وتعالى نجاه من العدوان والظلم فيها ، ... وقصر نشاطه علي خدمة أعمامه والنيل عنهم .

. رابعاً .

حلف الفضول

من أعظم ما فعل العرب قبل الإسلام حلف الفضول (بضم الفاء) . وقد شاهده النبي ﷺ " وعمره عشرون سنة ، لأنه كان في ذي القعدة بعد انتهاء حرر الفجار في شوال ، قبل المبعث بعشرين عاماً ، والحلف يعني العهد ، والبيعة ، وأحد الميثاق بين أفراد ، أو جماعات ، حول موضوع ما .

وأول من تكلم في هذا الحلف ، ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ " ، وكان سببه أن رجلاً من زبيد ، قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها بن العاصي بن وائل السهمي وكان ذا قدر وشرف بمكة ، فحبس عنه حقه ، فاستعدي عليه الزبيدي الأحلاف عبد الدار ، ومخزوماً ، وجهماً ، وسهماً ، فأبوا أن يعسوا الزبيدي علي العاصي بن وائل ، وزبروه ، وفروه ، فلما رأى الزبيدي الشر ، رقى علي جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، فقال بأعلي صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته	بنطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته	يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت مكارمه	ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما هذا مترك ؟

فاجتمعت بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسيد بن عبد العزي ، وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً ، فتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام ، قياماً ، فتعاقدوا ، وتعاهدوا ، ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتي يؤدي إليه حقه ، ما بل بحر صوفة ، وما رساحراء وثبير مكاهما ، وعلي التآسي في المعاش ، فسمت قريش ذلك الحلف " حلف الفضول " ، ثم مشوا إلي

. خامسا .

الرحلة الثانية إلى الشام

التجارة لخديجة

بلغ محمد " ﷺ " خمسا وعشرين سنة ، وكان يهتم بأحوال عمه أبي طالب ، وبكثرة عياله ، لما بلغ هذا السن وجد أن رعي الغنم لم يعد يناسبه ، ودخله من الرعي قليل ، لا يفي بحاجته وعمه ، فأخذ يفكر في عمل آخر يحقق له ما يتمني . ولم يطل به البحث إذ قال له عمه أبو طالب : يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد أشد الزمان علينا ، وألحت علينا سنون مشكرة ، وليست لنا مادة ولا تجارة ، وهذه غير قومك قد حضر أوان خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجلا من قومك في عيراتها ، فيتجرون لها في مالها ، ويصيرون منافع ، فلو جئتها ، وعرضت نفسك عليها ، لأسرعت إليك ، وفضلتك علي غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك .

فقال الرسول " ﷺ " لعمه : فاعملها ترسل إلي في ذلك ^(١) .

وخديجة " رضي الله عنها " امرأة قرشية ، كثيرة المال ، عريضة الأصل ، حسية ، نسيية ، كانت تتجر بمالها ، وترسل عيراتها مع القوافل برجال تستأجرهم ، أو تضارهم بجزء من الربح ، وقد اشتهرت مكة بالتجارة حيث لا زرع فيها ، ولا صناعة ، وكل ما فيها من بضاعة فهو مستورد من الشام ، أو من اليمن ، أو من غيرهما ، وعادة التجار البحث عن الرجل الأمين ، يتعاملون معه ، صيانة للمال ، وحفاظة عليه من الضياع .. وقد رغب أبو طالب من محمد ابن أخيه أن يذهب خديجة ليتاجر لها في مالها ، لشدة ثقته في ابن أخيه ، ولم اشتهر به في مكة بالأمانة ، والصدق ، ولما عرف عن خديجة من حسن المعاملة ، والمصارعة في إعطاء الحقوق ،

وكان يرى أن خديجة ستعطي محمداً من الأجر الكثير بعدما ترى منه الصدق والأمانة ، وحسن المعاملة .

لكن محمداً " ﷺ " أنفت نفسه أن يذهب لخديجة ، باحثاً عن عمل في أموالها ولذلك قال لعمه : لعلها ترسل إلي .

لم ينتظر أبو طالب أن ترسل خديجة لمحمد مخافة أن تولي رجلاً آخر ، أو تظن لا يقبل العمل لديها ، ولذلك ذهب بنفسه إلى خديجة وقال لها : يا خديجة : هل لك أن تستأجري محمداً ؟

فقد بلغنا أنك استأجرت فلاناً بئكرين ، ولن نرضي لمحمد دون ذلك . فقالت خديجة : لو سألت ذلك لبعيد بغض فعلنا ، فكيف وقد سألت لتقريب حبيب ^(١) ! ! ! .

عاد أبو طالب لمحمد ، وأخبره بما جرى مع خديجة ، وقال له : هذا رزق ساقه الله إليك .

وقالت خديجة لميسرة لما تأهب ومحمد للسفر : قالت له : لا تنقض له أمراً ولا تخالف له رأياً ، لعلمها بحسن إدارته ، وقوة شخصيته ، وإتقان ما يقوم به من عمل وأخذ عمومته يوصون أهل العير بابن أخيهم ، ولولا الحاجة ما أخرجوه ^(٢) . لكن الله تعالى أخرجهم من مكة تاجراً هذه المرة ، ليحبوب أرض الله مكتشفاً وليخرج من تجارتهم تلك بما يغنيه ، ويرضيه .

وكانت رحلة مباركة امتلأت بالعجائب التي قدرها الله لحبيبه ، ومصطفاه . فقد توالى الإرهاصات ، وكان ميسرة يرى رسول الله " ﷺ " إذا أشتت المهاجرة ، وقوي الحر ، يظله ملكان وهو علي بعيره ، ولما دخل مكة في وقت الظهيرة ذهب إلى خديجة فرأت الملكين فوقه .

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٣٠ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٣١ .

وتقابل النبي ﷺ " في هذه الرحلة مع عدد من رهبان أهل الكتاب ،
 وكلهم نظروا إليه ، وعلموا خبره ، وماله .
 نزل في سوق بصري في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يقال له
 " سطورا " فلما رآه الراهب قال لميسرة : يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هذه
 الشجرة ؟ ..

قال ميسرة : رجل من قريش .
 فقال الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ، أفي عينة حمرة يا ميسرة ؟
 فقال ميسرة : نعم لا تفارقه .
 فقال الراهب : هو ، هو ، هو ^(١) !! .
 • اختلف مرة مع أحد التجار حول سلعة ، فقال الرجل : إحلف
 باللات والعزى . .

فقال رسول الله ﷺ : ما حلفت بهما قط .
 فقال الرجل : القول قولك . . ثم نظر إلى ميسرة ، وقال له : هذا نبي هذه الأمة .
 وبالنسبة للتجارة فقد ربحاً وربحاً وفيراً لم تره خديجة منذ أربعين سنة ، فأحبه
 ميسرة وأطاعه ، كأنه عبده ، وقدرته خديجة لمهارته ، وأمانته .
 ولما كانا (محمد وميسرة) عائدين بمر الظهران ، قال ميسرة للنبي ﷺ :
 هل لك أن تسبقني إلى خديجة ، فتخبرها بالذي جري لعلها تزيدك بكرة إلى بكراتك ،
 فركب النبي ﷺ " قعوداً أحمر ، فتقدم حتى دخل مكة في ساعة الظهر ، وخديجة
 في علة لها ، معها نساء فيهن نفيسة بنت منية ، فرأت رسول الله ﷺ " حين دخل
 وهو راكب علي بعيره ، وملكاً يظللان عليه ، فأرته نساءها فعجبن لذلك ! ! .
 ودخل عندها رسول الله ﷺ " وأخبرها بما ربحوا ، فسرت بذلك .
 وقالت : أين ميسرة ؟

^(١) سورة النبي لاس هشام ج ١ ص ١٨٨ .

قال : خلفته في البادية .

قالت : عجل إليه ليعجل بالإقبال ، وإنما أرادت أن تعلم أهو الذي رأت أم غيره .
فركب رسول الله ﷺ " وصعدت خديجة تنظر ، فرأته على الحالة الأولى ، فاستبشرت
أنه هو ، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت ، وأخبرها بقول الراهب لسطور
وبقول الآخر الذي خالفه في البيع .

يقول ابن إسحاق : فلما رأت خديجة أن تجارها قد ربحوا أضعفت له ما سمعت من
البكرات .

وأخبرت ابن عمها ورقة بن نوفل بما رأت ، وما سمعت ، فقال لها ورقة
يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة أمر ينتظر
وهكذا مرت الرحلة ببركاتهما مع محمد ﷺ ، وعاد بالبكرات إلى عمه
سعيداً راضياً ، وقد أحبه ميسرة حباً جماً .

لقد أدت هذه الرحلة عدداً من النتائج الطامسة التي أرادها الله تعالى
لمحمد ﷺ .

المبحث السابع

زواج محمد ﷺ

خديجة " رضي الله عنها "

سمعت خديجة " رضي الله عنها " ما وقع لمحمد ﷺ في رحلة التجارة :
 وشاهدته بنفسها ، فعادت بذاكرتها إلى ما قاله اليهودي لنساء مكة ، يوم أن اجتمعن
 به في المسجد الحرام ، قال هن : يا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبي ، فأمكن
 استطاعت أن تكون قراشاً له فلتفعل ، فحصبه النساء ، وقبحنه ، وأغلظن له ، ما عدا
 خديجة فإنها فكرت فيما سمعت ، ووقر في نفسها صدقه ، فلما تاجر محمد في مالها :
 ورأت منه الآيات والبركات تذكرت ما قاله اليهودي وقالت : ما ذلك إلا هذا ^(١) .
 وخديجة امرأة قرشية ، أشتهرت بين قومها ، بالمال ، والجمال ، والحسب ،
 والنسب ، ومكارم الأخلاق ... وهي من المكيات القليلات اللاتي عملن بالتجارة ،
 حتى صارت من أثرياء مكة الكبار ، تزوجت قبل رسول الله ﷺ من رجلين
 مخزوميين هما : —

الأول : هو عتيق بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وولدت له عبد مناف ،

وهندا .

الثاني : هو أبو هالة ، وهو زرة بن النباش من بني عدي ، وولدت له

هالة ، وهندا ، والظاهر ^(٢) .

وبعد ترمل خديجة ب وفاة زوجها الثاني ، رفضت الزواج ، فلها أولادها ، وقد
 تجاوزت الأربعين ، وأني لها برجل يكافئها ، عقلاً ، وخلقاً ، وأصالة ! ! ، وقد
 رغبها صناديد مكة فأبت .. لكنها بعدما رأت محمداً ﷺ ، وتذكرت ما سمعته

^(١) مثل القتي والرشاد ج ٢ ص ٢٢٢ .

^(٢) الروض الأنف ج ١ ص ٢١٥ ، ٢١٦ .


عنه من اليهودي ، ومن ابن عمها ورقة ، ثمته زوجاً ، وسعت في ذلك بحكمة
وهذوء ، وعملت علي اختبار التعامل معه ، والتأكد من المزاي التي تصورناها فيه ،
وهيأ لها القدر ما أرادت حين أنها أبو طالب يطلب منها أن يتاجر لها في مالها ، وقد
رحبت بهذا الطلب ترحيباً كبيراً ، وقالت لعبد المطلب : لقد سألته لقريب حيث
وتاجر محمد ﷺ " في مال خديجة وهو في قوة الشباب ، ورشد الرجال
إلا أنه لم يفكر في الزواج بعد بصورة مطلقة لما هو فيه من فقر ، وعيلة .. إنه يعمل
ليسد رمقه ، ويعين عمه ، وما مثله أن يفكر في الزواج .

وإذا فكر في الزواج كشأن الشباب ، فلن يفكر في الزواج من خديجة
بينهما من فروق ، ولأنها رفضت الزواج من كبار القوم ، وأغنيائهم ..
إن فارق السن بينهما خمسة عشر عاماً ، فهي في الأربعين وهو في الخامسة
والعشرين ، ولها أولادها من زوجها السابقين .

والفارق المالي كبير فهي من أغني أغنياء مكة ، ومحمد يعمل بالأجرة ليعيش
وشخصيتها ، وتجارها ، وحياتها العملية ، وسيرتها الشريفة جعلها في مصاف
كبار مكة ، وعظماؤها .

إن عديداً من عظماء مكة حاولوا الزواج منها ، فرفضتهم جميعاً ، وليس
لمحمد ﷺ " أن يفكر في زواجها ، والكل يعلم موقفها من الزواج ! ! ..
لهذا لم يفكر النبي ﷺ " في الزواج منها .. وما دري أن القدر بخير
ما قدره الله تعالى .

وعزمت خديجة علي أن تزوج محمداً ﷺ " مع صغره ، وفقره ، لتنال معه
الشرف العظيم ، وتفضل به سائر الناس ، فاحتالت لذلك بأكثر من طريق ، وكان الذي
سفر بينها وبين محمد ﷺ " نفيسة بنت منية ، وهي ابنة أمية بن عبيدة الخطلي ، كما
سفر بينهما ميسرة ، وأختها ، ومولاة مولدة ، وإحدى الكاهنات في قريش ^(١) .

• فعن معتمر بن سليمان قال : سمعت أبي يذكر أن أبا جعفر حدث أن خديجة قالت لأختها : أنطلقني إلى محمد فاذكريني له ^(١) ، وأنها توافق أن يتزوجها محمد "  " .

• وأرسلت مرة أخرى ابنة خالتها نفيسة بنت حويلد امرأة حازمة ، جلدة ، شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة ، والخير ، وهي يومئذ من أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وكل قومها كان حريصاً علي نكاحها ، لو قدر علي ذلك ، قد طلبوها ، وبذلوا لها الأموال ، فأرسلني دسيمة إلى محمد ، بعد أن رجع في غيرها من الشام .

قلت : يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ؟

فقال : ما بيدي ما أتزوج به .

قلت له : فإن كفيت ذلك ، ودعيت إلى الجمال ، والمال ، والشرف ، والكفاءة ، ألا نجيب ؟

قال : فمن هي ؟

قلت : خديجة .

قال : وكيف لي بذلك ؟

قلت : علي .

قال : فإنا أفعل ^(٢) .

• يروي النبي موقفاً له مع ميسرة ، يقول "  " : قلت لصاحبي :

^(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٣٢ .

^(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٣١ .

انطلق بنا نتحدث معاً عند خديجة ، فحسناها ، فبينما نحن عندها إذ دخلت علينا كاهنة من مولدات قريش ، فقالت : أحمد هذا ؟ والذي يحلف به إن جاء لحاطباً ؟ قلت : كلا ... حياء ونحجلاً ! !

فلما خرجت أنا وصاحبي ، قال لي : أمن خطبة خديجة تستحي ؟ فوالله ما من قرشية إلا تراك لها كفواً .

فرجعت أنا وصاحبي مرة أخرى ، فدخلت علينا تلك الكاهنة ، فقالت : أحمد هذا ؟ والذي يحلف به إن جاء لحاطباً .

فقلت علي حياء : أجل ، .. ولم تخالف خديجة ولا أختها ^(١) .

إن المرء ليحار أمام هذا التوافق الذي وضع القدر خيوطه ، حتي التأم وتم . وهل كانت رحلة التجارة اختباراً من خديجة ؟ ! أم إظهاراً لمقام محمد ؟ وهل رفض خديجة للزواج قبل ذلك جعلها تنتظر الشرف العظيم الذي ظهر لها في محمد " ﷺ " ؟ فرغبت في الاقتران به .

وما الذي جعل محمداً يرحب بالزواج من خديجة مع أنه كان لا يملك مطالب الزواج ونفقات الحياة ؟ ! !

وما الذي جعل خديجة الراضية للزواج أن تبحث عنه في شاب يصغر عنها بخمسة عشر عاماً ؟

إنها أسئلة تؤكد الحكمة الإلهية التي حبأها الله سبحانه وتعالى لهذين الزوجين الكريمين ..

إن القدر الذي دفع كلاً من خديجة ومحمد ليسعي كل لصاحبه لتكون بينهما خير أسرة ظهرت في حياة المسلمين .

زوجة تشهد لزوجها بالعظمة، وهي تقول : (والله لا يخزيك الله أبداً ..)

(١) دلائل النبوة ج ١ ص ٩٠ .

(٢) السيرة النبوة ج ١ ص ١٨٨ .

وزوج يشهد لزوجته بعد مماتها ويقول: (والله ما رزقني الله خيراً منها ..)

ويقول " ﷺ " عنها : (لقد رزقت حبها) ^(١) .

ويذهب محمد " ﷺ " إلى أعمامه يخبرهم بنبا خطبة خديجة فيسرون جميعاً ،
ويحضر محمد " ﷺ " مع عمه أبي طالب ، وعشرة رجال من قومه ، ويخطبها عمه
أبو طالب من عندها عمرو بن أسد ، فيقول وهو يخطبها : الحمد لله الذي جعلنا من
ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وضئضئ معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته
وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوباً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا حكام الناس ، ثم إن
ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ، ونبلاً ، وفضلاً ،
وعقلاً وإن كان في المال قل ، فإن المال ظل زائل ، وأمر حائل ، وغارية مسترجعة ،
وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم
خديجة وقد بذل لها من الصداق ، حكمكم عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ونشاً .

فقال عمرو بن أسد عمها : هو الفحل لا يقدر أنفه ، وأنكحها منه .. ^(٢)

وما روي من أن أباهما هو الذي زوجها ، وهو لا يدري لسكره فسرود ،

لأن أباهما خويلد ، هلك قبل حرب الفجار .

ويقال إن الذي أنكحها هو ورقة بن نوفل ، وقيل هو أخوها عمرو بن

خويلد ... والأظهر أنه عمها .

يمس الله تعالى علي محمد " ﷺ " بزواجه من خديجة ، حيث يقول له سبحانه

بعد المبعث : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ ^(٣) .

حيث كنت فقيراً فأغناك بمال خديجة الذي تنازلت عنه لك ، راضية ، سعيدة .. لتتفرغ
للمهام الكبرى ، وتعيش الأسرة معك راضية ، مطمئنة ، ويرزقكم الله الأبناء عدداً ..

^(١) صحيح مسلم - مناقب خديجة ج ١ ص ٢٠١ .

^(٢) البروق الألف ج ١ ص ٢١٣ .

^(٣) سورة القصص آية (٨) .

وأول من ولد لرسول الله ﷺ " القاسم ، وبه كان يكنى " ﷺ .
 ولدت له " ﷺ " زينب ، ثم رقية ، ثم فاطمة ، ثم أم كلثوم ، وكلهم ولدوا قبل
 الإسلام ، أما عبد الله فقد ولد في الإسلام ، فسمي بالطاهر ، والطيب ، وكل مولود
 من خديجة .

وكانت خديجة تعق عن كل مولود لها ، عن الذكر بشاتين ، وعن الأنثى
 بشاة واحدة ..

وقد مات القاسم بعد ولادته بعامين ..

ومات عبد الله قبل الهجرة ..

أما رقية وأم كلثوم فخطبهما عتبة ، وعتيبة ابنا جدهما أبي لهب (شقيق عبد
 الله) ، لكنهما تركاهما بعد بعثة محمد ﷺ " كفرة برسالته ، فتزوجهما عثمان بن
 عفان " ﷺ " الواحدة بعد الأخرى ، حيث تزوج أم كلثوم بعد وفاة رقية ، أما
 فاطمة فقد تزوجت علي بن أبي طالب " رضي الله عنهم أجمعين " ، وتزوج أبو
 العاص بن الربيع بن عبد شمس ابن خالته زينب بنت رسول الله ﷺ " رضي
 عنهم " ..

وأولاده " ﷺ " كلهم من خديجة ، ما عدا إبراهيم فأمه مارية القبطية التي
 أهداها المقوقس للنبي ﷺ " فأسلمت ، وتزوجها " ﷺ " .. وولدت له في المدينة
 المنورة بعد الهجرة .

المبحث الثامن

بناء الكعبة

الكعبة المشرفة هي البناء المربع المحوف المقام وسط المسجد الحرام ، وهي

توسط العالم كله .

وهي أول بناء وضع في الأرض ، بنى الملائكة بصورة بسيطة ، وكثيراً

ما كانت تتأثر بالنار فتحترق ، وبالسيل فتتصدع ، وبغير ذلك من عدوان الناس .

ولذلك تكرر بناؤها قبل الإسلام وبعده ، فلقد بنى الملائكة أولاً ، فعن أبي

در " قال : (قلت يا رسول الله : أي مسجد وضع في الأرض أولاً ؟ قال

المسجد الحرام ، قلت ثم أي ؟ قال المسجد الأقصى ، قلت كم بنىها ؟

قال : أربعون سنة) (١) .

ثم توالي البناء فبلغ عدداً ذكرها المؤرخون على اختلاف بينهم ، إلا أنهم

جمعون على مرات ثلاث لثبوت أدلتها ، وهي بناء إبراهيم " عليه السلام " ، وبناء قريش ،

وبناء عبد الله بن الزبير " رضي الله عنهم " .

وفي إطلاق عبارة البناء تجوز واضح ، فإن بعضها كان جداراً واحداً كبناء

الحجاج ، وبعضها كان ترميماً وإصلاحاً .. وهكذا .

والبنائات التي ذكرها المؤرخون للكعبة كثيرة ..

منها بناء الملائكة " عليهم السلام " :

ومنها : بناء آدم " عليه السلام " .

ومنها : بناء أولاد آدم " عليه السلام " .

ومنها : بناء العمالقة .

ومنها : بناء جرهم .

ومنها : بناء قصي بن كلاب .

(١) صحيح البخاري — كتاب بدء الخلق ج ٤ ص ١٧٧ ، ط . الشعب .

ومنها : بناء الخليل إبراهيم عليه السلام .

ومنها : بناء قريش .

ومنها : بناء عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي عليه السلام .

ومنها : بناء الحجاج بن يوسف الثقفي .

فأما بناء الملائكة للكعبة : فذكره الأزرق في تاريخه ، وذكر أن ذلك كان

قبل خلق آدم عليه السلام " واستدل علي ذلك بخبر رواه عن زين العابدين ، وخرجه
رواه من حديث ابن عباس " رضي الله عنهما " وكلاهما يدل على بناء الملائكة
للكعبة .

وأما بناء آدم عليه السلام : فقد ذكره البيهقي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "

(بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما : إني لي بيتاً ، فخط لهما جبريل ،
فجعل آدم يحفر ، وحواء تنقل التراب ، حتى أجابه الماء فتودي من تحته : حسبك
يا آدم ، فلما بنياه أوصي الله إليهما أن طوفا به) ^(١) .

وأما بناء أولاد آدم للكعبة : فذكره الأزرق ، حيث روي بسنده إلى

ابن ماجة قال : رفعت الخيمة التي عري الله — عز وجل — بها آدم عليه السلام " من حين
الجنة ، حين وضعت له محكة في موضع البيت ، وبعد ما مات آدم عليه السلام " بنى نوح
من بعده مكانها بيتاً بالطين والحجارة ، فلم يزل معموراً يعمرونه هم ومن بعدهم
حتى كان زمن نوح عليه السلام " فنسف الغرق ، وغير مكانه حتى بوى إبراهيم عليه السلام .

وأما بناء الخليل عليه السلام : فهو ثابت كما في القرآن العظيم ، والله

الشريف ، وهو أول من بنى البيت بعد نوح عليه السلام ، وحدد قواعده ، ورفع ، ونظمه
عن ابن إسحاق " أن الخليل عليه السلام " لما بنى البيت جعل طوله في السماء تسعة أفراس
وعرضه في الأرض اثنين وثلاثين ذراعاً ، من الركن الأسود إلى الركن الشامي ، الذي

عنده الحجر من وجهه ، وجعل عرض ما بين الركن الشامي إلى الركن الغربي
اثنين وعشرين ذراعاً ، وجعل طول ظهرها من الركن الغربي إلى الركن اليماني
أحدًا وثلاثين ذراعاً ، وجعل عرض سقفها اليماني من الركن الأسود إلى الركن
اليماني عشرين ذراعاً ، وجعل بابها بالأرض ، وحفر جباً في بطن البيت علي يمين من
دخله يكون خزانة للبيت ، وكان إبراهيم "عليه السلام" يني وإسماعيل يتقل له الحجارة على
رؤسها ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ
وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢١)

وأما بناء العمالقة وجرهم للكعبة : فذكره الأزرقى ، لأنه روي بسنده
عن علي بن أبي طالب "عليه السلام" قال في خبر بناء إبراهيم "عليه السلام" للكعبة : ثم اخدم
فبنت العمالقة ، ثم اخدم فبنت قبيلة من جرهم ، ثم اخدم فبنت قريش .

وأما بناء قصي بن كلاب : فقد جزم به الماوردي في "الأحكام السلطانية" ،
لأنه قال : فكان أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم "عليه السلام" قصي بن
كلاب ، وسقفها نخشب الدوم وحريد النخل .

وأما بناء قريش الكعبة : فهو ثابت كما في السنة الشريفة الصحيحة عن
النبي "صلى الله عليه وسلم" ، وحضره "عليه السلام" ، وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، كما جزم به ابن
إسحاق وغير واحد من العلماء .

وأما بناء ابن الزبير "عليه السلام" للكعبة فإنه ثابت مشهور ، ويرجع سبب
اهتمامه ببنائها إلى ما حدث فيها من تهم لسببين : —

السبب الأول : توهن الكعبة من حجارة المتجنق التي أصابها حين حوضر
ابن الزبير "رضي الله عنهما" بمكة في أوائل سنة أربع وستين من الهجرة ، لمعاندته
يزيد بن معاوية ، ومبايع أهل مكة والمدينة له خليفة للمسلمين .

السبب الثاني : احتراق الكعبة ، بسبب النار التي أوقدها بعض أصحاب

ابن الزبير "رضي الله عنهما" في خيمة له ، حيث طارت الرياح بلهب تلك النار فأحرقت كسوة الكعبة ، كما أحرقت الساج الذي بني في الكعبة حين عمرتها قريش ، فضعفت جدران الكعبة ، حتى إنها لتنقض من أعلاها إلى أسفلها ، ويقع الحطام عليها فتتأثر حجارها من الوهن ، والضعف .

ولما زال الحصار عن ابن الزبير "رضي الله عنهما" لإدبار الحصين بن عمر من مكة بعد أن بلغه موت يزيد بن معاوية ، رأى ابن الزبير "رضي الله عنهما" أن يهدم الكعبة وينبئها ، فوافقته علي ذلك نفر منهم جابر بن عبد الله ، وكره ذلك نفر ، منهم ابن عباس "رضي الله عنهما" .

وكان هدم ابن الزبير للكعبة في يوم السبت في النصف الأول من جمادى الآخرة سنة أربع وستين للهجرة .

وقد بناها ابن الزبير علي قواعد إبراهيم "عليه السلام" وأدخل فيها ما أخرج منها قريش في الحجر ، وزاد في ارتفاعها علي بناء قريش نظير ما زادته قريش علي بناء الخليل "عليه السلام" وذلك تسعة أذرع ، فصار ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً وهي سبعة وعشرون مدماكاً ، وجعل لها بايين لاصقين بالأرض ، أحدهما بابها الموجه اليوم ، والآخر المقابل له من الجهة الغربية المسدود الآن ، واعتمد في ذلك علي ما أخبرته به حالته عائشة "رضي الله عنها" .

وجعل فيها ثلاث دعائم في صف واحد ، وجعل لها درجاً في ركنها الشمالي يصعد منها إلي سطحها ، وجعل فيها ميزاباً يصب في الحجر ، وجعل فيها رواقاً للضوء ^(١) .

والبناء المقصود من هذا المبحث ، هو البناء الذي قامت به قريش ، والذي

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ١ ص ١٨٦ .

اشترك فيه محمد " ﷺ " يوم أن كان عمره خمساً وثلاثين سنة .

والكعبة ليست هي المسجد الحرام، وليس هي الحرم، لأن المراد بالمسجد الإنساع المحيط بالكعبة، الذي يصلي فيه الناس ، والحرم هو المكان الذي يشمل مكة وما حولها من جميع الجهات إلى الأماكن المعروفة المحددة، التي تفصل بين الحل والحرم ، من كافة بواحي مكة، وهي المعروفة بالمواقيت المكانية، التي يحرم منها أهل مكة بالعمرة وبناء قريش للكعبة كان قبل الإسلام بخمس سنوات، وهي المرة التي اشترك فيها النبي " ﷺ " ، وعمره خمس وثلاثون سنة ^(١) .

وسبب قيام قريش ببنائها ما أصابها من حريق نال منها بسبب شرارة صدرت من امرأة عربية ، وهي تقوم بتحمير الكعبة، ولدخول السيل فيها، وتصدع جدرانها ، ولأنهم لاحظوا أن نفراً تمكنوا من الدخول فيها ، وسرقوا حلياً وذهباً منها .
أرادت قريش أن تغلب على هذه المثالب فاتفقوا على بناء الكعبة سوياً ، وقاموا بتقسيم جدر الكعبة أجزاء ، ووزعوها على سائر القبائل، لتنال كل قبيلة شرف المساهمة في بناء الكعبة .

فكان شق الباب لبني عبد مناف ، وزهرة ، وهو الجدار الشرقي ..
وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وهو الجدار الجنوبي .

وكان ظهر الكعبة لبني جمع وبني سهم ، وهو الجدار الغربي .
وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ، ولبني أسد بن عبد العزي بن قصي ولبي عدي بن كعب ، وهو الحطيم ^(٢) الواقع في الجهة الشمالية .
وقد اشترك النبي " ﷺ " مع قومه في بناء الكعبة فكان ينقل معهم الحجارة ، وهم يضعون أزرهم على عواتقهم، ويحملون الحجارة ، ففعل محمد مثلهم ، فبانت عورته،

^(١) "تاريخ" الألف ج ٢ ص ٢٢١ ، وهذا أصح الأقوال .

^(٢) "السورة" ج ١ ص ٢٢٩ هامش الروض الألف .

فهودي ، عورتك ، عورتك ، فما روي لرسول الله عورة بعد ذلك ^(١) .

وجاء في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : (لما سير الكعبة ذهب النبي ﷺ " وعمه العباس ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنبي ﷺ : اجعل إزارك على رقتك ، فخر إلى الأرض ، وطمحت عيناه إلى السماء ، فقال : أرني إزارى ، فشده عليه) ^(٢) .

وتجمع قبائل مكة في بناء الكعبة ، واشترك الكبار والصغار دليل على منزلة الكعبة في قلوب ، وعقول سائر القبائل ، لأنهم كانوا يرون أنها بيت الله تعالى والذي بناها هو إبراهيم عليه السلام ، وإسماعيل عليه السلام ، وأنها وديعة الله في أرض للناس ، وهم مسئولون عنها .

وإن المرء ليحار وهو يرى هذا الاهتمام بالكعبة ، ويرى في نفس الوقت الأصنام وقد وضعوها حولها ...

فهل هذا اهتمام بالأصنام حيث وضعوها في هذا المكان المقدس ؟ !
أم هو اهتمام بالكعبة أملين أن تفيض علي أصنامهم ببعض ما فيها من خير ، ويركضون
لقد أدت روح العصبية في القبائل إلى أن تبحث كل منها عن غير لها تغرر
علي غيرها من القبائل .. فلعب الشيطان بهم ، ووجههم إلى تعدد الآلهة ، وأغرى
عقولهم عن الحق ، والصواب .

لقد كادت هذه العصبية أن توقع الحرب بين القبائل يوم بناء الكعبة ..
فبرغم أنهم جزأوا جدران الكعبة ، وجعلوا لكل قبيلة جزءاً ، تقوم ببنائها ، إلا
أنهم لما ارتفعوا بالبناء إلى مستوى الحجر الأسود ، ويسمونه بالركن ، من باب تشبيه
الشيء باسم محله ، لأنهم يضعون الحجر في ركن الكعبة ، لما بلغوا هذا المستوى انحنوا
فيمين يرفعه بيده ، ويضعه في مكانه .. يقول ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريظة

^(١) البخاري — كتاب الحج — باب فضل بناء الكعبة ج ٣ ص ٤٣٦ .

^(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري — كتاب الحج باب فضل مكة وبنائها ج ٣ ص ٤٤٢ .

جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع علي حدة ، ثم بنوها ، حتي بلغ البنيان موضع
الحجر الأسود ، فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلي موضعه دون الأخرى ،
حتى تجاوزوا ، وتحالفوا ، وأعدوا للقتال .

ووصل الأمر بهم إلي أن بني عبد الدار أعدت جفنة ، وملاؤها دماً ، ثم
تعاقدوا هم وبني عدي بن كعب علي الموت ، وأدخلوا أيديهم في جفنة الدم ، إيذاناً
باستعدادهم للقتال حتي الموت . ولذلك سمو " لعقة الدم " ، وكل ذلك من حمية
العصبية^(١) .

ثم إن أهل مكة فكروا في مصير مكة إذا وقعت الحرب ، واشتركت فيها
القبائل جميعاً وأخذوا في تدبر الأمر ، والبحث عن حل مقبول .

وتوقف العمل خمس ليال بسبب هذا التنافس ، إلا أنهم في النهاية اجتمعوا في
المسجد الحرام ، ورأوا تحكيم أسنهم ، وهو أبو حذيفة بن المغيرة بن عبد الله
المخزومي ، فتدبر في الأمر ، ثم قال لهم : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما
تختلفون أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضي بينكم فيه ، يريد به باب
" بني شيبه " ، وكان يسمى في الجاهلية " باب عبد شمس " ، وهو في الإسلام " باب
السلام " ، فوافقوه علي رأيه وانتظروا ، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ .
فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم ، وأخبروه الخبر
قال " ﷺ " : هلموا إلي ثوباً ، فأتي به ، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ، ثم
قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، وليمثلها شيخها ، ولما فعلوا كان في ربع
عبد مناف عتبة بن ربيعة ، وكان في الربع الثاني أبو زمعة بن الأسود بن المطلب ،
وفي الثالث أبو حذيفة بن المغيرة ، وفي الرابع أبو قيس بن عدي^(٢) .

(١) البداية والنهاية ج ١ ص ٣-٣ - ط. دار الفكر العربي .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٩٦ ، ويرى معاوية أنه العاص بن وائل .

فجاء الأربعة ، وحملوا الثوب ، ورفعوه حتى إذا بلغ الحجر الأسود فوضعوه عليه " ﷺ " بيده ، ووضعوه حيث هو الآن ، وبني عليه ، واستمروا في البناء ، كل في جهته حتى ارتفع البناء ثماني أذرع ، ثم كسوها بالقباطي والبرود ^(١) .

يصور الأزرقى ما حدث يوم بناء الكعبة في حوار واضح تذكر فيه بعض الصحابة ما كان يوم بناء الكعبة ، يقول الأزرقى : (اجتمع عند معاوية بن أبي سفيان وهو خليفة ، نفر من قريش منهم جعدة بن هبيرة ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة ، وعبد الله بن زمعة بن الأسود فتذكروا أحاديث العرب .

فقال معاوية : من قال حين اختلفت قريش في بياض مقدم البيت : يا معشر قريش لا تناقضوا ، ولا تباغضوا ، فيطمع فيكم غيركم ، ولكن جزعوا البيت أربعة أجزاء ، ثم ربعوا القبائل فلتكن أرباعاً ؟ .

قالوا : إنه أبو أمية بن المغيرة .

قال : هكذا كنت أسمع أبي يقول .

قال : فمن القائل حين اختلفت قريش في وضع الركن حكموا بينكم أول من يطلع من هذا الباب ؟

قال : أبو حذيفة بن المغيرة .

قال : نعم .

قال : فمن النفر الذين رفعوا الثوب حين وضعه رسول الله " ﷺ " ؟

قال : جديك عتبة ابن ربيعة أحدهم ، في الربع الأول .

قال : كذلك كنت أسمع أبي يقول .

قال : فمن كان من الربع الثاني ؟

قالوا : أبو زمعة بن الأسود بن المطلب .

(١) القباطي : ثياب مصنوعة من القطر ، والبرود : الثياب المصنوعة من الصوف .

قال : كذلك كنت أسمع أبي يقول .

قال : فمن كان في الربع الثالث ؟

قالوا : أبو حذيفة بن المغيرة .

قال : كذلك كنت أسمع أبي يقول .

قال : فمن كان في الربع الرابع ؟

قالوا : أبو قيس بن عدي السهمي .

قال : هذه واحدة قد أخذتها عليكم ، إنما هو العاصي بن وائل .

قال : فمن قال يا معشر قريش لا تدخلوا في عمارة بيت ربكم إلا طيباً من
كسبكم ؟

قالوا : أبو حذيفة بن المغيرة .

قال : هذه أخرى قد أخذتها عليكم ، إنما القائل هذا ، والمتكلم به أبو أحيحة
سعيد بن العاصي .

قال : فأسكت القوم ^(١) .

وهذه الحادثة تدل على ما يميز به محمد بالصدق ، والأمانة في قومه ، وقد سمي
فيهم بالصادق الأمين ، حتى أن هذه الأسماء إذا أطلقت بينهم تنصرف في أذهانهم
تلقائياً إلى محمد " ﷺ " ، وتدل كذلك على ما قدره الله لمحمد " ﷺ " فلقد نال
الشرف الذي بحث عنه الجميع ، فهو الذي وضع الحجر الأسود على الثوب ، وهو
الذي رفعه من فوق الثوب ، ووضع في موضعه ، وهو الذي بني فوقه ... وقد رضي
الجميع ، وأطاعوا إلى تنصرف محمد " ﷺ " فيهم ..

ولم يغب إبليس عن هذا الحدث ، فلقد حاول إفساد خطة الصلح ، فجاء في
صورة رجل نجدي ، وحاول مناولة النبي " ﷺ " حجراً يشد به الركن .

فقال العباس بن عبد المطلب : لا ، ونجاء ، وناول العباس رسول " ﷺ " حجراً فشده

(١) أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٣ .

به الركن .

فغضب النجدي حيث نحي .

فقال النبي " ﷺ " : إنه ليس بيني مغنا في البيت إلا واحد منا .

فقال النجدي : يا عجبا لقوم أهل شرف ، وعقول ، وسن ، وأموال ، عمدوا إلى أصغرهم سناً ، وأقلهم مالاً ، فرأسوه عليهم في مكرمتهم ، وحرزهم ، كأنهم خدم له ، أما والله ليفوتنهم سبقاً ، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً ! ^(١) ..

ولما بنى القرشيون الكعبة قصرت بهم النفقة ، ولم يتمكنوا من بنائها على قواعد إبراهيم ، وأهم التغييرات في بناء قريش للكعبة ما يلي : —

(١) كان باب الكعبة على الأرض ، فلما هدمتها قريش وأعادوا بناءها ، ردموا وسط الكعبة بمخلفات الهدم ، فارتفعت أرض الكعبة ، وبالتالي ارتفع بابها ، وقد استحسبوا ذلك حتى لا يدخلها إلا من أرادوا له الدخول ، وبخاصة أن بعض اللصوص كان يدخلون الكعبة لسرقة بعض المجوهرات التي أهديت إليها ، يروي الأزرقى بسنده عن أبي جعفر أنه قال : كان باب الكعبة على عهد إبراهيم وجرهم بالأرض حين بنى الملائكة ، كما يروي أن أبا حنيفة ابن المغيرة قال : يا معشر قريش إرفعوا باب الكعبة حتى لا يدخل عليكم أحد إلا بسلم ، فإنه لا يدخل عليكم إلا من أردتم ، ففعلت قريش ذلك ، وردموا الردم الأعلي ، وصرفوا السيل عن الكعبة وكسوها ^(٢) .

(٢) جعلوا للكعبة باباً واحداً ، هو الباب الشرقي ، وهو الموجود الآن وسدوا الباب الغربي .

(٣) تركوا بناء الحجر بطول ستة أذرع ونصف ، مع أنه جزء من الكعبة ، لأن النفقة الطيبة قصرت بهم ، فأبوا أن يدخلوا في بنائها مالاً خبيثاً ، وأصابعوا

^(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٤٦ .

^(٢) أخبار مكة للأزرقى ج ١ ص ١٧٣ .

نصيحة أبي أحيحة سعيد بن العاص حين قال لهم : لا تدخلوا في بيت ربكم إلا طيباً من كسبكم ^(١) .

(٤) أرفعوا بالبناء تسعة أذرع ، فصار إرتفاع الكعبة ثمانية عشر ذراعاً ، حيث رغبوا في إطالتها ، رمزاً لرفعها .

(٥) قاموا بتسقيفها ، حيث كرهوا أن تكون بغير سقف ، ولعلهم لاحظوا أهمية السقف في حمايتها من الأتربة ، والفضلات التي تحملها الرياح إلى جوف الكعبة .

(٦) أقاموا داخل الكعبة ست دعائم في صفين يجاوران الجانب الشرقي ، والجانب الغربي لتكون أساساً يقوم عليه السقف ، وقد بنيت هذه الدعائم من الحجر والخشب .

(٧) أقاموا داخل الكعبة من ناحية شرق الحجر سلماً حلزونياً يمكن بواسطته الصعود إلى سطح الكعبة .

(٨) جعلوا سطح الكعبة مستوياً يميل نحو الحجر ، وأحاطوا السطح بسور يبلغ إرتفاعه ذراعاً ، وجعلوا فيه ميزاباً يصب ماء المطر في الحجر .

(٩) أدخلوا جميع جدران الكعبة بعيداً عن قواعد إبراهيم " عليه السلام " بمقدار نصف

ذراع ، حيث أقيم عليه " الشاذوران " فيما بعد وهو البناء البارز الموجود أسفل الجدر حالياً ، ويشبه الوزرة ، وهو حجارة مائلة ملتصقة بجدر الكعبة من خارجها ، والشاذوران من بناء السلطان مراد العثماني عام ١٠٤٠ هـ وقد جعل إرتفاعه أحد عشر ستيماً من الأرض ، وعرضه أربعين ستيماً . وهو بناء مائل على هيئة مثلث قائم الزاوية إرتفاعه ملاصق للكعبة من جهاتها الثلاث ، أما جهة الحجر فهو على هيئة درجة واحدة مسطحة .

وجمهور الفقهاء أجمعوا على أن الشاذوران من البيت خلافاً لأبي حنيفة ^(٢) .

^(١) في رحاب البيت الحرام ص ١٢٦ : ١٢٧ .

^(٢) أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ١٧٣ .

وقد أخبر النبي ﷺ عائشة " رضي الله عنها " بأن قومها لم يقيموا الكعبة
علي قواعد إبراهيم " عليه السلام " .

— عن عائشة " رضي الله عنها " قالت : قال رسول الله ﷺ " ألم تروى إلى
قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم " عليه السلام ؟
قلت يا رسول الله أفلا تردها علي قواعد إبراهيم ؟

قال عبد الله بن عمر : فو الله لئن كانت عائشة سمعت ذلك من رسول الله ﷺ
ما أرى رسول الله ﷺ " ترك الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يقيم على
قواعد إبراهيم " عليه السلام " إرادة أن يستوعب الناس الطواف بالبيت كله من وراء قواعد
إبراهيم " عليه السلام " (١) .

— عن عائشة " رضي الله عنه " قالت : كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه، فأخبر
رسول الله ﷺ " يدي فأدخلني في الحجر فقال لي صلي في الحجر إذا أردت دخول
البيت فإنما هو قطعة من البيت ولكن قومك استقصروا حين بنوا الكعبة فأخرجوه من
البيت (٢) .

— عن عائشة " رضي الله عنها " قالت : إن رسول الله ﷺ " قال لها لو
أن قومك حديث عهد بشرك أو بجاهلية لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض، وجعلت لها
بابين، باباً شرقياً، وباباً غربياً، وزدت فيها من الحجر ستة أذرع، فإن قريشاً اقتصر لها
حين بنت الكعبة (٣) .

عبد الله بن الزبير وبناء الكعبة :

قام عبد الله بن الزبير حين ولي أمر مكة والمدينة ، معارضاً ليزيد بن معاوية

(١) الفتح الرباني ج ١٢ ص ٤٩ .

(٢) الفتح الرباني ج ١٢ ص ٥٠ .

(٣) الفتح الرباني ج ١٢ ص ٥١ .

بناء الكعبة ، وسب بنائه لها يرجع لأمرين : —

الأول : توهن الكعبة من حجارة المنجنيق التي أصابتها حين حوَّصر ابن الزبير

"رضي الله عنهما" عمكة في أوائل سنة أربع وستين من الهجرة ، لمعاندته يزيد بن

معاوية .

الثاني : ما أصابها مع ذلك من الحريق ، بسبب النار التي أوقدها بعض

أصحاب ابن الزبير "رضي الله عنهما" في خيمة له ، فطارت الرياح بلهب تلك النار

فأحرقت كسوة الكعبة ، والساج الذي بني في الكعبة حين عمرها قريش ، فضعفت

جدران الكعبة ، حتى إنَّها لتنقض من أعلاها إلى أسفلها ، ويقع الحمام عليها فتتناثر

حجارها (١) .

ولما زال الحصار عن ابن الزبير "رضي الله عنهما" لإدبار الحصين بن ثمر من

مكة بعد أن بلغه موت يزيد بن معاوية ، رأى ابن الزبير "رضي الله عنهما" أن يهدم

الكعبة ويبنيها ، فوافقته علي ذلك نفر قليل ، وكره ذلك نفر كثير ، منهم ابن

عباس "رضي الله عنه" .

فلما رأى ابن الزبير هذا الخلاف بين الصحابة قال لهم : لو أن بيت أحدكم

أحرق لا يرضي له إلا بأكمل صلاح ، ولا يكمل صلاح الكعبة إلا بهدمها وإقامتها

علي قواعد إبراهيم "عليه السلام" كما بينها النبي "ﷺ" لعائشة وسمعها ابن الزبير منها

"رضي الله عنها" ، فهدمها اجتهداً منه بناء علي أحاديث رسول الله "ﷺ" لأن

الشفقة موجودة وقد بعد الناس عن الجاهلية ، وما أرى رسول الله "ﷺ" قواعد

البيت لعائشة إلا لحكمة فهم ابن الزبير منها جواز بناء البيت علي قواعد إبراهيم

"عليه السلام" ، وقد وافقه بعض الصحابة في هذا الاجتهاد .

وكان هدم ابن الزبير "رضي الله عنه" لها يوم السبت في النصف الأول من جمادي

(١) فتاوى الحرم بأخبار البلد الحرام ج ١ ص ١٨٥ .

الآخرة سنة أربع وستين ، وبعد هدمها ثامناً بناها علي قواعد إبراهيم ^{عليه السلام} وأدخل فيها ما أخرجته منها قريش في الحجر ، وزاد في ارتفاعها علي بناء قريش ^{نفسه} ما زادته قريش في ارتفاعها علي بناء الخليل ^{عليه السلام} " وذلك تسعة أذرع ، فصار ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً ، وهي تسعة وعشرون مدمائاً ، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض ، أحدهما باباً الموحد اليوم ، والآخر المقابل له المسدود حالياً واعتمد في ذلك ، وفي إدخاله في الكعبة ما أخرجته قريش منها في الحجر ^{عليه السلام} ما أخبرته به حالته عائشة رضي الله عنها " .

وجعل فيها ثلاث دعائم في صف واحد ، وجعل لها درجاً في ركنها الشمالي يصعد منها إلي سطحها ، وجعل فيها ميزاباً يصب في الحجر ، وجعل فيها روازيماً للضوء ^(١) .

فلما قتل ابن الزبير ، وكانت ولاية عبد الملك بن مروان أمر بإعادة البيت إلى ما كان عليه في بناء قريش ، فلما منه أن ابن الزبير أخطأ في اجتهاده ، أو شك في الأحاديث التي اعتمد عليها ابن الزبير ، ولذلك قام الحجاج بأمر من الخليفة عبد الملك بإخراج الحجر من الكعبة ، وإلغاء الباب الغربي ، وأبقى علي ما عدا ذلك من بناء ابن الزبير ، ولما أتم الحجاج ما أمر به عبد الملك وفد علي عبد الملك الحارث بن عبد الله ابن أبي ربيعة المخزومي ، فقال له عبد الملك : ما أظن أبا خبيب — يعني ابن الزبير — سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها في أمر الكعبة .

فقال الحارث : أنا سمعته من عائشة .

قال عبد الملك : سمعتها تقول ماذا ؟

قال الحارث : سمعتها تقول : وذكر الأحاديث .

قال عبد الملك بن مروان : أنت سمعتها تقول هذا ، قال : نعم يا أمير المؤمنين أنا

(١) المرجع السابق ج ١ ص ١٨٦ .

سَمِعْتُ هَذَا مِنْهَا ، قَالَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ مِنْكَسًا بِقَضِيبٍ فِي يَدِهِ سَاعَةً طَوِيلَةً ، ثُمَّ قَالَ وَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ أَمْرِي تَرَكْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ ذَلِكَ ^(١) .

وَقَدْ أَرَادَ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ أَنْ يَعِيدَ بِنَاءَهَا عَلَى بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَأَبَى عَلَيْهِ الْإِمَامُ مَا لَكَ وَقَالَ لَهُ : أَسْئِدُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا تَجْعَلَ هَذَا الْبَيْتَ مَلْعَبَةً لِلْمُلُوكِ بَعْدَكَ ، يَغِيرُونَ مِنْ يَرِيدِ تَغْيِيرِهِ ، فَتَذْهَبُ هَيْئَتُهُ مِنَ الْقُلُوبِ فَأَنْصَرِفَ الْمَنْصُورُ عَمَّا أَرَادَ ^(٢) .

الكعبة والمسجد الحرام :

جاء ذكر المسجد الحرام خمسة عشر مرة في القرآن الكريم وهي : —

(١) ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ^ط فَلَنُؤَلِّتُكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ^ط قَوْلٍ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ^ط ^(٣) .

(٢) ﴿ قَوْلٍ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ^ط ^(٤) .

(٣) ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ^ط ^(٥) .

(٤) ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ^ط ^(٦) .

(٥) ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ^ط ^(٧) .

(٦) ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ ^ط ^(٨) .

(١) أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ٢١١ .

(٢) المروض الأنف ج ١ ص ٢٢٢ .

(٣) سورة البقرة آية (١٤٤) .

(٤) سورة البقرة آية (١٤٩) .

(٥) سورة البقرة آية (١٥٠) .

(٦) سورة البقرة آية (١٩١) .

(٧) سورة البقرة آية (١٩٦) .

(٨) سورة البقرة آية (٢١٧) .

- (٧) ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ^(١) .
- (٨) ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ^(٢) .
- (٩) ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ^(٣) .
- (١٠) ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ^(٤) .
- (١١) ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ ^(٥) .
- (١٢) ﴿مُبْحِنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ^(٦) .
- (١٣) ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ ^(٧) .
- (١٤) ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ^(٨) .
- (١٥) ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ ^(٩) .

وحين ننظر في هذه الآيات نرى أن المراد ببعضها الكعبة خاصة وهي قوله تعالى ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ويراد ببعضها الآخر مكة ، وهي فيها تعالى : ﴿مُبْحِنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

^(١) سورة المائدة آية (٢) .

^(٢) سورة الأنفال آية (٣٤) .

^(٣) سورة التوبة آية (٧) .

^(٤) سورة التوبة آية (١٩) .

^(٥) سورة التوبة آية (٢٨) .

^(٦) سورة الإسراء آية (١) .

^(٧) سورة الحج آية (٢٥) .

^(٨) سورة الفتح آية (٢٥) .

^(٩) سورة الفتح آية (٢٧) .

الْأَقْصَا : حيث روي أن النبي ﷺ " أسرى به من بيت أم هانئ ، ويراد بها في موضع آخر الحرم كله ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ .

فالمسجد الحرام غير الكعبة المشرفة ولذلك يقول القائل : خرجت من المسجد الحرام ، واعتكفت به ، وهكذا ...

ولذلك كان الحديث عن بناء الكعبة خاصاً بها ، أما المسجد فلم يقع له بناء وظل عمارة عن فسحة واسعة محيطة بالكعبة ، وكان حول الكعبة خلاء كبير ، لأن القبائل كانوا يسكنون في شعاب مكة الموجودة بين الجبل ، حيث عرف كل شعب من كان يسكنه ، واستمر الأمر علي ذلك حتي استولي قصي علي مكة ، وأمر قومه أن ينوا لأنفسهم حول الكعبة ، وقال لهم : إن سكنتم حول الكعبة هابكم الناس ، وخافوا من قتالكم ، والهجوم عليكم ، وبدأ هو أولاً بالبناء فاتبعوه .

وكانت أبواب البيوت مفتوحة تجاه الكعبة ، ومحيطه بها ، ولم يتركوا
للطائفين إلا مساحة ضيقة بمقدار مطافهم ، حتى عدم مكان الطواف مدخل البيوت .
وتقديراً للكعبة جعلوا بين كل دارين طريقاً إليها ، واشتروا أن لا يعلو بناء
ما عن الكعبة حتى ترى من جميع نواحيها .

واستمر حال المسجد علي ذلك في زمن رسول الله " ﷺ " ، وزمن أبي بكر
 " رضي الله عنه " ، فلما ولي الخلافة عمر بن الخطاب " رضي الله عنه " رأى أن الناس قد ضيقوا علي
 المسجد ، وألصقوا دورهم به ، مع أنه صار مقصداً للناس ، يشد المسلمون إليه الرحال
 من كل مكان ..

لما رأى ذلك عمر رضي الله عنه " قال لأهل مكة : إن الكعبة بيت الله ، ولا بد للبيت من فناء ، وإنكم دخلتم عليها ، ولم تدخل على الله ، فاشترى تلك الدور من أهلها ،

وهدمها ، وبني سوراً للمسجد وفتح في السور أبواباً في أماكن الطرق التي كانت من الدور ، وسمي كل باب باسم الطريق المقابل له ، وبهذا تعددت الأبواب في السور ولما ولي عثمان " عليه السلام " ، اشترى دوراً أخرى ، وأغلي في ثمنها ، وزاد في سعة المسجد ^(١) ، وزاد في عدد الأبواب .

فلما كانت خلافة ابن الزبير " عليه السلام " عمر المسجد الحرام بعد أن انتهى من عمارة الكعبة المعظمة وزاد فيه زيادة كبيرة من الجهة الشرقية والجنوبية والشمالية واشترى دوراً كثيرة وسقف المسجد أيضاً ^(٢) .

وتوالى الزيادة في المسجد الحرام ، وأشهرها الزيادة العثمانية حيث تركب مكاناً تحالياً للطواف ، وأحاطوه ببناء دائري ، مقام على أعمدة رخامية ، ومسقف بقباب في جميع نواحيه .

وكان آخرها في العصر الحديث حيث الزيادة السعودية في عهد الملك سعود بن عبد العزيز وفي عهد أخيه الملك فهد بن عبد العزيز ، جزاهم الله خير الجزاء .

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٢٢٤ .

(٢) في رحاب البيت الحرام ص ١٩٩ .

المبحث التاسع

المقدمات العملية للبعثة النبوية

بعدما تزوج محمد ﷺ من خديجة " رضي الله عنها " لم يعد محتاجاً لمال يسعى لتحصيله، أو يتشغل في العمل من أجل كسبه ، فلقد أغناه الله بمال خديجة " رضي الله عنها " ، وأغناه كذلك برضي النفس ، وهدوء البال ، وأغناه بالميل نحو التأمل ، والتفكير ، أكثر من ميله للكسب المادي، وبذل الجهد والعمل .
ولذلك تراه ﷺ " يبدأ حياة التأمل ، ويتفرغ للتحنت بعيداً عن صخب الحياة ، وضحيج العمل ، وفي فترة ما قبل البعثة عاش محمد ﷺ " ، وعاش العالم كله مقدمات البعثة ، المتمثلة في النقاط التالية : —

• أولاً •

كثرة المبشرات

تمتلى كتب السيرة والتاريخ بالمبشرات الكونية والإنسانية ، التي أشارت إلى قرب ظهور نبي في بلاد العرب ، يبعث للعالم كله ، لنشر العدل ، وتحقيق الأمن والسلام ، وقد أتت أغلب هذه المبشرات من أحبار اليهود ، ورهبان النصارى ، وكهان العرب .

وسوف أورد هنا شيئاً منها ، لثبوتها بتصديق القرآن الكريم لها ، ولأن ثبوت صدقها إثبات للإرهاصات العديدة التي صاحبت مولد محمد ﷺ " ، ونشأته ، وحياته كلها .

إن مبشرات أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، هي مبشرات صحيحة لشهادة القرآن الكريم، حيث بين الله تعالى بصورة قاطعة معرفة الأحبار، والرهبان، برسالة محمد ﷺ " ، وتحديد مواصفاته ، ومكان ظهوره ، وطبيعة رسالته العالمية .

يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ودلالة الآية صريحة في أن أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى ، يعرفون محمداً ، ورسالاته معرفة تفصيلية ، ومع ذلك فقد جحد فريق منهم نبوة محمد ﷺ ، وكنتم ما يعرفه ، وأنكر ما هو صحيح لديه . جاء في تفسير الطبري أن أحبار اليهود ، وعلماء النصارى كتموا أمر محمد ﷺ " وهم يجحدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، فأخبر الله نبيه محمداً ﷺ وأمه بكنماهم ذلك عن علم ومعرفة ، وليس لهم ذلك (٢) .

وإنما شبه معرفتهم له " ﷺ " بمعرفتهم بأبنائهم ، ولم يشبهه بمعرفتهم بأنفسهم لأن الوالد يعرف ابنه في كل وقت ، وفي كل حال ، وقد يغفل عن نفسه أحياناً ، وأيضاً فإن المعرفة الكاملة للنفس أمر مستحيل بينما المعرفة للولد تكون أكمل . قيل لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ابنك ؟ قال : نعم وأكثر ، بعث الله أمينه في سمائه ، إلى أمينه في أرضه ، بنعته ، فعرفته ، وإنني لا أدري ما كان من أمه (٣) ! ! .

ويقول الله تعالى : ﴿ الَّذِي تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ فهو " ﷺ " موجود في التوراة ، والإنجيل بوصفه ورسالاته . يروي البخاري بسنده أن عطاء ابن يسار لقي عبد الله بن عمرو بن العاص " ﷺ " وقال له : أخبرني عن صفة رسول الله " ﷺ " في التوراة .

(١) سورة البقرة آية (١٤٦) .

(٢) تفسير الطبري ج ٣ ص ١٤٦ ط. دار المعارف .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٦٣ ط. دار الكتب .

(٤) سورة الأعراف آية (١٥٧) .

وقال عطاء : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ، يا أيها النبي
 إنا أرسلناك شاهداً ، ومبشراً ، ونذيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ، ورسولي ، سميتك
 المتوكل ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ،
 ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ،
 ويفتح به أعينا عمياً ، وأذناً صماً ، وقلوباً غلفاً ^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ
 إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ
 أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ^(٢) والآية تبين أن عيسى
 " عليه السلام " بشر أتباعه ، وعلى رأسهم الخواريون برسالة محمد " ﷺ " ، وحدد لهم اسمه
 ووصفه .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ
 رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ
 مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَكَازَرَهُ
 فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ^(٣) والآية صريحة في أن الله تعالى بين
 لأهل الكتاب رسالة محمد ووضحه لهم بالتمثيل والتشبيه الذي يقرب المعنى ، ويسهل
 المفاهيم الصعبة ، فمثل محمد وأصحابه في التوراة أنهم متعاونون ، يحب بعضهم بعضاً ،
 ويواجهون الكفار بقوة وشدة ، وأهم عابدون لله ، راكعون ، ساجدون ، في وجوههم

^(١) صحيح البخاري — كتاب البيوع — باب كراهية السحب في السوق ج ٤ ص ٤٦ .

^(٢) سورة الصف آية (٦) .

^(٣) سورة الفتح آية (٢٩) .

علامات السجود ، وهم يدعون ربهم ، ويطلبون منه الخير ، والفضل دائماً... ومثلهم في الإنجيل كزرع يانع ، بلغ غاية النمو والثمر ، بمنظر هيج ، وفائدة واضحة ، ينعى نفسه وغيره .

وضرب المثال بعد التصريح لزيادة التعريف والتوضيح ، ولذلك كان عتاب الله لأهل الكتاب لكفرهم بمحمد ﷺ " وإنكارهم آيات الله التي جاءت معه " ﷺ ولا عذر لهم في ذلك ...

يقول الله تعالى : ﴿ يَتَّاهِلَ الَّذِينَ لَمْ تَكْفُرُوا بِمَا آتَى اللَّهُ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (١) ... !!

ويقول سبحانه : ﴿ يَتَّاهِلَ الَّذِينَ لَمْ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ... !!

وقد جاءت الآيتان بصيغة الإستفهام الإنكاري لإظهار خطأ أهل الكتاب فيما هم فيه من الكفر ، والعناد ، بعد ما رأوا الآيات الدالة على صدق محمد ﷺ وصدق دعوته ، وقد رأوها بأعينهم ، وتيقنوها بأفئدتهم .

لقد كان اليهود في المدينة المنورة يخوفون الأوس والخزرج قبل الهجرة ، بفرب ظهور نبي يتبعونه ، ويتقنون به ، حتى يتمكنوا من قتل العرب قتل عاد وإرم ، الأمر الذي دفع أهل المدينة إلى الإسراع في الدخول في الإسلام ، وإتباع محمد ﷺ حتى لا يسبقهم اليهود إلى الإيمان به .

يروى ابن إسحاق أن عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه أنهم قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام ، مع رحمة الله تعالى وهداه لنا ، ما كنا نسمع من رجال يهود ، وكنا أهل شرك ، وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا

(١) سورة آل عمران آية (٧٠) .

(٢) سورة آل عمران آية (٧١) .

ركانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ، قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكننا كثيراً ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله " ﷺ " أجبناه ، حين دعانا إلى الله تعالى ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه فآمنا به ، وكفروا به ، ففينا وفيهم نزل قول الله تعالى : **هُوَ الَّذِينَ اتَّيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴿١٠١﴾ ..

وبخلاصة البحث هو تأكيد صدق أخبار اليهود، ورهبان النصاري في البشارات العديدة التي تحدثوا عنها ، وأكدوا ضرورة وقوعها في شخص رسول الله " ﷺ " مع أنهم لم يؤمنوا بدعوة محمد " ﷺ " حين جاءهم ، حقداً ، وحسداً ..
— يقول سفيان بن حرب : إن أمية بن أبي الصلت ذهب إلى عالم من علماء النصاري ، انتهى إليه علم الكتاب ، وسأله عن النبي المنتظر .
فقال له : أخبرني عن هذا النبي الذي ينتظر .

فأجابه : هو رجل من العرب .

قال له : من أي العرب ؟

فأجابه : من أهل بيت يحججه العرب من إخوانكم من قريش .

قال له : صفه لي .

فأجابه : رجل شاب حين دخل في الكهولة ، بدء أمره يجتنب المظالم، والمحارم، ويصل الرحم، ويأمر بصلتها ، وهو محوج ، كريم الطرفين ، متوسط في العشيرة ، أكثر جنده ثلاثكة ^(١) .

— ويروي ابن عساكر عن عبد الرحمن بن عوف ، قال : سافرت إلى اليمن

(١) سورة الشورى آية (١٤٦) .

(٢) موطأ ج ٢ ص ٢٥٦ .

قبل مبعث النبي ﷺ " بسنة ، فترلت علي عثكلان بن عواكر الحميري ، وكان شيخاً كبيراً ، وكنت لا أزال إذا قدمت اليمن أنزل عليه ، فيسألني عن مكة وعن الكعبة ، وزمزم ويقول : هل ظهر فيكم رجل له ذكر ؟ هل خالف أحد منكم عليكم في دينكم ؟ فأقول : لا ، حتي قدمت المرة التي بعث فيها رسول الله ﷺ " فوافيته عند ضعف ، وثقل سمعه ، فترلت عليه ، فاجتمع عليه ولده ، وولد ولده ، فأخبروه بمكان وأتوني له ، وقد شدت عصا به علي عينيه ، وأسند فقعد ، فقال لي : اننس يا أخا قريش .

فقلت : أنا عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عدي بن الحارث بن زهرة .
قال : حسبك يا أخا زهرة ألا أبشرك ببشارة هي خير لك من التجارة ؟
قلت : بلي .

قال : أنبتك بالمعجزة ، وأبشرك بالمرعة ، إن الله تعالى بعث في الشهر الأول من قومك نبياً ، ارتضاه صفياءً ، وأنزل عليه كتاباً ، وجعل له ثواباً ، ينهي عن الأصنام ، ويدعو إلى الإسلام ، يأمر بالحق ويفعله ، وينهي عن الباطل ويبطله .
فقلت : ممن هو ؟

قال : لا من الأزدي ولا من الأثالة ، ولا من سرو ولا تباله ، هو من بني هاشم ، وأسم أخو له يا عبد الرحمن أحسن الواقعة ، وعجل الرجعة ، ثم امض وأزره ، وصدقته .
— ويقول عروة بن مسعود الثقفي : بلغت نجران وكان أسقفها صديقاً لي .
فلما رأي ، قال لي : يا أبا يعفور هذا حين خروج نبي من أهل حرمكم ، يهدي إلى الحق ، وحق المسيح إنه لخير الأنبياء ، وآخرهم ، فإن ظهر فكن أول من يؤمن به ^(١) .
— ويروي أن أبا ثور عمرو بن معدى كرب " عليه السلام " قال : فرعنا إلى كاهن

(١) سبل المحدثي ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٢) سبل المحدثي ج ٢ ص ٢٥٩ .

لنا في أمر نزل بنا ، فقال الكاهن : أقسم بالسماوات الأبراج ، والأرض ذات الأبراج ، والريح ذات العجاج ، إن هذا لإمراج ، ولقاح ذي نتاج .
قالوا : وما نتاجه ؟

قال : ظهور نبي صادق ، بكتاب ناطق ، وحسام ذائق .

قالوا : أين يظهر ؟ وإلام يدعو ؟

قال : يظهر بصلاح ، ويدعو إلى فلاح ، وينهي عن الراح ، والسفاح ، وعن كل أمر قباح .

قالوا : من هو ؟

قال : من ولد الشيخ الأكرم ، حافر زمزم ، ومطعم الطير الخوم ، والسباع الضرم .
قالوا : وما اسمه ؟

قال : محمد ، وعزه سرمد ، وخصمه مكمد ^(١) .

— ويروي ابن هشام : أن رؤساء بخران كانوا يتوارثون كتباً عندهم ، فكلما مات رئيس منهم وأفضت الرئاسة إلى غيره ، ختم على تلك الكتب خاتماً مع الخواتم التي قبله ، ولم يكسرها ، فخرج الرئيس الذي كان على عهد النبي ﷺ " يمشي فخر فقال ابنه : تعس الأبعد ، يريد النبي ﷺ " ، فقال له أبوه : لا تفعل ، فإنه نبي ، واسمه في الوضائع — يعني الكتب ، فلما مات لم يكن همه إلا أن شد فكسر الخواتم فوجد ذكر النبي ﷺ " فأسلم وحسن إسلامه ^(٢) .

وهكذا نرى كثرة المبشرات ، وانتشارها في كل أرجاء الأرض ، وكلها تشير إلى نبوة محمد ﷺ .

وكان الأمل أن يسارع أهل الكتاب إلى الإيمان والتصديق برسالة محمد ﷺ " فهم العارفون بها ، وبصدقها ، وقد بشروا الناس بها ، لكن الحق أعمى قلوبهم ، وصرفهم

^(١) سبل القدي ج ٢ ص ٢٦٠ ، وصلاح اسم من أسماء مكة .

^(٢) سبل القدي ج ٢ ص ٢٦٢ .

عن اتباع الحق، وكبر في نفوسهم أن يكونوا تابعين لغيرهم ..

ومع أنهم لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ " فقد أبقوا في أفهام الناس هذه المبشرات
وهياؤوا العقول الصالحة للإيمان، مما جعل الكثير ينتظر هذا النبي المبعوث بدين الله تعالى
وقد سبق ذكر ما قاله كاهن عمورية لسلطان الفارسي ، وما قاله محمري لأبي
طالب ، وما قاله نسطورا لميسرة ^(١) .

هذا بعض ما قاله الرهبان . .

ومما قاله الأحبار ما رواه ابن سعد بسنده عن أبي بن كعب ، قال : لما قد
تبع المدينة، ونزل بقناة، بعث إلي أحبار اليهود وقال لهم : إني محارب هذا البلد حتى لا
تقوم به يهودية، ويرجع الأمر إلي دين العرب ، فقال له سامول اليهودي ، وهو يوشع
أعلمهم : أيها الملك إن هذا بلد يكون إليه مهاجر نبي من بني إسماعيل، مولده مكة
اسمه أحمد ، وهذه دار هجرته ^(٢) .

— وعن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال : كان الزبير بن باطاء ، وكان
أعلم اليهود ، يقول : إني وجدت سفراً كان أبي يحتمه عليّ ، فيه ذكر أحمد بن مريم
بأرض القرظ صفته كذا وكذا ^(٣) .

— وعن ابن عباس " ﷺ " قال : كانت يهود قريظة، والنضير، وبني
وخير يجدون صفة النبي " ﷺ " ، عندهم قيل أن يبعث ، ويعلمون أن دار هجرته
بالمدينة ، فلما ولد رسول الله " ﷺ " ، قالت أحبار اليهود ، ولد أحمد اللينة ، فأتوا
الكوكب قد طلع ، فلما تنبئ قالوا ، قد تنبئ أحمد ، قد طلع الكوكب الذي بطم
كانوا يعرفون ذلك، ويقرون به، ويصفونه لولا الحسد والبغي ^(٤) .

^(١) أنظر ص ٨٧ ،

^(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٩ .

^(٣) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٩ .

^(٤) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٩ .

— وعن عامر بن ربيعة قال : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل ، ثم من بني عبد المطلب ، ولا أراي أدركه ، وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبي ، فإن طالت بك مدة فرأيت ، فأقرته مني السلام ، وسأخبرك ما نعته حتى لا تخفي عليك .

قلت : هلم !

قال : هو رجل ليس بالطويل ، ولا بالقصير ، ولا بكثير الشعر ، ولا بقليله ، وليست تفارق عينه حمرة ، ونحاتم النبوة بين كتفيه ، واسمه أحمد ، وهذا البلد مولده ومبعثه ، ثم يخرج قومه منه ، ويكرهون ما جاء به ، حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره ، فإياك أن تدخل عنه فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم ، فكل من أسأل من اليهود والنصارى ، والمجوس ، يقولون : هذا الدين وراءك ، وينعتونه مثل ما نعته لك ، ويقولون لم يبق نبي غيره ، يقول عامر بن ربيعة : فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد ابن عمرو وأقرأته منه السلام ، فرد عليه السلام ورحمة الله عليه وقال : قد رأيت في الجنة يسحب ذيلاً^(١) .

* * *

. ثانياً .

إنتشار العلم

بخاتم النبوة

من مقدمات البعثة أن محمداً " ﷺ " تمتع بعلامات عرفت بخاتم النبوة ، وقد رآها أهل الكتاب وغيرهم قبل بعثته " ﷺ " وأكثروا الحديث عنها .

وخاتم النبوة عبارة عن بضعة لحم مرتفعة عن الجسد ، وجدت في ظهر الشريف " ﷺ " عند أسفل عظم كتفه اليسرى ، وقد تكلم العلماء عن الحكمة في وضعه مع الخاتم خلف ظهره ، وفي هذا المكان المواجه للقلب .

يقول ابن دحية — رحمه الله — : الحكمة في وضع الخاتم بين كتفي رسول الله " ﷺ " : إشارة إلى أنه لا نبي بعدك يأتي من ورائك ^(١) .

وقال في الفتح : السر في ذلك أن القلب في تلك الجهة ^(٢) .

وقال العلامة السهيلي في الروض الأنف : وحكمة وضعه — أي الخاتم — عند النغص — من الكتف اليسرى — عصمته من وسوسة الشيطان ، ولأن ذلك الموضع منه يدخل الشيطان ، فكان ذلك حفظاً له من الشيطان ^(٣) .

وروي ابن عبد البر بسند قوي إلى ميمون بن مهران عن عمر بن عبد العزيز أن رجلاً سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم ، فأرى جسده ممهي (يري داخله من خارجه) وأرى الشيطان في صورة ضفدع ، عند كتفه حذاء قلبه ، خرطوم كخرطوم البعوضة ، وقد أدخله في منكه الأيسر إلى قلبه ، يوسوس إليه فإذا ذكر الله تعالى العبد تحسن .

قال في الفتح : وهو مقطوع ، وله شاهد مرفوع عن أنس عند أبي يعلى وابن

^(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري — كتاب المناقب — باب خاتم النبوة ج ٦ ص ٥٦١ .

^(٢) فتح الباري على صحيح البخاري ج ٦ ص ٥٦٢ .

^(٣) الروض الأنف ج ١ ص ١٩١ .

عدي ولفظه : (إن الشيطان وضاع خطمه على قلب ابن آدم) ^(١) .

مبغاة ختم النبي بهذا الخاتم :

اختلف العلماء في موعد ختم النبي ﷺ " بخاتم النبوة وذكروا أوقاتاً تتفق

غالباً مع الأوقات التي ذكروها لشق صدره " وهي : —

— قال بعضهم : ختم حين مولده " ﷺ .

— وقال آخرون : ختم يوم شق صدره عند حليلة .

— وقال غيرهم : ختم قبيل المبعث .

— وقيل : ختم ليلة الإسراء والمعراج

ولكل دليله ، وحجته . .

ورجح ابن حجر أن الختم كان يوم شق صدره عند حليلة ، وقطع به

القاضي عياض ، لأن الذين رأوه وشاهدوه ذكروا أن رؤيتهم للخاتم كانت قبل

البعثة بوقت طويل .

ولا مانع من القول بأن الله تعالى كرر الختم لرسول الله في كل هذه المرات

إعمالاً للأحاديث كلها ، وزيادة في البركة والعون .

وسميت هذه العلامة بالخاتم جرياً على عادة الناس في إثبات صدق ما يكتبون

بخاتم معين ، فكان هذا الخاتم دليل على صدق محمد " ﷺ .

والأحاديث المثبتة لخاتم النبوة كثيرة منها : —

— عن السائب بن يزيد " ﷺ " يقول : ذهبت بي خالتي إلى النبي " ﷺ "

فقال يا رسول الله : إن ابن أخي وجمع ، فمسح " ﷺ " رأسي ، ودعا لي

بالبركة ، وتوضأ ، فشربت من وضوئه ، ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى الخاتم بين

كففيه ، فإذا هو مثل زر الحجلة ^(٢) .

^(١) فتح الباري ج ٦ ص ٥٦٣ .

^(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري — كتاب الوضوء — باب فضل استعمال وضوء الناس ج ١ ص ٢٩٦ .

— وعن ممالك قال : حدثني جابر بن سمرة " رضي الله عنه " قال : رأيت خاتماً في ظهر رسول الله " ﷺ " كأنه بيضة حمام .

— وفي رواية أخرى قال : رأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة حمام يشبه جسده ^(١) .

— وعن ابن زيد الأنصاري " رضي الله عنه " قال : قال لي رسول الله " ﷺ " يا أبا زيد أدن مني فامسح ظهري ، فمسحت ظهره ، فوقعت أصابعي على الخاتم . قلت : وما الخاتم ؟

قال : شعرات مجتمعات ^(٢) .

— عن عبد الله بن سرجس " رضي الله عنه " قال : رأيت النبي " ﷺ " وأكلت منه خبزاً ولحماً أو قال ثريداً ، فقلت له : هل استغفر لك النبي " ﷺ " ؟ !

قال : نعم ولك ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ . قال : ثم درت خلفه فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه ، عند نحر كتفه اليسرى مما عليه خيلان كأمثال الثآليل ^(٣) .

— وعن أبي نضرة العوفي " رضي الله عنه " قال : سألت أبا سعيد الخدري عن خاتم رسول الله " ﷺ " ، يعني : خاتم النبوة ، فقال : كان في ظهره بضعة ناشرة ^(٤) وللعلماء في وصف خاتم النبوة أقوال : —
— يصفها الحاكم في كتابه بأنها شعر مجتمع .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي — كتاب الفضائل — باب شية النبي " ﷺ " ج ١٥ ص ٩٧ .

(٢) قال الألباني في الشمائل : رواه الترمذي والحاكم وأحمد وابن حبان — بسند صحيح رقم (١٧) .

(٣) الثآليل : جمع ثلول ، وهو ثمر صغير صلب مستدير يظهر على الجلد كالخضعة أو دونهما ، والحديث رواه

مسلم — كتاب الفضائل — باب إثبات خاتم النبوة ج ١٥ ص ٩٩ .

(٤) ناشرة : مرتفعة ، والحديث قال الألباني عنه في الشمائل ، رواه الترمذي — بسند حسن رقم (١٩) .

- وفي كتاب البيهقي : بصقة ناشرة .
- وفي حديث عمرو بن أخطب (كشيء يختم به) .
- وفي تاريخ ابن عساكر (مثل البندقة) .
- وفي الترمذي (كالتفاحة) .
- وفي الروض كرأس المحجم الغائص على اللحم .
- وفي تاريخ ابن أبي خيثمة شامة خضراء مختفئة في اللحم .
- وفيه أيضاً شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متراكبات كأنها عرف الغرس .

- وفي تاريخ القضاعي ثلاث مجتمعات .
 - وعن عائشة " رضي الله عنها " كنية صغيرة تضرب إلى الدهمة ^(١) .
- واختلاف العلماء في وصف خاتم النبوة ليس من قبيل التناقض والتضاد ، وإنما هي باعتبار أن كلا منهم شبه الخاتم ، بما سنع له ، وبما ظهر أمامه ، لأنه " ﷺ " كان بستره بثوبه ، فواصف الخاتم رآه بنظرة خاطفة ، أو أرى له فجأه ، مع وجود عوامل ليلية والدهشة ، في هذا الموقف العجيب ، ومن الملاحظ أن الأقوال متقاربة في وصف الخاتم من ناحية صوره ، وحجمه ومكانه .
- ووجود الخاتم النبوي مندرج في خوارق العادات التي أحاط الله بها النبوات ، ووجب التسليم بها .

^(١) دلائل النبوة للبيهقي ج ١ ص ٢٦٠ هامش ، فتح الباري ج ٦ ص ٥٩٢ .

. ثالثاً .

منع الجن من الاستماع

الجن خلق لله تعالى أوجدتهم من النار ، وقدر لهم أن يعيشوا على نحو أراد لهم ، فهم أجسام معنوية ، هائمة في الدنيا ، سريعة التنقل والحركة ، قوية الإدراك ، يرون الناس من حيث لا يرونهم .

وهم خلق مكلفون برسالات الله ، منهم المؤمن ، ومنهم الكافر ، وقصة وجودهم تبدأ بقصة إبليس مع آدم " ﷺ " حيث أخرجهما الله من الجنة ، وفقد لهما التناسل والتكاثر ، وأهبطتهما الأرض ليعيش كل طرف وذريته في عبادة مع الطرف الثاني وذريته إلى يوم القيامة .

وقد تمكن كل طرف بالاستعانة بأفراد من الطرف الآخر ، والتعاون معهم فيما هو عليه من اتجاه وعمل .

واستطاع كهان الإنس أن يستعينوا بأفراد من الجن فزادوهم ضللاً ، وخلاً ، يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ ^(١) وذلك أن الرجل من الإنس كان إذا نزل بمكان مخوف يقول : أستعين

بسيد هذا المكان من شر سفهائه ، فزادوهم طغياناً ، وضلالاً ، وبعداً عن الله تعالى ، وكان الجن يقومون باستماع الخير من السماء ، وبما يسمع الكهان من الناس ، فيضيفون إليه من عندهم ، ويتحدثون به كذباً وهتاناً ، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : سأل أناس رسول الله " ﷺ " عن الكهان .

فقال لهم رسول الله " ﷺ " : (ليسوا بشيء) .

قالوا : يا رسول الله ، فإنهم يحدثون أحياناً بالشئ يكون حقاً .

فقال رسول الله " ﷺ " : (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني ، فيقرها في أذن ولي

فر الزجاجة ، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة ^(١) .

ويروي البخاري بسنده عن عائشة " رضي الله عنها " قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الملائكة تنزل في العنان — السحاب — فتذكر الأمر فضي في السماء ، فتسترق الشياطين السمع ، فتوحيه إل الكهان فيتحدثون به ^(٢) وهذا الطريق علم الكهان خير مبعث محمد ﷺ " فتحدثوا بها للناس ..

ومن أقوال الكهان ما قاله خطر بن مالك وهو أعلم كهان العرب ، قال :

أرى لقومي ما أرى لنفسي أن يتبعوا خير بني الإنس

برهانه مثل شعاع الشمس يبعث في مكة دار الحمس

محكم التنزيل غير اللبس

قلنا له : يا خطر ، ومن هو ؟

فقال : والحياة والعيش ، إنه لمن قريش ، ما في حلمه طيش ، ولا في خلقه هيش ، يكون في جيش ، وأى جيش ! من آل قحطان وآل أيش .

قلت له : بين لنا : من أي قريش هو ؟

فقال : والبيت ذي الدعائم ، والركن والأحاطم ، إنه لمن نجل هاشم ، من معشر كرائم يبعث بالملاحم ، وقتل كل ظالم .

ثم قال : هذا هو البيان ، أخبرني به رئيس الجان ، ثم قال : الله أكبر ، جاء الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الخبر ثم سكوت وأغمي عليه ، فما آفاق إلا بعد ثلاثة ^(٣) .

— يقول عبد الله بن كعب : سمعت عمر بن الخطاب يحدث الناس ويقول :

والله إني لعند وثن من أوثان الجاهلية ، في نفر من قريش ، قد ذبح له رجل من العرب عجلًا ، فنحن نتنظر قسمه ، ليقسم لنا منه ، إذ سمعت من جوف العجل

^(١) صحيح البخاري — كتاب الطب — باب الكهانة ج ٧ ص ٢٠٨ .

^(٢) صحيح البخاري — كتاب بدء الخلق ج ٤ ص ٧٩ .

^(٣) الروض الأنف ج ١ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

صوتاً ما سمعت صوتاً قط أنفذ منه ، وذلك قبيل الإسلام بشهر أو شهرين ، يقول : يا ذريح أمر بحيح ، رجل بصيح ، يقول : لا إله إلا الله ^(١) .

— ويقول الكاهن " سطيح " لربيعة بن نصر ملك اليمن لما سأله عن رؤياه

رؤياه قال له الكاهن : رأيت حممة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت أرض حممة فأكلت منها كل ذات حممة ، فقال الملك ما أخطأت منها شيئاً يا سطيح ، عندك في تأويلها ؟

قال : أحلف ما بين الحرتين من حنش .. لتهبطن أرضكم الحبش ، فليملكن ما بين

فقال الملك : وأبيك يا سطيح ، إن هذا لنا لغائظ موجه ، فمتي هو كائن ؟ أي زمان أم بعده ؟

قال : لا ، بل بعده بخين ، أكثر من ستين ، أو سبعين ، بمضين من السنين . قال : أيدوم ذلك في ملكهم أم ينقطع ؟

قال : لا ، بل ينقطع لبضع وسبع من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين . قال : ومن يلي ذلك من أمر قتلهم وإخراجهم ؟

قال : يليه إرم ذو يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهم أحداً باليمن . قال : أيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع !

قال : بل ينقطع ؟

قال : من يقطعه ؟

قال : نبي زكي ، يأتيه الوحي من قبل العلي !

قال : ومن هذا النبي ؟

قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه إلى

الدهر .

قال : وهل للدهر من آخر ؟

قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه

المسيئون .

قال : أحق ما تخبرني ؟

قال : نعم ، والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبئك به لحق ! ^(١) .

— وسأل ربيعة بن نصر كاهناً آخر هو " شق " فأجابه بمثل ما أجاب سطيح ..

— ويروي النويري في نهاية الإرب أن سفيان بن محاشع بن دارم احتمل

ديات دماء كانت من قومه ، فخرج يستعين فيها ، فدفع إلي حي من تميم ، فإذا هم

مجنمون إلي كاهنة تقول : العزيز من والآه ، والدليل من نحلاه ، والموفور من مالاه ،

والمونور من عاداه ..

قال سفيان : من تذكرين .. لله أبوك ؟

فقلت : صاحب حل وحرم ، وهدى وعلم ، وبطش وحلم ، وحر وسلم ، رأس

رعوس ، ورأض يسوس ، وماحي بوس ، وماهد وعوس ..

قال سفيان : من هو ؟ .. لله أبوك ؟

فالت : نبي مؤيد ، قد آن حين يوجد ، ودنا أوان يولد ، يبعث إلي الأحمر والأسود

كتاب لا يفند ، اسمه محمد .

قال سفيان : لله أبوك ! أعربي هو أم عجمي ؟

فالت : أما والسماء ذات العنان ، والشجر ذات الأفنان ، إنه لمن معد بن عدنان ،

فقدك يا سفيان ^(٢) .

(١) النبي محمد " ﷺ " ص ٢١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢١ — ٢٢٢ ، بوس أي البؤس ، والوعوس أي الضعف .

إن أخبار الكهان تشبه أنباء الأخبار والرهبان في أنها جميعاً تدخل في حقل المنبهات الحسية التي تسبق الأمور الهامة ، لتيقظ العقول لهذا الجديد القادم .
إنها ليست دعوة إلى دين الله ، وليست تكليفاً بشرية ، ولكنها مقدمة لمر
له شأنه، يسهل الأفهام ، ويوقظ العقول ، وقد فطر الله الناس على أن عظماء الأمور تسير
بتمهيد يشير إليها، ويجذب الأفهام نحوها .

وقد عرفنا الله تعالى بما كانت تقوم به الجن من استماع حديث الملائكة
وحديث الله عنهم حيث يقول تعالى : ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾^(١)
وذلك حين كان يمكن للجن أن يجلس في السماء في مكان يسمع فيه ، وفجأة تغير
الحال ، وتبدل ونظرت الجن إلى السماء التي كانوا يتحركون خلالها لتتصت
والاستماع ، بلا عائق، أو مانع، فوجدوها على غير ما كانت عليها ، يصور الله
ذلك فيقول سبحانه : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُرًا
﴿ ١٨٨ ﴾^(٢) لقد امتلأت السماء بالحرس القوي من الملائكة تمنع الجن من الإقتراب . وقد
أقرب أحدهم يرمي بالشهب الملتهبة .

وقد كان الجن يتحایل في الاستماع ، حيث كانوا يجلسون واحداً فوق واحد
فإذا احترق الأعلى طلع الذي تحته ، حتى يتمكنوا من استماع شيء ، فإذا ما استمروا
كلمة ألقوها إلى الكهان أشياعهم ليتحدثوا بها مع إضافة مائة كذبة إلى الكلمة
الواحدة المسروقة^(٣) .

فلما كانت بعثة محمد ﷺ " منع الجن من الاستراق ، يقول الله تعالى على
لسان الجن : ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِذْ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا ﴾^(٤) وحينئذ رأت الجن أن ذلك

(١) سورة الجن آية (٩) .

(٢) سورة الجن آية (٨) .

(٣) فتح الباري — كتاب التفسير — باب قل أوحي إلى ج ٨ ص ٦٧١ .

الحدث مقدمة ضرورية لأمر ضروري يقع وقالوا عن ذلك: ﴿ وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرَبَ بَيْنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِكُمْ نَجْماً زَهِداً ﴾ (١) إثم لم يحددوا ما سيجد للناس ، ولكنهم أكدوا خطورته وأهميته .

ولما رأت قريش الشهب في السماء توقعوا أمراً جليلاً حتى تصوروه الفناء ، يقول أبي بن كعب : رأت قريش أمراً لم تكن تراه فجعلوا يسيرون أنعامهم ، ويعتقون أرقاءهم ، يظنون أنه الفناء ، وفعلت ثقيف مثل ذلك .

فبلغ عبد ياليل فقال : لا تعجلوا ، وانظروا ، فإن تكن نجوماً تعرف فهو عند فناء الناس ، وإن كانت نجوماً لا تعرف ، فهو عند أمر قد حدث .

فنظروا فإذا هي لا تعرف فأخبروه فقال : هذا عند ظهور نبي .

فما مكثوا إلا يسيراً حتى قدم الطائف أبو سفيان بن حرب فقال : ظهر محمد ابن عبد الله يدعي أنه نبي مرسل .

فقال عبد ياليل : فعند ذلك رمي بها (١) .

يروى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لهم : ما كنتم تقولون في هذا

النجم الذي يرمي به في الجاهلية ؟

قالوا : يا نبي الله كنا نقول حين رأيناها يرمي بها : مات ملك ، ملك ملك ، ولد مولود ، مات مولود .

فقال رسول الله ﷺ : ليس ذلك كذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً سمعه حملة العرش ، فسبحوا فسبح من تحتهم لتسبيحهم ، فسبح من تحت ذلك ، فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحوا .

ثم يقول بعضهم لبعض : مم سبحتم ؟

فيقولون : سبح من فوقنا فسبحنا لتسبيحهم .

(١) سورة النجم الآية (١٠) .

(١) قبل الخدي ج ٢ ص ٢٦٧ .

فيقولون : ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا ؟

فيقولون مثل ذلك حتي ينتهوا إلى حملة العرش فيقال لهم : مم سبحتم ؟

فيقولون : قضى الله تعالى في خلقه كذا ، وكذا ، للأمر الذي كان فيهبط به الخبر من

سواء ، إلى سماء حتي ينتهي إلى السماء الدنيا ، فيتحدثون به ، فتسرقه الشياطين بالنسبة

علي توهم ، واختلاف ، ثم يأتون به الكهان فيحدثوهم فيخطئون بعضاً ، ثم إن الله

تعالى حجب الشياطين بهذه النجوم التي يقدفون بها ، فانقطعت الكهانة اليوم

فلا كهانة ^(١) .

وهكذا ..

كثرت البشائر ، والمنبهات مقدمة لبعثة محمد " ﷺ " وإرساله بدين الله تعالى للناس

أجمعين ..

(١) صحيح مسلم — كتاب السلام — باب تحريم الكهانة ج ٤ رقم ١٧٥٠ ، ١٧٥١ .

• رابعا •

تكامل شخصية

محمد " ﷺ "

مع بلوغ محمد " ﷺ " سن الأربعين ^(١) ، تكاملت شخصيته في كافة جوانبها البشرية ، فوصل إلى التمام في صورته ، وخلقه ، وعقله ، وروحه ، وذلك بفضل الله ، وعنايته .

إن النبوة تكليف إلهي ، يصنع الله لها رجالاً من خلقه ، على نحو يريد سبحانه وتعالى ، ويوحى إليهم ، وبذلك توجد النبوة في النبي ، وتتلاقى الرسالة والرسول في إنسجام ، وتناغم ، وتوازن .

إن النبي صناعة إلهية ، يقول الله عن موسى " عَلَيْهِ السَّلَام " : ﴿ وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنُنْفِيسَ ﴾ ^(٢) ، ويقول سبحانه علي لسان عيسى : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ ^(٣) ، وهكذا الأنبياء جميعاً في تكوينهم ، وتنشئتهم ، وحياتهم ، حيث تلقاهم جميعاً مخاطبين بالرعاية ، والعناية ، تحفهم خوارق العادات التي تفل جزءاً من حياتهم ونشاطهم قبل النبوة .

ويخطئ بعض الناس حيث يقفون أمام الإرهاسات ، والمبشرات موقف الإنكار ، والدهشة ، لأنها خوارق للعادة جرت قبل البعثة ، ويسلمون بخوارق العادات بعد النبوة لأنها معجزة تصدق الرسول في نبوته .

وبعض آخر من الناس ينكر هذه المبشرات لخروجها عن مألوف عقولهم ، ومعارضتها لتصوراتهم لتكون والحياة .

^(١) شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٥ ص ٩٩ .

^(٢) سورة طه آية (٤١) .

^(٣) سورة مريم آية (٣٠) .

والواجب أن يدرك الجميع أن خوارق العادات تحيط بالرسول قبل بعثته ، بل وقبل مولده ، كما تكون معه بعد بعثته ، لأنها جميعاً من الله ، ولكل منها وظيفة ودوره .

والخارق للعادة مطلقاً لا دخل للعقل فيه ، فما بال فريق من الناس يؤمن ببعض ، ويكفر بالبعض الآخر .

إن العقل عاجز لا يمكنه تغيير مسار الأمور العادية القدرية كحركة الأقمار وتكوين الجبال ... وغيرها ، والعقل حين يعجز عليه أن يسلم بما يرى ، هذا في الأمور العادية . . .

وواجب أن يكون التسليم في كل قدر الله وبخاصة ما جاء خارقاً للعادة مطلقاً .

لقد أحاطت عناية الله محمداً ﷺ من كافة النواحي ، من ناحية نسبه وحمل أمه به ، وإرضاعه ، ونشاطه ، ورحلاته ، وقد سبق ذكر صور هذه العناية التي أثرت شخصية متكاملة في واحد من الناس يريد الله له أن يكون رسولاً نبياً . وقد تحلى هذا الكمال البشري في شخصية محمد ﷺ قبل بعثته في الجواب التالية : —

١ - سمو السلوك :

عاش محمد ﷺ حياته كلها في أعمال فاضلة ، وسلوك سليم ، ولم يترك عنه ربة قط ، بل كان في كل حالته ، وأحواله رجلاً فاضلاً ، ممتازاً ، حتى عرف في مكة بحسن العمل ، وسمو السلوك .

ومع خروج النبي ﷺ إلى مجتمع مكة ، واحتلاطه بشبابها ، وتعامله مع رجالها كانت عناية الله معه ، فصار رجلاً أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأحبهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأكثرهم أمانة ،

وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال ، ما رثي ملاحياً ، ولا مما رثياً أحداً ، حتى عرفه قومه بالأمين ، الصادق ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

صرف الله عنه كل ما يسيء ، ويشين ، فعن علي بن أبي طالب " عليه السلام " عنه قال : (سمعت رسول الله " ﷺ " يقول : ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يهيمون به من الغناء إلا ليلتين ، كلتا هما عصمني الله منهما ، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ، ونحن في رعاية غنم أهلنا ، هيا بنا نسمر كما يسمر الشباب ، وقلت لصاحبي : أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الفتيان . فقال : بلي ، فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفاً ، وغواييل ، ومزامير .

قلت : ما هذا ؟

فيل : تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر ، وضرب الله علي أذني ، فـ هو الله ما أيقظني إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت ؟

فقلت : ما فعلت شيئاً ثم أخبرته بالذي رأيت .

ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لي غنمي حتى أسمر بحكمة ، ففعل فدخلت ، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة فجلست أنظر ، وضرب الله علي أذني فـ هو الله ما أيقظني إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت .

فقلت : لا شئ ، ثم أخبرته بالذي رأيت .

فـ هو الله ما هممت ولا عدت بعدهما لشئ من ذلك حتى أكرمني الله بنبوته (^(١)) .

وعن أم أيمن " رضي الله عنها " قالت : (كان بوانة صنماً تحضره قريش يوماً في السنة ، فكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك معه ، فيأتي حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غصبن عليه وقلن : يا محمد ما تريد أن تحضر لقومك عيداً ، ولا تكثر لهم جمعاً ، فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب ما شاء الله ، ثم رجع مرعوباً ، فزعاً .

فقلت عماته : ما دهاك ؟

قال : إني أخشي أن يكون بي لم

فقلن : ما كان الله يبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذي رأيت ؟

قال : إني كلما دعوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي : وراءك يا محمد لا تمسه .

قالت : فما عاد إلى عيدهم (١) .

وعن علي " رضي الله عنه " قال : (قيل للنبي ﷺ : هل عبت وثناقط ؟

قال : لا .

قالوا : فهل شربت خمرأ قط ؟

قال : لا ، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر ، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان .. (٢) .

يقول ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ — فيما ذكر لي — يحدث

عما كان يحفظه الله به في صغره ، وأمر جاهليته ، أنه قال : لقد رأيتني في غلمان

قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعري ، وأخذ إزاره

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم ص ١٤٦ .

فجعلته على رقبتة ، يحمل عليه الحجارة ، فإني لأقبل معهم كذلك ، وأدبر ، إذ لکمی لا کم لکمة وجیعة ، ثم قال : شد عليك إزارك .

فأخذته وشدته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتی وإزاري على من بين أصحابي .

يقول السهيلي : ورد مثل هذا الحديث الصحيح في بيان الكعبة ، وفيه أن رسول الله ﷺ " كان ينقل الحجارة مع قومه ، وكانوا يحملون أزهرهم على عواتقهم لتفهم قسوة الحجارة ، وكان رسول الله ﷺ " يحملها على عاتقه ، وإزاره مشدود عليه ، فقال له العباس " : يا ابن أخي لو جعلت إزارك على عتقك ، ففعل فسقط مغشياً عليه ، ثم قال إزارى ، إزارى ، فشد عليه إزاره ، وقام يحمل الحجارة ^(١) . ولا مانع من تكرار هذا التوجيه القدرى ليقى محمد ﷺ " في طهارته وسموه .

يروى ابن سعد أن رسول الله ﷺ " كان يتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام لما عرف عنه من العقل ، والحكمة ، ولذلك لما بعث ناداهم ، وسأهم عن خلقه ، وصدقته ، فأقروا له بما علموا منه .

يروى البخاري بسنده عن ابن عباس " رضي الله عنهما " قال : (لما نزلت ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ^(٢) ، خرج رسول الله ﷺ " حتى صعد الصفا فهتف : يا صباحاه .

فقالوا : من هذا ؟ فاجتمعوا إليه .

فقال : أرايتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً قط .

قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

قال أبو لهب : تباً لك ، ما جمعتنا إلا لهذا ؟ ^(٣) .

^(١) سورة النبي لآل من فقام ج ١ ص ١٨٣ .

^(٢) سورة الشعراء آية ٢١٤ . ^(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري - كتاب النضر - باب تبى هذا ج ٨ ص ١٣٧ .

ولقد اشتهر رسول الله ﷺ " قبل مبعثه بالأخلاق الكريمة ، وتمتع بالتصفيات
الفاضلة ، وجاء قول الله تعالى في وصف خلقه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝١٥١ ﴾
لتصف أخلاقه بالعظمة التي اتصف بها بصورة شاملة قبل المبعث ، حتى سماه فوراً
بالأمين ، ووصفته السيدة خديجة بما كان فيه يوم أن جاءها مرتعشاً ، خائفاً ، قالت
له : والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم
، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ^(٢) .

وصدقت السيدة " رضي الله عنها " في شهادتها ، ونطقت بالحق ، وكانت
تعبيراً ناطقاً عن المستقبل ، إذ أكرم الله محمداً ﷺ ، وأختاره رسولاً للعالم كله

٢ - جمال الخلقة :

أضفى الله تعالى بفضله ، وكرمه على رسوله محمد ﷺ " الحسن والجمال ،
الذي تميز به قبل النبوة . . . وحين نورد شيئاً من جمال خلقته ﷺ " فليس أمامنا إلا
مصادر السيرة ، والحديث نقول عنها .

يروى البخاري بسنده عن أبي هريرة أنه قال : (كان النبي ﷺ " أحسن
الناس وجهاً ، حتى قال أنس " ﷺ " : لم أر بعده ولا قبله مثله) ^(٣) .
ولما سئل " البراء " ﷺ " : أكان وجه النبي ﷺ " مثل السيف ؟
قال : لا ، بل مثل القمر ، وكان مستديراً ، وورد أنه كان " ﷺ " مليح الوجه ^(٤)
وكان عظيم الفم ، طويل شق العين ^(٥) .



(٢) سورة القلم آية (٤) .


(٣) صحيح البخاري — كتاب المناقب .

(٤) البخاري ٥٨ / ٧ — كتاب الناس — باب الجعد ، ومسلم ٨١٩ / ٤ — كتاب الفضائل ، باب في صفة النبي ﷺ " .


(٥) صحيح البخاري — كتاب الفضائل — باب كان النبي ﷺ " أبيض مليح الوجه ج ٦ ص ٢٨ .

(٦) صحيح البخاري — كتاب الفضائل — باب صفة فم النبي ﷺ " وعينه وعقيدته ج ٦ ص ٢٨ .

أما شعره فليس بالجعد القلط ، ولا بالسبط ، بل كان رجلاً ^(١) .
 كان له جهة عظيمة تصل إلى شحمة أذنيه وأحياناً تضرب منكبيه وأحياناً
 ثلاثة تكون بين أذنيه وعاتقه ، كما كان "  " كثير شعر اللحية ^(٢) .
 وإذا كان البياض في شعره قد شمل العنفة ، والصدغين ، وفي الرأس نبذ ، فلم
 يكن ذلك البياض كله يبلغ عشرين شعرة ^(٣) .
 أما الحمرة في بعض شعره فكانت من آثار الطيب ^(٤) .
 وكان أبيض اللون ، ولكنه لم يكن بالأبيض الأمهق ، ولا بالآدم ، وإنما كان أزهر اللون ^(٥) .
 ولم يكن "  " بالطويل البائن ، ولا بالقصير ، بل كان مربوعاً ، وكان مقصداً ^(٦) .
 وكان "  " بعيد ما بين المنكبين ، وكان ضخم اليدين والقدمين ، وبسط
 الكفين ، وكان لين الكف ، حتى قال أنس : ما مسست خنزة ولا حريرة ألين

^(١) صحيح البخاري — كتاب اللباس — باب الجعد ج ٩ ص ١٩١ ، ومسلم ج ١٥ ص ٩٢ ، كتاب الفضائل
 — باب في صفة النبي "  " ومبعثه وسنته ومعني (رجل) أي لم يكن شديد العودة ، ولا البسوط ، بل بينهما
 (النهاية ج ٦ ص ٢٠٣) .

^(٢) صحيح البخاري — كتاب اللباس — باب الجعد ج ٩ ص ١٩١ رواية البراء ، وابن عمر ، وأنس " رضي الله
 عنهم " ، وصحيح مسلم ج ١٥ ص ٩٢ — كتاب الفضائل .

^(٣) صحيح مسلم ج ١٥ ص ٩٥ ، ٩٦ — باب شبة "  " ، صحيح البخاري — كتاب المناقب — باب صفة
 النبي "  " ج ٩ ص ٢٩ — ط ، الأوقاف ، العنفة : هي ما تحت الشفة السفلى .

^(٤) صحيح البخاري ج ٦ ص ٢٧ — ط ، الأوقاف .

^(٥) صحيح البخاري — كتاب اللباس — باب الجعد ج ٩ ص ١٩٠ .

^(٦) المراجع السابق ص ١٩٠ ، ١٩١ ، قال في النهاية : كان أبيض مقصداً ، هو الذي ليس بطويل ، ولا قصير ،
 ولا حسيم ، كأن خلقه في به القصد من الأمور ، والمعتدل الذي لا يميل إلى أحد طرفي التفريط والإفراط (
 النهاية في غريب الحديث والأثر ج ٤ ص ٦٧) .

من كف رسول الله ﷺ " (١) ، وكان منهوس العقبين (٢) .

يروى الترمذي بسنده عن الحسن بن علي " ﷺ " أنه قال : سألت علي هند ابن أبي هالة ، وكان وصافاً ، عن حلية رسول الله ﷺ " فقال : كان رسول الله ﷺ " فحماً مفحماً (٣) يتلألاً وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربع وأقصر من المشذب (٤) ، عظيم الهامة (٥) ، رجل الشعر (٦) ، إذا انفردت عقيقته فرقها وإلا فلا (٧) ، يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفرد (٨) ، أزهر اللون (٩) وساع الجبين (١٠) ، أزج الخواجب (١١) ، سوابغ في غير قرن (١٢) ، بينهما عرق يسد الغضب (١٣) ، أقنى العرنيين (١٤) ، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم (١٥) .

(١) صحيح البخاري ج ٩ ص ٢٩٢ .

(٢) مسلم ج ٤ ص ١٨٢٠ ، وقد فسر أحد رواة الحديث (منهوس العقبين) فقال : قليل لحم العقبتين .

(٣) أي عظيم في نفسه ، معظماً في العصور والعيون عند كل من رآه " ﷺ " .

(٤) الشربة والمربع : هو الوسط بين القصير والطويل على حد سواء ، والمشذب : هو الطويل الثاني الطول ، والمربع أطول من المربع عند إتمام النظر ، وأما في بادئ النظر يرى ربة .

(٥) الهامة : بتخفيف الهم هي الرأس ، وعظم الرأس المناسب مع الجسم : دليل قوة العقل والقدرة .

(٦) أي في شعره " ﷺ " شئ من الجعونة .

(٧) المراد بالتحفة هنا : شعر الرأس ، والمعنى : أن شعر رأسه الشريف " ﷺ " إن قبل أن يفرق بسهولة فرقه ، أي : جعل شعره نصفاً عن الشئ وتصفياً عن الشئ ، وإلا بأن لم يفرق : فلا : أي : فلا يفرق شعره بل يتركه على حاله .

(٨) أي : إذا جعل شعره واحداً وأعفاه من الفرق " ﷺ " .

(٩) أي : هو " ﷺ " أبيض اللون بياضاً نيراً مشرباً بحمرة .

(١٠) أي : واضح الجبين وممتد طويلاً وعرضاً ، وهو معني رواية : صلت الجبين ، وعظم الجبهة .

(١١) المرجح : تقوس في الخواجب مع طول من طرفه ، ويلزم من ذلك دقة الخواجب وسوغلها .

(١٢) القرن : بالتحريك - هو : اقتران الخواجب ، واتقاء أطرافهما ، وهو من المنح ، والمعنى : أن حاجبيه " ﷺ " لم يتصلا ببعضهما ، ولو اتصلا ، وأما ما ورد في حديث أم معبد " كان أزج قرن " فالمراد كان كذلك فيما يبدو للناظر من بعيد ومن غير تأمل ، وأما القريب المتأمل : لا يلاحظ " ﷺ " أبداً في الواقع .

(١٣) أي : بين حاجبيه " ﷺ " عرق إذا غضب تحرك وظهر جلياً .

(١٤) قال العلامة المناوي في شرح الشمال : أقنى : من القنا ، وهو ارتفاع أعلي الأنف وإحداد الوسط .

(١٥) أي : للعرنيين - وهو ما صلب من عظم الأنف - نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشم : من الشم ، وهو ارتفاع قبة الأنف ، مع ارتفاع أعلاه وإشراف الأربعة .

كث اللحية ^(١) ، سهل الخدين ^(٢) ، ضليع القم ^(٣) ، مفلج الأسنان ^(٤) ،
 دقيق المسربة ^(٥) ، كأن عنقة جيد دمية في صفاء الفضة ^(٦) ، معتدل الخلق ^(٧) ،
 بادن ، متماسك ^(٨) ، سواء البطن والصدر ^(٩) ، عريض الصدر بعيد ما بين
 المنكبين ، ضخيم الكراديس ^(١٠) .
 أنور المتجرد ^(١١) ، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط ^(١٢) ، عاري
 الثديين والبطن مما سوي ذلك ^(١٣) ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر ^(١٤)
 طويل الزندين ، رحب الراحة ^(١٥) ، شثن الكفين والقدمين ^(١٦) ، سائل الأطراف
 أو قال : سائل الأطراف ^(١٧) .

^(١) أي : عظم اللحية " **لَحْيَةٌ** " .

^(٢) أي : غير مرتفع الخدين ، وهو أكمل وأجل .

^(٣) أي : عظم القم ، وليس بضيق القم ، فإن صفة القم تعني لصاحبه في الكلام ، وبیاناً فخرج الألفاظ ، ولا شك أن جمع ذلك على تناسب
 كامل من أعف ، حسنة الشريف كلها " **لَحْيَةٌ** " .

^(٤) يعني : أن أسنانه الشريفة " **لَحْيَةٌ** " منتظمة ومتفرجة ، وليست مترابطة ومضاربة فوق بعضها .

^(٥) المسربة : هي الشعر بين الصدر والسرة ، والمعنى : أن تلك المسربة دقيقة .

^(٦) المسبة : هو العنق ، والمراد : كأن عنقه " **لَحْيَةٌ** " في استوائه واعتداله وحسن هيئته وجماله ، كأنه عنق صورة ، ولكن من حيث اللون هو في
 صفاء الفضة وبياضها البهيج اللامع .

^(٧) يعني : أن جمع أعضاء جسده الشريفة " **لَحْيَةٌ** " خلقها الله تعالى كاملة متناسبة مع بعضها غير متنافرة .

^(٨) والمعنى : أنه " **لَحْيَةٌ** " ممتلئ بجسم ، ليس بفاصل ولا بالخرق ، وأن أعضاءه الشريفة متماسكة بقواها ، وليست متراخية .

^(٩) والمعنى : أن بطنه وصدرة الشريقتين مسويان ، لا يبدأ أحدهما عن الآخر .

^(١٠) الكراديس جمع كرادوس ، وهو رأس العظام ومجموعها ، كالركبة والمنكب والحوما ، والمعنى : أنه " **لَحْيَةٌ** " كان عظيم رؤوس العظام ومجاوياً
 لقومها ، وبدل ذلك على كمال قواه " **لَحْيَةٌ** " .

^(١١) يعني : أنه " **لَحْيَةٌ** " أنور العصور لا متجرد عن الثوب وخديده بياضه .

^(١٢) اللبة : هي الثمرة فوق الصدر ، والسرة ما بقي بعد التقطع ، وأما الذي يقطع عند الولادة فهو السر .

^(١٣) أي : عالي الثديين والبطن من الشعر .

^(١٤) أي : كثير شعر هذه المواضع الثلاثة .

^(١٥) أي : واسع الكعب .

^(١٦) أي : ضخيم الكفين والقدمين ، كما جاء في رواية ، والمعنى : أنه " **لَحْيَةٌ** " ممتلئ الكفين والقدمين ، وليس بالضعيف الضعيف .

^(١٧) أي : سائل الأطراف ، والمعنى : أنه " **لَحْيَةٌ** " كان مرتفع الأطراف بلا انحذاب ولا انحداب .

حصان الأخصين ^(١) ، مسيح القدمين ينو عنهما الماء ^(٢) ، إذا زال زال قلعا ^(٣) ،
 يخطو تكفيا ^(٤) ويمشي هونا ^(٥) ، ذريع المشية ^(٦) ، إذا مشي كأنما ينحط
 من صيب ^(٧) ، وإذا انتفت التفت جميعا ^(٨) .
 خافض الطرف ^(٩) ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ^(١٠) ،
 جل نظره الملاحظة ^(١١) .
 يسوق أصحابه ^(١٢) ، ويبدد من لقي بالسلام ^(١٣) .

- ^(١) تشبه الأخص ، وأخص القدم هو الموضع الذي لا تمس الأرض عند وطئها من وسط القدم ، ومعنى حصان الأخصين : أنه لا يمشي شديدا يخاف الأخصين عن الأرض ، لكن علي وجه لا يرجعه عن حد الاعتدال والجمال .
^(٢) أي : أناس القدمين ومستويهما فلا تكسر ، وإنما يك ينو عنهما الماء أي يتعاهد عنهما ماء ، يعني أنه " ﷺ " إذا فسد عليه من من سرجا ، لأهنا مستويتان .
^(٣) يعني : أنه " ﷺ " إذا مشي رفع رجله بقوة ، كأنه يقطع شيئا ، ولا يجرها على الأرض ، لا يمشي مشية المعتدل الذي يتأرجح على قنطرة .
^(٤) يمشي مائلا إلى سائر المشي ، وهو ما بين يديه .
^(٥) الطول : الرق واللين ، والمعنى : أنه " ﷺ " كان إذا مشي يرفع رجله عن الأرض بقوة ، كما في قوله ابن أبي عمير : إذا زال قلعا ، وإذا وضعهما على الأرض وضعهما برفق وتؤدة ، وهذا معنى : يمشي هونا ، فهو يمشي إلى كيفية وضع رجله على الأرض وأنه " ﷺ " يمشي يسكينة ووقار ، وحلم وأناة ، دون أن يصيرت برجله الأرض ، أو أن يخفق بقلعه ، وقد أثنى الله تعالى على النبي عشرين مرة المشية ، وسلكوا هذه الحظوة ، فقالوا : وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبتهم الجاهلون قالوا سلاما .
^(٦) أي : واسع الخطوة حلقه فلا تكاف .
^(٧) أي : كأنه ينزل في موضع منحدر .
^(٨) أي : لا يسرف النظر ، ولا يلوي عنقه عنه ولا يسره ، كما يفعل ذلك الطائفة الخفيفة .
^(٩) المراد بالطرف هنا : العين ، والمعنى : أنه " ﷺ " إذا لم ينظر إلى شيء ، يخفض بصره ، وهذا شأن السائل المتكبر .
^(١٠) والمعنى : أن نظره " ﷺ " إلى الأرض حال السكوت وعدم التحدث ، أطول من نظره إلى السماء ، وأما في حال التحدث والتكلم ينظر إلى السماء ، وكما ورد في سنن أبي داود أنه " ﷺ " كان إذا جلس يتحدث ، يكثر أن يرفع طرفه إلى السماء .
^(١١) قال العلامة المشايخ في شرحه : والمراد أن أكثر نظره " ﷺ " في غير أوان الخطاب الملاحظة ، والملاحظة : هي النظر بحدائق العين وهو شيء العين لما يلي الصدغ ، وأما الذي يلي الأنف فالنوق والمناق .
^(١٢) والمعنى : أنه " ﷺ " يقدم أصحابه دون يديه ويمشي خلفهم ليرعاهم ويحتمل حالهم ، ويعين ضعفانهم ، وليرك نظره للملائكة خلفه ، كما روي الترمذي بإسناد صحيح أنه " ﷺ " قال : (من جئوا طهروا للملائكة) وأخرج الإمام أحمد عن جابر " ﷺ " قال : إذا كان أصحاب النبي " ﷺ " يمشون أمامه ويدعون نظره للملائكة كذا في جميع الوسائل .
 قال الإمام النووي : وإذا تقدمهم — أي تقدم أصحابه في قصة جابر يوم الخندق — لأنه " ﷺ " دعاهم إلى الجاهل والوالة له ، كصاحب العلم إذا دعا جماعة يمشي أمامهم .
^(١٣) وفي رواية : ويبدأ ، والمعنى : أنه " ﷺ " يبادره ويسبق من لقاه من أنه تسليم التحية .

٢. عظمة الخلق :

كما أنصف " ﷺ " بجمال الخلقة أنصف بعظمة الخلق ، يصفه أنس بن مالك " ﷺ " فيقول : خدمت النبي " ﷺ " عشر سنين فما قال لي : أف قط ! ! ولا لم صنعت كذا ؟ ، ولا ألا صنعت كذا ؟ ^(١) .

وهذه الخدمة والملازمة من أنس للنبي " ﷺ " لم تكن في الحضر وحده ، أو في السفر وحده ، وإنما كانت — كما يقول أنس — في الحضر والسفر ^(٢) .

ولم يكن هذا الخلق الحسن قصراً على خدمه ، وإنما كان هذا ديدنه مع كل من كان يأتي إليه ، ويتعامل معه ، فكان مثلاً للصبر ، والحلم ، والرفق ، وتعليم الجاهل ، وهذه نماذج منها : —

عن أنس قال : كنت أمشي مع النبي " ﷺ " وعليه برد نحراي غليظ الحاشية فأدركه أعرابي ، فجذبه بردائه جذبة شديدة ، قال أنس : فنظرت إلى صفحة عاتق النبي " ﷺ " ، قد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبه ، ثم قال : يا محمد ، مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعتاء ^(٣) ! ! .

وجاء أعرابي ، ورسول الله " ﷺ " وأصحابه في المسجد ، فقام يقول في المسجد ، فزجره الصحابة (مه مه) فنهاهم عن ذلك ، وقال : (لا تزرموه ، دعوه) فتركوه حتى بال .

ثم دعاه النبي " ﷺ " ، فقال له : إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ، ولا القذر ، إنما هي لذكر الله عز وجل ، والصلاة ، وقراءة القرآن ، ثم دعا بدلو من ماء فشنه عليه ^(٤) .

^(١) صحيح مسلم — كتاب الفضائل — باب حسن الخلق والسخاء ج ١٥ ص ٦٩ .

^(٢) صحيح مسلم — كتاب الفضائل — باب حسن خلقه " ﷺ " ج ١٥ ص ٧٠ .

^(٣) صحيح البخاري — كتاب فرض الخمس — باب ما كان النبي " ﷺ " يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ج ٥ ص ٢٢٤ .

^(٤) صحيح مسلم — كتاب الطهارة — باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد ج ٣ ص ١٩٠ وم .

اسم فعل يعني إبتدأ ، لا تزرمون : أي لا تقطعوه ، وشنه أي صبّه .

وجاء في إحدى روايات البخاري في آخرها : (.. فإنما بعثتم ميسرين)^(١) .

وعن أنس قال : كان رسول الله ﷺ " من أحسن الناس خلقاً فأرسلني يوماً لحاجة ، فقلت : والله لا أذهب ، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ ، فخرجت من طريق حتى أمرت علي صبيان وهم يلعبون في السوق ، فإذا رسول الله ﷺ " قد قبض بقفاي من ورائي ، فنظرت إليه وهو يضحك .
فقال : يا أنيس ! أذهبت حيث أمرتك ؟ .
قلت : نعم أنا أذهب يا رسول الله ﷺ^(٢) .

وهذا الصبر والرفق بزينته التواضع في خلقه ، والمزاح — أحياناً — مع أصحابه ، فالأمة من إماء المدينة كانت تأخذ بيد النبي ﷺ " ، فتطلق به حيث شاءت^(٣) ، والقاصد إليه في بيته لا يجد على بابه بوابين^(٤) .

أما مزاحه " ﷺ " ، فكان تسرية لأصحابه عند همومهم أحياناً ، ومداخلة لأطفالهم أحياناً أخرى ، إلى غير ذلك من مقاصده الحميدة في هذا المزاح ، ونذكر كمثال علي ذلك موقفه مع علي — " ﷺ " حينما غاضب زوجته فاطمة " رضي الله عنها " فخرج علي " ﷺ " فاضطجع إلى جدار المسجد ، فتبعه النبي " ﷺ " ، فإذا هو مضطجع ، وقد امتلاً ظهره تراباً ، فجعل النبي " ﷺ " يمسح التراب عن ظهره ، ويقول : (اجلس يا أبا تراب)^(٥) .

ويقول أنس " ﷺ " : إن كان النبي " ﷺ " ليخالطنا حتى يقول لأخ صغير

^(١) صحيح البخاري — كتاب الوضوء — باب صب الماء علي البول في المسجد، ج ١ ص ١٦٤ .

^(٢) صحيح مسلم — كتاب الفضائل — باب حسن خلقه " ﷺ " ج ١٥ ص ٧٠ ، ٧١ .

^(٣) صحيح البخاري — كتاب الأدب — باب الكبر ج ٩ ص ٢٤٣ .

^(٤) صحيح البخاري — كتاب الأحكام — باب ما ذكر أن النبي " ﷺ " لم يكن له بواب .

^(٥) البخاري — كتاب الأدب — باب التكني بأبي تراب ، وإن كانت له كنية أخرى ج ١٠ ص ٣٨ .

لي إذا رآه : (يا أبا عمير : ما فعل النغير ؟)^(١) .

وإلى جانب صفاته في الرفق ، والتواضع ، والمزاح ، فهو موصوف بالشجاعة في السلم والحرب ، وشجاعته " ﷺ " في الحرب معروفة ، أما في السلم فنذكر منها قصة الفرع الذي أصاب أهل المدينة ذات ليلة ، فخرجوا نحو الصوت فإذا رسول الله " ﷺ " قد سبقهم إليه ، وتلقاهم راجعاً ، وهو على فرس لأبي طلحة عري ، وفي عنقه السيف ، وهو يهدئ نائرتهم ويقول : (لم تراعوا ، لم تراعوا ما رأينا من شيء)^(٢) وكان من خلقه " ﷺ " حسن التعامل ، وحسن القضاء ، فقد استقرض من رجل سناً من الإبل ، فجاءه يتقاضاه ، فقال : (أعطوه) ، فطلبوا سنه ، فلم يجدوا له إلا سناً فوقها ، فقال : (أعطوه) ، حتى قال الرجل : أوفيتني أوفى الله بك ، ثم قال " ﷺ " : (إن خياركم أحسنكم قضاء)^(٣) .

وفي رواية : إن ذلك لرجل أغلظ للنبي " ﷺ " القول ، فهم به أصحابه فقال لهم : (إن لأصحاب الحق مقالاً) ، ثم قال لهم : (اشترُوا له سناً ، فأعطوه إياه فقالوا : إنا لا نجد إلا سناً هو خير من سنه ، قال : (اشتروه وأعطوه إياه ، فإن خيركم أحسنكم قضاء)^(٤) .

ومن صفاته : الجود ، والكرم ، فهو أجود الناس^(٥) ، وما مثل رسول الله " ﷺ " شيئاً قط ، فقال لا^(٦) ، ولهذا غضب الصحابة " رضوان الله عليهم " من ذلك الرجل الذي طلب من النبي " ﷺ " أن يكسوه البردة التي أهدتها إليه امرأة

^(١) صحيح البخاري — كتاب الأدب — باب الانسباط إلى الناس — وباب الكنية للصبي ، وقيل أن بولد للرجل ج ١ ص ٩ ، والنغير : تصغير نغر ، وهو طائر صغير كالعصفور .

^(٢) صحيح البخاري — كتاب الجهاد والسير — باب الحسائل وتعليق السيف بالعنق ، ج ٥ ص ٩٩ .

^(٣) صحيح البخاري — كتاب الوكالة — باب وكالة الشاهد والغائب جائزة ج ٤ ص ١٤٠ .

^(٤) صحيح البخاري — كتاب الاستقراض — باب لصاحب الحق مقال ج ٤ ص ١٠٠ .

^(٥) صحيح البخاري — كتاب الوحي — باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله " ﷺ " ج ١ ص ١١ .

^(٦) صحيح البخاري ج ٤ ص ٢٩ .

وكانت قد نسجتها بيدها ، وكان " ﷺ " محتاجاً إليها ، ومع ذلك طواها وأرسلها إليه ، فقال له الصحابة : ما أحسنت ، سألتها إياه ، وقد علمت أنه لا يرد سائلاً (١) .
وهذه الجود والكرم منه " ﷺ " كان سبباً في دخول أقوام في دين الله ، ومن ذلك : قصته مع الرجل الذي جاءه يسأله ، فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم ، أسلموا ، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر (٢) .
ولهذا قال أنس : إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها ! ! (٣) .

بل لقد كان هذا الجود منه " ﷺ " مثار عجب ، وسبب مودة ، حتى لأعدائه ، يقول صفوان بن أمية بعد أن أعطاه النبي " ﷺ " مائة من النعم ، ثم مائة من غنائم حنين : والله لقد أعطاني رسول الله " ﷺ " ما أعطاني ، وإنه لأبغض الناس إلي فما برح يعطيني ، حتى إنه لأحب الناس إلي ! ! (٤) .

ولفرط جوده " ﷺ " ، ومعرفة الناس به علفت الأعراب — منصرفه من حنين — يسألونه حتى اضطروه إلى سمره فخطفت ردائه ، فوقف وقال : (أعطوني ردائي ، فلو كان عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم ، ثم لا تجلدوني بخيلاً ، ولا كذباً ، ولا جباناً) (٥) .

وقال عمر " رضي الله عنه " : قسم رسول الله " ﷺ " قسماً ، فقلت : والله يا رسول الله لغير هؤلاء كان أحق به منهم ، قال : (إنكم خيروني أن يسألوني بالفحش ، أو يجلدوني ، فليست يباخل) (٦) .

(١) صحيح البخاري — كتاب البيوع — باب ذكر النساء ج ٤ ص ٢٩ .

(٢) صحيح مسلم — كتاب الفضائل — باب في سخائه " ﷺ " ج ١٥ ص ٧٢ .

(٣) صحيح مسلم — كتاب الفضائل ج ١٥ ص ٧٢ .

(٤) صحيح مسلم — كتاب الفضائل — باب سخائه " ﷺ " ج ١٥ ص ٧٣ .

(٥) صحيح البخاري كتاب الجهاد — باب ما كان يعطي المؤلف ج ٥ ص ٢٣٤ .

(٦) صحيح مسلم — كتاب الزكاة — باب إعطاء المؤلف ج ٧ ص ١٤٦ .

و لم يقتصر ذلك الجود على المؤلفة قلوبهم ، ومن يطمع في إسلامهم ، بل شل
 حدوده وكرمه صحابته المؤمنين ، فعبد الله بن عمر " ﷺ " كان مع النبي " ﷺ " في
 سفر ، وكان على بكر صعب لأبيه (عمر) ، وكان هذا البكر يغلب عبد الله ،
 فيتقدم أمام القوم ، فيزجره عمر ، ويرده ، ثم يتقدم فيزجره عمر ، ويرده ، فقال النبي
 " ﷺ " لعمر : (بعنيه) ، فقال : هو لك يا رسول الله (أى هبة) ، قال رسول الله
 " ﷺ " : بعنيه ، فباعه من رسول الله " ﷺ " ، فقال " ﷺ " : (هو لك يا عبد الله بن
 عمر ، تصنع به ما شئت) ! ! ^(١) .

وجابر بن عبد الله " ﷺ " يكون مع النبي " ﷺ " في غزاة ن ومعه جمل يقال
 قد أعيا به ، وخلفه في أنحريات القوم ، حتى زجره النبي " ﷺ " ، فأسرع به ، فطلب
 منه بيعه عليه فقال : هو لك يا رسول الله ، قال : (بعنيه) فاشتراه منه ، وقال
 : (لك ظهره إلى المدينة) ، فلما قدم المدينة أوصى بالآل أن يقضيه ، ويزيد له عن
 ثمنه ، ثم رد عليه جملة والشم ^(٢) ! ! .

وفوق ما تقدم من كريم خلقه " ﷺ " ، فلم يكن بفظ ، ولا غليظ ،
 ولا سخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ، ويصفح ^(٣) .
 ولم يكن " ﷺ " سباباً ، ولا فحاشاً ، ولا لعاناً ^(٤) ، وهو القائل لعائشة
 " رضي الله عنها " : (يا عائشة ، متي عهدتي فحاشاً) ؟ ! ^(٥) .

وهو الموصوف بالتوراة ببعض صفته في القرآن : (يا أيها النبي إنا أرسلناك
 شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل —

^(١) صحيح البخاري — كتاب البيوع — باب إذا اشترى شيئاً فوهب من ساعته قبل أن يتفرقا — ج ٤ ص ٤١ ،

^(٢) صحيح البخاري — كتاب البيوع — باب شراء الثوب والخمر ج ٤ ص ٣٢ ، ٣٣ .

^(٣) صحيح البخاري — كتاب البيوع — باب كراهة السحب في السوق ج ٤ ص ٤٦ .

^(٤) صحيح البخاري — كتاب الأدب — باب لم يكن النبي " ﷺ " فاحشاً ولا متفحشاً ج ٩ ص ٢٢٨ .

^(٥) صحيح البخاري — كتاب الأدب — باب لم يكن فاحشاً — ج ٩ ص ٢٢٨ .

ليس بفظ ولا غليظ .. (١) .

وكان الصديق في الحديث خلقاً من أخلاقه " ﷺ " ، عرفه بذلك العام والصديق ، فأمية بن خلف حينما قال له سعد بن معاذ : سمعت محمداً يزعم أنه قاتلك .

قال : إياي ؟

قال : نعم .

قال : والله ما يكذب محمد إذا حدث .

وكذا زوجة أمية لما أعلمها بالخير قالت : فوالله ما يكذب محمد ! ! (٢) .

وأبو سفيان لما سأله هرقل : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ أجاب قائلاً : لا ، وعندها ردّ هرقل ، لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب علي الله (٣) .

ومشركو قريش كانوا يعرفون هذا الخلق للنبي " ﷺ " فحينما صعد الصفا واجتمع إليه الملائكة من بطون قريش قال لهم : (أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي) ؟ قالوا : ما جربنا عليك إلا صدقاً (٤) .

وفي رواية ، قالوا : ما جربنا عليك كذباً (٥) .

ولم يكن من خلقه " ﷺ " الغدر والخيانة ، بل كان من خلقه الأمانة والوفاء بالعهد ، وهذه أيضاً اعترف بها أبو سفيان للنبي " ﷺ " أمام هرقل (٦) .

(١) صحيح البخاري — كتاب البيوع — باب السخب في السوق ج ٤ ص ٤٦ .

(٢) صحيح البخاري — كتاب المناقب — باب علامات النبوة في الإسلام ج ٦ ص ٦٦ .

(٣) صحيح البخاري — كتاب بدء الوحي ج ١ ص ١١ .

(٤) صحيح البخاري — كتاب التفسير — باب ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ج ٧ ص ٣٦٠ .

(٥) صحيح البخاري — كتاب التفسير — باب تبت يدا ج ٨ ص ٩٣ .

(٦) صحيح البخاري باب بدء الوحي ج ١ ص ١١ .

والسَّخَامُ النَّبِيُّ ﷺ " بهذا الخلق جعله يرد أبا بصير ، وأبا جندل عام الحديث ، — مع كرهه والمسلمين لذلك — لأنه عاهد قريشاً علي رد من يأتي إليه منهم ^(١) .

٤ . حلاوة المنطق :

تميز " ﷺ " بحسن اللفظ ، وجمال المنطق وحلاوة الحديث ، يقول أبو هالة كان رسول الله " ﷺ " متواصل الأحران ^(٢) ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ^(٣) طويل السكوت ، لا يتكلم في غير حاجة ^(٤) ، يفتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى ^(٥) ويتكلم بجوامع الكلم ^(٦) ، كلامه فصل لا فضول ولا تقصير ^(٧) ، ليس بالجافي ولا المهين ^(٨) ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يذم ذواقاً ، ولا يمدحه ^(٩) ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدى الحق ^(١٠) ، لم يقم

^(١) صحيح البخاري — كتاب الصلح — باب الصلح مع المشركين ج ٤ ص ٤٠١ .

^(٢) لم يكن حزينه " ﷺ " من أجل أمور الدنيا ، وإنما كانت تنوارد الأحران لأسباب متعددة : ترجع إلى دين الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى ، ولما كانت الآيات تزل في تسليته " ﷺ " وتخفيف شدة الأسى عنه .

^(٣) والمعنى : أنه " ﷺ " كان دائم التفكير في أمور الأمة وما يصلح شؤونهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة ، ومن ثم لم يست له راحة .

^(٤) يعني : أنه " ﷺ " كان طويل الصمت ، لا يتكلم إلا في حاجة دمية أو دنيوية ، فيحترز عن الكلام الذي لا فائدة منه ، لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِفَافٍ مَعْرُضُونَ ﴾ .

^(٥) والمعنى : أن كلامه " ﷺ " كان عفوياً بذكر الله تعالى بدءاً وانتهاءً .

^(٦) أي : بكلمات قليلة الحروف ، جامعة لمعان كثيرة .

^(٧) يعني : أن كلامه " ﷺ " فاصل بين الحق والباطل ، ومفصل لا يتداخل في بعضه ، بحيث يلقاه السامع بوضوح دون التباس ، لا يكثر فيمل ، ولا يقصر فيخل .

^(٨) أي : ليس هو " ﷺ " بالجافي الغليظ الطبع ، السيئ الخلق ، ولا بالمهين لخلق الله تعالى ، ولا بالمهين لأي : ليعدل التباين : بل هو الضخم ، المضم ، الموقر ، المعظم " ﷺ " .

^(٩) فهو " ﷺ " يعظم نعم الله تعالى الكبيرة والصغيرة ، الظاهرة والباطنة ، ولا يذم منها شيئاً ، كما وأنه " ﷺ " لا يمدح ذواقاً — أي مدوحاً — من المأكولات أو المشروبات التي أباحها الله تعالى ، لأن في الذم كفران النعمة ، وهو شأن أشرف المذكرين ، كما وأنه " ﷺ " لا يمدح ذواقاً ، لأن ذلك شأن ذوى الشر والنهمة المذمومة .

^(١٠) أي : فإذا تعدى أحد الحق وجاوزه إلى الباطل ، غضب " ﷺ " غضباً لا يقاومه شيء ، ولا يدفع غضبه شيء حتى يتصور الحق بالحق .

لغضبه شيء حتى يتصرف له ، ولا يغضب لنفسه ، ولا يتصرف لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ^(١) ، وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إمامه اليسرى ^(٢) .

وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غص طرفه ^(٣) ، حل ضحكته النسيم يفتر عن مثل حب الغمام ^(٤) .

هـ. كمال العقل : لما بلغ النبي ﷺ " من الأربعين ثميز بكمال العقل ، وحسن تقدير الأمور ، واتخاذ القرار السديد ، ولعل فيما حياه الله به من عمل وترحال ، وأحداث وأحوال ، أثرا في تكامل عقله " ﷺ .

ومما يدل على هذا الكمال قراره يوم بناء الكعبة ، إذ حكم بين الذين اختلفوا فيمن يرفع الحجر الأسود ويضعه في موضعه حكماً أَرْضَاهُمْ جميعاً مع بساطته ، ويسره . ومن رجاحة عقله " ﷺ " أنه تمكن من التعامل مع كافة طبقات الناس وأنواعهم ، وأجناسهم ، في البيئات المختلفة ، فأقروا له جميعاً بكمال عقله ، وبيروا خلقه .

^(١) والمعنى : أنه " ﷺ " كان إذا أشار إلى شيء : إنسان أو غيره ، أشار بكفه كلها ، ولا يقتصر على الإشارة ببعض الأصابع ، لأنه شأن المتكبرين والمختصين لغرضهم ، وإذا تعجب " ﷺ " من أمر ، قلب كفه ، كما هو شأن كل متعجب .

^(٢) يعني أنه " ﷺ " إذا تحدث اتصل حديثه بكفه اليمنى ، وذلك لتأكيد الكلام وتقويته في النفوس ، وزيادة إيضاحه بإشارات الكف ، وضرب براحته اليمنى بطن إمامه اليسرى ، اعتناءً بذلك الحديث ، ودفعاً لما يهاجر لنفس السامع من الفتور أو الغفلة عن الحديث .

^(٣) أي إذا غضب من أحد أعرض عنه ، فلا يقابله بما يقتضيه الغضب ، امتثالاً لقوله تعالى ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ وأشاح : أي بالغ في الإعراض وعدل عنه بوجهه " ﷺ " وإذا فرح " ﷺ " من شيء ، غص طرفه ، ولا ينظر ولا ينظر غيره وحرص .

^(٤) أي : معظم ضحكته " ﷺ " إنما هو النسيم ، ويفتر : أي يضحك ضحكاً حسناً كاشفاً عن من مثل حب الغمام في البياض والصفاء ، وحب الغمام هو البرد — يفتحون — الذي يشبه اللؤلؤ ، فكان " ﷺ " إذا نسم بدت أسنانه الشريفة كاللؤلؤ اللامع .

وكان " ﷺ " صاحب دين ومبدأ لم يفعل شيئاً هي الله عنه فيما بعد أبداً ،
ولم يترك شيئاً أمر به .

ولو تأملنا سائر أعماله " ﷺ " قبل النبوة وبعدها ، نرى كل واحدة منها
تشهد بكمال العقل ، وحسن التقدير ،
وبإتصاف محمد " ﷺ " بهذه الصفات التي أكرمها الله بها ، صار مؤهلاً ليكون
رسولاً للناس أجمعين ..

ـ خامسا ـ

تحيب الخلاء

أحمد " ﷺ "

لم تغب ذكريات الماضي عن فكر محمد " ﷺ " ، بل كان يحتزها في باطنه ،
ويعقل عنها لانشغاله بأعماله ، وأسفاره ، فلما تزوج خديجة " رضي الله عنها " ،
ورفع الله تعالى عن كاهله عناء الفقر ، ومستوليات المعاش ، بدأ يعيش حياة الراحة
الهادئة ، والطمأنينة السعيدة ، ويستعد للمستوليات الجسام .

ومن خصائص النفس أنها تكون مشغولة مع صاحبها دائماً ، فهي مع
مستولياته ، وقضاياه ... فإن استراح وسكن ، وخلا من المهام شغلته هي بما يحركها
ويشغلها .

إن النفس البشرية قادرة على التذكر ، والتخيل ، والتفكير ، وهي في
حركتها لا تعرف حدود الزمان ، والمكان ، ولا توقفها حواجز السلطة ، والطقان
ويساعدها في حركتها الدائمة السريعة ما يأتيها من عالم الشعور ، وعالم اللاشعور .
وعلماء التربية يرشدون إلى ضرورة إشغال النفس بالحق وتوجيهها نحو النافع
المفيد ، وذلك بإيجاد حيز من الدوافع التي تدفع النفس نحو فكر معين مقصود .
لقد بدأ الماضي يعاود محمداً بعد زواجه من خديجة ، وأخذت الذكريات
تتحرك أمامه ، وتشغل فكره ، وتدعوه إلى التأمل فيها ، وفيما وراءها .

لقد عاش في ديار بني سعد ، وشق صدره .. ورعى الغنم ، وعاش الرعاة ،
وعاش الخلاء ، وسمع كلام الأحبار ، والرهبان ، والكهان ، وسافر للمدينة والشام
وباع ، واشترى .

وقابل أشتاتاً من الناس ، وسمع ألواناً عديدة من الأفكار والمذاهب ،
والأديان .

ورأي في مكة بعض الخفاء ينكرون علي العرب ما هم فيه من بعد عن
 دين إبراهيم " الطهارة " ، لقد عاش " ﷺ " حياة عملية ممتلئة بالحوادث ،
 والاتجاهات ، وقد عادت نفسه لذلك كله ، وتذكره عقله " ﷺ " في تحليل نظري ،
 وتأمل فكري للوصول إلى شيء من أسرار ذلك كله .

والخلوة ، والبعد عن الناس من الأمور غير المحببة في حياة البشر لأن
 الإنسان مدني بطبعه ، يحب الأُنس ، ويعشق ملاقات الآخرين ، ويجب التعامل
 والسمر معهم ، وما سمي الإنسان إنساناً إلا لوجود هذا الطبع فيه .

والخلاء مع هذا عامل تربوي ، يعلم الصمت والسكون ، ويدفع إلى التأمل
 والتفكير ، ويساعد علي الطهارة والسمو ، ولذلك كانت العبادة في جوف الليل من
 عظام الأمور ، وكان قرآن الفجر مشهوداً ، وذلك لمن جعل خلوته لخدمة القيم
 والخلق .

وقد حُب الله لمحمد الخلاء ، فكان يخرج من مكة بعيداً عن الصخب
 والضجيج ، ويمكث وحيداً في غار حراء ، ومعه زاده وعدته ، مدة تضم الليالي
 ذوات العدد ، حيث يقضي شهر رمضان في خلوته ، وانقطاعه عن الناس .

يقول الخطابي : والخلوة يكون معها فراغ القلب ، وهي معينة على الفكر ،
 وقاطعة لدعوى الشغل الفطري ، والبشر لا ينفك عن طباعه ، ولا يترك مألوفه من
 عاداته إلا بالرياضة البليغة ، والمعالجة الشديدة ، فلطف الله تعالى بنبيه محمد " ﷺ " في
 بداية أمره فحبب إليه الخلوة ، وقطعه عن مخالطة البشر ، ليتناسى المألوف من عاداتهم
 ويستمر علي هجران ما لا يحمد من أخلاقهم ، وألزمه شعار التقوى ، وأقامه في مقام
 التعبد بين يديه ، ليخشع قلبه ، وتلين عريكته ، فيجد الوحي منه حين وروده مراداً
 سهلاً ، ولا يصادفه حزناً وعراً ، فجعلت هذه الأسباب مقدمات لما أُرصد له من
 هذا الشأن ليرتاض بها ، ويستعد لما ندب إليه ، ثم جاءه التوفيق والتبشير ، وأخذته

القوة الإلهية ، فحيرت منه النقائص البشرية ، وجمعت له الفضائل النبوية ^(١) .

وقد كان من عادة مفكري أهل مكة أن ينقطعوا عن الناس مدة كلما جد لهم أمر يلجأون خلالها إلى آلهتهم ، وإلى عقلهم بحثاً عن حل لهذا الأمر الذي يشغلهم .

ووجد محمد ﷺ في هذا المسلك طريقاً يعيشه في خلوته ، يلتمس أثناءه

إشباع ما يتمنى الوصول إليه ، ووجد في جبل حراء شمال مكة غاراً يأتيه المكونون

فأحبه ، وأخذ ينقطع فيه وحيداً ، يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، فكان إذا جاء

رمضان يحمل طعامه وشرابه ، ويمكث فيه ، بعيداً عن الضوضاء ، يلتمس

الحق ..

وحراء جبل بأعلي مكة ، على بعد ثلاثة أميال منها ، على يسار المنار إلى

مكة ، ولهذا الجبل قمة مشرفة على الكعبة ، وفي قمة الجبل غار عرف بـ ((غار حراء))

وهو على هيئة حجرة ضيقة ، مستطيلة منحوتة داخل قمة الجبل ، أرضها مسطحة ،

وسقفها مقوس ، والغار مفتوح من جهتيه الشمالية والجنوبية ، ويمكن للجالس فيه أن

يرى الكعبة ، وبخاصة قبل وجود البنايات الحديثة العالية .

إن الخلوة في غار حراء تؤدي إلى القرب من الله ، والنظر إلى الكعبة ، ولذلك كان أهل

مكة يعظمون هذا الغار ، ويقصدونه بين الحين والحين ، ويربطون بينه وبين الكعبة .

وكان ﷺ يطوف بالبيت قبل أن يذهب إلى الخلاء ، وكان أول ما يبدأ به إذا

انصرف من خلوته أن يطوف بالبيت قبل أن يدخل بيته ^(٢) .

إن حياة التأمل والتفكير تعرف الإنسان بنفسه ، وترقق مشاعره ، وتبعده عن

شواغل المادة ، وتجعله يلتمس القوة في غير سائر المخلوقات ، لأن كل مخلوق ضعيف

ومحتاج .

^(١) سبل السبي ، والمؤثر ج ٢ ص ٣١٩ . ^(٢) لم تدرع قريش محمداً في خلوته بغار حراء ، لأن عبد المطلب أوفى من كان بمكة .

إن حبيب النبي ﷺ " في الخلاء تدريب علي تخليه عن الناس ، واتصاله بالمال
الأعالي ، وهو يتلقى وحي الله تعالى ، والذي سوف يتكرر كثيراً ، ويدوم طويلاً .
والخلاء يعلم الإنسان التجرد عن الماديات ، والشهوات المتصلة بها ، وتشعره
بقيمة المعنويات والروحانيات الغائبة عن الخواص .

تقول أم المؤمنين عائشة " رضي الله عنها " : (... ثم حُبب إليه الخلاء ،
وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ،
ويتزوّد لذلك)^(١) وجاء تعبير الحديث بلفظ (حُبب) المبني للمجهول إشارة إلى أن
حُب محمد للخلاء لم يكن من بواعثه البشرية ، وإنما كان من الوحي والإلهام^(٢) .

يقول ابن هشام : كان رسول الله ﷺ " يجاور ذلك الشهر من كل سنة ،
يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله ﷺ " جواره من شهره ذاك ،
كان أول ما يبدأ به ، إذا انصرف من جواره الذهاب إلى الكعبة ، قبل أن يدخل بيته
فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته^(٣) .

وكان ﷺ " يطيل النظر في الكون المحيط به في السماء والنجومها ، وقمرها
وتنجمها ، وأفلاكها ، ومجراتها ، وصورتها في الليل ، وفي النهار ،
ويتأمل الصحراء ساعات هيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللآلئ ،
وساعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعة القمر ، أو أضواء النجوم يلباسها الرطب
البدي .

وينظر في أهل مكة والحياة تشغلهم ، ويتأمل في الآتين لمكة ، وهم يطوفون
بالبيت ، والأصنام أمامهم ! ! ..

كان ﷺ " يتأمل في كل ذلك وفي غيره يلتمس معرفة هذا الوجود ، وما

^(١) صحيح البخاري — كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٢١ .

^(٢) صحيح البخاري علي صحيح البخاري ج ١ ص ٢٢ .

^(٣) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٣٦ .

وراءه من سبب وغاية !!! ..

في هذا الكون المتحرك كان يلتمس الحقيقة العليا ، وكان ابتغاء إدراكها يسمى بنسب ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون ، وليخترق الحجب وصولاً إلى مكنون سره .

ولم يكن في حاجة إلى كثير من التأمل ليرى أن ما يباشره قومه ، من شئون الحياة وما يتقربون به إلى آلهتهم ليس حقاً .

فما هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تخلق ولا ترزق ، ولا تدفع عن أحد غائلة شر تصيبه !

وما هيل ، واللات ، والعزى ؟ !! ..

وكيف تكون آلهة ، وهي مصنوعة بأيديهم ؟ !!

وما كل هذه الأنصاب والأصنام القائمة في جوف الكعبة أو حولها ، إنما تخلق يوماً ذبابة ، ولا جادت مكة بخير !

ولكن !

أين الحق إذا ؟

أين الحق في هذا الكون الفسيح بأرضه ، وسماواته ، وبجوفه ؟

أهو في هذه الكواكب المضيئة التي تبعث إلى الناس النور ، والدفء ، ومن عندها ينحدر ماء المطر ، وتأتي للناس ، ولأهل الأرض كافة من خلائق ، أسباب الحياة من

الماء ، والهواء ، والنور ، والدفء ؟

كلا ! فما هذه الكواكب إلا أفلاك كالأرض سواء .

أهو فيما يتصوره وراء هذه الأفلاك من أثر لا حد له ، ولا نهاية له ؟

ولكن ما الأثر ؟

وما هذه الحياة التي تحيا اليوم فتقضي غداً ، ما أصلها ؟ وما مصدرها ؟ !

أمصادفة تلك التي أوجدت الأرض ؟ ! وأوجدتنا عليها ؟

لكن للأرض وللحياة سنناً ثابتة لا تبدل لها ، ولا يمكن أن تكون المصادفة أساسها .

وما يأتى الناس من خير أو شر ، أفيأتونه طواعية واختياراً ؟ ! ! ، أم هو بعض
سيفتهم ولا سلطان لاختيارهم عليه ؟ ! !

لقد رأى محمد " ﷺ " شاقب فكرة أن عناصر الكون خاضعة لقوة مجهولة
هى أقوى من أن تقهر ، وأسمى من أن تعرف ، وأعلى من أن تتصور ، واحدة هى
بالضرورة لا تعدد ، عالمية ، شاملة .. لأن الوجود كله واحد .

إن عناصر الكون تشغل فكره ، ودهومتها المستمرة تدفعه إلى النظر ، والتدبير
فمسائل نفسه ، ويعاود النظر ، هنا تارة ، وهناك تارة أخرى .

ها هى الشمس ، ترسل أول أشعتها على الحصى المنتثر هنا وهناك ، فتصيره
جواهر تتلألأ ، وأضواء تيرق ، وجمالاً يتساب بين الكائنات ، فيتشغل بها ! ! .

ثم ها هى الشمس فى كبد السماء ، جبارة طاغية ، ترسل بأثواب الضوء
البراقة لتشرها على الأرض فى حسن ، وشمول ، فيأخذها هاؤها ! ! .

وها هى ذى الأرض هامدة ، ساكنة ، مستسلمة ، كحثة لا حياة فيها .. ثم
ماذا ؟ ! ! ..

وها هى أمواج الذهب ترسلها الشمس على الكون عند غروبها ، فى سخاء ،
وهذوء ، وتسحب كأنها تريد أن توحى إليه بالأسف لمغيها بلا استئذان .. وتنتهى ! !

ثم ها هو ذا طوق القمر الباهر ، يشبه طوق الحمامة ، تنسجم فيه ألوان
الطيب السبعة ، ويتألق فى وسطه القمر الذى يزهر بما يصدر عنه من شرر ، يتحول
إلى الآلاف المؤلفة من النجوم ، والكواكب ، ليخلف القمر حتى الصباح ! ! .

وها هى تلك الأعمدة المختالة تنهى بها الرمال ، عند هدوء الجو ، بإقامتها
ثابتة تحت القبة الزرقاء ، حتى إذا ما تارت الأعاصير ، وبعثت بالأتربة من بطون

الوديان قاذفة بما فى هجوم عنيف ، على الغيوم السوداء المفعمة بالبرق ، هكذا بعد
الهدوء ! ! .

وها هي ذي قوافل الغيم ، تشبه الخراف البيض ، تطاردها الرياح حتى
تبعدها عن قمم الجبال ، فتضطر إلى الهجرة قبل أن تسيل عبراتها على مسقط رأسها ،
بلا خيار ، ولا قصد ، ولا معرفة ! ! ..

وها هي تلك العواصف الممطرة تفجر شأبيها الهطالة ، فتصب على الحال
العريانه أثماراً من المياه ، عذبة جارفة ، لها دوى ، ولها زئير .

أمام هذه العناصر الكونية الهائلة ، العاتية ، التي لم تحرؤ قط ، رغم جبروتها
على عدم الخضوع ، ولو شروى نقيير ، للقوانين التي تسيرها والتي فرضتها عليها القوة
السامية العليا .. إن كل عنصر في فلكه يسبح ، وكل عنصر لا يملك إلا الاستسلام ،
والخضوع ... وهكذا رأى الكون في جملته قوياً ، شديداً ، وفي نفس الوقت وجهه
خاشعاً ، ذليلاً .

لشد ما بدا لمحمد من ضعف الإنسانية وهوانها ! ! ..

ولكم بدا له غرور العقل ، وضلاله ! ! ..

ولكم رأى خداع الحس بالمحسوس ، وخيبة الاستدلال بالماديات ! ! ..

أجل ، وكم من سخرية في أن تثق الإنسانية بالمحسوسات ، مع أنها ترى

السراب صورة براقعة من موجات الأثير الفائر ليشهدها بذلك على غرورها المطلق !

في مثل هذه الأمور النفسية وغيرها كان محمد ﷺ يفكر أثناء انقطاعه

وتعبده بغار حراء ، إذ ليس أمامه إلا هذا التدبير .

وكان يتمنى رؤية الحق فيها ، وفي الحياة جميعاً ، وكان تفكيره يملأ نفسه

وفؤاده ، وضميره ، وكل ما في وجوده ، ويشغله لذلك عن هذه الحياة ، وصحبها

ومسائلها فإذا انقضى شهر رمضان عاد إلى خديجة ، وبه من أثر التفكير ما يجعلها

تسأله ، تريد أن تطمئن إلي أنه بخير وعافية .

ولكن ..

بأي نسك كان محمد يتعبد أثناء تحته ذاك ، وعلى أي شرع بذاته كان يعمل ؟

هذا أمر اختلف العلماء فيه ، وقد روى ابن كثير في تاريخه طرفاً من آرائهم في الشرع الذي كان يتعبد عليه .

ف قيل : كان " ﷺ " يتعبد بشرع نوح " عليه السلام " وقيل كان يتعبد بشرع ابراهيم " عليه السلام " .

وقيل : كان يتعبد بشرع موسى " عليه السلام " .

وقيل : كان يتعبد بشرع عيسى " عليه السلام " .

وقيل : كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به .

ولعل هذا القول الأخير أقوم من غيره ، فهو الذي يتفق ، وما شغف محمد به من التأمل ، ومن التفكير ، وما عرف عن غياب الشرائع يومذاك ، حتى أن كثيراً من الخنفاء لم يصلوا إلى شيء رغم ما بذلوا من جهد للوصول إلى دين حقيقي .

واستمر محمد على عادته تلك في حب الخلاء ، والانقطاع له ، ومداومة البحث عن الحقيقة حتى هداه الله إليه بتزول الوحي ، وبدء الرسالة ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ ^(١) .

يذهب المفسرون في بيان المعنى المراد من الضلال إلى معان كثيرة : —

— فهو بمعنى الغفلة عما يراد بك من أمر النبوة .

— وبمعنى عدم معرفة دين وشرع ما ، فهذا الله للإسلام وشريعته .

— وبمعنى في وسط ضلال قومك وكفرهم فهداهم الله بك .

— وبمعنى الخيرة فيما ترى ، فعرفك بالصواب والحق ^(٢) .

وهذه المعاني تلتقي في معنى عام واحد ، وهو أن الرسول " ﷺ " كان يبحث عن طريق الحق والهدى ، وسط قومه الغافلين ، ولم يكن يتصور أن النبوة ستأتيه ،

^(١) سورة القصص آية (٧) .

^(٢) انظر : تفسير القرطبي ج ٢٠ ص ٩٦ ، ٩٧ .

وكثيراً ما أضته الحيرة ، والقلق حتى جاءه جبريل " عليه السلام " فأرشده إلى صراط
المستقيم .

والمعاني تدور مع أحوال محمد " ﷺ " قبل المبعث ، ومع مجته الدروب
الحقيقة التي هداه الله إليها ، وعرفه بها ، فكانت الرسالة والبعثة .

* * *

المبحث العاشر

بدايات الوحي

وبلغ محمد " ﷺ " سن الأربعين ، وكمل في ذاته ، وأصبح مستعداً لتكميل الآخرين ، وهنا جاءه وحي الله ، كما هو الشأن مع جميع الأنبياء ، والمرسلين ^(١) يروي البخاري عن ابن عباس " ﷺ " أنه قال : (أنزل الوحي علي رسول الله " ﷺ " وهو ابن أربعين سنة) ^(٢) .

لقد حاول محمد " ﷺ " الوصول إلى الحقيقة المتصلة بالوجود ، والحياة ، وظال تفكره وتديره ، ولم يصل إلى ما يتمني ، ويريد .
إنه يسمع عن دين الله ، وأنبياء الله ، لكنه لا يعرف حقيقة الألوهية ، وحقوقها ، ويجهل كل ما يتصل بالنبوة ، والرسالة ، وإدراكه للملا الأعلى ساذج وبسيط ، والأسرار من حوله تتكاثر ، وتعدد ، وكلما طال تأمله تشعبت مناحي النظر ، وبعدت عنه الأسرار ، والغايات .

والعقل مهما سما إدراكه ، ومهما دق فكره ، ومهما تعمقت تأملاته ، ونظراته ، لا يمكنه أن يصل إلى شيء من حقائق هذا الوجود ، ولا بد له من وحي الله يكشف له الأسرار التي يحتاج إليها .

ومحمد " ﷺ " مع صفاء نفسه ، وكمال عقله ، وسمو روحه يحتاج إلى فيوضات الله تهبه للحق ، وتنقذه من الخيرة ، وتعرفه بالحقائق الدينية التي لا يمكن للعقل أن يصل إليها .

كما يحتاج لرحمة الله مراعاة لجانب البشرية فيه ، حتى لا تفاجئه روحانية الوحي ، وغرائب الملا الأعلى .

^(١) المرح النبوي علي صحيح مسلم ج ١٥ ص ٩٩ .

^(٢) صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب صفته النبي " ﷺ " ج ٦ ص ٢٦ .

ونحتاج كذلك إلى تعلم كيفية الاتصال بخالقه، والتعامل مع الملائكة واستقبال الوحي بمختلف صورته وأشكاله .

وقد تجلّت فيوضات الله تعالى على محمد " ﷺ " بصورة رفيقة ، شفيفة عمادها الرحمة والمودة ، وعناصرها الترقى ب بشرية محمد ليكون نبياً ورسولاً . وكانت رحمة الله مع محمد " ﷺ " حين جاءه وحى الله تعالى ، إذ كلفه بالنبوة أولاً ، وجاءه الوحي ينبئه ، ومن المعروف أن النبوة لا تنزل طباع البشرية كلها ، فلما خبر " ﷺ " الوحي ، ورأى صورته ، وأنواعه ، وأصبح متآلفاً مع تلك جاءته الرسالة ، فصار رسولاً نبياً .

والنبوة أخص من الرسالة ، لأن النبوة تعني نزول الوحي من عند الله إلى من يختاره الله تعالى من الناس ، ليعلم ، ويعمل بما أوحى به ، وهي تعليم لمن نبياً خاصاً . أما الرسالة فإنها الوحي يأتي للشخص المختار على أن يعلمه ويقوم بتبليغه للناس ويعمل به ، فهو رسول الله إليهم .

وعلى هذا فكل رسول نبى ، وليس بالآزم أن يكون النبى رسولاً ... ولقد نبى محمد " ﷺ " وجاءه الوحي من عند الله ، واستمر على ذلك مدة تعد تمهيداً لإرساله ، أراد الله أن يهيئه خلافاً للتعامل مع الملائكة ، والاتصال بالله ، ويعرفه كذلك بكل ما تحتاجه الرسالة من أمور لا بد منها للرسول المختار . إن الرسول بشر يتصل بالله ، وبالناس ، ولا بد له أن يتصف بصفات ذاتة ترتقي به إلى درجة الكمال البشري ، والسمو الروحي ليسهل عليه الاتصال بالملا الأعلى بجانبه الروحي ، والتعامل مع الناس بجانبه البشري في توازن ، وإنسجام . وقد بدأت نبوة محمد بأوليات الوحي كما أرادها الله تعالى ، ولم يكلف بالرسالة إلا بعد أن أصبح مؤهلاً لها ، مستعداً للقيام بواجبها ^(١) .

(١) أنظر : أعلام النبوة للماوردي ص ١٧٥ — ١٨٠ ، ويرى الماوردي أن الوحي تدرج مع رسول الله ﷺ

أخرى ، فبدأ بالرؤيا ثم بالتداعيات ، ثم بالنبوة ، ثم بالرسالة .. إلخ .

لقد كان " ﷺ " في مرحلة النبوة يخاف من الوحي يأتيه بإحدى صورته ، ولذلك كان
 أن الخديجة شاكياً ، ويقول لها : " خشيت علي نفسي " ويصف الرجل الذي يظهر
 أمامه (ويقول : سطاً علي الرجل) وكان يجري منه محاولاً الهرب من أمامه ،
 أما في مرحلة الرسالة فكان يأنس بالوحي ، ويتعجله ، ويخاف أن يتركه ولا يأتيه ..
 ولقد اختلف الوحي مع محمد " ﷺ " في فترة النبوة عن الوحي في فترة
 الرسالة ، يقول القاضي عياض : وإنما بدأ الوحي مع رسول الله " ﷺ " بالرؤيا ، لئلا
 ينجس الملك ، ويأتيه بصريح النبوة بغتة ، فلا تحملها قواه البشرية ، فبدئ بأوائل
 اتصال النبوة ، وتباشير الكرامة ، من صدق الرؤيا ، وما جاء من رؤية الضوء ،
 وسماع الصوت ، وتسليم الحجر ، والشجر ، عليه بالنبوة ، حتى يستشرف عظيم ما
 يراد به ، ويستعد لما ينتظره ، فلم يأتيه الملك إلا بأمر عنده مقدماته ^(١) .
 يقول ابن كثير : وبدء الوحي بصورة التدرج يهدي القلب ، ويطمئن النفس ..
 ومن صور الوحي في بدايته ما يلي : —

١ - الرؤيا الصادقة :

إذا نام الإنسان انقطع عن عالم الناس ، وعاش مع باطنه ، وإدراكاته اللاشعورية ،
 وخلال النوم تهيم نفس النائم في رؤى تتضمن أفكاراً ، وأحداثاً ، لا يمكن له أن
 يتصور حدوثها في حالة اليقظة ، ولذا كانت الرؤى المنامية تدريباً للإنسان وهو في
 عالم اللاشعور ، على ما سوف يراه في عالم الإدراك والشعور .
 إن علماء النفس المعاصرين يزرعون في الإنسان مبادئهم الضارة ، وقيمهم
 المادية ، وهو نائم ، وذلك بوضع تسجيل صوتي تحت رأسه وهو نائم تحببه فيما يرغبون
 ، وتحدث عن مزايا ما يدعون إليه ، فإذا ما استيقظ الإنسان يجد عقله مشغولاً بما
 سمعته روحه أثناء نومه ، من غير إدراك سبب هذا الانشغال .

إن هذه المقدمة بيان لأهمية الرؤى ، وإبراز لدورها في كهيئة الإنسان الأحداث
عالم اليقظة ، وبخاصة إذا كانت الأحداث غريبة مذهشة .

ولقد كان من رحمة الله برسوله محمد " ﷺ " أن بدأه الوحي بالرؤيا الصادقة
تقول السيدة عائشة " رضي الله عنها " : (أول ما بدئ به رسول الله " ﷺ " من
الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)^(١)
وبذلك كان الوحي يعلم رسول الله وهو نائم بما يريد الله تعالى في رؤى صادقة
صالحة ، خالية من الضغث ، والوهم ، وكانت رؤى الوحي في وضوحها ، وظهرها
تشبه ضوء الصبح في بيانه ، وسطوعه .

جاء في فتح الباري أنه ثبت في مراسيل عبيد بن عمير أنه " ﷺ " أوحى إليه
أولاً في المنام حتى أتاه الملك بعد ذلك في اليقظة على الصورة التي أتاه بها في المنام^(٢)
وقد تعددت الرؤى المنامية لرسول الله " ﷺ " ، وكان يندهش لذلك ... ومنها^(٣)
— رأي أن أتاه ، ومعه صاحبان له ، فنظروا إليه فقالوا : هو ، هو ، ثم ذهبوا
فهاهنا ذلك ، وتساءل عما رأى ، وعن حديثهم أمامه ، فقال له عمه أبو طالب :
يا ابن أخي ليس بشئ .

— وأتاه هذا الآتي مرة أخرى ، فجاء لعمه ، وقال له : يا عم سطا بي الرجل الذي
ذكرت لك ، فأدخل يده في جوفي حتى أتى أجد بردها ، فخرج به عمه إلى رجل من
أهل الكتاب يتطيب بمكة ، فحدثه حديثه ، وقال عاجله ، قصوب به ، وصعد ، وكشف
عن قدميه ، ونظر بين كتفيه ، وقال : يا ابن عبد مناف ابنك هذا طيب طيب
للخير فيه علامات ، إن ظفرت به يهود فتنته ، وليس الرائي شيطانياً ، ولكنه من
النواميس الذين يتحسسون بها القلوب للنبوة ، فرجع به .

(١) صحيح البخاري — كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٥ .

(٢) فتح الباري — كتاب الوحي ج ١ ص ٢٢ .

(٣) أنظر : سبل المدي والفرهاد ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١٢ .

— رأى في منامه أن سقف بيته نزع من خشبه، وأدخل فيه سلم من فضة، ثم نزل
 إليه رجلان، فأراد أن يستغيث فمنع من الكلام، فمعد أحدهما إليه، والآخر إلى
 جنبه، وأدخل أحدهما يده في جنبه فترع ضلعين منه، وأدخل يده في حوفه ورسول
 الله ﷺ "يجد بردها، فأخرج قلبه، فوضعه علي كفه، وقال لصاحبه: نعم القلب
 قلب رجل صالح، فظهر قلبه وغسله، ثم أدخل القلب مكانه، ورد الضلعين، ثم
 ارتفعيا، ورفعنا سلمهما، فإذا السقف كما هو، فذكر ذلك لخديجة بنت خويلد
 فقالت له: أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً، هذا خير فأبشر.

— ورأى في منامه جبريل ومعه نبط من ديباج فيه كتاب فقال له: اقرأ.
 فقال له: ما أقرأ.

ففته به حتى ظن رسول الله ﷺ "أنه الموت، ثم أرسله فقال: اقرأ.
 قال ﷺ: ما أقرأ.

ففته به حتى ظن رسول الله ﷺ "أنه الموت، ثم أرسله فقال له: اقرأ.
 قال ﷺ: ماذا أقرأ، ما قال ذلك إلا افتداه منه أن يعود إليه بمثل ما صنع.

قال ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ① ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ② ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾
 ③ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ④ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ⑤ .

فقرأها رسول الله ﷺ "ثم انتهى فانصرف جبريل، وهب رسول الله ﷺ "من نومه،
 قال: فكأنما كتب في قلبي كتاباً فذكر ذلك لخديجة فقالت: أبشر فإن الله لا يصنع
 بك إلا خيراً.

وهكذا . . .

تعددت الرؤى، وركزت علي قضية إعلام الرسول بنبوته، وتطهيره،
 وإعلامه ما ينتظره من أحوال، وأعمال، حتى لا يفجئه الملك علي صورته الحقيقية،
 فيصاب بالخوف، والاضطراب.

٢ - نداءات الملائكة :

من صور الوحي الذي بدأ برسول الله ﷺ " نداء الملائكة عليه ، وإعلامهم بإياه بنبوته ، وهو لا يعرف المنادى ولا يمكنه تحديد مصدر النداء . .

من ذلك ما رواه ابن كثير بسنده أن رسول الله ﷺ قال لحديجة : إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء ، وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمر .

قالت : معاذ الله ما كان الله ليفعل ذلك بك ، فو الله إنك لتؤدي الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصديق الحديث .

فلما دخل أبو بكر ، قالت له حديجة : يا عتيق أذهب مع محمد إلى ورقة ^(١) .

فلما دخل رسول الله ﷺ " أخذ أبو بكر بيده ، فقال : انطلق بنا إلى ورقة .
قال : ومن أخبرك ؟

قال : حديجة .

فانطلقا إليه ، وقال رسول الله ﷺ " له : إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء خفي يا محمد ، يا محمد ، فأنطلق هارباً في الأرض .

فقال له : لا تفعل إذا أتاك فأتيت ، حتى تسمع ما يقول لك ، ثم اتني فأخبرني .

فلما خلا ناداه يا محمد قل ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ^(٢) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾
حتى بلغ ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قل لا إله إلا الله ، فأتى محمد ورقة فذكر له ذلك ،

فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر ، فأنا أشهد أنك الذي بشر بك ابن مريم ، وأنت غي مثل ناموس موسى ، وإنك نبي مرسل ^(٣) .

ويقول النبي ﷺ " : (خرجت مرة حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت

صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، فرفعت رأسي إلى

^(١) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم حديجة " رضى الله عنها " ، آمن بمحمد يوم أن جاءه بسأله ، ليأقوله الرسول ﷺ " عند : لقد رأيت النفس في الجنة عليه ثياب بيض ، لأنه آمن بي ، وصدقني ، ويقول " ﷺ " لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جناناً .
جنتين (سورة ابن كثير ج ١ ص ٣٩٨) .

^(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٩ .

السما، أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء، فرفعت أنظر إليه فما أتقدم، وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم، أمامي، وما أتأخر ورائي، حتى بعث خديجة رسلها في طلي فبلغوا مكة، ورجعوا إليها، وأنا واقف في مكان ذلك، ثم انصرفت راجعاً إلى أهلي .

حتى أتيت خديجة فجلست إليها فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعث رسل في طلبك، فبلغوا مكة، ورجعوا إلي !! .

ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت : أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذي نفسي بيده إن أرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة، فأخبرته بما أخبرها به . فقال ورقة : قدوس قدوس ! ، والذي نفسي بيده لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لني هذه الأمة ، فقل لي له فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ " فأخبرته بقول ورقة .

وفي مرة تالية قضى رسول الله ﷺ " جواره، وانصرف يصنع كما كان يصنع ، حيث بدأ بالكعبة فطاف، فلقيه ورقة عند الكعبة، قال له : يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت .

فلما أخبره قال له ورقة : والذي نفسي بيده إنك لني هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبه ولتقاتله ولتؤذنه ، ولئن أدركت ذلك لأنصرك الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه .

ويقول " ﷺ " لخديجة : لما قضيت جوارى، هبطت فتوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، فنظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً بين السماء والأرض فقلت : دثروني دثروني ، وصبوا علي ماء بارداً ^(١) ..

(١) صحيح البخاري — كتاب التفسير — باب سورة المدثر ج ٨ ص ٦٢ ، البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢ ، ١٣ .

إن نداءات الملائكة لرسول الله ، وتعجبه مما يسمع دفعه إلى معرفة شيء من أسرار ما يسمع ، ولذلك كان يرجع لخديجة يقص عليها ما رأى .

وكانت خديجة " رضي الله عنها " خير معين لرسول الله " ﷺ " ، تسمع منه وتتعهد في معرفة أسباب ذلك ، وتسأل أهل الكتاب عن خبر ما يسمع ، وتخبر زوجها رسول الله " ﷺ " بما يرى عنه ، ويطمئنه .

وكانت تبحث عن أسرار ما يرى لتطمئن عليه ، وتطمئنه " رضي الله عنها " قالت له مرة : يا ابن عم أأستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم .

قالت : فإذا جاءك فأخبرني به .

فجاءه جبريل ، فقال رسول الله " ﷺ " : يا خديجة هذا جبريل قد جاءني .

فقالت : قم يا ابن عمي فأجلس على فخذي اليسرى .

فقام رسول الله " ﷺ " فجلس عليها ، فقالت : هل تراه ؟

قال : نعم .

قالت : فتحول فأقعد على فخذي اليماني ، فتحول رسول الله " ﷺ " فجلس على فخذه اليماني ، فقالت : هل تراه ؟

قال : نعم .

فحسرت فألقت حمارها ورسول الله " ﷺ " جالس في حجرها ثم قالت : هل تراه ؟

قال : لا .

قالت : يا ابن عم أثبت وأبشر فوالله إنه لملك ، ما هذا شيطان ^(١) .

٢ - كلام الشجر والحجر :

يروى ابن سعد بسنده أن رسول الله " ﷺ " حين أراد الله كرامته ، وأبدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتاً ، ويفضي إلى الشعاب ، ويظن

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣١٤ : البداية والنهاية ج ٣ ص ١٥ : ١٦ .

الأودية ، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، وكان يلتفت عن يمينه ، وشماله ، وخلفه ، فلا يرى أحداً^(١) .

روى الإمام مسلم عن جابر بن سمرة " رضي الله عنه " قال : قال رسول الله " ﷺ " :
إن أعرف حجراً كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن^(٢) .

وقال محمد بن عمر بسنده عن برة بنت تيمرة قالت : إن رسول الله " ﷺ " حين أراد الله تعالى كرامته ، وابتدأه بالنبوة ، كان إذا خرج لحاجته أبعد ، حتى تحسر عنه البيوت ، ويفضي إلى شعاب مكة ، ويطون أوديتها ، فلا يمر بحجر ، ولا شجر ، إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، فيلتفت رسول الله " ﷺ " خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله فلا يرى إلا الشجر ، وما حوله من الحجارة ، وهي تحييه بتحية النبوة : السلام عليك يا رسول الله^(٣) .

وروى ابن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه رحمهما الله تعالى أن رسول الله " ﷺ " قال : يا خديجة إني أرى ضوءاً ، وأسمع صوتاً ، لقد خشيت أن أكون كاهناً ، فقالت : إن الله تعالى لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله ، إنك تصدق الحديث ، وتؤدي الأمانة ، وتصل الرحم^(٤) .

٤ . لقاء الملائكة :

من رحمة الله برسوله محمد " ﷺ " أن أخذ يهيئه للقاء ملك الوحي ، وذلك بإرسال الملائكة إليه ، تعلمه كلمة ، أو شيئاً ما ، ليستعد بذلك على ملاقاته جبريل " عليه السلام " .

(١) طبقات ابن سعد ١ / ١٥٧ .

(٢) صحيح مسلم — كتاب الفضائل باب تسليم الحجر عليه ج ١٥ ص ٢٦ .

(٣) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٥٧ .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١٩٥ .

يروى ابن سعد أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه النبوة كان يأتيه " إسرائيل " واستمر معه يعلمه الكلمة ، والشئ ، ولم يتزل شئ من القرآن على لسانه ^(١) ، يقول أبو شامة : إن " إسرائيل " كان يأتي النبي وهو في غار حراء فكان يلقي إليه الكلمة بسرعة ، ولا يقيم معه ، تدرجاً وتمريناً ..

وأحياناً كان يأتيه جبريل بصحبة ملك آخر ، يقول ابن عباس " ﷺ " كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل على الصفا فقال رسول الله ﷺ يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفة دقيق ، ولا كف من سويق ، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفرعته .

فقال رسول الله ﷺ : أ أمر الله القيامة أن تقوم ؟

فقال جبريل : لا ولكن أمر الله إسرائيل فترل إليك ، حتى يسمع كلامك .

فأتاه إسرائيل فقال : إن الله تعالى بعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أعرض إليك أن أسير معك جبال قحمة زمرداً ، وياقوتاً ، وذهباً ، وفضة ، فإن شئت بيا ملكاً ، وإن شئت نبياً عبداً ؟ فأوما إليه جبريل : أن تواضع .

فقال رسول الله ﷺ : بل نبياً عبداً ، ثلاثاً ^(٢) .

ويقول البراء بن عازب " ﷺ " : أتاه جبريل وميكائيل ، فنزل جبريل وبقي ميكائيل واقفاً بين السماء والأرض ، فقال أحدهما لصاحبه ، أهو هو ؟ قال : هو هو .

قال : فوزنه برجل ، فوزنه به فرجحه رسول الله ﷺ .

قال : زنه بعشرة ، فوزنه فرجحهم .

قال : زنه بمائة ، فوزنه فرجحهم .

قال : زنه بألف ، فوزنه فرجحهم .

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٩١ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣١٠ .

ثم جعلوا يتساقطون عليه من كفة الميزان .

فقال ميكائيل : تبعته أمته ورب الكعبة ، ثم أجلسني على بساط كهية الدرنوك ، فيه الشياطين ، واللؤلؤ ، فقال أحدهما لصاحبه : شق بطنه ، فشقه ، فأخرج منه مغمر الشيطان ، وعلق الدم فطرحها ، فقال أحدهما لصاحبه : أغسل بطنه غسل الإناء ، وأغسل قلبه غسل الملاء ، ثم قال أحدهما لصاحبه : خط بطنه ، فتحاطه ، ، ثم أجلساه فشره جبريل برسالة ربه حتى اطمأن النبي ﷺ ^(١) .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس " ﷺ " قال : بينما النبي ﷺ " جالس ، وعنده جبريل ، إذ سمع نقيضاً من السماء من فوق ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : يا محمد هذا ملك قد نزل ، لم ينزل إلى الأرض قط .

فأتى النبي ﷺ " فقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته ^(٢) .

هـ. مجئ جبريل بالقرآن :

استمر الوحي بمقدماته مع رسول الله ﷺ " على النحو المبين ، وأدرك محمد " ﷺ " أن أمراً عظيماً ينتظره ، وسمع من زوجته ، ومن ورقة ، ومن غيرهما أن الذي يراه ، ويسمعه هو الوحي الذي كان يأتي موسى ، وعيسى والأنبياء من قبله " عليهم صلوات الله وسلامه " .

وشئاً فشيئاً بدأ يطمئن لما يرى ، ويثق فيما يسمع حتى جاءه جبريل " عليه السلام " بأول آية قرآنية أمره الله تعالى أن يقرئها ، تصور السيدة عائشة " رضي الله عنها " نزول جبريل بأول آية قرآنية على رسول الله ﷺ " فتقول " رضي الله عنها " : جاءه الملك (أي جبريل) وهو في غار حراء ، فقال : اقرأ .

قال : ما أنا بقارئ .

^(١) انظر ص ١٩٠ وما بعدها .

^(٢) مثل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣١٠ .

يقول النبي ﷺ : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارئ .

فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ .

فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۝ ﴾ .

فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف فتاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد " رضي الله عنها " فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع . ثم قال : يا خديجة مالي ؟ وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسي .

فقالت خديجة له : كلا ، أبشر ، فوالله لا يخریک الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزی بن قصی ، وهو ابن عم خديجة لأبيها ، وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي والعبراني فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وقد عمى في شيخوخته .

فقالت له خديجة : أي ابن عم ، اسمع من ابن أخيك .

فقال ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟

فأخبره النبي ﷺ خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى ، ياليتني فيها جذعاً ، ليشي أكون حياً إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجي هم ؟

فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك
اتصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينسب ورقة أن توفي ^(١) .

ومع أن النبي ﷺ " كان يبحث عن الهداية التي جاءته ، ومع أنه كان على
يقين بالفوز العظيم بمحبي جبريل ، ولذلك قال لخديجة : أرايتك الذي كنت أخبرتك
أن رأيت في المنام ؟ فإنه جبريل ، استعلن لي ، وأرسله إلى ربي . . . ومع كل ذلك
فإنه " ﷺ " أصيب بالروع ، وحشى على نفسه .

وهذا الخوف الذي عاشه النبي ﷺ " في لقاء جبريل " ﷺ " جعل البعض
يتساءل عن سبب هذا الخوف لأن المقام مقام سرو، ورضى، وليس مقام رهبة، وهلع .
وقد تناول العلماء هذه المسألة، ورأوا أن الخوف لم يكن من النبوة ، أو من
الوحي ، وإنما كان من تصويره أذى يأتي من الغط الشديد . . أو من ثقل المسؤولية ،
أو لأن الحوار لم يكن عادياً . . فلقد أمر جبريل " ﷺ " محمداً " ﷺ " بالقراءة ثلاث
مرات، وغطه بشدة ثلاث مرات أيضاً، والرسول يقول له : ما أنا بقارئ، وينتشر
خبر ذلك عند خديجة، وأبي بكر، ورقة ، ويتحدث عنه أهل مكة ، ليكون حديثهم
تعريفاً بمحمد ، وتنبهاً على منزلته عند الله، والناس ، فضلاً من الله ونعمة .

يقول الإسماعيلي : إن العادة جرت بأن الأمر للخليل إذا قضى الله تعالى
بإيصاله إلى الخلق أن يتقدمه ترشيح وتأسيس ، وكان ما يراه النبي " ﷺ " من
الرؤيا الصادقة ومحبة الخلوة والتعب من ذلك ، فلما جاءه الملك فجاء بفترة بصورة
تخالف العادة والمألوف ، ففر طبعه البشري منه ، وهاله ذلك ، ولم يتمكن من التأمل
في تلك الحال ، لأن النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها ، فلا يتعجب أن يجزع مما لم
يألفه ، وينفر طبعه منه، حتى إذا اندرج عليه، وألفه استمر عليه ، فلذلك رجع إلى
خديجة التي ألف تأنيسها له ، فأعلمها بما وقع له ، فهونت عليه خشيته ، مما عرفته من

أخلاقه الكريمة، وطريقته الحسنة، فأرادت الاستظهار بحسبها به إلى ورقة، فعرفها بصدقته، ومعرفته، وقراءته الكتب القديمة، فلما سمع كلامه أيقن بالحق، واعترف به وأشار الإسماعيلي كذلك إلى أن الحكمة في ذكره " ﷺ " ما اتفق له في هذه القصص أن يكون سبباً في انتشار خبره، في بطائنه، ومن يستمع لقوله، ويصغي إليه، طريقه في معرفتهم مباينة من سواه في أحواله لينهوا على محله ^(١) ويعرفوا مقامه " ﷺ " .

ومع لقاء جبريل برسول الله " ﷺ " وإقراءه أول سورة العلق لاحظ بعض الملاحظين :

الأولى : غط جبريل رسول الله " ﷺ " ثلاث مرات، ليحعل التفاته، ويكره

إليه وحده، دون الانشغال بغيره، ويعرفه بثقل الرسالة، وضخامة المسئولية، وينعزل على التلقى من الوحي فقط .

وليكن صبوراً حين التبليغ .

ويعلم أن تكرار الطلب منهج في نشر دين الله تعالى .

وليتأكد " ﷺ " بتكرار الغط أن ما يحدث حقيقة واقعية ملموسة، وليست

خيالاً أو وهماً .

لقد كان جبريل " ﷺ " في أشد الاشتياق للقاء محمد " ﷺ " ولذلك صعد

إليه، وقبله أكثر من مرة .

كان من الممكن أن يلقي جبريل " ﷺ " محمداً " ﷺ " بما يلقيه شفاهة من

بعد، وبمضي، لكنه فعل ذلك بأمر الله تعالى، ليؤكد خطورة الأمر، وأهميته،

وضرورة بذل الجهد، وتحمل المشاق في أداء الواجبات الخطيرة، وهل هناك أخطر

من مهمة الرسالة، والدعوة ؟ ! ! .

وكان من الممكن أن يتم اللقاء مناماً، لكن الله تعالى أراد أن يطلع رسوله

الأمين محمد " ﷺ " على صورة روحه الأمين، كما أراد له أن يعرف أهم صور

الوحي بعد أن عاش الرؤى ، وسمع النداء ، وشاهد الجمادات تناجيه ، وعاش الخلوة بفكره ، أراد الله له بعد ذلك أن يعود على صورة الوحي التي ستسمر معه ، وقد كان ، فجاء جبريل وأقرأه أول سورة العلق .

الثانية : في بدء الوحي بـ : " اقرأ " بيان لموقف الإسلام من القراءة ، ومن العلم كله ، فالقراءة أساس معرفة الدين ، بها يحفظ القرآن ، وتضان السنة ، وتفهم الشريعة ، وبها تكون الدعوة ، وحماية الإسلام ... وبالعلم تحيا الأمة ، وتحافظ على الضرورات الشرعية جميعاً ، وتنظم كافة جوانب الحياة .

الثالثة : قدمت خديجة " رضي الله عنها " مع رسول الله " ﷺ " صورة لزوجته العظيمة المثالية ، فلقد كانت تعيش حياة رسول الله لحظة ، بلحظة ، تسمى له الخير ، تشاركه في كل ما يعن له ، وتهتم بكل ما يهمه . لقد أعطته ما لها فأغنته " ﷺ " به ، وأبعدته عن متاعب الفقر ، ومشاغله ، ولما بدأ الوحي مناماً ، ونداء ، وضوءاً كانت تطمئنه ، ولكنها من ورائه كانت تبحث عن حقيقة ما يرى " ﷺ " خوفاً عليه ، وحذراً .

وكان " رضي الله عنها " إذا غاب عنها ترسل في طلبه من يبحث عنه ^(١) .. كما ذهبت وحدها إلى ورقة ، وأخبرته بخبر زوجها ، تريد أن تعرف شيئاً عنه ، فقال لها ورقة : قدوس ، والذي نفسي بيده لئن كنت صديقين يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ^(٢) . ولم تكف بما سمعت من ابن عمها ورقة ، بل ذهبت مرة أخرى إلى غلام لعنة بن ربيعة بن عبد شمس ، نصراني من أهل نينوى يقال له عداس ، فقالت له : يا عداس ، أذكرك الله إلا ما أخبرني : هل عندكم علم عن جبريل ؟ قال عداس : قدوس ، قدوس ، ما شأن جبريل يذكر هذه الأرض التي أهلها أهل أوثان .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣ .

(٢) أنظر ص ٣١٢ .

فقالت : أخبرني بعلمك فيه .

قال عداس : هو أمين الله بينه وبين النبيين ، وهو صاحب موسى وعيسى " عليهما السلام " ^(١) .

لقد تميزت خديجة " رضي الله عنها " بكمال الخلقة ، والخلق ، يقول عنها

" ﷺ " : (خير نساءها خديجة بنت خويلد) ^(٢) وقد جعلت عقلها الكامل في خدمة

محمد " ﷺ " ودعوته ، وكانت " رضي الله عنها " خير معين لمحمد " ﷺ " ولأنه

بشرها الله بيت في الجنة ^(٣) ..

ونلاحظ مدى ملاطفتها ، وتقديرها لزوجها في مناداته يا ابن عم . . . ولذلك

فقد استحقت التقدير من رسول الله " ﷺ " ، يقول " ﷺ " : " إن رزقت حبها " ^(٤) .

فتور الوحي :

واطمأن محمد " ﷺ " لصدق ما رأى ، وما سمع ، وتيقن أن الذي كان يأتيه

هو وحي الله ، وتأكد أنه فاز بذلك فوزاً عظيماً .

وحتى يستوعب كل ما رأى ، وتهدأ نفسه فتر الوحي ، وانقطع عنه جبريل

" عليه السلام " فمكث " ﷺ " أياماً لا يرى جبريل ، فحزن حزناً شديداً ، وأخذ يدور بين

بين رعوس الجبال عساه يراه ، ويحدثه ، وحاول أن يتردى من رعوس شواهق الجبال

من شدة ألمه لانقطاع جبريل عنه .

وقد شق هذا الفتور على رسول الله " ﷺ " لأنه لم يكن خوطب بعد من الله

بأنه رسول الله ، ومبعوثه إلى العباد ، فخاف أن يكون ذلك أمراً بدئياً به ثم لا يبرأ

استتمامه ، فحزن لذلك ، ولذلك أتاه جبريل بعد ذلك وأخبره بأنه رسول الله .

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ١٣ .

(٢) صحيح مسلم — كتاب فضائل خديجة ج ١٥ ص ١٩٨ .

(٣) المصدر السابق ج ١٥ ص ٢٠١ .

(٤) المصدر السابق ج ١٥ ص ٢٠١ .

يقول الزهري : فكلما وافى ذروة جبل لكي يلقى نفسه منه تبدى له جبريل
فقال له : يا محمد أنت رسول الله حقاً ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر عينه ف يرجع ،
فإذا طالت عليه فترة الوحي غداً لمثل ذلك ، فإذا أوفى ذروة الجبل تبدى له جبريل ،
فقال له مثل ذلك (١) .

يتساءل البعض : كيف يجوز للنبي " ﷺ " أن يفكر في إلقاء نفسه من ذروة

الجبل ؟

والجواب : أن ذلك كان هما ، لا قراراً .

وكان يظن أن قوته عاجزة عن تحمل ما يتوقعه من أعباء النبوة .

و خوفاً مما قد يحصل له " ﷺ " حين القيام بها من مباينة الخلق جميعاً ، وعداوتهم .

وذلك كما يطلب الرجل الراحة من غم يناله في العاجل ، مما يكون فيه زواله

عنه ، ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلاً ، حتى إذا تفكر فيما سيكون من

العقبى الخمودة صبر ، واستقرت نفسه .

والعلماء يختلفون في تحديد مدة انقطاع الوحي ، فبعضهم يذهب إلى أن الوحي

انقطع مدة قاربت الستين ونصف ، وبعضهم يرى أنها كانت أياماً ، إلى غير ذلك

من الآراء ، يرى ابن إسحاق : أنها كانت ثلاث سنوات ، ويرى ابن كثير : أنها

كانت ستين ونصف ، ويرى ابن عباس : أنها كانت أربعين يوماً ، ويذهب ابن

الجوزي : إلى أنها كانت خمسة عشر يوماً ، ويرى مقاتل : أنها كانت ثلاثة أيام ،

والرأي الأول بالاعتبار هو في تقصير مدة الانقطاع لمناسبته مقام الرسول عند ربه ،

ولأنه من الأمور التي إذا طالت انتشرت ، وعرفت ، واشتهرت ، كما أن الانقطاع

مدة طويلة يؤدي إلى ضياع كثير مما تم بناؤه في دنيا الناس ، و حياة رسول الله " ﷺ "

* * *

المبحث الحادي عشر

صور الوحي

تعتبر مدة انقطاع الوحي فاصلاً بين النبوة والرسالة، فلقد نبي "ﷺ" لثمان مضيّن من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل، ونزل عليه القرآن الكريم في شهر رمضان من نفس العام، والمدة بينهما هي فترة النبوة . . . وبعدها كان الرسالة . . . ولقد كان الوحي إلى رسول الله "ﷺ" يأتيه بصور عديدة منها : —

الأول : الرؤيا الصادقة في المنام ومثاله رؤية إبراهيم "ﷺ" ، كما يقول

تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْهَبُ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَى ﴾^(١) قَالَ يَتَأْتِي أَفْعَلُ مَا

تُؤْمَرُ^(٢) . فدل على أن الوحي كان يأتيهم في المنام كما كان يأتيهم في اليقظة، وما

رأى رسول الله "ﷺ" لما بعث رؤيا ألا جاءت مثل فلق الصبح .

يروى البخاري بسنده عن عبيد بن عمير : رؤيا الأنبياء وحي^(٣) . .

الثاني : أن ينفث الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال "ﷺ"

: إن روح القدس نفث في روعي ، لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله

وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند

الله لن ينال إلا بطاعته^(٤) .

يقول المفسرون في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾^(٥)

هو أن ينفث في روعه بالوحي الذي يخص القلب دون السمع .

(١) سورة الصافات آية (١٠٢) .

(٢) صحيح البخاري — كتاب الوحي ج ١ ص ١١ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٣٥٢ .

(٤) سورة الشورى آية (٥١) .

الثالث : أن يأتيه مثل صلصة الجرس وهو أشده عليه ، فيتلبس به الملك حتى

إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحته لتترك على الأرض .

يروى الشيخان عن عائشة " رضي الله عنها " أن الحارث بن هشام " رضي الله عنه "

سأل رسول الله " ﷺ " : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله " ﷺ " : أحياناً

يأتيني مثل صلصة الجرس وهو أشده على فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً

يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعني ما يقول ^(١) .

وروى ابن سعد بسند رجاله ثقات عن أبي سلمة الماجنون أنه بلغه أن رسول

الله " ﷺ " كان يقول : (كان الوحي يأتيني على نحوين : يأتيني به جبريل فيلقيه

على كما يلقي الرجل الرجل فذاك يتقلت مني ، ويأتيني في شيء مثل صلصة

الجرس حتى يخالط قلبي فذاك لا يتقلت مني) ^(٢) .

الرابع : أن يكلمه الله تعالى بلا واسطة من وراء حجاب في اليقظة كما في

ليلة الإسراء على القول بعدم الرؤية .

الخامس : أن يكلمه الله تعالى كفاحاً بغير حجاب على القول بالرؤية ليلة

الإسراء .

السادس : أن يكلمه الله تعالى في النوم ، كما في حديث معاذ عند الترمذي

: أتاني ربي في أحسن صورة فقال : (فيم يختصم الملائكة) ^(٣) ، وهذا النوع

يختلف عن الرؤيا المنامية ، لأن هذا كلام الله تعالى .

وذكر بعضهم أن من هذا النوع نزول سورة الكوثر لما رواه مسلم عن أنس

قال : بينما رسول الله " ﷺ " بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع بصره مبتسماً

^(١) صحيح البخاري — كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٤ .

^(٢) طبقات ابن سعد ١ / ١٩٧ .

^(٣) سنن الدارمي — باب رقم (١٢) .

فقرأ : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ ، وكانت قد نزلت عليه قبل ذلك ، على الأصح ، وهذه مرة أخرى تنزل فيها السورة لأن القرآن الكريم نزل كله في اللحظة .

السابع : مجيئ الوحي كدوى النحل .

روى الإمام أحمد والحاكم ، عن عمر بن الخطاب " رضي الله عنه " قال : كان رسول الله " ﷺ " : (إذا أنزل عليه يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل) (١) .

الثامن : العلم الذي يلقيه الله تعالى في قلبه ، وعلى لسانه ، عند الاجتهاد في الأحكام .

لأنه اتفق على أنه " ﷺ " إذا اجتهد أصاب قطعاً ، وكان معصوماً من الخطأ وهذا خرق للعادة في حقه " ﷺ " دون الأمة ، وهو يفارق النفث في الروح من حيث حصوله بالاجتهاد ، والنفث بدونه .

ولقد كان الوحي ثقیلاً كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (٢) . ويرجع ثقل الوحي إلى ما يتضمنه من عقيدة ، وشرعية ، وأخلاق ، بحيث لا يقدر على حملها ، والعمل بها سوى العقلاء ، الذين يحكمون عقولهم ، ويسيطرون على هواهم ونفوسهم .

ومن دلالات ثقل الوحي ما كان يحدث لرسول الله " ﷺ " حين نزل الوحي عليه الآثار التي رواها أصحابه " رضوان الله عليهم " ، ومنها : —
— يقول زيد بن ثابت " رضي الله عنه " عن عائشة " رضي الله عنها " أنها قالت : أنزل على رسول الله " ﷺ " وفخذه على فخذي فكادت فخذه ترض فخذي .

(١) مسند أحمد ١ / ٣٩ .

(٢) سورة المزمل آية (٥) .

— وقالت عائشة " رضي الله عنها " : إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ " وهو على راحلته فتضرب بجوافها فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه ، وتلت الآية ^(١) .
— ويقول أبو أروى الدوسي " ﷺ " : رأيت الوحي ينزل على رسول الله ﷺ " وإنه على راحلته فترغوا ، وتقتل يديها ، حتى أظن أن ذراعها تنقص ، فرمما بركت وربما قامت مotide يديها حتى يسرى عنه من ثقل الوحي ، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان ^(٢) .

— ويقول عبادة بن الصامت " ﷺ " : كان رسول الله ﷺ " إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه وغمض عينيه ^(٣) .
— ويقول أبو هريرة " ﷺ " : كان رسول الله ﷺ " إذا أوحى إليه لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى يقضى الوحي ^(٤) .
— وتقول عائشة " رضي الله عنها " : (ولقد رأيت يترل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً) ^(٥) .
— وتقول أسماء بنت يزيد " ﷺ " : كنت آخذة بزمام ناقة رسول الله ﷺ " حين أنزلت عليه سورة المائدة فكاد ينكسر عضدها من ثقل السورة ^(٦) .
— ويقول ابن عمر " ﷺ " : أنزلت على رسول الله ﷺ " سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فترل عنها ^(٧) .

^(١) أي قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ .

^(٢) طيفات من معد ١ / ١٩٧ .

^(٣) صحيح مسلم شرح النووي — كتاب الفضائل — سبل الهدى ج ٢ ص ٣٤٤ .

^(٤) صحيح مسلم شرح النووي — كتاب الجهاد — باب فتح مكة ج ١٢ ص ١٢٨ .

^(٥) صحيح البخاري — باب بدء الوحي ج ١ ص ٤ ، ومعنى يتفصد : يفضل .

^(٦) السيرة ابن كثير ١ / ٤٢٤ .

^(٧) السيرة ابن كثير ١ / ٤٢٤ .

— وثبت في الصحيحين نزول سورة الفتح على رسول الله " ﷺ " وهو على راحلته فكأنه يكون تارة وتارة بحسب الحال ^(١) .

والآيات التي بدأ الوحي بها بعد فترة الانقطاع هي أوائل سورة المدثر ، وفيها يقول الله تعالى : ﴿ يَأْيُهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾ ^(٢) وهذه الآيات تضمنت في إجمال كل ما يتعلق بالرسالة ..

ففي الآية الأولى ﴿ يَأْيُهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ بيان لعظم مقام الرسول عند ربه كما يتضح من مناداته ، وتسميته بالمدثر الذي يفيد الستر ، والموانسة ، والهدوء . وهي أمور ضرورية ليقوم الإنسان بالمهام التي توكل إليه . يقول القرطبي : وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان : —

الفائدة الأولى : الملاطفة ، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب ، وترك المعانة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها ، كقول النبي " ﷺ " لعلى حين غاضب فاطمة " رضي الله عنهما " ، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له : " قم يا أبا تراب " ^(٣) إشعاراً له أنه غير عاتب عليه ، وملاطفة له ، وكذلك قوله " ﷺ " لحذيفة : " قم يا نومان " وكان نائماً ، ملاطفة له ، وإشعاراً لترك العتب والتأنيب ، فقول الله تعالى لمحمد " ﷺ " : ﴿ يَأْيُهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ فيه تأنيس وملاطفة ، ليستشعر أنه غير عاتب عليه .

والفائدة الثانية تنبيه لكل متدثر ، خائف ، لينهض مما كفله الله به ، فالقيام بالواجب أولى ، وأحسن من النوم والقعود ، والتوكل على الله يساعد على النشاط والعمل .

^(١) سورة ابن كثير ١ / ٤٢٤ .

^(٢) سورة المدثر الآيات (١ — ٧) .

^(٣) صحيح البخاري — كتاب المناقب — باب فضل علي " ﷺ " ج ٦ ص ١١٦ .

وفي الآية الثانية : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ۖ ﴾ أمر بالقيام والنهوض ، وترك النوم ،

والكسل ، وضرورة التصميم الجاد ، والسعى المستمر في الدعوة لدين الله تعالى ،
وليكن الإنذار أول الأمر مع الناس ، وهو المناسب لهم ، تنبيهاً لعقوبتهم ، وتعريفهم
بالخطر الذي يترصد الغافلين ، الساترين في الضلال ، وهذا الإنذار رحمة من الله للناس ،
لأنه يعطيهم الفرصة لينقذوا أنفسهم من ضلال الدنيا ، وعذاب الآخرة .

وتجلى الرحمة في هذا الإنذار بأنه يأتيهم بواسطة رسول ، يدعو ويبين ،
ويكرر ، ويصبر ، ويستمر طويلاً في دعوتهم ، عساهم يستحيون ، ويتأثرون .
والرسول " ﷺ " كما هو منذر فهو مبشر إلا أن المقام أكتفى بالإنذار مراعاة
لأحوال المخاطبين .

والآية الثالثة : ﴿ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ۖ ﴾ توجه رسول الله خاصة لمعرفة مقام الله

وعظمته التي تصغر أمامه سائر القوى ، فهو وحده الكبير المتعال ، وهذا التصور
يعيش الرسول " ﷺ " في دعوته الناس آمناً ، لا يتأثر بمعارضاتهم ، أو عداوتهم ، لأنه
مع الله القوى العزيز .

يقول سيد قطب : ليوافقه ندارة البشرية ، ومتاعبها ، وأهوالها ، وأثقالها ، بهذا
التصور ، وهذا الشعور ، فيستصغر كل كيد ، وكل قوة ، وكل عقبة ، وهو
يستشعر أن ربه الذي دعاه ليقوم بهذه الندارة ، هو الكبير ، وكما أن مشاق الدعوة ،
وأهوالها في حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور ومعايشة هذا الشعور ^(١) .

والآية الرابعة : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۖ ﴾ توجه الرسول " ﷺ " للمحافظة

على طهارة الظاهر والباطن ، لأن التقى عن الملأ الأعلى يتناسب مع هذه الطهارة .
وطهارة الثوب كناية عن طهارة القلب ، والعمل ، والسلوك .
والحجب للطهارة ، المتعود عليها ، يعمل أن لا يقع في غيرها .

والطهارة عموماً ضرورة لمزاولة مهام الرسالة والدعوة وسط الضالين ،
 المتحرفين ، وبذلك يدعوهم الرسول ﷺ ، " ولا يتأثر بهم ، وبخاصة أن أهل الباطل ،
 وأنصار الشيطان يحاولون التغلب على أهل الحق بأخذهم إليهم ، مستعينين بوسائل
 الهوى ، ومغريات الشهوات ، وبكافة ما يمكنهم من إغراء .
 ولذلك كانت الطهارة ضرورة للرسول والدعاة ..

والآية الخامسة : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۖ ﴾ والرجز شامل للشرك ، وللسائر

المعاصي ، والرجز معناه العذاب ، أطلق على مسبباته للإشارة إلى أن العقوبة ملازمة
 للمعصية ، وقد أمر الله تعالى النبي ﷺ " بالهجر وليس بالترك فقط ، لما في الهجر من
 ترك ونفور ، وكراهية ، وتباعد ، والرسول ﷺ " كان هاجراً للشرك
 ولموجبات العذاب حتى قبل النبوة ، فقد عافت فطرته السليمة الانحراف ، وبعد عن
 أنواع المعتقدات الشائثة ، وترك الرجس من الأخلاق والعادات ، ولم يعرف عنه أنه
 شارك في شيء من هوس الجاهلية وأخطائها ، ومع كل هذا كان هذا التوجيه الذي
 يعنى ضرورة المفارقة ، وأهمية إعلان التميز الذي لا صلح فيه ، ولا هوادة معه ، فيها
 طريقان مفترقان لا يلتقيان ، كما يعنى التحرز من دنس هذا الرجز ، ودواعيه ..

والآية السادسة : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۖ ﴾ توجه الرسول ﷺ " إلى عدم

المن على الناس ، وعدم استكثار ما سوف يعطيه لهم ، فهو مكلف بالعطاء ،
 وسيعطى الكثير في إصلاح الحياة للناس أجمعين ، فعليه البذل ، والعطاء ، بلا من ،
 وبلا عدد ، وبذلك يعظم العطاء ، ويعظم صاحبه .

إن النبوة فضل إلهي ، وعلى الرسول أن يدوم شاكراً ، عابداً ، متحلياً بمكارم
 الأخلاق ، وليس المن من الخلق الكريم أبداً .

والآية السابعة : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۖ ﴾ تشتمل على أمر كريم يحتاجه الرسول في

مسيرته مع النبوة ، والدعوة ، وعليه أن يصبر مع نفسه وهو يقاوم شهواتها ، ومع الوحي

وهو يسمعه ويحفظه، ومع الناس وهو يعلمهم، ومع الأعداء وهو يقاومهم .

إن المعركة طويلة، والصبر هو الراد الذي يلائمها ، وهو الذي يحقق الفوز في النهاية .
وهذه الآيات السبعة الأولى في سورة المدثر نزلت في أول الوحي بالرسالة بعد
فتور الوحي متضمنة الأسس الرئيسية للحركة بدين الله تعالى ، ولذلك جاءت إعلاناً
واضحاً عن أساسيات القيام بالرسالة ، وأهم ما يجب أن يتحلى به الرسول والدعاة .
وأما أول سورة العلق فقد نزل في مرحلة الوحي بالنبوة التي استمرت ستة
أشهر ، ليعرف النبي ﷺ " ربه ، ويقف على كمال صفاته ، وحقائقها ، ويألف
لقاء الملائكة ، وتلقى الوحي من ربه .

يذهب البعض إلى أن أول المدثر نزل أولاً استناداً إلى حديث البخاري الذي
رواه بسنده عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول
ما نزل من القرآن ؟

قال : ﴿ يَتَّيُّبَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ..

قلت : يقولون : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله " ﷺ " عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت
لي ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله " ﷺ " قال : (جاورت بحراء
فلما قضيت جوارى ، هبطت ، فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت
عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً ،
فرفعت رأسي فرأيت شيئاً ، فأتيت خديجة فقلت : (دثروني وصبوا عليّ ماء بارداً)
قال " ﷺ " : فدثروني وصبوا عليّ ماء بارداً ، قال ، فزلت : ﴿ يَتَّيُّبَا الْمُدَّثِّرُ ﴾
فَمَّا نَذَرَ ﴿ ١ ﴾ وَرَبِّكَ فَكَبَّرُ ﴿ ٢ ﴾ (١)

ويروى مسلم حديثاً يشير كذلك إلى أن أول المدثر نزل أولاً ، فلقد روى
 بسنده عن أبي سلمة قال : أخبرني جابر بن عبد الله ، أنه سمع رسول الله ﷺ
 يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء
 ، فرفعت رأسي قبل السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء ، جالسا على كرسي
 بين السماء والأرض ، فجنثت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجنثت إلى أهلي فقلت
 : زملوني ، زملوني ، فذروني ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الْمَدْيِرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾
 وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ ﴾ قال أبو سلمة : والرجز
 الأوثان ، ثم حمى الوحي بعد ذلك وتتابع (١) ، ورواه البخاري من هذا الوجه
 أيضاً (٢) .

يعلق ابن كثير في تفسيره على هذا الاختلاف فيقول ، والأولى القول بأن
 جبريل نزل بأول سورة العلق في بداية النبوة ، وأن نزول أول سورة المدثر كان في بداية
 الرسالة ، لأن في حديث نزول أول سورة المدثر الذي رواه مسلم وغيره إشارة إلى
 المعنى السابق لجبريل ، حيث يقول : (فإذا الملك الذي جاءني بحراء) يوم أن جاءه
 بأول سورة العلق ، وهذا يفيد أن أول سورة نزلت بعد فتور الوحي هي المدثر ، وهي
 أول وحي الرسالة ، وعلى هذا فأولية نزول أول العلق أولية مطلقة ، وأولية أول سورة
 المدثر مقيدة بما بعد فتور الوحي ، وببدء الرسالة (٣) .

ويذهب البعض إلى أن أول سورة المزمل نزل قبل المدثر ، لكن هذا الرأي
 مردود لأن أول سورة المدثر فيه أمر بالإندار ، وهذا يكون في أول المبعث ، أما أول
 سورة المزمل ففيها الأمر بقيام الليل ، وترتيل القرآن ، وهذا يقتضى تقدم تشريع

(١) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب بدء الوحي ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري — كتاب التفسير — باب وربك فذكر ج ٨ ص ٦٧٧ ، ٦٧٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٠ .

الصلاة ، ونزول كثير من آيات القرآن الكريم يتلوها النبي في الصلاة ، وفي غير الصلاة ، حيث أمر بذلك .

ويذهب البعض إلى أن سورة الضحى هي التي نزلت أولاً بعد فترة الوحي ،

مسنداً بقوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (١)

لأن أم جميل بنت حرب امرأة أبي حُب ، لما تباطأ الوحي عن رسول الله "

لَيْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ " ودعك ربك وقلاك ، فنزلت ..

يرد الحافظ ابن حجر هذا فيقول : الحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول

والضحى غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي ، فإن تلك دامت أياماً وهذه لم تكن

إلا ليتين أو ثلاثاً ، فاختلطتا على بعض الرواة .

وقد ثبت أن الوحي كان يفتر عن النبي ﷺ " أحياناً كما حدث قبل نزول

سورة الكهف ، فإن النبي لما سئل عن أصحاب الكهف ، قال : سأحدثكم بها غداً ولم

يستثن ففتر عنه الوحي خمسة عشر يوماً ^(١) ، فقال الله له : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي

فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي

رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۖ ﴾ (٢) فدل ذلك على أن القول بالأولية فيه اختلاف

كبير بين العلماء ، بسبب اختلاف اعتبار كل قول ^(٣) .

وبعد نزول أوائل سورة المدثر تتابع الوحي ، واستمر في مكة والمدينة ، حتى

لقي الرسول ربه ..

* * *

^(١) انظر : تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٠ ، ٥٢٢ بتصرف .

^(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٧٢ .

المبحث الثاني عشر

السيرة المحمدية

من الرسالة حتى الهجرة

بعد أن كلف رسول الله " ﷺ " بالرسالة تحول نشاطه إلى العمل بالتبليغ وسيطرت عليه جوانب الرسالة سيطرة كاملة .

فهو " ﷺ " يتلقى الوحي من الله ، ويبلغه لمن حوله ، ويدعوه به كل من بلغ ويبدل في سبيل هذا وقته ، وجهده ، ونشاطه كله .

وكانت زوجته معه خير رفيق لهذه الرحلة الكريمة الشاقة ..

وحيث أن الفصل التالي خاص بحركة الرسول " ﷺ " بالدعوة إلى الناس ، وهو بذلك متضمن للرسول محمد ، ورسالاته في الفترة المكية ، فإننا أورد هنا أهم الأحداث المتصلة بالسيرة المحمدية موضوع الفصل .

وتتميماً لجوانب السيرة الشخصية لمحمد " ﷺ " في الفترة المكية فإننا سأورد الملامح العامة لسيرة محمد " ﷺ " خلال هذه الفترة مع التركيز على ما له صلة بالجانب الشخصي عنده " ﷺ " ، وبذلك نقدم السيرة لننتقل إلى حركته " ﷺ " بالدعوة بعد ذلك .

وهذا سوف يتضمن هذا المبحث عدداً من المواقف التي تحدد مسار السيرة النبوية ، وهي : —

أولاً .

المرحلة السرية والسابقون إلى الإسلام

عاش النبي " ﷺ " بعد الرسالة في بيئة متألفة ، متحابّة ، فلقد كان " ﷺ " يربى علماً ، ويتفق عليه ، وكان معه مولاة زيد بن حارثة ، بالإضافة إلى زوجته وأولاده . فتكونت بذلك جماعة متألّفة تجعل حركة الحياة في إطارها سهلة ، ميسرة . وهذا من فضل الله على محمد " ﷺ " ليقوم بمهام الرسالة على وجهها .

فلقد آمنت خديجة "رضي الله عنها" بالرسالة من لحظتها الأولى، وأخذت
 طمئن محمدًا "ﷺ" وتسرى عنه، وتفسر له ما يرى في الغار بما يريجه ويرضيه،
 وتشاركه في مشاغله، ومسائله، يقول ابن إسحاق: وأمنت به خديجة بنت خويلد
 وصلفت بما جاء به من الله، وآزرته على أمره، فكانت أول من آمن بالله ورسوله
 وصدقت بما جاء به، فخفف الله بذلك عن رسوله، لا يسمع بشئ يكرهه من رد
 عليه، وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرح الله عنه بما، إذا رجع إليها، تثبته، وتخفف
 عليه، وتصدقفه، وهون عليه أمر الناس، يرحمها الله تعالى (١).

وكانت "رضي الله عنها" عاقلة، حكيمة، تكون حيث يكون، وتحب
 ما يحبه، وتتمني ما يتمناه، آمنت بالدعوة، وعبدت ما كان يعبد في صدق وإخلاص.
 جاء جبريل "العليه السلام" إلى رسول الله "ﷺ" يعلمه الوضوء والصلاة بطريقة
 عملية، ففى الخبر أن جبريل أتى محمدًا "ﷺ" وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في
 ناحية الوادي، فانفجرت له منه عين، فتوضأ جبريل، ورسول الله "ﷺ" ينظر إليه
 ليريه كيفية الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله "ﷺ" كما رأى جبريل يتوضأ،
 ثم أقام به جبريل فصلى به، وصلى رسول الله "ﷺ" بصلاته.

ولما انصرف جبريل جاء رسول الله "ﷺ" إلى خديجة، فتوضأ أمامها، يريها
 كيفية الطهور للصلاة، كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله "ﷺ"
 ثم صلى لها كما صلى به جبريل، فصلت بصلاته (٢).

ثم إن على بن أبي طالب رأى رسول الله وخديجة يصليان فقال: ما هذا يا محمد؟
 فقال رسول الله "ﷺ": دين الله الذي اصطفى لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك
 إلى الله وحده، لا شريك له، وإلى عبادته، وإلى الكفر باللات والعزى.

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٤٠٢.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣٩٨.

فقال علي : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فليست بقاض أمراً حتى أحدث به
أبا طالب ليأذن لي فيه .

وكره رسول الله " ﷺ " أن يفشي علي سره قبل أن يستعلن أمره .

فقال له : يا علي إذا لم تسلم فاكتم هذا .

فمكث علي تلك الليلة ، ثم إن الله تبارك وتعالى أوقع في قلب علي
الإسلام فأصبح غادياً إلى رسول الله " ﷺ " حتى جاءه فقال : ماذا عرضت علي
يا محمد ؟

فقال له رسول الله " ﷺ " : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر
باللات والعزى وتبرأ من الأنداد .

ففعل علي " ﷺ " وأسلم ^(١) .

وأما زيد بن حارثة فقد كان مع رسول الله " ﷺ " منذ صغره ، مولى له

لأن خديجة اشترته ، ووهبته للنبي " ﷺ " وعمره ثمانى سنوات ، وهو من أوائل من
أسلم حتى قال بعضهم : إنه أسلم قبل علي بن أبي طالب ، وبقي في كنف رسول

الله " ﷺ " ، ونزل القرآن باسمه في قصة زواجه بزينب بنت جحش ^(٢) يقول تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ

وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ رُبُّهُ

مِنْهَا وَطَرَّأَ زَوْجَانِكَهَا لَكَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا

قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ^(٣)

(١) سبيل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٤٠٣ .

(٢) أنظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ١٤٠ — ١٤٢ بتصرف .

(٣) سورة الأحزاب آية (٣٧) .

وإنما كانت الصلاة ، و كان الوضوء في أول المبعث على وجه الإباحة ،
 بالسنية ، فلما فرضت الصلاة في ليلة الإسراء ، جاء الأمر بالوضوء في القرآن الكريم
 لأداء الصلاة المفروضة .

وهكذا تألفت هذه الجماعة بالإسلام ، وتوحد عملها ، وهدفها ، مما جعل
 السعادة ترفرف على محمد " ﷺ " في بيته الكريم .

وسارت به الحياة هادئة في مرحلة الدعوة السرية ، ومدتها سنتان ونصف
 على الأرجح ، لأن كفار مكة تصوروا محمداً واحداً من الحنفاء الذين يتكلمون من
 غير أن يؤثروا في غيرهم ، وبخاصة أنه لا يتكلم مع كل الناس ، وإنما كان يتخير أفراداً
 قليلين متميزين بلين الجانب ، والتواضع مع التروى والهدوء .

كما تصوروا أن محمداً سيفتر عن دعوته ، ويتركها بعد مدة حين ينصرف
 إلى الأوجهاء عنه ، وصدقوا أنفسهم حينما رأوا أتباع محمد " ﷺ " من الفقراء ،
 والضعفاء ، فلما جهر محمد " ﷺ " بالدعوة ، ودخل في الإسلام عدد يزيد كل يوم
 شعروا بالخطر ، وبدأوا في المواجهة والمقاومة ، والعدوان .

ثانياً .

صلته بأعمامه

أعمام النبي " ﷺ " هم أبناء عبد المطلب ، وكانوا جميعاً يحبون محمداً ويرون
 فيه أحباهم عبد الله ، الذي استسلم للذبح فداء لهم ، ومات ، ومحمد حمل في بطن أمه
 حتى أن عمه أبا لهب أعتق جاريته " ثويينة " فرحاً بمولده " ﷺ " .

وقد أنزله جده منزلة خاصة ، فلما مات عبد المطلب ، كفله عمه الشقيق
 " أبو طالب " ، وكان أعمامه جميعاً يهتمون بشأنه ، فإذا رحل للتجارة أوصوا القافلة به .
 وفي يوم زواجه من خديجة كانوا معه ، وشاركوه هذا الحدث السعيد .. فلما
 ولد له " ﷺ " البنين والبنات خطب عمه أبو لهب لولديه عتبة وعتيبة بنى رسول
 الله رقية وأم كلثوم .

وبعد أن أعلن محمد ﷺ "رسالته" ، ونادى في مكة بدين الله تعالى ظل عنه أبو طالب على دين قومه ، ولم يدخل في الإسلام ، ومع ذلك بقى يدافع عن محمد ﷺ ويرد من يقصده بسوء .

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب أبي خذلان رسول الله ﷺ وأعلن وقوفه بجانبه ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له : قد بلغنا يا أبا طالب الكثير عن ابن أخيك محمد ، هذا عمارة بن الوليد ، أهد فتى في قريش وأحمد فحذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فقتله ، فإننا هو رجل برجل .

فقال لهم أبو طالب : والله لبئس ما تسومونى ! أتعطونى ابنكم أغدوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ ! هذا والله مالا يكون أبداً .

فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن قصي : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً .
فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلان ومظاهرة القوم على ، فاصنع ما بدا لك ^(١) .

وقد تجمع أعمامه حوله " ﷺ " حماية له ما عدا أبي لهب ، فقد أعماه الله عن الحق ، وأخذ في عداوة محمد ﷺ " والصد عن الدعوة حتى أنه أمر ولديه بنظير بنات النبی " ﷺ " ، وأخذت أمراته في وضع الشوك ، والخطب ، والقذر أمام بيت محمد ﷺ " .

ولما عزم قريش على قتل محمد ﷺ جاءوا يستأذنون قومه ، وهم بنو هاشم ، وبنو المطلب ، لأخذه ، وقتله برضى قومه ، فأبوا ذلك عليهم ، ورفضوا تسليمه لهم مع أنهم لم يدخلوا في الإسلام يومذاك ، عصبية ، وخوفاً من العار . .

إن أعمام النبي ﷺ " ظلوا معه عصبية ، حتى أن عمه حمزة أسلم بسبب دفاعه عن محمد ﷺ " ..

فلقد حدثوا أن أبا جهل مر على محمد ﷺ " وهو عند الصفا فأذاه ، وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ " ولم يكلمه ، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان ، في مسكن لها تسمع ما قاله أبو جهل ، وشاء الله تعالى أن يمر حمزة راجعاً من قنص له ، متوشحاً قوسه ، فقالت له المرأة يا أبا عمار : لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد أنفاً من أبي الحكم عمرو بن هشام ، وجدده هنا جالساً فأذاه ، وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف ، ولم يكلمه محمد ﷺ " فاحتمل حمزة الغضب ، فخرج يسعى ، ولم يفت إلى أحد حتى أتى أبا جهل ، وهو جالس ، في نادى القوم حول المسجد ، فضربه بالقوس ، فشج رأسه شجة منكورة ، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه ، أقول ما يقول ، فرد ذلك على إن استطعت .

فقام رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل دعوا أبا عمار فإن الله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً .

وثبت حمزة من ساعتئذ على ما قاله ، فأسلم وحسن إسلامه ، ويومها عرفت قريش أن رسول الله ﷺ " قد عز ، والمسلمين معه ، بإسلام عمه حمزة المعروف بينهم بأنه أعز فتى في قريش ^(١) .

وهكذا دافع عنه أعمامه ، لمزلته بينهم ، وحسن تعامله ، وكرم خلقه ، ولو كان غير ذلك لخلعوه ، وتركوه .. أما عمه أبو طالب فقد استمر مع أعداء محمد بنصرهم ، ويصد عن سبيل الله تعالى .

(١) هذا الحبيب هو لؤي .

. ثالثا .

الجهر بالدعوة

ومواجهة متاعب أهل مكة

استمرت الدعوة سرية مدة عامين ونصف ، وبعدها أمر الله رسوله بالجهر بالدعوة — وهنا أخذ كفار مكة في صرف النبي عن دعوته ، وبدلوا لهذا الغرض كل ما أمكنهم ، وأهم ما لاقاه الرسول ﷺ منهم ما يلي : —

١ - السؤال عن مدى صدق محمد ﷺ :

أخذ كفار مكة يبحثون عن مطعن يوجهونه لـ محمد ﷺ ، فأرسلوا رسلهم إلى أهل الكتاب يسألون عن مدى علمهم بصدق محمد ، وكيفية كشف مزاعمهم . يقول محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، إلى أحرار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم سلوهم عن محمد ووصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجوا ، حتى أتوا المدينة ، فسألوا الأحرار عن رسول الله ﷺ ، ووصفوا لهم أمره ، وبعض قوله .

وقالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخرجكم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول ، فتروا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان من أمرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه .

وسلوه عن الروح ما هي ؟

فإن أخرجكم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول ، فاصنعوا في أمر ما بدا لكم .

بأقبل النضر ، وعقبة حتى قدما على قريش فقالوا : يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحرار اليهود أن نسأله عن أمور ، وأخبروهم بها .
فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد أخبرنا ، عن كذا وكذا ، وسألوه عن الأمور التي حددوها الأحرار .

فقال لهم رسول الله ﷺ : أخبركم غدا عما سألتكم عنه ، ولم يستثن فانصرفوا عنه ، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا ينزل عليه من الله وحى ، ولا يأتيه جبريل عليه السلام .

حتى أزعج أهل مكة ، وقالوا وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها ولم يخبرنا بشيء عما سألناه عنه .

ونال رسول الله ﷺ من انقطاع الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة . وبعد خمسة عشر يوما جاءه جبريل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، وفيها يعاتبه الله على حزنه عليهم ، ويخبره عما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف وقول الله عز وجل : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

فلما أخبرهم نبيا ما سألوا عنه ، رجعوا إلى أنفسهم ، وعلموا أنه لا طاقة لهم بمواجهة رسول الله ﷺ مواجهة عقلية ، فكرية ، ولذا لجأوا إلى العدوان ، والإيذاء المتأذى ، ونشر الأكاذيب ، والمفتريات حول محمد ودعوته .

٢ . موقف أبي لهب منه : لما نزل قول الله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾

﴿ ١ ﴾ " خرج رسول الله ﷺ حتى صعد النبي ﷺ على الصفا فهتف : يا صباحاه .

فقالوا : من هذا ؟ ! .

فجعل "ﷺ" ينادى : يا بني فھر ! يا بني عدی ! وهكذا لبطون قريش جميعاً ، حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ . فقال النبي "ﷺ" : أرايتكم إن أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقي ؟ ! .

قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً قط .

قال "ﷺ" : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعنا ؟ فقل — ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (١) وقد تب (١) .

ولم يكتف أبو لهب بهذا الموقف ، بل أخذ في التصدي لرسول الله "ﷺ" فكان يسير خلفه ويقول : إنه كاذب وأنا أعلم خبره ، فهو ابن أخي ... وأخذ هو وزوجته في وضع الشوك والخطب أمام بيت النبي "ﷺ" ليعجزه عن الخروج والحركة ، وفيه وفي زوجته نزل قول الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (٢) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٣﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٤﴾ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٥﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٦﴾ (٢)

٣ . السخرية والإستهزاء بمحمد "ﷺ" :

أخذ كفار مكة يستهزءون برسول الله "ﷺ" توهيناً لنفسه ، وصرفاً للناس عنه ، فكانوا ينادونه بالجنون ، يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَتَأَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ

(١) صحيح البخاري شرح فتح الباري — كتاب التفسير — باب سورة تبت ج ٨ ص ٧٣٧ ، والذات الخبرية

والندمير .

(٢) سورة المسد .

إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿١٠﴾ ۖ وَيَصِفُونَهُ بِالْسَّحَرِ وَالْكَذِبِ يَقُولُ سِحْرَانِهِ : ﴿١﴾ وَعَجِبُوا أَنْ
 جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَجَرٌ كَذَابٌ ﴿٢﴾ ۖ وَكَانُوا يَشِيعُونَهُ
 وَيَسْتَقْبِلُونَهُ بِنَظَرَاتٍ نَاقِمَةٍ، وَعَوَاطِفٍ هَائِجَةٍ، وَكَرَاهِيَةٍ ظَاهِرَةٍ، يَقُولُ تَعَالَى : ﴿٣﴾ وَإِنْ يَكَادُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٤﴾ ۖ
 وَكَانَ إِذَا جَلَسَ، وَحَوْلَهُ الْمُسْتَضْعِفُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ اسْتَهْزَأُوا بِهِمْ، وَقَالُوا هَؤُلَاءِ
 جُلَسَاؤُهُ الَّذِينَ ﴿٥﴾ مِنْ أَلَلِّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴿٦﴾ ۖ فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ وَحْدَهُ الْعَلِيمُ
 بِخَفَائِقِ النَّاسِ وَقُلُوبِهِمْ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ يَقُولُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿٧﴾ أَلَيْسَ
 اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٨﴾ ۖ ، فَأَنكَرَ عَلَيْهِمْ بِأَسْلُوبِ يَبْرُزُ جَهْلُهُمْ ، وَخِيَتُهُمْ .
 إِنْ كَفَرُوا مَكَّةَ كَانُوا يَتَصَرَّفُونَ بِاسْتِعْلَاءٍ وَجَبْرُوتٍ ، وَهُمْ يَتَعَامَلُونَ مَعَ رَسُولِ
 اللَّهِ ، وَسَائِرِ أَصْحَابِهِ ، حَتَّى أَكْثَمَ جَعَلُوا الْمُؤْمِنِينَ مَادَّةَ سَخَرِيَّتِهِمْ ، وَدَعَابَةِ مَجَالِسِهِمْ ،
 يَتَضَاحَكُونَ مِنْ عَقِيدَتِهِمْ ، وَيَتَغَامَزُونَ إِذَا رَأَوْهُمْ ، وَإِذَا رَجَعُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ تَفَكَّهُوا
 بِسِيرِهِمْ ، مُعْتَقِدِينَ أَنَّهُمْ ضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ ، بَتَرَكَهُمْ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿٩﴾ إِنْ
 الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ
 ﴿١١﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ
 لَضَالُّونَ ﴿١٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿١٤﴾ ۖ

١٠ سورة الحجر آية (٦) .

١١ سورة ص آية (٤) .

١٢ سورة النظم آية (٥١) .

١٣ سورة الأنعام آية (٥٣) .

١٤ سورة الأنعام آية (٥٣) .

١٥ سورة المطففين الآيات (٢٩ — ٣٣) .

٤ . بث الدعاية الكاذبة عنه :

أخذ الكفار يثنون الدعايات الكاذبة حول شخصية محمد ﷺ " وعن القرآن الكريم الذى ينزل عليه حتى لا يصدقه أحد، فقالوا عن القرآن ما حكاه الله تعالى في قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ (١) وقالوا أسطير الأولين أكتبتهأ فهي تُملَى عليه بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٢) وقالوا عن الرسول : ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ (٣) .

وكل ما قالوه ظاهر البهتان ، لأن القرآن الكريم كلام الله ، ولو كان من عند محمد كما زعموا فما بالهم يعجزون عن الإتيان بأقصر سورة منه ؟ ؟ ومن هم هؤلاء الآخرون الذين يعينون محمدًا ؟ ؟ ! إنهم بشر كما يزعمون فلم يتركوهم يفعلون ؟ ولم لا يواجهوهم بالتحدى ؟ ؟ وهل يكتب محمد عنهم وهو أُمى ؟ ؟ لقد جاءوا بالزور والبهتان ! ! ولم يعترضون على بشرية محمد ﷺ " أيريدونه ملكًا ؟ وكيف يتعاملون مع الملك ؟ إن قلوبهم قد عميت ، وكل اعتراضهم تبريرات لكفرهم وعتوهم . . وقد رأيناهم يبحثون عن أى علة تساعدتهم على كفرهم .

ذكروا أن الوليد بن المغيرة قال مرة لقريش : يا معشر قريش ! والله لقد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بخيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم حديثاً ومسلِكاً ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفتهم ، وعقدتهم .

(١) سورة الفرقان آية (٤ ، ٥) .

(٢) سورة الفرقان آية (٧) .

وقلتهم : كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة ، وتخالجهم وسمعنا سجعهم .
 وقلتهم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها ،
 فزججه ، ورجزه ...

وقلتهم : مجنون ، لا والله ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ،
 ولا تخطيطه ، يا معشر قريش أنظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .
 ثم ذهب الوليد إلى الخيرة بحثاً عن حل يريده ، فتعلم بها أحاديث ملوك الفرس
 ووقف على أخبار رستم ، وأسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله " ﷺ " مجلساً
 للتذكير بالله والتحذير من نعمته ، خلفه النضر ، وهو يقول : والله ما محمد بأحسن
 حديثاً مني ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ، ورستم وأسفنديار ، ثم يقول : بماذا يكون
 محمد أحسن حديثاً مني ^(١) .

وما درى الوليد أن حديث محمد " ﷺ " مع جماله يتضمن ديناً صالحاً ،
 ومنهجاً طيباً ، وطريقاً لتحقيق سعادة الدنيا والآخرة وهو كلام الله .. وأما حديثه فهو
 خيال كاذب ، وإخبار لفظي لا حقيقة فيه ، ولا غاية له .. ولا فائدة معه .

وفي الوليد بن المغيرة المخزومي نزل قول الله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ
 وَجِيدًا ۖ ﴿١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ ﴿٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ ﴿٣﴾ وَمَهْدَتْ لَهُ تَمْهِيدًا
 ۖ ﴿٤﴾ ثُمَّ يَصْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِأَيْتِنَا عَنِيدًا ۖ ﴿٦﴾ سَأَرْهِقُهُ صَعُودًا ۖ ﴿٧﴾
 إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ ﴿٨﴾ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ﴿٩﴾ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ﴿١٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ﴿١١﴾ ثُمَّ
 عَبَسَ وَتَسَرَّ ۖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ ﴿١٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۖ ﴿١٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا
 قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ ﴿١٥﴾ ۞ ^(٢) وقصته مع القرآن الكريم ، ومع محمد " ﷺ " تشبه ما فعله النضر

^(١) تفهيم القرآن ج ٤ ص ٩ .

^(٢) سورة المدثر الآيات (١١ - ٢٥) .

ابن الحارث فلقد ذكروا أن النضر قال : والله لقد نظرت فيما قال محمد ، فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو ما يعلو عليه ، وما أشك أنه سحر ، فكأنه رقى له .

فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام فأتاه فقال : أي عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً .

قال : لم ؟

قال : يعطونكك فإنك أتيت محمداً تعرض لما قبله .

قال : قد علمت قریش أني أكثرها مالاً .

قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك منه أنك منكر لما قال ، وأنت كاره له .

قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجره ،

ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إن

لقوله الذي يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلو .

قال أبو جهل : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه .

قال : فدعني حتى أتفكر فيه ، فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره .^(١)

هـ - مساومات وتخليط :

حاول الكفار مرات عديدة أن يتعاون معهم محمد " ﷺ " في خلط الإسلام

بالكفر ، ليكونا سوياً ديناً خليطاً من هذا وذاك ، وأن يعبدوا الله يوماً ، ويعبد محمداً

أصنامهم يوماً آخر وهكذا .

يروى ابن إسحاق بسنده أن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ،

والوليد بن المغيرة ، وأمّية ابن خلف ، والعاص بن وائل السهمي — وكانوا ذوي أسنان

في قومهم — اعترضوا محمداً ، وهو يطوف بالكعبة ، وقالوا له : يا محمد هلّم فلنعبد

ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشرك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذي تعبد خيراً مما

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٣ .

عبد كما قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما نعبد كنت قد أخذت
 بخلقك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا
 تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ
 عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾^(١) ، فكانت المفاصلة الكاملة بين
 الإيمان ، والكفر .

١٠ الإضطهاد البدني :

كان أشد الناس إيذاء لرسول الله جيرانه ، وعلى رأسهم عمه أبو لهب ،
 يقول ابن إسحاق : كان نفر الذين يؤذون رسول الله " ﷺ " في بيته أبا لهب ،
 والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وعقبة بن أبي معيط ، وعدى بن حمراء الثقفي ،
 وابن الأصداء الهذلي — وكانوا جيرانه — لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص
 فإنه أسلم فيما بعد ، فكان أحدهم يطرح عليه " ﷺ " رحم الشاه ، وهو يصلي ، وكان
 أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له ، حتى اتخذ رسول الله " ﷺ " حجراً ليستتر به
 منهم إذا صلى ، فكان رسول الله " ﷺ " إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على
 العود فيقف به على بابه ، ثم يقول : يا بني عبد مناف أي جوار هذا ؟ ثم يلقيه في
 الطريق^(٢) .

وارداد عقبة بن أبي معيط في شقاوته وخبثه ، فقد روى البخاري عن عبد الله
 ابن مسعود " رضي الله عنه " : أن النبي " ﷺ " كان يصلي عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب
 له جلوس ، إذ قال بعضهم لبعض : أيكم يحيى بسلاً جزور بني فلان ، فيضعه على ظهر
 محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط) فجاء به ، فنظر ،

^(١) سورة الكافرون .

^(٢) سورة النبي لابن هشام ج ١ ص ٣٦١ .

^(٣) سورة النبي ج ١ ص ٤١٦ .

وكان أبو جهل يحى أحياناً إلى رسول الله ﷺ " بسمع منه القرآن ، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ، ولا يطيع ، ولا يخشى ، ويؤذى رسول الله ﷺ " بالقول ، ويصد عن سبيل الله ، ثم يذهب مختلاً بما يفعل ، فخوراً بما ارتكب من الشر ، كأنما فعل شيئاً يذكر ، وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴾ (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ (٣٤) ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ (٣٥) ﴿ (١)

وكان يمنع النبي ﷺ " عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلي في الحرم ، ومرة مر به وهو يصلي عند المقام فقال : يا محمد ألم أهلك عن هذا ، وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ " وانتهره ، فقال : يا محمد بأى شئ تهددني ؟ أما والله إلى أكثر هذا الوادى نادياً ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ (٣٦) ﴿ (٢)

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهاز ، بل ازداد شقاوة فيما بعد ، أخرج مسلم عن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟

ف قيل : نعم !

فقال : واللات والعزى ، لئن رأيته لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب . فأتى رسول الله ﷺ " وهو يصلي ، ليطأ رقبته ، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبه مهزولاً ، ويتقى بيديه .

فقالوا : ما لك يا أبا الحكم ؟

قال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار ، وهولاً ، وأجنحة .

فقال رسول الله ﷺ " : لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً (٣)

(١) سورة القلم الآيات (٣١ — ٣٥) .

(٢) سورة العلق آية (١٧) .

(٣) تنصير سيرة الرسول ﷺ " ص ١٢٦ .

٧ - محاولة قتل محمد ﷺ :

وصل حد كراهية القوم لرسول الله ﷺ " أن كفار مكة حاولوا قتله من ذلك أن عتية بن أبي هب أتى يوماً إلى رسول الله ﷺ " فقال : أياك أكفر بـ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ ^(١) و ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ ^(٢) ثم تسلط على الرسول بالأذى ، وشق قميصه ، وتفل في وجهه " ﷺ ، إلا أن البزاق لم يقع عليه وحينئذ دعا عليه " ﷺ وقال : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك .

وقد استجيب دعاؤه " ﷺ " فقد خرج عتية مرة في نفر من قريش ، حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء ، فطاف بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل عتية يقول : يا ويل أخى هو والله أكلى كما دعا محمد عليّ ، قتلنى وهو بمكة ، وأنا بالشام ، فغدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه ^(٣) .

وفي رواية هشام عن عروة عن أبيه ، أنه لما طاف الأسد بهم تلك الليلة انصرف عنهم ، فجعلوا عتية وسطهم ، فأقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتية ففدغه ^(٤) .

ومنها ما ذكر أن عقبة بن أبي معيط وطئ على رقبته الشريفة " ﷺ " وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان ^(٥) .

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله " ﷺ " ما رواه ابن إسحاق في حديث طويل ، قال : قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما تروى من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم أهتنا ، وإني أعاهد الله لأحس

^(١) سورة النجم آية (١) .

^(٢) سورة النجم آية (٨) .

^(٣) مختصرة سيرة الرسول " ﷺ " ص ١٣٥ .

^(٤) المرجع السابق ص ١٣٦ .

^(٥) المصدر السابق ص ١١٣ .

له غداً بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك ، أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبداً ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل ، أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ﷺ " ينتظره ، وغدا رسول الله ﷺ " كما كان يغدو ، فقام يصلي ، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديةهم ، ينتظرون ما يفعله أبو جهل ، فلما سجد رسول الله ﷺ " ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقماً لونه ، مرعوباً قد يست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده .

وقام إليه رجال قريش ، فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟

قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بي أن يأكلني .

قال ابن إسحاق : فذكر لي أن رسول الله ﷺ " قال : ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه ^(١) .

أما طغاة قريش فلم تزل فكرة قتل النبي ﷺ " تنضج في قلوبهم ، وتكبر في عقولهم ، وتفكيرهم ، روى ابن إسحاق بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : حضرهم وقد اجتمع أشرافهم في الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ " ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم أبائنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وشب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ " فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك من وجه رسول الله ﷺ " .

فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك من وجهه ﷺ " .

ثم مر بهم الثالثة ، فعمزوه مثلها ، فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ؟
أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم
رجل إلا كأنما على رأسه طائر ، واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة ليرفقه بأحسن ما يجد
، ويقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولاً .

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم ، فوثبوا إليه
وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع رداءه ، وقسم
أبو بكر دونه ، وهو يبكي ويقول : أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه
، قال ابن عمرو : فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط ^(١) .

وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص
أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ ، قال : بينما النبي ﷺ يصلي في
حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً
فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبي ﷺ ، وقال : أقتلون رجلاً أن
يقول ربي الله ؟ ^(٢) .

وفي حديث أسماء : فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقال : أدرك صاحبك ، فخرج
من عندنا ، وعليه غدائر أربع ، فخرج وهو يقول : أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟
فلهوا عنه ، وأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا لا نعلم شيئاً من غدائره إلا رجوع معنا ^(٣)
ولم تغادر فكرة قتله " ﷺ " عقولهم ، وبخاصة بعدما رأوا انتشار الإسلام ، وصلاة
المسلمين ، وتأكدوا أن بقاء محمد " ﷺ " سوف يؤدي إلى القضاء على عبادة
الأصنام ، وحرمانهم من السيادة ، والتسلط ، وكان آخر محاولتهم مؤامرة ليلة الهجرة .

^(١) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ : والعمز الطعن والسب ، ووصاة أي توصية بالنسبة ليرفقه أي
يرفق .

^(٢) صحيح البخاري - باب ذكر ما لقى النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بحكمة ١ / ٥٤٤ .

^(٣) مختصر سيرة الرسول " ﷺ " ص ١١٣ .

٨. نتائج الاضطهاد :

مع الجهر بالدعوة، وخروج الرسول للعلن والمواجهة بدأ كفار مكة في إيذاء الرسول ، وأصحابه .

وكان الاضطهاد في بدايته قليلاً ، ضعيفاً ، ثم أخذ يشتد شيئاً فشيئاً ، حتى وصل إلى حد التآمر ، والتخطيط لقتل رسول الله ﷺ ، ونتيجة لهذا التصعيد في الاضطهاد أخذ رسول الله ﷺ يجمع أصحابه في دار الأرقم ليعلمهم الإسلام بعيداً عن كفار مكة، كما أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجر إليها كثير من أصحابه . وقد حاول كفار مكة اعتقال المهاجرين ، والفتك بهم ، لكنهم فشلوا ، ورأى المشركون والكفار أن أغلب المسلمين تركوا مكة ، وتركوا محمداً ﷺ مع قلة قليلة من أصحابه في مكة، وهاجروا إلى الحبشة، وغاظهم أن محمداً لم يضعف، ولم يترك دعوته ...

فذهبوا إلى عمه أبي طالب ، وقالوا له : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومثلة فينا ، وإنا قد استنهييناك من ابن أخيك فلم تنهه ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

عظم على أبي طالب هذا الوعيد، والتهديد الشديد ، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا ابن أخى إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا كذا فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله ، وأنه ضعف عن نصرته ، فقال : يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته — حتى يظهره الله أو أهلك فيه — ثم استعبر وبكى ، وقام .

فلما ولي ناداه أبو طالب ، فلما أقبل قال له : اذهب يا ابن أخى فقل ما

أحببت ، هو الله لا أسلمك لشيء أبداً ^(١) ، وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم — حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة — وأبشر وقر بذاك منك عيوناً ^(٢)

فلما لم يحقق ذهابهم نتيجة يرجونها من أبي طالب، رجعوا بحيلة أخرى حيث ذهبوا إليه بعمارة بن الوليد، ليأخذوه ويعطيهم محمداً، فأبى وقال لهم: والله لبئس ما تسومونني أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيتكم ابني تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبداً ^(٣).

وذهبوا إلى محمد " ﷺ " محاولين مساومته ، يقول ابن إسحاق : حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً قال يوماً ، وهو في نادي قريش ، ورسول الله " ﷺ " جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد ؟ فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟

وذلك حين أسلم حمزة " ﷺ " ورأوا أصحاب رسول الله " ﷺ " يكثرون ويزيدون فقالوا : بلى ، يا أبا الوليد قم إليه ، فكلمه ..

فقام إليه عتبة ، حتى جلس إلى رسول الله " ﷺ " فقال : يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آهاتهم ، ودينهم ، وكفرت بمن مضى من آياتهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها.

فقال رسول الله " ﷺ " : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال عتبة : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من

(١) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٢) مختصر سيرة الرسول " ﷺ " ص ٦٨ .

(٣) وقد سبق ذكر هذه المحاولة في ص ٣٣١ .

من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً .

وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ،

وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

ولما فرغ عتبة من حديثه .

قال له رسول الله ﷺ : أوقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم ، قال رسول الله ﷺ : فاسمع مني .

قال : أفعل .

فقال ﷺ : ﴿ حَمْدٌ ۝ تَزِيلُ ۝ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ۝ آيَاتُهُ ۝

قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ

حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا إِنَّنَا عَمِلُونَ ۝ ﴾ ثم مضى رسول الله ﷺ في السورة يقرأها عليه

فلما سمعها منه عتبة ، أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ،

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال : قد سمعت

يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فلما رجع عتبة إلى قومه رأوا فيه مالا يريدون ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد

جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا

بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني ، واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا

الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ،

فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم ^(١) ، وماذا أقول فيه ؟ والله إنه ليس من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن .

فقال له أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

قال : دعني أفكر فيه ، فلما اجتمع بقومه قال وقد حضر الموسم : يا معشر قريش

إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر

صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضاً .

قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس أقم لنا رأياً نقول فيه .

قال : بل أنتم فقولوا أسمع .

قالوا : نقول كاهن .

قال : والله ما هو بكاهن ، فقد رأينا الكهان فما هو بزممة الكاهن ، ولا

سجعه .

قالوا : فنقول مجنون .

قال : والله ما هو بمجنون فقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ، ولا تخالجه

ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر .

قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه

ومبسوطه فما هو بشاعر .

قالوا : فنقول ساحر .

قال : والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفسه ، ولا

بغفده .

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟

قال : والله إن لقوله حلاوة ، وإن عليه طلاوة ، وإن أصله لمغدق ، وإن فرعه
لشمر ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه
أن تقولوا ساحر ، فما يقوله سحر يفرق بين المرء وابنه ، وبين المرء وأخيه ، وبين
المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته .

فنفروا عنه بذلك ، وجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر
بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروه لهم .

وأنزل الله تعالى في الوليد قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ ①
رَجَعْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ ② وَبَيْنَ شُهُودًا ۖ ③ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ ④ ثُمَّ
يُطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ ⑤ كَلَّا ۚ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۖ ⑥ سَأَرْهِفُهُ ۚ صَعُودًا ۖ ⑦ إِنَّهُ
فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ ⑧ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ⑨ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ⑩ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ⑪ ثُمَّ عَبَسَ
وَسَرَ ۖ ⑫ ثُمَّ أَدْبَرَ ۖ وَآمَتْ كِبَرُ ۖ ⑬ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۖ ⑭ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ
الْبَشَرِ ۖ ⑮ ﴾ .

٩. أبو طالب يحفاظ للأمر :

رأى أبو طالب أن الكفار والمشركين قد اشتدت عداوتهم لحمد " ﷺ " ،
ورأى أنهم لن ينتهوا من مكائدهم إلا إذا تخلصوا من محمد " ﷺ " بأي وسيلة ممكنة
وذلك عار يلحق ببني عبد مناف ، يتحدث به العرب كلهم ، فجمع أبناء عبد مناف
وهم بنو أمية ، وبنو عبد شمس ، وبنو المطلب ، وبنو نوفل ، وبنو هاشم ، وعرض
عليهم خطورة الأمر ، وضرورة التكاتف ، والاتحاد في مواجهة عدوان كفار مكة

على ابن أخيهم محمد " ﷺ " ، فوافقهم بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأخذوا على أنفسهم الميثاق على حماية محمد " ﷺ " والدفاع عنه ، وعدم تسليمه إلى الكفار أبداً ، واتفقوا على ذلك مسلمهم وكافرهم ، ولم يشذ من هذين البطين إلا أبو هب فإنه انحاز مع كفار مكة ، ضد محمد ، ودعوته ، ولذلك يقول النبي " ﷺ " : كنا وبني المطلب معاً في الجاهلية والإسلام .

١٠ . المقاطعة العامة :

لما رأى كفار مكة أن بني هاشم وبني المطلب توثقوا ، وتعاهدوا جميعاً على حماية محمد " ﷺ " عملوا على مقاطعتهم ، وعدم التعامل معهم مطلقاً ، وتحالفوا على أن لا يجالسوهم ، ولا يبيعوهم ، ولا يشترون منهم ، ولا يدخلون بيوتهم ، ولا يكلموهم ، ولا يتزوجون منهم ، ولا يزوجهوهم حتى يسلموا محمداً لقتله ، والانتهاز من أمره ، وكتبوا بذلك ميثاقاً علقوه في جوف الكعبة .

واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات ، واشتد الأمر على بني هاشم وبني المطلب حتى أكلوا ورق الشجر ، وحوصروا في شعبهم ، لا يخرجون منه إلا في الأشهر الحرم للتعامل مع وفود الحج والعمرة ، وكان أهل مكة يزايدون عليهم لحرماتهم من كل خير ، حيث منعوا أن يتصل بهم أحد من القبائل البعيدة عن مكة ، وكانوا إذا رأوا تجارة قادمة سارعوا بشرائها قبل أن تصل إلى المحاصرين في الشعب ، مبالغين في تمثيلها ودام الحال على ذلك حتى قضى الله بنقض المقاطعة ، وتزريق الميثاق المكتوب (١)



(١) سيأتي حديث مفصل عن انتهاء المقاطعة في الفصل التالي .

المبحث الثالث عشر

عام الحزن

وبإشاء الله تعالى أن يتعرض محمد ﷺ " لامتحان شديد .. فبعد مضي عشر سنوات من بعثته يموت عمه أبو طالب ، وتموت زوجته خديجة بعده بأيام قليلة .
كان النبي ﷺ " يجد من كل منهما العون والمساعدة ، فلقد قام عمه بحمايته والتصدي لأعدائه ، وتحمل من أجل ذلك ، ومعه بنو هاشم ، وبنو المطلب مقاطعة قريش العامة ، وقد كان من ورائها الضرر الكبير .

وزوجته خديجة نعم الزوجة ، أمانة ووفاء ، كانت عاقلة ، وكانت كاملة ، عاشت النبي خمساً وعشرين سنة ، وعاملته بكل الرقة والحنان ، والحب ، وكانت تتابع أخباره ، وتسليه ، وتحاول إرضاءه بعقلها ، وحكمتها ، وتعاونته بما لها ، وبكل ما يمكنها .

يروى أنس بن مالك ﷺ " حادثة تدل على حكمة خديجة ، وحسن تصرفها ، وكمال عقلها .

يقول أنس ﷺ " : أن النبي ﷺ " كان عند أبي طالب ، فاستأذنه أن يوجه إلى خديجة فأذن له ، وبعث أبو طالب بعده جارية له يقال لها "نبعة" فقال لها : أنظري ما تقول له خديجة ؟ .. وما تقول لها ؟ .. بحثاً عن سر ما يراه بينهما من مودة وما يلمسه من ترابط .

قالت نبعة : فرأيت عجباً ، ما هو إلا أن سمعت به خديجة ، فخرجت إلى الباب ، فأخذت بيده فضمنها ، إلى صدرها ونحرها ، ثم قالت : بأبي وأمي ، والله ما أفعل هذا شيء ، ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي سبعت ، فإن تكن هو فأعرف حقى ، ومزلى ، وأدع الإله الذي يعيشك لي .

فقال لها " ﷺ " : والله لئن كنت أنا هو ، فقد اصطنعت عندي مالا أضيعه أبداً
 وأن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً ^(١) .
 يفقد الرسول " ﷺ " أبا طالب هذا ، وخديجة هذه ، في عام واحد ، بل وفي
 أسبوع واحد

ولذلك تألم كثيراً ، وسمى هذا العام عام الحزن ..

والموت قدر الله على جميع الخلق فـ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾
 ورسول الله " ﷺ " أول المؤمنين بقدر الله تعالى ، وهو أول الصابرين ، وكان حزيناً
 في حدود القدر المشروع .

وقضاء الله في موت أبي طالب وخديجة يتضمن حكماً جليلاً منها :
 * بيان أن حبيبہ " ﷺ " قدوة كاملة في الصبر الأمثل ، والتأسي الجميل ، لقد
 ابتلى النبي " ﷺ " بأقصى ما يتلى به الإنسان فلم يجزع ، ولم يفرق ، ولكنه كان
 خير معتمم بجناب ربه ، وأفضل لائد بحمي مولاه ، وليس غريباً على الذي فقد
 أباه قبل أن يولد ، وأمه وهو في الخامسة ، وجدته الذي كان عوضاً عن والده وهو
 في الثامنة ، وأولاده الذين يعتبرهم الناس زينة الحياة الدنيا وعزاء الله عن ذلك
 عزاء جميلاً ، ليس غريباً أن يعزيه الله أيضاً عن فقد العم وفقد الزوجة ، وعزاء الله
 خير عزاء .

* أراد الله أن تقوم أعمدة الإسلام على كواهل المسلمين أنفسهم ،
 فلق كان أبو طالب ينصر المسلمين مع احتفاظه بشركه ، فربما لو امتدت حياته
 حتى انتصار الإسلام ، وقيام دولة المسلمين ، لنسب الناس ذلك إلى زعامة هذا العم
 ومعاضدته ، ولكن الله كان أغير على دينه ، وأحرص على توطيده بجنود الإيمان ،
 وأبناء الإسلام ، ولذلك كانت الوفاة قبيل الهجرة بزمان وجيز .

أما إطلاق عام الحزن على هذا العام فليس مرده إلى حزن النبي ﷺ " على فقد عمه ، وزوجه ، فالنبي ﷺ " أصبر من أن تهزه أحداث الموت ، ولو كانت مزلة ، وهو أعرف الناس بالله ، وأقربهم منه ، وما شغل قلبه إلا بالدعوة الإسلامية ، والحرص على إبلاغها للناس ، والحرص على هدايتهم .. هذا هو الذي أحزنه ، أحزنه أن هذه الوفاة سيكون لها أثر في إنطلاق وحوش قريش ، يقطعون الطريق في وجه الدعوة ويضطشون بكل من يعلن إسلامه .

إن حزن الرسول ﷺ " كان من أجل انتصار الإسلام ، ونجاح الدعوة ، وكان يتألم كثيراً حينما يرى كفر قومه ، وإنصرفهم عن دين الله ، يقول تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بِنِجْعِ نَفْسِكَ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (١) .

ويقول سبحانه ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ

وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِغَايَتِ اللَّهِ تَجَحَّدُونَ ﴾ (٢) .

وقد حاول النبي ﷺ " أن يستعين بغير أهل مكة بعد وفاة عمه فقام بمحاولتين داعياً إلى الله تعالى : —

المحاولة الأولى :

ذهب النبي ﷺ " إلى ثقيف في الطائف ، واصطحب معه زيد بن حارثة ﷺ " مولاه .

والطائف بلدة لطيفة ، كثيرة الثمر ، معتدلة المناخ ، تقع شرقي مكة على مرتفع عال ، وهي مشهورة بعنبها ، وتينها ، ورماتها ، وثمرها ، وأزهارها ، وحدائقها الفححاء ، ولما وصل الرسول إليها ومعه زيد بن حارثة عمداً إلى حيث يجتمع سادة

(١) سورة الكهف آية (٦) .

(٢) سورة الأنعام آية (٣٣) .

ثقيف ، فجلس إليهم ، وكلمهم فيما جاء له ، من طلب نصرتهم للإسلام ، والقيام معه على من خالفه ، على أن يعيش بينهم .

بدأ حديثه يأخذ بأفتدة أغلب الحاضرين ، ويؤثر — كعادته — فيمن يصغون إليه ، وإذا بثلاثة إخوة من أشرف ثقيف ، هم لهم الرأي المسموع فيها ، يقطعون عليه حديثه ، وهم عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب ، أبناء عمرو بن عمرو .

فقال أحدهما مكذباً : أقطع ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك يا محمد !

وقال الثاني : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لكن كنت رسول الله كما تقول لأنك أعظم

قدراً من أن أرد عليك ، ولكن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك ^(١)

فقام رسول الله ﷺ من عندهم ، وقد يش من إيمان ثقيف ، وقد قال لهم :

إذا فعلتم ما فعلتم فاكنموا عني ، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه ، فشرهم

ذلك عليه ، فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبون له ويصيحون به ، حتى

اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى حائط لعبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه ،

فدخله ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل شجرة من عتب ،

فجلس تحته ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي

وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى

من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علي

غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت

له الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي

سخطك ، لك العتي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك) ^(٢)

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١٩ .

(٢) الكامل في التاريخ ج ١ ص ٣٤٥ .

بصور الحديث الصحيح الوارد في البخارى فعل ثقيف وقسوتهم على النبي ﷺ ،
فلقد روى البخارى بسنده عن عروة بن الزبير ، أن عائشة " رضي الله عنها " حدثته
أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟
قال : لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت
نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت — وأنا
مهموم — على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب — وهو المسمى بقرن
المنارل — فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ،
فنادانى ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله
إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال ، فسلم على ثم قال :
يا محمد : لك ماشئت فيهم ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين — ففعلت ،
(والأخشبان : هما جبال مكة ، أبو قبيس والذى يقابله وهو قيعان) — قال النبي ﷺ :
" بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده
لا يشرك به شيئا (١) .

وهكذا كانت رحمة رسول الله ﷺ مع الناس ، فبرغم ما لاقاه من ثقيف ،
ومن أبناء عمرو بن عمير لم يدع عليهم ، وإنما دعا لهم " ﷺ " .

المحاولة الثانية : عرض نفسه على القبائل :

أخذ رسول الله ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب الآتين للمواسم
حاجين أو معتمرين ، وكان يطلب منهم أن يؤمنوا بالله تعالى ، ويتركوا عبادة الأصنام
والأوثان ، على أن يخرج معهم إلى ديارهم ، ليمنعوه من غدر قريش ، وعداوتها ، حتى
يمكن من تبليغ رسالة الله ، وتوصيل دينه إلى الناس .

فمنهم من لم يؤمن بدعوته ، ورده رداً قبيحاً .

ومنهم من لم يؤمن به . . ولكنه وعد بحمايته .

ومنهم من كان بينه وبين الفرس موثيق تمنعه من الإيمان ، ونصرة الرسول ﷺ .
وكان على رأس من لم يؤمن بدعوته من القبائل ، ورد عليه رداً قبيحاً
قبائل كندة ، و كلب ، و بني حنيفة .

يتكلم محمد بن عمر الأسلمي عن بني حنيفة فيقول : نسأل الله أن لا يحرمنا
الجنة ، لقد رأيت رسول الله ﷺ " جاءنا ثلاثة أعوام بعكاظ ، وبالجنة ، وبذي الحجاز ،
بدعونا إلى الله — عز وجل — على أن نمنع له ظهوراً ، حتى يبلغ رسالات ربه ،
ويشروط لنا الجنة ، فما استجبنا له ، ولا رددنا عليه رداً جميلاً ، فحششنا عليه وحشماً عنا (١)
يروى مدرك بن منيب عن أبيه عن جده فيقول : رأيت رسول الله ﷺ في
مكة وهو يقول : يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، فمنهم من تفلح
وجهه ، ومنهم من حشا عليه التراب ، ومنهم من سبه ، حتى انتصف النهار ، فأقلت
جارية بعس من ماء فغسل وجهه ، ويديه ، وقال : يا بنية لا تخشى على أهلك غلبة ولا
ذلة فقلت : من هذه ؟

قالوا : زينب بنت رسول الله ﷺ ، وهي جارية وضيئة (٢)
ومن القبائل التي أحسنت لقاء النبي ﷺ " بنو شيبان بن ثعلبة ، فعن علي
ابن أبي طالب " أنه قال : لما أمر الله عز وجل نبيه ﷺ " أن يعرض نفسه على
قبائل العرب خرج وأنا معه ، ومعنا أبو بكر ... ثم ذهبنا إلى مجلس آخر عندهم
السكينة والوقار ، فتقدم أبو بكر فسلم فقال : من القوم ؟
قالوا : من شيبان بن ثعلبة .

فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ " وقال : بأبي وأمي هؤلاء غرر الناس ، وفيهم
مغروق بن عمرو ، وهانيئ بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ،
وكان مغروق قد غلبهم لساناً ، وجمالاً ، وكانت له غدirtان تسقطان على ثريته .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٩٥ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٩٤ .

وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر .

فقال أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟

فقال مغروق : إنا لا نزيد على الألف ولن تغلب ألف من قلة .

فقال أبو بكر : وكيف المنعة فيكم ؟

فقال مغروق : إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى ، وأشد ما نكون لقاء حين

نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله

بدلنا مرة ، ويدل علينا أخرى ، لعلك أخا قريش ؟

فقال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله ﷺ " فها هو ذا .

فقال مغروق : إلام تدعوننا يا أخا قريش ؟

فقال رسول الله ﷺ : أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،

وأن عبد الله ورسوله ، وإلى أن تؤووني ، وتنصروني ، فإن قريشاً قد تظاهرت على الله

وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد .

فقال مغروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فو الله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا

فقال رسول الله ﷺ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ

شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا

تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ

ذَلِكَ وَصَّنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

فقال مغروق : دعوت — والله — إلى مكارم الأخلاق ومخاسن الأعمال ،

ولقد أفك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك .

ثم رد الأمر إلى هاني بن قبيصة فقال : وهذا هاني شيخنا ، وصاحب ديننا .

فقال هاني : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، وإن أرى تركنا ديننا ، وإتباعنا دينك
لجلس واحد جلست إلينا فيه ، لا أول له ولا آخر ، لذل في الرأي ، وقلة نظر في
العاقبة ، إن الزلة مع العجلة ، وإنا نكره أن نعقد على من وراءنا عقداً ، ولكن نرجع
وننظر ، وننظر ، وننظر .

ثم كأنه أحب أن يشرکه المثنى بن حارثة فقال : وهذا المثنى شيخنا ، وصاحب حربنا .
فقال المثنى : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، والجواب فيه جواب هاني بن قبيصة ، إن
تركنا ديننا ، ومتابعنا دينك وإنا إنما نزلنا بين صريين : أحدهما الإمامة ، والآخر السمامة .
فقال له رسول الله ﷺ : ما هذان الصريان ؟ قال : أكلار كسرى ، ومياه العرب .
فأما ما كان من أكلار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ، وأما
ما كان مما يلي مياه العرب فذنب صاحبه مغفور ، وعذره مقبول ، وإنا إنما نزلنا على
عهد أخذہ علينا كسرى ، أن لا نحدث حدثاً ، ولا نؤوي محدثاً ، وإن أرى هذا
الأمر الذي تدعوننا إليه يا أخا قريش ، مما تكرهه الملوك ، فإن أحببت أن تؤويك
وننصرک ، مما يلي مياه العرب فعلنا .

فقال رسول الله ﷺ : ما أسأتم في الرد إذ أفصحتهم بالصدق ، وإن دس
الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه ، رأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً
حتى يورثكم الله تعالى أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، أتحبون الله تعالى وتقدسونه ؟
فقال النعمان : اللهم فلك ذاك .

فتلا عليهم رسول الله ﷺ : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيرًا

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (١) .

ثم خفض رسول الله ﷺ (٢) .

(١) سورة الأحزاب آية (٤٥ ، ٤٦) .

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم ص ٢٣٧ .

ومن القبائل التي أعلنت استعدادها لإيواء النبي ﷺ " مع عدم الإيمان به
بنو كعب بن ربيعة ، وكاد الرسول ﷺ أن يذهب معهم لولا طاعة من طاعة
البشر ردهم عما عزموا عليه .

يروى أبو نعيم عبد الرحمن العامري عن أشياخ من قومه قالوا : أتانا رسول
الله ﷺ ونحن بسوق عكاظ فقال : من القوم ؟

قلنا : من بني عامر بن صعصعة بنو كعب بن ربيعة .

فقال : إن رسول الله إليكم ، أتيتكم لتمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ، ولا أكره أحداً
منكم على شيء .

قالوا : لا تؤمن بك ، وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك .

فأتاهم ببحرة بن فراس القشيري فقال : من هذا الرجل الذي أراه عندكم أنكره ؟

قالوا : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

قال : فما لكم وله ؟

قالوا : زعم أنه رسول الله ، فطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه .

قال : ما رددتكم عليه ؟

قالوا : بالرحب والسعة نخرجه إلى بلادنا ونمنعه مما نمنع منه أنفسنا .

فقال ببحرة : ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشد من شيء ترجعون

به ! أتعمدون إلى رهيق قوم طردوه ، وكذبوه فتؤووه ، وتنصروه ، تنايدوا العرب

عن فوس واحدة ، قومه أعلم به ، فبئس الرأي رأيكم ، ثم أقبل على رسول الله ﷺ

فقال : قم فالحق بقومك فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك ^(١) .

ونلاحظ أن أهل مكة لم يتركوا محمداً يتصل بالناس ، بل سلطوا عمه

أبا لهب وأبا جهل يسيران خلفه ، أحدهما بعد الآخر بالتناوب ، وكلما خاطب قوماً

ودعاهم إلى الله يقول أبو لهب، ويقول أبو جهل : يا بني فلان ، إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وتتركوا حلفاءكم من الجن ، إلى ما جاء به من البدعة ، والضلالة ، فلا تطيعوا ، ولا تسمعوا منه .

يقول طارق بن عبد الله : إن بسوق ذي الحجاز ، إذ مر رجل بي عليه حلة من برد أحمر ، وهو يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ورجل خلفه قد أدمى عرقوبيه وساقبيه يقول : يا أيها الناس إنه كذاب فلا تطيعوه .

فقلت : من هذا ؟ قالوا : غلام بني هاشم الذي يزعم أنه رسول الله ، وهذا عبد العزى ^(١) (أبو لهب) .

ويروى الإمام أحمد بسنده عن رجل من كنانة يقول : رأيت رسول الله ﷺ

بسوق ذي الحجاز وهو يقول : يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا .

وإذا رجل خلفه يسفي عليه التراب ، وإذا هو أبو جهل ، يقول : يا أيها الناس لا يفرنكم هذا عن دينكم ، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى .

يتبعه حيث ذهب ورسول الله ﷺ يفر منه ، وما يلتفت رسول الله ﷺ إليه ^(٢) .

* * *

(١) سورة النبي لابن هشام ج ١ ص ٤٢٣ .

(٢) سورة ابن كثير ج ٢ ص ١٥٦ .

المبحث الرابع عشر

زواج النبي ﷺ

بعد وفاة خديجة

بعد وفاة خديجة " رضي الله عنها " تزوج النبي ﷺ غيرها ، وهو في مكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فعقد على عائشة في مكة ، ودخل بها في المدينة ، وتزوج سودة بنت زمعة ، ودخل بها في مكة ، وتزوج أيضاً أم حبيبة بنت أبي سفيان " رضي الله عنهم أجمعين " حيث عقد عليها وهي في الحبشة ، ودخل بها بعد عودتها إلى المدينة بعد الهجرة .

وهذا تعريف هؤلاء الزوجات : —

أولاً : سودة بنت زمعة " رضي الله عنها " :

روى ابن إسحاق — من طريق يونس بن بكير — أن النبي ﷺ " تزوجها بعد خديجة ودخل بها في مكة قبل الهجرة ، ولم يصب منها ولداً ، وكانت عائشة " رضي الله عنها " تقول عنها : ما رأيت من امرأة أحب إلي أن أكون في مسلاخها من سودة بنت زمعة ^(١) .

يورد ابن كثير قصة زواج النبي ﷺ " بسودة ، وعائشة ، فيقول : لما ماتت خديجة جاءت خولة بنت حكيم ، امرأة عثمان بن مظعون إلى رسول الله ﷺ " ، فقالت : يا رسول الله ألا تتزوج ؟

قال : من ؟

قالت : إن شئت بكراً ، وإن شئت ثيباً .

قال : فمن البكر ؟

قالت : أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبي بكر .

قال : ومن الثيب ؟

^(١) الطهطاوي الكوفي ج ٨ ص ٥٧ .

قالت : سودة بنت زمعة ، قد آمنت بك واتبعتك .

قال : فاذهبي فاذكريهما علي ، فدخلت بيت أبي بكر فقالت : يا أم رومان ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟

قالت : وما ذاك ؟

قالت : أرسلني رسول الله " ﷺ " أخطب عليه عائشة .

قالت : انظري أبا بكر حتى يأتي ، فجاء أبو بكر ، فقلت : يا أبا بكر ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟

قال : وما ذاك ؟

قالت : أرسلني رسول الله " ﷺ " أخطب عليه عائشة .

قال : وهل تصلح له ، إنما هي ابنة أخيه ، فرجعت إلى رسول الله " ﷺ " ، فذكرت ذلك له .

قال : ارجعي إليه ، فقل له : أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام ، وابتك تصلح لفرجعت فذكرت ذلك له ، قال انتظري ، وخرج ، ثم رجع فقال الخولة : ادعي رسول الله " ﷺ " فدعته ، فزوجها إياه ، وعائشة يومئذ بنت ست سنين . ثم خرجت فدخلت علي سودة بنت زمعة فقالت لها : ما أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟

قالت : وما ذاك ؟

قالت : أرسلني رسول الله " ﷺ " أخطبك إليه .

قالت : وددت ، أدخلني إلى أبي بكر (والدسودة) فاذكري ذلك له ، وكان شيخاً كبيراً قد أدركه السن ، فدخلت عليه وحيته ، فقال : من هذه ؟ قالت : خولة بنت حكيم .

قال : فما شأنك ؟

قالت : أرسلني محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة .

فقال : كفؤ كريم ، ماذا تقول صاحبك ؟

قالت : نعم ذلك .

قال : ادعيها إلي ، فدعتها ، قال : أي بنية إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن

عبد المطلب قد أرسل يخطبك ، وهو كفؤ ، كريم ، أتخين أن أزوجه بك به ؟

قالت : نعم .

قال : ادعيه لي ف جاء رسول الله ﷺ " فزوجها إياه ^(١) .

وقد شككت سودة ظروفها لرسول الله ﷺ " ، وحاولت أن تعتذر عن

الزواج به ، فسألها رسول الله ﷺ " : ما يمنعك مني ؟

قالت : والله يا نبي الله ما يمنعني منك أن لا تكون أحب البرية إلي ، ولكني أكرمك أن يمنعوا هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة ، وعشية .

قال : فهل منعك مني غير ذلك ؟

قالت : لا والله ، قال لها رسول الله ﷺ " : يرحمك الله ، إن خير نساء ركن أعجاز

الإبل ، صالحو نساء قريش ، أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على بل بذات يده ^(٢) .

وهي التي وهبت يومها من رسول الله ﷺ " لعائشة ، وذلك حينما كبرت

فكان رسول الله ﷺ " يقسم لعائشة يومين : يومها ، ويوم سودة ^(٣) .

ونفهم من رواية الصحيحين أنها كانت امرأة — مع كبر سنها فيما بعد —

كبيرة الجسم حتى أنها لتعرف وتميز بين النساء إذا مشت ، حتى قال عمر ذات يوم —

وقد خرجت سودة ليلاً — : إنك والله يا سودة ما تخفين علينا ^(٤) .

وتصفها بعض الروايات بأنها كانت ثقيلة ، ثبطة ، بطيئة الحركة ، ولهذا

استأذنت النبي ﷺ " ليلة جمع (مزدلفة) في الدفع قبل حطمة الناس فأذن لها ^(٥) .

^(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٢ .

^(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢١ .

^(٣) صحيح البخاري — كتاب النكاح — باب كثرة النساء ج ٨ ص ١٢٧ .

^(٤) صحيح البخاري — كتاب النكاح — باب خروج النساء لخواتمهن ج ٨ ص ٢٠١ .

^(٥) صحيح البخاري — كتاب الحج — باب من قدم من صعدة أهل ج ٤ ص ١٦٦ .

ثانيا : عائشة بنت أبي بكر " رضي الله عنها " :

تزوج النبي ﷺ عائشة " رضي الله عنها " بعد وفاة خديجة بثلاث سنين^(١) ، والذي يظهر من غالبية الروايات أن عقده " ﷺ " عليها كان بمكة وعمرها ست سنوات ، أما الدخول بها فكان بالمدينة وهي بنت تسع سنين^(٢) .

ومما يؤكد صغر سنها حين الزواج لعبها مع البنات عند رسول الله ، ومع صواحبها ينقمعن من رسول الله ، فيسرن إليها^(٣) .

وقد خطبها النبي ﷺ " من أبي بكر ، فقال أبو بكر : إنما أنا أخوك ! فقال له النبي ﷺ " : أنت أخي في دين الله وكتابه ، وهي لي حلال .

أما عن كيفية دخوله " ﷺ " بها : فتحدثنا عائشة وتقول : تزوجني النبي ﷺ " وأنا بنت ست سنين ، فقدمنا المدينة ، فترلنا في بني الحرب بن حرج ، فوعكت ، فتمرق شعري فوثي جميمه ، فأثنتي أمي أم رومان ، وإلى لقي أرجوحة ، ومعى صواحب لي ، فصرخت بي ، فأثيتها لا أدرى ما تريد بي ، فأخذت يدي حتى أوقفتني على باب الدار ، وإلى لنهج حتى سكن بعض نفسي ، ثم أخذت شيئا من ماء فمسحت به وجهي ورأسي ، ثم أدخلتني الدار ، فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن : على الخير والبركة ، وعلى خير طائر ، فأسلمتني إليهن ، فأصلحن من شأن ، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ " ، فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين^(٤) .

وزواج النبي ﷺ " بعائشة كان بعد رؤيا رآها في المنام تكررت مرثين كما في البخاري^(٥) ، أو ثلاث مرات كما في مسلم^(٦) .

(١) صحيح البخاري — كتاب المناقب — باب تزويج النبي ﷺ " خديجة ج ٦ ص ١٦٣ .

(٢) صحيح البخاري — كتاب مناقب الأنصار — باب تزويج عائشة ج ٦ ص ٢٠١ .

(٣) صحيح مسلم — كتاب فضائل الصحابة — باب فضل عائشة ج ١٥ ص ٢٠٤ .

(٤) صحيح البخاري — كتاب النكاح — باب البناء بالنهار ج ٨ ص ١٦٦ .

(٥) صحيح البخاري — كتاب النكاح — باب نكاح الإبهكار ج ٨ ص ١٣١ .

(٦) صحيح مسلم — كتاب الفضائل — باب فضائل عائشة ج ١٥ ص ٢٠٢ .

يقول " ﷺ " : جاءني بك الملك في سرقة من حرير ، فقال لي : هذه امرأتك ، فكشفت عن وجهك الثوب ، فإذا أنت هي ، فقلت : إن بك هذا من عند الله يحضه (١) .

وعائشة " رضي الله عنها " هي الوحيدة من بين أزواجه " ﷺ " التي تزوجها وهي بكر ، ولهذا كانت تظهر هذا الفضل ، وتقول للنبي " ﷺ " يا رسول الله ، أرأيت لو نزلت وادياً وفيه شجرة قد أكل منها ، ووجدت شجرة لم يؤكل منها ، في أيها كنت ترتع بعيرك ؟ ! قال : في التي لم يرتع منها ، تعني أن رسول الله " ﷺ " لم يزوج بكراً غيرها (٢) .

وكان ابن عباس " رضي الله عنهما " يقول لعائشة : لم ينكح النبي " ﷺ " بكراً غيرك .

مكثت عائشة " رضي الله عنها " مع النبي " ﷺ " تسع سنين ، ومات عنها النبي " ﷺ " وهي بنت ثمان عشرة سنة .

وفي فضلها قال " ﷺ " : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام (٣) ، وأخبرها النبي " ﷺ " : أن جبريل يقرئها السلام (٤) .

وقد اختصت من بين سائر زوجات النبي " ﷺ " بتزوي الوحي عليه وهو في لحافها ، أخبر عن ذلك المصطفى " ﷺ " وهو يقول لأم سلمة : يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة ، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها (٥) .

ومحبة النبي " ﷺ " لعائشة لم تكن تخفى على المسلمين ، حتى لقد كانوا يخرجون هداياهم اليوم الذي يكون فيه النبي " ﷺ " عند عائشة (٦) .

(١) واللفظ البخاري ومسلم معاً .

(٢) صحيح البخاري — كتاب النكاح — باب نكاح الإبرار ج ٨ ص ١٣١ .

(٣) صحيح مسلم — كتاب الفضائل ج ١ ص ١٩٩ .

(٤) صحيح مسلم — كتاب الفضائل ج ١ ص ٢١٠ .

(٥) صحيح البخاري — كتاب المناقب ج ٦ ص ١٤٣ .

وعائشة " رضي الله عنها " هي التي قبض النبي ﷺ " بين سحرها ونحرها " — كما كانت تقول — ^(١) لأنه " ﷺ " لقي ربه وهو في حجرها ، وكان آخر عهده أن بل ريقها ريقه " رضي الله عنها " .

ثالثاً : أم حبيبة بنت أبي سفيان :

أم حبيبة هي رملة بنت أبي سفيان ، هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبد الله ابن جحش الأسدي ، وفارقتة بعدما تنصر ، وارتد ، فعقد عليها النبي ﷺ " وهي بأرض الحبشة ، وأنكحها النجاشي للنبي ﷺ " وأصدقها أربعمئة دينار ذهباً . ودخل بها " ﷺ " في المدينة بعد أن عادت من هجرتها ^(٢) .

وهي التي عرضت على النبي ﷺ " الزواج بأختها " عزة بنت أبي سفيان " فعجب النبي ﷺ " لذلك ، وقال : أو تحبين ذلك ؟ ! قالت : نعم .

وتعلل ذلك ، وتقول : لست لك بمخلية ، وأحب من شاركي في الخير أنحي ، فرد عليها : إن ذلك لا يحل لي .

وإنما عقد النبي ﷺ " على أم حبيبة تكريماً لها ، وتقديراً لتمسكها بالإسلام ، وعوضاً لها عن مفارقة زوجها .

* * *

^(١) صحيح مسلم — كتاب الفضائل ج ١٥ ص ٢٠٥ .

^(٢) المرجع السابق ج ١٥ ص ٢٠٨ .

^(٣) خوامع السيرة ص ٣٥ .

المبحث الخامس عشر

تتابع مجئ نصر الله تعالى

يَدُلُّ النَّبِيُّ ﷺ " جهده في دعوة أهل الطوائف، وفي عرض نفسه على القبائل، ومع ذلك لم يتحقق له ما يتمنى حيث رده أهل الطوائف رداً قبيحاً، ولم تؤمن القبائل بدعوته، ورفضت إجارته خوفاً من عداة قريش، وتأثراً بما كان أبو لهب وأبو جهل يذكران عنه

وكانت معونة الله مع عبده ورسوله محمد ﷺ " حيث يسر له من أمره رشداً، ولم يخرج من جهاده مع الناس خالي الوفاض، فحقق له عدداً من الانتصارات التي ترضيه، رحمة من الله، وفضلاً، وأهمها ما يلي : —

النصر الأول

إسلام عداس

بعد ما ردت ثقيف رسول الله ﷺ " بهذه الصورة السيئة، التي ذكرتها، أخذ ﷺ " في العودة إلى مكة مرة أخرى .

وعندما وصل إلى بستان بني ربيعة جلس تحت ظل شجرة ليستريح، وأخذ يدعو ربه، ويستغيث به ... فاستجاب الله له، وجاءه نصر الله، حتى لا يعود لمكة خاوي الوفاض، فكان إسلام عداس .

وقصة إسلام عداس أنه ﷺ " لما جلس تحت الشجرة رآه عتبة، وعتيبة ابنا ربيعة وعلما ما وقع له، فتحركت له رحمتها، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً، يقال له عداس ليعطيه شيئاً من الفاكهة تعينه على هذه المتاعب وقالوا له: خذ قطعاً (من هذا) العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه .

ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ " ثم قال له : كل، فلما وضع رسول الله ﷺ " فيه يده، قال : بسم الله، ثم أكل .

فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد .
فقال له رسول الله ﷺ : ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ؟ ، وما دينك ؟
قال عداس : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى .
فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى .
فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟
فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخى كان نبياً وأنا نبى ، فأكب عداس على رسول الله ﷺ
" يقبل رأسه ، ويديه ، وقدميه ، وأسلم .
وهكذا أسلم عداس في أثناء عودة النبی ﷺ " من رحلته إلى الطائف .
وأما أبناء ربيعة فقد قالوا لعداس : ويلك يا عداس ؟ مالك تقبل رأس هذا الرجل ،
ويديه ، وقدميه ؟ !
فقال هما : لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبى ^(١) .

النصر الثاني

إسلام الجن

حين إنصرافه " ﷺ " من الطائف ، راجعاً إلى مكة ، وعند واد في طريق مكة
يسمى " نخلة " قام " ﷺ " في جوف الليل يصلى ، فأتاه سبعة من جن نصيب .
استمعوا لقراءته " ﷺ " ، وهو يصلى ، فلما فرغ من صلاته ، أعلنوا إسلامهم وإسلامهم ،
ثم انصرفوا إلى قومهم دعاء ، يحملون الإسلام إليهم ، ويوضحون تعاليمه ، ومزاياه ،
وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ
الْقُرْآنَ إِن فُلَمَا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ ^(١) قَالُوا
يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ

الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٩﴾ يَتَقَوَّمْنَا أٰجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣٠﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣١﴾ ^(١) وقد نزلت قصتهم كاملة في سورة الجن .

وهكذا بدأ خلق آخر يدخلون في الإسلام، ويهتمون بالدعوة إليه .. ومن سياق الآيات يتضح أن الرسول " ﷺ " لم يكن يعلم بحضور هذا النصر من الجن لقد كان إيمان الجن نصراً آخر، أمله الله به، من كنوز غيبه المكنون ، والله جنود لا يعلمها إلا هو .

ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث تحمل في طياتها بشارات لبحاح دعوة النبي " ﷺ " ، وتؤكد أن سائر قوى الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ^(٢) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَأَنَا ظَنَّنَا أَنَّ لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ تُعْجِزُهُ هَرَبًا ﴾ ^(٣) .

النصر الثالث

إجارة المطعم بن عدي

لما خرج محمد " ﷺ " إلى الطائف عزمتم قريش على منعه من العودة إلى مكة ، حتى لا يجد مكاناً يأويه ، أو أناساً يحمونه .. ومع ذلك نوى رسول الله العودة إلى مكة .

^(١) سورة الأحقاف الآيات (٢٩ — ٣٢) .

^(٢) سورة الأحقاف آية (٣٢) .

^(٣) سورة الجن آية (١٢) .

قال له زيد بن حارثة " ﷺ " رفيقة في رحلة الطائف : كيف تدخل عليهم
وقد أخرجوك ؟

فقال " ﷺ " : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وأن الله ناصر دينه
ومظهر نبيه .

وسار رسول الله " ﷺ " صوب مكة ، حتى وصل حراء فمكث بها ، وأخذ
يبحث عن شخص يجيره ، وينصره ..

فأرسل رجلاً من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره ، فقال الأخنس : إن
حليف ، والخليف لا يجير .

فبعث الرجل إلى سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : إن بني عامر لا يجير على بني كعب .
فبعث الرجل إلى المطعم بن عدي ، فرد المطعم رداً جميلاً وقال : نعم ، ثم

تسلح ، ودعا بنيه ، وقومه ، وقال لهم : إلبسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت .
فإني قد أجرت محمداً ، ثم بعث إلى رسول الله " ﷺ " : أن ادخل ، فدخل رسول الله

" ﷺ " ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدي على
راحلته فنادى يا معشر قريش ، إني قد أجرت محمداً فلا يهجه أحد منكم .

وانتهى رسول الله " ﷺ " إلى الركن فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف
إلى بيته ، ومطعم بن عدي وولده مخدقون به ، بالسلاح حتى دخل بيته .

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعماً : أيجير أنت أم متابع — مسلم — . قال
بل مجير ، قال : قد أجرتنا من أجرت ..

وقد حفظ رسول الله " ﷺ " للمطعم هذا الصنيع ، فقال في أسارى بدر : لو
كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء لتركتهم له ^(١) .

(١) صحيح البخاري — كتاب الجهاد — باب ما من النبي " ﷺ " به على الأسارى ج ٥ ص ٢٢٦ — ط . الأوقاف .

النصر الرابع

أضواء وسط ظلام القبائل

ظلت القبائل على كفرها ، وردوا على رسول الله حين عرض نفسه عليهم ردوداً مختلفة وكان لموقف القبائل أثر مؤلم على نفس رسول الله ﷺ .
ويأتي الله إلا أن يكرم محمداً ﷺ ببعض الخير ، فتشرق عليها أضواء من بين هذه القبائل ، وذلك بإسلام أفراد منهم ، ودخولهم في دين الله تعالى ، وعلى رأس هؤلاء المسلمين : —

١. سويد بن الصامت ﷺ :

وهو رجل من بني عوف بن مالك الأوسى ، جاء إلى مكة حاجاً أو معتمراً ، فصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به ، فدعاه إلى الله ، وإلى الإسلام .
فقال له سويد : فاعل الذى معك هو الذى معى .
فقال له رسول الله ﷺ : وما الذى معك ؟
قال : معى محلة لقمان — يعنى حكمة لقمان — .
فقال له رسول الله ﷺ : أعرضها علىّ .

فعرضها عليه ، فقال له ﷺ : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا قرآن أنزله الله تعالى علىّ ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد منه ، وقال : إن هذا لقول حسن وأسلم ، ثم انصرف عنه ^(١)

٢. إياس بن معاذ ﷺ :

إياس بن معاذ من بني عبد الأشهل وهم من الأوس ، جاء وهو صغير مع قومه يلتمسون الحلف مع قريش ليتصرفوا بهم على الخرج ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أتاهم ، وجلس معهم وقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟

(١) سورة النحل لابن هشام ج ١ ص ٤٢٧ .

فقالوا له : وما ذاك ؟

قال : أنا رسول الله بعثني إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل عليّ الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

فقال إياس بن معاذ : هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر ، أنس بن رافع ، حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس ، وقام رسول الله ﷺ عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بعث بين الأوس والخزرج .

ثم لم يلبس إياس بن معاذ أن هلك ، يقول محمود بن لبيد ، فأخبرني من حضره من قومه عند موته : أنهم لم يزألوا يسمعون بهلال الله تعالى ، ويكبره ، ويحمده ، ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً ، لقد استشعر الإسلام في ذلك المجلس ، حين سمع من رسول الله ﷺ " ما سمع " (١) .

٢ - أبو ذر الغفاري " :

لما بلغ يثرب خبر سويد ، وإياس " رضى الله عنهما " ، وإنيهما سمعا محمداً ﷺ " وآمنا بدعوته ، بدأ أهلها في التفكير في أمر محمد ، وبخاصة أهل الرأي فيهم ، ومنهم أبو ذر الغفاري ، أخذ أبو ذر يفكر في الإسلام ، وهو في يثرب ، فقال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي فاعلمني علم هذا الرجل ، الذي يزعم أنه نبي ، يأتيه الخبر من السماء ، واسمع من قوله ، ثم اتني .

فانطلق أخوه حتى قدم مكة ، ولقي محمداً ﷺ ، وسمع من قوله ، ثم رجع إلى أبي ذر ، فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاماً ما هو بالشعر .

فقال أبو ذر : ما شفيتني مما أردت ، فتزود أبو ذر ، وحمل شاة له فيها ماء ، حتى قدم مكة ، فأتى المسجد ، فالتمس النبي ﷺ " وكان لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه بعض الليل ، فراه على " ﷺ " فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، فلما

يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء .

فلما أصبح أبو ذر ، احتمل قربه وزاده إلى المسجد ، وظل ذلك اليوم ينظر

إلى النبي " ﷺ " والنبي لا يراه حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه .

مر به علي في مضجعه فقال له : أما آن للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه عنده ،

فذهب به معه ، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء .

حتى إذا كان يوم الثالث ، فعاد علي مثل ذلك ، فأقام معه ، ثم قال : ألا

تحدثني ما الذي أقدمك ؟

قال أبو ذر : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني ففعلت ، ، ففعل ، فأخبره .

قال علي : فإنه حق ، وهو رسول الله " ﷺ " ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فإني إن رأيت

شيئاً أخاف عليك فمت كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني ، حتى تدخل مدخلي ،

ففعل : فانطلق يقفوه ، حتى دخل علي " ﷺ " علي النبي " ﷺ " ، ودخل أبو ذر معه ،

فسمع من قوله ، وأسلم مكانه ، فقال له النبي " ﷺ " : ارجع إلى قومك ، فأخبرهم

حتى يأتيتك أمري .

قال أبو ذر : والذي نفسي بيده لأصرحن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد

فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ثم قام القوم

فضربوه حتى أضجعوه .

وأتى العباس فأكب عليه ثم قال : ويلكم ! أستم تعلمون أنه من غفار ؟ وأن طريق

تجارتكم إلى الشام ؟ فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لمثلها ، فضربوه ، وثاروا إليه ،

فأكب العباس عليه ^(١) .

٤. الطفيل بن عمرو الدوسي " ﷺ " :

الطفيل شيخ من شيوخ قبيلة دوس ، إحدى قبائل اليمن ، قدم الطفيل مكة ،

ورسول الله " ﷺ " بها ، فمشى إليه رجال من قريش ، فقالوا له : يا طفيل ، إنك

قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد فرق جماعتنا ، وشئت أمراً ، وإني
قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين
زوجته ، وإنا نخشى عليك ، وعلى قومك ، ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ، ولا
تسمع منه شيئاً .

يقول الطفيل : فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه ،
وحشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً خوفاً من أن يبلغني شيء من قوله ،
وأنا لا أريد أن أسمعه ، فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ " قائم يصلي عند
الكعبة ، فجمت منه قريباً ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، فسمعت كلاماً حسناً
فقلت في نفسي : وأكل أمي ، والله إني لرجل لبيب ، شاعر ، ما يخفي عليّ الحسن من
القيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ! فإن كان الذي يأتي به حسناً
قبله ، وإن كان قبيحاً تركته .

فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ " إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا دخل
بيته دخلت عليه .

فقلت : يا محمد ، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا ، للذي قالوا ، فو الله ما برحوا
يخوفوني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لكي أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن
يسمعني قولك ، فسمعته قولاً حسناً ، فاعرض عليّ أمرك ، فعرض عليّ رسول الله ﷺ "
الإسلام ، وتلا عليّ القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا
أمراً أعدل منه ، قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق ^(١) .

هـ - ضماد الأزدي " ﷺ " :

ضماد رجل من اليمن ، كان يعمل بالرقيا من الجن ، قدم مكة ، فسمع
أهلها يقولون : إن محمداً مجنون .

فقال : لو أن أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه علي يدي .

(١) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

فقال : يا محمد ، إني أرقى من هذا الريح ، فهل لك ؟
 فقال رسول الله ﷺ : " إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ،
 ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن
 محمداً عبده ورسوله .. أما بعد .

فقال ضماد : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ

ثلاث مرات .

فقال ضماد : لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل
 كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن قاموس البحر ، هات يدك أبا يعك على الإسلام ، فبايعه ^(١)

النصر الخامس

الإسراء والمعراج

وأكرم الله نبيه محمداً ﷺ " برحلة الإسراء والمعراج ، ليؤنسه ، ويعرفه
 بمولته عنده ، وليبدأ " ﷺ " بها مرحلة جديدة في الدعوة إلى الله تعالى .
 والحديث عن الإسراء والمعراج يحتاج إلى تناول نقاط معينة وهي : —

١ - مفهوم الإسراء والمعراج

يراد بالإسراء تلك الرحلة التي صحب فيها جبريل " عليه السلام " محمداً ﷺ " ليلاً من البيت
 الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ، وهو بيت المقدس بإيلياء حيث ركبا معاً البراق .
 ويراد برحلة المعراج صعود جبريل بمحمد ﷺ " من بيت المقدس إلى
 السماوات العلا ، في معراج أحضره معه جبريل " عليه السلام " .

٢ - ثبوت الإسراء والمعراج

والإسراء والمعراج ثبت وقوعهما لرسول الله ﷺ " بالقرآن الكريم ، وبالسنة
 النبوية وبشهادة الصحابة " رضوان الله عليهم " .

أما القرآن الكريم ففيه يقول الله تعالى ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا
 مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ
 آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١ ﴾^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ
 ٢ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ٣ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ٤ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ
 يُوحَىٰ ٥ عَالِمُهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ٦ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ٧ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ٨ ثُمَّ
 دَنَا فَتَدَلَّى ٩ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ١٠ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ١١ مَا
 كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ١٢ أَفَتُمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٣ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٤
 عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ١٥ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ١٦ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ١٧ مَا
 زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٨ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ١٩ ﴾^(٢) .

وأما السنة فقد أخرج مسلم عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ قال
 أتيت بالبراق ، وهو دابة أبيض طويل ، فوق الحمار ، ودون البغل ، يضع حافره عند
 منتهى طرفه ، فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء ،
 ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام " السلامة " بإناء
 من خمر ، وإناء من لبن فآخترت اللبن ، فقال جبريل عليه السلام " آخترت الفطرة .
 ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقبل من أنت ؟ ؟
 قال : جبريل .

قبل : ومن معك ؟ .

قال : محمد .

(١) سورة الإسراء آية (١) .

(٢) سورة النجم الآيات (١ - ١٨) .

قيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بآدم " عليه السلام " فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل " عليه السلام " .

فقيل : من أنت ؟ ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك .

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟ .

قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بابني الحلالة عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا

" صلوات الله عليهم " فرحبا ودعوا لي بخير .

ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل .

فقيل : من أنت ؟ .

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد " ﷺ " .

قيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه .

ففتح لنا فإذا أنا بيوسف " عليه السلام " إذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لي بخير

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل " عليه السلام " .

قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟ .

قال : محمد .

قال : وقد بعث إليه ؟ .

قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس ، فرحب ودعا لي بخير ، قال الله عز وجل : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ﴿٥٧﴾ ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل .

قيل : من هذا ؟ .

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟ .

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟ .

قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون " عليه السلام " ، فرحب ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل " عليه السلام " .

قيل : من هذا ؟ .

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟ .

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟ .

قال : قد بعث إليه ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى " عليه السلام " ، فرحب ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل .

فقيل : من هذا ؟ .

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟ .

قال : محمد " ﷺ " .

قيل : وقد بعث إليه ؟ .

قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيم " عليه السلام " مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ، ثم ذهب بي إلى سيرة المنتهى ، وإذا ورقها كأذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال .
ولما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها .

فأوحى الله إلى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فترلت إلى موسى " عليه السلام " ، فقال : ما فرض ربك على أمتك .
قلت : خمسين صلاة .

قال موسى " عليه السلام " : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإن قد بلوت بني إسرائيل وخيرتهم .

فرجعت إلى ربي ، فقلت يا رب خفف على أمتي فحط عني خمسا .
فرجعت إلى موسى ، فقلت حط عني خمسا .

قال موسى " عليه السلام " : إن أمتك لا يطيقون ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .
يقول " عليه السلام " : فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى " عليه السلام " ، حتى قال الله تعالى : يا محمد إنهم خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر ، فذلك خمسون صلاة ، ومن هم بخسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرأ ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة .
فترلت حتى انتهيت إلى موسى " عليه السلام " فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

فقال رسول الله " عليه السلام " : فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه ^(١) .

^(١) صحيح مسلم بشرح النووي — باب الإسرائاء برسول الله " عليه السلام " ج ٢ ص ٢١٠ — ٢١٥ ، يقول القاضي عياض عن هذا الحديث : لم يأت أحد بأصوب من هذا الحديث (الشفا ج ١ ص ١٧٩) .

وقد روى حديث الإسراء والمعراج ثمان وثلاثون صحابياً وصحابة، بعضهم ذكره مطولاً، وبعضهم ذكره مختصراً، وبعضهم زاد جوانب لم تذكر عند الآخرين .. ووقعت بينهم اختلافات، والقدر المجمع عليه هو أنه " ﷺ " أسرى به من مكة إلى بيت المقدس، راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد، ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين .

ثم أتى بالمعراج، وهو كالسلم، ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه، إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فلقاه من كل سماء مقربوها .
ثم سلم على الأنبياء الذين في السموات، بحسب منازلهم، ودرجاتهم، حتى مر موسى الكليم، وإبراهيم الخليل في السادسة والسابعة، ثم جاوز منزلتيهما " ﷺ " وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي أقلام القدر بما هو كائن .

ورأى سدرة المنتهى، وغشيتها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة .
ورأى هناك جبريل على صورته، وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، يتعبدون فيه، ثم لا يعودون منه إلى يوم القيامة .

ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هناك الصلوات الخمسين، ثم خففها إلى خمس، رحمة منه، ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه، لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ، بعد رجوعه إليه، لأنه لما مر بهم في منازلهم، جعل يسأل عنهم جبريل واحداً، واحداً، فيخبره بهم وكان الأنبياء أنفسهم يسألون جبريل " ﷺ " عن المصاحب له، وعن بعثته .

والقول بأن الصلاة كانت بعد العودة من الخروج هو اللاحق، لأنه " ﷺ " كان أولاً مطلوباً إلى الجناح القدسي ليتشرف بالمقام العلوي ، وتعرف منزلته عند ربه ، وحتى يفرض عليه ، وعلى أمته ما يشاء الله تعالى ، ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتماع به هو وإخوانه من النبيين ، وأظهر شرفه ، وفضله عليهم ، بتقديمه في الإمامة وأتمامهم جميعاً " صلوات الله عليهم " به ، وذلك بوحي جبريل " عليه السلام " ثم في ذلك : ثم خرج " ﷺ " من بيت المقدس فركب البراق ، وعاد إلى مكة بغلس ، والله سبحانه وتعالى أعلم ^(١) .

وحتى نقف على ما بين هذه الروايات من اتفاق ، أو اختلاف أبين ما يلي : —

أولاً : رواية حديث الإسراء :

بلغ عدد رواية حديث الإسراء من الصحابة ثمان وثلاثين صحابياً ، وصحابته

وهم : —

- | | |
|-----------------------------------|---------------------------------------|
| ١ — أبي بن كعب " ﷺ " . | ٢ — أبو ذر الغفاري " ﷺ " . |
| ٣ — بريدة بن عبد الله " ﷺ " . | ٤ — أسامة بن زيد " ﷺ " . |
| ٥ — أنس بن مالك " ﷺ " . | ٦ — جابر بن عبد الله " ﷺ " . |
| ٧ — حذيفة بن اليمان " ﷺ " . | ٨ — سمرة بن جندب " ﷺ " . |
| ٩ — سهل بن سعد " ﷺ " . | ١٠ — شداد بن أوس " ﷺ " . |
| ١١ — صهيب بن سنان " ﷺ " . | ١٢ — عبد الله بن عباس " ﷺ " . |
| ١٣ — عبد الله بن عمر " ﷺ " . | ١٤ — عبد الله بن الزبير " ﷺ " . |
| ١٥ — عبد الله بن أبي أوفى " ﷺ " . | ١٦ — عبد الله بن سعد بن زرارة " ﷺ " . |
| ١٧ — عبد الله بن مسعود " ﷺ " . | ١٨ — العباس بن عبد المطلب " ﷺ " . |
| ١٩ — عثمان بن عفان " ﷺ " . | ٢٠ — علي بن أبي طالب " ﷺ " . |
| ٢١ — عمر بن الخطاب " ﷺ " . | ٢٢ — مالك بن صعصعة " ﷺ " . |

- ٢٣ — أبو بكر الصديق " ﷺ " .
 ٢٤ — أبو أيوب الأنصارى " ﷺ " .
 ٢٥ — أبو الحمراء " ﷺ " .
 ٢٦ — أبو الدرداء " ﷺ " .
 ٢٧ — أبو سعيد الخدرى " ﷺ " .
 ٢٨ — زيد بن حكيم " ﷺ " .
 ٢٩ — أبو سفيان بن حرب " ﷺ " .
 ٣٠ — أبو سلمة بن دحية " ﷺ " .
 ٣١ — أبو ليلى الأنصارى " ﷺ " .
 ٣٢ — أبو سلمى راعى رسول الله " ﷺ " .
 ٣٣ — أبو هريرة " ﷺ " .
 ٣٤ — أم المؤمنين عائشة " رضى الله عنها " .
 ٣٥ — أسماء بنت أبي بكر " رضى الله عنها " .
 ٣٦ — أم كلثوم بنت رسول الله " ﷺ " .
 ٣٧ — أم سلمة أم المؤمنين " رضى الله عنها " .
 ٣٨ — أم هانئ " رضى الله عنها " (١) .
- وقد أورد السيوطى مختلف الروايات بأسانيدھا فى كتابه "الخصائص الكبرى" ونقلھا عنه العلامة الشيخ / يوسف النبهانى فى كتابه "حجة الله على العالمين" ، فليرجع إلى أيھما من أراد الاطلاع علیھا .

ثانيا : الزيادات الواردة عن رواية أنس المذكورة :

وردت زيادات فى بعض الروايات زائدة عن رواية أنس بن مالك " ﷺ " التى نقلتها من صحيح مسلم وجعلتها أساساً لسائر الروايات ، وسأحاول هنا ذكر هذه الزيادات لتتضح صورة الإسراء والمعراج كاملة ، وهى : —

أ — أخرج البخارى بسنده عن أنس ، قال : (ليلة أسرى برسول الله " ﷺ " من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه بالإسراء وهو نائم فى المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم .

فقال أحدهم : خذوا خيرهم .. وفى ليلة أخرى أتوه وهو نائم فحملوه ، ووضعوه ، عند بشر زمزم ، فتولاه منهم جبريل ، فشق ما بين نحره إلى لبتة ، حتى فرغ من صدره

(١) أورد ابن كثير حصر هذه الأسماء فى تفسيره ج ٣ ص ٢٤ كما ذكرهم صاحب كتاب "حجة الله على

وجوفه ففسله بماء زمزم بيده ، حتى ألقى جوفه ، ثم أتى بطشت من ذهب ، محشو
إيماناً ، وحكمة ، فحشى به صدره ، ولغاد يده (عروق حلقه) ^(١) .

ب - وأخرج أحمد عن طريق أنس أن النبي أثر بالبراق ليلة أسرى به ، فسرجه ،
ملحماً ، ليركبه ، فاستصعب عليه ، فقال له جبريل : أمحمد تفعل هذا ؟ هو الله ما
ركبك خلق قط أكرم علي الله منه فأرفض البراق عرقاً ، ثم قر حتى ركبه " ﷺ " ^(٢)

ج - وأخرج ابن عساكر ، والبيهقي بسندهما عن حديث أبي سعيد الخدري يقول
النبي " ﷺ " : فإذا أنا بآدم كهيته يوم خلقه الله على صورته ، تعرض عليه أرواح
ذريته المؤمنين ، فيقول : روح طيبة ، ونفس طيبة ، فاجعلوها في عليين ، ثم تعرض
عليه أرواح ذريته الفجار ، فيقول : روح خبيثة ، ونفس خبيثة اجعلوها في سجين .
ثم مضت هنيهة فإذا أنا بأخونة عليها لحم ، قد أروح ، وأتن ، عندها ناس
يأكلون منها ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء من أمتك الذين يتركون الحلال ، ويأتون الحرام .

ثم مضيت هنيهة فإذا بأقوام بطونهم أمثال البيوت ، كلما نهض أحدهم خر
يقول : اللهم لا تقم الساعة ، وهم على سابلة آل فرعون ، فتجئ السابلة فتطوهم ،
فسمعتهم يضحون إلى الله ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون الربا : ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ .

ثم مضت هنيهة فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل ، فتفتح أفواههم ،
ويلفمون حجراً ، ثم يرضخ من أسافلهم ، فسمعتهم يضحون إلى الله ، قلت : يا جبريل
من هؤلاء ؟

^(١) الصحيح البخاري - باب المعراج ج ٦ ص ١٩٠ مثله .

^(٢) مسند ابن هشام ج ١ ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

قال : هؤلاء من أمتك ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

ثم مضت هنيهة فإذا أنا بنساء تعلقن بشديهن ، ونساء منكسات بأرجلهن ، فسمعتهن يضحجن إلى الله ، قلت : يا جبريل من هؤلاء النساء ؟
قال : هؤلاء اللاتي يرزقن ويقتلن أولادهن .

ثم مضت هنيهة فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم ، فيلقمون ، فيقال له كل كما كنت تأكل من لحم أخيك ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟
قال : هؤلاء الهمازون من أمتك الهمازون ^(١) .

د — وأخرج البيهقي ، وابن جرير بسندهما ، عن أبي هريرة " رضي الله عنه " قال :
وسار معه جبريل فأتى على قوم يزرعون في يوم ، ويحصدون في يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال النبي " ﷺ " : يا جبريل ما هذا ؟
قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه .

ثم أتى على قوم ترضخ رؤسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء .

فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين تتناقل رؤسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على إقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الإبل ، والنعم ، ويأكلون الضريع والزقوم ، ورضف جهنم ، وحجارها .

قال : ما هؤلاء ؟ يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله شيئا .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر ، ولحم آخر نبي خبيث ، فجعلوا يأكلون من النبي الخبيث ويدعون النضيج الطيب .

قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتي امرأة خبيثة ، فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً فيبيت معه ، حتى تصبح .

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ، ولا شيء إلا خرقة .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه .

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يحمل عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت

كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء ، قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء خطباء الفتنة .

ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث

خرج ، لا يستطيع ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة ، وريح مسك ، وسمع صَوْتاً ، فقال :

يا جبريل ما هذا ؟

قال : هذا صوت الجنة تقول يا رب آتني ما وعدتني ، فقد كثرت غرقي ، وإستبرقي

وحبري ، وسندسي ، وعبقري ، ولؤلؤي ، ومرجاني ، وفضي ، وذهبي ، وأكوابي ، وصحافي

وأبارقي، ومراكبي، وعسلي، ومائي، ولبي، وخمري، فاتني ما وعدتني ، فقال : لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ، قالت : رضيت .

ثم أتني على واد فسمع صوتاً منكراً ، ووجد ريحاً منتنة ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا صوت جهنم تقول يارب آتني ما وعدتني ، فلقد كثرت سلاسلي ، وأغلالي وسعيري ، وحميمي ، وضريعي ، وغساقلي ، وعذابي ، وقد بعد قعري ، واشتد جري ، فاتني ما وعدتني ، قال : لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة ، وكل خبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب ، قالت : قد رضيت ^(١) .

هـ — وأخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة " ﷺ " ، قال : قال رسول الله " ﷺ " رأيت ليلة أسري بي لما انتهينا إلى السماء السابعة ، فنظرت فوق فإذا رعد، وبرق وصواعق ، وأتيت على قوم بطونهم كالببوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء أكلة الربا ، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني ، فإذا أنا برهج ، ودخان ، وأصوات ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم ، لتلا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب ^(٢) .

و — جاء في حديث أبي هريرة ذكر كلام كل من إبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان " عليهم السلام " ، ثم ذكر كلام النبي " ﷺ " فقال : وأن محمداً " ﷺ " أتني على ربه عز وجل ، فقال : كلكم أتني على ربه ، وأنا أتني على ربي الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين ، وكافة للناس ، بشيراً ، ونذيراً ، وأنزل على الفرقان فيه تبيان كل شيء ، وجعل أمتي خير أمة ، وجعل أمتي أمة وسطا وجعل أمتي هم

(١) رحمة الله على العالمين ص ٣٥٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٢ .

الأولون ، وهم الآخرون ، وشرح لي صدرى ، ووضع عني وزرى ، ورفع لي ذكرى ، وجعلني فاتحاً ، وخاتماً ، فقال إبراهيم بهذا فضلكم محمد ^(١) .

ز — جاء في حديث أبي هريرة من طريق الربيع بن أنس ، أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى سدره المنتهى قال له الله تعالى : سل ، فقال " ﷺ " : إنك اتخذت إبراهيم خليلاً ، وأعطيته ملكاً عظيماً ، وكلمت موسى تكليماً ، وأعطيته داود ملكاً عظيماً ، وآتيت له الحديد ، وسخرت له الجبال ، وأعطيته سليمان ملكاً عظيماً ، وسخرت له الجن ، والإنس ، والشياطين ، والرياح ، وأعطيته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل ، وجعلته يبرئ الكمه ، والأبرص ، وأعدته وأمه ، من الشيطان الرجيم ، فلم يكن له عليهما سبيل .

فقال له ربه تعالى : قد اتخذتك خليلاً ، وحبیباً ، فهو مكتوب في التوراة محمد حبيب الرحمن ، وأرسلتك إلى الناس كافة ، وجعلت أمتك هم الأولون ، وهم الآخرون ، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلتك أول النبيين ، خلقاً ، وآخرهم بعثاً ، وأعطيته سبعاً من المثاني ، ولم أعطها نبياً قبلك ، وأعطيته خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشى لم أعطها نبياً قبلك ، وجعلتک فاتحاً ، وخاتماً ^(٢) .

وهذه الزيادات مع حديث أنس الذى أوردته ، تقدم صورة كاملة للإسراء والمعراج بدءاً من شق صدره " ﷺ " قبيل الإسراء به ، وحتى عاد إلى مكة .

ثالثاً : أحداث متعارضة فى روايات حديث الإسراء :

تمراجعة روايات أحاديث الإسراء نلاحظ فيها المعارضات التالية : —

(١) فى حديث أنس الوارد فى الفقرة (أ) السابقة أن ثلاثة نفر جاءوا إلى رسول الله قبل أن يوحى إليه ، مع أن الإسراء كان بعد المبعث ، وقبيل الهجرة ، حيث جاء

^(١) الشفا للفاخرى عياض ج ١ ص ١٨٢ .

^(٢) الشفا للفاخرى عياض ج ١ ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

في الحديث أن كثيراً ممن أسلم أرتد .

(٢) في رواية أنس الأولى أنه " ﷺ " لقي إبراهيم " عليه السلام " في السماء السابعة عند

البيت المعمور، ولقي موسى " عليه السلام " في السماء السادسة، وفي بعض الروايات أنه " ﷺ "

رأى إبراهيم " عليه السلام " في السماء السادسة، ولقي موسى " عليه السلام " في السماء السابعة (١)

(٣) في رواية ابن إسحاق أن الرسول " ﷺ " أتى بثلاث أوان ، أحدها ماء ،

فقال قائل : إن أخذ الماء غرق ، وغرقت أمته ، وفي إحدى روايات البخاري : أنه

أتى بثلاث أوان ، ولم يذكر فيها الماء (٢) .

(٤) يقول الله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ (٣) ورؤية الفؤاد تشبه

رواية أنس من أن الرؤية كانت قلبية ، وعين الرسول " ﷺ " نائمة ، وفي الآية الثانية

يقول الله تعالى : ﴿ أَفْتُمَرُّونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى ﴾ (٤) فجاءت الرؤية بصيغة المضارع

، ولم يقل على ما رأى كالأية الأولى ، فدل ذلك على الرؤية الثانية ليست هي الرؤية

الأولى .

(٥) في قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ (٥) دلالة على أنها رؤيا قلبية ،

وفي قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ (٦) دلالة على أنها رؤيا بالعين ،

ولذلك رأى فيها : ﴿ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (٧) أما الآيات التي ترى في النوم

فليست بهذا القدر من العظمة ، والفخامة .

(١) أنظر : صحيح مسلم في حديث أبي ذر بشرح النووي ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) أنظر : سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٩٧ ، وصحيح البخاري ج ٦ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) سورة النجم آية (١١) .

(٤) سورة النجم آية (١٢) .

(٥) سورة النجم آية (١٧) .

(٦) سورة النجم آية (١٨) .

(٦) في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ (٥١) قال المفسرون في رواية يعشاها فراش من ذهب ، وفي رواية أخرى قالوا ، ينثر منها الياقوت وثمرها مثل قلال هجر .

(٧) جاء في أحاديث الإسراء ، أنه " ﷺ " رأى عند سدرة المنتهى نهرين ظاهرين ونهرين باطنين ، وأخبره جبريل " عليه السلام " بأن النهرين الظاهرين هما النيل والفرات .. وذكر حديث أنس أن هذين النهرين في السماء الدنيا ، وقال له الملك : هما النيل والفرات ، أصلهما ، وعنصرهما .

رابعاً : فك تعارض الأحاديث :

والسؤال هنا : كيف نفك هذا التعارض ؟ ونجمع بين هذه الآراء ؟

نظر العلماء إلى هذا التعارض الظاهري ، وذهبوا إلى أن الإسراء وقع مرتين ، مرة في المنام ، ومرة ثانية في اليقظة .

يقول الإمام / محمد الشامي : (ذهب جماعة منهم المهلب شارح البخاري إلى هذا الرأي ، وحكاة عن طائفة ، منهم أبو نصر القشيري ، والحافظ البغوي ، والمحدث أبو القاسم عبد الرحمن الخثعمي ، المعروف بالسهيلي ، وبين أن النووي جزم به في فتاويه ، وهؤلاء وغيرهم من العلماء ذهبوا إلى تكرار الإسراء مرتين ، مرة في المنام ، ومرة في اليقظة ، وكانت مرة النوم توطئة له ، وتيسيراً عليه ، كما كان في بدء نبوته " ﷺ " من الرؤيا الصادقة ، ليسهل عليه أمر النبوة ، لأمر عظيم تضعف عنه القوى البشرية ، وكذلك الإسراء سهله عليه بالرؤيا أولاً لأن هوله عظيم ، فجاء في اليقظة بعد توطئة ، وتقديم ، رفقا من الله تعالى بعبده ، وتسهيلاً عليه (٢) .

(١) سورة المجم آية (١٦) .

(٢) مروض الألف ، ج ١ ص ١٤٩ ، ١٥٠ ، سبل الالهدى والرشاد ج ٣ ص ١٠٦ .

وعلى هذا فإن حدوث الإسراء مرتين ، مرة على صورة ، ومرة أخرى على صورة أخرى لا تعارض فيه ، وبذلك ينتفى تعارض الروايات .

ولا مانع من تكرار الوحي إلى رسول الله ﷺ " بالموضوع الواحد لحكمة يريد بها الله ، كما هو ثابت في حالات عديدة . .

٣ .

كيفية وقوع الإسراء والمعراج

أورد العلماء عدة آراء في كيفية وقوع الإسراء والمعراج ، حيث ذهبوا في تحديد كيفيةها إلى ثلاثة آراء : —

الرأى الأول

الإسراء والمعراج كانا في النوم وبالروح

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الإسراء كانت رؤيا لرسول الله ﷺ " رآها وهو نائم ، وعلى رأس القائلين بهذا الرأي أم المؤمنين عائشة " رضي الله عنها " ومعاوية بن أبي سفيان " ﷺ " ، ويستدلون على رأيهم بما يلي : —

١ — رؤيا الأنبياء وحي ، لأن قلوبهم لا تنام ، يقول " ﷺ " : الأنبياء تنام أعينهم ، ولا تنام قلوبهم ^(١) ، وبذلك يتحقق في المنام ما يقصد في اليقظة .

٢ — يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ " فقله تعالى " الرؤيا " دليل على أنها كانت مناماً ، لأنها لو كانت يقظة لقال " رؤية " .

٣ — جاء في حديث أنس في رواية شريك عنه : (وهو " ﷺ " نائم بالمسجد الحرام ... واستيقظت من منامي ، وأنا في المسجد الحرام) ^(٢) وذلك دليل على وقوع الإسراء في أثناء نوم النبي ﷺ " .

^(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى — كتاب المناقب ج ٦ ص ٣٤ . ^(٢) سورة الإسراء آية ٩٠ .

^(٣) صحيح مسلم بشرح النووي — كتاب المناقب — باب الإسراء ج ٣ ص ٢١٧ .

٤ — كان معاوية بن أبي سفيان " رضى الله عنهما " إذا تحدث عن مسرى رسول الله " ﷺ " ، يقول : كانت رؤيا من الله صادقة ^(١) .

٥ — يقول ابن إسحاق : (حدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة زوج النبي " ﷺ " كانت تقول : ما فقد جسد رسول الله " ﷺ " ، ولكن أسرى بروحه) .

الرأى الثانى

الإسراء كان بالجسد والمعراج كان بالروح

يذهب أصحاب هذا الرأى إلى أن الإسراء كان بالجسد والروح معاً ، من المسجد الحرام بمكة إلى بيت المقدس بإيلياء ، وبعده كان المعراج من بيت المقدس إلى السماوات العلا بالروح فقط ، ويستدلون على ذلك بما يلى : —

١ — يقول الله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ حيث جعلت الآية المسجد الأقصى غاية الإسراء تشریفاً لرسول الله " ﷺ " ، ولو كانت غاية الإسراء إلى مكان آخر غير المسجد الأقصى لذكره سبحانه وتعالى ، لأنه أبلغ في التشريف والمدح .

٢ — توجّهت اعتراضات كفار مكة على انتقال رسول الله " ﷺ " من مكة إلى بيت المقدس والعودة منها فى ليلة واحدة ، ولم يرد على لسانهم إعتراض على الخروج إلى السماء السابعة ، حتى سدره المنتهى ، مع أنه أدعى لإنكار الكافرين لو كان بالجسد

^(١) نسخة النسخة " ﷺ " ج ١ ص ٣٩٩ ، جاء فى زاد المعاد : يبنى أن يعلم الفرق بين أن يقال : كان الإسراء تماماً وبين أن يقال كان أسرى بروحه جسدته ، وبينهما فرق عظيم ، وعائشة ومعاوية لم يقلوا : كان جسماً ، وإنما قالوا : الإسراء بروحه ولم يفقد جسده ، ولربما بين الأمرين . فإن ما يراه الناس قد يكون أمثالاً مضرورة للمعلوم فى المسور المحسوسة ، فبى كأنه عرج به إلى السماء ، لو ذهب منه إلى مكة أو أقطار الأرض ، وروحه لم تصعد ولم تغرب ، وإنما مثلت الرؤيا ضرباً من الأمثال ، ومع هذا الفرق فإن القول بأن الإسراء بالروح لا يبعد كثيراً فى لزمه ، وتصوره عن الإسراء فى النوم ، لأن النورج أثناء النوم هو للروح أيضاً .

وعلى هذا يثبت أن الإسراء كان بالجسد والروح ، أما المعراج فكان بالروح فقط لأن كفار مكة لم يعترضوا عليه مع كثرة المشاهد التي حكاها الرسول ﷺ حين رؤيته لها في معراجه ، ولو كان المعراج بالجسد لكثير الاعتراض .

الرأى الثالث

الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح

يذهب جمهور علماء السلف والخلف من الفقهاء ، والمفسرين ، والمحدثين إلى أن الإسراء والمعراج كانا يقظة بالجسد والروح ، ويستدلون على ذلك بما يلي : —

١ — يقول الله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ، لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ . فقد ذكرت الآية أن الإسراء كان بعبد المكون من الجسد والروح ، لأهما حقيقة العبد ، وظاهر اللفظ يدل على هذه الحقيقة ، ومن المعلوم أنه لا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند استحالة حقيقة الظاهر ، ولا استحالة في قدرة الله أن يسرى بعبد ، روحاً وجسداً ، فلزم أن يكون الإسراء بهما .

٢ — يقول الله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ ^(١) ففي الآية إثبات واضح على أن الرؤية كانت بالبصر ، وأسندها الله للبصر احترازاً عن رؤية القلب .

٣ — يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ^(٢) ، ففي الآية دلالة على الرؤية البصرية لأنها لو كانت مناماً ما كانت كبرى ، ولسلم لها من سمعها من كفار مكة .

(١) سورة النجم آية (١٧) .

(٢) سورة النجم آية (١٨) .

٤ — يروى البخارى فى صحيحه عن ابن عبسة عند قوله تعالى : ﴿ وَمَا

جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ " ليلة الإسراء ^(١) .

وقد رد الجمهور وهم أصحاب رأى الثالث ، القائلون بأن الإسراء والمعراج كان بالجسد والروح معاً على الرايين السابقين بإبطال أدلتهم ، وردّها .

رد أدلة أصحاب رأى الأول :

قال أصحاب رأى الثالث إن رؤيا الأنبياء وحى ، وبها تثبت الحقائق والمعلومات ، إلا أن الإعجاز فى الإسراء والمعراج لا يتم إلا إذا كان بالجسد مع الروح ، لأن المقصود إثبات ما شاهده النبي ﷺ " بطريقة حسية ، حقيقية .. وبذلك لا يتحقق بإسراء الروح ما قصد بإسراء الجسد .

وأيضاً فإن الرؤيا تأتى بمعنى الرؤية ، ومن ذلك قول الشاعر :

وكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر قلباً كان جماً بلابله

وما كانت الرؤيا فتنة للناس ، إلا لأنها رؤيا بالبصر ، وقد قال الكفار : يزعم محمد أنه أتى بيت المقدس ، ورجع إلى مكة فى ليلته ، والعرير ترد إليها شهراً مقبلة وشهراً مدبرة ، ولو كانت رؤيا نوم لم يستبعد أحد منهم هذا ، فمعلوم أن النائم قد يرى نفسه فى السماء ، وفى المشرق ، وفى المغرب ، ولا يستبعد منه ذلك .

وأما استشهادهم بقوله ﷺ " بين النائم واليقظان ، ثم استيقظت ، فالظاهر

أن تلك الأقوال كان فى أول وصول الملك ، وبعد يقظته كان الإسراء .

وأيضاً فإن أحاديث الإسراء تتضمن ألفاظاً صريحة تؤكد أن الإسراء والمعراج

كانا بالجسد والروح .

رد أدلة أصحاب الرأي الثاني :

يرد الجمهور أدلة الرأي الثاني أيضاً ، ويرون أن آية الإسراء ذكرت الغاية بالمسجد الأقصى مراعاة لحال المستمعين ، حتى يؤمنوا بالإسراء لأنه الأقرب إلى عقولهم ، وأيسر لهم في التصور عن المعراج ، لأنهم إذا صدقوا بالإسراء ، وسلموا بصدق محمد ﷺ " أخبرهم بعد ذلك بما هو أعظم منه ، وهو " المعراج " ، ولذلك نزلت آيات المعراج في سورة النجم بعد آية الإسراء .

وهكذا يرد الجمهور أدلة مخالفينهم ، فيترجح رأيهم برجحان أدلتهم ..

التوفيق بين الآراء ورد الاختلاف :

ويجب أن أشير هنا إلى ما ذكرته سلفاً في ص ٣٩٦ من أن الإسراء وقع لرسول الله ﷺ " مرتين ، مرة في اليقظة ، ومرة في المنام يرفع التعارض الظاهر في الأقوال الثلاثة ، يقول الحافظ ابن حجر : إن قيل بتكرار الإسراء فلا إشكال ، وأن المرة الأولى كانت مناماً لتسهيله ، وتخفيف وطأته ، وأن المرة الثانية كانت يقظة بعد التوطئة والتقديم ، رفقا من الله بعبده ، وتسهيلاً عليه ، كما حدث في أول الوحي . إذ بدأ بالنبوة وثني بالرسالة .

وعلى هذا تصدق الآراء الثلاثة ، فمن قال بالإسراء الروحاني ، أعتمد على وقوع الإسراء في المرة الأولى ، ومن قال بالإسراء الجسدي ، أعتمد على وقوع الإسراء في المرة الثانية ، ومن قال بالإسراء البدني ، والمعراج الروحي أخذ من المرة الأولى المعراج ، ومن المرة الثانية الإسراء .

يقول السهيلي : وهذا القول هو الذي يصح ، وبه تنفق الأخبار ، فالرواة جميعاً ثقة عدول ، لا سبيل إلى تكذيب بعضهم أو توهينه ^(١) .

يقول ابن كثير : ونحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء ، فيه صورة ما وقع بعد ذلك ، فإنه " ﷺ " كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وقد تقدم مثل

(١) الروض الأنف ج ٢ ص ١٥٠ .

ذلك من حديث بدء الوحي ، أنه رأى في منامه مثل ما وقع له يقظة بعد ذلك ، من باب الإرهاس ، والتوطئة ، والتثبيت ، والإيناس ^(١) .
وهكذا كان الإسراء والمعراج رحلة علوية ، سامية ، خفت عن رسول الله ﷺ " ما كان يعانيه من إنصراف الناس عن الإيمان ، واستهزائهم به ، وعلو مقامه ، وقدره ، ومترلته ، وهذا كاف في عونه على متاعب الناس ، وصموده أمام عتوهم وظلمهم .

النصر السادس

إسلام الأنصار

لما أراد الله تعالى إظهار دينه ، وإعزاز رسوله ، وإيصال الدعوة إلى العالم كله ، قضى بأن يترك المسلمون مكة ، ويهاجروا منها إلى مكان آمن ، يعيش أهله للإسلام ، ويهاجر إليه المسلمون ليكونوا قوة تحمي الحق ، وتدافع عنه ، وترد كيد المعتدين .
لما أراد الله ذلك خرج رسول الله ﷺ إلى قبائل العرب كما كان يفعل في كل موسم ، وذلك في العام العاشر من المبعث ، وقد وفقه الله تعالى ، ووفق الأنصار معه فتلاقوا في ثلاثة مواسم متتابعة ، عند العقبة ، حيث كان اللقاء الأول فهدأ ليعني العقبة ، اللتين تمتا في اللقاءين الثاني ، والثالث .
وبيان هذه اللقاءات فيما يلي : —

اللقاء الأول

إسلام نفر من الأنصار

حين خرج الرسول ﷺ في العام العاشر للقاء القبائل لقي نفراً من الخزرج

وهم : —

١ — أسعد بن زرارة .. من بني النجار .

٢ — عوف بن الحارث بن رفاعه .. من بني النجار .

٣ — رافع بن مالك بن العجلان .. من بني زريق .

٤ — قطبة بن عامر بن حديدة .. من بني سلمة .

٥ — عقبة بن عامر بن ناتي .. من بني حرام بن كعب .

٦ — جابر بن عبد الله بن وئاب .. من بني عبيد بن غنم .

فلما لقيهم الرسول ﷺ قال لهم : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج .

قال : أمن موالي يهود ؟

قالوا : نعم .

قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى ، من أنت ؟

فانتسب لهم ، وأخبرهم خبره ، فجلسوا معه ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، وكان مما حببهم في الإسلام أن اليهود كانوا معهم في بلادهم ، كثيراً ما قالوا لهم : إن نبياً أظننا زمانه ، سنؤمن به ، ونقتلكم وقد معنا قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله ﷺ " أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله أينما به ، واطمأننت قلوبهم إلى ما سمعوا ، وعرفوا صدق ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب عن صفته .

فقال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ولا تسبقنكم إليه ، فأجابوه إلى ما دعاهم بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام .

ثم قالوا : قد علمت الذي بيننا (يعنون الأوس والخزرج) من الاختلاف ، وسفك الدماء ، ونحن حراس على ما أرسلك الله به ، مجتهدون لك بالنصيحة ، دعنا نشير عليك برأينا ، فامكث على رسلك باسم الله ، حتى نرجع إلى قومنا ، فنذكرهم شأنك ، وندعوهم إلى الله ورسوله ، ففعل الله يصلح ذات بينهم ، ويجمع لك أمرهم

فإننا اليوم متباغضون متباعدون ، ولكننا نواعدك الموسم من العام المقبل ، فرضى بذلك رسول الله ﷺ ، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا ، وصدقوا ^(١) .

ويعد هذا الاتفاق عهداً بين رسول الله ﷺ وهؤلاء النفر وحدهم على أن يذلوا جهدهم لإصلاح ذات البين ، بين الأوس والخزرج ، ليأتوا في العام القادم سوياً ويشتركوا في عهد رسول الله ﷺ معاً .

وكثير من المؤرخين ، وكتاب السيرة لا يعدون إيمان هؤلاء النفر بيعة ، ويعتبرونه مقدمة للبيعتين بعد ذلك ، إلا أن الشيخ / محمد الشامي عدها بيعة ، وتحدث عن ثلاث بيع لعهده اللقاء الأول اتفاقاً متكاملاً ، وتم عند العقبة ، يقول عبد الله بن أبي بكر : لا أدري ما العقبة الأولى ، ويقول ابن إسحاق : قد كانت عقبة ، وعقبة : إشارة إلى اللقاء الأول والثاني ، لأهما كانا في مكان واحد ، يجاور العقبة التي نسبت البيع إليها ، لأن المبايعة كانت تتم بشعب يجاور العقبة ، يقع يسار القادم من مكة إلى منى ، وقد أقيم في هذا المكان مسجد يعرف بـ " مسجد البيعة " وموقعه في أول شعب يعرف بـ " شعب العقبة " و " شعب الأنصار " ^(٢) .

ومع جمال وجهة نظر الشيخ إلا أني سأعتبر اللقاء الأول تمهيداً للبيعتين بعده تبعاً لجمهور مؤلفي السير والتاريخ .

اللقاء الثاني

بيعة العقبة الأولى

رجع النفر الذين قابلوا رسول الله ﷺ إلى يثرب ، وأحاطوا قومهم بخبر لقائهم ، وإسلامهم ، ودعوا أهل المدينة جميعاً من الأوس والخزرج إلى الإيمان ، ففشا الإسلام في دور الأنصار جميعاً ، فلم يبق بيت من بيوت الأوس والخزرج إلا وفيه ذكر لرسول الله ﷺ .

^(١) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ج ١ ص ٤٢٩ .

^(٢) أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

ووضعت الحرب أوزارها ، وانتهى يوم بعث ، آخر أيام الأوس والخزرج ،
والكل يتمنى أن لا يعودوا إليها مرة ثانية ... ولذلك أقبلوا على الإيمان بدعوة محمد
ﷺ ، ليتوحدوا بالإسلام ، وحتى لا يسبقهم اليهود إليه ، يروى البخاري في
صحيحه بسنده أن عائشة " رضي الله عنها " قالت : (كان يوم بعث يوماً قدمه الله
لرسوله ، فقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وقد أفترق ملوهم ، وقتل سرورهم
، وخرجوا فقدمه الله لرسوله ﷺ) (وجعله سبباً) في دخولهم الإسلام)
وذلك يشير إلى أنها كانت وقعة عظيمة ، أحتاجوا بعدها إلى وصل ما انقطع
وتعويض ما فقدوه ، فوجدوا الإسلام ، فصدقوا به ، وأمنوا بمحمد ﷺ ، وكان
كل من الأوس ، والخزرج يأنف من سيد صاحبه عليه ، وأملوا في أن يكون الزائد
من غيرهم ، ولذلك كانت سعادتهم غامرة بمقدم مصعب بن عمير " رضي الله عنه " ليكون الخليفة
للجميع .

والذين حضروا اللقاء الثاني ، وبايعوا هذه البيعة اثنا عشر رجلاً هم : —

- ١ — أسعد بن زرارة .
- ٢ — عوف بن الحارث .
- ٣ — معاذ بن الحارث .
- ٤ — ذكوان بن قيس .
- ٥ — عبادة بن الصامت .
- ٦ — يزيد بن ثعلبة .
- ٧ — العباس بن عبادة .
- ٨ — أبا الهيثم بن الთيهان .
- ٩ — عويس بن ساعدة .
- ١٠ — رافع بن مالك .
- ١١ — قطبة بن عامر .
- ١٢ — عقبة ابن عامر .

وقد بايعهم رسول الله ﷺ " بيعة عرفت ببيعة النساء ، لخلوها من النساء .
والجهاد ، وأيضاً لأنها جاءت موافقة لما نزل القرآن الكريم بها بعد ذلك ، وهو يشرع
للنبي ﷺ " ما يبايع النساء عليه ، وذلك في صلح الحديبية .

يروى البخاري بسنده عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال
 وحسبكم عصابة من أصحابه : تعالوا بايعوني ، على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا
 تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم
 وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن
 أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك
 شيئاً فستره الله فأمره إلى الله : إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه ^(١) .

ولما هم القوم بالرجوع إلى المدينة طلبوا من رسول الله ﷺ أن يرسل
 معهم من يقرئهم القرآن ، ويعلمهم ما نزل من الإسلام ، فأرسل ﷺ " معهم
 مصعب بن عمير ، وأمره الرسول ﷺ أن يعلمهم الإسلام ، ويقرئهم القرآن ،
 ويفقههم في الدين .. وكان اختيار مصعب بن عمير لهذه المهمة اختياراً موفقاً ، لأنه
 استطاع بفضل الله أن يدخل الإسلام في كل بيوت المدينة خلال عام واحد ، وصار
 الجميع يهتمون بما يتلى عليهم من كتاب الله تعالى — حتى عرف مصعب " ﷺ
 باسم القارئ ، والمقرئ .

وتلقى الأوس والخزرج مصعباً بالترحيب ليؤمهم حيث كره كل منهم أن
 يؤمه واحد من القبيلة الأخرى ^(٢) .

اللقاء الثالث

بيعة العقبة الثانية

عاد أصحاب العقبة الأولى إلى المدينة ، ومعهم مصعب بن عمير ، ولم يقترب
 موعد الحج من العام القادم حتى هبأت قلوب أهل المدينة للخير ، وانتشر الإسلام
 فيهم ، حتى لم تبقى دار من دور يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين ، يظهرون إيمانهم ،
 ويترمون بما عاهدوا الله عليه .

^(١) صحيح البخاري ج ٦ ص ٢٠٠ .

^(٢) النهاية والنهاية ج ٣ ص ١٥١ .

وقد تعلقت قلوب أهل المدينة برسول الله ﷺ " حياً ، وتقديراً : وتألوا لموقف أهل مكة من الإسلام والرسول ، ولذلك اجتمعوا ، ودرسوا الموقف ، وقال بعضهم لبعض : إلى متى نذر رسول الله يطوف في جبال مكة ؟ ويخاف ؟ ويعتدى عليه المشركون ؟ !

فكان أن رحل عدد غفير من الأوس والخزرج إلى الحج تأدية للمسكن ، وحباً للقاء رسول الله ﷺ ، فلما وصلوا إلى منى ، وفي ثاني أيام التشريق واعدوا لقاء رسول الله في الشعب المجاور للعقبة .

يقول كعب بن مالك : ثم خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله ﷺ " العقبة من أوسط أيام التشريق أن نوافيه في الشعب الأيمن إذا انحدرنا من منى بأسفل العقبة ، على ألا ننبه نائماً ، ولا نتنظر غائباً .

فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ " هنا ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ، سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا أخذنا معنا ، وكنا نكتم على من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه ، وقلنا له : يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون خطيباً للنار غداً ، ثم دعونا إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ " إيانا في العقبة ، فأسلم وشهد معنا العقبة .

فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ " تسلسل تسلسل القطا ، مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب ، عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا : سيدة بنت كعب - أم عمارة - ، إحدى نساء بني مازن من بني النجار ، وأسما بنت عمرو بن عدى ، فاجتمعنا في الشعب نتظر رسول الله ﷺ " حتى جاءنا ، ومعنا العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له كما حضر معه " أبو بكر ، وعلي ابن أبي طالب .

فلما جلس كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يا معشر الخُزَرج ^(١) إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل أبنائنا فيه ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم والحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتكموه إليه ، وما نعوه ممن خالفه ، فأنتم وما فعلتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه ، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

وقال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخُزَرج ، هل تدرون علام تباعون هذا الرجل ؟

قالوا : نعم .

قال : إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم تريدون أنكم إذا هُكَّت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتل ، أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خسر الدنيا والآخرة ، وإن كنتم تريدون أنكم وافون له بما عاهدتموه على هُكَّة الأموال ، وقتل الأشراف ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

ثم تكلم رسول الله ﷺ فقال لهم : ليتكلم متكلمكم ، ولا يطيل ، فإن عليكم من المشركين عينا ، وإن تعلموا بكم يفضحواكم ..

فقالوا يا رسول الله : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، وخذ لنفسك ولربك ما أحبيت .

فتكلم رسول الله ﷺ : فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم .

فأخذ البراء ابن معرور بيده ، ثم قال : نعم فو الله الذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزربنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب ، وأهل الحلقة ، ورثاها كابرأ عن كابر .

^(١) قال : وكانت العرب يسمون هذا الحى من الأنصار الخُزَرج خزرجهما وأوسها .

فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبلاً وإنا قاطعوها — يعنى اليهود — فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أشهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا .

فتبسم رسول الله " ﷺ " ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم — أى ذمتى دمتكم وحرمتى حرمتكم — أنا منكم ، وأنتم منى ، أحارب من حاربتكم وأسلم من سلمتم (١) ثم قال أبو أمامة : (يا محمد : سل لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله ، وعليكم ، إذا فعلنا ذلك . قال " ﷺ " : أسألكم لربى أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤوونا ، وتنصرونا ، وتمنعونا ، مما تمنعون منه أنفسكم .

قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

قال " ﷺ " : لكم الجنة .

قالوا : فلك ذلك (٢) .

وهنا قال رسول الله " ﷺ " : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس . فمن الخزرج : أبو أمامة أسعد بن زرارة نقيب بني النجار ، ورافع بن مالك ابن العجلان نقيب بني زريق ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة نقيب بني الحارث بن الخزرج ، وسعد بن عباد ، والمنذر بن عمرو نقيب بني ساعدة ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعباد بن الصامت . ومن الأوس : أسيد بن خضير نقيب بني عبد الأشهل ، ورفاعة بن عبد المنذر وسعد بن خيثمة نقيبا بني عمرو بن عوف .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ١٦٣ .

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال :
 " أتتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم ، وأنا
 كليل على قومي — يعني المسلمين — قالوا : نعم ^(١) .

وقد روى البيهقي عن الإمام مالك ﷺ " قال : حدثني شيخ من الأنصار
 أن جبريل كان يشير إلى رسول الله ﷺ " إلى من يجعله نقيباً ليلة العقبة ^(٢) .

وفي حديث كعب بن مالك قال : كان أول من ضرب على يد رسول الله
 ﷺ ، السراء بن معرور ، ثم بايع القوم ^(٣) ، فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ
 شيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط : يا أهل الجباب : هل لكم في
 مذمم والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم ؟

فقال رسول الله ﷺ : هذا أذب العقبة ، هذا ابن أزيب ، استمع أي عدو الله ،
 أما والله لأفرغن لك .

ثم قال رسول الله ﷺ : إرجعوا إلى رحالكم ، فقال له العباس بن عباد
 بن نضلة ، والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فنا .

فقال رسول الله ﷺ : لم تؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ، قال : فرجعنا
 إلى مضاجعنا فمنا عليها حتى أصبحنا ... فلما علم أهل مكة جاءوا إلى الأنصار ،

فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا لتخرجوه من
 بين أظهرنا وتبايعوه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن

تشب الحرب بيننا وبينهم منكم ، فانبعث من هناك من مشركي قومننا يحلفون بالله
 ما كان من هذا شيء ، وما علمناه ، وقد صدقوا لم يعلموه ^(٤) .

(١) صورة النبي ﷺ ج ١ ص ٤٤٣ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٢٨١ .

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٦٣ .

(٤) المرجع السابق ج ٤ ص ١٦٤ .

وكذلك أراد الله بالأنصار خيراً ، وأراد الله بدينه أن يظهره على أيدي هذا
الحى من العرب ، وقضى بأن يكون للأنصار اليد الطولى فى نصرة الإسلام ، بعد أن
أنعم الله عليهم بنعمة التوحيد ، والتوحد ، ومحا ما كان بينهم من العداة والتنافر ،
فلطالما سالت الدماء غزيرة بين الأوس والخزرج ، وكان آخر يوم شهدوه هو يوم
بعث الذى ذهب ضحيته العديد من رجالها ، وكان اليهود وراء هذه الدماء الغزيرة
التي تسيل ضماناً لسيادتهم ، وابتزازاً لأموال المتحاربين ، عن طريق بيعهم الأسلحة ،
وما تحتاج إليه الحروب .

لقد قامت هذه المبايعة على المصارحة ، فقد اشترط العباس للنبي " ﷺ " ،
كما اشترط أبو الهيثم لقومه وعلم كل طرف ما له ، وما عليه ، وبذلك لم تكن بيعة
قائمة على مجرد العاطفة فقط ، ولكنها قامت على التفهم للموقف ، والنظرة البعيدة
للمستقبل .

وتجلت حكمة النبي " ﷺ " حين طلب من الأنصار أن يكموا أمرهم حين
يتوافدون إليه فى المكان الذى واعدهم فيه وقد أطاعوه ، فلم يوقظوا نائماً ، ولم
ينتظروا غائماً ، ذلك أنه كان يراقبهم فى هذا الموسم من لم يدخل نور الإسلام فى قلبه
وأراد الله تعالى تضليل أهل مكة فتولى هؤلاء الذين لم يسلموا عبء الرد فيما بعد
على مشركى قريش حين عاتبوا الثريين على مبايعتهم الرسول " ﷺ " ، وسلم
الأنصار المبايعون من عناء مجادلة المشركين والتعرض للكذب إن أنكروا .

وبعد تمام البيعة الكبرى عاد الأنصار إلى مدينتهم ، وأخذ المشركون يشتدون
فى أذى المسلمين ، ومنعهم من الخروج .

فشكا الصحابة أحوالهم إلى رسول الله " ﷺ " ، واستأذنوه فى الخروج من
مكة ، فأذن لهم ، وقال لهم : (أريت دار هجرتكم ، أرض سبخة ذات نخل بين

لا تسنن (١) ثم مكث أياماً ، وخرج لأصحابه مسروراً ، وقال لهم : (قد أخبرت
 بشار هجرتكم ، وهي يشرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها) (٢) ، فأخذ
 الصحابة يخرجون متخافين ، مهاجرين إلى المدينة لتبدأ مرحلة جديدة في سيرة
 رسول الله " ﷺ " ، وفي الدعوة الإسلامية .

* * *

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٦٨ .

(٢) سيرة النبي " ﷺ " ج ١ ص ٤٦٨ .

الفصل الثالث

حركة النبي ﷺ

بالدعوة إلى الله تعالى

في مكة



تفهيم :

نزل الوحي على رسول الله ﷺ " أولاً تعليماً وتهيئة ، وبعد مرور ستة أشهر نزل جبريل " الغيث " بأول سورة المدثر لينقل محمد ﷺ " من مرحلة النبوة إلى مرحلة الرسالة ، كما هو واضح من قوله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ (٢٤) فهو أمر بالقيام بأمر الدعوة بما يعنيه من الثبات ، والإخلاص ، والملازمة ، والاستقامة ، والشمول ، وحسن الطلب والتوجيه .. لأن القيام يشمل ذلك كله ^(١) .

وهذا الأمر (قُمْ) أخذ النبي ﷺ " يتحرك بالدعوة ، لإيصالها إلى البشر أجمعين ، بطريقة منهجية تراعى أحوال الناس ، وبالحركة الممكنة ، ويقدر ما تسمح به الأحوال .

وقد اقتضت منهجية الحركة بالدعوة أن تمر بعدد من المراحل في مكة ، حيث تغاير التوجيه والبلاغ في صورته ، وأسلوبه ، في كل مرحلة عن سابقتها ، وعن ما يلحق بها .

وهذا التغاير بين مراحل الدعوة ضرورة واقعية ليتعامل الرسول ﷺ " والدعاة معه ، ومن بعده ، مع الواقع بما يناسبه ، وبما يحقق الغاية المقصودة منه .

إن هدف الدعوة معروف منذ اللحظة الأولى ، لكن تحقيق هذا الهدف يحتاج إلى وسائل عديدة تتعامل مع واقع الحياة ، والأحياء ، ويحتاج كذلك إلى أسلوب يتفق مع أفهام المخاطبين ، ويتلاءم مع أفكارهم ، وثقافتهم ..

إن ثبات الغاية ، وتغيير الأسلوب ، والوسيلة ، مسألة تعطي الدعوة الحيوية ، والمرونة ، والتجديد ومن المعلوم أن جمود الوسيلة لا يتفق مع تطور الحياة ، وتقدم المدنية ، وطبائع الناس ، كما أن جمود الأسلوب تخلف يؤدي إلى وضع الأفكار في قوالب غامضة تضر الفكرة ، وتعجز عن إيصالها إلى عديد من الناس .

^(١) مصادر نوري التيسير ج ٣ ص ٣٠٧ - ٣١٣ بتصرف .

وقد تحرك الرسول ﷺ بالدعوة إلى الإسلام بوسائل متعددة ، وأساليب كثيرة من خلال تعامله مع عديد من البشر ، في بيئات مختلفة ، وبين أطر مذهبية كثيرة . وفي هذا الفصل سيكون الحديث عن حركة النبي ﷺ بالدعوة ، في الفترة المكية ، ولذلك رأيت أن أقسم على عدد من المراحل لتمييز كل منها بخصائص معينة ، لا توجد في غيرها .

ومن خلال تناولي للفترة المكية بمراحلها أجدني أتعامل مع مصطلحات عديدة من أهمها مصطلحات المنهج ، والوسيلة ، والأسلوب . وحتى لا تتداخل المعاني ، أرى أهمية تحديد مفاهيم هذه المصطلحات . وبعدها سأتناول مراحل الدعوة في الفترة المكية ليشمل الحديث كل مرحلة بمنهجها ، ووسائلها ، وأساليبها ، وبذلك يتضح الأمر ، ويفهم المقصود . وبذلك سيتكون هذا الفصل من المباحث التالية : —

- المبحث الأول : تحديد مفاهيم الحركة بالدعوة .
- المبحث الثاني : حركة الرسول ﷺ بالدعوة في المرحلة السرية .
- المبحث الثالث : الوسائل والأساليب خلال المرحلة السرية .
- المبحث الرابع : المسلمون خلال المرحلة السرية .
- المبحث الخامس : المرحلة الأولى للجهر بالدعوة .
- المبحث السادس : مرحلة الجهر العام بالدعوة .
- المبحث السابع : الحركة بالدعوة خلال مرحلة الجهر العام .
- المبحث الثامن : توافق الأسلوب مع الموضوع .
- المبحث التاسع : مواجهة عدوان الكفار .
- المبحث العاشر : استمرار الحركة بالدعوة .
- المبحث الحادي عشر : المسلمون في نهاية المرحلة المكية .

وذلك فيما يلي ...

المبحث الأول

تحديد مفاهيم الحركة بالدعوة

يُسلط الأمر على من يقرأ في الدعوة الإسلامية حين يرى استعمال كلمات
مكان كلمات أخرى ظناً من المؤلف أنها متحدة المعنى ، مع أنها ليست بمعنى واحد ،
كوضع كلمة المنهج مكان كلمة الأسلوب ، واستعمال الأسلوب في موضع الوسيلة . .
وهكذا ، الأمر الذي من أجله أعقد هذا المبحث لتحديد مفاهيم الحركة بالدعوة
الإسلامية ، وبخاصة أن كل مصطلح بدأ في أن يكون علماً علي علم خاص ، من
علوم الدعوة العديدة ، التي يحتاجها الدعاة إلى الله تعالى في العصر الحديث .
وأرى أن تحديد مفاهيم مصطلحات الدعوة له أهمية في دراسة عصر النبي
ﷺ " لتعرف القضايا ، وتحدد معاني المصطلحات ، وتفهم بوجه يحقق الاستفادة
الدقيقة بها ، وتكون الأسوة برسول الله ﷺ " حيث يريد الله تعالى .

أولاً

منهج الدعوة

تعتمد الدعوة على منهج يحدد مسأئلهما ، ويوضح طرقها ، ويعرف وسائلها ،
ويضع الفواعل العلمية التي تقنع المدعو ، وتحقق الغايات المقصودة من بعثة النبي محمد
ﷺ " بكل ما فيها من خير ، وأمن ، وسعادة ، للناس أجمعين ، في الدنيا ، وفي
الآخرة .

إن المنهج نظرية متكاملة تتناول كافة جوانب عملية الدعوة ، كما تتحدد مهام
كل جانب ، وطريقة قيامه بدوره في الدعوة إلى الله تعالى .

إن الدعوة إلى الله تعالى تقوم على عدة جوانب هي : —

أ — مضمون فكري هو الإسلام بما حوي من عقيدة ، وشرعية ، وأخلاق .

ب — أسلوب يحتوي على الفكرة ، ويتحرك بها ، ويوصلها لمن يستقبلها من

الناس ، وقد يكون الأسلوب قولاً ، أو عملاً ، أو حالة معبرة ، أو غير ذلك .

ج — أدوات تحمل الأسلوب بمضمونه ، ومحتواه .

د — شخصية عاقلة تجمع الأجزاء المذكورة في صورة حسنة لتصل بها إلى

المدعويين ، رجاء إيمانهم ، وهدايتهم .

ه — أناس يتوجه إليهم الدعاة بالفكرة ، واضحة ، مقنعة ، بأسلوب

مناسب ، وأدوات ملائمة ، رجاء تحقيق ما تريده الدعوة منهم .

إن هذه الجوانب علوم للدعوة إلى الله ، ويجب أن يهتم العلماء بها ، بوضع

القواعد ، وإعداد الدراسات التي يحتاجها كل علم منها .

ومنهج الدعوة هو الخطة الكلية ، والنظام العام الذي يحدد الإطار لكل هذه

الجوانب ، ولكل هذه العلوم لتتربط وتتكامل .

إن منهج الدعوة بصورة عامة هو النظام الذي يجمع كافة جزئيات عملية

الدعوة ، وينسق بينها ، لتتكامل ، وتحقيق للدعوة ما يراد منها على وجه صحيح .

وقد بين العلماء أن المنهج كمصطلح علمي يدل على ما ذكرت . . .

تقول اللغة : إن المنهج يعني الخطة المرسومة ، والنظام الموضوع ، واتخذ

للسير عليه ، واتباعه لتحقيق هدف معين ، والوصول إلى غاية محددة ^(١) .

وعلماء التفسير والمحدثون يذهبون في معنى المنهج إلى ما ذكرناه ويرون أن

المنهج هو الطريق الواضح ، البين ^(٢) .

يقول الدكتور / أحمد بدر، وهو يتحدث عن مفهوم مناهج العلوم : إن المنهج

هو الطريق المؤدى إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم ، بواسطة طائفة من القواعد

العامة التي تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتي يصل إلى نتيجة معلومة ^(٣) .

^(١) مناهج الدعوة إلى الله — د/ جلال البشار ص ٢٩ ، وهذا المعنى استنباط من كتب اللغة وهي تدين معنى الحج ومنهج ، المدخل إلى علم

الدعوة — د/ محمد البيانوني ص ٤٥ .

^(٢) انظر معنى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ في تفسير الطبري ، والرازي ، وفي كتب السنة عند شرح قوله " ﴿ لِكُلِّ ﴾ " (١) .

تكون خلافة على منهاج النبوة (فتح الباري ج ١ ص ١٠ ، والفتح الرباني ج ٢٢ ص ١٠ .

^(٣) أصول البحث ومناهجه ص ١٥ .

إن المنهج خطة كاملة ، ونظرية تامة ، تحدد الدعوة ومسارها ، وطرق الإقناع لها ، وأسلوب الخطاب لها ، وتحقيق أهدافها في كافة جوانب الحياة .
وعلى هذا فمنهج الدعوة كمصطلح ، أو كعلم خاص ، يشتمل على نظرية شاملة للدعوة بكل جوانبها ، وحينئذ لا يصح إطلاق مسمى المنهج على الأسلوب ، أو على الوسيلة ، أو على الموضوع ، أو غير ذلك ، إلا على وجه التحاز من باب تسمية الجزء باسم الكل ، ومع وجود قرينة تمنع من إرادة حقيقة المفهوم .
ومنهج الدعوة رباني كله ، ويمكن أخذه من تعاليم الله تعالى من كافة جوانبه ، لأن الجوانب الثابتة كموضوع الدعوة ، وغايتها ، ثابتة مفصلة .
أما الجوانب غير الثابتة كالوسائل ، والأساليب ، وصفات القائم بالدعوة ، وأحوال المدعوين ، فإن تعاليم الله تعالى تضع الأسس ، والشروط مع ترك التفاصيل للاجتهاد والبحث .

ومنهج الدعوة ليس هو الحركة بالدعوة ، لأن الحركة تعني الصورة العملية التي تظهر حين يقوم الرسل والدعاة بتبليغ دين الله للناس ، والمنهج أعم من ذلك .

ثانياً

المضمون الفكري للحركة

الإسلام هو الموضوع التي تتحرك به الدعوة ، وهو المضمون الفكري الذي يحتويه الأسلوب ، ويحركه بوسائله ، وأدواته .
والإسلام أساسه العقيدة ، ولذلك تدور حركة الدعوة مع تبليغ العقيدة ، وتثبيتها في القلوب ، وربطها بكافة أنشطة الإنسان ..
إن العقيدة الإسلامية تتمثل في " شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله " .. وهذه الشهادة تتكون من شطرين : —

الشرط الأول : وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، وبه تتحدد للإنسان عبوديته لله

العبود ، ليقر له بالوحدانية المطلقة ، ويتجهله وحده سبحانه وتعالى بالعبادة كلها ، ويحصر

التلقى منه سبحانه وتعالى .

فليس عبداً لله من لا يعتقد بوحديته سبحانه وتعالى ، بكل اليقين والإخلاص .
وليس عبداً لله وحده من يخضع ، ويخشع ، ويتوجه بالعبادة لغير الله تعالى ! !
وليس عبداً لله من يرتضي لنفسه مصدراً غير الله ، يأخذ منه النظام والتشريع ! !
وليس عبداً لله من يعلن العبودية ظاهراً ، وعند حاجته للإعلان فقط ، ويخالف لوازمها
عند العمل والتطبيق ! !

ويؤكد الشطر الثاني : وهو أشهد أن محمداً رسول الله ، أن محمداً

هو طريق التلقى الوحيد عن الله تعالى ، فهو رسول الله " ﷺ " الذي نزل عليه الوحي ،
وبلغه للناس ، ليمدهم بكل ما يحتاجون إليه في حياتهم ، وينظم لهم جميع أعمالهم ،
وأنشطتهم .

وليس مؤمناً من لا يضع الرسول " ﷺ " في موضعه الواجب ..
وليس مسلماً من يهمل ما جاء به رسول الله " ﷺ " ، ويعمل بما جاء من
عند غيره ! ! ..

إن العقيدة الإلهية تقوم على كلمة الشهادة بركניהما ، لأن الشهادة تشمل
الإسلام كله ، ولذلك كان اهتمام الرسول " ﷺ " بها منذ البداية ..

يقول سيد قطب : والقلب المؤمن المسلم يتمثل هذه القاعدة بشطريها ،
بصدق وإخلاص ، وبذلك يكون مؤمناً ، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان ،
وأركان الإسلام ، يتحقق بهما ، فالإيمان بملائكة الله ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ،
والقدر ، خيره ، وشره ، يقوم على هذه القاعدة .

وكذلك الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج يعتمد عليها .
ثم الحدود ، والتعازير ، والحل ، والحرم ، والمعاملات ، والتشريعات ،
والتوجيهات الإسلامية ، إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده ، كما أن
المرجع فيها كلها هو ما بلغه لنا رسول الله " ﷺ " عن ربه .

والجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضاها جميعاً ، تمثلاً
 علمياً ، وعملياً ، لأنه بغير تمثّل تلك القاعدة ومقتضاها فيه لا يكون المجتمع مسلماً .
 ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، قاعدة لتصور
 كامل : تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بخلافها ، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم
 هذه القاعدة ، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة ، أو
 قامت على قاعدة أخرى معها ، أو عدة قواعد أجنبية بعيدة عنها ^(١) .

يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ

فَإِنِّي فَارَهِبُونَ ﴾ ^(٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٣) لَا شَرِيكَ لَهُ ^ط وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ^(٤) .

ويقول سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ

اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ^(٥) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ^(٦) .

من هذه الآيات وغيرها كثير في القرآن الكريم ، تعرف وحدانية الله تعالى ،

وتحدد واجبات العبودية ، وتؤكد ضرورة حصر الأخذ والتلقي من الله تعالى .

^(١) معالم في الطريق ص ١١٥ ، ١١٦ .

^(٢) سورة البقره آية (٥١) .

^(٣) سورة الأنعام الآيات (١٦٢ ، ١٦٣) .

^(٤) سورة الشورى آية (٢١) .

^(٥) سورة الحشر آية (٧) .

لقد ركز رسول الله ﷺ " دعوته في مكة على تثبيت العقيدة في القلوب ليعيش الناس الإسلام كله بعدما تمتلئ قلوبهم بالإيمان .

إن المجتمع المسلم ، والفرد المسلم ، يجعل الإسلام دستور الحياة على أساس إيماني ، خالص ، ويعيشه بكماله ، وتمامه ، علي أساس أنه متطلب إيماني ، نابع من عقيدة " لا إله إلا الله " التي هيمنت علي قلبه ، وعقله ، وعواطفه ، وأصبحت هي الموجه الوحيد لسلوكه عن طواعية واختيار .

إن مقتضى شهادة التوحيد يشمل أركان الإيمان ، وسائر العبادات ، والتوجيهات التشريعية ، والأخلاقية .. وغيرها ^(١) .

إن مقتضى هذا التوحيد يشمل الحياة كلها ، ولذلك كان البدء بتعليم العقيدة ، وكان الجهد المبذول في تثبيتها ضخماً ليتلاءم مع أهميتها ، ودورها في تطبيق الإسلام كله .

إن مقتضى التوحيد يؤدي إلى إيجاد الفرد المسلم ، والمجتمع المسلم في عالم الواقع ، وبذلك يتحول الكون كله عابداً لله تعالى ، ويصير الناس ربانيين ، مخلصين ، صالحين ، أعمالهم كلها لله يتحرون بها طاعة الله والإمتثال لأمره ، واجتناب نواهيه . وأمانيتهم كسب رضي الله ، ومن أجلها يتحرون مناط الرضي ، ويركزون علي عوامل القربى ، ليتمتعوا برحمة الله ، ورضوانه ، وحيه .

وتحارثهم الرئيسية مع الله ، وأغلي أرباحهم ينتظرونها يوم أن يتجلي الله عليهم بعزته ، وهم في النعيم، فيرونه ، ويسعدون بنشياه ، ويعيشون في الجنات خالدين لهم فيها ما يشاءون .

إن النطق بالشهادة ، يعبر عن حقيقة اليقين ، ويؤدي إلي التمسك بلوازمها ومقتضياتها ، ويوجد المؤمن السعيد ، ويحقق المجتمع العظيم ، في عالم الناس .

(١) أنظر : كتاب لا إله إلا الله — للأستاذ / محمد قطب ، العقيدة أولاً — للدكتور / الشريف الحجازي .

ولقد صنع رسول الله ﷺ " بالشهادة مجتمعاً متحرراً من سلطان الشهوة ،
وسلطان الطغاة ، مجتمعاً قائماً على العدل ، وتقرير كرامة الإنسان ، مجتمعاً طاهر
المخلوق ، زكي الروح ، يقظ الضمير ، متألّفاً ، متحاباً ، يوالي الفرد الفرد أخاه ،
ويعمل للجماعة كما يعمل لنفسه .

ولقد صنع رسول الله ﷺ " هذا المجتمع السعيد لأن أفراده أقاموا هذا الدين
(أولاً) في قلوبهم ، وضمايرهم ، وضيقوه (ثانياً) في حياتهم وأعمالهم ، وبعد ذلك
كانوا رجالاً يحبون لغيرهم ما يحبونه لأنفسهم ، ويحافظون على حقوق الآخرين قبل
أن ينالوا حقهم .

إن هذا المضمون هو الإسلام كله ، وهو الجزء الرئيسي في منهج الدعوة ،
لأن غاية المنهج هو خدمة الإسلام ، وتبليغه للناس ، وتحقيقه في عالم التطبيق والسلوك .

ثالثاً

أسلوب الدعوة

الفكرة في حقيقتها معلومات عقلية لا تظهر للناس إلا في قوالب لغوية ،
يؤلفها حامل الفكرة أو تؤلف له ، ويتمكن بواسطتها من إيصال فكرته ومعارفه لغيره .
كما أن المستمع والمتلقي يفهم الفكرة ، ويتصورها ويتجاوب معها من خلال
الكلمات التي سمعها ، أو قرأها .

والقوالب اللغوية الحاملة للمضمون هي الأساليب البيانية ..

والأسلوب أحد أركان منهج الدعوة ، ويعرفه العلماء بأنه المحتوى البياني
الذي يحمله الطريق لتصل الدعوة إلى المدعوين ، وقد يكون هذا المحتوى قولاً منطوقاً
أو مكتوباً ، أو صورة ، أو عملاً وهكذا ..

والأسلوب أهميته في إيصال المضمون للناس ، لأن الإنسان لا يستوعب
الفكرة ، ولا يفهمها جيداً إلا إذا وصلت إليه بأسلوب مفهوم ، مرتب على قواعد
علوم اللغة ، والبلاغة التي لا بد منها لدقة المعنى ، والتأثير به ، ولذلك دعا الرسل

"عليهم السلام" بلسان المدعوين، ووجب تبليغ الدين على نحو بين، ومفهوم ودقيق .
 إن الخطاب الديني يتجه إلى الإنسان ، ويعيش مع طاقاته العقلية والوجدانية ،
 والسلوكية ... ووجب لذلك أن يتنوع مع دقة المعنى ، وجمال العبارة ، وحلاوة
 الأسلوب على نمط القرآن الكريم الذي شهد له أعداؤه ، وقالوا عنه : إن له حلاوة
 وإن عليه لظلاوة ^(١) .

إن أسلوب القرآن الكريم يتضمن الإقناع العقلي ، والتأثير الوجداني ،
 والجذب الروحي ، لأنه يخاطب في الإنسان شعوره ، ومشاعره ، ويتحدث مع عقله
 وعواطفه ، ويأخذ بالألباب ، والأرواح .

لقد كان كفار مكة وعلى رأسهم قاذم بن أمية ، يتأثرون بالقرآن حين يسمعون
 ولذلك كانوا يأتون سراً لسماع محمد ﷺ في الليل إعجاباً بأسلوب القرآن الكريم .
 يروي ابن هشام عن ابن إسحاق أن محمداً بن شهاب الزهري قال : إن
 أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب
 الثقفي ، حليف بني زهرة ، خرجوا ليلة يستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلي
 من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم مكان
 صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ،
 فتلاوموا .

وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو راكم بعض سفهائكم لأوقعتم في
 نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا
 يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض
 مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ،
حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى
يتعاهد ألا نعود : فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، وخرج حتى أتى أبا سفيان في بيته
، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟
فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت
أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها .

قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك .
ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ،
ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ،
وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تخاذنا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا
نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمضى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ، ولا
نصدق به .

فقام عنه الأخنس وتركه ^(١) .

لقد كان لأسلوب القرآن الكريم التأثير العظيم في عقول من يفهمه ، ووجدان
من يسمعه ، حتى رأينا كفار مكة يتخفون للتمتع بالاستماع إليه ، وما صدهم عن
الإيمان إلا التعصب ، والحقد ، والحسد .

إن كثيراً من أهل الكتاب دخلوا في الإسلام بسماعهم القرآن الكريم ، يقول
تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا
عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ^(٢) وما ذلك إلا لما

^(١) سورة النحل : ٦٤ . ابن هشام ج ١ ص ٣١٥ .

^(٢) سورة البقرة آية (٨٢) .

فيه من أصالة الموضوع وبساطة المعنى ، وجمال الأسلوب ، ولما فيهم من سلامة
 الفطرة ، وصدق التوجه ، واتباع الحق ، والتسليم بالدليل ، وشأن القرآن الكريم دائماً
 أن يزداد به الإيمان ، وتخضع القلوب ، وتذرف العيون ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
 الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
 يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (٢) .
 ويصف الله تعالى تأثير القرآن الكريم في النفوس المؤمنة ، ويبين ما يصيب القلوب من
 خشية ولين ، وما يظهر على جلودهم من قشعريرة واضطراب ، يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ
 نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
 ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن
 يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾ (٣) .

وحتى يقوم الأسلوب بدوره أرسل الله الرسل " عليهم السلام " بلغة أقوامهم
 ليتضح المعنى ، ويعرف المطلوب ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا
 بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ﴾ (٤) .

والأساليب تتنوع مراعاة لحال المدعوين ، لأن من الناس طائفة ذات نفوس
 مشرقة ، وعقول ذكية ، وإدراك سريع ، وهؤلاء تكفيهم الإشارة ، ويناسبهم الإيجاز ،

(١) سورة الأنعام آية (٢) .

(٢) سورة مريم آية (٥٨) .

(٣) سورة الزمر آية (٢٣) .

(٤) سورة إبراهيم آية (٤) .

وترضيهم الكلمات القليلة ذات الدلالات الموجزة ، والمعاني الدقيقة .

ومن الناس طائفة ذات عقول متوسطة ، ونفوس خاملة ، وطباع لا تتحرك إلا إذا استثارت ، وانفعلت ، وهؤلاء يناسبهم بسط الكلام ، وتكرار العبارة ، وسوق المعنى بأكثر من طريق .

ومن الناس طائفة ذات عقل وفهم ، لكنها محبة للجدل والحوار ، كثيرة السؤال والاعتراض ، مرة لتفهم ، وأخرى لتظهر ذاتها في حوار ونقاش ^(١) .

وقد أدى تنوع الناس إلى تنوع الأساليب ، مع أن المعنى والمضمون واحد . ولذلك رأى العلماء أن الأسلوب بصورة عامة يتنوع إلى ثلاث صور كلية وبعدها تأتي الأساليب الفرعية العديدة ، المناسبة للمدعوين ، تعبيراً عن إحدي هذه الصور الكلية .

والصور الكلية للأسلوب ثلاثة ، أمر الله بها في قوله تعالى : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ^ط وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ^ط إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ^ط بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ^ط وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ^ط ﴾ ^(٢) ، وبيانها فيما يلي : —

الصورة الأولى : الحكمة :

وهي مشتقة من الإحكام والإتقان ، ومرجعها إلى العلم الدقيق ، والحقيقة المجردة ، الخالية من الاطناب ، والتكرار .

وتطلق الحكمة على مسميات عديدة كالعقل ، والفهم ، والنبوة ، والحديث ، وعلى بعض أساليب الدعوة .

والحكمة في أساليب الدعوة تعني اللفظ المحكم ، الدقيق ، الدال على معناه المقصود بلفظ موجز ، وعبارة جميلة .. يقول أبو السعود : (الحكمة هي الدليل الموضح

^(١) انظر : تفسير الرازي ج ٥ ص ٥١٥ بمصرفة .

^(٢) سورة النحل آية (١٢٥) .

للحق، المزيل للشبهة، المتجه إلى العقل مباشرة، من غير إثارة وجدان، أو تهيج
إنفعال^(١).

ويقول الإمام النووي : الحكمة عبارة عن العلم المتصف بالإحكام ، المشتمل
على المعرفة بالله تبارك وتعالى المصحوب بنفاذ البصيرة ، وتهذيب النفس ، وتحقيق
الحق ، والعمل به ، والصد عن اتباع الهوى والباطل ، والحكيم من له ذلك ، قال
أبو بكر بن ديد : كل كلمة وعظمتك ، وزجرتك ، أو دعوتك إلى مكرمة ، أو نهيك عن
قبيح فهي حكمة ، وحكم^(٢).

ويقول ابن القيم : الحكمة جامع مانع لأنه يشمل الإتيان ، والإحكام للأقوال ،
وتتزيل جميع الأمور في مواضعها المناسبة ، وفي أوقاتها الملائمة للإفادة بها^(٣).

الصورة الثانية : الموعظة الحسنة :

والموعظة يعني النصيح ، والإرشاد ، ومخاطبة الوجدان ، وإثارة العواطف ، من
خلال التنوع البياني الذي يعرض المعنى بأساليب مختلفة ، مع التذكير بالعواقب ،
والترغيب في الفعل ، والتخويف من الترك .

والموعظة يشمل الوصية الحيرة ، والأمر بالحسني ..

وعلى الجملة فإن الموعظة عبارة عن مجموعة من العبر النافعة ، والخطابات
المقنعة ، والإرشادات المعبرة .

وإنما وصفت الموعظة بأنها حسنة للإشارة إلى أن الموعظة تعني النصيح الخير ،
وتدور حول فعل المعروف ، وترك المنكر ، وتحاول إقناع العقل ، وإرضاء العاطفة ،
وإن لا لم تكن حسنة .

(١) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٢) تربية النبي لأصحابه ص ٣١٩ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٢٠ .

الصورة الثالثة : المجادلة بالتي هي أحسن :

المجادلة أدلة كلامية يوردها الداعي ليلزم الخصم ، ويفحمه ، ويجعله يؤمن بالمدعي ، واتصفت المجادلة بالحسن إبعاداً لها عن مفهوم المجادلة الاصطلاحية الذي يعرف المجادلة المنطقية ، والمكابرة ، والمعاندة ، بأنها ليست لإظهار الصواب ، بل لإلزام الخصم ، والتعالي وإثبات الذات ، ذلك أن حملة الدعوة يقصدون إظهار الصواب دائماً والوقوف على الحق باستمرار ، وإقناع الخصم بالحسن .

يقول صاحب مختار الصحاح : (جادل مجادلة جدالاً إذا خاصم بها يشغل عن ظهور الحق ، ووضوح الصواب ، هذا أصله ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها ، وهو محمود حسن إن كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم)^(١) .

ويقول الرازي : الجدل المذموم محمول على الجدل في تقرير الباطل ، وطلب المال ، والجاه ، والجدل الممدوح محمول على الجدل في تقرير الحق ، ودعوة الخلق إلى سبيل الله ، والذب عن دين الله تعالى^(٢) .

وهكذا قيد الله الجدل بالذي هو أحسن حتى يكون هادفاً ، ومقنعاً ، ومناقشاً لشبه المدعويين .

والفرق بين الجدل ، والموعظة ، أن المجادلة منازعة بين طرفين متعارضين ، والخصم فيها ليس صامتاً ، وإنما يناقش ، ويرد ، بما رسخ في نفسه من أوهام وشبه . بخلاف الموعظة ، فإن المدعو بها يستمع إليها ، ويستثار بها ، وينفعل معها ، بلا ضرورة المنازعة الكلامية ..

وقد أمر الله رسوله أن يدعو الناس بالحكمة ، والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى لنعم الفائدة سائر الخلائق المختلفين ، مكاناً ، وزماناً ، وفكراً ، وطبيعة .

^(١) مختار الصحاح مادة (جدل) .

^(٢) مفاتيح الغيب ج ٢ ص ٢٥٢ .

وقد بين الرازي تنوع الناس ، وذكر أنهم بالنسبة لكمال الطبع ، طرفان ،
وواسطة .

فالطائفة الأولى التي تتجه إليها الحكمة هي طرف الكمال .

والطائفة الثالثة المجادلة هي طرف النقصان .

والطائفة الثانية صاحبة الموعظة هي الوسطة وهم الذين لم يبلغوا في الكمال
إلى حد الحكماء المحققين ، كما لم يبلغوا في النقصان والردالة إلى حد المشاغبيين
المخاصمين ، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسلامة الخلقية ، ويقول : إن
معنى الآية أدع الأقوياء الكاملين إلى الدين بالحكمة ، وهي البراهين القطعية اليقينية ،
وعوام الخلق بالموعظة الحسنة ، وهي الدلائل اليقينية الاقناعية ، والتكلم مع المشاغبيين
بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل ^(١) .

وتقسيم الناس إلى هذه الطوائف الثلاث تقسيم يتفق مع الواقع البشري ، لأن
من الناس من يريد التعمق ويكره السطحية ، ولا يهدأ له بال إلا باليقين الحقيقي
القائم على الفكر والتدبر ، ومنهم من يستهويه موضوع مثير ، وفطرة طيبة ، فيقف أمام
اللفظة الجميلة ، والمثل النادر ، والقصة الشيقة ، والتكرار المؤكد ، ويسهر لمنظر بانس
ورؤية مسكين ، ومنهم من يهوى اللحج ، ويعشقه ، وينازع ، ويجادل .

لكن ليس معنى هذا التقسيم أن كل طائفة تغاير الأخرى تماماً ، وتتميز تمايزاً
كلياً ، إذ من الناس من يجمع في طبعه أكثر من صفة ، ولذا كان تنوع الأسلوب
ضرورة لمخاطبة كافة الناس ، وإرضاء كافة عناصر الإنسان .

جاء في الظلال : والدعوة بالحكمة تراعى أحوال المخاطبين وظروفهم ،
والقدر المختار لهم في كل مرة حتى لا يتقل عليه ، ولا يشق عليهم بالتكاليف قبل
استعداد النفوس لها ، والطريقة التي يخاطبهم بها ، والتنويع في هذه الطريقة حسب
مقتضاها .

(١) مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٥٣٦ : ٥٣٧ .

والدعوة بالموعظة الحسنة تدخل إلى القلوب برفق ، وتعمق المشاعر بلطف ،
لا بالزجر والتأنيب في غير موجب ، ولا بفضح الأخطاء التي تقع عن جهل ، أو
حسن نية ، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة ، ويؤلف القلوب
النافرة ، ويأتي بخير أكثر من الزجر ، والتأنيب ، والتوبيخ .

والدعوة بالجدل بالتي هي أحسن تكون بلا تحامل ، على المخالف ، ولا
ترذيل له وتقبيح ، حتى يطمئن إلى الداعي ، ويشعر أن ليس هدفه الغلبة في الجدل ،
فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها ، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا
بالرفق حتى لا تسرع بالهزيمة ، والجدل بالحسني هو الذي يطمئن من هذه الكبرياء
الحساسة ^(١) .

وبلاحظ :

أن كلاً من صور الأسلوب الثلاث لا تنحصر في شكل بياني محدد، لأن
الصورة الواحدة تظهر في صور فرعية عديدة ، فمن الحكمة الإنجاز ، والإشارة ،
والتأكيد المجرد .

ومن الموعظة الاستفهام، وضرب المثال، والتشبيه وإيراد القصص، والتأثير الصوتي
ومن الجدل ، المحادثة ، وحلقات النقاش ، وعقد الاجتماعات ، والمناظرات .

ولذلك اعتبرت هذه الصور الثلاث أصولاً للأساليب تتفرع منها صور
عديدة قابلة للزيادة كلما تقدم الناس ، وتطورت العلوم ، وتنوعت الحضارات .

وهكذا ..

يكون الأسلوب ، ويكون دوره مع البلاغ والدعوة ..

^(١) في ظلال القرآن ج ٤ ص ٢٢٠٢ .

رابعاً

وسائل الدعوة

وسائل الدعوة عديدة ، ووظيفتها حمل الأسلوب محضومونه ، وتوصيله إلى المدعوين .

ويخلط كثير من الناس بين الوسيلة ، والأسلوب ، ويرون المقالة ، والخطبة ، والدرس وسائل للدعوة ، مع أنها تشتمل على أساليب تنقل الفكرة إلى المستمعين بواسطة الاتصال الشفهي الذي هو الوسيلة .

ويرجع سبب الخلط إلى تداخل النظرة إلى هذه الموضوعات ، لأنها تكون وسائل أو أساليب باعتبار الجانب المنظور إليه .

إن الخطابة ، والكتابة وغيرها قد تكون وسائل للدعوة ، إذا نظر إليها من ناحية هيكلها العام ، وشكلها الفني ، وتكون أساليب إذا نظر إلى الكلمات المنقولة من خلالها ، المتضمنة للمعاني المقصودة .

إن الأسلوب الواحد تنقله الوسائل العديدة ، كما أن الأسلوب يوجد في عالم الواقع بعد إعداده ، بينما الوسيلة توجد قبل الإعداد أو بعده ، وتظهر أهميتها وقت إستخدامها ، فالخطابة وسيلة ، والخطبة أسلوب .. وهكذا .

إن القرآن الكريم أسلوب للدعوة ، ينتقل إلى الناس بوسائل عديدة مثل المشافهة ، والكتابة ، وآلة تكبير الصوت ، وهكذا .

وأيضاً فإن القرآن الكريم وهو أسلوب للدعوة موجود قبل عملية توصيله للناس ، وقد تعطل الوسيلة ، وتنتهي ولا يتعطل القرآن الكريم ، لأنه محفوظ بأمر الله تعالى .

ولهذا كانت أهمية التمييز بين الوسيلة والأسلوب ..

وأهم أساليب الدعوة ما يلي : —

أولاً : وسائل المواجهة (المشافهة) :

يعتمد هذا اللون من الاتصال ، على المواجهة المباشرة بين الداعي والمدعو ، حيث تنقل الرسالة ، بواسطة هذه الوسيلة .

والإتصال المواجهي أقدم أنواع الوسائل ، وأكثرها تأثيراً ، وهو يشمل الإتصال الذي يتم بين فرد وفرد ، أو بين فرد وجماعة ، أو بين جماعة وجماعة ، مادام كل منها يتم بصور شفوية مباشرة .

ومن صور الإتصال المواجهي ما يلي : —

(أ) **الحادثة البسيطة** : وتكون بين عدد قليل من الناس بينهم معرفة

سابقة حيث يتحدث كل منهم مع الآخر سائلاً أو مجيباً ، كأفراد الأسرة ، والجيران ، وزملاء الدراسة والعمل .. وهكذا .

(ب) **المناقشة** : وهي فن من فنون التريية والدعوة ، ويتم مشافهة بين عدد

من الأشخاص ، حيث يعرض كل منهم رأيه من الموضوع محل النقاش ، وتختلف المناقشة عن المناظرة لأن المناقشين يسرون في اتجاه واحد ، بينما المتناظرون يسرون في خطوط متعارضة ، كما أن المناقشة تتم أحياناً بلا إعداد ، بينما المناظرة تقوم على الإعداد دائماً .

(ج) **الخطبة** : بكافة أنواعها ، لها دورها في الحضارات القديمة وما زال لها

هذا الدور ، وتتميز الخطبة بتأثيرها الواضح لأنها تخاطب العواطف والوجدان وتدور حول موضوعها ، وتقدم العديد من البراهين ، في صور بيانية مؤثرة .

والخطبة تلقى من جانب واحد فقط هو الخطيب ، ولذلك وجب على من

يقوم بالخطبة أن يهتم بجوانبها الفنية ، وقواعدها العلمية لكي يحقق الهدف الذي يرموه من وراء عمله .

(د) **الندوة** : وتقوم على الاتصال المباشر إلا أنها تختلف عن الخطبة بأن

الاتصال فيها يتم بمشاركة عدد من الاتجاهات تدور حول موضوع واحد .

وتحتاج الندوة إلى جمهور مثقف متمكن من المتابعة ، والمشاركة في الحوار ، لأن بعض الندوات يفتح فيها للجمهور باب التعليق ليساهموا بأرائهم مع المتحدثين الأساسيين في الندوة .

(هـ) **الحاضرة** : وهي لون من الاتصال المواجهي يعتمد على التحليل العلمي ، والبراهين القوية ، وهي وسط بين الخطبة والندوة لأنها تأخذ من الخطبة أن المتحدث فيها واحد ، والمستمع جمهور عريض ، وتأخذ من الندوة فتح باب المناقشة حول موضوع المحاضرة .

(و) **الدرس الديني** : وهو لون من الاتصال الديني يتم في المساجد غالباً ، وهو اتصال يتسع الموضوع فيه ، ويفتح المجال أمام المستمع للسؤال والمناقشة ، وله أثره الكبير في نشر الدين ، والتعريف بقضائيه .

٢ - الوسائل المكتوبة والمطبوعة :

استعمل الإنسان هذا النوع قديماً ولكن بصورة بدائية ، فحينما اخترعت الكتابة كان الإنسان يكتب على الجلد ، وورق الشجر ، وورق البردي ، وما شاكل ذلك ، وهذه الطريقة استفاد الإنسان منذ القدم بالكتابة حيث ضمنها ما أراد من آراء وأخبار ، وأوصلها إلى غيره ، أو تركها للأجيال المتعاقبة من بعده .

وهذه الوسيلة هي التي عرفت الناس حديثاً بالحضارات القديمة ، وما وقع لها من حروب وأحداث ، وما كان فيها من ممالك ودول .

وفي عام ١٤٥٤م تمكن الإنسان من اختراع المطبعة ، الأمر الذي ساعد على إعطاء صور عديدة للرسالة الواحدة ، وفي أشكال متعددة ، إذ يمكن إبراز الرسالة في شكل كتاب ، أو في نشرة ، أو في صحيفة ، أو في خريطة ، وهكذا .

وتتميز الوسائل المطبوعة بما يلي : —

(أ) تقوم على الرأي المدروس ، لأن المصدر لا يكتب رسالته إلا بعد بحث وتأمل ، ويحاول أن يصوغها في قالب بياني مشوق ، دال على معناه ، ببساطة وسهولة .

(ب) تسمح للقارئ بتكرار قراءتها ، والتحكم في ظروف التعرض لها مكاناً وزماناً ، وبذلك يتمكن من فهمها ، واستيعاب المراد منها ، ولهذا نادى بعض الباحثين بأن تقدم الرسائل المعقدة في صورة مطبوعة لتحقيق الهدف منها .

(ج) تمكن الرسالة المطبوعة من الوصول إلى الجماهير المتخصصة ، والصغيرة الحجم لقلة تكلفتها إذا قورنت بالوسائل الأخرى .

(د) تساعد الرسالة المطبوعة على الاقتناع ، لأنها لا تحترق السمع ، ولا تفاجئ العين ، وإنما يقدم المتلقي عليها مختاراً راضياً مما يجعله جزءاً من موضوعها فيتحليل ، ويفسر ، ويرضي أو يرفض ، وتلك هي مراحل الاقتناع .

(هـ) تؤدي الرسالة المطبوعة إلى الفهم الدقيق ، الهادئ ، لأن القارئ يمكنه أن يقرأها عدداً من المرات ، ويمكنه أن يجزئ قراءتها ، وله أن يتأكد من صدق ما جاء فيها بالبحث والتحرى والتأمل .

وقد أدى التطور بالوسائل المطبوعة إلى قيام مؤسسات ضخمة ساعدت على اتساع النشر ، وضخامة التوزيع مما جعلها بحق وسيلة للاتصال الجماهيري .

٢ - الوسائل المسموعة :

ويقصد بها الوسائل التي توصل الكلمة إلى الجماهير العريضة عبر المسافات البعيدة وهي الراديو ، تلك الوسيلة العجيبة التي تحمل الكلمة المذاعة بمختلف أشكالها وفنونها إلى أي مكان في العالم في ثوان قليلة .

وتتميز هذه الوسيلة بما يلي : —

(أ) يتميز الراديو بقدرته على اختراق أي مكان في الكرة الأرضية في زمن

وجيز بلا عائق أو حاجز .

(ب) يتميز الراديو بقدرته على مخاطبة كافة الفئات مهما اختلفت ثقافتهم

وأعمارهم وأجناسهم .

(ج) لا يحتاج الراديو إلى التفرغ التام من المتلقى لأن من الممكن الاستماع إلى الراديو خلال الاشتغال بعمل آخر ، يقول إيريك بارنو : (إن الراديو هو الوسيلة الوحيدة التي لا تستحوذ علي العين ، أي أنه يمكن أن يخدم جمهوراً نشطاً أثناء تناول الطعام ، وقيامه بالعمل المنزلي ، وأثناء فوضه من النوم ، واستحمامه وأثناء أداء متطلباته وهكذا ^(١) .

(د) تتميز الرسالة المرسله بالراديو باشتغالها علي المؤثرات الصوتية ، والجوار البناء ، وهذا يجذب المستمع ويربطه بالرسالة الإعلامية .

(هـ) يتميز الراديو بنقل رسائله فور وقوعها ، ولذلك فهو الوسيلة الأساسية في وقت الأزمات ، وحين وقوع حروب وصراعات .

(و) التكرار في الرسالة الإعلامية بواسطة الراديو تكون مقبولة غير مملحة لأنها تتخذ صوراً متعددة ، كل منها له جاذبيته الخاصة للمستمع .

وقد أدى التطور الحضاري إلى قيام الراديو بالترفيه بجانب قيامه بالخير والتثقيف .

٤ . الوسائل السموعة المرئية :

وتجمع هذه الوسيلة أهم العناصر المؤثرة في المستمع وهي الصوت ، والحركة ، والصورة ، وبذلك تتمكن من جذب أكثر من حاسة لدى الجمهور ، ولولا ما في هذه الوسيلة من صور غير مشروعة ، وبرامج مثيرة للشهوة ، لقلنا أنها أعظم وسيلة إعلامية معاصرة ، وأكثرها فائدة للدعوة إلى الله تعالى .

والأمل معلق بالمسلمين أن يستفيدوا بكافة الوسائل ، ووضعها في الأطر الشرعية ، لتكون طريقاً لإيصال الإسلام كما نزل من عند الله إلى كل مكان في العالم أداء للأمانة ، وتحقيقاً للذات ، وتأسيساً لحضارتهم الذي يعمل الإسلام لتحقيقها.

(١) الأسس العلمية لنظريات الإعلام ص ٣٦٤ .

وليس من المقبول في عالم اليوم أن يعيش المسلمون — وهم مسلمون — تابعين لغيرهم مقلدين ، وهم يملكون الأصالة ، والحياة .
إن الرؤية تدفع المشاهد إلى التنوع ، وتقدم الحدث نابضاً بالحركة والحيوية .

خامساً

الداعي والمدعو

الداعي والمدعو هما طرفان في العملية الدعوية ، لأن الداعي هو حامل الدعوة ومبلغها ، والمدعوون هم غاية الدعوة ، والمقصودون بعملية الدعوة كلها ، وعلى الداعي أن يتصف ببعض المزايا التي تمكنه من القيام بواجباته ، ومنها أن يتعامل مع المدعويين بما يناسب واقعهم ، وأحوالهم ، ويؤدي إلى إقتناعهم بما يعرض لهم ، وهذه تحتاج إلى دراسات عديدة ، سوف نذكر بعضها بإذن الله تعالى حين نستنبط أهم ركائز الدعوة المستفادة من المرحلة المكية .

والرسول " ﷺ " هو إمام الدعوة ، ورائدهم ، وهو أسوة الدعاة على الزمن كله ^(١) .

إن تحديد المفاهيم المتصلة بحركة الدعوة النبوية عمل أرجو من ورائه متابعة حركة النبي " ﷺ " بالدعوة إلى الله تعالى ، لنستفيد بها ، ونضع كل جانب في موضعه ، ونحن نتحرك بالدعوة اقتداء برسول الله " ﷺ " .

^(١) انظر : الإعلام في القرآن الكريم ص ٢١٤ وما بعدها .

المبحث الثاني

حركة الرسول ﷺ " بالدعوة

خلال المرحلة السرية

في مرحلة النبوة التي استمرت ستة أشهر ، ألف النبي ﷺ " ملاقاته جبريل " ﷺ ، وهيات نفسه للمحافظة علي ما يوحى إليه ، والقيام بما يكلف به ، والقدرة علي تبليغه ، والدعوة إليه .

وهنا نزل عليه جبريل " ﷺ " بقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ ﴾^(١) حيث كلفه بالنهوض ، وبذل الجهد ، والإنذار ، والدعوة ، والقيام بواجبات الرسالة ، وبذلك بدأ النبي ﷺ " أولي مراحل الدعوة التي استمرت حتي نزل قول الله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٢) وبلغت مدتها عامين ونصفاً لتبدأ مرحلة الجهر بالدعوة بعد ثلاث سنوات من بداية الوحي^(٣) وقد عرفت هذه المرحلة بـ " مرحلة الدعوة السرية " .

ومفهوم السرية التي وصفت بها الدعوة لا يعني الكتمان ، لأن الدعوة بطبيعتها تعني تبليغ الغير أمراً ليتبعه ، مع ترغيبه في الاتباع ، وتخويفه من الترك ، كما تفيد الدعوة الطلب المتكرر ، والنصح المؤكد ، وإظهار الخير ، والمصلحة للمدعويين ، بأساليب متعددة ، وبوسائل مختلفة .

إن أبا بكر " رضي الله عنه " من السابقين الأول إلي الإسلام ، ومع ذلك سمع قبل إسلامه من قريش أعداء الإسلام حديثهم عن الدعوة ، مما يؤكد أن الدعوة لم تكن سراً مكتوماً ، يروى ابن كثير أن أبا بكر الصديق " رضي الله عنه " لقي رسول الله ﷺ " فقال :

(١) سورة المدثر آية (١ : ٢) .

(٢) سورة الحجر آية (٩٤) .

(٣) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٦٢ ، وبذلك تكون فترة هيبة النبي ﷺ للرسالة ستة أشهر .

أحق ما تقول قريش يا محمد ؟ من تركك أهتأ ، وتسفيهك عقولنا ، وتكفيرك آباءنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : بلي إني رسول الله ونبيه ، بعثني لأبلغ رسالته ، وأدعوك إلى الله بالحق ، فو الله إنه للحق ، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له ، ولا تعبد غيره ، والموالاة على طاعته ، وقرأ عليه القرآن ، فلم يقر ، ولم ينكر ، فأسلم وكفر بالأصنام ، وخلع الأنداد ، وأقر بحق الإسلام ، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق ^(١) وهذا فإن وصف الدعوة بالسرية خلال هذه المرحلة كان للسرية النسبية التي ظهرت خلال الحركة بالدعوة .

ومن ملامح الحركة بالدعوة خلال هذه المرحلة ما يلي : —

أولاً : اختصار الدعوة على العقيدة :

دعا النبي ﷺ " إلى الإيمان بالله تعالى ، والإيمان بالرسول ، والإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بهذه الأركان لا يتم إلا بترك الشرك ، ونهذ عبادة الأصنام . يقول " ﷺ " لعلي بن أبي طالب " ﷺ : (أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى عبادته ، وأن تكفر باللات والعزى) . ويقول لأبي بكر " ﷺ : (إني رسول الله ، ونبيه ، بعثني لأبلغ رسالته ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى ترك عبادة غيره ..) . وكان " ﷺ " يخرج متخفياً لعبادة الله مع علي في شعاب مكة ، لا يعلم أحد عنهما شيئاً إلا الله تعالى ، وذات يوم عثر عليهما أبو طالب ، وهما يصليان . فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ : يا ابن أخي ! ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟ قال : أي عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أبينا إبراهيم " عليه السلام " بعثني الله به رسولاً إلى العباد ، وأنت أي عم ، أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابني إليه ، وأعاني عليه .

فقال أبو طالب : أى ابن أخى ، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك بشئ تكرهه ما بقيت .

وذكروا أنه قال لعلي : أى بنى ، ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟

فقال علي " ﷺ " : يا أبت ، آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقته بما جاء به ، ووصلت معه لله ، واتبعته .

فذكروا أنه قال له : أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه ^(١) .

فنجده " ﷺ " فى حوار مع عمه يورد الكلمات الموجزة ، الجامعة للسعال

الكثيرة ، مع التركيز على القضايا المسلمة عند العرب ، والانطلاق منها إلى ضرورة الإيمان بالله تعالى .

فالعرب جميعاً يعرفون الله تعالى ، ويسلمون له بالقدر ، ومع ذلك يشركون معه فى

العبادة آلهة أخرى ... ويعتزون بأبيهم إبراهيم وإسماعيل "عليهما السلام" .. ولذلك

وضح النبي " ﷺ " لعمه أنه يدعو لدين الله ، ودين إبراهيم "عليه السلام" ودين الأنبياء السابقين .

ولم يغب عن رسول الله " ﷺ " مخاطبة عمه بالحسنى فيقول له : أى عم ،

أنت أحق من بذلت له النصيحة ، ورجوت له الهداية .

ومع أن أبا طالب لم يستجب للدعوة إلا أنه طمأن محمداً " ﷺ " على

حمايته ، ولم يعترض علي إيمان ابنه علي " ﷺ " .

وكان مجرد إعلان الصحابي (أى صحابي) الإيمان بدعوة رسول الله " ﷺ "

بداية لتبدل حياته كلها ، ليظهر جديداً فى كل شئ ، ويتغير تغيراً تاماً ، وتلك إحدى

العجائب التي صنعها محمد " ﷺ " فى الذين آمنوا بدعوته .

يقول سيد قطب : ولقد كنت ، وأنا أراجع سيرة الجماعة المسلمة الأولى

أقف أمام شعور هذه الجماعة بوجود الله سبحانه ، وحضوره فى قلوبهم وفى حياتهم ،

فلا أكاد أدرك كيف تم هذا ؟

كيف أصبحت حقيقة الألوهية حاضرة في قلوبهم وفي حياتهم علي هذا النحو العجيب ؟

كيف امتلأت قلوبهم وحياتهم بهذه الحقيقة هذا الامتلاء ؟

كيف أصبحت هذه الحقيقة تأخذ عليهم الفجاج والمسالك والاتجاهات والآفاق ، بحيث تواجههم حيثما اتجهوا ، وتكون معهم أينما كانوا ، وكيفما كانوا ؟

كنت أدرك طبيعة وجود هذه الحقيقة ، وحضورها في قلوبهم وفي حياتهم ،

ولكني لم أكن أدرك كيف تم هذا ؟

عدت إلي القرآن أقرؤه علي ضوء موضوعه الأصيل ، وعرفت منهج القرآن في تجلية حقيقة الألوهية ، وتعبيد الناس لها وحدها ، بعد معرفتها ، وهنا فقط أدركت كيف تم هذا كله .

أدركت سر الصناعة ، عرفت أين صنع ذلك الجيل المتفرد في تاريخ البشرية وكيف صنع ، إنهم صناعة قرآنية ، صنعوا في هذا المنهج الرباني علي يدي رسول الله ﷺ الذي غرس في نفوسهم معرفة أن الله هو الأول ، والآخر ، والله هو الظاهر والباطن ، والله هو الخالق والرازق ، والله هو المسيطر والمدبر ، والله هو الرافع والخافض ، والله هو المعز والمذل ، والله هو القابض والباسط ، والله هو المحيي والمميت ، والله هو النافع والضار ، والله هو المنتقم الجبار ، والله هو الغفور الودود ، والله هو العلي الكبير ، والله هو القريب المجيب ، والله هو الذي يحول بين المرء وقلبه ، والله هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، والله هو العليم بذات الصدور ، وهو معهم أينما كانوا ، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، وهو الذي ينزل الغيب من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وهو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ولا ملجأ من الله إلا إليه ، وما لهم من دونه من وال ، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً .

وهكذا ...

وهكذا ...

جعلت هذه الحقيقة تملأ علي الناس حياتهم ، وتواجههم في كل درب ، وتقرأ في لهم في كل صوب ، وتأخذ علي أنفسهم أقطارها ، وتعايشهم ، وتساكنهم بالليل والنهار ، وبالغدو ، والأسحار ، وحين يستغشون ثيابهم ، وحين تهجس سرائرهم ، وحين يستخفون من الناس ، بل حين يستخفون من نفوسهم التي بين جنوهم ^(١) ، حتى خرجت منهم أناساً يذكرون الله قياماً ، وقعوداً ، وعلى جنوبهم ، ويتيقنون بأن الدار الآخرة هي الحياة الصحيحة ، ويعيشون العبادة والعبودية في خواطر النفس ، وهمسات الروح ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح .

ولا عجب بعد أن كانوا هكذا فلقد تلمذوا في مدرسة النبوة ، وتكونوا بمنهج الله ، وكانوا الجماعة الإسلامية الأولى .

ثانياً : قيام الدعوة على الاتصال الفردي ^(٢) : —

قام الرسول " ﷺ " بتوجيه الدعوة إلى الناس بصورة فردية ، فلقد ثبت أنه " ﷺ " دعا السابقين إلى الإسلام كلا علي حدة ، وأحياناً كانت الدعوة تبدأ بسؤال موجه من الصحابي إلى رسول الله " ﷺ " ، وأحياناً آمن البعض اقتناعاً بما كان يسمع ، ويرى وخديجة " رضي الله عنها " أول من دخلت في الإسلام ، آمنت بالرسالة قبل أن يطلب الرسول " ﷺ " منها أن تؤمن ، لأنها كانت تبشر بالرسالة ، وتنتظرها ،

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) يسمى علماء الإعلام الاتصال الفردي بالاتصال الشخصي ويذكرون أنه الاتصال المباشر الذي يتم مواجهة بين فردين أو بين فرد وجماعة صغيرة بين أعضائها خلافاً ما .

وهو يتم عادة بطريقة تلقائية كالنحية والرد عليها ، وإجابة سؤال ، والتحدث حول أمر ما .

وتغط هذا الاتصال المواجهة ، والاحتكاك المباشر ، ورد الفعل فيه يكون واضحاً .

ويتميز هذا النوع بأنه يتم في اتجاهين بصورة مباشرة مما يؤدي إلى فهم كل طرف للآخر وهذا يساعد علي

الفهم ، وسرعة القضاء علي المعوقات التي تظهر أثناء العملية .

فلما جاء جبريل بالوحي صدقت بما كانت تتوقعه ، وأخذت تعبد الله كما يتعبد رسول الله " ﷺ " . فلما تعلم الرسول الوضوء والصلاة وعاد للخدمة ، توضأت كوضوئه ، وصليت بصلاته ، فلما رآهما علي بن أبي طالب " ﷺ " يصليان سألهما علي : ما هذا ؟

قال له رسول الله " ﷺ " : هذا دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسوله ، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى عبادته ، وأن تكفر باللات والعزى . فقال علي : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض أمراً حتى أحدث به أبا طالب .

فكره رسول الله " ﷺ " أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال له : يا علي ، إذ لم تسلم فاكم ، فمكث علي تلك الليلة ، ثم إن الله أوقع في قلب علي الإسلام ، فأصبح غادياً إلى رسول الله " ﷺ " حتى جاءه فقال : ماذا عرضت علي يا محمد ؟ فقال له رسول الله " ﷺ " : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك ، وتكفر باللات والعزى ، وتبرأ من الأنداد ، ففعل علي وأسلم ، ومكث يأتيه عل خوف من أبي طالب ، وكنتم على إسلامه ولم يظهره ^(١) .

وكان سن علي " ﷺ " يوم أسلم عشر سنوات ، وكان من فضل الله على علي " ﷺ " في إسلامه أن جعله سبحانه وتعالى ينشأ في حجر رسول الله " ﷺ " قبل الإسلام ، يكفله " ﷺ " ، ويريه كأنه ابنه .

وأسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله " ﷺ " وصلي بصلاة رسول الله " ﷺ " وأخذ يحفظ القرآن معه .

وأراد الله بأبي بكر خيراً ، فسمع عن دعوة محمد " ﷺ " فجاء إليه مسرعاً يسأله قائلاً : أحق ما تقول قريش يا محمد من تركك آلهتنا ، وتسفيهك عقولنا ، وتكفيرك آباءنا ؟

فقال رسول الله ﷺ : بلي ، إني رسول الله ونبيه بعثني لأبلغ رسالته ، وأدعوك إلى الله بالحق ، فو الله إنه للحق ، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له ، ولا تعبد غيره ، والموالاته على طاعته ، وقرأ عليه القرآن ، فأسلم ، وكفر بالأصنام ، وخلع الأنداد ، وأقر بحق الإسلام ، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق ^(١) .

وهكذا أسلم أبو بكر ، وعلي ، وزيد " رضي الله عنهم " وهم أول من دخل في الإسلام بعد خديجة ، والعلماء مختلفون في أسبق الثلاثة إلى الإسلام ، فمنهم من قال : أولهم أبو بكر ، ومنهم من قال : أولهم علي ، ومنهم من قال : أولهم زيد بن حارثة .

والأولي بالصحة أن أولهم علي بن أبي طالب ، لقول النبي ﷺ " لفاطمه أما ترضين أني زوجتك أقدم أمي سلماً ، وأكثرهم علماً ، وأعظمهم حليماً " ^(٢) .
يجمع أبو حنيفة الآراء المذكورة ، ويؤكد صحتها جميعاً ، ويرى أن أول من أسلم من النساء خديجة ، وأول من آمن من العبيد الأرقاء زيد بن حارثة ، وأول من آمن من الصبيان علي بن أبي طالب ، وأول من آمن من الرجال الأحرار الكبار أبو بكر " رضي الله عنهم جميعاً " ^(٣) .

ويروي ابن عساكر عن سعد بن أبي وقاص ومحمد بن الحنفية أن أبا بكر لم يكن أول المسلمين إسلاماً ، بل أفضلهم ، وأكثرهم فائدة للدعوة إلى الإسلام ^(٤) .
وعلي الحملة فإن إسلام هؤلاء السابقين إلى الإسلام تم بالدعوة الفردية .

ثالثاً : تخير الدعويين : ■

لم يكن التوجه إلى الأفراد يتم مع جميع الأفراد بصورة مطلقة ، وإنما كان " ﷺ " يتخير من يدعوهم ، وهم المتصفون بالهدوء ، وقلة الحديث ،

^(١) المرجع السابق ج ١ ص ٤٦ .

^(٢) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٢٣ .

^(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٩ .

^(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ٣١ .

والتسامح ، وحب الخير ، لأن هؤلاء الأشخاص إن أسلموا لن يجاهروا بإسلامهم ، وإن يظهروه لصناديد مكة ، وشيوخها ، ولن يتحدثوا عنه إلا مع أفراد على غلظهم ، وصفاتهم .. وإن لم يسلموا ، فالصمت ديدنهم ، ولن يحاولوا إيذاء محمد ﷺ " بالتحدث عنه ، والتكلم فيما دعاهم إليه .. ولذلك نرى المسلمين الأول كانوا من أمثال أبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، أما عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص فقد تم عرض الإسلام عليهم في مرحلة تالية .

وهكذا بقيت الدعوة منحصرة بين أفراد معينين ، ولم يصل إلى أهل مكة إلا معارف قليلة عن الدعوة لا تحرك فيهم ساكناً ، ولا تثير غضبهم ، ولا تهيج مشاعرهم إن هذا التخير والاصطفاء للمدعوين إجراء حكيم قام به النبي ﷺ " لضمان بداية سليمة وموفقة للدعوة ، حيث كان ﷺ " يركز على المعرفة الشخصية " لقابليات " الأفراد من جهة ، ومدى استعدادهم للتجاوب مع الدعوة والانخراط في موكبها من جهة أخرى ، حتى لا يتسرب إليها من ليس في مستواها ، ممن لا يصلحون طليعة قيادية يؤسس عليها صرح الدعوة في هذه المرحلة ^(١) .

رابعاً : تجنب ضلالات القوم :

أخذ النبي ﷺ " يدعو ، ويعلم أصحابه العقيدة المطلوبة منهم ، مع تجنب الحديث عن آلهة القوم وضلالهم مع الأصنام ، فلم يذم الآلهة ، ولم ينقد عبدتها ، وإنما أكتفى بعرض أركان العقيدة ، وبين مدى أحقيتها في ذاتها ، وأخذ يظهر للناس ما في أنفسهم ، وفي الكون من دلالات علي وحدانية الله ، واستحقاقه وحده للعبادة .

والآيات التي نزلت في هذه المرحلة شاهدة على مدى ابتعاد النبي ﷺ " عن نقد ضلالات القوم ، والاكتفاء بتربية المسلمين ، وتقوية إيمانهم ، ومن هذه الآيات أوائل سورة المزمل ، وأوائل سورة القلم ، وهما آيات تحدد منهج التربية الإيمانية ،

(١) سورة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

وبناء عقيدة قوية متصلة بالله تعالى عن طريق قيام الليل ، وقراءة القرآن ، حيث يعود المسلم بالقرآن ، وقيام الليل على يقظة القلب ، وقوة التأمل ، وتربية الإرادة ، وبذلك يتحول العبد إلى طاقة قوية ، تستفيد بها في الليل من فوائد ، وتستعد لها في النهار من عمل ، كل ذلك في عبودية ذاكرة ، وقلب ثابت منيب .

وتؤكد الآيات عظمة رسول الله ﷺ " وهي تتحدث عن كمال عقله وكرم خلقه وعلو شأنه في الدنيا وفي الآخرة ، يقول تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي مَخْلَقَ الْمَاءَ أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۚ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۚ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۚ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۚ ﴾ ^(١) .

خامساً : دعوة الأقربين الذين يعاشرهم " ﷺ " :

بدأ الرسول ﷺ " يعرض الإسلام على الناس المختارين ، وكان في تحيره لمن يدعوهم ، يكتفي بالأقرب إليه الذي يعايشه ، ويعاشره ، فدعا علي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة ، وأخذ يطبق تعاليم الوحي مع هؤلاء الأقربين تاركاً الآخرين لوقت يقدره الله تعالى ... يقول يحيى بن عفيف : جئت زمن الجاهلية إلى مكة ، فترلت على العباس بن عبد المطلب ، فلما طلعت الشمس ، وحلقت في السماء ، وأنا أنظر إلى الكعبة ، أقبل شاب فرمي ببصره إلى السماء ، ثم استقبل الكعبة ، فقام مستقبلها ، فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه ، فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما ، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة ، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة ، فخر الشاب ساجداً فسجداً معه .

فقلت يا عباس : أمر عظيم !

فقال العباس : أتدرى من هذا ؟

فقلت : لا .

^(١) سورة القلم الآيات (١ - ٥) .

فقال العباس : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي .

قال : أتدرى من الغلام ؟

قلت : لا .

قال : هذا علي ابن أبي طالب " عليه السلام " .

قال : أتدرى من هذه المرأة التي خلفهما ؟

قلت : لا .

قال : هذه خديجة بن خويلد زوجة ابن أخي ، وقد حدثني محمد أن ربك

رب السماء والأرض ، أمره هذا الذي تراهم عليه ، وأيم الله ما أعلم على

ظهر الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة ^(١) .

وبقيت الدعوة منحصرة في هذا العدد القليل حتى أسلم أبو بكر " عليه السلام " فأظهر

الإسلام ، ودعا أصحابه إليه ملتزماً بأهمية التخير في الدعوة كما تعلم من رسول " عليه السلام "

سادساً : إسلام الضعفاء فقط : ■

كان السابقون إلى الإسلام من الضعفاء ، الفقراء الذين لا جاه لهم في مكة ،

ولا سطوة ، وهذا أمر جعل أشرف مكة لا يهتمون بالإسلام أول أمره ، استهانة

بقلة أتباعه ، وهوانهم بين الناس ، يروى البخاري بسنده عن همام قال : سمعت عماراً

يقول : رأيت رسول الله " ﷺ " وما معه إلا خمسة أعبد ، وامرأتان ، وأبو بكر ^(٢) .

والعبيد هم : زيد بن حارثة ، وبلال بن رباح ، وعامر بن فهيرة ، وأبو

فكيهة مولى صفوان بن أمية ، وعبيد بن زيد الحبشي ، والمرأتان هما : خديجة ، وأم

نمن ، نظر أهل مكة إلى هؤلاء الضعفاء ، فاستصغروا شأنهم ، وتصوروا أنهم ظاهرة

عارضة ، لا تلبث أن تنتهي وتزول .

^(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٥ .

^(٢) صحيح البخاري — كتاب المناقب — باب فضل أبي بكر ج ٢ ص ٨١ .

وساعدتهم على هذه النظرة أن العبيد من هؤلاء الضعفاء لم يقصروا في أعمالهم ، ولم يرتكبوا خيانة لسيادتهم ، مع أنهم لم يسلموا .

وقد قضى الله تعالى بأن يكون أتباع الدعوة الأول من الضعفاء الفقراء لتتم الدعوة على سنة البشر في التطور والتقدم ، وليعلم المسلمون دائماً حاجتهم الملحة للصبر ، والتحمل ، ومواجهة الطغيان بالعفو ، والتسامح .

إن هؤلاء الضعفاء هم القوة العملية في مجتمعهم فمنهم العمال ، والأجراء ، والعبيد ، ولا بد أن يعملوا ليعيشوا فليس معهم المال الذي يدفعهم إلى الترفه ، والكسل ، وتلك خاصية أفادت الدعوة الإسلامية لأهم لما آمنوا بها وضعوا طاقتهم واستعدادهم في خدمتها ، ولذلك هاجروا بها ، وواصلوا الدعوة إليها ، وتحملوا في سبيلها الكثير ، فقدموا بذلك النماذج الرائدة للمسلمين بعدهم ، ولو كانوا من المترفين المنعمين ما تحملوا أذى ، وما صبروا على مشقة ، ولعجزوا عن أداء ما كلفوا به . وأحب أن أبين قضية لها أهميتها وهي أن ضعف هؤلاء كانت في الجانب المادي فقط ، أما في الجانب المعنوي فكانوا هم الأقوياء ، وهم العقلاء ، فقد دخلوا في الإسلام مخالفين أسيادهم ، ولم يعبأوا بأي أذى يتألمهم ، وتحملوا ، صابرين ، كل ما أصابهم من ظلم وعدوان ، وصل أحياناً إلى حد القتل ، والفناء .

سابعاً : قصور الدعوة على أهل مكة ومن يأتيه :

أكتفي الرسول ﷺ " بالدعوة خلال هذه المرحلة على أفراد من الأقربين إليه في مكة ، ولم يخرج عن هذا الإطار في دعوته ، اللهم إلا مع من قصد رسول الله ﷺ " من خارج مكة وجاء يبحث عن دين الله تعالى .

ولذلك بقيت الدعوة في نطاق محدود ، لم يؤمن بتعاليمها أحد خارج مكة ، ولم ينشغل كفار مكة بتتبعها ، ولم يحدث صدام بين المؤمنين وغيرهم . واستمر الأمر هكذا حتى قويت هذه الجماعة الأولى وأسلم أبو بكر ﷺ " فأعلن الأمر ، وجاهر به ، يعد إصرار منه على ذلك .

وكان " ﷺ " حريصاً في هذه المرحلة على عدم إثارة كفار مكة منعاً للتصادم معهم ، فكان إذا جاءه من يسلم بدعوته ، وهو من غير مكة يأمره بكنم إسلامه، والامتنان لأمر الله، والعمل به بعيداً عن الناس ، وهذا من الحكمة في الدعوة ، لأن كفار مكة لو بدأوا يعملون ضد المسلمين في هذه المرحلة لتمكنوا منهم لقله عددهم ، وضعف وجودهم ، وهذا قدر أراد الله للمؤمنين في هذه المرحلة لينصر دينه بهم .

يروى ابن سعد بسنده عن شداد بن عبد الله أن أبا أمامة سأل عمرو بن عبسة : بأي شيء تدعي أنك ربيع الإسلام ؟
قال : إن كنت في الجاهلية أرى الناس على ضلالة ولا أرى الأوثان شيء ، ثم سمعت عن رجل يخبر أخباراً بمكة ، ويحدث بأحاديث ، فركبت راحتي ، حتى قدمت مكة فإذا أنا برسول الله " ﷺ " ، مستخفياً ، وإذا قومه عليه جراء .
فلطفت حتى دخلت عليه فقلت : من أنت ؟
قال : أنا نبي .

فقلت : وما نبي ؟

قال : رسول الله .

قلت : الله أرسلك ؟

قال : نعم .

قلت : فبأي شيء ؟

قال : بأن يوحد الله ، ولا يشرك به شيء ، وتكسر الأوثان ، وتوصل الأرحام .

فقلت له : من معك على هذا ؟

قال : حر وعبد ، يقصد أبا بكر ، وبلال بن رباح .

فقلت له : إني متبعك .

قال : إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ، ولكن أرجع إلي أهلكت ، فإذا سمعت بي قد ظهرت فالحق بي .

فرجعت إلي أهلي وخرج النبي ﷺ " مهاجراً إلى المدينة وقد أسلمت ، فجعلت أنفخ الأخبار حتى جاء ركبته من يثرب فقلت : ما فعل هذا الرجل المكي الذي أتاكم ؟ فقالوا : أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذاك ، وحيل بينهم وبينه ، وتركت الناس إليه سراعاً ، فركبت راحلتي ، حتى قدمت عليه المدينة .

فدخلت عليه فقلت : يا رسول الله أتعرفني ؟

قال : نعم ، أأنت الذي أتيتي بمكة ؟

فقلت : بلي ، يا رسول الله علمني مما علمك الله وأجهله .

(ثم ذكر الحديث بطوله وفيه تفصيل مواقيت الصلاة والوضوء وغير ذلك) ^(١) .

وهكذا وجه النبي ﷺ " هذا الصحابي الجليل إلى عدم البقاء في مكة والرجوع إلى قومه ، وملازمة الصمت والسكوت حتى يظهر أمر الإسلام ، وبعدها يتمكن من الحركة ، والجهري ، والدعوة ، في ظلال حفظ الله ، ونصر إخوانه له .

ويبدو أن عمرو بن عبسة " كان من الخنفاء ، الذين أظهروا فساد آلهة القوم ، وأخذوا في البحث عن الدين الحق ، ولذلك كان توجيهه إلى التخليص أمراً ضرورياً في هذه المرحلة من مراحل الدعوة ، لأن الخنفاء تعودوا نقد ما عليه الناس ، واحتقار آلهتهم ، من غير تقديم دعوة جديدة ، تتضمن معالم دين صحيح ، فلو استمر عمرو بن عبسة في النقد مع إسلامه فإنه يمثل خطورة لأهل مكة تشعل غضبهم في هذه المرحلة التي لا تتحمل هذا .

يُخبر شهر بن حوشب عن عمرو بن عبسة قال : رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية ، وذلك أنها باطل ، فلقيت رجلاً من أهل الكتاب من أهل تيماء فقلت : إني امرؤ ممن يعبد الحجارة ، فيترل الحي ليس معهم إله .

(١) الطيفات الكبرى ج ٤ ص ٢١٦ .

يُخرج الرجل منهم قِيَّاتِي بأربعة أحجار ، فينصب ثلاثة لقدره ، ويجعل أحسنها إلهاً يعبد .

ثم لعله يجد ما هو أحسن منه ، قبل أن يرتحل ، فيتركه ، ويأخذ غيره إذا نزل منزلاً سواه .

فرايت أنه إله باطل ، لا ينفع ، ولا يضر ، فدلني علي خير من هذا .

فقال : يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ، ويدعو إلى غيرها ، فإذا رايت ذلك فاتبعه ، فإنه يأتي بأفضل الدين ، فلم تكن لي همة منذ قال لي ذلك إلا مكة فأتى فأسأل : هل حدث فيها حدث ؟ فيقال : لا ، ثم قدمت مرة فسألت ، فقالوا : حدث فيها رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها ، فرجعت إلى أهلي ، فشددت راحتي ، ثم قدمت منزلي الذي كنت أنزله بمكة ، فسألت عنه فوجدته مستخفياً ووجدت قريشاً عليه أشداء ، فتلطفت حتى دخلت عليه فسألته .

قلت : أي شيء أنت ؟

قال : نبي .

قلت : ومن أرسلك ؟

قال : الله . قلت : وكم أرسلك ؟

قال : بعبادة الله وحده لا شريك له وبحقن الدماء ، وبكسر الأوثان ، وصلة الرحم ، وأمان السبيل .

فقلت : نعم ما أرسلت به ، قد آمنت بك ، وصدقتك ، أتأمرني أمكث معك أو أنصرف ؟

فقلت : ألا ترى كراهة الناس ما جئت به ؟ فلا تستطيع أن تمكث ، كن في أهلِكَ

فإذا سمعت بي قد خرجت فأتبعني ^(١) . . وساق الحديث السابق بطوله ،

وبالفاظ متقاربة .

ثامنا : التخفي في العبادة والتوجيه :

أخذ "عليه السلام" يتخفي عن أعين أهل مكة وهو يوجه أتباعه ، ويطبق معهم تعاليم الإسلام وقد اختار "عليه السلام" للتخفي أماكن لا تكشف بسهولة ، ومن ذلك الشعاب البعيدة عن بيوت أهل مكة ، وكان "عليه السلام" يخرج إلى الشعاب ، ومعه علي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة للصلاة فيها بعيداً عن أعين الناس ^(١) .

يقول ابن إسحاق : وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله "عليه السلام" كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أيه أبي طالب ، ومن جميع أعمامه ، وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا ^(٢) . ولما كثر عدد المسلمين كانوا يذهبون إلى الشعاب فرادى ، أو مثني ، محافظة على السرية ، وعدم التصادم .

ومن طرق التخفي اتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مكاناً يجتمع فيه

المسلمون مع رسول الله "عليه السلام" للتعليم ، والعمل ... وكان اختيار دار الأرقم ملائماً للتخفي والاستتار لعدة أسباب : —

(أ) تقع دار الأرقم عند الصفا ، وهو مكان يتجه إليه كثير من أبناء مكة ، وتوجه المسلمين إلى هذا المكان أمر عادي لا يثير تساؤلاً ، ولا يوقعهم في شبهة .

(ب) لم يتوقع أحد من أهل مكة أن يجتمع محمد "عليه السلام" مع أصحابه في دار الأرقم ولا يمكن لهم أن يتصوروا ذلك ، لأن الأرقم من بني مخزوم ، وهي قبيلة تنافس بني هاشم في السلم والحرب ، ولا يتصور أن تنشأ دعوة هاشمية في دار مخزومية .

(ج) أسلم الأرقم وهو صغير لم يبلغ السادسة عشرة ، وصبي في هذا العمر لا يجرؤ أن يجعل بيته مكاناً لتجمع المسلمين ، فلقد جرت عادة القرشيين أن يكون اجتماعهم في بيوت كبار القوم ، وأغنيائهم ، وشيوخهم .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٧ .

(٢) سيرة النبي "عليه السلام" ج ١ ص ٢٤٦ .

(د) إسلام الأرقم نفسه كان سرا على قبيلته ، وعلى غيرهم ، ولا يمكن تصور بيته حيث مكانا لاجتماع المسلمين ، لأن صاحبه — لم يدخل في الإسلام — في نظرهم .

والحكمة في بدء الدعوة بالاستخفاء عديدة منها : —

- (١) التريث ريشما تتكون لبنات قوية المزج ، شديدة التماسك ، في جو بعيد عن إثارة المعوقات في طريق سير الدعوة ، لأن هذه اللبنات هي القوة الدافعة التي سيعتمد عليها بناء المجتمع الإيمانى الحديدى ، في مواجهة قوى الظلم ، والبغى المتربصة بهذا الدين ، في صبر لا يعرف الوهن ، وجهاد لا يعرف اليأس .
- (٢) ضرورة المسالمة في البداية ، لأن مهاجمة هذا المجتمع الغارق في شروره ومواجهته بضلاله ، وساق الدعوة لم يستو بعد ، يؤذن بتحريك دوافع المقاومة للدعوة في نفوس المستكبرين ، والدعوة لا تزال في أول خطواتها ، فتعثر في سيرها ، وهي لا تزال وليدة طرية .

لذلك أمر النبي ﷺ " الاستسرار بدعوته ، وتبليغ رسالته ، حرصاً منه أن يكون سيرها مطرداً ، ونيذاً هادئاً ، تسير إلى القلوب بخطى ثابتة ، حتى تتمكن من الإعلان عن نفسها في الوقت المناسب ^(١) ، بعد أن يؤمن بها عدد من الناس يضحون في سبيلها بالغالى والنفيس ، مما يضمن استمرارها وبقائها .

- (٣) إتاحة الفرصة للدعوة حتى تصل إلى مسامع العرب في مواسمهم ، ومحافلهم وأسواقهم ومضارب منازلهم ، فأتت هذه الخطوة أكلها ، حيث أقبل إلى مكة فريق منهم ، يتحسس أخبارها ، ويتعرف مكانها في خفية وحذر ، حتى إذا بلغوا مآمنها في مقرها (دار الأرقم) أسلموا لله تعالى ، واتبعوا رسوله ﷺ " : واهتدوا بهديه ، وأمنوا بما جاء به من الحق ^(٢) .

^(١) محمد صادق عرجون — محمد رسول الله ﷺ — ج ١ ص ٦٠٥ .

^(٢) "صحيح أبي داود" ص ١٤٩ .

(٤) المساهمة في تكوين قاعدة إيمانية صلبة ، ومثالية في هدوء ، وأناة لتقوم بدورها في المراحل التالية ، ولتقدم أسوة راقية لمن بعدهم في الخلق ، والسلوك ، وأداء الواجب .

تاسعا : حمل المسلمين مسئولية الدعوة : -

قام الرسول ﷺ " بأمر الدعوة إلى الله تعالى ، وتبعه نفر قليل ، فأخذ يعلمهم بتعاليم الله التي ينزل بها الوحي .. وأخذ المسلمون يعيشون حياة جديدة ، طيبة ، وتكون منهم أناس ربانيون خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، وتابع الرسول ﷺ " تغذيتهم بالقرآن وتقويتهم بالإيمان حتى صاروا — بحق — عبيداً لله ، لا يريدون في الأرض علواً ، ولا فساداً .. ورأوا أن أعظم العمل هو الدعوة للدين الله ، والعمل به ... ولذلك رأينا أبا بكر ﷺ " لم يكتف بإسلامه متخفياً ، وإنما أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله ، وإلى رسوله ، فأسلم بدعوته :

عثمان بن عفان .

والزبير بن العوام .

وعبد الرحمن بن عوف .

وسعد بن أبي وقاص .

وطلحة بن عبيد الله بن عثمان رضوان الله عليهم أجمعين .

فلما أسلم هؤلاء الخمسة ، قدم بهم أبو بكر إلى رسول الله ﷺ " ، فصلوا معه ، وصدقوا برسالته ، وبلغ عدد المسلمين بهم ثمانية ^(٢) وفي اليوم التالي جاء أبو بكر بنشر آخرين أسلموا بدعوته أيضاً وهم : عثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم . ويرجع نجاح أبي بكر في الدعوة إلى عدة أسباب : —

(٢) تاريخ الطبري ج ١ ص ٣١٧ .

أ — بساطة الدعوة إلى التوحيد كما هو ظاهر من قول رسول الله ﷺ " لأن بكر : وأدعوك إلى الله بالحق ، فوالله إنه للحق ، " أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، ولا تعبد غيره ، والموالاته علي طاعته " (١) .. وفي قوله " ﷺ " دلالة على أن الله واحد ، وحقه أن يعبد وحده ، ونبت ما عداه من آلهة وشركاء .
وقد صدق أبو بكر بما سمع من رسول الله ﷺ " ، وأمن به بلا تردد ، أو مراجعة ، يقول النبي ﷺ : (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كربة ، وتردد ، ونظر ، إلا أبا بكر ما تردد فيه) (٢) .

ب — اشتهاه أبي بكر ﷺ " في مكة بحسن الخلق ، وسعة الأفق ، وتنوع الثقافة ، ودقة الأمانة ، يقول ابن كثير : وكان أبو بكر رجلاً متأسلاً ، لقومه ، محباً ، سهلاً ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ، ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ، ويألفونه ، لغير واحد من الأمر ، لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ، ويجلس إليه (٣) .

ج — الاقتداء برسول الله ﷺ " في الاصطفاء ، وتخير من يدعوهم ، كما هو واضح من الصحابة الذين آمنوا بدعوته لهم .

وعلى مثال أبي بكر ﷺ " كان سائر الصحابة الذين دخلوا في الإسلام ، فكان الواحد منهم إذا توسم الخير في إنسان دعاه برفق إلى الإسلام فإن استجاب وجهه إلى دار الأرقم ، وإن لا تركه وانصرف عنه ، يروى ابن سعد في الطبقات قصة إسلام عمار بن ياسر ، وصهيب بن سنان ، ومحيثهما إلى دار الأرقم ، والتقاتهما عند الباب ، والحوار الذي دار بينهما ، فيقول : قال عمار بن ياسر : لقيت صهيب بن

(١) دلائل النبوة للبيهقي ج ٢ ص ١٦٤ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٩ .

ستان علي باب دار الأرقم ، ورسول الله ﷺ " فيها ، فقلت له : ما تريد ؟

قال لي : ما تريد أنت ؟

فقلت : أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه .

قال : وأنا أريد ذلك .

فدخلنا عليه ، فعرض علينا الإسلام ، ثم مكثنا يوماً علي ذلك حتي أمسينا ، ثم خرجنا ونحن مستخفون ^(١) .

وكان مبعثهما إلى دار الأرقم بتوجيه بعض الصحابة الذين وثقوا من إيمانهم .

وكان ﷺ " ينظم الذين أسلموا في جماعات صغيرة ، لتتقى كل مجموعة

في بيت أحدهم ، يقرأون كلام الله ، ويتعاهدون الإسلام بالفهم ، والتطبيق ، وكان

رسول الله ﷺ " يرسل إلى هذه المجموعات أحد القراء ليحفظهم القرآن الكريم الذي

نزل ، يروي ابن سعد أن عمر بن الخطاب لما ذهب إلى أخته مغاضباً وجد عندها

حباب بن الأرت ، وكان يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن مع زوجها ^(٢)

وإذا كان أحد المسلمين يقرأ ويكتب فإن الرسول ﷺ " يرسل له القرآن

مكتوباً ليقرأه على إخوانه .

وكان المسلمون الأوائل حريصين على حماية الإسلام ، وحماية رسول

الله ﷺ " من ذلك ما فعله نعيم بن عبد الله النحام ، وكان " مستخفياً بإسلامه "

فإنه لما رأى عمر بن الخطاب متوشحاً سيفه شك في أمره وارتاب في مقصده ، مما

دفعه إلى سؤاله فقال : أين تريد يا عمر ؟

فقال : أريد محمداً ، هذا الصابي الذي فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وغاب

دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله .

(١) ابن سعد — الطبقات — ج ٣ ص ٢٢٧ .

(٢) صحيح مسلم .

فقال نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أتري بني عبد مناف تاركك تمشي علي الأرض وقد قتلت محمداً، أفلا ترجع إلي أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ ! قال : وأى أهل بيتي ؟

قال : تحتك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ^(١) . ومن أعمال الصحابة التي بذلوها لحماية رسول الله " ﷺ " ، مراقبة الغرباء القادمين إلي مكة ، ومعرفة مقاصدهم ، ومساعدتهم في الوصول إلي رسول الله " ﷺ " إن رغبوا في ذلك في إطار من السرية المطلوبة .. يروى البخاري بسنده أن أبا ذر " رض " قدم مكة ، فأتى المسجد ، فالتمس رسول الله " ﷺ " وكان لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه بعض الليل ، فرآه علي " رض " فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح ، ثم قام ، واحتمل قرنته وزاده إلي المسجد ، وظل ذلك اليوم ، ولا يراه النبي " ﷺ " حتى أمسى ، فعاد إلي مضجعه ، فمر به علي " رض " فقال : أما آن للرجل أن يعلم منزله ؟

فأقامه ، فذهب به معه ، لا يسأل أي واحد منهما صاحبه عن شيء . حتى إذا كان اليوم الثالث ، فعاد علي " رض " علي مثل ذلك ، فأقام معه ، ثم قال : ألا تحدثني ما الذي أقدمك ؟

قال أبو ذر : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت .

ففعل .

فأخبره .

وقال علي له : إنه حق ، وهو رسول الله " ﷺ " ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك فمت كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني ، حتى تدخل مدخلي ، ففعل ، فأنطلق يقفوه ، حتى دخل علي النبي " ﷺ " ودخل معه ، فسمع

من قوله ، وأسلم مكانه ^(١) .

وهذا الحذر كان تصرف الصحابة حباً لرسول الله " ﷺ " ومحافضة عليه " رضى الله عنهم أجمعين .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح — كتاب مناقب الأنصار — باب إسلام أبي ذر ج ٦ ص ١٨٢ .

المبحث الثالث

الوسائل والأساليب خلال المرحلة السرية

قام الرسول ﷺ وأصحابه بدعوة الناس عن طريق الاتصال الشخصي ، والمواجهة المباشرة ، وهذه الوسيلة تحتاج إلى معرفة مسبقة بين الداعي ، والمدعو ، يتمكن الداعي من تخير الوقت المناسب ، والحالة المناسبة ، والأسلوب المناسب ، كما يتمكن المدعو من السؤال ، والاعتراض ، والرد بهدوء وتعقل .

ومراجعة عدد المسلمين في المرحلة السرية ، ومعرفة طرق إسلامهم — يرى إتصال الدعاة بهم مباشرة على نحو ما سبق ذكره .

وأما أسلوب الدعوة فقد قام على عرض الأدلة الدقيقة، المحكمة، على صورة سؤال، أو إجابة، من ذلك ما روي في قصة إسلام عمرو بن عبسة السلمي " ﷺ " ، السابق ذكرها ، حيث رأينا أن عمرو كان يبحث عن دين خال من الخرافات ، والكاذب الموجودة في حياة العرب، ولم يرتضى لنفسه أن يتخير حجراً ، ويجعله إلهاً ، فلما سمع برسول الله جاءه ، وأخذ في سؤاله حتى تيقن من صدقه ، وآمن به ، وكان يقول " ﷺ " : لقد رأيتني وأنا ربيع الإسلام ^(١) .

ويبدو أن النبي ﷺ لم يخبره بكل من أسلموا ، حفاظاً على سلامتهم ، وسلامة إيمانهم ، ولذلك قال : لقد رأيتني وأنا ربيع الإسلام .

وعلى هذا يمكن فهم التضارب الذي ظهر على ألسنة الصحابة، وهم يعدون السابقين إلى الإسلام، لأن كلأروي حسب علمه، وسط جوالاستخفاء والسرية المذكور، يعضد ذلك ما قاله كل من أبي ذر وسعد بن أبي وقاص من أنه ثلث الإسلام ^(٢) .

^(١) صحيح مسلم .^(٢) صحيح البخاري .

المبحث الرابع

المسلمون خلال المرحلة السرية

استمرت مرحلة الدعوة السرية سنتين ونصفاً ، ودخل في الإسلام سنون مسلماً ومسلمة من كافة طبقات ، وقبائل المجتمع المكي ، حتى أنه لا تخلو عشيرة مكية من شخص أو أكثر أسلموا من بينها .

وقد ورد ذكرهم بالتفصيل في كتب السيرة^(١) ، وهم : —

أولاً : بنو هشام :

- ١ — علي بن أبي طالب .
- ٢ — جعفر بن أبي طالب .
- ٣ — أم الفضل بنت الحارث .
- ٤ — أسماء بن عميس (زوج جعفر) .
- ٥ — خديجة بنت خويلد .
- ١٧ — أسماء زوجة عياش .
- ١٨ — ياسر بن عامر (حليف) .
- ١٩ — سمية بنت خياط (زوج ياسر) .
- ٢٠ — الأرقم بن أبي الأرقم .

رابعاً : بنو تميم :

- ٢١ — أبو بكر الصديق .
- ٢٢ — طلحة بن عبيد الله .
- ٢٣ — عامر بن فهيرة (مولى) .
- ٢٤ — بلال بن رباح (مولى) .
- ٢١ — عثمان بن عفان .
- ٨ — خالد بن سعيد .
- ٩ — أمينة بنت خالد (زوج خالد) .

ثانياً : بنو أمية :خامساً : بنو عدي :

- ٢٥ — سعيد بن زيد .
- ٢٦ — فاطمة بن الخطاب .
- ٢٧ — عامر بن أبي ربيعة (حليف) .
- ٢٨ — نعيم بن عبد الله .
- ٢٩ — واقد بن عبد الله (حليف) .
- ١٠ — حاطب بن عمرو .
- ١١ — عبد الله بن جحش .
- ١٢ — أبو أحمد بن جحش .
- ١٣ — امرأته فاطمة .

ثالثاً : بنو مخزوم :

- ١٤ — أبو سلمة بن عبد الأسد .

^(١) المنهج الحركي لتسيرة النبوية ج ١ ص ٢٤ - ٢٧ .

- ١٥- عياش بن أبي ربيعة .
 ١٦- عمار بن ياسر (حليف) .
 ٣٠- خالد بن البكير (حليف) .
 ٣١- عامر بن البكير (حليف) .
تاسعا : بنو أسد :

٤٦- الزبير بن العوام .

عاشرا : بنو عامر :

٤٧- أبو عبيدة بن الجراح .

٤٨- سليط بن عمرو .

حادي عشر : قبائل متفرقة :

٤٩- صهيب بن سنان (رومي) .

٥٠- مسعود بن ربيعة .

٥١- معمر بن حبيب .

٥٢- زيد بن حارثة .

٥٣- عمرو بن عبسة (سلمى) .

٥٤- عثمان بن مظعون .

٥٥- قدامة بن مظعون .

٥٦- عبد الله بن مظعون .

٥٧- رملة زوجته .

سادسا : بنو زهرة :

٣٣- سعد بن أبي وقاص .

٣٤- عبد الرحمن بن عوف .

٣٥- عمير بن أبي وقاص .

٣٦- عبد الله بن مسعود (حليف) .

٣٧- المطلب بن أزهر .

٣٨- خباب بن الارت (حليف) .

سابعاً : بنو سهم :

٣٩- خنيس بن حذافة .

٤٠- حفصة بن عمر (زوجة) .

ثامنا : بنو جمح :

٤١- حاطب بن الحارث .

٤٢- امرأته فاطمة .

٤٣- خطاب بن الحارث .

٤٤- امرأته فكيهة .

٤٥- السائب بن عثمان .

وهؤلاء السابقون إلى الإسلام نماذج فريدة ، عاشوا أخرج فترات البناء

الإسلامي ، وواجهوا أصعب المواقف وكانوا بحق أمثلة عالية في الفداء ، والتضحية ،

والإخلاص ، والعبودية لله رب العالمين .

لقد خلعوا أنفسهم من مجتمعهم الجاهلي ، وكونوا جماعة الدعوة الأولى ، التي تميزت بخصائصها وصفاتها ، إذ كان إيمانها يعني الخلوص التام من كل شرك ، والإلتزام المطلق لأمر الله تعالى ، فلا مهادنة في عقيدة ، ولا ضعف في القيام بواجب مع تحمل أى ضغط ، والصبر على أى أذى ، وكان دخول أحدهم في الإسلام يعني البراءة التامة من الشرك وأهله ، والبعد عن موالاة غير المؤمنين ولو كان من أقرب الناس إليه .

وكان المسلم يحب أخاه المسلم ، لا يحبه إلا الله ، ويلتزم بكل لوازم هذه المحبة من النصرة ، والنصيحة ، والمودة ، وحسن الأخلاق .

إن الإيمان كان يعني عند هؤلاء هجراً كلياً عن كافة صور الجاهلية ، وانتقال المؤمن إلى منهج الإسلام بكماله وتمامه ، وذلك هو الإيمان في الحقيقة .

وقد قام هؤلاء المسلمون بواجبهم إزاء الدعوة إلى الله تعالى ، إذ حملوا الإسلام إلى زوجاتهم ، وأبنائهم ، وأهاليهم ، وإلى كل من يعاشروهم ، وله معهم ثقة ، ولهم به معرفة ، وبواسطة هؤلاء الصحابة دخل الإسلام بيوتهم ، وأسلم عدد من الزوجات والأبناء . وساعد هؤلاء الصحابة في تبليغ الإسلام حسن الاتباع ، وسلامة التطبيق ، والتخلق بأخلاق الإسلام ، لأن ذلك يعد في ذاته دعوة عملية .

وساعدتهم كذلك أنهم تيقنوا أن الإيمان يعني العلم والعمل معاً ، فلم يقصروا في تعلم ، ولم يتهاونوا في تطبيق ، وكان إيمانهم قائماً على اليقين التام ، والاقتناع الصادق ، فلما تعرضوا للابتلاء لم يتأثروا ، ولم يضعفوا .

لقد كانوا قوة انتصروا لدينهم وارتفعوا به إلى مصاف العلا فكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس ، واستحقوا أن يضعهم الرسول ﷺ " فوق الصحابة أجمعين ، فعندما اختلف أحدهم وهو عبد الرحمن ابن عوف مع خالد بن الوليد بعد إسلامه قال الرسول ﷺ : " يا خالد ، دع عنك أصحابي ، فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم أنفقتَه في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي أو زوجته ^(١) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ ص ٧٤ .

فبالرغم من أن خالد من أصحاب رسول الله ﷺ ، وبالرغم من أنه من الذين أسلموا ، وأنفقوا قبل الفتح ، بالرغم من ذلك كله ، فلقد قيل له هذا القول حين اختلف مع عبد الرحمن بن عوف " ، أحد أفراد الطليعة السابقة ، والنواة الصلبة التي قام البناء الإسلامي على أكتافها ، ولا ننسى أبداً أن من هؤلاء بين النسوة خديجة " رضي الله عنها " إحدى الكاملات في الدنيا ، وأسماء بنت عميس ، وأم الفضل بنت الحارث وغيرهن اللاتي كن النموذج الأعلى للنساء في التاريخ .

* * *

المبحث الخامس

المرحلة الأولى للجهر بالدعوة

(جهر رسول الله ﷺ)

لم تبق الدعوة سرّاً مجهولاً علي أهل مكة، فلقد علموا كثيراً عن محمد ﷺ ودعوته لدين جديد ، ولم يتحركوا لذلك ، ولم يكثرثوا به ، لأن معلوماتهم عن الإسلام كانت عامة ، وبسيطة، جعلت الدعوة في نظرهم أقل خطورة علي معتقداتهم من الختفاء الذين يجهرون ببطلان عبادة الأصنام ، والأوثان .

ومما يدل علي علمهم بالدعوة أن أحد تجار مكة جاء إلي أبي طالب فرأى محمداً ﷺ يصلي، وخلفه علي، وخديجة ، وعلم أنهم بذلك يعبدون الله الذي يدعو إليه محمد ﷺ .

وسبق ذكر علم أبي طالب بإيمان علي بالإسلام، ودعوة رسول الله ﷺ له ليسلم . ومع إتساع موجه المعرفة بدعوة محمد ﷺ بقي أهل مكة علي إهمالهم شأن محمد ومن معه فسكنوا عن دعوته، ولم يتصوروا خطورة علي أديانهم ، وأوضاعهم .

وكان صمت أهل مكة عن المسلمين في هذه الفترة فضلاً من الله ، حيث تكونت النواة الصلبة التي يقوم عليها البناء ، ونشأ جيل القمة الذي حمل مسؤولية الإسلام مع رسول الله ﷺ وبعده ، ويكفي أن نعرف أن تسعة من هؤلاء، هم المبشرون بالجنة ، وعاشرهم هو عمر بن الخطاب ﷺ ، وأن الرسول ﷺ اتخذ منهم أهل الشوري الستة ، ومات ﷺ وهو عنهم راض .

بعد هذا بدأت مراحل الجهر بالدعوة التي تعددت تبعاً لاعتبارات مختلفة .. وقد رأيت بعض العلماء يعدها ثلاثاً باعتبار نوعية المدعوين ، فهناك الجهر للأقربين ، وهناك جهر لأهل مكة ، وهناك جهر ثالث للناس أجمعين ^(١) . . لكن هذا

(١) انظر : الدعوة الإسلامية في عهدها المبكى ص ٣٠٤ — ٣٣٥ .

التقسيم لم يلاحظ تداخل صور الجهر بالدعوة لأن الرسول ﷺ " وهو يجهر بالدعوة كان يدعو أقرباءه الأدين وأهل مكة ، وكلهم أقرباءه ... وأيضاً كان يدعو من يأتي مكة من خارجها .. كما أن الرسول ﷺ " أعلن من أول الدعوة أنها للناس أجمعين .

وهناك من يقسم المرحلة الجهرية إلى مرحلتين باعتبار الشخص الذي جهر بالدعوة ، ويرى هؤلاء أن الرسول ﷺ " هو الذي جهر بالدعوة للناس في المرحلة الأولى .. وأن عمر بن الخطاب ؓ وحمزة بن عبد المطلب ؓ هما اللذان جهرا بالدعوة بعد المرحلة الأولى بعامين ^(١) ، وكان جهرا بداية المرحلة الجهرية الثانية . وأرى أن هذا التقسيم أكثر صواباً من التقسيم الأول ، ولذلك سأتناول المرحلة الأولى هنا على أساس هذا التقسيم .

ويلاحظ هنا أن مراحل الدعوة تقسم منهجي لتسهيل المعرفة بالسيرة النبوية لأن المراحل كانت تتداخل أحياناً ، ففي المرحلة السرية جهر أبو بكر بالدعوة ، ومع جهر الرسول ﷺ " كان الصحابة يباشرون الدعوة أيضاً .

وتعد المرحلة الجهرية الأولى وسطاً بين المرحلة السرية ، ومرحلة الجهر العام ، لأن المرحلة الجهرية الأولى قام بالجهر خلالها رسول الله ﷺ " مع المحافظة على سرية أماكن التجمع ، والحركة للمسلمين ، الأمر الذي يجعل هذه المرحلة انتقالاً من طبيعة المرحلة السرية إلى طبيعة الجهر العام .

وتبدأ مرحلة جهر الرسول ﷺ " بالدعوة بتزول قوله تعالى : ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(١) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٢﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ^(٢) وَأَخْفِضْ جُنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ^(٣) .

^(١) انظر : المنهج الحركي للسيرة ج ١ ص ٣٧ ، ٧٨ .

^(٢) سورة الشعراء آية (٢١٤ ، ٢١٥) .

^(٣) سورة الحجر آية (٩٤ ، ٩٥) .

والآيات تأمر رسول الله ﷺ " بالجهر بالدعوة ، وترك المشركين في غيهم .
وعدم إثارهم ، مع التركيز على دعوة الأقرين ، وتقوية العلاقة الطيبة مع المؤمنين .
وكانت هذه المرحلة جهرية لرسول الله ﷺ " فقط ، حيث أمره الله تعالى
بالجهر ، أما أصحاب النبي ﷺ " المؤمنين فقد ظلوا على صمتهم ، واستخفائهم ،
لأن الأمر بالجهر جاء مقترناً بالدعوة إلى الصبر ، والتحمل ، وتجنب المشركين ،
والبعد عن كل ما يؤدي إلى التصادم معهم .

ولأن حركة الصحابة كانت سرية بقي مكان تجمعهم في دار الأرقم سراً
لا يعلمه كفار مكة إلا يوم أسلم عمر بن الخطاب ، وكانوا يخفون من أسلم حفاظاً
عليهم ، ولذلك استمروا يؤدون مناسكهم ، وصلواتهم في الشعاب ، ولم يتجمعوا
عند الكعبة إلا بعد إسلام عمر .

رغب المسلمون مرة في إسماع القرآن الكريم أهل مكة عساهم يتأثرون
ببلاغته ، ومعانيه ، فاجتمعوا لتدبير هذا الأمر ، فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا
القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ .

فقال عبد الله بن مسعود : أنا .

قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه .
قال : دعون فإن الله سيمعني . ، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى ،
وقريش في أنديتها ، ثم قرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، رافعاً بها

صوته ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿ ﴾

فتأملوه فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟

ثم قالوا : إنه ليتلوا بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه ، فجعلوا يضربونه في وجهه ،
وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ .

ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه ، فقالوا له : هذا الذي نحسبنا عليك .

فقال : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئت لأغادينهم بمثلها غداً .
قالوا : لا ، ، حسبك ، قد أسمعتهم ما يكرهون ^(١) .

إن استضعاف المشركين لمن أسلم ، وإيذاء من يظهر منهم كان سبباً في التدرج بالجهر بالدعوة ، ولذلك اتخذ الجهر مرحلتين .

إن موضوع الدعوة تحدد بدقة منذ اللحظة الأولى ، وهو الدعوة إلى وحدانية الله ، وقصر العبادة له سبحانه وتعالى ، وكل ما جد في شأن الدعوة كان مع الوسائل ، والأساليب ، ولذا سأتناول في هذا المبحث الملامح التالية : —

أولاً . ظهور الجماعة المؤمنة : .

ظهرت الجماعة الإسلامية الأولى في مكة ، وخرجت للعلن بعد أن جهر الرسول ﷺ بالدعوة ، وصارت تمثل كياناً له دينه ومرجعيته ، وعلمه ، وذاتيته .
إن العقيدة التي صدق بها هؤلاء السابقون إلى الإسلام ، هي الدين الذي آمنوا به ، وهي القاعدة التي طهرتهم ، وصهرتهم نظرياً وعملياً ، وجعلتهم يكونون المجتمع الإيمانى علي قاعدة نظرية معرفية تحتم العمل والتطبيق .

إن التوحيد هو الحقيقة الكبرى في الكون ، فالخالق تعالى واحد ، والكون بسننه ، ونواميسه واحد ، والإنسان في جوهره ، وغايته ، ووجوده واحد ، والكون بكامله يتجه إلى الله عز وجل اتجاهاً واحداً بالعبادة والطاعة : ﴿ وَلِلَّهِ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ ^(٢) ، وينبغي للإنسان أن يتجه إلى نفس الغاية والمهدف ، وإلا حصل التصادم والتمزق والضياع في مسيرة الحياة .

ولذلك نص القرآن المكي علي قاعدة الوجود الكبرى ، وغاية الوجود

الإنساني في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(٣) حيث

^(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٣١٤ .

^(٢) سورة آل عمران آية (٨٣) .

^(٣) سورة الذاريات آية (٥٦) .

ترسم الآية الإطار العام للعقيدة، والدائرة الشاملة للحياة البشرية ، وجعل كل الأعمال الظاهرة ، والباطنة عبادة لله تعالى .

ولم يكن صدقة أن يبدأ رسول الله " ﷺ " بتربية المجموعة الأولى علي توحيد التوحيد ، فرسخ في قلوبكم المعرفة الحققة بالله تعالى التي تقتضي الاستسلام التام له ، والطاعة المطلقة له ، وعدم التقديم بين يديه ، والرضا والتسليم بقضائه وقدره ^(١) ومرجعية هذه الجماعة هي الوحي الإلهي ، والرسول " ﷺ " بينهم ، يعلمهم ، ويبين لهم طرق العمل به ، والهداية بمنهج ..

وقد تعلمت هذه الجماعة من القرآن الكريم الذي نزل عليهم أن هناك سبيل أرادها الله تعالى لمسيرة الحياة والأحياء ، لأبد من قبلها ، والتعامل معها ... ومن أهمها :-

أ - الإبتلاء والتمحيص :

إبتلاء المؤمنين بالأذي والاضطهاد سنة إلهية في الناس ، ليظهر الطيب والخبث ، ولذلك قال ورقة بن نوفل للنبي " ﷺ " : (ما جاء رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي) ^(٢) ، ويقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ أَنْ يُرَكُّوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ ^(٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ^ط فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٥﴾ ^(٤) .

وعلي هؤلاء المسلمين ، ومن يأتي بعدهم ضرورة تحمل الإبتلاء ، والصبر علي الأذي تمييزاً لهم ، وإظهاراً لصلابتهم ، يقول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ

^(١) منهج النبي " ﷺ " ص ٣٢ .

^(٢) صحيح البخاري — كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٣ .

^(٣) سورة العنكبوت الآيات (١ — ٣) .

الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴿١٦﴾ ، ليس دور الابتلاء في إظهار صلابة الرجال ، و بروز مزايا المؤمن الصادق ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿١٧﴾
إنه ابتلاء يبرز الإيمان ، ويمحص الصادقين .

ب . التغيير يبدأ من الباطن :

الإنسان عقل وجسد ، وباطن وظاهر ، وتعاليم الإسلام شاملة لعناصر الإنسان جميعاً ، ولذلك ترى الدعوة قد بدأت بالجزء الهام في الإنسان وهو الباطن أساس التغيير ، يقول الله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ ۗ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ ﴿١٨﴾ وإذا تغير الباطن تغير الظاهر ، ودائماً تأتي النتائج تبعاً لأسبابها .

ج . أهمية الإعداد للنجاح :

يعتمد النجاح في أي مجال على مقدمات لا بد منها ، ومن هذه المقدمات الاستعداد للعمل ، وإعداد العدة المكافئة له حتى لا يضيع المسلم في بيداء الحياة ، وصخبها ، وهذا الإعداد متنوع تبعاً للعمل المطلوب ، والغاية المقصودة . ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ .

^(١٦) سورة آل عمران آية (١٧٩) .

^(١٧) سورة آل عمران آية (١٥٤) .

^(١٨) سورة الرعد آية (١١) .

^(١٩) سورة الأنفال آية (٦٠) .

إن سنة النصر لا تتخلف متى استوفت الشروط والإعداد ، وأهمها الاستقامة على منهج الله بطاعة أمره ، واتباع رسوله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾^(١) وقال — جل ذكره ، : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٠٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾^(٢) .

وجاءت عوامل النصر جليلة واضحة في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٣) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾^(٤) .

ولكن إذا تخلفت هذه الأسباب تخلف النصر بطبيعة الحال ، وربما حلت الهزيمة ، لأن سنن الله تعالى لا تحابي ، ولا تجامل أحداً من الخلق ، ولا تجاري أهواء البشر ، وإنما تساير أعمالهم ، وإن الذين يرثون الكتاب وراثته بالاسم ، وشهادة الميلاد ، ولا يترجمون ما فيه من الأوامر والنواهي عملاً سلوكياً ثم يقولون : سيعفر لنا ! لا يستجيب الله عز وجل لهم ، حتى يعودوا إلى العمل بما أمرهم الله به في كتابه المنزل^(٥) .

ثانياً . مواجهة الرسول قومه بالدعوة :

بعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالجهر بالدعوة ، وأن ينذر عشيرته القريبة منه ، على أن يبدأ بالأقرب إليه ، أخذ ﷺ يعد للأمر عدته ، ورأى أن أفضل وسيلة لذلك هي المواجهة المباشرة سواء بصورة فردية ، أو جماعية ، أو عامة . يروي ابن الأثير أن رسول الله ﷺ قال لعلي : يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، فضقت ذرعاً ، وعلمت أني متى أبادرهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره^(٦) .

(١) سورة محمد آية (٧) .

(٢) سورة الصافات الآيات (١٧١ — ١٧٣) .

(٣) سورة الأنفال آية (٤٥ ، ٤٦) .

(٤) حول التفسير الإسلامي للتاريخ ص ١٠٢ .

(٥) الكامل ج ٢ ص ٦١ .

ولما مرض "ﷺ" وجاءته عماته يعدنه، قال هن: ما اشتكيت شيئاً، ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين .

فقلن له : فادعهم ولا تدع أبا هب فيهم، فإنه غير محببك .

فراه "ﷺ" بخير علياً وعماته بدعوته بصورة فردية ..

ومرة يجمع أعمامه ، وتقرأ من بني المطلب بن عبد مناف : حيث دعاهم إلى طعام ، وبلغهم بدعوة الله تعالى مرتين لأنه لم يتمكن من الحديث في المرة الأولى بسبب مقاطعة أبي هب له ، ودعاهم في المرة الثانية .

جاء في الكامل لابن الأثير أنه لما أنزل الله على رسوله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ اشتد ذلك عليه "ﷺ" وضاق به ذرعاً ، فجلس في بيته كالمريض ، فأتته عماته يعدنه، فقال : ما اشتكيت شيئاً ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين . فقلن له : فادعهم ولا تدع أبا هب فيهم فإنه غير محببك ، فدعاهم "ﷺ" .

فحضروا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين رجلاً . فبادره أبو هب وقال : هؤلاء هم عمومك، وبنو عمك، فتكلم ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك في العرب قاطبة طاقة ، وأن أحق من أخذك فحبسك بنو أبيك ، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يشب لك بطون قريش، وتكدهم العرب ، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به .

فسكت رسول الله "ﷺ" ولم يتكلم في ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال : الحمد لله ، أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنا الجنة أبداً ، أو النار أبداً .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أنني أسرعهم إلى ما تحب ، فامض

لما أمرت به، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة ! خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم .

فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا ^(١) .

فقال له أخته صفية — عمة رسول الله — " ﷺ " رضي الله تعالى عنها :

أى أخى ، أيجسن بك خذلان ابن أخيك ، فو الله ما زال الناس يخبرون أنه يخرج من بني عبد المطلب نبي ، فهو هو .

قال أبو لهب : هذا والله الباطل ، والأمانى وكلام النساء في الحجال ، إذا قامت بطون

قريش ، وقامت معها العرب ، فما قوتنا بهم ، فو الله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس .

فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا ^(٢) .

وهكذا دعا النبي " ﷺ " عشيرته الأقربين في جو أسرى خالص ، قائم

على المودة ، وروح القرابة ... ودار نقاش في إطار هذا التجمع .

كما وجه لهم دعوة عامة بأن نادى عليهم جميعاً من فوق الصفا ، فلما

تجمعوا دعاهم إلى الله تعالى .

يروى المؤرخون أنه " ﷺ " لما نزل عليه قوله ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾

صعد النبي " ﷺ " على الصفا ، فجعل ينادى : يا بني فهر ، يا بني عدى .. لبطون

قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟

فجاء أبو لهب وقريش فقال : رأيتمكم لو أخبرتمكم أن غيلاً بالوادي تريد أن تغير

عليكم أكنتم مصدقي ؟ .

قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً .

قال : أئني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

^(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٦١ .

^(٢) الدعوة الإسلامية في عهدنا المكي ص ٣١٥ .

فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعنا ؟ ، فترل قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ ۝١١ ۝١٢ ﴾ .

كما أن عدداً من أصحاب النبي ﷺ " من الله عليه بالإسلام ، وهداه إلى الحق بإحدى طرق الهداية ، فمنهم من أسلم بعدما رأى من رسول الله ﷺ " معجزة هركه ، أو موقفاً حركه ، أو دعوة من الرسول ﷺ " استجيب ، كما حدث مع عبد الله بن مسعود ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وعمر بن الخطاب ، وأم أبي بكر " رضي الله عنهم " .

يقول عبد الله بن مسعود : كنت غلاماً يافعاً ، أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة ، فأتى على رسول الله ﷺ " ، وأبو بكر ﷺ " وقد فرا من المشركين ، فقالا : أعندك يا غلام لبن تسقينا ؟

قلت : إني مؤتمن ، ولست بساقيكما .

فقال رسول الله ﷺ " : هل عندك من جذعة لم يتر عليهما الفحل بعد ؟ قلت : نعم ! فأتيتهما بها ، فاعتقلها أبو بكر ، وأخذ رسول الله ﷺ " الضرع ، ودعا فحفل الضرع ، وأتاه أبو بكر بصخرة متقعة ، فحلب فيها ، ثم شرب هو ، وأبو بكر ، ثم سقياني ، ثم قال للضرع أقلص فقلص .

فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ " فقلت علمني من هذا القول الطيب — يعني القرآن الكريم — .

فقال له ﷺ " : " إنك غلام معلم ، يقول ابن مسعود " فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينار عني فيها أحد " (١) .

(١) سورة المسد آية (١ ، ٢) .

(٢) فتح الباري ج ١ ص ١١٨ — ١٢٠ .

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٢ .

وأما خالد بن سعيد بن العاص فلقد رأى في المنام أنه وقف به على شفير النار فذكر من سعتها ما الله أعلم ، ويرى في النوم كأن أتاه ، يدفعه فيها ، ويرى رسول الله ﷺ " أَخِذْ بِحَقْوِيهِ ، لَا يَقَعْ ، فَفَزِعَ مِنْ نَوْمِهِ ، فَقَالَ أَحْلَفَ بِاللَّهِ أَنْ هَذِهِ لِرُؤْيَا حَقٍّ ، فَلَقِيَ أَبَا بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ أُرِيدُ بِكَ خَيْرَ ، هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " فَاتَّبَعَهُ ، فَإِنَّكَ سَتَتَّبِعُهُ وَتَدْخُلُ مَعَهُ فِي الْإِسْلَامِ ، وَالْإِسْلَامُ يُخْرِجُكَ أَنْ تَدْخُلَ فِيهَا ، وَأَبُوكَ وَاقِعٌ فِيهَا فَلَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ " وَهُوَ بِأَجْيَادٍ ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، يَا مُحَمَّدُ إِلَى مَا تَدْعُو ؟

قال : أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَتُخْلَعُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ حَجَرٍ لَا يَسْمَعُ ، وَلَا يَصْرُ ، وَلَا يَبْصُرُ ، وَلَا يَنْفَعُ ، وَلَا يَضُرُّ مِنْ عَبْدِهِ مَنْ لَا يَعْبُدُهُ .

قال خالد : فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَسَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " بِإِسْلَامِهِ ، وَتَغَيَّبَ خَالِدٌ وَعَلِمَ أَبُوهُ بِإِسْلَامِهِ ، فَأَرْسَلَ فِي طَلَبِهِ فَأَتَى بِهِ ، فَأَنَبَهُ وَضَرَبَهُ بِمَقْرَعَةٍ فِي يَدِهِ حَتَّى كَسَرَهَا عَلَى رَأْسِهِ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ لَا مَنَعَنكَ الْقُوَّةُ . فقال خالد : إِنْ مَنَعَنِي فَإِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُنِي مَا أَعِيشُ بِهِ ، وَاتَّصَرَفَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ " فَكَانَ يَكْرُمُهُ وَيَكُونُ مَعَهُ ^(١) .

وهكذا تكاثروا المسلمون ، وَأَخَذَ عِدْدَهُمْ يَزِدَادٌ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ لَدَرَجَةٍ أَنْ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ " أَخَذَ يُلْحِقُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ " بِإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ ، وَتَوْسِيعِ دَائِرَةِ التَّحَرُّكِ بِهِ ، وَإِعْدَادِ الْمُؤْمِنِينَ لِتَحْمِيلِ مَا يَصِيبُهُمْ مِنَ الضَّرَرِ وَالْأَذَى .

ورؤية أبي بكر في المجاهرة والمواجهة لها ما يبررها ، فلقد أحس من كفار قريش قلقاً من زيادة عدد المسلمين دفعهم لتشديد الأذى ، والتعنت مع كل من يسلم . ومن المعلوم أن الطغاة يضاعفون عدوانهم كلما رأوا من خصومهم خنوعاً

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٢ .

واستسلاماً ، فأراد أبو بكر رضي الله عنه " أن يبرز لهم من نفسه قوة ، فمتعهم من العدوان وخوفهم من أذى المسلمين .

وفي هذه الحالات تبرز أهمية المواجهة لأنها تحد من غلواء المعتدى ، وتظهر رجالاً ، يتحمسون للحق ، ويدخلون في الإسلام فينتصر الإسلام بهم .
وقد أراد الله تعالى إظهار الإسلام كطلب أبي بكر رضي الله عنه " ، الأمر الذي أدى في النهاية إلى انتصار المسلمين ، وخزي الكافرين .

إن المسلمين الأول لم يكونوا على مستوى واحد من المواجهة ، فمنهم من كان تحميه قبيلته ، ومنهم المتميز بالجرأة ، والصلابة ، وقوة الشكيمة ، والقدرة على المواجهة ... ولذلك ألح أبو بكر رضي الله عنه " على رسول الله صلى الله عليه وسلم " في الظهور .
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " : يا أبا بكر إنا قليل .

فلم يزل أبو بكر يلح على رسول الله صلى الله عليه وسلم " ، حتى أذن له صلى الله عليه وسلم " ، فأظهره صلى الله عليه وسلم " وحده ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته .
وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله صلى الله عليه وسلم " جالس فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم " .

ونار المشركون على أبي بكر ، وعلى المسلمين ، فضربوا من وجدوه في المسجد ضرباً شديداً ، ووطئ أبو بكر ، وضرب ضرباً شديداً ، ودنا منه الفاسق عتبة ابن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ، ويحرفهما لوجهه ، ونزل على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وجاء بنو تميم يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبي بكر ، وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب ، حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكون في موته .

ثم رجعت بنو تميم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة ابن ربيعة ، فرجعوا إلى أبي بكر ، فجعل أبو قحافة وبنو تميم يكلمون أبا بكر حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم " ؟

فمَسُوا مِنْهُ بِالسُّتْهِمْ وَعَذَلُوهُ ، ثُمَّ قَامُوا وَقَالُوا لَأَمَّهُ أَمْ الْخَيْرُ : أَنْظِرْ أَنْ تَطْعَمِيهِ شَيْئاً ، أَوْ تَسْقِيهِ إِيَّاهُ ، فَلَمَّا خَلَّتْ بِهِ أَلَحَتْ عَلَيْهِ وَجَعَلَ يَقُولُ : مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟
فَقَالَتْ : وَاللَّهِ مَا لِي عِلْمٌ بِصَاحِبِكَ .

فَقَالَ : أَذْهَبِي إِلَى أُمِّ جَمِيلَ بِنْتِ الْخَطَّابِ فَاسْأَلِيهَا عَنْهُ ، فَخَرَجَتْ حَتَّى جَاءَتْ أُمَّ جَمِيلَ
فَقَالَتْ : إِنْ أَبَا بَكْرٍ يَسْأَلُكَ عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؟

فَقَالَتْ : مَا أَعْرِفُ أَبَا بَكْرٍ وَلَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتَ تَحْبِينِ أَنْ أَذْهَبَ مَعَكَ إِلَى
ابْنِكَ ! ! ! .

قَالَتْ : نَعَمْ ، فَمَضَتْ مَعَهَا حَتَّى وَجَدَتْ أَبَا بَكْرٍ صَرِيحاً دَنَفَ ، فَدَنَتْ أُمُّ جَمِيلَ
وَأَعْلَنْتْ بِالصِّيَاحِ ، وَقَالَتْ : وَاللَّهِ إِنْ قَوْمًا نَالُوا هَذَا مِنْكَ لِأَهْلِ فَسَقٍ وَكُفْرٍ ، وَإِنْ
لَأَرْجُو أَنْ يَنْتَقِمَ اللَّهُ لَكَ مِنْهُمْ .

قَالَ : فَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟

قَالَتْ : هَذِهِ أُمُّكَ تَسْمَعُ .

قَالَ : فَلَا شَيْءَ عَلَيْكَ مِنْهَا .

قَالَتْ : سَأَلْتُ صَاحِبَ .

قَالَ : أَيْنَ هُوَ ؟

قَالَتْ : فِي دَارِ ابْنِ الْأَرْقَمِ .

قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى أَنْ لَا أَذُوقَ طَعَاماً ، وَلَا أَشْرِبَ شَرَاباً ، حَتَّى أَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ،

فَأَمَهَلْتَاهُ حَتَّى إِذَا هَدَأَتِ الرَّجُلَ ، وَسَكَنَ النَّاسُ ، خَرَجْنَا بِهِ يَتَكَيَّ عَلَيْهِمَا ، حَتَّى

أَدْخَلْتَاهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَكَبَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " فَقَبَلَهُ ، وَأَكَبَ عَلَيْهِ

الْمُسْلِمُونَ ، وَرَقَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " رَقَّةً شَدِيدَةً ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا أُمِّي يَا

رَسُولَ اللَّهِ ، لَيْسَ بِي بِأَسَى إِلَّا مَا نَالَ الْفَاسِقُ مِنْ وَجْهِ ، وَهَذِهِ أُمِّي بَرَّةٌ بَوْلَدَهَا ،

وَأَنْتَ مَبَارَكٌ فَادْعُهَا إِلَى اللَّهِ ، وَادْعِ اللَّهَ لَهَا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَسْتَنْقِذَهَا بِكَ مِنَ النَّارِ ، فَدَعَا

لما رسول الله ﷺ " ودعاها إلى الله فأسلمت ، وأقاموا مع رسول الله ﷺ " في
الدار شهراً ^(١) .

وأراد الله للمسلمين قوة ، فجعل من اشتداد أذى قريش للمسلمين سبباً في
إسلام حمزة عم رسول الله ، وعمر بن الخطاب " ، وهما من فتيان مكة ، اللذين
اشتهرا بالشجاعة ، والبأس ، وكان القرشيون يهابانهما لقوتهما .

يسوق ابن إسحاق قصة إسلام حمزة فيقول : أن أبا جهل مر برسول الله " ﷺ
عند الصفا ، فأذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ،
والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله " ﷺ " ، ومولاة لعبد الله بن جدعان في
مسكن لها تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة ، فجلس
معه ، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب " ﷺ " أن أقبل متوشحاً قوسه ، راجعاً من
قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل
إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف
وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى في قريش ، وأشد شكيمه ، فلما مر بالمولاة ،
وقد رجع رسول الله " ﷺ " إلى بيته ، قالت له : يا أبا عمار ، لو رأيت ما لقي ابن
أخيك محمداً آنفاً من أبي الحكم بن هشام ، وجدده ها هنا جالساً فأذاه ، وسبه ،
وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد " ﷺ " .

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ، ولم يقف
على أحد ، معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً
في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس فضربه بها ، فشججه شجة
منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرد ذلك على إن استطعت ،
فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل " دعوا
أبا عمار ، فإن والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً ، واستمر حمزة " ﷺ " على

إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ " من قوله ، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ " قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنع ، فكفوا عن بعض ما كانوا يتالون منه (١) .

وزاد غير ابن إسحاق أن حمزة لما أسلم كان منفعلاً، مندفعاً ، وأدركه الندم ، على تسرعه ، يقول حمزة " ﷺ " : أدركني الندم على فراق دين آبائي وقومي ، وبت من الشك في أمر عظيم ، لا أكتحل بنوم ، ثم أتيت الكعبة ، وتضرعت إلى الله سبحانه أن يشرح صدري للحق ، ويذهب عني الريب ، فلما استتممت دعائي إنزاح عني الباطل ، وامتلاً قلبي يقيناً ، فغدوت إلى رسول الله ﷺ " فأخبرته بما كان من أمري ، فدعاني بأن يثبتني الله (٢) .

وأسلم عمر بن الخطاب " ﷺ " أيضاً في وسط التشدد والاضطهاد للمسلمين ، يروي ابن إسحاق بسنده قصة إسلام عمر فيقول : وكان إسلام عمر فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب ، زوجة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت قد أسلمت ، وأسلم بعدها سعيد بن زيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحام ، رجل من قومه ، من بني عدى بن كعب قد أسلم ، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فرقا من قومه ، وكان خباب بن الارت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ " ورهطاً من أصحابه ، قد ذكروا له ، أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ، ما بين رجال ، ونساء ، ومع رسول الله ﷺ " عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق ، وعلى بن أبي طالب ، في رجال من المسلمين " رضي الله عنهم ، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ " بمكة ، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة .

(١) سيرة النبي ﷺ " لابن هشام ج ١ ص ٢٩١ .

(٢) سيرة النبي ﷺ " لابن هشام ج ١ ص ٢٩٢ .

فلقبه نعيم بن عبد الله ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟

فقال : أريد محمداً هذا الصابي ، الذي فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله .

فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك ممن نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

قال : وأى أهل بيتي ؟

قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما .

قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الارت معه صحيفة ، فيها : ﴿ طه ﴾ ﴿ ١ ﴾ يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حس عمر ، تغيب خباب في مخدع لهم ، أوفى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما .

فلما دخل قال : ما هذه الهينة التي سمعت ؟

قالا له : ما سمعت شيئاً .

قال : بلى والله لقد أحررت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فصرها فشجها .

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى ، وراجع نفسه ، وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرعون أنفساً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ؟ ! ، وكان عمر كاتباً .

فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها .

قال : لا تخافي ، وحلف لها بأخيه ليردّها إذا قرأها إليها .

فلما قال ذلك ، طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخي ، إنك نجس ، على شركك ، وأنه لا يمسه إلا الطاهر ، فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، وفيها ﴿ طه ﴾

فقرأها ، فلما قرأ منها صدرأ ، قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : يا عمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإن سمعته " ﷺ " أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر .

فقال له عند ذلك عمر " فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم .

فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله " ﷺ " وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله " ﷺ " ، فنظر من خلل الباب فراه متوشحاً بالسيف ، فرجع إلى رسول الله " ﷺ " وهو قزع ، فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله " ﷺ " : أذن له ، فأذن له الرجل ، وكفى إليه رسول الله " ﷺ " حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ حجرته ، أو بمجمع رداءه ، ثم جبهه به جبذة شديدة ، وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يزل الله بك قارعة . فقال عمر : يا رسول الله ، جئت لأؤمن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ، فكبر رسول الله " ﷺ " تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله " ﷺ " أن عمر قد أسلم ^(١) .

(١) سورة النبي " ﷺ " لابن هشام ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٦ .

وبإسلام حمزة " ﷺ " وعمر " ﷺ " بدأت مرحلة الجهر العام بالدعوة ،

لأنهما لم يرتضيا لدينهما هذا الاستتار ما دام هو الحق .

وقد سأل عمر عن أكثر الناس قولاً ، وأفشاهم للحديث ، وعلم أنه جميل بن

معمر الجمحي فأتى إليه ، وأخبره بأنه أسلم ، فصاح جميل بأعلى صوته : إن ابن الخطاب صيماً .

وذهب إلى أبي جهل وأخبره بإسلامه .

وأراد كفار مكة قتل عمر فأجاره العاص بن وائل السهمي ، يروي البخاري

بسند أنه بينما كان عمر بن الخطاب في الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل

السهمي — أبو عمرو ، وعليه حلة سيرة ، وقميص مكفوف بحريز ، وهو من بني

سهم وهم حلفاؤنا في الجاهلية ، فقال له : مالك يا عمر ؟

قال عمر : زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت .

قال : لا سبيل إليك ، وبعد أن قالها أمنت .

فخرج العاص ، فلقى الناس قد سأل بهم الوادي ، فقال : أين تريدون ؟

فقالوا : هذا ابن الخطاب الذي قد صيماً .

قال : لا سبيل إليه ، فكر الناس ^(١) .

وكان إسلام عمر بن الخطاب بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب بثلاثة أيام ،

وبذلك بدأت مرحلة الجهر العام بالدعوة إلى الله تعالى ..

لقد تم الانتقال إلى هذه المرحلة في وقت كان كفار مكة يخططون للقضاء

على الإسلام والمسلمين بعدما شعروا بخطورة الإسلام على وضعيتهم في مكة .

● هل كان يتصور كفار مكة أن ينقلب حمزة عليهم بهذه الصورة

المفاجئة ؟ ! !

● وهل توقعوا أن يتبعه عمر ، ويعلن إسلامه بعده بثلاثة أيام فقط ؟ !

● وهل ظنوا مرة أن يجير العاص بن وائل عمر وينقذه منهم ، وقد

كادوا أن يفتكوا به ؟ !!

● وهل دار بخلداهم أسرار هذه المواقف المفاجئة ، وفي هذا الوقت

بالذات ؟ !!

لم يفكروا في شيء من ذلك ، ولم يتوقعوه ، لأنهم لم يتصوروا القدر الإلهي ،

ونصره لعباده المؤمنين .

إن عقول البشر جميعاً تعجز عن تصور أى شيء من هذه القضايا، ولا تقدر

على اكتشاف شيء من أسرارها ، وكل ما تصوره أهل مكة ، عن محمد ﷺ

ودعوته وعن المؤمنين به عكس ما حدث ، لأن المواجهة وقتها تصاعدت وتضخمت

، والتخطيط لقتل محمد ومن معه أمر موجود .

لكن إرادة الله غالبة ، وقدرته لا حدود لها ، ففي وسط الضعف تبرز قوة ،

ومن ثنايا الجبروت والطغيان يأتى العدل والحق ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر

الناس لا يعلمون .

المبحث السادس

مرحلة الجهر العام بالدعوة

أكرم الله تعالى المسلمين في مكة بإسلام حمزة بن عبد المطلب " عليه السلام " وعمر ابن الخطاب " عليه السلام " ، فلقد أعز الله بهما الإسلام ، وقوى المسلمون ، يقول صهيب بن مسان " عليه السلام " : لما أسلم عمر ظهر الإسلام ، ودعى إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حلقاً ، وطفنا بالبيت ، وانتصفنا ممن غلظ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتى به ^(١) . ويقول عبد الله بن مسعود " عليه السلام " : مازلنا أعزة منذ أن أسلم عمر ^(٢) ، يروى ابن إسحاق أنه لما أسلم عمر نزل جبريل وقال : يا محمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر ، وهو الفاروق ، لأنه كان سبياً في التفريق بين عهدين ، لأنه لما أسلم قال لرسول الله " ﷺ " : ألسنا على الحق ، وهم على الباطل ؟ قال " ﷺ " : بلى .

قال عمر : ففيم الاختفاء ؟ ! ^(٣) .

وأصر عمر " عليه السلام " على أن يخرج المسلمون من دار الأرقم جهاراً ، معلنين إسلامهم ، فخرجوا في صفين في أول الصف الأول عمر ، وفي أول الثاني حمزة وهم يهللون ، ويكبرون ، ولهم دوى كدوى الرحي ، حتى دخلوا المسجد الحرام بهذه الصورة الجهرية الجماعية ، ولذلك قال " ﷺ " : إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ^(٤) .

والفرق واضح بين إظهار أبي بكر للإسلام وبين إظهاره بعد إسلام عمر ، لأن إظهار أبا بكر كان فردياً ، أما بعد إسلام عمر فكان إظهاراً جماعياً قام به المسلمون

^(١) الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢٦٩ .

^(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

^(٣) مناقب عمر لابن الجوزي ص ١٨ .

^(٤) الإحسان بن أبيه صحيح ابن حبان ج ٦ ص ٢٥٢ .

وخرجوا من دار الأرقم يهللون ويكبرون .

وهكذا

بدأت مرحلة الجهر العام بالدعوة، يصدع بها رسول الله ﷺ " وصحابته " رضوان الله عليهم " ، وينادون بها قولاً ، وعملاً ، في بيوتهم ، وفي كل مكان ، وعند البيت . لقد حاول أبو بكر ﷺ " إظهار الدعوة بالبيت قبل ذلك فأودى إيده شديداً ^(١) ، فلما أسلم حمزة وعمر حقق المسلمون ما تمناه أبو بكر قبل ذلك . وشعر كفار مكة بخطورة الإسلام لما رأوا من قوة أتباعه ، وكثرة معتنقيه ، وشدة إخلاصهم لما يؤمنون به ، وحيث شددوا في الاضطهاد ، والأذى .

والفرق بين الجهر الأول ، والجهر الثاني أن الجهر الأول كان خاصاً بالدعوة يقوم به رسول الله ﷺ " علانية ، بينما الجهر الثاني صار عاماً يقوم به الرسول ﷺ " وأصحابه القادرون على التبليغ ، كما أن السرية ظلت ملازمة لتحرك المسلمين في المرحلة الأولى وهم يتعلمون الإسلام من رسول الله ﷺ " في دار الأرقم ، وفي الشعب ، أو في الأماكن النائية ، أما في المرحلة الثانية فقد أخذ المسلمون يظهر من مناسكهم في الأماكن العامة ، عند الكعبة ، وفي أماكن العمل ، وصاروا يجتهدون في إبراز الإسلام في عملهم ، ونسبهم ، وخلقهم .

ولهذا...

كانت الحركة بالدعوة في المرحلة الأولى أشبه بحركة المرحلة السرية ، أما مرحلة الجهر العام فكان لها طابعها الخاص في الدعوة إلى الله تعالى .

* * *

(١) أنظر ص ٤٧٣ وما بعدها .

المبحث السابع

الحركة بالدعوة

خلال مرحلة الجهر العام

أدى تغير صورة الجهر العام عن المراحل السابقة إلى أن أخذ طابع الحركة بالدعوة صوراً عديدة ، منها القديم ، وفيها الجديد .
 فمع ثبات المضمون الفكري للدعوة إلا أن بقية الجوانب قد تغيرت . .
 فلقد تنوعت الوسائل ، وأصبحت شاملة لكل وسيلة ممكنة ، وتغيرت الأساليب ، وصارت ملائمة للمدعوين مع تعدد مذاهبهم ، وأماكنهم ، وحجاتهم .
 وقد اضطر رسول الله ﷺ والمسلمون معه إلى مواجهة الاضطهاد الذي يقع عليهم من أهل مكة بما أمكنهم في إطار ما هم فيه من قلة ، وضعف .
 وذلك سيتناول هذا المبحث المسائل التالية : —

المسألة الأولى

تنوع وسائل الدعوة

لم تعد وسائل الدعوة قاصرة على الاتصالات الشخصية، والمواجهة المباشرة ، وإنما رأيناها ظهرت في صور عديدة ، ومختلفة ، ومن أهمها :

أولاً : الاتصال بصورة مختلفة

يرى علماء الاتصال في العصر الحديث أن صور الاتصال التي يتم بها التوجيه والدعوة ، تنحصر في ثلاث صور رئيسية هي : —

أ- الاتصال الشخصي :

وهو الذي يحدث بين فرد وفرد ، أو بين فرد وعدد قليل ، وهذا الاتصال يتم بصورة تلقائية ، لما بين أفراد هذا الاتصال من معرفة مسبقة ، وتلاقع عادي كالرجل وبيته ، والإنسان وجاره ، والعامل وزملائه ، والطالب وإخوانه ، وهكذا ...

ويتميز هذا اللون بأنه اتصال هادئ ، يقوم على الثقة ، وتبادى الرأي في وضوح ، وبساطة ، ورد الفعل واضح عند الطرفين ، لأنه يتم مباشرة بين الأطراف من غير واسطة ، وبلا سابق إعداد ، وفي موضوعات شتى ، والدعاة إلى الله تعالى يستفيدون بهذا الاتصال ، ويجعلونه طريقاً لدعوتهم التي يبرزونها لمعاشرتهم بالقول ، أو بالعمل ، أو بالتأمل والتفكير المشترك ..

وهذا الاتصال يقيد في نطاق المجتمع الصغير ، والبدائي ، كالأسرة ، ورفاق المسجد ، والقرية ، وجماعة العمل ، وفريق اللعب ، وهكذا ..

ب - الاتصال الجمعى :

وهو الاتصال الذى يتم بين القائم به وبين جماعة من الناس ، بعد إعداد ، وتنظيم يشمل المكان ، والزمان ، والموضوع .

ويتميز هذا النوع بأنه يتم مواجهة ، وبطريقة مباشرة ، لأن الإعداد والتنظيم يجمع أفراداً تقاربت ثقافتهم ، واهتماماتهم ، ونشاطهم العام ، وكل هذا يساعد على وضوح الرؤية ، ومعرفة مدى استجابة الجماعة لتوجيهات القائم بالاتصال .. ومن أمثلة هذا الاتصال تجمع الناس لخطبة الجمعة ، أو لسماع درس ، أو لمناقشة قضية مثارة ، أو لحل مشكلة هم المجتمعين .

ج - الاتصال الجماهيرى :

وهو الاتصال الذى يتم بين القائم بالاتصال وبين جمهور عريض غير محدد ، وبطريقة غير مباشرة ، ويتميز هذا الاتصال بسعته ، وسرعة انتشاره ، وبخطبه للحواجز المادية ، ووصوله لكل الناس في مختلف أحوالهم ، وأماكنهم ، وأعمالهم ، ومن صور هذا الاتصال ، النشرات التعليمية ، والكتب المؤلفة ، وتوجيهات الصحف وبرامج الإذاعة المسموعة والمرئية ، وأشرطة التسجيل ، وهكذا ..

ومع تميز هذا الاتصال بالسعة والتنوع فإنه يحتاج لبذل مالي ، وعملى في إعداد رسائله ، ومعرفة مدى استجابة الناس لما يطلب منهم ، والوقوف المباشر على تساؤلاتهم

واستفسارهم ، والتأكد من وصول الأفكار إليهم على الصورة المطلوبة .

تلك هي صور الاتصال الممكنة ، التي تحدث عنها علماء الإعلام في العصر الحديث ، وقد أحاطوها بحالة تفيد أنها من مستحدثات العصر ، ومخترعات الحضارة الحديثة ، برغم ذلك نقول ، وبكل وضوح : إن رسول الله ﷺ " استخدم هذه الصور الثلاث وهو يدعو الناس خلال مرحلة الجهر بالدعوة . .

فبالنسبة للصورة الأولى : نرى أنه " ﷺ " استخدم وسيلة الاتصال

الشخصي مع أهل بيته ، وأقربائه ، وأصحابه الذين أسلموا ، حيث كان يلتقى بهم بصورة تلقائية ، عدداً من المرات ، في اليوم الواحد ، وكان " ﷺ " يسألهم عن أحوالهم ، ويحيب لهم عن ما يعينهم ، ويؤمهم في الصلاة ، ويبلغهم ما نزل من وحي ، ويقرأ عليهم القرآن الكريم ، ويحثهم على الصبر والتحمل ، ويشد من أزرهم .

وكان " ﷺ " يقابل غير المسلمين المعروفين له ، يدعوهم إلى الله تعالى ، ويدور عليهم في بيوتهم ، وأماكن تواجدهم في مكة ، أو حولها ، وكان كلما قابله واحد يعرفه في الطريق ، أو عند البيت ، حراً أو عبداً ، ضعيفاً أو قوياً ، غنياً أو قوياً ، إلا ويعرض عليه دعوة الله تعالى ، ويطلب منه الدخول في دين الله تعالى .

وكان " ﷺ " يتبع الناس في مجالسهم ، ومحافلهم ، وفي المواسم ، والأسواق

ليدعوهم إلى الله تعالى بالحسنى ، وبالخلق الكريم .

وكان " ﷺ " يشرك من يدعوهم في تناول قضية الدعوة من أجل إقناعه

بالحسنى ، وذلك أمر مهم في حركة الدعوة ، لأن الدعوة ليست تسلطاً واستعلاء ،

ولست احتقاراً لعقل الناس ، وليست استهانة بقدراتهم على التصور ، والحكم السليم .

أنظر إليه " ﷺ " وهو يدعو الحصين والد عمران ، حيث تراه يستدرجه إلى

الحق ، ويضعه أمام اعتراف صريح بالإيمان ، فقد أخرج ابن خزيمة عن عمران بن

خالد بن طليق بن عمران بن حصين قال حدثني أبي عن أبيه عن جده أن قريشاً

جاءت إلى الحصين — وكانت تعظمه —

فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آهتنا ويسبهم ، فجاءوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبي ﷺ .

فقال النبي ﷺ : أوسعوا للشيخ ، وعمران وأصحابه متوافرون .

فقال حصين : ما هذا الذي بلغنا عنك : إنك تشتم آهتنا ، وتذكرهم ، وقد كان أبوك حصينة وخيراً ؟

فقال ﷺ : يا حصين ! إن أبي وأباك في النار ، يا حصين ! كم تعبد من إله ؟ قال : سبعاً في الأرض وواحداً في السماء .

قال ﷺ : فإذا أصابك الضر من تدعو . قال : الذي في السماء .

قال ﷺ : فإذا هلك المال من تدعو ؟

قال : الذي في السماء .

قال ﷺ : فيستجيب لك وحده ، وتشركه معهم ، أرضيته في الشكر ، أم تخاف أن يغلب عليك ؟

قال : ولا واحدة من هاتين ، وقد علمت أني لم أكلم مثله .

قال ﷺ : يا حصين ! أسلم تسلم .

قال : إن لي قوماً وعشيرة فماذا أقول ؟

قال ﷺ : قل : اللهم ، أستهديك لأرشد امرئ وزدني علماً ينفعني ، فقالها حصين

فلم يقم حتى أسلم ، فقام إليه عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه ، فلما رأى ذلك النبي

ﷺ بكى وقال : بكيت من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر ، فلم يقم إليه

عمران ، ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم قضى حقه فدخلني من ذلك الرقة ، فلما أراد

حصين أن يخرج قال ﷺ لأصحابه : قوموا فشيّعوه إلى منزله ، فلما خرج من سدة

الباب رآته قريش فقالوا : صيأ وتفرقوا عنه ^(١) .

ونراه ﷺ يعيش مع واقع حصين ، ويسأله فيها إلى أن تحقق لدعوته ما يريد .

إن الدعوة في حد ذاتها تقدير للإنسان ، وتوجيه أمين للفكر والعقل ، وإيقاظ
اللفظية ، والإنسانية السليمة ، وبذلك يتم الإيمان بالإقتناع والفهم ، ويرتبط المسلم
بدينه حياءً وولاءاً وطاعة .

وبالنسبة لصورة الاتصال الثانية : وهي الاتصال الجمعي نرى أنه " ﷺ "

استفاد بها ، فلقد كان " ﷺ " يتخير الجماعة القليلة العدد ، المتفقة اتجاهها ، الموحدة
اهتماماً ، ويعد لهم اجتماعاً منظماً ، في جو من الود والمحبة لما بين الرسول " ﷺ " و
بين هذا الجمع من صلات القربى ، والمعاشرة ، والقومية وغير ذلك .. كما حدث
بعد أن أمر بالجهار بالدعوة فإنه " ﷺ " أمر علياً ابن عمه ، بأن يعد طعاماً ، وشراياً
لأعمامه : وعماته ، وقد تكرر هذا التجمع بين الرسول " ﷺ " وبين أعمامه ،
وعماته . ومن خلال هذا الاتصال اتضحت مواقف كل طرف ، وظهر خط كل فرد
فقد أعلن أبو هب عصيانه ، وتصديه للدعوة ، وأعلن أبو طالب وقوفه مع الرسول
" ﷺ " وحمايته له غير أنه سيستمر على دين أبيه ، ومن هذا القبيل أن رسول الله " ﷺ " كان
يعرض الإسلام على من يعرفهم ، ولو كانوا أعداء ، فلقد اجتمع عند ظهر
الكعبة مع صناديد مكة ، وهم عتبة ، وشيبة ابني ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، ورجلاً
من بني عبد الدار ، وأبا البختري أخا بني الأسد ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد ،
وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية ،
وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، وثيها ومنبها ابني الحجاج السهميين ^(١) .

والاتصال الجمعي : وسيلة تحتاج إلى الإعداد الجيد ، لأن الرسول أو

الداعية يعرف مقدماً الهدف الذي من أجله كان تنظيم هذا الاتصال ، ولذلك لزم
إعداد الموضوع ، وعرضه بطريقة مقنعة ، ترضي المستمعين .

وعلى منظم هذا الاتصال أن يتوقع المعارضات العديدة لموضوعه ، ليستعد
بالشرح ، والتفصيل ، وتفنيد المزاعم التي قد تظهر في اجتماعه ، أنظر إلى رسول الله

"ﷺ" وهو يدعو أبا جهل ومعه المغيرة بن شعبه يقول المغيرة : إن أول يوم عرفت فيه رسول الله "ﷺ" أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة ، إذ لقينا رسول الله "ﷺ" فقال رسول الله "ﷺ" لأبي جهل : يا أبا الحكم ، هلم إلى الله وإلى رسوله أدعوك إلى الله .

فقال أبو جهل : يا محمد ، هل أنت منته عن سب آلنا ؟ ... هل تريد إلا أن تشهد أنك قد بلغت ؟ ... فنحن نشهد أن قد بلغت ، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لا تبعثك .

فانصرف رسول الله "ﷺ" وأقبل على أبي جهل فقال : والله إنني لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شيء ، إن بني قصي قالوا : فينا الحجابة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا السقاية ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا الندوة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا : نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تماكت الركب قالوا : منا نبي ، والله لا أفعل ^(١) .

وبالنسبة للصورة الثالثة :

وهي التي تعرف بالاتصال الجماهيري ، فقد استعملها النبي "ﷺ" ، ورجا من ورائها أن يصل الإسلام إلى الجماهير الغفيرة من الناس .
لما جهر الرسول "ﷺ" بالدعوة ، ورغب في دعوة أهل مكة جميعاً استعان بهذه الوسيلة الجماهيرية ، فصعد على الصفا ، وأخذ ينادي في الناس فعم ، وخص ، ونادى بطون قريش بطناً بطناً ، فجعل الواحد منهم إذا لم يجد وقتاً ، أرسل من يعرف له الخير ... وهكذا تواجدت مكة كلها عند الصفا ^(٢) .

وخرج "ﷺ" عند المروة بعد نزول قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(٣)
ثم قال : يا آل فهر ، فحجاءته قريش فقال أبو لهب بن عبد المطلب : هذه فهر عندك

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٦٥ .

(٢) أنظر ص ٤٧٤ .

فقال : يا آل غالب ، فرجع بنو مخارب وبنو الحارث ابنا فهر ، فقال : يا آل
لؤى ابن غالب ، فرجع بنو ثميم الأدرم بن غالب ، فقال : يا آل كعب بن لؤى ،
فرجع بنو عامر بن لؤى ، فقال : يا آل مرة بن كعب ، فرجع بنو عدي بن كعب
وبنو سهم وبنو جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى ، فقال : يا آل كلاب
بن مرة ، فرجع بنو مخزوم بن يقظة بن مرة وبنو تميم بن مرة ، فقال : يا آل قصي ،
فرجع بنو زهرة بن كلاب ، فقال : يا آل عبد مناف ، فرجع بنو عبد الدار بن قصي
بنو أسد بن عبد العزى بن قصي وبنو عبد بن قصي ، فقال رسول الله ﷺ : " إن الله
أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وأنتم الأقربون من قريش ، وإلى لا أملك لكم من
الله حظاً ، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : (لا إله إلا الله) فأشهد بها لكم عند
ربكم ، وتدين لكم العرب وتذل لكم بها العجم ، فقال أبو لهب : تبا لك فلهاذا
دعوتنا ؟ فأنزل الله ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ^(١) .

ووصلت الدعوة إلى كل أهل مكة ... ولذلك عدت هذه الطريقة اتصالاً
جماهيرياً .

وكان " ﷺ " يوجه أصحابه إلى هذه الطريقة ويقول لهم : ليبلغ الشاهد
منكم الغائب .

* * *

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٧٢ .

ثانياً

الدعوة بالحوار والمفاوضة

دعا الرسول ﷺ " بهذه الوسيلة أملاً في إسلام من يفاوضهم ، وحوارهم .
وهذه الوسيلة تختلف عن الاتصال الجمعي في أنها قد تكون تلقائية ، وقد
تكون بإعداد وتوجيه من المدعوين لا من رسول الله ﷺ ، وحينئذ يأتي الرسول
أو الداعية للمفاوضة ، وهو لا يعرف موضوعها ، وكل ما في ذهنه ، وكل ما يأمله
هو عرض الدعوة ، وإيمان الناس بها .
وكان رسول الله ﷺ " يؤمل في المفاوضات ، ويرجو أن تكون سبباً في
إسلام أهل مكة . .

يروى ابن كثيرًا صوراً لهذه المفاوضات ، ومنها أن أشرف مكة اجتمعوا عند
ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه ، وخاصمّوه حتى تعذروا
فيه ، فبعثوا إليه ، فجاءهم رسول الله ﷺ " سريعاً ، وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره
شيئاً ، وكان حريصاً ، يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم .
فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك ، وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب
أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ،
وسفّهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، وما بقي من قبيح إلا وقد
جئته فيما بيننا وبينك ^(١) .

ثم عرضوا أن يحققوا له المال ، أو الملك ، أو الشرف ، أو الزوجة الجميلة ،
إن كان هو ما يعمل له . . فأجابهم ﷺ " : ما بي ما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم
به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم
رسولاً ، وأنزل علي كتاباً ، وأمرني أن آكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربي ،

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٥٠ .

ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصير لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

فقالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بالاداء ، ولا أقل مالا ، ولا أشد عيشاً منا ^(١) ، وحاجتنا شديدة إلى المال ، والماء ، والعطاء ، وأخذوا يطلبون أموراً حسية تأتيهم على وجه حارق للمعادة ..

فمرة يقولون : سل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليسط لنا بلادنا ، وليجر فيها أنهاراً كأهبار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيما يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخاً صدوقاً ، فنسألك عما تقول أحق هو أم باطل ؟ فإن فعلت ما سألتك ، وصدقك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول ^(٢) .

ومرة ثانية يقولون : سل ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لنا جناتاً ، وكنوزاً ، وقصوراً من ذهب ، وفضة ، ويغنيك عما نراك تبتغي ، فإننا نراك تقوم في الأسواق ، وتتمس المعاش ، كما نلتهمس ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم ^(٣) .

ومرة ثالثة يقولون : أسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل .

واستمر أهل مكة في هذه العروض لا يقصدون من ورائها سوى السحرية ، وإضاعة الوقت ، والرسول يقول لهم في كل مرة : ما هذا جئت ، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصير لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ^(٤) .

^(١) البقرة والنهاية ج ٣ ص ٥٠ .

^(٢) البقرة والنهاية ج ٣ ص ٥١ .

^(٣) البقرة والنهاية ج ٣ ص ٥١ .

^(٤) البقرة والنهاية ج ٣ ص ٥١ ، ٥٢ .

ورغم مقصد أهل مكة من هذا الحوار ، إلا أنه يعتمد على أسلوب بياني له فوائد... فهم يعرضون قضيتهم ، ومزاعمهم ، مع شبههم ووجهة نظرهم ، والرسول ﷺ يسمع ، ويرد عليهم في حلم ، ورفق بما يرد طلبهم ، ويحدد لهم ما يدعوههم إليه .

إن وسيلة المفاوضة تتميز بإظهار مراد كل طرف منها ، ونظرة إلى الطرف الثاني ، ومنهج في العرض والرد ... ولذلك اتخذها الرسول ﷺ وسيلة لعرض الإسلام .

ويبدو أن هذه المفاوضات تعددت مع النبي ﷺ ، وقام بها غير واحد من القرشيين ، وكلها تتجه وجهة معينة ، فقريش تبرز ما حل بها بسبب الدعوة ، وتحاول صرف النبي ﷺ عنها بإغرائه بكافة ألوان الإغراء ، مع تهديده ، وتثقيفه . إن لم يتفق معهم ، والنبي ﷺ يرد بالوحي المنزل عليه ، ويقرأ عليهم من القرآن ما يناسب المقام ، ليبين حقيقة الدين الإلهي ، في أنه منزل من الله ، وحقيقة القرآن العربي المبين ، وحقيقة الرسول الداعية ، مع إنذارهم بالويل ، والتبوء إن لم يؤمنوا بالإسلام ، وتذكيرهم بما حل بمن سبقهم ، وهم على علم به .

لقد قام الرسول ﷺ خلال هذه اللقاءات بالدعوة إلى دينه ، حيث كان يسمع لمقالة القوم ، وشبههم ، ومزاعمهم ، ثم يكر بالنقض والرد .

إنه رسول يحمل رسالة ، وكتاب ربه معه يهدي به من ضلال ، وينقذه من خيال ، وإذا كان الله يطلب من عباده أن يستقيموا ، ويستغفروا فمحمد الرسول عبد بشر ، وهو أول من يستقيم لربه ، ويستغفر ، إنه لا يحتاج لمال ، ولا ملك ، ولا لجاء ، فقد استبان له الطريق ، ووضحت أمامه معالم الهدى ، وتيقن من كل ما نزل عليه .

إنه ﷺ متمسك برسائله ، ومستمر في الدعوة لها بالحسنى ، واللين ، والحجة ، والبرهان ، والبصيرة ، والوضوح .

وهكذا كانت المفاوضات وسيلة للدعوة إلى الله تعالى ، يقول الإمام ابن كثير : (اعترض المشركون على رسول الله وتعتوا في أسئلتهم له ، حيث طلبوا أنواعاً من الآيات ، وخوارق العادات على وجه العناد ، لا على وجه الطلب والإرشاد ، وكان الرسول يسمع منهم ، ويرد عليهم ، بالرفق واللين ، ويبين لهم خطأ جدهم وعتيهم)^(١)

ثالثاً

الدعوة بالانتقال إلى القبائل ودعوتهم

وكان رسول الله يذهب إلى قبائل العرب ، وبطونهم ، يدعوهم إلى الله بالحكمة واللين ، وكان يتنزه المواسم ، والأسواق ، ويذهب إلى القبائل في اجتماعهم ويدعوهم ، يقول الزهري : كان رسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض دعوته على قبائل العرب في كل موسم ، ويكلم شريف كل قوم ، لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤووه ويسمعوا له ويقول : (لا أكره أحداً منكم على شيء ، من رضى بالذي أدعوكم إليه فذلك ، ومن كرهه لم أكرهه .. فلم يقبل أحد منهم ، وما بات أحد من تلك القبائل إلا قال : قوم الرجل أعرف به ، أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ، ولفظوه)^(٢) .

وقد ذكر الواقدي البطون والأفراد الذين ذهب إليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام ، وعددهم واحداً واحداً ، موضحاً مواقفهم .

وأهم هذه الانتقالات من أجل الدعوة ذهاب النبي ﷺ إلى الطائف لدعوة بني ثقيف إلى الإسلام حيث عرض عليهم أن يأوي إليهم ويكون معهم إذا أسلموا ، لكنهم ردوه رداً قبيحاً ، وسلطوا عليه سفهاءهم وأطفالهم ، فرموه بالحجارة ، وطردوه من ديارهم وحيداً لا يجد لنفسه نصيراً من الناس ، ولا مأوى في ديارهم^(٣)

^(١) انظر : البداية والنهاية ج ٣ ص ٤٩ - ٥٣ .

^(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ١٤٠ .

^(٣) انظر ص ٣٦٢ .

فأجبه إلى الله قائلاً : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس .. أنت أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ! أم إلى عدو ملكته أمري ؟ !

إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي ! أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل علي غضبك ، أو أن يزل بى سخطك ، لك العتي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك)^(١) .

وكان نصر الله مع رسول في هذه الشدة فاستجاب له الدعاء ، فأمن به " عداس " ، ولما اتجه إلى مكة أجاره " المطعم بن عدي " ، فدخل مكة في حوارته^(٢) . إن الانتقال بالفكرة برهان على أهميتها ، واهتمام صاحبها بها ، وهذا في حد ذاته يدفع العقلاء إلى الاستماع ، والمعرفة ، والفهم .

وهكذا استعمل رسول الله ﷺ " وسيلة الانتقال من أجل الدعوة وتبليغ الرسالة لما لها من أهمية في مباشرة التوجيه ، ومعرفة موقف المدعوين ، والرد على تساؤلاتهم واستفساراتهم ، وكان النبي لا يفرق بين قوم وقوم ، ولا بين مكان ومكان ، بل كان يتجه كلما أمكنه ذلك ... ولعل ذهابه إلى الطائف سيراً على قدمه ذهاباً ورجوعاً ، دليل على ذلك ، وعلى مدى ما تحمله الرسول للدعوة بهذه الوسيلة .

رابعاً

الدعوة بمقابلة الوفود

استقبال الوفود ، لاحاطتهم بالأمور التي وفدوا من أجلها ، أسلوب انتشر بعد صلح الحديبية لكثرة الوافدين ، حتى ظن كثير من الناس أن هذه الوسيلة لم تظهر قبل صلح الحديبية .

(١) الكامل ج ١ ص ٣٤٥ .

(٢) أنظر ص ٣٧٦ ، ٣٧٨ .

لكن ذلك ليس صحيحاً، فلقد ظهرت هذه الوسيلة قبل الهجرة ..
وأهمية هذه الوسيلة تبرز في أنها تبلغ قوماً جاءوا يبحثون عن الحقيقة ،
ولديهم رغبة في الاستماع إليها، كما أن هؤلاء الوافدين لا يتقفون فيما لديهم من
مذهب، أو حبر ، ويريدون أن يسمعون الحقيقة من مصدرها ، وبخاصة أن أهل مكة ،
وأعداء الدعوة أخذوا في ترويح الإشاعات، ونشر الأكاذيب حول محمد ودعوته . .
ولذا جاءت الوفود للرسول نفسه بعيداً عن قالة السوء ، ومروجي الإشاعات ،
ونقل الأخبار الكاذبة .

ومضى الوفد دليل على رجحان عقل أصحابه ومن وراءهم ، فهم من أجل
الوصول للحق والصواب جاءوا متحمسين للمشاق ، باذلين من وقتهم وجهدهم
ومالهم الكثير في سبيله .

إن الغالبية العظمى للوفود التي وفدت على رسول الله " ﷺ " ، في مكة أو في
المدينة ، كانت خيراً لأصحابها، إذ دخلوا في الإسلام بعد أن عرفوه، وعلموا حقيقته .
وأول وفد جاء للنبي " ﷺ " وهو في مكة، وفد نصارى الحبشة حيث قدم على
رسول الله " ﷺ " عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك فكلّموه ، وسألوه، وتحدثوا معه
(ورجال من قريش يرقبوكم)، لما فرغوا من أسئلتهم، واستفسارهم، استمعوا لرسول
الله يحدثهم فيما أرادوا، ويدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، حتى فاضت أعينهم
من الدمع، وأمنوا، وصدقوا، ودخلوا في دين الله تعالى، فلما قاموا من عنده " ﷺ "، اعترضهم
أبو جهل ونفر من قريش، وقالوا لهم : خبيكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من
أهل دينكم، ترتادون لهم، فتأتوهم بخبر الرجل، فلم تظمن مجالسكم عنده حتى فارقتم
دينكم، وصدقتموه فيما قال لكم، ما نعلم ركباً أحق منكم .

فردوا عليهم: لا نجاهلكم، سلام عليكم، لنا أعمالنا، ولكم أعمالكم، لاناألوا أنفسنا
حيراً (١) .

ومن أشهر الوفود التي قدمت إلى مكة وفد الأوس والخزرج الذين جاءوا إلى رسول الله وقابلوه عدداً من المرات وبايعوه بيعتين عند شعب العقبة ، تعرفان ببيعة العقبة الصغرى ، وبيعة العقبة الكبرى ، حيث اتفق النبي ﷺ في البيعة الثانية على أن يهاجر المسلمون إلى المدينة ، على أن يمنعه أهلها بما يمنعون به نساءهم ، وأبناءهم ، وأموالهم ، واختار منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس يكونون على قومهم بما بايعوا عليه ^(١) .

وبعد وفد الأنصار هذا من أكثر الوفود تأثيراً في مسار حركة الدعوة ، فقد نشأت قوة الإسلام في المدينة ، وكانت الهجرة ، وكانت الدولة الإسلامية .
إن استقبال الباحث عن الحقيقة يحتاج لداعية كفء يفهم قضيته ، ويعرف طرق عرضها الحسن ، ويجيد التعامل مع الوافد ذي الثقافة المعينة ، والبيئة الخاصة ، والتقاليد المتنوعة .

ولقد كان رسول الله ﷺ "ممعونة الله له يتعامل مع الوفود بطريقة حكيمة حسنة تؤدي إلى النتائج التي يرجوها المخلصون ، والبحث عن الحقيقة موجود دائماً ، وتصورات العقول يشوبها الشك كثيراً وهي تريد الوصول لليقين ، والمشكلة تكمن في وجود أشخاص يتعاملون مع الواقع ، ويطوعون القضايا ، ويوجهونها نحو الصواب ، ويجيدون فهم الدعوة ، وحسن عرضها على الأفهام .

ولقد كان ﷺ "تموجاً عالياً في الاستفادة بهذه الوسيلة ، لأن القبائل كانت تتخير أعلم أبناءها ، وأعقلهم ، ويحددون له الهدف المقصود ، وكان الرسول ﷺ "يقابلهم وهو يرجوهم للإيمان .

لا بد من معرفة دوافع الوفد للحضور ، وكشف خصائص أفراده ، ومعرفة من وراءه ، ولذلك فالاستماع لأفراده ابتداء ضرورة لا بد منها ، وكان ﷺ " يستمع للوفد ويجيب على تساؤلات أعضائه ، ويكرم وفادتهم ويقدم لهم النصيح

(١) انظر تفصيلات وفود الأنصار من ص ١٤٩ إلى ص ١٧٠ .

ويدعواهم بالحسنى والهدوء ، ولذلك كان أعضاء الوفود يتأثرون بكرم الخلق ،
ويندهشون لجلاء الحق ، ويؤمنون بدين الله رب العالمين .

* * *

خامسا

الدعوة بإرسال الرسائل والدعاة

من الوسائل التي دعا بها رسول الله ﷺ " في مرحلة ما قبل الهجرة إرسال
الدعاة ، والرسائل ، وبخاصة إلى الأماكن البعيدة .

ومن الرسائل ما كتبه النبي ﷺ " وأرسله إلى النجاشي وحمله عمرو بن أمية
الضمري وجاء فيه : (من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ،
سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الملك ، القدوس ، المؤمن ، المهيمن ، وأشهد أن
عيسى روح الله ، وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة ، الطيبة ، الحصينة ،
فحملت بعيسى ﷺ " فخلقته من روحه ، ونفخته ، كما خلق آدم بيده ،
ونفخته ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاتة على طاعته ، وأن
تبعني ، فتؤمن بي ، والذي جاءني ، فإني رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمي
جعفرا ، ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءوك فأقرهم ، ودع التجبر فإني أدعوك ،
وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام
على من اتبع الهدى) ^(١) .

وقد أسلم النجاشي الأصحم ، وأرسل إلى النبي ﷺ يخبره بذلك ، ويعرفه أنه
لا يملك إلا نفسه ، وهو النجاشي الذي أكرم وفادة المسلمين إليه ، وصلى عليه
رسول الله ﷺ " حينما علم بوفاته .

^(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٣ ، وفي المرجع تفصيلات واسعة عن أعمال مصعب في المدينة .

وكما أرسل النبي ﷺ " رسائله خلال هذه المرحلة بعث بعض الدعوة متميزين بالخصائص التي تؤهلهم للدعوة ، ومن هؤلاء " مصعب بن عمير " فلقد أرسله النبي ﷺ " إلى المدينة عقب بيعة العقبة الأولى ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين .. فنزل مصعب على (أسعد بن زرارة) فكان يصلي عن أسلم ، ويدعو إلى الله تعالى ، وسمي " ﷺ " في المدينة بالقارئ والمقرئ .

وبسبب مصعب دخل الإسلام كل بيوت المدينة ، وعلى يديه أسلم زعيم الأوس والخزرج ، وخيرة رجال الأنصار .

ولما هاجر المسلمون إلى الحبشة المحجرة الثانية كان معهم جعفر بن أبي طالب أميراً مقدماً عليهم ، ومتحدثاً نيابة عنهم ، وقد قام جعفر بدوره كداعية مسلم يفهم دينه ، ويوضحه بالحسني والحكمة ، ذلك أن قريشاً أرسلت وفداً من قبلها إلى النجاشي ليعيد المهاجرين إلى ديارهم .

حاول أعضاء وفد قريش إحداث وقعة بين النجاشي وبين المسلمين المهاجرين إلى الحبشة إلا أنها قوبلت بحكمة جعفر الداعية.

يروى ابن إسحاق بروايته عن أبي موسى قال : أمرنا رسول الله ﷺ " أن نطلق مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض النجاشي ، فبلغ ذلك قريشاً فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ، وجمعوا للنجاشي هدية ، وقدموا على النجاشي ، فأتياه بالهدية فقبلها ، وسجدا له ، ثم قال عمرو بن العاص : إن ناساً من أرضنا رغبوا عن ديننا ، وهم في أرضك .

قال النجاشي : في أرضي ؟ ! .

قالا : نعم ..

فبعث النجاشي إلينا ، فقال لنا جعفر : لا يتكلم منكم أحد ، أنا خطيبكم اليوم ، فأنتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه ، وعمرو عن يمينه ، وعمارة عن يساره ، والقسيسون جلوس سماطين ، وقد قال له عمرو وعمارة : إنهم لا يسجدون لك .

فلما انتهينا بدأنا من عنده من الرهبان قائلين : اسجدوا للملك ،

فقال جعفر : إنا لا نسجد إلا لله عز وجل .

فلما انتهينا إلى النجاشي قال : ما منعك أن تسجد ؟ !

قال جعفر : لا نسجد إلا لله .

فقال له النجاشي : وما ذاك ؟

قال جعفر : (إن الله بعث فينا رسولاً ، وهو الذي بشر به عيسى بن مريم " السليمان " من

بعده اسمه أحمد ، فأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، ونقيم الصلاة ، ونؤتي

الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر) .

فأعجب النجاشي بقول جعفر .

فقال عمرو بن العاص : أصلح الله الملك إنهم يخالفونك في عيسى بن مريم !

فقال النجاشي لجعفر : ما يقول صاحبكم في ابن مريم ؟

قال جعفر : يقول بقول الله فيه : (هو روح الله وكلمته أخرجته من العذراء البتول

التي لم يقرها بشر ، ولم يفرضها ولد) .

فتناول النجاشي عوداً من الأرض ورفعها وقال : يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيد

هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ولا وزن هذه .. مرحباً بكم ومن جثتم من عنده

فأنا أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذي بشر به عيسى ، أمكنوا في أرضي ما شئتم ، ثم

رد هدية قريش ^(١) .

وتعد الهجرة إلى الحبشة عملاً إسلامياً رائداً ، يدخل في إطار التبليغ العام

للدعوة ، لأن الإسلام بهذه الهجرة وصل إلى خارج الجزيرة العربية ، وبدأ انتشاره

عملياً في العالم .

ويخطئ من يتصور الهجرة إلى الحبشة فراراً من الأذى ، لأنها كانت في الأصل

هجرة للدعوة إلى الله تعالى ، وفي نفس الوقت راحة من عدوان قريش .

^(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٧٠ .

يدل على أنها كانت هجرة للدعوة إلى الله في الأساس أن أغلب الذين هاجروا كانوا من ذوي القوة والمنعة في مكة، ولهم من عصبتهم من يدافعون عنهم وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب ، وله من أبيه وقومه قوة ومنعة وفي نفس الوقت بقي الموالي ، والمستضعفون ولم يهاجروا ، وبقيوا في مكة صابرين ، محتسبين .
وأيضاً فلقد هاجر نسوة من أشرف مكة ، والنسوة لا يتعرضن للأذى كما هو عرف العرب في الجاهلية ..

ويلاحظ أن هذه الهجرة ضمت رجالاً من اليمن كذلك .

وهؤلاء لا صلة لهم بما يجري في مكة لأنهم ليسوا منها، وعلى رأس هؤلاء اليمنيين أبو موسى الأشعري ، الذي هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين إليها .
ولو كانت الهجرة إلى الحبشة هروباً ، وفراراً فقط ما حاول أهل مكة أن يستعيدوا هؤلاء المهاجرين الفارين ، لأنهم بفرارهم قد تخلصوا منهم ، ولو كانت الهجرة فراراً وخوفاً لعاد المهاجرون عقب الهجرة إلى المدينة مباشرة بعد زوال سبب الخوف، ولكنهم لم يرجعوا إلى المدينة إلا في العام السابع بعد الهجرة .
إن الهجرة إلى الحبشة كانت دعوة ناجحة ، وكان أفرادها خير ممثلين للإسلام ، وخير دعاة إليه ، ولذلك حملوا رسالة النبي ﷺ إلى النجاشي ، وسلموها إليه بمجرد وصولهم إلى بلاده .

وهكذا كان دعاة الإسلام الذين أرسلهم رسول الله وهو في مكة إلى المدينة وإلى الحبشة ، كانوا قوة في الحق ، وصبراً على البلاء ، وحكمة في الدعوة ، وأفقاً واسعاً، ودقة عالية في فهم الموقف، والتعامل معه بما يفيد الدعوة ، ويؤدي إلى الإيمان ..
لم يعرف مصعب "رضي الله عنه" الانفعال في مواجهة التعنت والإيذاء ، وإنما كان رقة في السلوك ، وسمواً في الأخلاق ، وصبراً جميلاً في عرض قضيته على الناس .

ولم يفقد جعفر "رضي الله عنه" رباطة جأشه حينما رأى وفد قريش يجلسون مع النجاشي ، ويوجهون له الأسئلة في شدة واستفزاز ، وإنما كان متخلياً بخلق الإسلام ،

يرد بما علمه الله ، ويجيب وفق ما سمع من رسول الله ، واثقاً في علو الحق وانتصاره ، وقد كان له ما تمنى .

إن الدعوة في المجتمعات غير الإسلامية تحتاج إلى مثل هذه النماذج الرائدة من الدعاة المخلصين .

تلك هي أهم الوسائل التي دعا بها النبي ﷺ " خلال مرحلة الجهر بالدعوة في مكة ، ويلاحظ أن وسائل المرحلة السرية لم تحمل وإنما كانت وسائل مستمرة لمواقف تحتاجها ، وهكذا سائر الوسائل تكون مع حركة الدعوة على طول الزمن .

سادساً .

الدعوة بالعمل والتطبيق

حافظ الرسول ﷺ " على تطبيق ما يدعو إليه ، والالتزام به على وجه دقيق وبذلك قدم دعوته للناس بمنهج عملي .

ولذا كان من أوائل الذين عذبوا وأذوا ، وحين دعا المؤمنين إلى الصبر والتحمل كان من أوائل الصابرين ، وبقي ﷺ " مع قومه محاصراً في الشعب حتى أتاهم الفرج وحين عرض عليه قومه الملك ، والمال ، والجاه ، رفض عرضهم ، وبين لهم أنه رسول الله إليهم ، وإلى الناس كافة ، يحمل لهم دين الله تعالى ^(١) .

واستمر يقيم في مكة مع كفارها في الوقت الذي وجه أصحابه " رضوان الله عليهم " بالهجرة إلى الحبشة حيث الأمن والهدوء .

لقد كان رسول الله ﷺ " مثالاً عملياً في التأسى ، والقُدوة ولذلك جعله الله تعالى مناط الأسوة والاتباع ، يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة الأحزاب آية (٢١) .

(٢) أنظر ص ٣٤٢ وما بعدها .

إن حياة الرسول العملية كانت دعوة حكيمة ناجحة، لأن النفوس تتأثر بالأعمال أكثر من تأثيرها بالأقوال، لأن دلالة العمل على الصدق أوضح من دلالة القول المجرد فلربما كان القول لكسب شخصي، أو لغاية قاصرة، أما عمل الرسول والدعاة فهو دليل على إيمانهم اليقيني بما يدعون إليه، وينادون به.

• سابعاً •

الاستفادة من عادات المجتمع الجاهلي

أقام المجتمع القرشي قبل الإسلام عادة جاهلية، وحافظ عليها، وهي عادة الحماية والجوار، ومعناها أن الضعيف إذا لجأ لقوى أجاره، وأعلن حمايته، وحيشه لا يجزئ أحد على التعدي عليه، وإن لا قامت الحرب. ولذلك كان الحير قوى الشكيمة، عزيزاً في قومه، متمكناً من حماية من يجير. وهذه العادة لا صلة لها بفكر المستحير، أو ثقافته، ولذلك استفاد منها رسول الله ﷺ وهو يتحرك بالدعوة في مكة.

وقد عاش الرسول ﷺ في حماية عمه أبي طالب، يقول ابن إسحاق: (وحذب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله ﷺ على أمر ال، له مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء، فلما رأت قريش أن رسول الله لا يعتبرهم من شيء أنكروه عليه، من فراقهم وعيب أهنتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حذب عليه، وقام دونه فلم يسلمه لهم)^(١). وقد حاول كفار مكة عدة مرات صرف أبي طالب عن حماية محمد فلم يتمكنوا، وكان لحماية أبي طالب أثر فعال في خدمة الدعوة حيث بقي رسول الله يدعو إلى دين الله تعالى وهو يقيم في مكة.

ومن صور الحماية والجوار التي استفاد بها المسلمون ما روته السيدة عائشة " رضي الله عنها "، قالت: (لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار، بكرة وعشية، فلما ابتلى المسلمون خرج

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٨٤.

أبو بكر مهاجراً إلى أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد
الفارة فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟

فقال أبو بكر : أخرجني قومي ، فأنا أريد أن أسيح في الأرض ، فأعبد ربي .
فقال ابن الدغنة : إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ، فإنك تكسب المعدوم ،
وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد
ربك ببلدك .

فرجع أبو بكر ، وارتحل معه ابن الدغنة ، قطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش
فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أخرجون رجلاً يكسب المعدوم
ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟
فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة : فأمر أبا بكر ، فليعبد ربه في
داره ، فليصل فيها ، وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلن ، فإننا نخشى أن
يفتن نساءنا وأبنائنا .

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر .

فطلق أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره ،
وبرز فكان يصلي فيه ، ويقرأ القرآن ، فتتصّف عليه نساء المشركين ، وأبنائهم
يعجبون منه ، وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً ، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن
، فأفرع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم
فقالوا : إنا كنا أجرين أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، وقد جاوز ذلك ،
وابتنى مسجداً بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقرآن فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن
أبنائنا ونساءنا ، فاهمه ، فإن أحب على أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ،
وإن أبي إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإننا قد كرهنا أن نخفر ذمتك ،
ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان .

قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر، فقال : قد علمت الذى عاقدت لك عليه
فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلى ذمتى ، فإنى لا أحب أن تسمع العرب
أنى خفرت فى رجل عقدت له .

فقال أبو بكر : فإنى أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله (١) .

ومن صور الإجارة ما سبق ذكره حين عودة النبى " ﷺ " من الطائف فلقد
دخل مكة فى جوار المطعم بن عدى على نحو ما سبق ذكره (٢) .

ومن المعلوم أن الاستفادة بالواقع الاجتماعى فى نجاح الدعوة أمر مباح ما دام
لا يمس جوهر الدعوة بصورة ما .. أما إذا أدى إلى أى مساس ضار بالدعوة فإنه لا
يجوز ، ولذلك صاح الرسول " ﷺ " فى وجه عمه باكياً حينما طلب منه أن يبقى
الدعوة على نفسه ، قال له : يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى
يسارى على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه (٣) .

وكما فعل أبو بكر " ﷺ " فإنه رد جوار ابن الدغنة حين وجده قيداً عليه فى
الدعوة ، واكتفى بحماية الله له .

المسألة الثانية

أساليب الدعوة

من خلال البلاغة القرآنية

تنتقل الأفكار ، والمعلومات من طرف إلى آخر بواسطة ألفاظ ، وجمل ،
تملك قوة التأثير ، والإقناع ، وتحقق الغاية من إطلاقها منطوقة أو مكتوبة ، أو مصورة .
وبالبلغة يفنونها المختلفة هى المورد الفياض الذى يقدم للدعوة أسلوبها المؤثر
ومقولتها السديدة .

(١) صحيح البخارى — باب الكفالة — باب جوار أبى بكر — ج ٤ ص ١٣٠ — ط ، الأوقاف .

(٢) انظر ص ٣٧٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٦٥ .

والقرآن الكريم هو الذروة الأعلى في البلاغة العربية ، وهو الأسلوب الذي اتبعه النبي ﷺ في عرض دعوته ، وتبليغ دين الله تعالى ، ولذلك حين نبهت في أساليب الدعوة في عصر الرسالة نجد أنفسنا تلقائياً أمام القرآن الكريم نستنطقه فيطلعنا على أسلوب رسول الله في الدعوة ، ونستهديه فيهدينا .

ومن هنا ندرك أن القرآن الكريم هو دستور الدعوة موضوعاً ، ووسيلة ، وأسلوباً ، وغاية ..

والقرآن الكريم يقدم الفصاحة العالية البليغة ، في أسلوبه ، ونسقه ، وبصور المعنى المقصود تصويراً حركياً ، حيث يجسد المعنى ، ويقدمه مشخصاً ، ظاهراً ، حيث نجده يفضل الكلمة المصورة للمعنى أكمل تصويراً ، ليشعرك به أتم شعور وأقواه ، ونجد لذلك أمثلة : —

كلمة " يسكن " في قوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾^(١) لما في السكون من الهدوء ، والثبات كأنما على الأرض .

وكلمة " تسوروا " في قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضِصِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾^(٢) لدلالة الكلمة على المفاجأة ، والمخالفة ، والاستعلاء .

وكلمة " يطوقون " في الآية الكريمة : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾^(٣) لأن الطوق يعم ويشمل ما بداخله في إحكام .

وكلمة " يسفك " في آية : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾^(٤) ، لأن السفك

^(١) سورة الشورى آية (٣٣) .^(٢) سورة ص آية (٢١) .^(٣) سورة آل عمران آية (١٨٠) .^(٤) سورة البقرة آية (٣٠) .

يشير إلى كثرة إسالة الدم والعدوان .

وكلمة " انفجر " في قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا

أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ ﴿١١﴾ ، لما فيها من المفاجأة

والانطلاق ، والكثرة ، والدهشة .

وكلمة " يخرون " في الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ

عَلَيْهِمْ سَجُّدُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٢﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا

لَمَفْعُولًا ﴿١٣﴾ ۖ ، لدلالة يخرون على الاقتناع ، والخضوع ، وقوة الإيمان .

ومن بلاغة القرآن الكريم وتعمقه في التصوير الحركي ، نراه يعبر عن المعنى

المعقول بالألفاظ تدل على محسوسات ، تبين أثر ما يوحيه هذا النوع من الألفاظ في

النفس ، ذلك أن تصوير الأمر المعنوي في صورة الشيء المحسوس يزيده تمكناً من النفس

، وتأثيراً في الوجدان ، ويكفي أن نقرأ قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ

سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ ﴿١٤﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ آخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ

وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ۖ ﴿١٥﴾ لترى قدرة كلمة ختم ، في تصوير

امتناع دخول الحق قلوب هؤلاء الناس ، وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ

الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم

مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۖ ﴿١٦﴾ لترى قيمة كلمتي الظلمات والنور ، في إثارة العاطفة

وتصوير الحق والباطل ، وتلمس من كلمة " يخرجوهم " ففيها دلالة على تصوير

(١١) سورة البقرة آية (٩٠) .

(١٢) سورة الإسراء الآيات (١٠٧ — ١٠٨) .

(١٣) سورة البقرة آية (٧) .

(١٤) سورة البقرة آية (٢٥٧) .

(١٥) سورة الخالية آية (٢٢) .

الإخراج بصورة حسية مع أنه من المعنويات التي يدركها العقل المجرد .

وقوله تعالى : ﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمٌّ فُهُمٌ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ^(١) : لثرى قيمة هذه

الصفات التي تكاد تخرجهم عن دائرة البشر إلى عالم لا يسمع ، ولا يتكلم ولا يرى بسبب عتوهم وكفرهم .

وقوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا

أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ ﴾ ^(٢) .. فكلمات ينقضون ويقطعون ويوصل ، تصور الأمور

المعنوية في صور المحس الملموس ، وفي القرآن من أمثال ذلك عدد ضخم .

وقد يأتي القرآن الكريم بكلمتين فيهما سر الإيحاء ومصدره ، كالجمع بين

الناس والحجارة ، في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي

وُقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ^(٣) فهذا الجمع يوحي إلى النفس

بالمشاكلة بينهما ، والتشابه

وقد تكون العبارة بحملتها هي الموحية كما تجد ذلك في قوله تعالى :

﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ ^(٤) أولاً تجد هذه الثياب من النار ،

موحية لك بما يقاسيه هؤلاء القوم من عذاب أليم ، فقد خلقت الثياب لتقي بها

اللابس الحر والقر ، فماذا يكون الحال إذا قدت الثياب من النيران .

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ هُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظِلٌّ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظِلٌّ ذَلِكَ

تُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَتَّبِعُونَ ﴾ ^(٥) فإن الظلة إنما تكون ليتقى بها وهج الشمس

فكيف إذا كانت الظلة نفسها من النيران .

^(١) سورة البقرة آية (٢٧) .

^(٢) سورة النحل آية (١٩) .

^(٣) سورة البقرة آية (١٨) .

^(٤) سورة البقرة آية (٢٤) .

^(٥) سورة الزمر آية (١٦) .

يقول السيوطي في الإتقان : المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض ، وكذلك كل واحد من جزأى الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر ، ولا بد من استحضار معاني الحمل ، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ثم استعمال أنسبها وأفصحها ، واستحضار هذا متعذر على البشر، في أكثر الأحوال ، وذلك ميسر حاصل في علم الله، فلذلك كان القرآن الكريم أحسن الحديث وأفصحه ، وإن كان مشتملاً على الفصيح والأفصح، والمليح والأملح، ولذلك أمثله منها قوله تعالى : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ ^(١) ، من جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يجنى فيها ، ومن جهة مؤانحة الفواصل .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أحسن من التعبير بتقرأ لثقله بالهمزة .

ومنها : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أحسن من (لا شك فيه) لثقل الإدغام ، ولهذا كثر ذكر الريب .

ومنها ﴿ وَلَا تَهْنُوا ﴾ أحسن من (ولا تضعفوا) لخفته .

ومنها ﴿ وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ ، أحسن من (ضعف) لأن الفتحة أخف من الضمة .

ومنها " أمن " أخف من " صدق " ، ولذا كان ذكر الإيمان أكثر من ذكر التصديق .

ومنها ﴿ ءَاثَرَكَ اللَّهُ ﴾ أخف من (فضلك) .

ومنها (آتى الدهر) أخف من (أعطى) .

ومنها (أنذر) أخف من (خوف) .

ومنها ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أخف من (أفضل لكم) والمصدر في نحو ﴿ هَذَا خَلْقٌ

اللَّهِ ﴾ ، ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ أخف من (مخلوق) و (الغائب) و (نكح) أخف

من (تزوج) ، لأن فعل أخف من تفعل ، ولهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر .

ولأجل التخفيف والاختصار استعمل لفظ الرحمة ، الغضب ، والرضا ،

والحب ، والمقت ، في أوصاف الله تعالى مع أنه لا يوصف بها حقيقة ، لأنه لو عبر

عن ذلك بالفاظ الحقيقة لطال الكلام ، كأن يقال : يعامله معاملة المحب ، والمقت ،

فإنه في مثل هذا أفضل من الحقيقة ، لخفته ، واختصاره ، وابتناؤه على التشبيه البليغ

فإن قوله ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أحسن من (فلما عاملونا معاملة

المغضب) أو (فلما آتوا إلينا بما يأتيه المغضب) أ . هـ ^(١) .

ولم يزد مرور الزمن بالفاظ القرآن إلا حفظاً لإشراقها ، وسياجاً لجلالها ، لم

هن لفظة ، ولم تتخل عن نصيبها ، في مكانها من الحسن ، وقد يقال : إن كلمة

الغائط من قوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ

الْغَايِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ ^(٢) قد أصابها

الزمن ، فجعلها مما تنفر النفس من استعمالها ، ولكننا إذا تأملنا الموقف ، وأنه موقف

تشريع وترتيب أحكام ، وجدنا ، أن القرآن عبر أكرم تعبير عن المعنى ، وصاغه في

كناية بارعة ، فمعنى الغائط في اللغة المكان المنخفض ، وكان يحضون إليه في تلك

الحالة ، فتأمل أي كناية تستطيع استخدامها مكان هذه الكناية القرآنية البارعة ، وإن

شئت أن تبين ذلك فضع مكانها كلمة تبرزتم ، أو تبولتم ، لترى ما يثور في النفس

من صور ترسعها هاتان الكلمتان ، ومن ذلك كله ترى كيف كان موقع هذه الكناية

^(١) الإنفاق ج ٢ ص ١٢٥ .

^(٢) سورة المائدة آية (٦) .

يوم نزل القرآن ، وأنها لا تزال إلى يوم الناس هذا أسمى ما يمكن أن يستخدم ، في هذا الموضوع التشريعي الصريح .

وتأتى الفاصلة في القرآن مستقرة في قرارها ، مطمئنة في موضعها ، غير نافرة ولا قلقة ، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها ، تعلقاً تاماً ، بحيث لو طرحت لاحتل المعنى واضطرب الفهم ، فهي تؤدي في مكانها جزءاً من معنى الآية ، ينقص ويحتل بنقصائها .

وقد يشدد تمكن الفاصلة في مكانها ، حتى لتوحي الآيات بها ، قبل نطقها ، كما روى عن زيد بن ثابت أنه قال : أُملى على رسول الله ﷺ " هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ ١ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ ٢ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ ٣ وهنا قال معاذ بن جبل : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ٤ ، فضحك رسول الله ﷺ ، فقال له معاذ : مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : بها ختمت (١) .

وحتى ليأبى قبولها ، والاطمئنان إليها ، من له ذوق سليم ، إذا غيرت وأبدل بها سواها ، كما حكى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ : ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ ، ولم يكن يقرأ القرآن وختم بأن الله غفور رحيم ، فقال الأعرابي : إن كان هذا كلام الله فلا ، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه (٢) ، والآية إنما ختمت بقوله تعالى : ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وخذ الآيات التي تنتهى بوصفه تعالى بالعلم ، أو بالقدرة ، أو بالحلم ، أو

(١) الإِشْقَان — ج ١ ص ١٠٤ .

(٢) المرجع السابق — ج ١ ص ١٠١ .

بالغفران ، نجد المناسبة في ذلك الختم واضحة جلية ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ
وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(١) فهو يعلم بما
يجرى في المشرق والمغرب ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ
وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ^(٢) السميع لنحوانا ،
والعليم بما نضمه أفئدتنا من الإخلاص لك ، وقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ
أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى
الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٣) فمن بدله بعد ما سمعه فإنها إثمه على الذين يبدلونه ^(٤) إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(٥) ، فهو سميع بما تم من وصية ، وعليم بمن يبدلها ، وقوله تعالى :
﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٦) فالجئ بالساعة في مثل لمح البصر أو أقرب
يستدعي القدرة الفائقة ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى
وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٧) فإحياء الموتى يحتاج كذلك إلى قدرة خارقة ،
وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٨)
فمالك السموات والأرض — لا ريب — يقدر على كل شيء .

^(١) سورة البقرة الآية (١١٥) .

^(٢) سورة البقرة الآية (١٢٧) .

^(٣) سورة البقرة الآيات (١٨٠ — ١٨١) .

^(٤) سورة النحل الآية (٧٧) .

^(٥) سورة الحج الآية (٦) .

^(٦) سورة آل عمران الآية (١٨٩) .

وقد تجتمع فواصل متنوعة ، في إطار غاية واحدة ، لحكمة يريد بها الله تعالى

من هذا التنوع في هذا التنوع ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ

وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ

مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي

الْأَرْضِ خُتِلَفَا أَلْوَانُهُ^٤ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾ فَإِنْ

الموضوع عرض لإثبات أدلة وجود الله ، وقدرته ، ووحدانيته ، ومع ذلك تنوعت

الفواضل ، حيث ختمت آية يتفكرون ، لما أن الاستدلال بإنبات الزرع ، والثمار ،

على وجود الله وقدرته ، يُحتاج إلى فضل تأمل ، يَرشد إلى أن حدوث هذه النوع

يحتاج إلى إله قادر ، يُحدثه ، فتناسب ذلك ختم الآية بما ختمت به ، وانتهت الثانية

يُعْقِلُونَ ، لما أن تسخير الليل والنهار لخدمة الإنسان ، ليرتاح ليلاً ، ويعمل نهاراً ،

وتسخير الشمس ، والقمر ، والنجوم ، فتشرق وتغرب في دقة ونظام تامين ، ليجتاح

إلى عقل يهdy إلى أن ذلك لابد أن يكون بيد خالق مدبر ، فختمت الآية يعقلون ،

وختمت الآية الأخيرة بـ "يذكرون" ، لأن الموقف فيها يستدعي تذكّر ألوان مختلفة بثها

الله في الأرض ، للموازنة بين أنواعها ، بل الموازنة بين أصناف نوع منها ، فلا يلهيهم

صنف عن سواء ، ولا يشغلهم نوع عن غيره ، وهذه الموازنة تقضى إلى الإيمان بقدره

الله ، خالق هذه الأنواع المختلفة المتباينة .

هذا ..

وقد أبرز القرآن الكريم مع فصاحة الكلمة ، وبلاغة الآيات ، ودقة الفواصل وروعة التعبير صوراً تعد قمة في الفصاحة والبلاغة ، وتجعل القارئ أو المستمع أمام صورة حسية بارزة ، تصورها الكلمات ، وتقدمها للعقل في هيئة جميلة ، مقبولة ، بعيدة عن التجريد العقلي الخالي من الإثارة ، والتوضيح .

إن الأسلوب التصويري يختلف عن الأسلوب التجريدي في أن التجريد يضع المعنى في صورة معنوية تحتاج لإدراكها إلى عقل واع ، وفهم عالم ، أما التصوير الحسي فإنها تقدم المعنى في صورة متحركة تلتقي مع الحس ، وتثير الوجدان ، وتوجد في النفس انفعالاً يدفعها إلى معايشة الحدث ، ومتابعته ، والتأثر به .

ومن أهم ما قدمه القرآن الكريم في مجال الأسلوب التصويري ما يلي : —

١ . التصوير بالألفاظ والتعبيرات

ألفاظ القرآن الكريم كلها مختارة ومقدرة لتحتل مكانها في الجملة بحيث لا يغني عنها سواها ، ولتنهض بدورها في تأدية المعنى على أكمل وجه ، وأتم بيان ، وأبلغ صيغة .

والقرآن الكريم لم يتكرر ألفاظاً كانت مجهولة قبله ، بل الجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف الموارد ، وأمسها رحماً بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للأمتراج ، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها ، وهي أحق به ، بحيث لا يجد المعنى في لفظة إلا مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين ، وقراره المكين .

وقد مر بنا منذ قليل عدد من الأمثلة على كلمات قرآنية وضعت في موضعها ورأينا كيف أنها صورت معناها ، وقدمته جلياً ، واضحاً ، شاملاً لكل جوانبه وعناصره .

كما شاهدنا تميز الكلمة في موضعها عن سواها المشتمل على نفس المعنى . .

وكما بدت البلاغة القرآنية في الكلمة الواحدة ، والجملة المركبة ، فإنها تتحقق كذلك في الآيات الكثيرة وهي تتحدث عن موضوع ما .. ومن أمثلة ذلك السور نقرأ قوله تعالى : ﴿ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴾ ٢١ أن أغدوا على حرككم إن كنتم صريرين ﴿ فَأَنْطَلِقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴾ ٢٢ أن لا يدخلها اليوم عليكم مسكين ﴾ ٢٣ وهذه الآيات جزء من قصة أصحاب الجنة التي ذكرها القرآن الكريم بيانا لعاقبة البخل ، ترهيبا منه ، وحثا على البذل ، ونقف عند الكلمات ﴿ فَتَنَادُوا ﴾ و ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ و ﴿ فَأَنْطَلِقُوا ﴾ و ﴿ يَتَخَفَتُونَ ﴾ فنجدها تصور حركة أصحاب الجنة وهم يتنادون مبكرين قبل أن يستيقظ الفقراء ، ثم وهم ينطلقون إلى جنتهم لا بصرفهم شيء عما اعتزموه ، ثم وهم يبالغون من التكم زيادة في الحيلة ، ويتخافتون ويسرون بالكلام ، وهذا التصوير الذي قامت به الكلمات يثير الخيال ، ويجعله يتابع حركتهم ، ويستثير في النفس حبها للاستطلاع ، ويستولي على مشاعر السامع فلا يستطيع التحول عن متابعتهم فيرى نهاية أمرهم ، ومن ثم يستقر في وجدانه الدرس القيم الذي سيقته القصة من أجله .

ومن أمثلة قوله تعالى : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلْظَى ﴾ ٢٤ لا يصلها إلا الأشفى ﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ ٢٥ وَسُجِّنِيهَا الْآتَقَى ﴾ ٢٦ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَرَكَّى ﴾ ٢٧ ﴿ والأيات الكريمة تخوف من البخل وعاقبته ، ولذا نقف عند الكلمات ﴿ نَارًا ﴾ و ﴿ تَلْظَى ﴾ و ﴿ الْآشَقَى ﴾ و ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ و ﴿ وَسُجِّنِيهَا ﴾ ففيها من القدرة على التصوير ما يجعلها أبلغ في الترهيب ، فالمنذر به ﴿ نَارًا ﴾ ومن ذا الذي لا يفرع من النار ، ويعمل ما يقى نفسه شرها ، ثم هي نار ﴿ تَلْظَى ﴾ أي تسعر ، ويشد لهبها ثم

٢١ سورة الفلم الآيات (٢١ - ٢٤) .

٢٢ سورة الليل الآيات (١٤ - ١٨) .

اختيار صيغة المضارع للمبالغة في تأثير التصوير باستحضار المشهد، كأنه واقع وقت التكلم ، وما يليق به المشهد في الحس من الفرع والخوف .

ولو عبر بالفاظ أخرى لا تستطيع هذا التصوير مثل " عذاباً شديداً " لما كان له مثل هذا الأثر المناسب للمقام .

وقوله ﴿الْأَشَقَى﴾ الذي يجعل المستحق لهذا العذاب في قمة الشقاء وتلك إضافة جديدة تزيد التعبير قدرة على الترهيب ، ثم لتأمل قوله ﴿وَتَوَلَّى﴾ الذي يصور المكذب في عدم استجابته للدعوة وعناده كأنه يذهب بعيداً عن الدعوة مبالغاً في وصفه بالكفر الذي استحق به العذاب .

أما قوله تعالى ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ فإنه يصور الأتقى وقد أبعد عن مصدر الخطر ، فلم يكتف بالوعد بعدم تعذيبه بل أخبر بأنه سيكون بعيداً عن النار زيادة في الاطمئنان ، وحثاً على البعد عن أسباب الشقاء .

وهكذا يبدو أثر التصوير بالكلمات في تقوية المعاني وزيادة تأثيرها في النفوس تحقيقاً لما يرمى إليه الداعية ترهيباً أو ترغيباً .

٢ - التصوير بالتشبيه

أسلوب التشبيه من الأساليب القوية في التأثير لما تملكه من عناصر الحركة والتوضيح ، يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني : أن التشبيه يفتح إلى القلب طريقاً متصلاً بالعين .

وعلى ذلك فهو تحريك للعين ، والقلب ، والحواس ، ومثاله قوله تعالى : ﴿فَمَا

لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿١﴾ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٢﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٣﴾﴾^(١)

وقد جاءت هذه الآيات بعد آيات صورت مصير المؤمنين ، والكافرين بعد استقرارهم في الجنة والنار .

وقد بدأت الآيات باستفهام إنكارى عن سبب إعراضهم عن الإيمان مع وجود كل دواعي الاستجابة ليقوا أنفسهم هذا المصير الذى ينتظرهم .

والقرآن يصورهم فى نفورهم من الدعوة، والإسراع فى إبعاد أنفسهم عنها أسراعاً محزون فيه على غير هدى ، بالحر المستنفرة التى تبالغ فى الحرب، وتحت نفسها عليه، فراراً من أسد هصور، يبغي اللحاق بها لافتراسها ، فكم توحى هذه الصورة بالعجب من أمرهم، والسخرية منهم ، ثم ما أعظم ما أبرزته هذه الصورة من أحوالهم ، فهم فى فرارهم هذا من الدعوة لا يلجأون إلى مأمن من الخطر، بل يفرون على غير هدى ولا بصيرة ، ثم إبراز ما فى نفوسهم من كراهيتهم العميقة للدعوة فى تلك الصورة البالغة التى تحملهم على المبالغة فى البعد عنها، وعدم الاستماع إليها فضلاً عن تدبرها، وإذا كنا نركز هنا على أثر التصوير فى إبراز المعاني فإن ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى عوامل أخرى تضمنتها الصورة، ضاعفت ما بها من تأثير فإختيار لفظ " الحمر " وما يوحى به من دناءة، وخسة، مبالغة فى السخرية بهم ثم اختيار لفظ " قسورة " من بين أسماء الأسد، لما يوحى به من القسر، والعنف مبالغة فى سبب فرارهم، وذلك إشارة إلى ما فى نفوسهم من مشاعر عدائية، تحثهم على الفرار من الدعوة، وهكذا يبرز التشبيه المعاني ويشتتها فى النفوس، ويوحى لما يحقق الهدف منه، ويتضح هذا بجلاء إذا حاولنا أن نعبّر عن هذا المعنى بأسلوب غير أسلوب التشبيه كأن نقول مثلاً : فما هم يعرضون عن الدعوة كل هذا الإعراض، أو هذا الإعراض الشديد ؟ ! !

٣ - التصوير بضرب المثل

يطلق المثل ويراد به : القول السائر الذى يمثل مضربه بمورده ، وحيث لم يكن ذلك إلا قولاً بديعاً ، فيه غرابة، صيرته جديراً بالتفسير فى البلاد، وخليقاً بالقبول استعير لكل حال ، أو صفة ، أو قصة ، لها شأن عجيب ، وخطر غريب ، من غير أن

يلاحظ بينها وبين شيء آخر تشبيهه ^(١) .

ويطلق بالمعنى الأول على الاستعارة التمثيلية التي اشتهرت وصارت مثلاً وهي

كثيرة في القرآن الكريم ، ومن المعنى الثاني قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ ^(٢) أى

الوصف الذى له شأن عظيم وخطر جليل ، وقوله : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ

الْمُتَّقُونَ ﴾ ^(٣) أى قصتها العجيبة الشأن .

هذا وأسلوب المثل له خطره بين فتون القول وقدرته على التأثير التي يستمدّها

من خصائصه المميزة : —

أولها : ما يعبر عنه السيوطى فى الإتقان بقوله : (ضرب الأمثال يستفاد منه

أمر كثيرة ، ومنها تقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس ، فإن الأمثال

تصور المعاني بصورة الأشخاص لأنها أثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس

ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلي والغائب بالمشاهد ^(٤) .

ويقول عنه صاحب الكشف : (ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء

المثل والنظائر شأن ليس بالخفى فى أبراز خبيثات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ،

حتى يريك المتخيل فى صورة المحقق والمتوهم فى معرض المتيقن ، والغائب كأن مشاهد

وفيه تكسيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبي ^(٥) .

وثانيها : أن للأمثال قدرة على الاستحواذ على المشاعر ، وإيقاظ النفوس ،

وتجديد نشاطها ، فالإنسان يميل بطبيعته إلى الاستشهاد بالأمثال لما يرى فيها من جمال

^(١) تفسير أبى السعود — ج ١ ص ٤٠ .

^(٢) سورة النحل الآية (٦٠) .

^(٣) سورة الرعد الآية (٣٥) .

^(٤) الإتقان فى علوم القرآن — ج ٢ ص ١٣١ .

^(٥) تفسير الكشف — ج ١ ص ١٩٥ .

حكمتها ورشاقة لفظها ، وإصابتها المعنى ، وطرافتها التي تتجدد ولا تبلى ، مما نرى أثره في وجوه السامعين لها وإقبالهم عليها وتسليمهم بحكمها .

وثالثها : أن المثال وسيلة من وسائل الإقناع ، فإن المورد للمثل إنما هو في

الحقيقة يقيس الأمر الذي يدعيه على أمر معروف عند من يخاطبه ، ومسلم لديه ، ومن ثم لزم التسوية بينهما في الحكم ، وتحقيق الإلزام به .

تلك أهم عوامل التأثير في أسلوب ضرب المثل ، ولنورد بعض النماذج لها .

يريد القرآن الكريم أن يبين للمشركين تفاهة ما يعبدونه من دون الله

وعجزهم المزرى فلا يعبر عن ذلك بوصفهم بالعجز والتفاهة بل يصوره في هذا المثل

المؤثر : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ^١ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ

دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ^٢ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ

مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ^(٧٣) ۝ ^(١) .

وأى عجز أبلغ من عجز من يزعمونهم آهة عن خلق أتفه المخلوقات

وأحقرها وهو الذبابة ، ولو اجتمعوا ، وتعاونوا في ذلك ، إنهم يعجزون عما هو أيسر

من الخلق ، وهو استنقاذ ما يسلبه منهم ذلك المخلوق الضعيف .

أبعد هذا دليل على الجهل والضلال ؟ وهكذا يتركهم القرآن الكريم هم

والهتهم سخرية الساخرين ، وحديث المتدبرين .

٤ . التصوير القصصى

القرآن في قصصه لا يعتمد إلى الحشد من الحوادث والمواقف فيصوره في تسابع

ليأتى عليه كله ، بل أن القصص القرآني مرتبط بالغرض الديني فهو يسوق القصة في

مقام يقتضيها ، ولهدف محدد يرمى إليه ، ومن ثم يختار من الحوادث والمواقف ما

يحتاجه المقام ويصيب به الهدف المقصود ، حيث ترى القصة تركز مرة على الزمن

(١) سورة الحج الآية (٧٣) .

وأخرى على المكان ، وثالثة على الأشخاص ، ورابعة على الأحداث ، وخامسة على الحوار .. وهكذا تبعاً لما يقتضيه مقام إيراد القصة .

ولهذا نرى القصة الواحدة تكرر مرات عديدة في مقامات مختلفة ، ويختار منها في كل مقام ما يناسب الغرض المذكورة من أجله ، وربما كان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو قصة يوسف عليه السلام ، إذ ذكرت تامة كاملة مرة واحدة .

ولنأخذ للتصوير القرآني للمشاهد والمواقف ، وما يلابسها من نزعات وعواطف ، مثلاً من قصة مريم عليها السلام في السورة المسماة باسمها .

والغرض الذي سيقف له القصة هو بيان الحق في شأن عيسى عليه السلام وولادته من غير أب ، ونفى ما نسجه النصارى حوله من دعاوى زائفة ، رتبوا عليها ادعاء الوهيته ، أو أنه ابن الإله إلى آخر ما قالوه .

وقد أختار القرآن الكريم في هذا المقام من المشاهد ما يفى بهذا الغرض ، معقبا عليه بتقرير الهدف من القصة في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۚ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَدًى صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۚ ۝ ١٦ ۚ ۝ ١٧ ۚ ۝ ١٨ ۚ ۝ ١٩ ۚ ۝ ٢٠ ۚ ۝ ٢١ ۚ ۝ ٢٢ ۚ ۝ ٢٣ ۚ ۝ ٢٤ ۚ ۝ ٢٥ ۚ ۝ ٢٦ ۚ ۝ ٢٧ ۚ ۝ ٢٨ ۚ ۝ ٢٩ ۚ ۝ ٣٠ ۚ ۝ ٣١ ۚ ۝ ٣٢ ۚ ۝ ٣٣ ۚ ۝ ٣٤ ۚ ۝ ٣٥ ۚ ۝ ٣٦ ۚ ۝ ٣٧ ۚ ۝ ٣٨ ۚ ۝ ٣٩ ۚ ۝ ٤٠ ۚ ۝ ٤١ ۚ ۝ ٤٢ ۚ ۝ ٤٣ ۚ ۝ ٤٤ ۚ ۝ ٤٥ ۚ ۝ ٤٦ ۚ ۝ ٤٧ ۚ ۝ ٤٨ ۚ ۝ ٤٩ ۚ ۝ ٥٠ ۚ ۝ ٥١ ۚ ۝ ٥٢ ۚ ۝ ٥٣ ۚ ۝ ٥٤ ۚ ۝ ٥٥ ۚ ۝ ٥٦ ۚ ۝ ٥٧ ۚ ۝ ٥٨ ۚ ۝ ٥٩ ۚ ۝ ٦٠ ۚ ۝ ٦١ ۚ ۝ ٦٢ ۚ ۝ ٦٣ ۚ ۝ ٦٤ ۚ ۝ ٦٥ ۚ ۝ ٦٦ ۚ ۝ ٦٧ ۚ ۝ ٦٨ ۚ ۝ ٦٩ ۚ ۝ ٧٠ ۚ ۝ ٧١ ۚ ۝ ٧٢ ۚ ۝ ٧٣ ۚ ۝ ٧٤ ۚ ۝ ٧٥ ۚ ۝ ٧٦ ۚ ۝ ٧٧ ۚ ۝ ٧٨ ۚ ۝ ٧٩ ۚ ۝ ٨٠ ۚ ۝ ٨١ ۚ ۝ ٨٢ ۚ ۝ ٨٣ ۚ ۝ ٨٤ ۚ ۝ ٨٥ ۚ ۝ ٨٦ ۚ ۝ ٨٧ ۚ ۝ ٨٨ ۚ ۝ ٨٩ ۚ ۝ ٩٠ ۚ ۝ ٩١ ۚ ۝ ٩٢ ۚ ۝ ٩٣ ۚ ۝ ٩٤ ۚ ۝ ٩٥ ۚ ۝ ٩٦ ۚ ۝ ٩٧ ۚ ۝ ٩٨ ۚ ۝ ٩٩ ۚ ۝ ١٠٠ ۚ ۝ ١٠١ ۚ ۝ ١٠٢ ۚ ۝ ١٠٣ ۚ ۝ ١٠٤ ۚ ۝ ١٠٥ ۚ ۝ ١٠٦ ۚ ۝ ١٠٧ ۚ ۝ ١٠٨ ۚ ۝ ١٠٩ ۚ ۝ ١١٠ ۚ ۝ ١١١ ۚ ۝ ١١٢ ۚ ۝ ١١٣ ۚ ۝ ١١٤ ۚ ۝ ١١٥ ۚ ۝ ١١٦ ۚ ۝ ١١٧ ۚ ۝ ١١٨ ۚ ۝ ١١٩ ۚ ۝ ١٢٠ ۚ ۝ ١٢١ ۚ ۝ ١٢٢ ۚ ۝ ١٢٣ ۚ ۝ ١٢٤ ۚ ۝ ١٢٥ ۚ ۝ ١٢٦ ۚ ۝ ١٢٧ ۚ ۝ ١٢٨ ۚ ۝ ١٢٩ ۚ ۝ ١٣٠ ۚ ۝ ١٣١ ۚ ۝ ١٣٢ ۚ ۝ ١٣٣ ۚ ۝ ١٣٤ ۚ ۝ ١٣٥ ۚ ۝ ١٣٦ ۚ ۝ ١٣٧ ۚ ۝ ١٣٨ ۚ ۝ ١٣٩ ۚ ۝ ١٤٠ ۚ ۝ ١٤١ ۚ ۝ ١٤٢ ۚ ۝ ١٤٣ ۚ ۝ ١٤٤ ۚ ۝ ١٤٥ ۚ ۝ ١٤٦ ۚ ۝ ١٤٧ ۚ ۝ ١٤٨ ۚ ۝ ١٤٩ ۚ ۝ ١٥٠ ۚ ۝ ١٥١ ۚ ۝ ١٥٢ ۚ ۝ ١٥٣ ۚ ۝ ١٥٤ ۚ ۝ ١٥٥ ۚ ۝ ١٥٦ ۚ ۝ ١٥٧ ۚ ۝ ١٥٨ ۚ ۝ ١٥٩ ۚ ۝ ١٦٠ ۚ ۝ ١٦١ ۚ ۝ ١٦٢ ۚ ۝ ١٦٣ ۚ ۝ ١٦٤ ۚ ۝ ١٦٥ ۚ ۝ ١٦٦ ۚ ۝ ١٦٧ ۚ ۝ ١٦٨ ۚ ۝ ١٦٩ ۚ ۝ ١٧٠ ۚ ۝ ١٧١ ۚ ۝ ١٧٢ ۚ ۝ ١٧٣ ۚ ۝ ١٧٤ ۚ ۝ ١٧٥ ۚ ۝ ١٧٦ ۚ ۝ ١٧٧ ۚ ۝ ١٧٨ ۚ ۝ ١٧٩ ۚ ۝ ١٨٠ ۚ ۝ ١٨١ ۚ ۝ ١٨٢ ۚ ۝ ١٨٣ ۚ ۝ ١٨٤ ۚ ۝ ١٨٥ ۚ ۝ ١٨٦ ۚ ۝ ١٨٧ ۚ ۝ ١٨٨ ۚ ۝ ١٨٩ ۚ ۝ ١٩٠ ۚ ۝ ١٩١ ۚ ۝ ١٩٢ ۚ ۝ ١٩٣ ۚ ۝ ١٩٤ ۚ ۝ ١٩٥ ۚ ۝ ١٩٦ ۚ ۝ ١٩٧ ۚ ۝ ١٩٨ ۚ ۝ ١٩٩ ۚ ۝ ٢٠٠ ۚ ۝ ٢٠١ ۚ ۝ ٢٠٢ ۚ ۝ ٢٠٣ ۚ ۝ ٢٠٤ ۚ ۝ ٢٠٥ ۚ ۝ ٢٠٦ ۚ ۝ ٢٠٧ ۚ ۝ ٢٠٨ ۚ ۝ ٢٠٩ ۚ ۝ ٢١٠ ۚ ۝ ٢١١ ۚ ۝ ٢١٢ ۚ ۝ ٢١٣ ۚ ۝ ٢١٤ ۚ ۝ ٢١٥ ۚ ۝ ٢١٦ ۚ ۝ ٢١٧ ۚ ۝ ٢١٨ ۚ ۝ ٢١٩ ۚ ۝ ٢٢٠ ۚ ۝ ٢٢١ ۚ ۝ ٢٢٢ ۚ ۝ ٢٢٣ ۚ ۝ ٢٢٤ ۚ ۝ ٢٢٥ ۚ ۝ ٢٢٦ ۚ ۝ ٢٢٧ ۚ ۝ ٢٢٨ ۚ ۝ ٢٢٩ ۚ ۝ ٢٣٠ ۚ ۝ ٢٣١ ۚ ۝ ٢٣٢ ۚ ۝ ٢٣٣ ۚ ۝ ٢٣٤ ۚ ۝ ٢٣٥ ۚ ۝ ٢٣٦ ۚ ۝ ٢٣٧ ۚ ۝ ٢٣٨ ۚ ۝ ٢٣٩ ۚ ۝ ٢٤٠ ۚ ۝ ٢٤١ ۚ ۝ ٢٤٢ ۚ ۝ ٢٤٣ ۚ ۝ ٢٤٤ ۚ ۝ ٢٤٥ ۚ ۝ ٢٤٦ ۚ ۝ ٢٤٧ ۚ ۝ ٢٤٨ ۚ ۝ ٢٤٩ ۚ ۝ ٢٥٠ ۚ ۝ ٢٥١ ۚ ۝ ٢٥٢ ۚ ۝ ٢٥٣ ۚ ۝ ٢٥٤ ۚ ۝ ٢٥٥ ۚ ۝ ٢٥٦ ۚ ۝ ٢٥٧ ۚ ۝ ٢٥٨ ۚ ۝ ٢٥٩ ۚ ۝ ٢٦٠ ۚ ۝ ٢٦١ ۚ ۝ ٢٦٢ ۚ ۝ ٢٦٣ ۚ ۝ ٢٦٤ ۚ ۝ ٢٦٥ ۚ ۝ ٢٦٦ ۚ ۝ ٢٦٧ ۚ ۝ ٢٦٨ ۚ ۝ ٢٦٩ ۚ ۝ ٢٧٠ ۚ ۝ ٢٧١ ۚ ۝ ٢٧٢ ۚ ۝ ٢٧٣ ۚ ۝ ٢٧٤ ۚ ۝ ٢٧٥ ۚ ۝ ٢٧٦ ۚ ۝ ٢٧٧ ۚ ۝ ٢٧٨ ۚ ۝ ٢٧٩ ۚ ۝ ٢٨٠ ۚ ۝ ٢٨١ ۚ ۝ ٢٨٢ ۚ ۝ ٢٨٣ ۚ ۝ ٢٨٤ ۚ ۝ ٢٨٥ ۚ ۝ ٢٨٦ ۚ ۝ ٢٨٧ ۚ ۝ ٢٨٨ ۚ ۝ ٢٨٩ ۚ ۝ ٢٩٠ ۚ ۝ ٢٩١ ۚ ۝ ٢٩٢ ۚ ۝ ٢٩٣ ۚ ۝ ٢٩٤ ۚ ۝ ٢٩٥ ۚ ۝ ٢٩٦ ۚ ۝ ٢٩٧ ۚ ۝ ٢٩٨ ۚ ۝ ٢٩٩ ۚ ۝ ٣٠٠ ۚ ۝ ٣٠١ ۚ ۝ ٣٠٢ ۚ ۝ ٣٠٣ ۚ ۝ ٣٠٤ ۚ ۝ ٣٠٥ ۚ ۝ ٣٠٦ ۚ ۝ ٣٠٧ ۚ ۝ ٣٠٨ ۚ ۝ ٣٠٩ ۚ ۝ ٣١٠ ۚ ۝ ٣١١ ۚ ۝ ٣١٢ ۚ ۝ ٣١٣ ۚ ۝ ٣١٤ ۚ ۝ ٣١٥ ۚ ۝ ٣١٦ ۚ ۝ ٣١٧ ۚ ۝ ٣١٨ ۚ ۝ ٣١٩ ۚ ۝ ٣٢٠ ۚ ۝ ٣٢١ ۚ ۝ ٣٢٢ ۚ ۝ ٣٢٣ ۚ ۝ ٣٢٤ ۚ ۝ ٣٢٥ ۚ ۝ ٣٢٦ ۚ ۝ ٣٢٧ ۚ ۝ ٣٢٨ ۚ ۝ ٣٢٩ ۚ ۝ ٣٣٠ ۚ ۝ ٣٣١ ۚ ۝ ٣٣٢ ۚ ۝ ٣٣٣ ۚ ۝ ٣٣٤ ۚ ۝ ٣٣٥ ۚ ۝ ٣٣٦ ۚ ۝ ٣٣٧ ۚ ۝ ٣٣٨ ۚ ۝ ٣٣٩ ۚ ۝ ٣٤٠ ۚ ۝ ٣٤١ ۚ ۝ ٣٤٢ ۚ ۝ ٣٤٣ ۚ ۝ ٣٤٤ ۚ ۝ ٣٤٥ ۚ ۝ ٣٤٦ ۚ ۝ ٣٤٧ ۚ ۝ ٣٤٨ ۚ ۝ ٣٤٩ ۚ ۝ ٣٥٠ ۚ ۝ ٣٥١ ۚ ۝ ٣٥٢ ۚ ۝ ٣٥٣ ۚ ۝ ٣٥٤ ۚ ۝ ٣٥٥ ۚ ۝ ٣٥٦ ۚ ۝ ٣٥٧ ۚ ۝ ٣٥٨ ۚ ۝ ٣٥٩ ۚ ۝ ٣٦٠ ۚ ۝ ٣٦١ ۚ ۝ ٣٦٢ ۚ ۝ ٣٦٣ ۚ ۝ ٣٦٤ ۚ ۝ ٣٦٥ ۚ ۝ ٣٦٦ ۚ ۝ ٣٦٧ ۚ ۝ ٣٦٨ ۚ ۝ ٣٦٩ ۚ ۝ ٣٧٠ ۚ ۝ ٣٧١ ۚ ۝ ٣٧٢ ۚ ۝ ٣٧٣ ۚ ۝ ٣٧٤ ۚ ۝ ٣٧٥ ۚ ۝ ٣٧٦ ۚ ۝ ٣٧٧ ۚ ۝ ٣٧٨ ۚ ۝ ٣٧٩ ۚ ۝ ٣٨٠ ۚ ۝ ٣٨١ ۚ ۝ ٣٨٢ ۚ ۝ ٣٨٣ ۚ ۝ ٣٨٤ ۚ ۝ ٣٨٥ ۚ ۝ ٣٨٦ ۚ ۝ ٣٨٧ ۚ ۝ ٣٨٨ ۚ ۝ ٣٨٩ ۚ ۝ ٣٩٠ ۚ ۝ ٣٩١ ۚ ۝ ٣٩٢ ۚ ۝ ٣٩٣ ۚ ۝ ٣٩٤ ۚ ۝ ٣٩٥ ۚ ۝ ٣٩٦ ۚ ۝ ٣٩٧ ۚ ۝ ٣٩٨ ۚ ۝ ٣٩٩ ۚ ۝ ٤٠٠ ۚ ۝ ٤٠١ ۚ ۝ ٤٠٢ ۚ ۝ ٤٠٣ ۚ ۝ ٤٠٤ ۚ ۝ ٤٠٥ ۚ ۝ ٤٠٦ ۚ ۝ ٤٠٧ ۚ ۝ ٤٠٨ ۚ ۝ ٤٠٩ ۚ ۝ ٤١٠ ۚ ۝ ٤١١ ۚ ۝ ٤١٢ ۚ ۝ ٤١٣ ۚ ۝ ٤١٤ ۚ ۝ ٤١٥ ۚ ۝ ٤١٦ ۚ ۝ ٤١٧ ۚ ۝ ٤١٨ ۚ ۝ ٤١٩ ۚ ۝ ٤٢٠ ۚ ۝ ٤٢١ ۚ ۝ ٤٢٢ ۚ ۝ ٤٢٣ ۚ ۝ ٤٢٤ ۚ ۝ ٤٢٥ ۚ ۝ ٤٢٦ ۚ ۝ ٤٢٧ ۚ ۝ ٤٢٨ ۚ ۝ ٤٢٩ ۚ ۝ ٤٣٠ ۚ ۝ ٤٣١ ۚ ۝ ٤٣٢ ۚ ۝ ٤٣٣ ۚ ۝ ٤٣٤ ۚ ۝ ٤٣٥ ۚ ۝ ٤٣٦ ۚ ۝ ٤٣٧ ۚ ۝ ٤٣٨ ۚ ۝ ٤٣٩ ۚ ۝ ٤٤٠ ۚ ۝ ٤٤١ ۚ ۝ ٤٤٢ ۚ ۝ ٤٤٣ ۚ ۝ ٤٤٤ ۚ ۝ ٤٤٥ ۚ ۝ ٤٤٦ ۚ ۝ ٤٤٧ ۚ ۝ ٤٤٨ ۚ ۝ ٤٤٩ ۚ ۝ ٤٥٠ ۚ ۝ ٤٥١ ۚ ۝ ٤٥٢ ۚ ۝ ٤٥٣ ۚ ۝ ٤٥٤ ۚ ۝ ٤٥٥ ۚ ۝ ٤٥٦ ۚ ۝ ٤٥٧ ۚ ۝ ٤٥٨ ۚ ۝ ٤٥٩ ۚ ۝ ٤٦٠ ۚ ۝ ٤٦١ ۚ ۝ ٤٦٢ ۚ ۝ ٤٦٣ ۚ ۝ ٤٦٤ ۚ ۝ ٤٦٥ ۚ ۝ ٤٦٦ ۚ ۝ ٤٦٧ ۚ ۝ ٤٦٨ ۚ ۝ ٤٦٩ ۚ ۝ ٤٧٠ ۚ ۝ ٤٧١ ۚ ۝ ٤٧٢ ۚ ۝ ٤٧٣ ۚ ۝ ٤٧٤ ۚ ۝ ٤٧٥ ۚ ۝ ٤٧٦ ۚ ۝ ٤٧٧ ۚ ۝ ٤٧٨ ۚ ۝ ٤٧٩ ۚ ۝ ٤٨٠ ۚ ۝ ٤٨١ ۚ ۝ ٤٨٢ ۚ ۝ ٤٨٣ ۚ ۝ ٤٨٤ ۚ ۝ ٤٨٥ ۚ ۝ ٤٨٦ ۚ ۝ ٤٨٧ ۚ ۝ ٤٨٨ ۚ ۝ ٤٨٩ ۚ ۝ ٤٩٠ ۚ ۝ ٤٩١ ۚ ۝ ٤٩٢ ۚ ۝ ٤٩٣ ۚ ۝ ٤٩٤ ۚ ۝ ٤٩٥ ۚ ۝ ٤٩٦ ۚ ۝ ٤٩٧ ۚ ۝ ٤٩٨ ۚ ۝ ٤٩٩ ۚ ۝ ٥٠٠ ۚ ۝ ٥٠١ ۚ ۝ ٥٠٢ ۚ ۝ ٥٠٣ ۚ ۝ ٥٠٤ ۚ ۝ ٥٠٥ ۚ ۝ ٥٠٦ ۚ ۝ ٥٠٧ ۚ ۝ ٥٠٨ ۚ ۝ ٥٠٩ ۚ ۝ ٥١٠ ۚ ۝ ٥١١ ۚ ۝ ٥١٢ ۚ ۝ ٥١٣ ۚ ۝ ٥١٤ ۚ ۝ ٥١٥ ۚ ۝ ٥١٦ ۚ ۝ ٥١٧ ۚ ۝ ٥١٨ ۚ ۝ ٥١٩ ۚ ۝ ٥٢٠ ۚ ۝ ٥٢١ ۚ ۝ ٥٢٢ ۚ ۝ ٥٢٣ ۚ ۝ ٥٢٤ ۚ ۝ ٥٢٥ ۚ ۝ ٥٢٦ ۚ ۝ ٥٢٧ ۚ ۝ ٥٢٨ ۚ ۝ ٥٢٩ ۚ ۝ ٥٣٠ ۚ ۝ ٥٣١ ۚ ۝ ٥٣٢ ۚ ۝ ٥٣٣ ۚ ۝ ٥٣٤ ۚ ۝ ٥٣٥ ۚ ۝ ٥٣٦ ۚ ۝ ٥٣٧ ۚ ۝ ٥٣٨ ۚ ۝ ٥٣٩ ۚ ۝ ٥٤٠ ۚ ۝ ٥٤١ ۚ ۝ ٥٤٢ ۚ ۝ ٥٤٣ ۚ ۝ ٥٤٤ ۚ ۝ ٥٤٥ ۚ ۝ ٥٤٦ ۚ ۝ ٥٤٧ ۚ ۝ ٥٤٨ ۚ ۝ ٥٤٩ ۚ ۝ ٥٥٠ ۚ ۝ ٥٥١ ۚ ۝ ٥٥٢ ۚ ۝ ٥٥٣ ۚ ۝ ٥٥٤ ۚ ۝ ٥٥٥ ۚ ۝ ٥٥٦ ۚ ۝ ٥٥٧ ۚ ۝ ٥٥٨ ۚ ۝ ٥٥٩ ۚ ۝ ٥٦٠ ۚ ۝ ٥٦١ ۚ ۝ ٥٦٢ ۚ ۝ ٥٦٣ ۚ ۝ ٥٦٤ ۚ ۝ ٥٦٥ ۚ ۝ ٥٦٦ ۚ ۝ ٥٦٧ ۚ ۝ ٥٦٨ ۚ ۝ ٥٦٩ ۚ ۝ ٥٧٠ ۚ ۝ ٥٧١ ۚ ۝ ٥٧٢ ۚ ۝ ٥٧٣ ۚ ۝ ٥٧٤ ۚ ۝ ٥٧٥ ۚ ۝ ٥٧٦ ۚ ۝ ٥٧٧ ۚ ۝ ٥٧٨ ۚ ۝ ٥٧٩ ۚ ۝ ٥٨٠ ۚ ۝ ٥٨١ ۚ ۝ ٥٨٢ ۝ ٥٨٣ ۝ ٥٨٤ ۝ ٥٨٥ ۝ ٥٨٦ ۝ ٥٨٧ ۝ ٥٨٨ ۝ ٥٨٩ ۝ ٥٩٠ ۝ ٥٩١ ۝ ٥٩٢ ۝ ٥٩٣ ۝ ٥٩٤ ۝ ٥٩٥ ۝ ٥٩٦ ۝ ٥٩٧ ۝ ٥٩٨ ۝ ٥٩٩ ۝ ٦٠٠ ۝ ٦٠١ ۝ ٦٠٢ ۝ ٦٠٣ ۝ ٦٠٤ ۝ ٦٠٥ ۝ ٦٠٦ ۝ ٦٠٧ ۝ ٦٠٨ ۝ ٦٠٩ ۝ ٦١٠ ۝ ٦١١ ۝ ٦١٢ ۝ ٦١٣ ۝ ٦١٤ ۝ ٦١٥ ۝ ٦١٦ ۝ ٦١٧ ۝ ٦١٨ ۝ ٦١٩ ۝ ٦٢٠ ۝ ٦٢١ ۝ ٦٢٢ ۝ ٦٢٣ ۝ ٦٢٤ ۝ ٦٢٥ ۝ ٦٢٦ ۝ ٦٢٧ ۝ ٦٢٨ ۝ ٦٢٩ ۝ ٦٣٠ ۝ ٦٣١ ۝ ٦٣٢ ۝ ٦٣٣ ۝ ٦٣٤ ۝ ٦٣٥ ۝ ٦٣٦ ۝ ٦٣٧ ۝ ٦٣٨ ۝ ٦٣٩ ۝ ٦٤٠ ۝ ٦٤١ ۝ ٦٤٢ ۝ ٦٤٣ ۝ ٦٤٤ ۝ ٦٤٥ ۝ ٦٤٦ ۝ ٦٤٧ ۝ ٦٤٨ ۝ ٦٤٩ ۝ ٦٥٠ ۝ ٦٥١ ۝ ٦٥٢ ۝ ٦٥٣ ۝ ٦٥٤ ۝ ٦٥٥ ۝ ٦٥٦ ۝ ٦٥٧ ۝ ٦٥٨ ۝ ٦٥٩ ۝ ٦٦٠ ۝ ٦٦١ ۝ ٦٦٢ ۝ ٦٦٣ ۝ ٦٦٤ ۝ ٦٦٥ ۝ ٦٦٦ ۝ ٦٦٧ ۝ ٦٦٨ ۝ ٦٦٩ ۝ ٦٧٠ ۝ ٦٧١ ۝ ٦٧٢ ۝ ٦٧٣ ۝ ٦٧٤ ۝ ٦٧٥ ۝ ٦٧٦ ۝ ٦٧٧ ۝ ٦٧٨ ۝ ٦٧٩ ۝ ٦٨٠ ۝ ٦٨١ ۝ ٦٨٢ ۝ ٦٨٣ ۝ ٦٨٤ ۝ ٦٨٥ ۝ ٦٨٦ ۝ ٦٨٧ ۝ ٦٨٨ ۝ ٦٨٩ ۝ ٦٩٠ ۝ ٦٩١ ۝ ٦٩٢ ۝ ٦٩٣ ۝ ٦٩٤ ۝ ٦٩٥ ۝ ٦٩٦ ۝ ٦٩٧ ۝ ٦٩٨ ۝ ٦٩٩ ۝ ٧٠٠ ۝ ٧٠١ ۝ ٧٠٢ ۝ ٧٠٣ ۝ ٧٠٤ ۝ ٧٠٥ ۝ ٧٠٦ ۝ ٧٠٧ ۝ ٧٠٨ ۝ ٧٠٩ ۝ ٧١٠ ۝ ٧١١ ۝ ٧١٢ ۝ ٧١٣ ۝ ٧١٤ ۝ ٧١٥ ۝ ٧١٦ ۝ ٧١٧ ۝ ٧١٨ ۝ ٧١٩ ۝ ٧٢٠ ۝ ٧٢١ ۝ ٧٢٢ ۝ ٧٢٣ ۝ ٧٢٤ ۝ ٧٢٥ ۝ ٧٢٦ ۝ ٧٢٧ ۝ ٧٢٨ ۝ ٧٢٩ ۝ ٧٣٠ ۝ ٧٣١ ۝ ٧٣٢ ۝ ٧٣٣ ۝ ٧٣٤ ۝ ٧٣٥ ۝ ٧٣٦ ۝ ٧٣٧ ۝ ٧٣٨ ۝ ٧٣٩ ۝ ٧٤٠ ۝ ٧٤١ ۝ ٧٤٢ ۝ ٧٤٣ ۝ ٧٤٤ ۝ ٧٤٥ ۝ ٧٤٦ ۝ ٧٤٧ ۝ ٧٤٨ ۝ ٧٤٩ ۝ ٧٥٠ ۝ ٧٥١ ۝ ٧٥٢ ۝ ٧٥٣ ۝ ٧٥٤ ۝ ٧٥٥ ۝ ٧٥٦ ۝ ٧٥٧ ۝ ٧٥٨ ۝ ٧٥٩ ۝ ٧٦٠ ۝ ٧٦١ ۝ ٧٦٢ ۝ ٧٦٣ ۝ ٧٦٤ ۝ ٧٦٥ ۝ ٧٦٦ ۝ ٧٦٧ ۝ ٧٦٨ ۝ ٧٦٩ ۝ ٧٧٠ ۝ ٧٧١ ۝ ٧٧٢ ۝ ٧٧٣ ۝ ٧٧٤ ۝ ٧٧٥ ۝ ٧٧٦ ۝ ٧٧٧ ۝ ٧٧٨ ۝ ٧٧٩ ۝ ٧٨٠ ۝ ٧٨١ ۝ ٧٨٢ ۝ ٧٨٣ ۝ ٧٨٤ ۝ ٧٨٥ ۝ ٧٨٦ ۝ ٧٨٧ ۝ ٧٨٨ ۝ ٧٨٩ ۝ ٧٩٠ ۝ ٧٩١ ۝ ٧٩٢ ۝ ٧٩٣ ۝ ٧٩٤ ۝ ٧٩٥ ۝ ٧٩٦ ۝ ٧٩٧ ۝ ٧٩٨ ۝ ٧٩٩ ۝ ٨٠٠ ۝ ٨٠١ ۝ ٨٠٢ ۝ ٨٠٣ ۝ ٨٠٤ ۝ ٨٠٥ ۝ ٨٠٦ ۝ ٨٠٧ ۝ ٨٠٨ ۝ ٨٠٩ ۝ ٨١٠ ۝ ٨١١ ۝ ٨١٢ ۝ ٨١٣ ۝ ٨١٤ ۝ ٨١٥ ۝ ٨١٦ ۝ ٨١٧ ۝ ٨١٨ ۝ ٨١٩ ۝ ٨٢٠ ۝ ٨٢١ ۝ ٨٢٢ ۝ ٨٢٣ ۝ ٨٢٤ ۝ ٨٢٥ ۝ ٨٢٦ ۝ ٨٢٧ ۝ ٨٢٨ ۝ ٨٢٩ ۝ ٨٣٠ ۝ ٨٣١ ۝ ٨٣٢ ۝ ٨٣٣ ۝ ٨٣٤ ۝ ٨٣٥ ۝ ٨٣٦ ۝ ٨٣٧ ۝ ٨٣٨ ۝ ٨٣٩ ۝ ٨٤٠ ۝ ٨٤١ ۝ ٨٤٢ ۝ ٨٤٣ ۝ ٨٤٤ ۝ ٨٤٥ ۝ ٨٤٦ ۝ ٨٤٧ ۝ ٨٤٨ ۝ ٨٤٩ ۝ ٨٥٠ ۝ ٨٥١ ۝ ٨٥٢ ۝ ٨٥٣ ۝ ٨٥٤ ۝ ٨٥٥ ۝ ٨٥٦ ۝ ٨٥٧ ۝ ٨٥٨ ۝ ٨٥٩ ۝ ٨٦٠ ۝ ٨٦١ ۝ ٨٦٢ ۝ ٨٦٣ ۝ ٨٦٤ ۝ ٨٦٥ ۝ ٨٦٦ ۝ ٨٦٧ ۝ ٨٦٨ ۝ ٨٦٩ ۝ ٨٧٠ ۝ ٨٧١ ۝ ٨٧٢ ۝ ٨٧٣ ۝ ٨٧٤ ۝ ٨٧٥ ۝ ٨٧٦ ۝ ٨٧٧ ۝ ٨٧٨ ۝ ٨٧٩ ۝ ٨٨٠ ۝ ٨٨١ ۝ ٨٨٢ ۝ ٨٨٣ ۝ ٨٨٤ ۝ ٨٨٥ ۝ ٨٨٦ ۝ ٨٨٧ ۝ ٨٨٨ ۝ ٨٨٩ ۝ ٨٩٠ ۝ ٨٩١ ۝ ٨٩٢ ۝ ٨٩٣ ۝ ٨٩٤ ۝ ٨٩٥ ۝ ٨٩٦ ۝ ٨٩٧ ۝ ٨٩٨ ۝ ٨٩٩ ۝ ٩٠٠ ۝ ٩٠١ ۝ ٩٠٢ ۝ ٩٠٣ ۝ ٩٠٤ ۝ ٩٠٥ ۝ ٩٠٦ ۝ ٩٠٧ ۝ ٩٠٨ ۝ ٩٠٩ ۝ ٩١٠ ۝ ٩١١ ۝ ٩١٢ ۝ ٩١٣ ۝ ٩١٤ ۝ ٩١٥ ۝ ٩١٦ ۝ ٩١٧ ۝ ٩١٨ ۝ ٩١٩ ۝ ٩٢٠ ۝ ٩٢١ ۝ ٩٢٢ ۝ ٩٢٣ ۝ ٩٢٤ ۝ ٩٢٥ ۝ ٩٢٦ ۝ ٩٢٧ ۝ ٩٢٨ ۝ ٩٢٩ ۝ ٩٣٠ ۝ ٩٣١ ۝ ٩٣٢ ۝ ٩٣٣ ۝ ٩٣٤ ۝ ٩٣٥ ۝ ٩٣٦ ۝ ٩٣٧ ۝ ٩٣٨ ۝ ٩٣٩ ۝ ٩٤٠ ۝ ٩٤١ ۝ ٩٤٢ ۝ ٩٤٣ ۝ ٩٤٤ ۝ ٩٤٥ ۝ ٩٤٦ ۝ ٩٤٧ ۝ ٩٤٨ ۝ ٩٤٩ ۝ ٩٥٠ ۝ ٩٥١ ۝ ٩٥٢ ۝ ٩٥٣ ۝ ٩٥٤ ۝ ٩٥٥ ۝ ٩٥٦ ۝ ٩٥٧ ۝ ٩٥٨ ۝ ٩٥٩ ۝ ٩٦٠ ۝ ٩٦١ ۝ ٩٦٢ ۝ ٩٦٣ ۝ ٩٦٤ ۝ ٩٦٥ ۝ ٩٦٦ ۝ ٩٦٧ ۝ ٩٦٨ ۝ ٩٦٩ ۝ ٩٧٠ ۝ ٩٧١ ۝ ٩٧٢ ۝ ٩٧٣ ۝ ٩٧٤ ۝ ٩٧٥ ۝ ٩٧٦ ۝ ٩٧٧ ۝ ٩٧٨ ۝ ٩٧٩ ۝ ٩٨٠ ۝ ٩٨١ ۝ ٩٨٢ ۝ ٩٨٣ ۝ ٩٨٤ ۝ ٩٨٥ ۝ ٩٨٦ ۝ ٩٨٧ ۝ ٩٨٨ ۝ ٩٨٩ ۝ ٩٩٠ ۝ ٩٩١ ۝ ٩٩٢ ۝ ٩٩٣ ۝ ٩٩٤ ۝ ٩٩٥ ۝ ٩٩٦ ۝ ٩٩٧ ۝ ٩٩٨ ۝ ٩٩٩ ۝ ١٠٠٠ ۝ ١٠٠١ ۝ ١٠٠٢ ۝ ١٠٠٣ ۝ ١٠٠٤ ۝ ١٠٠٥ ۝ ١٠٠٦ ۝ ١٠٠٧ ۝ ١٠٠٨ ۝ ١٠٠٩ ۝ ١٠١٠ ۝ ١٠١١ ۝ ١٠١٢ ۝ ١٠١٣ ۝ ١٠١٤ ۝ ١٠١٥ ۝ ١٠١٦ ۝ ١٠١٧ ۝ ١٠١٨ ۝ ١٠١٩ ۝ ١٠٢٠ ۝ ١٠٢١ ۝ ١٠٢٢ ۝ ١٠٢٣ ۝ ١٠٢٤ ۝ ١٠٢٥ ۝ ١٠٢٦ ۝ ١٠٢٧ ۝ ١٠٢٨ ۝ ١٠٢٩ ۝ ١٠٣٠ ۝ ١٠٣١ ۝ ١٠٣٢ ۝ ١٠٣٣ ۝ ١٠٣٤ ۝

إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٦﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ أَنَّى
يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى
هَيْنٌ ۖ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿١٩﴾ ﴿١﴾

المشهد الثاني : بصورها وقد حملت بابنها ، وخافت أن يطلع أهلها على ما
بها ، فآثرت البعد عنهم ورحلت إلى مكان بعيد ، وهناك تعاني ألماً لا قبل لها بها ،
فهي تعلم أنها تؤدي دوراً اصطفاها الله له ، ولكنها تدرك كذلك أن أحداً
لن يصدقها فيما ستذكره من تفسير لحملها بهذا الوليد بلا أب ، ثم تجتمع عليها الآلام
الجسدية والنفسية عند الوضع فتكاد مقاومتها تنهار ، وتتمنى لو ماتت قبل أن تتعرض
لكل ذلك ، ولكن الرحمن يفرج عنها ذلك كله في لحظة ويبرئ جراحها وترى من
الآيات ما يملؤها ثقة به تستهين معها بكل شيء .

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٠﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى
جَذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢١﴾ فَنَادَتْهَا مِنْ
تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٢﴾ وَهَزِيْإِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ
عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٣﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي
إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٤﴾ ۞ ﴿٢﴾

المشهد الثالث : يمثلها وقد عادت تحمل ابنها إلى قومها ، فيواجهونها بما هو
متوقع منهم ، بالتأنيب والسخرية ، ويقفونها موقف المشلول عن جريمة ارتكبتها ،
ولكن المعجزة الإلهية تنهى الموقف كله ، وينطق الله الوليد ليخبر القوم بالحقيقة .

(١) سورة مريم الآيات (١٦ — ٢١) .

(٢) سورة مريم الآيات (٢٢ — ٢٦) .

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾^{٢٧} قَالُوا يَمْرُؤٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٨﴾ يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٩﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿٣٠﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣١﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣٢﴾ وَبِرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٣﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُتْبِعْتُ حَيًّا ﴿٣٤﴾ ۝

وتنتهي المشاهد عند هذا الحد ، فقد استوفى الغرض المسوقة له القصة ما يحتاجه من بيان ، ولم يبق إلا أن يعقب القرآن عليها بما يلور مغزاها ويقرر ما دلت عليه .

والمشاهد كما نرى تنقلنا إلى مسرح الأحداث وتعرضها علينا بعد أن منحناها الحياة ، وجعلتها تجري تحت أبصارنا وبصائرنا .

ولنلق نظرة على قدرة النص على تصوير المشاعر التي صاحبت هذه الأحداث وجعلتنا نشارك أصحابها إنفعالهم وتجارب معهم .

فها هي ذى مريم — تلك الفتاة العذراء الطاهرة — تريد الخلوة فتحطاط ألا يراها إنسان ، وتتخذ الحجاب ، ولكنها تفاجأ بشاب وسيم أمامها، ولنا أن نتخيل إزاء ما أصابها من ذعر وفزع، وماذا تملك وهي فتاة لا حول لها، ولا طول، وماذا تفعل ؟ فلنستمع إلى القرآن يعبر عن فزعها في قوله : ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾^{٣٥} ۝

وعندما يجيبها الملك الكريم موضحاً مهمته لا يجدى ذلك في طمأننتها ونزع الشك من نفسها ، فقد تكون خدعة دبرها ذلك الذي أقتحم عليها خلوكها فنراها

لا تستسلم له بل تعتمد إلى الاستيثاق من الأمر فتسأله : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ
يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ ؟

وعندما يقضى أمر الله وتحمل استحابة بقضائه ، وترحل بعيداً عن قومها
تتناهاها الهواجس ، وتتداعى عليها الهموم ، كيف ستواجه قومها ، وهم أهل عبادة
وطهر وغيره على الشرف والعرض ؟
وكيف ستفسر لهم ما حدث ؟

ثم يضاف إلى ألامها النفسية ألام جسدية مما يصاحب الوضع فتخور مقاومتها ، وتغن
عزيمتها ، ولتستمع إلى القرآن يعبر عن ذلك بقوله على لسانها : ﴿ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ
هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا ﴾ .

ولكن تطوراً مفاجئاً يبدل كل شيء ، وينهى أزمته ، ويرى جراحها المادية
والمعنوية ، فتري من آيات الله ما يرد إليها يقينها ، ويملؤها ثقة تواجه بها العالم ،
وتتحدى الدنيا ، فإذا بها تعود غير مكترثة لشيء تحمل ابنها في اعتزاز وفخر ، مؤمنة
بأن الله الذي رأت فضله وقدرته لن يتخلى عنها مصدقة بوعدده ، ملتزمة بأمره ،
وعندما تبدأ محاكمتها أمام قومها بالسخرية اللاذعة ، والتوبيخ المهين ، لا يحرك ذلك
ساكناً فيها ، ولا تكثر ثقتها في الله ولا تزيد عن أن تشير إلى ابنها ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾
إنه الاطمئنان القلبي لنصر الله ورعايته .

ولكن قومها معذورون ، فهي تحدثهم بما لم يعهدوه ، فلا تقنعهم إجابتها بل
يرون فيها حكماً بهم ، واحتقاراً لهم ، فيردون عليها وهم في ذروة انفعالهم منكبين
ذلك عليها ﴿ كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾

تلك قدرة التصوير على إبراز المشاعر والتعبير عن أعماق الانفعالات تجعلنا
نشارك أبطال القصة مشاعرهم فنحس نحو مريم بالإشفاق عليها ، والتعاطف معها في

مختها ، والإعظام لشأها والإعجاب بقوة يقينها ، ونتمنى لو كنا هناك لندفع عنها الأذى ونرده على لائميها .

ونلاحظ أن أسلوب القصة القرآنية يتضمن التشويق ، وتصوير المشهد ، ويمزج الجوانب الدينية بجوانب القصة ، ويميز الحوار الحسن ، ويكرر بلا ملل أو سامة .

٥ . التشويق والإثارة في الأسلوب

يتضمن أسلوب القرآن الكريم الإثارة والتشويق بعدة طرق فمرة يفصل بعد إجمال ، ويبين بعد إجمال ، لأن النفس مع الإجمال ، والإجمال ، تشوق إلى معرفة ما وراء ذلك ، وتتبه لما يأتي عساه يكون شارحاً ، موضحاً ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَجَزَلْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٦ ﴾ ^(١) هكذا عبر عن جزائهم في إجمال بأن مصيرهم الجنة ، ثم فصل ما في الجنة من ألوان النعيم فيقول ذاكرأ أحوالهم فيها : ﴿ مُتَكِينِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٧ ﴾ ^(٢) وَذَانِيَّةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذِيلًا ۝١٨ ﴾ ^(٣) .

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝١٩ ﴾ ^(٤) هكذا يعبر في إجمال ثم يفصل بعض هذا الملك الكبير والنعيم فيقول سبحانه : ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقْنَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢٠ ﴾ ^(٥) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ۝٢١ ﴾ ^(٦) .

^(١) سورة الإنسان الآية (١٢) .

^(٢) سورة الإنسان الآية (١٣ - ١٤) .

^(٣) سورة الإنسان الآية (٢٠) .

^(٤) سورة الإنسان الآية (٢١ - ٢٢) .

ومثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَكُمْ لَشَتَّى ۝١١ ﴾ ^(١١) فقد بين أن مساعي الناس في

الدنيا متنوعة ثم فصل ذلك بقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ۝١٢ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝١٣ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝١٤ وَأَمَّا مَنْ كُذِّبَ بِالْحُسْنَى ۝١٥ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝١٦ ﴾ ^(١٢)

ومثال الإلهام ثم التوضيح قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا

أَمْرَاتِ نُوحٍ وَأَمْرَاتِ لُوطٍ ۚ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا

فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ۝١٧ ﴾ ^(١٣) فقد ذكر

لفظ ﴿ مَثَلًا ﴾ مبهماً ثم فسره بما جاء بعده ليثير النفس إلى معرفة المراد ويشوقها إليه .

ومرة بأسلوب التهيج ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ

وَالْمُنَافِقِينَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٨ ﴾ ^(١٤) فحاشا لله أن يكون

الرسول ﷺ ممن لا يتقون الله حتى يؤمر بها ، أو أن يكون مطيعاً للكافرين فينهى عن

طاعتهم ولكنه أسلوب الإلهاب والتهيج الذي يراد به الحث على زيادة التمسك

والتصلب والثبات على ما هو عليه ، ويكون فضل هذه الطريقة في التعبير على قولنا :

استمر في التقوى أو ازدد منها وازدد تمسكاً بعدم طاعة الكافرين والمنافقين : هي أنها

تفيد مع ذلك الإلهاب والتهيج ، وتثير الشعور والوجدان ، فتكون النفس أحسن تلقياً

وأكثر تمسكاً بما هو كائن ، ولذلك نجد هذا الفن من فنون القول مستعملاً في المعاني

الهامة التي هي أصول في هذا الدين ^(١٥) .

(١١) سورة الليل الآية (٤) .

(١٢) سورة الليل الآيات (٥ - ١٠) .

(١٣) سورة التجرم الآية (١٠) .

(١٤) سورة الأحزاب الآية (١) .

(١٥) من أسرار التعبير القرآن .

٦ . التأثير الصوتي من خلال الترتيل

يقول الدكتور محمد دراز : أول ما يلاحظك ويسترعى انتباهك من أسلوب القرآن خاصية تأليفه الصوتي في صورته، وجوهه، دع القارئ المجدد يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله، نازلاً بنفسه على هوى القرآن، لا نازلاً بالقرآن على هوى نفسه، ثم اتبعت مكاناً قصياً، لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها، وسكناتها ومداتها، وغنائها، واتصافها، وسكناتها، ثم ألقى بسمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جردت تحريداً، وأرسلت ساذجة، في الهواء فستجد نفسك منها بازاء لحن غريب لا تبعده في كلام آخر، ستجد اتساقاً واتسافاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر على أنه ليس بأنغام ولا بأوزان .

ثم يقول : وهذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب ^(١) .

وقد تحدثنا من قبل عن الألفاظ المصورة بجرسها الخاص، حتى أنها لتكاد ترسم صورة للمعنى بنغمها المميز من أمثال : الصاعقة، والصرصر وغيرهما .

ثم هو في بناء جملة يعتمد إلى لون من التوافق تكاد تكون به متوافقة في الوزن، فلنقرأ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۚ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۚ وَمَا خَلَقَ

الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۚ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۚ ﴾ ^(٢) فنجد ذلك الإيقاع المميز الذي يشيع

في هذه الجمل، فيجعلها كأنها مضبوطة بتفاعيل، وأوزان متحدة .

ونجمة سمة أخرى للتعبير القرآني هي ذلك التشاكل الواقع بين الحروف في

أواخر الأي يطلق عليه العلماء الفواصل، وهي تمد التعبير بميزة صوتية أخرى تزيد

تأثيره، بجانب وظيفتها المعنوية، إذ تساعد على تلاوته مرتلاً مجوداً، بأنغام أسرة،

^(١) النبا العظيم — ص ١٠١ — ١٠٢ .

^(٢) سورة الليل الآيات (١ — ٤) .

ذات إيقاع يتناسب مع الموقف، واتجاه المشاعر التي تصاحبه، ولهذا نرى القرآن الكريم ينتقل من فاصلة إلى أخرى تبعاً للموقف، وما يتطلبه من إيقاع يتناسب معه .

ولنقرأ قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمُدِيرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبِّكَ فَكَبِّرُ ۝ وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝ ﴾^(١)
فنراه يستخدم قافية الراء الساكنة التي يوحى إيقاعها بالحزم والجد الذي يستوجبه سياق هذه الأوامر إلى نبيه الكريم بعد انقطاع الوحي عنه .

فإذا انتقل إلى عرض آخر تغيرت الفاصلة بأخرى ذات إيقاع مغاير ﴿ فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ۝ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝ ﴾^(٢)
فهو هنا يذكر باليوم الآخر وما فيه من أهوال ، فيختار الألفاظ المتسمة بالشدة والقافية الموحية بالرهبة العميقة .

ومثل هذا نجده في قصة مريم ، فقد التزم في القافية الياء المشددة ، ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ ﴾^(٣) إلى آخر القصة فإذا انتهت وانتقل إلى تقرير مغزى القصة وبيان العبرة من ذكرها نقرأ قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ۚ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ وَإِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ ﴾^(٤) فتغير القافية كما نرى ، وكأما هذه

(١) سورة المدثر الآيات (١ - ٧) .

(٢) سورة المدثر الآيات (٨ - ١٠) .

(٣) سورة مريم الآيات (١٦ - ١٧) .

(٤) سورة مريم الآيات (٢٤ - ٢٦) .

الآيات الأخيرة تصدر حكماً مستمداً منها ، ولهجة الحكم تقضى أسلوباً موسيقياً غير أسلوب الاستعراض ، وتقتضى إيقاعاً رصيناً قوياً يدل إيقاع القصة الرضى المسترسل وكأنما لهذا السبب كان التغيير ^(١) .

وهكذا يستخدم القرآن الكريم الخصائص الصوتية كوسيلة للتأثير كما سبق أن بينا ، فيختار لكل مقام ما تستوجبه البلاغة في التعبير عنه .

٧ - إظهار عوامل الطاعة

يعمل أسلوب القرآن الكريم على إبراز عوامل الطاعة في النفس البشرية ، ويورد لذلك عدداً من ألوان الترغيب والترهيب ^(٢) .

ويحيط الإنسان بمدى علم الله وقدرته ، ويدعو دائماً إلى النظر في الآيات الكونية ، والإنسانية .

* * *

^(١) التضمير الفني في القرآن - ص ٩٠ - ٩١ .

^(٢) سوف تفصل هذا الجانب في الجزء التالي بإذن الله تعالى .

المبحث الثامن

توافق الأسلوب والموضوع

حين نعيش مع أسلوب الدعوة في عصر الرسالة نلاحظ دقة التوافق بين

الأسلوب والموضوع .

الدعوة إلى العقيدة : إذا كان الموضوع دعوة إلى العقيدة نرى الأسلوب يتجه إلى قدرات الإنسان المختلفة بالإقناع ، والدليل .

فمرة يتجه إلى العقل ، فيجادله ليكشف له عن زيف ما هو عليه من عقيدة فاسدة ، وأنها متهافة لا تقوم على أساس ولا يقرها منطق سليم وليسوق له بعد ذلك الأدلة القاطعة على صحة العقيدة الجديدة ، وشهادة المنطق لها ، واطمئنانه إليها ، وهو في جدله ذاك يسوقه في أسلوب يجتمع له جوانب الإقناع العقلي ، والتأثير الوجداني ، مما يجعله جديراً بأن يطلق عليه المنطق الوجداني كما سبق .

فقد جادل المشركين ، وركز في جدله على إثبات عجز هؤلاء الشركاء المزعومين ، وعرض ذلك في أساليب متعددة .

مرة بالتلطف، والاستدراج، وإشراكهم في استنباط النتائج، والوصول إلى الحق كما فعل إبراهيم عليه السلام " في إبطال عبادة الكواكب ، وكيف استعرضها إبراهيم عليه السلام واحداً واحداً ، ليثبت عدم أحقيتها للألوهية، حتى إذا انتهى منها جميعاً صدع بالحق الذي يريده قائلاً : ﴿ يَنْقُومِ إِنْى بَرَىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٢١) إِنْى وَجْهْتُ وَجْهَى لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢٢) .

ومرة بأسلوب المواجهة الصريحة ، التي تقطع كل حجة ، وتنتهى كل جدل ، كما فى تلك التجربة العملية التى قام بها إبراهيم، ليثبت لقومه أن أصنامهم عاجزة ، لا عن النفع والضرر فقط ، بل عاجزة أيضاً عن أن تدفع عن نفسها ، وذلك عندما

حطمتها وجعلها جذاذاً متناثراً تطؤه الأقدام .

ومرة بأسلوب التقرير الذى يجبرهم على النطق بالحق الذى لا يدفع ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَوُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَوُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾ (١٦) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ ۚ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (١٧) .

ومرة بالسخرية منهم وتصويرهم فى صورة العاجز عن أتفه الأمور ، كما رأينا فى قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ تَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (١٨) .

ومرة بمطالبتهم بالدليل على دعواهم حتى إذا عجزوا كان ذلك قاطعاً فى بطلانها لأنها لا تعتمد على دليل .

ومرة يحثهم على تدبر ما فى الكون من دلائل على وحدانية الله وهو فى هذا المجال يعرض عليهم صفحات ناطقة من كتاب الكون الدالة على ألوهية الله ووحدانيته ، فليس عليهم إلا أن يعملوا عقولهم ، ويتدبروا ويستبدوا الحقيقة لبصائرهم جليلة لا تحتاج إلى دليل .

ويوجه القرآن الكريم إلى الوجدان كذلك باعتباره وعاء الشعور الإنساني ومجمع غرائزه ونزعاته ، وخواطر إرادته حيث نراه :

(١٦) سورة يونس الآيات (٣٤ — ٣٥) .

(١٧) سورة الحج الآية (٧٣) .

• يشير غريزة حب الذات بالترغيب ، فالإنسان مجبول على حب الخير لنفسه والسعى لما يحققه ، فيعده بالخير في الدنيا والآخرة ، ويعرض عليه صوراً وألواناً منه ، مستخدماً كل وسائل التأثير ، من تصوير معجب ، وتأكيّد قوى ، وتشويق يشير الكوامن ، فيريه الجنة كأنه يرى مباحثها ، ويستروح نسماها ، ويزين له ما يصنعه الإيمان في القلوب من شعور باليمن وشعور بالرضا إلى آخر تلك المعالي التي تلمس الوجدان وتفتح مغاليق القلوب .

• يشير غريزة الخوف بالترهيب مما سيترتب على عدم الاستجابة من ويل ، وبلاء في الدنيا والآخرة أيضاً ، فيعرض عليه صور العذاب في الآخرة ، ويذكره بما أصاب الأمم السابقة في الدنيا عندما تولت عن دعوة الله ، في أساليب تجعله يرى مضارع القوم ، ويسمع أناتهم ، مما يهز القلوب ، ويزلزل النفوس لتتقاد وتلين .

• يشير غريزة التدبير في الإنسان التي تدفعه إلى البحث عن الحق ، فيلقنه إياه ، في أسلوب أخاذ يحته فيه على النظر في آيات الله ، ويعرض عليه من ذلك ما يمتع الحس والعقل معاً .

• كما يشير فيه مشاعر الهيبة والإجلال لله ، بما يعرضه عليه من صفات جلاله ، وعظائم آياته الدالة على قدرته ، كما يشير مشاعر الحب لله ، ورجاء فضله ، والتودد إليه والتوكل عليه ، والثقة في رعايته وحمايته ، بما يعرضه من ألوان نعمه ، وعميم فضله ، وسابغ رحمته ، فهو الرحمن ، الرحيم ، الودود ، الغني ، الباسط ، الجواد ، أسبغ نعمه على الناس ظاهرة وباطنة .

تلك المعالي التي تمثل رباطاً روحياً محكماً يشد الإنسان إلى ربه ، يكررها القرآن ويؤكدّها حتى تستقر في النفوس فترقق العواطف وتلين القلوب وتجذبها نحو الحق جل وعلا .

كما يستعجش القرآن شعور الكرامة الإنسانية ، فيربأ به أن يذل لمخلوق مثله ، وأن يعزو وجهه لما لا يملك لنفسه شيئاً ، ويذكر في شعور الاعتزاز بما فضل به

على سائر خلقه ، من اصطفاؤه للخلافة في الأرض وحمل الأمانة ، وتلك المنزلة العالية لا يصح أن يهدرها الإنسان فيسجد لحجر ، أو يطلب العون من حماد .

هذه الغرائز وتلك المشاعر التي يتجه إليها القرآن ليحدد الحق طريقه إلى القلوب من خلالها ، يختار في التعامل معها ما يناسبها من الأساليب المؤثرة التي توضح أوارها، وتركى حميتها .

الدعوة إلى العبادة :

إذا كانت الدعوة إلى العبادة نرى القرآن الكريم يتجه إلى غريزة حب الذات بالترغيب ، فيعرض ألواناً مما تحققه العبادات للمسلم في الدنيا ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وعند حديثه عن الحج يشير إلى أنه فريضة ليشهد المؤمنون منافع لهم والزكاة تطهر المال وتركى النفوس، وتحقق الخير للمجتمع كله، وتربط بين الغني والفقير برباط الحب والإخاء، ثم يسوق ألواناً من الجزاء في الدنيا بمضاعفة الخير، وتحقيق الجزاء الأوفى في الآخرة ، ويعرض ذلك في صورة أسرة تدفع النفوس دفعاً للطاعة .

ويتوجه إلى غريزة الخوف بالترهيب ، فيوعد المقصرين بكل ألوان العذاب . ويتوجه إلى غريزة الملكية فيقلل من حدتها ، كما في تسميته الصدقة قرصاً فهي لن تضيع بل تتضاعف ، ويؤكد أن ما ينفق المسلم اليوم سيضاعفه له الله غداً ، ويذكر بأن المال الذي في يد الأغنياء إنما هو مال الله جعلهم مستخلفين فيه ، فهو يطالبهم بإعطاء الفقراء بعض ما أعطاهم من مال .

ويتوجه إلى النفس الإنسانية فيعالج أدواءها من بخل وشح وحب للحياه والاستعلاء ، والمن والأذى .

كل ذلك لاحظته الإسلام في دعوته للعبادات ، لأن طبيعة الموضوع تقتضيه ، وساقه في أساليب زاخرة بألوان من وسائل التأثير .

الدعوة إلى المعاملات : [إذا كانت الدعوة إلى المعاملات نرى القرآن يتجه إلى الألفاظ

فيختار أدقها، وأحكمها في الدلالة على المعنى المراد، ويكون استعماله للألفاظ استعمالاً

حقيقياً ، فإذا أطلق لفظاً إطلاقاً مجازياً لغرض ما ، كان ذلك واضح المأخذ قريباً ، شديد الظهور ، كما في تسميته المرضعة أمّاً ، والمشاركة للطفل في الرضاعة من الأم أختاً .
وفي الصياغة القرآنية تقصد الآيات إلى تقرير الحقائق الدينية ، والأحكام الشرعية دون مبالغة ، أو تحوز ، فلا يستعمل الخيال في أصول المعاني المرادة ، وإنما يكون التعبير الحقيقي ، المفصل ، الواضح ، إذا كان المقام يستدعي التفصيل ، أو الجمل الجامع إذا كان المقام له .

ويؤثر غالباً المعاني الوجدانية لبعث الثقة فيها لأنها حكم الله العليم بما يصلح الناس ، أو التذكير برقابة الله وإصلاحه على الأعمال أو التحذير من مخالفتها ، وإثارة شعور التقوى في النفس ، أو الترغيب في الطاعة ، والوعد بجزيل الأجر ، وحسن المثوبة ، كما يستخدم وسائل التأثير الأخرى كالتوكيد ، وتكرير صفات الله في الفواصل ، أو إثارة الشعور الأخلاقي في النفس ، وباللمسات الوجدانية التي توحى بها الألفاظ والتعبيرات .

وهكذا ..

يتوافق أسلوب القرآن الكريم مع الموضوع الذي يدعو إليه ، بدقة بليغة تحقق المقصود من الأسلوب .

المبحث التاسع

مواجهه عدوان الكفار

تيقن كفار مكة أن دعوة محمد ﷺ تختلف عن ما سبقها من أفكار الحنفاء ، و أمثالهم من ناحية تحديد موضوعها ، و ثباتها ، و سمو أهدافها و كان أكثر ما أثار انتباههم ازدياد قوة المسلمين يوماً ، بعد يوم ، و شدة تواصل المؤمنين ، و ترابطهم ، و قوة حب المسلمين لله و رسوله ، و عظمه اعتزاز المسلمين بدينهم ، و تمسكهم بتطبيق تعاليمه بصدق و إخلاص .

وصل كفار مكة الى هذا الفهم ، و بدأوا في التحرك لمواجهة ، و قد أخذ توجههم يزداد عنفاً " شيئاً " فشيئاً " من أجل الوصول الى إطفاء نور الحق ، و القضاء على الدين الوليد .

بدأوا - أولاً - بإغراء النبي ﷺ بالمال ، و الجاه ، و السلطان و بكل ما يريد شريطة أن يترك دعوته ^(١) لكنه صلى الله عليه و سلم رد عليهم بتمسكه بدعوة الله ، و حذرهم من عاقبة كفرهم ، و نفذ معهم أمر الله له في قوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَقُلْ أَندَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ^(٢) .

و حاولوا - ثانياً - مساومة رسول الله ﷺ ليجمع شيئاً من دينهم و شيئاً من دعوته ليلتقى الفريقان في منتصف الطريق ، و بذلك لا تضار آلهتهم لأنها ستعبد مع الله تعالى ، فرد عليهم رسول الله ﷺ بقوله تعالى ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ ^(٣) .

(١) انظر صفحہ ٣٤٥

(٢) سورة فصلت اية ١٣

(٣) سورة الكافرون

وطلبوا منه **ثالثا** - أن يبقى أمره لنفسه ، و على آل بيته فأبى عليهم ذلك ، و عرفهم أنه رسول الله تعالى لهم ، و للعالم كله .

عندئذ أخذوا في صد الناس عنه بنشر الإشاعات الكاذبة عن رسول الله ﷺ فأتهموه بالسحر ، و الكذب ، و السفه ، و اتهموا القرآن بالاختلاق ، و النقل من الأساطير و اتهموا المسلمين بالضعف ، و عدم التعقل - يحكى الله تعالى حملتهم هذه فيقول سبحانه ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۚ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۚ ﴾ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ۚ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿١١﴾

فلما يشوا من محاولاتهم لرسول الله ﷺ ذهبوا الى عمه عددا من المرات . مرة يطلبون منه أن يكف ابن أخيه عن دعوته لأنها - في نظرهم - فرقت جمعهم و عابت ألفتهم ، و أساءت الى آبائهم .

و مرة يحاولون أن يستبدلوا به فتى منهم ، للقيام بقتله بعد ثملكه . فلما لم يستجب لهم أبو طالب ذهبوا اليه مهددين ، فكلّم أبو طالب محمدا ﷺ في الأمر ، فرد عليه بأنه مستمر على دعوته ، و لن يتركها بحال .

يصور ابن اسحاق ذلك فيقول (و مضى رسول الله ﷺ في على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه ، ثم اشتد الأمر بينه و بينهم ، حتى تباعد الرجال ، و تضاعفوا و أكثر قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها فتدامروا فيه ، وحض بعضهم بعضا عليه . ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سنا و شرقا و منزلة فينا ، و إنا قد استنهييناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، و إنا و الله لا نصبر على

هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أعلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله و إياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا عنه .

فعظم على أبي طالب فراق قومه و عداوتهم ، و لم يطب نفسا بتسليم رسول الله ﷺ لهم ، و لا لأحد منهم ، فبعث الى رسول الله ﷺ فقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا و كذا ، للذي كانوا قالوا له ، فأبى على و على نفسك و لا تحملي من الأمر ما لا أطيق ، فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله و مسلمه ، و أنه قد ضعف عن نصرته و القيام معه .

فقال رسول الله ﷺ : يا عم ، و الله لو وضعوا الشمس في يميني و القمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته .

ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فبكى ثم قام ، فلما ولي ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخي ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ ، فقال : إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً^(١) .

و حينئذ تأكدوا من فشلهم في تحريض عمه أبي طالب ، و تحریده ﷺ من الحماية و المساندة فوضعوا خطه متعددة الأطراف لإرهاب الرسول و المؤمنين ، و منع الناس من الاقتراب من رسول الله ، و الاستماع لدعوته . و يحمل هذه الخطه يتضح في النقاط التالية :-

- ١- قيام كل قبيله بتعذيب ، و اضطهاد من أسلم من أبنائهم ، أو من عبيدهم .
- من ذلك أن أبا جهل كان إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ، و منعه ، أنبه ، و أخزاه و أوعدده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال ، و الجاه ، و إن كان ضعيفاً ضربه و أغرى به^(٢)

(١) سيرة النبي ج ١ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦

(٢) سيرة النبي ج ١ ص ٣٢٠

- و لما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أبحاعته، وأخرجته من بيته ، و كان من أنعم الناس عيشا، فتحشف جلده تحشف الحية (١)

- و كان أمية بن خلف الجمحي يضع حبلا في عنق مولاه بلال، ثم يسلمه إلى الصبيان يطوفون به جبال مكة، و كان أمية يشده شدا " ثم يضربه بالعصا ، و كان يلجئه إلى الجلوس في حر الشمس ، كما كان يكرهه على الجوع ، وأشد من ذلك كله أنه كان يخرج به إذا حميت الظهيرة فيطرحه في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظمية فتوضع على صدره، ثم يقول: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد ، و تعبد اللات و العزى . فيقول بلال - و هو في ذلك - أحد، أحد، حتى مر أبو بكر يوما " و هم يصنعون ذلك به ، فاشترى بـغلام أسود ، و قيل بسبع أواق أو بخمس من الفضة و أعتقه (٢)

- و كان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى النبي ﷺ ، أسلم هو و أبوه و أمه فكان المشركون - و على رأسهم أبو جهل - يخرجوهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبوهم بحرما . و مر بهم النبي ﷺ و هم يعذبون فقال لهم : صبرا آل ياسر ! فإن موعدكم الجنة ، فمات ياسر في العذاب ، و طعن أبو جهل سمية - أم عمار - في قلبها بحربة فماتت ، و هي أول شهيدة في الإسلام ، و شددوا على عمار بالحر تارة ، و بوضع الصخر على صدره تارة أخرى، و بالتغريق الثالثة. و قالوا : لا تركك حتى تسب محمدا " أو تقول : في اللات و العزى خيرا ، فوافقهم على ذلك مكرها و جاء باكيا معذرا إلى النبي ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣)

(١) راحة للعائين ص ٥٨

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٧، ٣١٨

(٣) سورة النحل آية ١٠٦

- و كان أبو فكيهه - و اسمه أفلح - مولى لبني عبد الدار ، فكانوا يشدون برجله الحبل ثم يحرقونه على الأرض ^(١) .

- و كان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية ، فكان المشركون يذيقونه أنواعا من التشكيل ، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبا ، و يلوون عنقه تلوية عنيفة ويضجعونه مرات عديدة على فهم ملتهبة ، ويضعون عليه حجرا ، حتى لا يستطيع أن يقوم ^(٢) .

- و كانت زنيرة ، و النهدية ، و ابتها ، و أم عبيس إماء أسلم ، و كان المشركون يسومونهن من العذاب أمثال ما ذكرنا .

- و أسلمت جارية لبني مؤمل - و هم حتى من بني عدى - فكان عمر ابن الخطاب - و هو يؤمن بمشرك - يضربها ، و إذا مل قال : إني لم أتركك إلا ملالة ^(٣) .

- و كان المشركون يلقون بعض الصحابة في إهاب الإبل و البقر ، ثم يلقونه في حر الرمضاء ، و يلبسون بعضا آخر درعا من الحديد ثم يلقونه على صخرة ملتهبة ^(٤) .

- و قائمة التعذيب طويلة شملت أغلب من أسلم في مكة بعد الجهر بالدعوة ، يروى ابن كثير بسنده عن ابن جبير أنه قال : قلت لعبد الله ابن عباس : " أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟

قال : نعم والله ! إنهم كانوا يضربون أحدهم ، و يجيعونه ، و يبطشون به حتى ما يقدر أن يستوى جالسا " من شدة الضر الذي به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له اللات و العزى إهان من دون الله ، فيقول : نعم ! افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم . ^(٥)

(١) رجمة للعالمين ج ١ ص ٥٧

(٢) تلقيح فهو من أهل الأرض ص ١٠٦

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٩

(٤) رجمة للعالمين ج ١ ص ٥٨

(٥) البداية و النهاية ج ٢ ص ٥٩

٢- إعداد فريق من شباب الكفر ممن يجيد فن التعامل مع الناس ، ليمروا على القبائل في موااسمهم ، ليقولوا في رسول الله ما شاءوا من قول سيء ، و وشاية كاذبة .

٣- تكليف جماعة من ابنائهم لملاحقة رسول الله ﷺ عند البيت ، و شتمه ، و وصفه بكل صفة منفرة ، و إحاطته بالسخرية ، و الاستهزاء حتى تسقط مهابته في نظر الناس فعن عمرو بن العاص ﷺ " أن عمرو بن الزبير سأله عن أكثر ما رأى من قريش إيذاء لرسول الله ﷺ " .

قال : " حضركم ، و قد اجتمع أشرافهم يوما في الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، و شتم أبائنا ، و عاب ديننا ، و فرق جماعتنا ، و سب أهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم .

فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ ، ثم مضى ، فلما مر بهم الثانيه غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ : ثم مر بهم ثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ، ثم قال : أسمعون يامعشر قريش ، أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته حتى مامتهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى أن أشدهم فيه و صاة قبل ذلك ليرفوه بأحسن ما يجد من القول فيقول : إنصرف ياأبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا " فانصرف رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر و أنا معهم ؛ فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، و ما بلغكم عنه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه .

فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد و أحاطوا به ، يقولون له : أنت تقول كذا و كذا ، لما كان يقول من عيب أهنتهم و دينهم .

فيقول لهم رسول الله ﷺ : نعم أنا الذي أقول ذلك .

فرايت رجلاً منهم يأخذ بمجمع رداءه ﷺ . فقام أبو بكر ﷺ ودونه ، و هو يسكى
و يقول : أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ثم أنصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما
رايت قريشاً نالوا منه قط ^(١)

و قد سبق أن ذكرنا ما كان منهم مع رسول الله ﷺ في قصة اسلام حمزة ﷺ ^(٢)
٤- التعت في مواجهة رسول الله ، و طلبهم أموراً خارقة للعادة ، دليلاً على صدقه
و هم مع ذلك عازمون على الكفر ، مهما جاءهم من الخوارق ، و لذلك قال الله تعالى
لرسول الله ﷺ ليصرفه عن مواجهتهم : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ
آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ
(٣) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَ الْأَمْرِ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَأِيكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ
شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَئِنْ أَكْثَرُهُمْ أَجْهَلُونَ (٥) ﴾ ^(٦)

و قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٥) وَلَوْ
جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٦) ﴾ ^(٧)

لقد رأى أهل مكة العديد من المعجزات الخارقة للعادة و على رأسها القرآن الكريم
، و مع ذلك لم يؤمنوا ، فلما طلبوا خوارق جديدة لم يستجب الله لهم رحمة بهم ،
لأنه سبحانه و تعالى لو أوجد لها لهم ، و استمروا على كفرهم لعذبهم عذاباً شديداً .

(١) سيرة النبي لأبي هشام ج ١ ص ٢٩٩ ، ٢٨٩

(٢) انظر صفحة ٤٨١

(٣) سورة الانعام الآيات ١٠٩-١١١

(٤) سورة يونس الآيات ٩٦-٩٧

يروى ابن كثير ان ابن عباس قال : " قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً " و تؤمن بك.

قال ﷺ : و تفعلوا ؟

قالوا : نعم .

فدعا الرسول ﷺ ربه فأناه جبريل

فقال : يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام و يقول لك إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً . فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، و إن شئت فتحت لهم باب الرحمة و التوبة ، قال : بل التوبة و الرحمة ^(١)

و قد واجه رسول الله ﷺ هذا العدوان بطرق عديدة أهمها :-

أولاً : تقوية إيمان المعذبين :

أخذ رسول الله ﷺ في تقوية إيمان المعذبين ، و عرفهم أن المؤمنين دائماً في بلاء ، و أنهم بإيمانهم يعملون للآخرة قبل الأولى ، يقول ابن اسحاق : " و كانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر ، و بأبيه و أمه ، و كانوا أهل أول بيت في الاسلام إذا حيت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول ، فيما بلغني : صبرا " آل ياسر ، موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلوها ، و هى تأبى إلا الاسلام ^(٢) . و كان يقول لهم ﷺ : " أشد الناس بلاء الانبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل يتلى الرجل على قدر دينه " ^(٣)

و كان المسلمون يرون في رسول الله ﷺ المثل ، والقُدوة . فهو أسبقهم الى العدو ، وأولهم في التضحية ، و أفضلهم في الشرف ، والنبيل ، والطهر . و لذلك صدقوا في كل ما عاهدوا الله عليه .

ولقد كانت آيات القرآن الكريم تنزل عليهم تؤملهم في النصر و تحدد لهم معالم الطريق

١ - البداية و النهاية ج ٢ ص ٥٢

٢ - السيرة النبوية ج ١ ص ٢١٩

٣ - فيض القدير ج ١ ص ٥١٩

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٨﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٩﴾ وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٨٠﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٨١﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٨٢﴾ ۝ (١)

وكان الرسول " ﷺ " حريصا على تعريف المسلمين بحدى العبد الواجب تحمله يروى البخارى بسنده أن حباب بن الأرت جاء الى النبي " ﷺ " وهو متوسد برده ، وهو فى ظل الكعبة ، و قد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : ألا تدعو الله ، فقعد ، وهو شمر وجهه ، فقال : " لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط حديد ما دون عظامه من لحم و عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، و ليؤمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ما يخاف إلا الله - و الذئب على غنمه " (٢) و بهذا التوجيه النبوى للجماعة المؤمنة الأولى ، ظهرت قوة ، صامدة ، محسنة .. و عليها ، وعلى أمثالها ، وجدت الأمة الإسلامية ، وتحقق للأسلام و المسلمين الكرامة و الحرية .

ثانياً: تحرير الارقاء

كان أغلب من يعذب هم الارقاء الذين أسلموا عند سادتهم ، و لذا هدى الله أبا بكر " رض " إلى تحرير من استطاع تحريره ، و بارك رسول الله " ﷺ " فعله . من ذلك أن أبا بكر " رض " مر على بلال " رض " وهو يعذب ، فقال لأمية ابن خلف: ألا تنقئ الله فى هذا المسكين ؟ حتى متى ؟ قال له : أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى .

فقال أبو بكر : أفعل ، عندى غلام أسود أجلد منه ، وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به

(١) سورة الصافات الآيات ١٧١-١٧٧

(٢) الرحيق المختوم ص ١١٧

فقال أبو بكر : هو لك ، فأعطاه أبو بكر الصديق ﷺ غلامه ذلك وأخذ بلالا فأعتقه .
ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب ، بلال سابعهم ،
وهم عامر بن فهيرة ، شهد بدرا ، وأحدا ، و قتل يوم بئر معونة شهيدا ، وأم عيسى
، و زبيرة ، وقد أصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا
اللات والعزى ، فقالت : كذبوا و بيت الله ماتضر اللات والعزى و ماتنفعان ، فرد
الله بصرها ، و أعتق النهديّة و بنتها و كانتا لامرأة من بني عبد الدار ، فمر بهما و قد
بعثتهما سيدتهما بطحين لها ، و هي تقول : و الله لا أعتقكما أبدا .

فقال أبو بكر ﷺ : حل يا أم فلان

فقالت : حل ، أنت أفسدتهما فأعتقتهما .

قال : فبكم هما ؟

قالت : بكذا و كذا .

قال : قد أخذتهما و هما حرتان ، أرجعا إليها طحينها .

قالتا : أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها .

قال : و ذلك إن شئتما .

ومر بجارية من بني مؤمل ، (حى من بنى عدى بن كعب) ، و كانت مسلمة ، و عمر

ابن الخطاب ﷺ يعذبها لتترك الإسلام ، و هو يومئذ مشرك و كان يضربها ، حتى إذا مل

قال : إني أعتذر اليك ، إني لم أتركك إلا ملالة ، فتقول : كذلك فعل الله بك

فابتاعها أبو بكر ، فأعتقها ^(١)

و قد عاتب أبو قحافة والد أبي بكر ولده فيما فعله . لانه رأى أن أبا بكر ينفق ماله في

تحرير الضعفاء الذين لا ينفعونه ، و لا يدفعون ضرا عنه (كما يتصور) ..

و هنا قال له أبو بكر : يا أبت إني لم أفعل ذلك إلا لله .

فترل فيه قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾ ① وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ②

فَسَيِّئُرُهُ لِلسَّرَى ③ و قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ④

إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ⑤ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ⑥ ①

ثالثاً : هجرة المسلمين الى الحبشة

شقت الدعوة مسيرتها الصعبة بين كفار مكة ، وأخذ الأذى يلاحق كل من أسلم ، و رأى رسول الله ﷺ بعد سنين من الجهر بالدعوة أن الكفار ماضون في عنفهم ، و عنتهم ، و صدّهم الناس عن سبيل الله و لذلك أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، لما فيها من موطن آمن ، ووجود ملك لا يظلم أحداً ..

روى عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ بعث أصحابه الى النجاشي و كانوا نحو ثمانين رجلاً ، و امرأة و ذلك في رجب سنة خمس من النبوة .

تقول أم مسلمة : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا النجاشي خير جار ، و أمنا على ديننا كما وعدنا الله ، لا تؤذى ، و لانسمع شيئاً نكرهه ، و أقمنا في خير دار مع خير جار .

و عاش المهاجرون بالحبشة مدة سمعوا خلالها أن صلحاً أبرمه الرسول ﷺ و أهل مكة فجاءوا الى مكة عائدين فلما اكتشفوا أن شيئاً لم يحدث عادوا مرة ثانية الى الحبشة ، و ظل المهاجرون في الحبشة الى أن هاجر الرسول ﷺ الى المدينة فقدموا اليها بعد فتح خيبر .

هذه الكوكبة السابقة الى الهجرة كان لها فضل السبق في إيصال الإسلام الى خارج الجزيرة ، و الدعوة اليه بعملهم ، و سلوكهم و بهذا السبق تميزوا عن المهاجرين الى المدينة يروى البخارى بسنده عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال " بلغنا مبعث النبي ﷺ و نحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه .

أنا و أخوان لي أنا أصغرهم ، أحدهم أبو بردة ، و الثاني أبو رهم في ثلاثة و خمسين أو اثنين و خمسين رجلا" من قومي فركبنا سفينه ، فألقنا سفينتنا إلى النجاشي بالحشة ، فوافقنا جعفر أبي طالب ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا" إلى النبي ﷺ حين أفتح خيبر، و كان أناس من الناس يقولون لنا ، سبقناكم بالهجرة ، و دخلت أسماء بنت عميس ، و هي ممن قدم معنا على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة ، و قد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر ، فدخل عمر على حفصة ، و أسماء عندها فقال عمر حين رأي أسماء : من هذه ؟

قالت حفصة : أسماء بنت عميس .

قال عمر : الحشية هذه ؟ البحرية هذه ؟ ! !

قالت أسماء : نعم .

قال : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم ، فغضبت و قالت : كلا والله ، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ، و يعظ جاهلكم ، و كنا في دار، أو في أرض البعداء ، و ذلك في الله و في رسوله ﷺ و أيم الله لا أطعم طعاما و لا أشرب شرابا" حتى أذكر ذلك للنبي ﷺ ، و أسأله و الله لا أكذب ، ولا أزيغ، ولا أزيد عليه . فلما جاء النبي ﷺ قالت : يائي الله ، إن عمر قال كذا و كذا .

قال ﷺ : فما قلت له ؟

قالت : قلت له كذا و كذا .

قال ﷺ : ليس بأحق بي منكم ، و له و لأصحابه هجرة واحدة ، و لكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

قالت : فلقد رأيت أبا موسى و أصحاب السفينه يأتون أرسالا" يسألوني عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرح، و لا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ

قال أبو بردة : قالت أسماء : فلقد رأيت أبا موسى و أنه ليستعيد هذا الحديث مني^(١)

و قد سر رسول الله ﷺ سرورا بالغيا بعودة مهاجري الحبشة بعد هذه الفترة الطويلة
و أمر الاسلام يعلو، و سلطانه يمتد شمال شبة الجزيرة و جنوبها ، و عندما نزلوا بالمدينة
قام الحبيب المحبوب ﷺ يرحب بعودتهم، و يعلن فرحه بهم، و ذلك فيما يرويه الحاكم
بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : " لما قدم جعفر بن أبي
طالب من أرض الحبشة قال رسول الله ﷺ "ما أدرى بأيهما أفرح ، بفتح خبير أم
بقدم جعفر " (١).

إن الهجرة إلى الحبشة كانت مؤقتة ، يلجأ إليها المسلمون ، يكتشفون بها معالم
الناس ، و يتعرفون على مذاهب و عادات الاقوام . و لذلك عاد المهاجرون إلى المدينة
موطن الاسلام ، و مستقرة ، و قاعدة انطلاقه إلى العالم كله.

رابعاً : إنتهاء المقاطعة : ■

لم تقف المواجهه بين كفار مكة ، و بين المسلمين عند الهجرة إلى الحبشة بل
أخذت تزداد عنفاً و شدة لأن كفار مكة فشلوا في رد المهاجرين إليهم، واعتقالهم
بعدها كانوا يتصورونه أمراً سهلاً .

و حيث رأى كفار مكة ضرورة القيام بعمل حاسم للقضاء على محمد،
ودعوته فلما تصدى لهم بنو هاشم ، و بنو المطلب، و تحصنوا بشعبهم، اتفقوا على
مقاطعة بني هاشم و بني المطلب، بصورة تامة، لا يجالسوهم، و لا يبيعوهم ، و لا
يشترى منهم ، و لا يزوجوهم ، و لا يتزوجون منهم ، و استمرت المقاطعة ثلاث
سنوات حتى اشتد الأمر بيني هاشم، و بني المطلب، حتى أكلوا ورق الشجر ، و كان
يسمع للأطفال بكاء من شدة الجوع .

واستمر الأمر على ذلك حتى أذن الله له بالانتهاء ، يروي ابن كثير ذلك بقوله:
(و جمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية ، فلما رأى أبو طالب عمل
القوم جمع بني المطلب و بني هاشم و أمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ،

و أمرهم أن يمنعوه من أرادوا قتله ، فاجتمع على ذلك مسلمهم ، و كافرهم ، فممنهم من فعل ذلك حمية ، و منهم من فعله إيماناً و يقيناً .

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ ، و أجمعوا على ذلك اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم و لا يباعدوهم ، و لا يدخلوا بيوتهم ، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل ، و كتبوا في مكرهم صحيفة ، و عهدوا ، و موآثيق ، لا يقبلون من بني هاشم صلحاً أبداً ، و لا تأخذهم بهم راقه حتى يسلموه للقتل ، فلبث بنو هاشم و بنو المطلب في شعبهم ثلاث سنين ، و اشتد عليهم البلاء و الجهد ، و قطعوا عنهم الأسواق ، و لم يتركوا طعاماً يقدم مكة ، و لم يجدوا بيعاً إلا بادروهم إليه ، فأشتروه ، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ . فكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد مكرًا و اغتيالاً له ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه ، أو أخوته ، أو بني عمه ليضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، ويأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه .

فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بني عبد مناف ، و من قصي ، و رجال من سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بني هاشم ، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم ، و استخفوا بالحق ، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغد ، و البراءة منه ، و بعث الله على صحيفتهم الأرضية فلهست كل ما كان فيها من عهد و ميثاق .

و يقال إنها كانت معلقة في سقف البيت فلم تترك أسماء الله فيها إلا لحسته ، و بقي ما كان فيها من ظلم ، و شرك ، و قطيعة رحم .

و أطلع الله عز و جل رسوله على الذي صنع بصحيفتهم فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب .

فقال أبو طالب : لا و الثواقب ما كذبتني فانطلق يمشي بعصابته من بيتي المطلب حتى

أتى المسجد، و هو حافل من قريش ، فلما رأوه عامدا لجماعتهم أنكروا ذلك وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء، فأتوهم ليعطوهم رسول الله ﷺ ، فتكلم أبو طالب فقال: قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم ، فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها ففعلوه أن يكون بيننا وبينكم صلح ، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها ، فأتوا بصحيفتهم معجبين بما لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوعا إليهم فوضعوها بينهم ، و قالوا : قد أن لكم أن تقبلوا، و ترجعوا إلى أمر يجمع قومكم ، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد، جعلتموه خطرا " هلكة قومكم، و عسيرتكم .

فقال أبو طالب : إنما أتيتكم لأعطيكم أمرا " لكم فيه نصف ، و إن ابن أخي أخير - و لم يكذبني - أن الله برئء من هذه الصحيفة التي في أيديكم، و محال كل اسم هو له فيها، و ترك فيها غدركم ، و قطيعتكم إيانا، و تظاهركم علينا بالظلم ، فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا ، فو الله لا نسله أبدا " ، حتى يموت من عندنا آخرنا ، و إن كان الذي قال باطلا دفعناه إليكم فقتلتموه ، أو استحييتهم .

قالوا : قد رضينا بالذي تقول ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها ، فلما رأوها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا : و الله إن هذا سحر من صاحبكم فارتكسوا، و عادوا بشر ما كانوا عليه من كفرهم ، و الشدة على رسول الله ﷺ و القيام على رهطه بما تعاهدوا عليه ^(١) .

ثم إنه قام في نقض الصحيفة نفر من قريش ، و لم يزل فيها أحد أحسن من بلاء هشام ابن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن حرام بن لؤي و ذلك أنه كان ابن أخي نضلة بن هشام بنت عبد مناف لأمه ، و كان هشام لبني هاشم واصلًا ، و كان ذا شرف في قومه فكان فيما بلغني - يأتي بالبعي، ر و بنو هاشم و بنو المطلب في الشعب ليلا قد أوقره طعاما، حتى إذا بلغ به فم الشعب نخلع عظامه من رأسه ثم ضرب على جنبه فدخل الشعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره برا فيفعل به مثل ذلك .

(١) الدلائل و الشبهة ج ٢ ص ٨٤ ، ٨٥ ، و تذكر رواية أخرى أن الأرض أكلت كل ما في الصحيفة ما عدا اسم الله تعالى .

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال : يا زهير أقدر رضىيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب و تنكح النساء و أخوالك حيث علمت ، لا يباعون و لا يبتاع منهم ، و لا يكمحون و لا ينكح إليهم ؟

أما إن أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك إليه أبداً .

فقال : و يحبك ياهشام فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معى رجل آخر لقميت فى نقضها .

قال قد وجدت رجلا .

قال من هو ؟

قال أنا .

قال له زهير ابغنا ثالثا، فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له : يا مطعم أقدر رضىيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف، و أنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه ، أما والله لئن تخلصتم من هذه لتجدكم إليها منكم سراعا .

قال : ابغنا ثالثا

قال : قد فعلت .

قال : من هو ؟

قال : زهير بن بنى أمية .

قال : ابغنا رابعا، فذهب إلى أبي البختري بن هشام فقال نحو ما قال لمطعم بن عدى فقال : و هل تجد أحدا يعين على هذا ؟

قال : نعم ! قال من ؟ قال زهير بن أبي أمية و المطعم بن عدى و أنا معك

قال : ابغنا خامسا .

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فكلّمه، و ذكر له قرابتهم، و حقهم فقال له : و هل على هذا الأمر الذى تدعون إليه من أحد ؟

قال : نعم ثم سعى القوم ، فاتعدوا عند الحجون ليلاً بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك و أجمعوا أمرهم ، و تعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها .

وقام زهير بن أبى أمية فطاف بالبيت سبعة، ثم أقبل على الناس ، فقال بأهل مكة أناكل الطعام و نلبس الثياب ، و بنو هاشم هلكن لا يتناعون ، و لا يتناح منهم ، و الله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة المقاطعة الظالمة .

قال أبو جهل - و كان فى ناحية المسجد - و الله لا تشق .

قال : زمعة بن الأسود : أنت و الله أكذب ، ما رضينا كتابتها حين كتبت .

قال أبو البختري : صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها و لا نقر به .

قال المطعم بن عدى : صدقتما و كذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها و عما كتب فيها .

وقال : هشام بن عمرو لحوا " من ذلك .

قال : أبو جهل : هذا أمر قد قضى بليل ، تشوور فيه بغير هذا المكان .

وقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضية قد أكلتها إلا باسمك اللهم^(١) و هكذا انتهت هذه الفترة القاسية التى مر بها المسلمون فى مكة ، و جاء الفرج من عند الله تعالى ، و انتهت هذه المقاطعة الظالمة .

و شاءت إرادة الله تعالى بوفاة أبى طالب عم رسول الله ﷺ و زوجته خديجة رضى الله عنها فى عام واحد ، عرف بعام الحزن فكان أن سرى الله تعالى عن رسول الله ﷺ برحلة الأسراء و المعراج . و بذلك تجلت معالم الدعوة العالمية فى لقاء رسول ﷺ بإخوانه الرسل . و بما أوحى إليه .

المبحث العاشر

استمرار الحركة بالدعوة

في خلال مرحلة الاضطهاد والمواجهة كان الرسول يتحرك بالدعوة في اتجاهات متعددة، باذلاً ما أمكنه من جهد ، وفكر ، وتوجيه .

فقد عرض الاسلام على القبائل ، وعلى جميع الوافدين إلى مكة في مواسم الحج والتجارة ، وواجه كفار مكة بدعوتهم إلى الله ، و تلاوة القرآن الكريم عليهم ، و أبدى لهم ما بدعوته من صدق ، و حق .. و بين لهم أن ما منعهم من الإسلام إلا الجحود ، و التعصب ، يدل على ذلك أقوال و أفعال نطق بها الكفار .

يقول أبو جهل (يا محمد إنا لا نكذبك و لكن نكذب ما جئت به ، فانزل

الله ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِنَايَةِ اللَّهِ يَتَّخِذُونَ ﴾ ^(١)

وعمره الكفار يوماً ثلاث مرات ، فقال لهم في الثالثة : يا معشر قريش : جئتكم بالذبح ، فأخذتهم تلك الكلمة ، حتى أن أشدهم عداوة يرفؤه بأحسن ما يجد عنده .
و لما ألقوا عليه سلا جذور و هو ساجد دعا عليهم ، فذهب عنهم الضحك ، و ساورهم الهم و القلق ، و أيقنوا أنهم هالكون .

و دعا على عتية بن أبي لهب فلم يزل على يقين من لقاء ما دعا به عليه ، حتى أنه حين رأى الأسد قال : قتلى و الله - محمد - و هو بمكة .

و كان أبي بن خلف يتوعدده بالقتل . فقال : بل أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما طعن أبيا في عنقه يوم أحد - و كان خلدش غير كبير - قال : إن محمدا قال : أنا أقتلك ، فوالله لو بصق على لقتلى .

و قال سعد بن معاذ - و هو بمكة - لأمية بن خلف : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إلهم - أي المسلمين - قاتلوك ، ففرع فرعاً شديداً ، و عهد أن لا يخرج عن

مكة ، و لما ألقاه أبو جهل للخروج يوم بدر اشترى أجود بعير بمكة ليتمكن من الفرار فقالت له امرأته : يا أبا صفوان ، أنسيت ما قال لك أخوك اليسرى ؟ قال : لا والله ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً .

و كان "ﷺ" يعيش مع المسلمين يمدّهم بالوحي ، و يعلمهم الإسلام و يملأ قلوبهم باليقين ، و يعمل على سلامتهم ، و تحقيق الخير لهم بكل ما أمكنه . من ذلك لما اكتشف المشركون بعض الصحابة في شعاب مكة و هم يصلون مستخفين ناكروهم و اصطدموا معهم ، أمر النبي ﷺ أصحابه بالاجتماع في دار الأرقم لكي يعبدوا الله بعيداً عن أنظار قريش ، و يتعلموا ما ينزل من القرآن الكريم ^(١)

و حين أسلم بعض الغرباء كعمرو بن عبسة ، و أبي ذر الغفاري ، أمرهم النبي ﷺ بالرجوع إلى قومهم ، لينشروا الإسلام في قبائلهم من ناحية ، و ليحافظوا على أنفسهم من كفار قريش الذين يفتنون الضعيف ، و الغريب الذي لا ناصر له ^(٢) حرص "ﷺ" على متابعة شؤون أصحابه بتقوية هممهم و تثبيتهم عند حلول الشدائد و المحن بهم ، فكان يزور الذين يعذبون منهم في أماكن تعذيبهم ، فيواسيهم بالصبر و الثبات ، و يشرهم بالجنة ، كما في قوله لآل ياسر و هم يعذبون : " صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة " ^(٣) ، وهو "ﷺ" هو الذي وجه أبا بكر الصديق لشراء العبيد و إعتاقهم حسبة الله تعالى .

و كان عليه الصلاة و السلام يقوم بزيارة منتظمة لأبي بكر ﷺ كما جاء في حديث عائشة ؓ : " لم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة و عشياً " .

(١) سيرة ابن هشام — ج ١ ص ٢٧٥ .

(٢) صحيح البخاري — كتاب مناقب الأنصار — باب إسلام أبي ذر — ج ٤ ص ٢٤١ .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک ، و صححه — ج ٣ ص ٣٨٨ .

وكان رسول الله ﷺ يتعامل مع الواقع في حركته للدعوة و هو في مكة ، و جعل حركته محاطة بالسرية ليحقق ما يريد ، ولذلك لم يوجه دعوته لعمر بن الخطاب لشدة و لم يطلب من عمه حمزة الإيمان لقوته ، وإنما تركهما وأمثالهما ليتأثرا بأسلوب مناسب لهما ، رغم أن الخير للدعوة كان في إيمان عمر و حمزة " ﷺ " .

لقد كان " ﷺ " يدور على الناس في منازلهم ، ومساكنهم ، ويستفيد بالمواسم والأعياد ، ويقابل المفكرين والشعراء ليقنعهم بدين الله تعالى .

وكان " ﷺ " يختاط لدعوته ، ولنفسه وهو يتحرك بالإسلام ، فلقد خرج " ﷺ " إلى الطائف راجلاً ليلاً مع مولاة زيد ، حتى لا يعلم أحد من قريش بوجهته ، فيعملون على معاكسته ^(١) .

وعندما كان يتصل بالقبائل في مواسم الحج لطلب النصرة ، كان كثيراً ما يخرج في ظلام الليل ^(٢) ، ولا يعلن ذلك لأحد .

وعندما التقى عليه الصلاة والسلام بوفد الأنصار في السنة الثالثة عشرة من البعثة لمبايعته على الحماية ، و النصرة ، اتخذ سلسلة من التدابير الأمنية حتى لا يعلم به أحد من أهل مكة .

فكان أول إجراء أمني اتخذه : هو ضبط الموعد مكاناً ، و زماناً ، بدقه متناهية ؛ فكان المكان : " شعب العقبة الأيمن " .

والزمان : أوسط أيام التشريق ؛ حيث يكون الناس في زحمة الانشغال بتهيئة أنفسهم للعودة إلى ديارهم ، وأولادهم .

و الوقت : نهاية الثلث الأول من الليل حيث يستسلم الناس للنوم ^(٣) .

وثاني إجراء : هو الكتمان الصارم للأمر ، و خروج المجتمعين مثنى و أفراداً

(١) الرحيق المختوم — ص ١٤٨ .

(٢) تاريخ إسلام — ج ١ ص ١٢٩ .

(٣) سيرة ابن هشام — ج ٢ ص ٤٩ .

مستحقين ، دون انتظار غائب ، أو إيقاف نائم ^(١)

و ثالث إجراء : حضوره بعد اكتمال العدد ومعه عمه العباس ، ووضع عليه الصلاة والسلام حراسة قوية وأمينه في مداخل الشعب ^(٢) حيث كلف أبا بكر بالوقوف على فم الطريق ، وكلف علياً بالوقوف على فم الشعب.

و رابع إجراء : هو طلبه عليه الصلاة والسلام من كل متكلم أن يوجز في كلامه ^(٣) وأن يخفض صوته ، حتى لا يطول اللقاء ولا يشعر به أحد .

وبعد ذلك قام "ﷺ" باختيار اثني عشر نقيباً - تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس - لتحمل المسؤولية وقال لهم : أنتم على قومكم كفلاء ككفالة الخواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي ... قالوا : نعم .

وبهذا الاختيار بدأت ملامح القيادة الجديدة في المدينة المنورة وبدأت أنظار المسلمين تتجه نحوها ليعيشوا عصر التمكين ، والقوة ، وليؤدوا واجبهم مع دين الله تعالى .

ولسوف نرى في تخطيط النبي "ﷺ" للهجرة مدى الحرص الذي بذله "ﷺ"

ليصل إلى الغاية ، وبالهجرة تبدأ مرحلة جديدة في مسار الدعوة إلى الله تعالى .

وسوف نوضح ذلك في الجزء التالي بعون الله تعالى ..

* * *

^(١) الطلقات - ج ١ ص ٢٢١ .

^(٢) منهج النبي "ﷺ" في حماية الدعوة ص ٤١٧ .

^(٣) السيرة النبوية لابن كثير - ج ٢ ص ٢٠٢ .

المبحث الحادى عشر

المسلمون فى نهاية المرحلة المكية

اتسع نطاق الإسلام ، وكثر عدد الداخلين فيه ، ووصل خبره إلى قبائل العرب جميعاً ، وانتقل المسلمون بالإسلام إلى خارج الجزيرة العربية . وأصبح عدد المسلمين كثيراً، فلقد هاجر منهم إلى الحبشة ما يقرب من مائة ، وهاجر منهم إلى المدينة ما يقرب من خمسمائة صحابى وصحابية ، بالإضافة إلى عدد غير قليل آمن سرّاً فى مكة ، وفى غيرها ، وهم المؤمنون والمؤمنات المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمَّ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ .

لقد أدى هذا الانتشار الواسع للإسلام إلى ضرورة الهجرة من مكة، لأن كفار مكة أخذوا يبدلون جهدهم لصعد الناس عن الإسلام بوسائل عديدة ولم يعد مقبولاً أن يبقى المسلمون مستسلمين للطغاة وحققهم واضح ، فى الوقت الذى أخذ الناس فيه ينظرون إلى ما بين المسلمين وأهل مكة ، لينبأوا عليه موقفاً ، ويتخذوا قرارهم فى الإيمان .

الأمر الذى دعا إلى ضرورة وجود دولة للإسلام ترفع رايته، وتحمى أتباعه ، وهو الذى أراده الله تعالى ، وحققه بالهجرة إلى المدينة المنورة .

الفصل الرابع

وكائز الدعوة

المستفادة من المرحلة المكية



تمهيد :

لقد امتدت المرحلة المكية حتى الهجرة إلى المدينة المنورة ، و وقعت خلالها أحداث عظام ، تقدم أضواء عالية في حركة الدعوة إلى الله تعالى ، تظهر السعير و الدروس ، و تكشف الطبائع و النفوس ، و تبين ما في كل موقف من ركيزة ، و مبدأ مدروس ، و تعود أهمية معرفة هذه المرحلة للدعوة إلى إنها تعيش مع المسلمين في مرحلة قلتهم و ضعفهم ، و تصور كيف عاش المسلمون بالإسلام صادقين مما أدى إلى انتقالهم من الضعف إلى القوة ، و من الهوان إلى العزة و الانتصار ، و هي أمور يحتاجها المسلمون المعاصرون .

كما أن أحوال الدعوة ، و مدى ارتباط المسلمين بالإسلام، يحتاج إلى مراجعة ضرورية لقياس الأحوال على عصر التأسيس الأول ، ليعرف الداء، و يظهر الدواء . و في المرحلة المكية حدد النبي ﷺ الأسلام بحلاء ، و دعا إليه بوضوح و تلقاه الصحابة منه نقياً ، صافياً ، و عاشوا به ، و عملوا له ، و تحركوا من أجله لأهم يحملوه أمانة ، و مسئولية ، و حاجة شخصية .

إن المسلمين في كل زمان و مكان عليهم أن يرتبطوا برسول الله " ﷺ " في أقوالهم ، وأعمالهم ، وأحوالهم ، و كافة شئوهم ، وهذا يحتم عليهم ضرورة العودة إلى السيرة النبوية ، وأحداثها ، فهي الصورة العملية ، التطبيقية لتعاليم الله تعالى ، وهي القرآن متحركاً في السلوك والطاعة .

إن السيرة النبوية هي الوحي المتزل في صورة تطبيقية ، ولذا كانت مدارستها تصويراً حياً للإسلام ، و كان فهمها هو البداية الصحيحة للعمل بالإسلام . والمسلم الصادق يدرك تماماً أن السيرة النبوية ثقافة روحية ، وفهم للدين ، وإحاطة بالإسلام ناصعاً ، جميلاً .

لهذا و لغيره عقدت هذا الفصل لأطوف مع السيرة، وأتأمل في حركة الدعوة خلال المرحلة المكية لأبرز أهم الركائز المستفادة منها ، وذلك فيما يلي : —

الركيزة الأولى

المعرفة الشاملة للمدعوين

من أساسيات النجاح في تبليغ الدعوة على وجهها الصحيح معرفة المدعوين والإحاطة بالواقع النفسى ، والفكرى ، والاجتماعى لهم ، لأن ذلك ييسر عملية الدعوة ، ويمكن القائمين على شئونها من وضع الخطط الملائمة للمدعوين ، ومراعاة ما هم عليه من فكر ، ودين ، واتجاه .

إن المعرفة بالمدعوين تمكن الدعاة من مخاطبة القوم بلغتهم ، والدخول إلى عقولهم من الجوانب المؤثرة التى تدفعهم إلى النظر والتفكير .

إن كل جماعة لها خصائصها النفسية ، واتجاهاتها العقلية ، ونشاطها العملى ، وفى هذه الجوانب توجد مفاتيح الولوج لشخصية الجماعة ، ولذاتية الفرد وسط الجماعة .

والمقصود بالجماعة الطائفة من الناس التى تكون مجتمعاً متماسكاً ، مترابطاً بواسطة انتماءات خاصة كالوطن ، أو الدين ، أو الحزب مما يؤلف بين أفرادها جماعة يشملهم تماسك نفسى ، وولاء وجداني .

إن أى جماعة تعيش مدة ما فى إطار انتماء معين ، تكتسب صفات خاصة ، واتجاهات جديدة ، وتعيش بشعور واحد ، وآمال واحدة .

إن الفرد يكتسب من الجماعة بفعل العدد شعوراً بقدرة لا تقهر ، بينما الفرد وحده يردع غرائزه ويخضعها لعقله ، لشعوره بالمسئولية .

إن الفرد وسط الجماعة يدع غرائزه طوعاً ، نظراً لزوال الشعور بالمسئولية ما دامت الجماعة غفلاً ، وغير مسئولة .

إن الفرد فى الجماعة تسرى إليه بالعدوى المشاعر الجماعية ، بطريقة لم يتوصل إلى تفسيرها ، وإن كانت موجودة ، وتسهل ملاحظتها ، وانتقال شعور الجماعة إلى الفرد بالعدوى يسهل للفرد أن يضحى بمصالحه الشخصية فى سبيل الجماعة العامة ،

وهذا استعداد مخالف لطبيعة الفرد لا يقدر عليه الإنسان إلا إذا كان جزءاً من جماعة .
لهذا كان فهم المدعو من أساسيات تكوين الدعاة ، ليتخبروا المنهج الذي
يتبعونه حين الدعوة ، لأن أملهم النجاح ، وتحقيق ما يرجون من غايات .

ولعل الحادثة التالية أوضح دلالة على ما نحن بصددده من تأثير الجماعة ،
فصاحبها اتخذ موقفاً من الدعوة ، وكادت تصل إلى أعماقه ، ويستسلم لها عندما
احتكم إلى طبيعته الخاصة ، لكنه لحظة العاثر قدر له أن يضع نفسه مرة أخرى في
غمار الجماعة ، ويقع تحت تأثيرها ، ذلكم هو الوليد ابن المغيرة فقد روت كتب
السيرة أن النبي ﷺ " قام في المسجد يصلي ، والوليد قريب منه يسمع قراءته ، فلما
فطن النبي ﷺ " لاستماعه ، أعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه
من بني مخزوم فقال : (والله لقد سمعت من محمد ﷺ " أنفاً كلاماً ، ما هو من
كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن
أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه) ، ثم انصرف إلى منزله
، فقالت قريش : صبا والله الوليد ، ولتصبأ قريش كلها ، فأوفدوا إليه أبا جهل
يختال لصرفه عن الإسلام إن كان قد نوى الدخول فيه ، وما زال به حتى قام معه إلى
مجلس قومه ، فقال لهم : تزعمون أن محمداً ﷺ " مجنون ، فهل رأيتموه يحنق قط ؟
تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟

تزعمون أنه شاعر وما فيكم أعلم بالشعر مني ، فهل رأيتموه ينطق بالشعر قط ؟
تزعمون أنه كذاب ، فهل جرستم عليه كذباً ؟

يسألهم ويحييونه : كلا ، في كل سؤال ، حتى أعياهم أن يردوا كلامه ، فقال
أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

فقال : دعني حتى أفكر .

ثم قال : ما هو إلا سحر يؤثر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟
فهو ساحر وهذا هو السحر المبين .

ومن هنا كان لابد من تثبيت الإيمان في القلوب ، ومنحه القدرة على مغالبة هذه الموانع النفسية ، ولانكتفى بجعله إيماناً عقلياً بارداً، لا بد أن يتحول اليقين إلى إيمان وجداني، حاكم على القلب، راجح على ما يخالفه من رغب، ورهب، وأمل، وألم ولن يتهياً ذلك إلا بأن نتوجه إلى كل منافذ التأثير في الإنسان، وهو وحده ، أو وهو في جماعة لنصل من خلالها إلى ما نريده من جعل الدعوة في قرار مكين، وأن نغير بها النفوس قبل أن نغير بها السلوك.

يقول الدكتور / محمد رجب البيومي : إذا كان القرآن الكريم قد أوتى الإقناع المنطقي الملزم ، فإنه لا يتجه بحديثه إلى الفكر وحده، فيلزمه الحجة، مكثفاً به عن سواه ، إذ أن فاطر السموات والأرض يعلم أن المعرفة العلمية وحدها لا تكفي في الجذب والتأثير ، فلا بد معها من غزو مناطق الشعور ، وبعث كوامن العواطف ، حتى يتهياً السامع إذا سمع ، والقارئ إذا تلا ، إلى إنجذاب نفسي يدفعه إلى أشرف المبادئ، وأحكم المثل .

ولو كانت المعرفة وحدها كافية للهداية لكانت كتب العلوم الأرضية المخلصة دليل المهتدي ، إذا قرئت ودرست، ولكنك تشاهد الناس يقرأونها مقتنعين ، ثم يحيدون عن أكثر ما تهدي إليه ، إذ أن العلم شيء ، والسلوك الإنساني شيء آخر ، لذلك اتجه القرآن إلى التأثير الوجداني بعد الحجة والبرهان ، ليغزو مناطق الشعور الإنساني بتصويره ، كما غزا مناطق التفكير العقلي بحججه ، فجاء التصوير البياني في القرآن الكريم آية الآيات في الروعة والإعجاز ^(١) .

والإنسان سواء أكان منفرداً أم في جماعة، يجمع في طبيعته من الملكات المتعددة ما يجعل إهمال بعضها إهداراً لجانب من الطبيعة الإنسانية، خلقه الله تعالى ليقوم بدوره ، ويؤدي وظيفته .

(١) البياني القرآني — ص ٧٨ .

وحيث اتجه علماء الكلام إلى العقل وحده ، ماذا كانت الثمرة التي جناها الإسلام من وراء جهودهم الخارقة التي ظلت قروناً وقروناً تبتدىء ، وتعيد ، في حجاج عقلية ، باردة ، لا تثير وجداناً ، ولا تدفع إلى عمل ؟ ! !

إن علينا أن نلتقي بالإنسان في قواه المختلفة ، وأن نتعامل معها جميعاً ، نتعامل مع العقل بماله من قوة الإدراك والتمييز ، ونتعامل مع الوجدان باعتباره وعاء الأحاسيس ، والمشاعر ، التي تنشأ عن التأثير بما يسر ، ويؤلم ، ونتعامل مع الإرادة باعتبار ما تتخذه من قرارات هي النتيجة النهائية لاستجابتها أو رفضها للدعوة ، ذلك أن الصفات النفسية للإنسان مرتبط بعضها ببعض ، ويؤثر بعضها في بعض ، والإيمان هو حالة نفسية ، مرتبط بالجوانب النفسية كلها ، يتأثر بها ويؤثر فيها .

يقول الدكتور / محمود حب الله : فالعقائد الدينية لا تعتمد على جانب واحد من جوانب الحياة النفسية للإنسان — الوجدانية والإرادية والعقلية — ولكنها تتصل بها كلها اتصالاً وثيقاً ، ولا ترضى نفس المرء ، ولا تكتمل شخصيته إلا إذا تضامنت شخصيته ، ونواحيه النفسية كلها ، وعملت معاً على تقبل كل عقيدة من عقائده ، فلا يوجد شيء من التضارب بين قواه المتعددة ، حول عقيدة من العقائد ، بل إنسجام ووثام ، فيوجد قبول عقلي ، واطمئنان قلبي ، والتقاء مع الإرادة ، وذلك هو كمال الشخصية وكمال العقيدة ^(١) .

ثم يقول : وما دامت العقائد الدينية متصلة بكل من العقل والوجدان والإرادة احتاجت ، في وسائل نشرها ، إلى الاعتماد على كل هذه القوى ^(٢) .

وما دام هذا شأن من توجه له الدعوة وطبيعته ، فلا بد لنا — كي نصل إلى التأثير فيه — أن نلاحظ طبيعته بكل جوانبها ، لأن الفرد في جماعة يواجه واقعاً يحدث

^(١) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية — ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

^(٢) المرجع السابق ص ٢٧٤ .

في طبيعته بعض التعديل عنه وهو وحده، حيث ينشط جانبه الوجداني ، بسبب تفاعل مع الجماعة ، واستهوائها له ، وسيطرة روحها العامة على ملكاته الخاصة .

وقد سبق أن رأينا أن رسول الله " ﷺ " بعث إلى العالم كله ، ولذلك عرفه الله بطبائع الناس ، وواقع المجتمعات المختلفة عن طريق القصص القرآني الذي نزل أغلبه في مكة قبل الهجرة .

وقد احتوى القصص القرآني على نماذج من المجتمعات البشرية ووضع خصائصهم ، وحدد أساليب مخاطبتهم حيث نراه يصور المأل ، والضعفاء ، ويجلي حقيقة المنافقين والمشركين ، ويبين دور السفهاء والمترفين بين الناس ... إلخ .

وبذلك قدم القصص القرآني تحليلاً صحيحاً للنفوس، والعقول للناس أجمعين . إن الهيكل العام للقصة القرآنية يأخذ صورة واحدة، فهو قائم على دعوة الله يقدمها الرسول إلى قومه ، وإلى من أرسل إليهم ، فيقف المدعوون موقف المعارضة والإنكار، فيأخذ الرسول في محاورتهم ، والرد عليهم ، ويناقشهم في شبههم ومعارضاتهم ، ويبين لهم الصديق بأدلته ، ويحدد لهم بطلان ما هم عليه ببراهينه ، ويطوف بهم خلال الحوار مع طبيعة النفوس، واتجاهات العقول ، وميول الوجدان . إن القصص القرآني يبرز ملامح أشخاصه ومنهجهم في الجدل والحوار ، وموقفهم من الحق ، وبذلك يقدم للدعوة والدعاة صورة حقيقية للمدعوين .

ويتهي القصص القرآني دائماً ببيان عاقبة المؤمنين، ومصائر الضالين المكذبين . والواضح من هذا ما رأينا في تنشئة النبي " ﷺ " فلقد عاش الرعاة ، وعاش مع فئة العمال والأجراء ، وتعامل مع التجار وسادة الناس ، وكان له مع المأل مواقف وتصرفات ، وانتقل إلى عديد من الأماكن حيث سافر إلى المدينة ، وإلى بلاد الشام ، وتربى في بادية بني سعد .

ويكفي حياته المكية لأن مكة في ذلك الزمان كانت تحتوى على كافة أنماط المجتمع البشرى، حيث جعلها الله بوثقة تضم كل ألوان، وأطياف البشر، لتكون معمل الخبرة والتجربة لرسول الله ﷺ " وللدعوة إلى الله تعالى .

إن معرفة المدعوين ، والوقوف على المثيرات الوجدانية، والعقلية ضرورة للدعوة ، وحتى لا يحدث انفصال بين الداعية والناس .

لقد كان رسول الله ﷺ " يحدث كل قوم بلغتهم ، وفي كل أمر يهمهم ، وحين يقدم لهم الآيات الدالة على صدق الدعوة إختار الأدلة المناسبة ، فإن كانوا من أهل الزرع خاطبهم في الأشجار ، والنبات ، والثمار ، وإن كانوا من أهل البحر خاطبهم بالماء ، والسفن ، واللؤلؤ والمرجان ... وهكذا .

إن خطاب العالم يختلف عن خطاب العامي بالضرورة ، كما أن الحديث مع الكبير ليس كالحديث مع الصغير ، والقضايا التي تحرك الرجل ليس هي التي تحرك المرأة .

والإنسان كما يتأثر بالجماعة يتأثر بالبيئة، والثقافة ، والتوجه العام للمجتمع . فالإنسان الشرقي يختلف عن الإنسان الغربي ، والعربي غير العجمي ، ومن ثقافته علمية ليس كمن ثقافته فنية أدبية ... والإنسان في مجتمع مستقر يفكر بطريقة تغاير الإنسان في مجتمع مضطرب قلق .

وهذه نماذج لمدى تنوع الناس ، وتعدد بؤر التأثير فيهم ، مما يؤكد ضرورة تفاعل الدعاة مع المخاطبين ، ومخاطبتهم بما يناسبهم ^(١) .

وفي العصر الحديث رأينا مدى تأثير الدعاة في أقوام يتفاعلون معهم ، وما كان ذلك إلا بسبب معرفة الدعاة الشاملة بواقع المدعوين وطبائعهم.. الأمر الذي مكنهم من مخاطبتهم بالحسنى، ومناقشتهم بالدليل المقنع ، والبرهان السديد .

^(١) لقد عاصرت مجموعة من الدعاة أرسلتهم الأزهر الشريف - مشكورا - للدعوة في بعض البلدان الإفريقية لكنهم لعدم معرفة لغة وأحوال الناس ظلوا مدة طويلة يعلمونهم مبادئ اللغة العربية ، ولم يتمكنوا من تبليغهم دين الله تعالى .

الركيزة الثانية

دور الداعية

بين الله والناس

إيصال الإسلام للناس فن لا يقدر عليه الجميع ، ولذا كان من الضروري إيجاد داعية ، يملك القدرة على أداء هذه المسئولية .

إن الدعوة تحتاج إلى داعية متصف بصفات عديدة تجعله قادراً على القيام بواجب الدعوة على الوجه الذي يرضى الله ورسوله .

وأول هذه الصفات عراقة الأصل ، وشرف المنزلة ، لأن الناس تعودوا الخضوع لعلية القوم ، والاستماع لأصحاب المنزلة فيهم .

وقد علم النظام القبلي أهل مكة أن يكون لكل قبيلة شيخ ، ولكل فخذ رئيس يأمر فيطاع ، ويحتاج فيعطى ، ولذلك وجب أن يكون الداعية بين الناس متميزاً فيهم بكرم الخلق ، وعلو المنزلة كما كان رسول الله ﷺ " فهو من خير العرب نفساً ، ومن خيرهم نسباً ، فهو خيار من خيار .

ومن أهم ما يجب أن يتحلى به الدعاة أن ينشأوا نشأة عملية ، يعيشون فيها الناس على اختلاف مواطنهم ومذاهبهم ، وثقافتهم كما أكرم الله رسوله ﷺ " بمعايشة بني سعد ، والرعاة ، والتجار واليهود ، والنصارى ، وأهل مكة ، الأمر الذي مكّنه بعد ذلك من التعامل الجيد مع الناس جميعاً .

ومما يجب أن يتحلى به الدعاة مكارم الأخلاق ، لأن ذلك أدعى للثقة ، وأقوى في التصديق .

وهذا هو رسول الله ﷺ " أشتهر بين قومه بالصدق والأمانة ، وكان الغرباء عن مكة يسألون عن خلق رسول الله ﷺ فإذا علموا تميزه بالخلق الكريم أقبلوا عليه .

والداعية وارث النبي ﷺ " في مهمته الإرشادية ، والقائم مقامه في إبلاغ دين الله ، وكان النبي ﷺ " يرشد المسلمين إلى ذلك ، فقال لأصحابه (ألا ليبلغ

الشاهد منكم الغائب (١) ، وقال (تسمعون ويسمع منكم ويسمع من يسمع منكم) (٢) .

وحتى يتمكن المسلمون من القيام بهذه المهمة قضى الإسلام بتخصيص فئة معينة للقيام بها ، فما صحح ولا يصح أن تقوم الأمة كلها على تخصص واحد ، وتهمل سواه ، وقد بين الله تعالى أن على الناس أن لا يتجمعوا كافة على غرض واحد ، ولو كان هو الجهاد ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٣) .

يقول على بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني عصابة، هي السرايا فإذا رجعت السرايا وقد أنزل الله بعدهم قرآناً تعلمه القاعدون مع رسول الله ﷺ " وذلك معنى ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ أى يتعلم القاعدون ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرونه (٤) ، ويمثل ذلك فسر مجاهد وقتادة الآية .

وهذا التفسير ينهى عن التجمع الكامل للنفير، ويحث على بقاء جماعة مع النبي ﷺ " لمتابعة تعاليم الدعوة، وذلك هام في حد ذاته، لأن التفقه للدعوة أمر ضرورى ، وهذا الوجه في تفسير الآية مقبول (٥) لأن النبي مصدر العلم ، والقعود معه يحقق التفقه والتعليم ، من غير سفر أو رحيل .

(١) صحيح البخارى — ج ١ ص ٣٧ — كتاب العلم — باب ليبلغ الشاهد منكم الغائب .

(٢) الفتح الرباني — ج ١ ص ٢٦٤ — كتاب العلم — باب فضل تبليغ الحديث .

(٣) سورة التوبة الآية (١٢٢) .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٨٧ .

(٥) وهناك توجهات أخرى للآية وهي أن تخرج طائفة مع النبي ﷺ " ، أثناء الجهاد قصد التفقه ليعلموا غيرهم بعد الرجوع إليهم في المدينة ، أو تعليم المجاهدين إذا التقوا بهم بعد المعركة .

وإن طلب جماعة لعلوم الدعوة فرض كفاية، كالجهاد تماماً، لأهمهما معاً يؤديان إلى حفظ الدين واضحاً من غير تحريف، وإلى حمايته قوياً بلا اعتداء، بل إن الدفاع عن الدين بالكلمة أحياناً يكون أجدى من الجهاد عنه بالسيف .

هذا وقد أخذ الشاطبي ^(١) من قوله ﴿ وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ ﴾ أن الدعوة المندرين قائمون مقام النبي ﷺ " لأن الله قال له ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ ﴾ فالإنذار في الآيتين عمل مشترك يقوم به النبي وأتباعه من بعده على وتيرته .

ولئن كانت مهمة النبي في زمنه " ﷺ " صعبة فإن مهمة الدعوة اليوم كذلك لأن الهدف واحد وهو مخاطبة القلوب بالحكمة، ومجادلة المخالفين بالحسنى، وما أكثرهم اليوم أكثرهم أيام النبي " ﷺ " .

ولئن كان الوحي ينزل بالدين على رسول الله جزءاً جزءاً فإن ما نزل منجماً قد جمع وحفظ كله ليبقى بحملته مع الدعوة زاداً لهم، وأملاً لدعوتهم في النصر والبقاء . ولئن عز الأشخاص المميزون فواجب على الأمة المسلمة أن تتخير وتعلم، وتدريب، وكما تبدل جهوداً لتخريج الأطباء، والمهندسين، والضباط فعلية أن تبدل الكثير لإيجاد الداعية الكفاء الذي يفيد الدين، والناس جميعاً .

والدعاة اليوم هم المبشرون المندرون، الحاملون صوت النبوة، المكلفون بالوصول بها إلى كل مكان في الوجود .. وقد قدر الله للدعوة أن تظل باقية في كتبها محفوظة بأمره، لكن الذي يجب أن يكون اليوم هو وجود الداعية الكفاء الذي يتخذ الرسول أسوته، ويحاول أن يستجمع ما أتصف به على قدر طاقته ﴿ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

ولا بد في تكوين الداعية أن يكتسب بعض الصفات الضرورية التي تجعله ذا صلة قوية

بالله تعالى ، الذي يحمل رسالته ، ويبلغ دينه ، ويعيش مع وحيه سبحانه وتعالى ، كما يجعله قوى الصلة بالناس فهم محال حركته ، ومقياس نجاحه ، وأمله كله ينحصر في هدايتهم .

إن الداعية يحتاج إلى هذين الجانبين لأهميتهما له : —

أولاً : تقوية صلته بالله :

الداعية مرشد إلى الخير ، وموجه نحو الهدى ، وكل هدفه أن يعرف الناس برهم الخالق ليفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .

وعليه هو أولاً أن يمتن صلته بالله في يقين وقوة، ويجعل إيمانه قائماً على تفرغ القلب الكامل لمولاه ، والارتباط المطلق به ، والتوكل الراسخ عليه ، والتسليم التام لكل ما يأتي به من غير ارتياب — أو حرج — لتكون الدعوة بذلك نابعة من قوله وفعله ، وكل ذلك سهل ميسور .

إن معرفة الله يلمسها من القرآن الكريم، كتاب الدعوة الذي هو دستور هاديه ، ومن آياته يعلم أن الله واحد، منزّه عن الشريك في ذاته وصفاته وأفعاله .

وآيات القرآن واضحة في مفهومها ودلالاتها ، أنظر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ

إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ ^(١)

تراها قد صرحت بوحدانية الله من غير غموض ، بل إن القرآن يدافع عن هذه الوحدانية فيدعو إلى ترك ما عداها فيقول ﴿ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ ^(٢) ويتجه بالدليل العقلي لمن يريد فيقول : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ^(٣) .

^(١) سورة الصافات الآية (٤) .

^(٢) سورة النحل الآية (٥١) .

^(٣) سورة الأنبياء الآية (٢٢) .

ولا تقف الآيات عند الحديث عن وحدانية الذات بل تتكلم عن كل
 كمالاتها بإثبات الصفات والآثار ، ومن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ
 وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ^(٢)
 فتجد هذه الآيات وغيرها تعرف بأن الله موجود ، قديم ، حي ، باق ، علیم ، مرید ، قادر
 سمیع ، بصیر ، متكلم ، وإثبات هذه الصفات تنفي تضادها ، والصفات وإن تشابهت
 ألفاظها مع مسميات صفات البشر إلا أنها ليست هي في الحقيقة لأن الله : ﴿ لَيْسَ
 كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ^(٣) .

والقرآن الكريم لا يترك الداعية يبحث وحده عن الدليل ، الدافع إلى الإيمان
 بل يوجه نظره إلى الآثار الإلهية في المخلوقات ، ليتم إيمانه ، ويحس طمأنينة خاصة تمر
 بين جوانبه ، فلا يرى بعد ذلك إلا الخير المطلق يسرى في داخل النفس وخارجها ،
 والمخلوقات عديدة ، والنظر فيها بين الدقة الإلهية ، والعناية الربانية ، ويؤدي إلى الإيمان
 المطلوب ، فنفس الإنسان المركبة من باطن فيه جهاز هضمي ، وآخر للتنفس ، ومن
 ظاهر به حواس وجوارح ، هذه النفس بكل أجزائها تقوم بوظيفتها بطريقة تلقائية .
 وقد وزعت الأعمال في براعة ودقة على كافة الأجهزة ، ليقوم كل بدوره ،
 فالعين ترى ، والأذن تسمع ، واللسان يتكلم ، والرجل تمشي ، والأسنان تمضغ ،
 والمعدة تهضم ، والرئة تستنشق .

وهذا كله يشير إلى العناية والدقة الموجودة في خلق الله تعالى ، وهو الأمر الذي جعل
 العلماء يرون في القرآن الكريم أدلة خاصة به سموها : —

(١) أدلة العناية والدقة .

(١) سورة الحديد آية (٣) .

(٢) سورة الرعد الآية (١٦) .

(٣) سورة الشورى الآية (١١) .

(٢) أدلة الحسن والجمال .

(٣) أدلة الغاية والقصد .

وهذه أدلة تجعل الإنسان يؤمن بلا تردد بعد رؤيته لها ونظره فيها .

وقد حث الله الإنسان على النظر إلى النفس ، فقال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ^(١) ليروا فيها دلالة واضحة على وجود الصانع، وحكمته، وتديره ويكفى أن ينظر الإنسان إلى نفسه ليرى كما قال الزمخشري في ابتدائها وتقلها من حال إلى حال، وفي بواطنها وظواهرها عجائب الفطر وبدائع الخلق، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وخصصت به من أصناف المعاني، وبالأسن، والنطق، ومخارج الحروف، وما في تركيبها وترتيبها، ولطائفها من الآيات الساطعة، والبيانات القاطعة، على حكمة المدبر، دع الأسماك، والأبصار، والأطراف، وسائر الجوارح، وتأتيها لما خلقت له، وما في الأعضاء من المفاصل للإنعطاف والتثنى، فإنه إذا جسا شئ منها جاء العجز، وإذا استرخى أناخ الذل ^(٢) .

وكما يجب النظر إلى النفس فإن هناك العالم الفسيح المملوء بالآيات البيئات والعجائب الرائعة التي يجب النظر فيها، يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

إن الداعية وهو يلزم الدعوة عليه أن يفكر في هذا، وفي غيره، ليؤمن الإيمان الواجب، ويعلم من غير تردد حق الله الذي آمن به فيؤديه .

وقد حصر الله سبب خلقه للجن والإنس في أداء هذا الحق فقال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(٣) .

^(١) سورة الذاريات الآية (٢١) .

^(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٦ .

يقول الزمخشري أن معنى الآية ما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة ولم
أرد من جميعهم إلا أياها ^(١) ولذا دُعيت كل الأمم إلى واجبتها ، يقول تعالى :
﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوفَ ﴾ وكان
النداء الأول في دعوة كل رسول هي ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ لأن
الإيمان بالله الخالق ، والتسليم له يقتضى حتماً ، وبالضرورة أن تكون العبادة له وحده ،
إن العبادة هي الحبل الوثيق الذى يربط الإنسان بالله ، وليس هناك سبيل
سواها ، والله قريب من عباده قريباً لا واسطة فيه ، والداعية يعلم ذلك فيعبد الله
مخلصاً له الدين ، ويتفرغ بكليته في عبادته ، ولذلك فعبادته غذاء روحى ، ترقى به ذاته ،
وتذكره بالسلطان المطلق ، وتسمه بحسن الخلق ، وكريم المعاملة ، وذلك كله سر العبادة
وحقيقتها فمثلاً عن الصلاة — كعبادة — قد أمر الله بإقامتها دون مجرد الإتيان بها
لأن إقامة الشيء يعنى الإتيان به مقوماً ، كاملاً ، يصدر عن علته ، وتصدر عنه آثاره ،
ومن المعلوم أن الغاية من الصلاة ذكر الله كما قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرٍ ﴾ ^(٢)
وآثارها تظهر على المصلى ذاته لأنها : ﴿ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ^(٣) وهى بالإقامة
عبادة حقة ، فيها خضوع كامل ، ناشئ عن إحساس يقين بعظمة الرب القادر
سبحانه وتعالى ، ويتبعها أثرها المراد الذى يظهر فى البعد عن كل باطل ، والتخلق بكل
حسن جميل ، وهكذا كل عبادة تعطى للنفس جرعة من الذكر ، وجزءاً من السعادة ،
ولا يرى الداعية من عبادته هذه المترلة إلا إذا أداها مخلصاً كما أمر ، فإن
القوم جميعاً : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ ^(٤) وقد قال لهم
الرسول ﷺ " ﴿ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ ^(٥) ولذلك فهم

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢١ .

(٢) سورة طه الآية (١٤) .

(٣) سورة العنكبوت الآية (٤٥) .

(٤) سورة البينة الآية (٥) .

(٥) سورة الزمر الآية (١١) .

بسبب هذا الإخلاص يشعرون بالمعية الإلهية دائماً ، ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ ^(١) أنظر إليهم تجدهم : ﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ ^(٢) لا يفارقون ذكره في لحظة من لحظات الحياة ، وكذلك يذكرونهم رهم ، ففي الحديث القدسي : (أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه) ^(٣) ، وهم في ذكرهم الدائم يتقلبون بين الخوف والرجاء ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ^(٤) .

والداعية كما هو الواقع يعلم أن العبادة لا تقتصر عن نوعها الخاص الذي رسم الدين إطارها ، وحدد شعائرها ، كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، بل إنه في كل حياته عابد كما أراد الله بالمعنى العام والخاص معاً ، فاجتماعياته عبادة يفعلها الله رب العالمين ، والسعي في معاشه ، والتعاون مع أهله عبادة يؤديها ، ويلتزم بها لأنها من حقيقة دينه .

والقرآن الكريم يقرن من خرج مجاهداً في سبيل الله بمن خرج سعيًا على المعاش فيقول تعالى : ﴿ وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٥) .

إن هذا الفهم الأصيل يجعل العابد في علاقة خيرة مع الناس فيعود المريض ويطعم الجائع ، ويسقى العطشان ، ويرفع الأذى من طريق الناس ، ويدفع إلى السعي

^(١) سورة المجادلة الآية (٧) .

^(٢) سورة آل عمران الآية (١٩١) .

^(٣) صحيح البخاري ج ٩ ص ١٣٩ .

^(٤) سورة السجدة الآية (١٦) .

^(٥) سورة المزمل الآية (٢٠) .

والضرب في الأرض ، وهكذا ، يؤديها الداعية بهذا الفهم وتلك النية ويسلمها لله رب العالمين .

وعبادة الداعية كما هو المطلوب استغراق كامل في عالم الروح لأنها عنده لذاتها فتربطه تلقائياً بالله ، وتبرزه كحقيقته خاضعاً لربه ، محباً هائماً في تعلقه به ، لأنه بإيمانه أشد حباً لله لأهم كما عرفهم وهم بقوله : ﴿ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾^(١) والدعاة عباد الله بحق ﴿ تُحِبُّهُمْ وَتُحِبُّونَهُمْ ﴾ لأن الله يحب المتقين ، والمحسنين الصابرين .

ومع هذه العاطفة الصادقة من الداعية لا يملك أمام أمر الله إلا السمع والطاعة ويبحث عن المعروف ليفعله ، ويأمر به ، وعن المنكر ليحتمه ، وينهى عنه ، وبسبب استغراق الداعية في ذكر ربه الحبيب إليه كانت العبادة أعظم علاج لراحة نفسه ، ونسيان آلامها ، كما أنها أعظم وسائل الشكر تحقق الهدوء التام ، ألا تراها كانت علاجاً لرسول الله ﷺ " يوم أن أكثر القوم من أكاذيبهم ومفترياتهم حتى ضاق صدره بما يقال ، فوجهه الله إليها علاجاً له فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾^(٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾^(٣) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾^(٤) ، ووجهه إليها كذلك إذا أحس بالنصر والفوز شكراً ورضى ، فقال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾^(٥) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾^(٦) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾^(٧) .

والعبادة بدورها لا تجد عسراً في القيام بمهمتها في الشدة ، أو الرخاء لأنها تعايش إنساناً منفعلاً بها ، ومسلماً بأنه مخلوق يتصرف بإرادة الخالق ويؤمن أنه : ﴿ مَا

(١) سورة البقرة الآية (١٦٥) .

(٢) سورة الحجر الآيات (٩٧ - ٩٩) .

(٣) سورة النصر .

أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ (١)

إن هذا الإيمان الراسخ (من الداعية) الذى استتبع عبادة مخلصه صادقة، وحباً هائماً شاملاً، يؤدى بصاحبه حتماً إلى التوكل الدائم على الله، والاستسلام له بلا تردد، لأنه ما دام قد ثبت في نفسه ثبوتاً جازماً أنه لا فاعل إلا الله، واعتقد فيه تمام العلم وتمام القدرة على كفاية العباد، ثم تمام العناية والرحمة بجملة العباد وآحادهم وأنه ليس وراء منتهى قدرته، وعلمه، ورحمته، قدرة، ولا علم، ولا رحمة، فإنه متكل لا محالة على الله، مستمر في انفعاله الروحي الصادق، لأن الله معه في كل آن وحال . ولتمام توكله نحوه يسلم أمر رزقه إلى الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٢) وبتوكل كل شيء لإرادة الله لأن المسألة هي : ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ (٣) ويشكر النعم ويصبر على المكروه : ﴿ وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٤) .

وعلى الجملة فإن المرء كما يقول الحكيم الترمذى : (من نور الله قلبه بالإيمان قويت معرفته، واستتارت بصيرته بنور اليقين، فاستقام قلبه، واطمأنت نفسه، وسكنت، ووثقت، وأيقنت، وسعدت برها الخالق، واثمنتته على نفسها، فرضيت به وكياً، وتركت التدبير عليه، فإن وسوس له عدوه بالرزق، والمعاش لم يضطرب قلبه، ولم يتحير لأنه قد عرف أن ربه قريب، وأنه لا يغفل، ولا ينسى، وأنه رؤوف رحيم، وأنه حلیم ودود، وأنه رب عفو غفور، وأنه عدل لا يجور، وأنه عزيز لا تمتنع منه الأشياء، وأنه يجير ولا يجار) (٥) .

(١) سورة الحديد الآية (٢٢) .

(٢) سورة الذاريات الآية (٥٨) .

(٣) سورة يوسف الآية (٦٧) .

(٤) سورة إبراهيم الآية (١٢) .

(٥) الرياضات وأدب النفس ص ٩٣ .

وهذه الصلة الصادقة مع الله تكتمل عقيدة الداعية فيكون خيراً في كافة الجوانب ويمتلك القدرة على الدعوة والبلاغ ، وحيث يمكنه أن يفيض على الناس بما امتلأ به ، فكل إناء بما فيه ينضح ، والظل في استقامته ، وامتداده يشبه أصله .

إن داعية متمتعاً بهذا اليقين يخدم الدعوة أكثر من آلاف ضعف إيمانهم ، وهذلت عقيدتهم ، لأن هؤلاء الآلاف يضرون ، ولا يفيدون ، وقد أتى الإسلام من قبلهم .

ثانياً : توثيق ارتباطه بالناس :

لا يقف أمر الداعية عند تحسين صلته بالله على نحو ما سبق فإن ذلك يفيد شخصه أولاً وهو مستوى يحتاج إليه كل من أسلم وجهه لله وهو محسن ، وإنما على الداعية أن يحسن صلته بالناس فمعهم تكون دعوته ، ولهم ينشرها ، وهم يحقق نصرها وفوزها ، وهذه الصلة الاجتماعية ضرورية للداعية لأنه :

أولاً : أخ للناس استظهر عليهم بالنصح والتوجيه .

ثانياً : محل الثقة والنظر لما له من صفات ولما يتأدى من مبادئ .

ثالثاً : رائد الجماعة وزعيمهم ، ولذلك وجب أن يتحلى بصفات تجعله يعيش وسط الناس في فهم وتقدير ، ويتألف معهم في مودة ، ويتحلى بما يضعه في الريادة من غير منازعة وشكوك .

والناس جميعاً إخوة ومردهم جميعاً إلى عنصر واحد، هو آدم أب البشر أجمعين ، وعلى الداعية أن يتيقن ذلك ، ويعمل على أساس أنه ليس هناك فرق بين إنسان وإنسان بسبب لونه، أو طبيعته، أو عنصره، وإنما التفاوت بشيء خارج عن ذات الشخص وعنصره كإيمان، أو عمل، أو إخلاص ، وهو تفاوت لا يمس الإنسانية في شيء وقد وضع الله هذه الحقيقة بقوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّمُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

يقول الزمخشري: إن معنى الآية، فما منكم منكم أحد إلا وهو يدل بما يدل به الآخر، سواء بسواء، فلا وجه للتفاخر، والتفاضل في النسب ^(١) وذلك شيء طبيعي لأن الإنسان خلق مكرماً كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ ^(٢) ، يقول الألوسي: أي جعلناهم قاطبة برهم، وفاجرهم، ذوي كرم أي شرف ومحاسن ^(٣) وهذه الكرامة الإنسانية جاءت النداءات في القرآن الكريم مصدرة بـ ﴿ يَبْنِي آدَمَ ﴾ و﴿ يَنْتَهِهَا النَّاسُ ﴾ تنوياً بهذه الصفة العامة التي يأخذ منها أي إنسان بقدر ما يأخذ الآخرون سواء بسواء .

إن هذا الفهم عند الداعية يجعله لا يفرق بين إنسان وإنسان في دعوته ، ولا يفرق بينهم بسبب غنى ، أو حسب ، أو ما شاكل ذلك ، فلا يدعو القوى تاركاً الضعيف ، أو يخصص غنياً مهملاً الفقير ، أو يقصر دعوته على الرجال دون غيرهم ، وذلك لأن دعوته عامة للجميع ، وهو المكلف بنشر هداية الله بينهم ، والكل محتاج إليها ، بل إن الضعيف الضال أحوج إليها من سواه ، ولذلك فالإعراض عنه ليس من صفات الداعية المثالي ، ولقد أودع الله للدعاة دراساً في هذا الباب بما حدث من النبي ﷺ " مع عبد الله بن أم مكتوم ، فرغم أن عبد الله كان أعمى مما جعله لا يتحقق عن عمل النبي ﷺ " في مجلسه، فدخل عليه طالباً التعليم، في الوقت الذي كان النبي ﷺ " مشغولاً فيه بتعليم غيره من صناديد قريش ، وكونه أعمى يعطيه العذر في عدم تقدير الوقت المناسب للسؤال ، وسبق القرشيين في الحضور يعطى النبي ﷺ " عذراً في إهمال عبد الله ، خاصة وأن عبد الله أسلم من قبل ، والقرشيون لم يسلموا بعد ، وفي إسلامهم إسلام غيرهم ، رغم ذلك فقد عوتب النبي ﷺ " في هذا الموقف

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٦٩ .

(٢) سورة الإسراء الآية (٧٠) .

(٣) روح المعاني ج ١٥ ص ١١٧ .

حتى لا يقال أنه أهمل عبد الله لفقره وعماه ، وأهتم بغيره لجأه وغناه ، ولا يبقى هذا القول بعد ذلك بداية سيئة يهتم فيها الدعاء بالأشياء الظاهرة ويفرقون بين بعض الخلق وبعض بما ليس لهم به سبب ، فقال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْمِي ﴿٣﴾ أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ أَمَا مِنْ أَسْتَفْتَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْمِي ﴿٧﴾ وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾ ﴾ (١) .

إن النبي ﷺ " في هذا الموقف كله كان يعمل للدعوة ويسعى إلى إسلام القوم وتزكيتهم، باذلاً من نفسه جهداً، وعملاً، كما تفيدُه التاء في " تصدى " والقوم الذين تصدى لهم النبي ﷺ " هم عتية، وشيبة، ولدا ربيعة ، وأبو جهل، والعباس ابن عبد المطلب، وأمّية بن خلف، والوليد بن المغيرة، وهم قادة مكة ورؤساؤها مما جعل الرسول يرجو من إسلامهم إسلام غيرهم ^(٢) ولذلك بقي مستمراً في دعوتهم ، فلما جاءه عبد الله ودعاه لم يقطع حديثه معهم ، وإنما أعرض عنه ، فكان العتاب موعظة ترسي مبدأ إسلامياً هو الحرص على كرامة الإنسان مطلقاً ، يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها .

الركيزة الثالثة

صفات الدعاء

الداعية رائد في مجتمعه ، يقود بالخير ، ويدعو إلى الحق والصواب ، وينادي بالخير المطلق للناس أجمعين .

وهذه المهمة التي يقوم بها الدعاة تحتاج إلى شخصية ذات مواصفات معينة تساعد على القيام بهذه المهمة الخطيرة ، الشاقة .

(١) سورة عبس الآيات (١ - ١٠) .

(٥) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢١٨.

إن الدعوة فهم دقيق للإسلام ، وتقدير صحيح لمخاطبة الناس ، ومهارة فائقة لمواجهة
المواقف المفاجئة ، وذكاء فريد للبيان والتفصيل ، والدفاع عن الحق ، وإزاحة الشبه
والزيوف .

لهذا وغيره أرى حاجة الدعوة إلى صفات تعينهم في تبليغ دين الله للناس .

ويمكن تقسيم هذه الصفات إلى أطر رئيسية هي : —

أولاً : صفات التكامل الذاتي ، وأهمها الصدق ، والأمانة ، والإخلاص ، والذكاء

ثانياً : صفات الترابط والمودة ، وأهمها الحلم والتواضع ، والقناعة ، والكرم .

ثالثاً : صفات الريادة والتوجيه .. وأهمها المشاركة الوجدانية ، والقوة ،

والشجاعة .

وهذه الصفات تحتاج إلى بيان ...

” أولاً ”

صفات التكامل الذاتي

يبعث الله رسوله بعد بلوغهم سن الأربعين ، لئله حد الرشد ، وبلوغ العقل ،

يقول الله تعالى : ﴿ وَحَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَّأَن كَمَالُ الرِّشْدِ بِمُسَاعَدِ

على تكميل الغير ، ونحن هنا نشير إلى أهم الصفات البارزة في الشخصية الكاملة

لتكون منارة في تنشئة الدعوة ، وتوجيههم نحو النجاح في مهمتهم .

إن تأثير داعية واحد ، يتميز بالصفات المنشودة أفضل من تأثير مئات الدعاة

الذين اتخذوا الإمامة والدعوة ، وظيفه يكفيها حضور الأوقات والإنصراف من المسجد

سمعت مرة أحد العلماء يقول : إني أومن بالواحد ، فظننته يتحدث عن

الإيمان بالله تعالى الواحد ، الأحد ... ولكنه بين أن مقصده الداعية المثالي ولو كان

واحداً ، لأن الكثرة ، غير المهيأة لا تفيد مثله .

ومع آمال المؤمنين المخلصين أرجو للدعاة أن يكونوا على مستوى دعوة الله تعالى .

وأهم صفات الكمال الذاتى ما يلى : —

١ - الصدق :

والصدق فوق أنه فى حد ذاته سلوك سام، وصفة راقية، فهو منبع الثقة، وأساس التسليم، لأن الصادق لا يخالف الواقع ، وكل قوله مسلم، لا يحوم حوله شك، أو تكذيب .

والصدق فى الداعية ضرورة، لأن ما يذكره ليس رأياً شخصياً، ولا اجتهداً ذاتياً، لأنه مبلغ دعوة الله كما جاءت، ومبين لغوامضها، وناقل كل بيان قيل فى شأنها ، وكل هذا يحتاج إلى صدق فى التبليغ، ودقة فى النقل والبيان، حتى يتيقن المدعو من أن كل ما يسمعه من الداعية هو رسالة الله، وأن الدعوة كما بدت من قوله هى هى كما تركها رسول الله ﷺ " بلا تزيد أو انتقص .

ولذلك كان من الحكم الخالدة فى رسالة الإسلام أن أهم صفة اشتهر بها النبي ﷺ " هى صفة " الصادق الأمين " وقد ذكر النضر بن الحارث بعض أوصافه لقومه فقال لهم : (هو أصدقكم حديثاً) ^(١) ، ولما سأل هرقل أبا سفيان (ولم يكن قد أسلم بعد) عن محمد قائلاً: وهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ أجابه : لا .

فقال هرقل : أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ^(٢) ، وهذا القول من هرقل يبين أهمية الصدق لأن دعوة الله لا نعلمها إلا من مبلغها ، ومن كذب على الناس جاز أن يكذب على الله ، أما من إلتزم الصدق مع البشر فهو صادق حتماً مع الله سبحانه وتعالى .

ولما بدأ النبي ﷺ " يجهر بدعوته سأل الناس (لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقي ، قالوا جميعاً : ما جربنا عليه كذباً) ^(٣) ، وإنما

(١) سيرة النبي ج ١ ص ٣١٩ .

(٢) صحيح البخارى ج ١ ص ٥ ، ٦ - باب بدء الوحي .

(٣) صحيح البخارى ج ٦ - كتاب التفسير - باب ثبت يدا أبى لهب .

بدأ معهم بإظهار إقرارهم بصدقه ليوضح لهم أن دعوته لهم هي الحق ، لأنه لم يعهد فيه الكذب قط .

وقد كثرت التسيهات والتوجيهات في القرآن الكريم والحديث النبوي لإلتزام الصدق في كل شيء فقال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١) .

ويقول النبي ﷺ " (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة) (٢) بل يصل الأمر في أهمية الصدق إلى جعله أحد الصفات الأساسية للمسلم، لأن الإسلام في حقيقته نبت للأوهام ، وبعد عن الباطل ، وهو بذلك يتناقى مع الكذب ، ومن افتراه ليس مؤمناً كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِحَاثِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (٣) .

وسئل النبي ﷺ " (أياكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم ، فقيل : أياكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال : نعم ، فقيل له : أياكون المؤمن كذاباً ؟ فقال : لا) (٤) .
وإن كان هذا شأن المسلم على إطلاقه فما بالك بالداعية الذي هو في أشد الحاجة إلى أن يتبع ، وبغير الثقة في صدقه لا يكون هناك اتباع ، ألا ترى أخوة سيدنا يوسف " عليه السلام " حينما احتجز أخوهم " بنيامين " عند يوسف " عليه السلام " ذهبوا إلى أيهم قاصين ومن أجل أن يثق في قولهم قالوا : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٥) بل إن رسل الله إلى لوط " عليه السلام " يقولون له : ﴿ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٦) فتجدهم يظهرون صفة الصدق لمحدثهم على وجه التأكيد ، فيها ، ليكون ذلك أدعى إلى السماع ،

(١) موضه ملك ج ٤ ص ٢٢٧ - ما جاء في الصدق .

(٢) سورة النحل الآية (١٠٥) .

(٣) موطأ مالك ج ٤ ص ٢٢٨ - ما جاء في الصدق والكذب .

(٤) سورة يوسف الآية (٨٢) .

(٥) سورة الحجر الآية (٦٤) .

وأسرع في الموافقة، لا فرق كما هو مذكور بين الملائكة والبشر، لأن الإقناع لا يتم إلا بالأمر الواقع، ويعيش التصديق دائماً مع الحق والثبات، ومن أكثر من الدعوة حاجة إلى الإقناع والثبات !!! .

صحيح أن الدعوة تحمل في طياتها عناصر الثقة بها، من واقعية في الشخصيات ودقة في الإسعاد، لكن هذا لا يعفى الداعية من ضرورة الثقة فيه أيضاً، لكي تصفى إليه الأذان، وتسمع العقول، وتفكر الأفئدة، وبعدها يكون قد أدى ما عليه .

٢ . الأمانة :

ومما يلزم الصديق صفة الأمانة الشاملة لكل ما يقوم الإنسان به تجاه نفسه وتجاه الناس، من قول، أو عمل، ومن أكبر الخيانات أن تكذب الحديث حيث يقول "كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق، وأنت له به كاذب" (١) ولذلك أمر الله المسلم بأن لا يخون في أى جانب من الجوانب حيث قال تعالى : ﴿ يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحْزَنُوا أَمَنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) وكما ارتبط الإيمان بالصدق فهو يرتبط بالأمانة، ويجب أن يشتهر الداعية بالأمانة كما أشتهر بالصدق عند الجميع من أسلم ومن لم يسلم ليتحقق خير كثير للدعوة .

٣ . الإخلاص :

يحتاج الدعاة إلى الإخلاص لله تعالى وهم يبلغون دينه .. والمقصود بالإخلاص أن يكون العمل كله لله، لا يداخله غرض آخر، وأن يبحث في كل أقواله، وأعماله، وأحواله عن مراد الله وتوجيهه فيما سيقوم به . وقدوته في ذلك رسول الله " ﷺ " الذي عاش عمره للدعوة ولم ينظر لشيء آخر . عرض عليه كفار مكة المال، والملك، والسلطان، والمرأة ليترك الدعوة، فكان رده واضحاً بأنه لن يتركها ولو ملكوا قوى الكون وأعطوها له في يده، وتحت تصرفه (٣)

(١) سورة الأنفال الآية (٢٧) .

(٢) البخارى - باب الأدب المفرد .

(٣) انظر ص

ولصدق إخلاصه " ﷺ " لدعوة الله تعالى تحمل في سبيلها الكثير ، فقد أودى في نفسه ، وولده ، وسائر جوانب حياته ، وظل صابراً محتسباً ، راجياً رضوان الله تعالى ، لذلك وجب على الدعاة أن يعيشوا للدعوة ، وبخاصة أن الله تعالى قد يسر لهم أمر المعاش ، في هذا العصر .

إن الداعية المخلص لرسالته مسئول عن : —

— العلم بالدعوة : وذلك لا يتأتى إلا بالقراءة الدائمة والتعلم المستمر ، وليجعل للكتاب نصيباً من حياته ، يعود إليه أثناء تحضير درسه ، وإعداد خطبته .

ومن المعلوم أن الداعية يعرض دعوته جزءاً ، جزءاً ، وعليه حينئذ أن يعد لكل جزء عدته بالقراءة ، والفهم والإعداد .

— تخير الوسيلة : وهذا يحتاج إلى النظر في كافة الوسائل الممكنة لتخير المفيد منها ، فقد يكون المفيد كتاباً ، أو حواراً ، أو مصاحبة ، أو حديثاً مطولاً .

وله في رسول الله " ﷺ " أسوة ، فلقد دعى خديجة " رضي الله عنها " بالعمل ، ودعا أبا بكر بالكلمة الموجهة ، ودعا غيره بالخطبة المطولة ، أو برؤية العمل والتطبيق .. وهكذا .

— تحمل المشاق : يلاقى الدعاة في أعمارهم عديداً من العقبات ، بعضها من المدعويين وبعضها من غيرهم ، من شياطين الإنس والجن ... وقد عشنا مع رسل الله " عليهم صلوات الله وسلامه " ، ورأينا المعاناة التي قابلتهم أثناء قيامهم بالدعوة إلى الله تعالى .. ومع ذلك لم تلبس لهم قنار ، ولم تضعف لهم عزيمته ، واستمروا على إخلاصهم في الدعوة إلى الله تعالى .

على هذا يجب أن يستمر الدعاة غير مباليين بما يعترضهم من مشاق ، محتسبين ذلك لله رب العالمين .

٤ . الذكاء والبديهة : يتعرض الدعاة لمواقف تحتاج منهم إلى بديهة متوقدة تمكنهم من إيجاد الحل المناسب لها ، في إطار المشروعية الإسلامية ، وبسرعة خاطفة ، منعاً

لنشر الملل مع المدعوين .

إن الذكاء العادى ، والذاكرة الضعيفة تضر أكثر مما تفيد فى بعض الأحيان ، وكثير من العباقرة فقدوا تفوقهم بسبب بطئهم فى التفكير ، وإيجاد الحلول ، ومعالجة المواقف .. لأن الإنسان قد يكون مثقفاً ، غزير المادة ... ومع ذلك يرتج عقله ، وتخونه ذاكرته إذا صادف موقفاً ، حساساً ، مفاجئاً .

وقديماً قالوا (إن المرء بأصغريه قلبه ولسانه) .

ذهب غلام مع وفد قومه لتهنئة عمر بن عبد العزيز ، ولما وقفوا بين يدى الخليفة إشرأب الغلام للكلام .. فقال عمر : يا غلام ، ليتكلم من هو أسن منك . فقال الغلام : يا أمير المؤمنين : إنما المرء بأصغريه ، قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبده لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً فقد أجاد له الاختيار ، ولو أن الأمور بالسن لكان ههنا من هو أحق بمجلسك منك .

فقال عمر : صدقت ^(١) .

والقلب الحافظ لا يكون إلا من ذاكرة حسنة ، وبديهة حاضرة ..

وقد درس علماء النفس ظاهرة ضعف الذاكرة فوجدوها ضارة بالإنسان ، وخاصة الإنسان العادى .

يقول "كارل سيشور" : إن الرجل العادى لا يستخدم أكثر من عشرة فى المائة من قدرته الموروثة فى الاستدكار ، ويضيع منه تسعون فى المائة بإهماله قوانين التذكر الطبيعية ^(٢) . إن العلم هبة إلهية يعطيها للمتقين من عباده كما يقول تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ » . ويقول الإمام الشافعى :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى فارشدنى إلى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور ونور الله لا يعطى لعاصى

(١) الشخصية ص ٢٢ .

(٢) التأثير فى الجماهير ص ٦١ .

وأهل التصوف يشعرون بالإلهام الإشرافي ، ويذكرون أن أهل الله يكون الله معهم دائماً عوناً ونصيراً .

ومع أن الأمر هبة إليه فإننا نطالب بالأخذ بالأسباب ومطرده العادة .

أراد النظام أن يوجه ولده إبراهيم للدعوة إلى الله تعالى فأحضره إلى الخليل بن أحمد ، فقام الخليل باختبار ذكائه ، والوقوف على درجة بديهته ، فأحضر كأساً ، وقال له : صف هذا الكأس .

فقال إبراهيم : بمدح أم بدم ؟ !

فقال الخليل : بمدح .

فقال إبراهيم : تريك القذى ، ولا تقبل الأذى ، ولا تستر ما وراء .

فقال الخليل : بدم .

فقال إبراهيم : يسرع إليها الكسر ، ولا تقبل الجبر .

وهنا أخذ يعلمه ، ويوجهه لما رأى فيه من فطنة وذكاء ..

ومن هذا الباب أيضاً أن الحافظ العراقي لما ذهب إلى شيخ ابن البابا ليتلقى

عنه الحديث اختبره أولاً حيث قال له : من ابن البيع ؟

قال الحافظ : الحاكم أبو عبيد الله النيسابوري .

فقال له : من أبو محمد الهلالي ؟

قال : سفيان بن عيينة .

قال له : هلم يا بني ، وعرف مكانته من الوعي والإدراك ، وإستعداده للتعلم، وعلمه .

إن مثل هذا الاختيار يتم اليوم في عدد من الدراسات المتخصصة التي تبدأ من

وقت مبكر كدور المعلمين والمعلمات ، ومعاهد الخدمة الاجتماعية ، والمدارس

العسكرية المتنوعة ، وذلك كله لينجح الطالب بعد تخرجه فيما يوكل إليه من أعمال .

وقد أدرك قدر هذا الاختبار المبكر مع الاختيار أصحاب المذاهب الوضعية

ورجال الأديان الأخرى فعملوا به وأخذوا يعدون لباطلهم دعاة فيهم الذكاء والنشاط والإخلاص ، وغير ذلك من الصفات التي تنتشر بها الأفكار والعقائد .

وإعداد الدعاة إلى الإسلام يجب أن يندرج في هذا الخط الطبيعي ، حيث يختارون في سن مبكرة ، وتختار مستوياتهم الذهنية وقدراتهم الشخصية ليسهل إعدادهم ، ويكونوا بعد تخرجهم على مستوى واجب الدعوة ، وأهمية العمل لها .

” ثانياً ”

صفات الترابط والمودة

تأليف القلوب عملية أساسية في الدعوة إلى الله تعالى ، ولذلك وجب على الداعية أن يهتم بهذا الجانب الحيوي في نشاطه ، ليرتبط مع الناس في مودة وإخلاص . ويعتمد هذا التأليف على ملامح شخصية الداعية ، ولذا نوصي بضرورة تميزه بالصفات التالية : —

١ - الحلم :

والحلم صفة هامة للداعية تجمع القلوب ، وتذيب الإحن ، وتعطي له قدراً كبيراً من الصلابة في مواجهة أشد المواقف ، وأحلكها ، وهو أول ما يتمتع به الخلق الحسن ، لأنه يقرب الغريب ، ويذهب العداوة .

وهل يستوى الحلم والتهور ؟ أبداً لا يستويان لأن الحلم سيد الأخلاق ، والحقيقة أنه : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ٥١ ﴾ ^(١) والحلم ليس دليل ضعف أبداً ، بل

هو الدليل على القوة ، والمالك لنفسه عند الغضب هو القوى في الحقيقة ، يقول النبي ﷺ : (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) ^(٢) والإسلام رغم أنه يعطي للنفس حقها في مقابلة السوء بمثله حيث قال تعالى :

^(١) سورة فصلت الآيات (٣٤) .

^(٢) موطأ مالك ج ٤ ص ٩٥ - ما جاء في الغضب .

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ وهذا شيء طبيعي يتفق مع غريزة الإنسان في الانتقام والانتصار إلا أن الأسى من الانتصار هو أن يكون المرء حليماً يعفو عند الإساءة ، فقال تعالى عقب هذا الجزاء المثلث : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ وكون الأجر على الله يحتم العفو إلى درجة كبيرة .

ولضرورة هذه الصفة للداعية أمر الله رسوله بها فقال له : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) ، وقاله له : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

وعلى الدعاة أن يهتموا بالحلم والعفو ليصلوا إلى غرضهم ، ولا يجعلوا شهيم الغضب والانتقام ، لأن ذلك ينشر المدعويين منهم ولا يجيبهم في استماع الدعوة وتفهمها ، يقول الإمام الغزالي : (أما حسن الخلق بعد العلم ، والورع ، فضرورة ليتمكن من اللطف والرفق ، وهو أصل الباب ، وأسلمه ، والعلم والورع لا يكفيان فيه فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع قبوله ، وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق ، ومقدرة صاحبه على ضبط نفسه وقت الشدة والغضب ، وبه يصير الداعي على ما أصابه من دين الله ، وإلا فإذا أصيب عرضه ، أو ماله ، أو نفسه نسي الدعوة ، وغفل عن دين الله ، واشتغل بنفسه ، بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم) (٣) .

يقول الشيخ / ابن علوى الحداد : (على الدعاة أن يكونوا على نهاية من الصبر ، والاحتمال ، وسعة الصدر ، ولين الجانب وخفض الجناح ، وحسن التأليف ، وإن دخل عليهم شيء من أذى الجاهلين ، عليهم أن يصبروا ، ويعرضوا ، ويقولوا خيراً لأحکم من عباد الرحمن الذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) (٤) .

(١) سورة الأعراف الآية (١٩٩) .

(٢) سورة المائدة الآية (١٣) .

(٣) الدعوة القائمة ص ٩ .

(٤) الإحياء ج ٢ ص ٢٩٢ .

ويقول ابن تيمية (ولا بد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الرفق ولا بد أن يكون الداعية صبوراً على الأذى، فإنه لا بد أن يحصل له أذى، فإن لم يصبر وعلم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، وينقل ابن تيمية ما قاله القاضي أبو ليلى (لا يأمر ولا ينهى إلا من كان رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه) (١)

ويكفي الدعاة أن يتعلموا من توجيهات القرآن الكريم المؤكدة نحو الحلم والعفو حيث قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢).

٢. التواضع :

والتواضع أحد الصفات الأساسية التي تساعد على المعاشرة الحسنة، لأن المتواضع يعيش مقدراً لنفسه وللناس، ومقدراً من الآخرين، ومن هذا المنطلق لا يبدو متعالياً قط، ولا يكون وضعاً أبداً، ويشعر أن المساواة الأصيلة هي الروح المسيطرة فيألف ويؤلف ويأنس ويؤنس به.

ويستقر التواضع في النفس بسبب يقينها بأنها والناس جميعاً من نفس واحدة، وما انقسمت إلى القبائل والشعوب إلا لأجل التعارف، واللقاء، والتآلف، حفاظاً على ما يحليه الإحساس الواقعي بالأصل الواحد، واتباعاً لتعاليم الرب الواحد الذي كفّل للناس فرصة متكافئة فلا يتمايزون بخلقهم، أو لوهم، أو ثقافتهم، وإنما يكون التمايز تابعاً للإيمان والعمل، وحتى مع التميز بالإيمان والعمل فإن الواجب على المؤمن أن يتمسك بالتواضع حتى النهاية لما يحققه من فائدة، أنظر ما قاله الله تعالى لتأصيل هذه الحقائق: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣) فالجميع من

(١) الحسبة في الإسلام ص ٢٨١، ٢٨٢.

(٢) سورة النور الآية (٢٢).

(٣) سورة الحجرات الآية (١٣).

أصل واحد والتفرق للتعارف، والكريم هو التقى، والذي يحكم بالدرجة الصادقة هو الله العليم الخبير، أما هذا الذي يتعالى حتى ولو بتقواه فلا يعتد به لأنه زكى نفسه مخالفاً أمر الله القائل : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (١) .

والداعية الذى جعل همه الدعوة إلى الله ، يجد نفسه ملتزماً بالتواضع، ليتمكن من التماس طريق الله الذى دعا إليه عباده الصالحين ليتحقق له كل ما وعد الله به ، من تمتع كامل بالدنيا، ومن تمتع عظيم بالآخرة فإن الواقع أن : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

والتواضع يمكن صاحبه من الاستفادة بكل آيات الذكر، والكون، لأنها لن تصرفه عن فهمه لتواضعه كوعد الله القائل : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (٣) فيمن أن عقول المتكبرين وحدهم هى التى لا تفهم ولا تعي، فيجادلون فى الحق بعد تبينه، ومهما عرضت لهم الآيات الواضحات كونه، أو قولية، لا يرونها، ذلك حالهم ، وحال المتكبرين دائماً ، ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ ، وإنما فقدوا كل هذا لأهم بالتكبر بعدوا عن رحمة الله وحيه ، إنه لا يحب المستكبرين وبفقدهم هذا الحب لا يجدون أى حب من الناس، لأن الملائكة تنادى أرواح البشر أن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، وسيجدون أنفسهم بعد ذلك فى عزلة من الناس ، وهذا مما لا يرضاه داعية لنفسه .

على الداعية أن يلتزم التواضع ليقرب من الناس، لأن دعوته فى حاجة إلى صلة مستمرة بهم ، وعليه أن يكون قريباً إلى قلوبهم وأرواحهم ، والتواضع هو ضمان ذلك كما بينته الحقائق الدينية التى عاشها النبي ﷺ " تطبيقاً على نفسه، وتوجيهاً لمن بعده

(١) سورة النجم الآية (٣٢)

(٢) سورة القصص الآية (٨٣)

(٣) سورة الأعراف الآية (١٤٦)

من المؤمنين ، إقرأ هذا الأمر إلى رسوله " ﷺ " : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) . والمس منه التوجيه الواجب إلى التواضع لأنه بهذا الخفض يقرهم ، ويوجه عقولهم وأرواحهم ، وكان النبي " ﷺ " لا يتعالى على أحد من أصحابه بل يجلس معهم ويعرفهم أنه كأحدهم في كافة شئون حياته ، وإذا ما مر بصبيان صغار وقف وسلم عليهم ، فلقد مر أنس على صبيان فسلم عليهم وقال : كان النبي يفعله (٢) بل إنه يوضح لأصحابه تواضعه فيما قام به من عمل ، فيقول " ﷺ " (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم) ، فلما سأله جابر عن نفسه قال (وهل من نبي إلا وقد رعاها) (٣) .

وعلى الدعاة أن يلتزموا بالتواضع الكامل حتى يتمكنوا من تأدية دورهم ويضربوا في هذا المجال صوراً عملية كثيرة .

٢ . القناعة والزهد :

الزهد الصادق يتبعه قناعة بما أوتي ، وعفاف عما في أيدي الناس ، ولا تقف النفس الكريمة بصاحبها عند الزهد ، والقناعة ، والعفاف ، بل إنها تطبعه بطابع السخى المعطى حين يجد الذي يعطيه غير منتظر علم أحد ، أو شكره ، لأنه أنفقه لوجه الله ، ولا ينتظر ثواباً إلا من الله ، وما ذلك إلا لإيمانه بحقائق القرآن الذي يتلوه ويرشده والتي منها : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٤) .

إن الداعية في أمس الحاجة إلى نفس زاهدة تؤمن بالزهد وتعرف فضيلته وترى أن

(١) سورة الشعراء الآية (٢١٥) .

(٢) رياض الصالحين ص ١٧٤ .

(٣) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٩١ - كتاب بدء الخلق - باب يعكفون على أصنام لهم .

(٤) سورة البقرة الآية (٢٧٢) .

(هذه الحياة الدنيا ليست دار التمتع الكلى ولكنها فترة مؤقتة تنبئ عليها كل سعادة الآخرة) ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) وبذلك فليس الهدف منها التلذذ من الشهوات والمطعم ، وليس هو شأن المؤمنين أبداً أما الكافرون فيأثم ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ ^(٢) وبهذا الزهد لا يكون المؤمن منعماً في تصرفه ، وفي الوقت نفسه لا يحرم من الدنيا ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ .

هذه الحقائق ترسخ في نفس الداعية فيعطى بلا حد، ويعلم أن الله سيخلفه ويعوض عليه بالنجاح في دعوته .

٤ . الكرم والسخاء :

والكرم والسخاء صفة من أهم صفات الداعية حيث تقرب القلوب النافرة وتمهد العقول للطاعة ، ولذلك كان من أولى الأوامر الأخلاقية للرسول " ﷺ " ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ ^(٣) أى لا تعط مستكثراً ما أعطيت للناس فنجده " ﷺ " يعطى عطاء من لا يخشى فاقه، وكان كما وصفه ابن عباس (أجود الناس) ^(٤) ولم " ﷺ " يقل لا عن شيء سئل فيه ^(٥) ولا يكفى في الكرم العطاء المادى وقت وجود المال فـ (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس) ^(٦) بل لا بد من نفس كريمة استجمعت كل خواص الكرم وأصالته في كافة حالاتها .

^(١) سورة الشعراء الآية (٢١٥) .

^(٢) رياض الصالحين ص ١٧٤ .

^(٣) سورة المدثر الآية (٦) .

^(٤) صحيح مسلم ج ٧ ص ٧٣ .

^(٥) صحيح مسلم ج ٧ ص ٧٣ .

^(٦) صحيح البخارى ج ٨ ص ١١٨ .

ومن هنا نجد القرآن الكريم يعلم المؤمنين الالتزام بمكارم الأخلاق ، غير عابئين بما يعترضهم من عقبات ويعد الكرم أحد الأسباب التي حبيبت الناس في رسول الله ﷺ " ويقول علي : (كان رسول الله أجود الناس كفا) ، ومن المعروف أن الإنسان عبد الإحسان ولذلك يروى أن رجلاً أتى النبي ﷺ " وسأله فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه مسلماً وهو يقول لهم (أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء ما يخشى فيه الفاقة) ^(١)

« ثالثاً »

صفات الريادة والتوجيه

والداعية لا يكتفى بالهودة مع الناس لأنه صاحب رسالة يعمل لنشرها فيهم، ويهديهم بها ، وذلك لا يتأتى له إلا إذا تمتع بشخصية مؤثرة فيها قدرة الجذب النفسى ، ومنها يقبل التوجيه والريادة ، على أن هذه الشخصية لا بد أن تمتلك مجموعة من الصفات ذات التأثير والريادة ، ومنها :

١ - المشاركة الوجدانية :

وهي صفة هامة للداعية، تجعله يعيش حياة الناس، ليشعر بشعورهم، ويفعل مع أراءهم، وحياتهم، ويتداخل في تقاليدهم، وكافة شئونهم بصدق وفهم ، وتحليل ، ويجب أن تأخذ هذه الصفة عنده شكلاً عاماً بمعنى تواجدها تلقائياً مع الجميع بلا تفرقة بين غنى وفقير ، أو رئيس ومرعوس ، ورفيع أو وضع لكى يصل بالدعوة إلى الجميع ، فإن المشاركة تضيف إحساساً عملياً له قوته في الوصل والتأثير ، ومن المعروف أن المشاركة الوجدانية هي الرباط الحريرى الذى يصل القلب بالقلب ويربط العقل بالعقل والجسم بالروح ^(٢) وهي التى تنشئ كل التصرفات الحسنة والسلوك القويم، وتأثيرها في الحياة الاجتماعية مؤكد بسبب خلوها من الزيف والتصنع ، ولأنها

(١) الشفا ج ١ ص ٢٣٨

(٢) الشخصية ص ٤٠

يُظهر مع أول مقتضى ، ولكل أمر ، ولا تحتاج إلى عناء كبير لكي تعرف ، وتترك ،
لما لزمها القول ، والسلوك ، والعمل .

والداعية بها ينتظره الناس ويقدمونه عليهم ، فيأخذون رأيها ، وينهجون هججه
ويجعلونه رائدهم وما استحق ذلك عندهم إلا بعد أن تأكدوا من الصور العملية لهذه
الصفة ، فهو حبيب يتمنى الخير للجميع ، كما يتمناه لنفسه ، فيصل الرحم ، ويكرم
الجار ، ويقري الضيف ، ويخلص للجميع ، ولا يترك أمراً فيه مصلحتهم إلا ويبحث عليه
ويعدهم عن سواه ، ودائماً تلقاه مهتماً بالخير والنفع ، فيكرر النصيحة ، ويأمر
بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وتعاونته مع الجميع يلمسه الجميع ، في كثرة ، ووضوح ،
وهو في هذا لا ينتظر من الناس جزاء أو شكوراً ، وكل ما يتمناه أن يجعل الأفهام
متفتحة لدعوة الله مقبلة على تدبرها واليقين بها .

والداعية يطبق أشكال هذه الصفة عن اقتناع بها ، لأنها أوامر دينه إليه ، وحياته
رسوله " ﷺ " مع الناس ، وإذا كانت هذه مصادر دعوته فهو أحق الناس بتطبيقها .
إنا الدروس المستفادة من فهمه لحقيقة الإنسانية ، ودعوة الإسلام للتعارف
تحت المشاركة الصادقة ، وجدانياً ، وعقلياً ، وحسياً ، ليصنعوا جميعاً ما يفيدهم وينفعهم ،
وآيات القرآن تؤكد ذلك وتبحث عليها ، أنظر قوله تعالى حينما يخاطب القوم بصيغة
الجماعة فإنه لا يفرق بين إنسان وإنسان ، ولا بين مؤمن ومؤمن ، فالخطاب واحد
للجميع إذ ينادي ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ، ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ وهذا يعلم المشاركة
بل إن القرآن يعلم الناس أن يكون دعاؤهم لأنفسهم ولغيرهم إذ يقول ﴿ أَهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾ وهو دعاء في سورة الفاتحة يقرأه المسلم كل يوم داعياً
بصيغة الجماعة إشاراً لغيره ، وتبرئة لنفسه ، من الأنانية ، ولأنه شيء يحببه الله ورسوله ،
حيث يقول تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ^(١) ويقول إخباراً

عن سيدنا إبراهيم عليه السلام " : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
 الْحِسَابُ ﴾ ^(١) وذلك ليس بدعا فإن القرآن يمدح المؤمنين الأول ، لأهم تركوا
 أنانية الذات إلى حب الجميع حيث كانوا لا يدعون للأحياء وحدهم بل يقولون :
 ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا
 لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ^(٢) ولم يكن بالقول فقط وإنما بالعمل كان إيثارهم كما يفيد قوله
 تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ
 فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
 وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(٣) فترى الأنصارى ساكن
 المدينة يحب المهاجر إليه من مكة ، بكل صفاء ، ويؤثره على نفسه خاصة ، وسبب
 ذلك أن وجدانهم قد آمنت بهذه المشاركة عن اقتناع فتمكنوا بعد ذلك من تأسيس
 مجتمعهم على الحب ، والخير ، والمشاركة ، وكل ما حرصوا عليه هو أن ينمحي الغل
 من قلوبهم وأن يوقفوا شح النفس ليصلوا إلى الفلاح ، وذلك درس للداعية .
 أن الداعية ملتزم بأن يحسن صلاته مع الجميع تنقيداً لأمر الله القائل :
 ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
 وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ
 وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ^(٤) يبين الزمخشري في تفسيره هذه الطوائف فيذكر أن ذا القربى
 كل ما بينك وبينه قربي من أخ أو عم أو غيرها ، والجار ذي القربى هو من قرب
 جواره ، والجار الجنب من بعد جواره ، وهو أجنبي ، والصاحب بالجنب الذي

^(١) سورة إبراهيم الآية (٤١) .

^(٢) سورة الحشر الآية (١٠) .

^(٣) سورة الحشر الآية (٩) .

^(٤) سورة النساء الآية (٣٦) .

صحبك في أمر ما أو المرأة ، وابن السبيل المسافر المنقطع أو الضيف ^(١) ويجب أن تأخذ هذه الصلة الحسنة أشكالها المتعددة فهي على الخيّر والبر، المأمور بهما في قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ ^(٢) وهي نصيحة خيرة، وتواص به، لأنها من صفاتهم ، ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ ^(٣) وهي أمر بالمعروف وهي عن المنكر اللذان هما أساس خيريتهم كما أخبر الله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ ^(٤) وسبب فلاحهم الذين أمروا به في قوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(٥) .

ويجد الداعية أمامه كذلك صورة النبي ﷺ " وتطبيقاته لهذه الصفة ، فلقد كان قبل البعثة كما وصفته زوجته خديجة (إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتقرى الضيف وتحمل الكل وتعين على نوائب الحق) ^(٦) وكان يشارك قومه أحداثهم الكبرى فساهم في حرب الفجار، وحلف الفضول، وبناء الكعبة، وعاشر الرعاة والتجار، والأثرياء، والكبار، والصغار، وكان الجميع يذكرونه، ويتوددون إليه ، فلما بعث عليه تضاعفت اهتماماته بالناس كما وصفه الله : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٧) وكان يوالى الناس بالنصح والإرشاد قاصداً لنجاتهم وسعادتهم ، وكان ﷺ " يسبقهم في كل أعمالهم ألا تراه في يوم " بدر " يترك ابنته مريضة في المدينة ويذهب إلى الحرب لا ليجلس في العريش

^(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٢٦ .

^(٢) سورة المائدة الآية (٢) .

^(٣) سورة العصر الآية (٣) .

^(٤) سورة آل عمران الآية (١١٠) .

^(٥) سورة آل عمران الآية (١٠٤) .

^(٦) صحيح البخارى ج ٩ ص ٢٨ - كتاب التحبير .

^(٧) سورة التوبة الآية (١٢٨) .

الذى بناه له الصحابة خلف الصفوف ، بل ليكون في الصفوف ، يرمى بالحصا ، ويناشد الله ، وينظم الصف حتى أشفق عليه الصديق أبو بكر " رضي الله عنه " فقال له : بعض مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعد وتنتهي المعركة ، ويأتيه خبر وفاة ابنته وهو عائد إلى المدينة .

وكان " رضي الله عنه " يحاول دائماً مصلحة الناس ويتصرف وفق ذلك ، من ذلك ما ذكره " رضي الله عنه " (يا سعد إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله في النار) ^(١) فهو يعطي هذا إنقاذاً له من النار ويترك غيره الأحب .

إنه " رضي الله عنه " في موالاته النصيحة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، قد ترك للمسلمين عموماً ، وللدعاة على الخصوص ثروة طائلة تمدهم بالدين كله .

وعلى الحملة فإن هذه المشاركة بكل جوانبها ضرورية لمن وقف نفسه لدعوة الله حتى يأخذ الصدارة ، ويتقدم الصفوف ، ويكون ثقة القوم ، وأملهم ، ويبعد عن همسة الحاقد ، وينجو من عداوات المعارضين .

٢ . القوة والشجاعة :

وهذه صفة أخرى تساعد على الثقة والقيادة وهي صفة تنبئ على تقدير الشخص لنفسه وفهمه لواقع حياته وأتباعه لتعاليم دينه المؤكدة ، فبذلك يبعد تلقائياً عن الذل والضعف ، وعن الخوف والاضطراب ، لأنه يثق في المفاهيم التالية : —

أولاً : المؤمن يجب أن يكتسب من إيمانه الثقة ويشعر بالتفضيل والكرامة لأنه بالإيمان يؤدي ما عليه ويترك ما عدا ذلك لله الذي يصرف كل شيء : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ

بِمِقْدَارٍ ﴾ ^(٢) .

^(١) صحيح مسلم ج ١ ص ٩١ - كتاب الإيمان - باب تأليف قلب من يخاف على إيمانه .
^(٢) سورة الشرح الآية (٨) .
^(٣) سورة آل عمران الآية (١٧٥) .

ثانياً : الخلق كله بقبضة الخالق سبحانه وتعالى وبيده وحده النفع والضرر وكل الخلق خاضع له وما على المؤمن إلا أن يقصر خوفه على الله كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

ثالثاً: الأجل والرزق محددان تماماً بحيث ﴿ فَإِذَا حُجَّتْ أَسْفُهُمْ رَبَّهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٢) ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (٣) وقد ثبت أن رزق الرجل يكتب بعد نفخ الروح في المضغة كما يكتب أجله وعمله (٤) .

وما دامت هذه المفاهيم قد ثبتت عند الداعية فما عليه إلا أن يظهر العزة في كل حياته لأن ﴿ الْعِزَّةُ لِلرَّسُولِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) وهي عزة ناشئة من الإحساس بالكرامة التي أولاها الله للإنسان على العموم ، وناشئة من لذة الإيمان وحلاوته عند المؤمن على الخصوص ، فإذا ما بعد الإنسان عن العزة فقد بعد عن الإيمان ، ولا يقبل من المؤمن قط عذر إذا سار في مسلك ذليل فإنه بذلك يظلم نفسه وسوف يسأل ﴿ فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ (٦) فلن يقبل منه أنه كان ضعيفاً في بلده لأن الأرض كلها لله وهي واسعة ، وكان عليه أن يهاجر إلى مكان آمن فيه صيانة لكرامته وحماية لعزته التي يجب أن يتمسك بها بكل شدة ، ولن ينقص من قدره شيء ، وأن الحقيقة في قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٧) .

(١) سورة الأعراف الآية (٢٤) .

(٢) سورة هود الآية (٦) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ ص ١٩٢ - كتاب القدر .

(٤) سورة المنافقون الآية (٨) .

(٥) سورة النباء الآية (٩٧) .

(٦) سورة فاطر الآية (٢) .

وليس من العزة أن يظلم الإنسان غيره، أو يطغى عليه، لأن العزة خلق ممتاز يتمتع بها من يحافظ عليها لنفسه، ولغيره إنطلاقاً من فهمه لذاته، ودينه، وللحياة .
ومن مستلزمات هذه العزة أن يكون صاحبها شجاعاً، قوياً، في شخصه ورأيه لتكون خيرة في ذاتها، ومقبولة من كافة العقول .

وقد أراد القرآن الكريم أن يبسط هذا المعنى في الأسماع والعقول فحفل به وأكثر من وصف الله بالقوة ليكون ذلك إيحاء إلى المؤمنين بأن يكونوا أقوياء ، وكذلك وصف بالقوة جبريل ورسله والمؤمنين حتى يتضح شرف القوة ورفعتها .
ومن القوة المطلوبة أن يملك الداعية القدرة على ضبط نفسه والسيطرة عليها بل إن ذلك هو كل القوة في الواقع لأن النفس خيراً وشرّاً تتنوع بحسب قواها، وأحسن الناس من يحكم شهوته، وغضبه، فيعطى لنفسه العاقلة زمام أمره، ويتصرف بعيداً عن أى إنفعال يفسد عليه وجهته مهما كان حقاً .

يقول ابن مسكويه ^(*) : (شبه القدماء الإنسان وحاله مع الأنفس الثلاثة بإنسان راكب دابة قوية، ويقود كلباً ، فإن كان الإنسان من بينهم هو الذى يروض دابته وكلبه ، فلا شك في رغد عيشه وحسن أحواله ، وإن كانت البهيمة أو السبعية هي الغالبة ساءت الثلاثة) ^(١) ، ولذلك كانت وصية النبي ﷺ " للصحابى الذى سأله النصيحة (لا تغضب) ^(٢) ليكون قوياً بحق ، فليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب ^(٣) .

ومن هنا يقول ابن المبارك أن المقصود من قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ

حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ هو جهاد النفس ^(٤) ولذلك فالعزير هو الذى يحكم نفسه ولا يجعلها

^(١) يرى ابن مسكويه أن النفس الإنسانية لها ثلاث قوى أو أنواع ثلاثة بهيمية (شهوية) وعضوية (سبعية) ونبطية (عاقل) وكل منها له قوته وتحاول التغلب على أختيها ، ويرى أن النفس الغضبية تترقى لأنها ثقل الألب ، والبهيمية تحكم فقط لأنها لا تقبله ، والإنسان يشرىف بالنبطية فقط ويشرك الملائكة ويدين البهائم .

^(٢) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص ٥٥ .

^(٣) موطأ مالك ج ٤ ص ٩٤ - ما جاء في الغضب .

^(٤) موطأ مالك ج ٤ ص ٩٥ - ما جاء في الغضب .

^(٥) ذم الهوى ص ٤٠ .

ثميل بالغضب الذى يفسد على الإنسان وجهته، ويجول بينه وبين الرشاد، ولذا كان من أهم صفات عباد الرحمن أنهم ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(١) .
 إن سيطرة العقل الهادئ يجعل الإنسان واقعياً في الموقف فيبدي الحجة، ويظهر
 الرأي ، ويصل بالإقناع إلى ما يريد .

ومن هذه القوة إعلان الرأي في ثبات لا يعرف التغير، أو التلون، بسبب محاباة
 أو تحامل، لأن هدفه نشر دعوته الحق المؤيده بالدليل، وهى محفوظة لا تتغير، ولكنها تغير
 وتصلح وتعلو، فإظهارها على وجهتها وبشكل مرن هو المطلوب، مهما كان الحال
 أو الموقف أو القوم، ولا عليه ما دام يتجرد في هدفه ويعد عن الدعوة أى أثر شخصي
 محتمل ، وللداعية أسوة في رسول الله " ﷺ " فلقد أعلن كلمة الله وهو وحده وسط
 قوم كافرين بها ومعارضين لها ، ومع ذلك لم يبال بأعمالهم ، لجأوا للتهديد والوعيد ،
 فرد عليهم قائلاً لعمه : (لن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه)^(٢) ،
 ولجأوا إلى محاولة إغرائه فكان يتهمز فرصة قرهم منه ويدعوهم إلى الله ، وقاطعوه
 وقومه فذهب إلى غيرهم من القبائل يدعوهم ، ولم يحدث أن غير الدعوة مع تغير
 الظروف وإختلافها ، بل كان العذاب الشديد يلحق به وبعض المسلمين، ومع ذلك
 كان يحث على الصبر وينتظر الأمل، ويواصل دعوته، لأنها الحق ولا بد أن تعلن .

يقول الزمخشري في تفسيره : أن المعنى أن يُتَّهَدوا في إقامة العدل حتى لا تجوروا،
 وتقيموا شهادتكم لوجه الله تعالى كما أمرتم بإقامتها ، ولو كانت الشهادة على
 أنفسكم، أو آبائكم، أو أقاربكم ، ولا تمنع الشهادة بسبب فقر أو غنى)^(٣)
 وعلى الجملة فإن الداعية إذا جمع الصفات السابقة فإنه يكون قد وضع نفسه في

^(١) سورة الفرقان الآية (٦٣) .

^(٢) سيرة النبي ج ١ ص ٢٧٨ .

^(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٧٠ .

الطريق المستقيم لدعوته ، وحسن نفسه بأخلاق الألفة والريادة ولا عليه بعد ذلك إلا أن يملك أفقاً يمكنه من فهم الواقع ويستطيع به عرض دعوته على وجهها السليم .

الركيزة الرابعة

الملاءمة

بين الدعوة والواقع

مرت الدعوة في مكة بمراحل متعددة تدور بين السرية في الدعوة، والجهري الخاص، والجهري العام، وكان لكل مرحلة ظروفها الذي حتم صوراً معينة في أساليب ووسائل الدعوة .

وحين ننظر إلى الدعوة في العصر الحديث ، وشأمل واقع العالم المعاصر نرى أنفسنا أمام مجموعة من الحقائق ، أهمها :

أولاً : بموج العالم بموجات عديدة، ومتعارضة في المذهب، والفكر، والسلوك . فمن الناحية الفكرية والمذهبية نرى في كل دين أقلية تلتزم به ، وأكثرية تدعيه وتطبق ما يعارضه، وتكتفي بمسميات لا مضمون لها .

والذين يتمسكون بدينهم منقسمون إلى جماعات مختلفة كل منها يدعى الحق لنفسه فقط ، ويرى أن ما عداه باطل ، ولو كان هذا الانقسام في الفروع لهذا الأمر ، لكنه كثيراً ما يكون في الأصول مع أنها واحدة لا تنوع .

ثانياً : تكتفي الدول الإسلامية برموز إسلامية على أساس أنها الإسلام فتحافظ على الشعائر الدينية كالصلاة ، والصوم ، والحج ، وتنظم الأحوال الشخصية كالزواج ، والطلاق ، والميراث وفق شرع الله تعالى ، وتترك ما عدا ذلك لقوانين البشر التي وضعها الناس لأنهم تتصور أن تطبيق كافة أحكام الشريعة أمر مستحيل، أو يذهبون إلى عدم تقبل الناس لها .

ثالثاً : سيطرت صورة الحياة الغربية القائمة على الفكر الوضعي على الاتجاهات الثقافية ، والفنية ، ومختلف جوانب الحياة الاجتماعية ، وتقبل الجمهور ذلك وإن خالف تعاليم الإسلام مخالفة ظاهرة .

رابعاً : تعمل أجهزة التوجيه ، والتثقيف بعيداً عن قيم الإسلام غالباً ، حيث ترى في أجهزة الإعلام الصور الخليعة ، والمسلسلات الهابطة ، والقصص والأفلام بمحتواها الضار ، ولذلك أثره السيء في التوجيه .

خامساً : برزت طبقات في المجتمع الإسلامي تنسلخ عن الإسلام باسم التوير والتحديث ، وأصبح له صوت وأتباع ، وهي ترحب بالفكر الوضعي ، وتدافع عنه .

سادساً : تمكن الغرب المسيحي القوى ، والغنى من فرض أنماطه الحياتية على العالم الإسلامي الضعيف ، ولم يجد المسلمون أمامهم إلا الخضوع للقوة التي تملك المال ، والصوت ، وكل ما يحتاجه الضعفاء .

وكل مخلص لإسلامه يجد نفسه أمام قوة ترقب عمله ، وتحاول هدمه بأساليبها ، ودهائها .

سابعاً : يجد الدعاة أنفسهم تحت المراقبة الدقيقة لقوى العالم المختلفة ، حيث تحلل كلماتهم ، وتقرأ كتبهم ، وتتابع حركاتهم وأعمالهم ، بحيث لو رأوا خطراً في دعوتهم ، وعملهم ، فإن التصدي لهم يأتي سريعاً تحت مسميات عديدة تجعلهم في مصاف الذين يعتدون على حرية الآخرين .

ثامناً : ألف العامة في المجتمع الإسلامي البعد عن تعاليم الإسلام ، وجهلوا الإسلام كله ، وصار علمهم بالأفلام ، والأغانى ، والأزياء ، والألعاب الرياضية هو اهتمامهم ، وهو ثقافتهم .

لقد راعى شباب وجدكم يعرفون أسماء ، ومراكز اللاعبين في الأندية الأوربية وغيرها ، وفي نفس الوقت لا يعرفون عن الإسلام إلا قليلاً .. ووجدكم فخورين بهذه المعرفة ، غير عابئين بجهلهم أمور دينهم .

هذا هو الواقع ..

بينما الدعوة حقيقة ربانية ، حفظها الوحي ، وصانتها قلوب قلة مؤمنة ، وتحتاج إلى من يتحرك بها ، ويبلغها للناس بالحسنى وبصورة محبة ، ويمنهج بحملها تفتح العقول والقلوب ، بعيداً عن التصادم، والعنف، والعدوان .

فهل يا ترى ؟ !

يطبق الدعوة منهج المرحلة السرية بما فيها من التخير والانتقاء ، وترك العلن ، والاكتفاء بالاتصالات الفردية ، حتى لا يحدث تعارض ، ومخالفة .

أم يتبع الدعوة منهج الدعوة الجهرية الأول بما فيها من الدعوة العلنية مع بقاء جمهور المسلمين في صمته ، كل في عمله ، لا يشعر بمسئوليته المباشرة تجاه الآخرين .
أم تتبع منهج الجهر العام ليقوم كل مسلم بإعلان الإسلام ، والدعوة إليه ، وتحمل مسئوليته تجاه دين الله تعالى .

إن الأمر ليس بهذه البساطة التي يتصورها بعض الناس ، لأنه يحتاج إلى دقة النظر، والتأمل في النتائج، وتحليل الموقف لتكون الدعوة إلى الله متلائمة مع الواقع، وليتخذ الدعوة لكل حالة منهجها المناسب .

فهناك حالات تحتاج إلى السرية، وأخرى يناسبها الجهر الخاص، وثالثة تحتاج إلى الجهر العام . والداعية هو صاحب القرار في ذلك ..

وليكن قرار الداعية واضحاً وهو يتخير الموضوع ، والوسيلة والأسلوب ..
فمن ناحية اختيار موضوع الدعوة عليه تحديد ما يريد ويركز على العقيدة لأنها أساس الدعوة ، وعليه أن يكون مع العقيدة ملتزماً بقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١)

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَمْ ؕ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

وحين يتكلم في العقيدة ، فإن من الأول أن يبدأ بالأهم ثم المهم بعده ، على ضوء ما يراه مناسباً لدينه ، ولمن يدعوهم .

إن غرس التوحيد في القلوب هو أساس العقيدة ، وبعده يأتي إثبات الرسالة وأركان العقيدة كلها .

وإذا ما اعتقد الإنسان أطاع كل ما يتفق مع عقيدته لأن أساس البناء هو العقيدة .

ولتكن الصورة البيانية الحسنى هي لباس العرض ، وأسلوب الدعوة ..

وعلي الداعية أن يدرك أن الدعوة السليمة لا تحتاج إلى السب واللعن ،

وليس منها العدوان ، وسوء الخلق .. مع كافة المدعوين .

وحين يختار الوسيلة فعليه أن يجعلها مناسبة للناس ، فمع العلماء يكون

الكتاب والمحاضرة والندوة ..

ومع متوسطي الثقافة تكون الصحيفة والبرامج التوجيهية ، ومع العامة يكون

الجدل ، والحوار ، والمقارنة ... وهكذا .

ومع الأسلوب عليه أن يعود للقرآن الكريم يأخذه ، فلقد كان القرآن الكريم

يخاطب بأسلوبه الكفار ، والمنافقين ، والمؤمنين ، ويناقش المأثور والفقراء ، ويتحدث إلى الرجال

والنساء ، والكبار والصغار .. وهكذا .

ولذلك كانت الملاءمة بين الدعوة والواقع ضرورة أساسية لنجاح الدعوة .

إن العقيدة أساس البناء ، وغرسها في القلوب مهمة الدعاة ... وليكن معلوما للجميع

أن الشريعة تأتي تابعة للعقيدة الصحيحة بصورة تلقائية .

الركيز الخامسة

إدراك

مسئولية الدعوة

بمراجعة تاريخ الدعوات الإلهية منذ آدم " عليه السلام " إلى محمد " ﷺ " نلمس ضخامة الجهد المبذول ، والمعاناة التي بذلها الأنبياء لأداء الأمانة التي تحملوها في سبيل الله تعالى .

ولذلك نشير إلى ضرورة إدراك هذه الحقيقة ليقوم الجميع بما يجب عليه إزاء الدعوة .

إن الدعوة إلى الله تحتاج إلى إخلاص المسلمين جميعاً ، وخير للدعوة أن تتكاتف الأمة كلها في هذا المجال .

لقد رأينا رسول الله " ﷺ " يقوم بالدعوة ، ويقوم معه كل من يدخل في الإسلام ، ولذلك أخذت الدعوة الصورة الجماعية منذ الجهر بها ، ولم يحدث مرة أن الرسول " ﷺ " كان في اتجاه ، وكان المسلمون في اتجاه آخر ، ورأينا — كذلك — المسلمين وهم يدعون إلى الله في صورة تقرب الناس إليهم ، وتعرفهم الإسلام برفق وهدوء ، وتدعو إلى الله بالحسنى والخلق الجميل .

ورأينا أصحاب رسول الله " ﷺ " رغم الضعف ، والقلّة يقومون بالدعوة ويضيفون للإسلام أتباعاً ، مؤمنين ، صادقين ، فلقد أدخل مصعب بن عمير الإسلام في كل بيوت المدينة .. وعاش جعفر بن أبي طالب في الحبشة داعياً محبوباً بين غير المسلمين .

وليس من فقه الدعوة أن يخاطب الناس بما ينفرهم من دين الله تعالى ، فلقد علمنا الله أن نقول لأهل الكتاب ﴿ وَإِنهٖم وَإِنهٖم وَاحِدٌ ﴾ ونقول لهم : ﴿ وَإِنَّمَا أُو۟لُوا۟كُمْ لَعَنَىٰ ٱللّٰهُ هُدًىٰ ۖ أَوْ فِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وليس من فقه الدعوة أن يصطدم الدعوة مع المسؤولين ، عن طريق التشهير ، ونشر النقد بصوت مسموع ، لأن كثيراً من المسؤولين يحتاجون إلى النصيح الهادئ ، والكلمة الصادقة يسمعونها بخلق الإسلام ، وسلوك المؤمنين .

وليس من فقه الدعوة أن يتفرق الدعوة إلى شيع وفرق ، لأن ضرر هذا أكثر من نفعه ، وكيف يتصور الدعوة أنهم ينادون للتوحيد ، وهم ينقسمون حتى يتخيل الناس أن لكل جماعة دعوة ، وأن لكل فريق إله .

إن أصحاب الهوى والغرض أفسدوا ما بين الدعوة والحكام ، فانقسم العالم الإسلامي على نفسه ، وأصبح صراعه مع ذاته ، وخير للإسلام أن يكون الأمر على غير هذا النمط .

إن من فقه الدعوة أن يكون العلماء والأمرء معاً في طريق واحد ، لغاية واحدة ، وبخاصة أنهم جميعاً في الأمة الإسلامية يعملون لله ورسوله .

وإني لأعلى يقين من أن العلماء إذا تمكنوا من عرض الإسلام بصورته النقية ، الصحيحة ، بعيداً عن التشنجات المذهبية ، والعصبية الفكرية فإنهم سيحققون به ومعهم نخبة إسلامية تفيد العالم كله .

إن ملامح الخطاب الديني الإسلامي يقوم على الأسس التالية : —

أولاً : أن يكون محدد الموضوع ، واضح الهدف ، في إطار المشروعية الإسلامية .

ثانياً : الالتزام بشرف الوسيلة ، وحسن الأسلوب ، وجمال الطلب .

ثالثاً : مراعاة حق المخاطب في الفهم ، والمناقشة ، وحرية اتخاذ ما يرى .

رابعاً : ضرورة الالتزام بالمرجعية الإسلامية بمصادرها المعروفة في كل جوانب عملية الدعوة .

ولكل هذا كان إدراك مسئولية الدعوة ، والوقوف على أبعاد هذه المسئولية

ضرورة هامة لنجاح الدعوة إلى الله تعالى .

الركيزة السادسة

دور المرأة المسلمة

في الدعوة

المرأة نصف المجتمع أكرمها الله تعالى ، وجعلها من الرجل ، ومعها ﴿ بَعْضُكُمْ

مِنْ بَعْضٍ ﴾ فتحقق لها بالإسلام الحقوق التي كانت محرومة منها .

وقد كلف الله تعالى المرأة بالإسلام ، وحدد لها دورها في إطار أسرة كريمة ،

وفي حركة مجتمع طاهر ، ولعل ما نشير إليه هنا دورها في حركة الدعوة إلى الله تعالى

فالمرأة هي أم الرسول ﷺ ، وهي التي أرضعته ، ونشأته وأشرفت على تربيته .

وهي زوجة الرسول ، أمت به ، وصدقت برسالة الله ، وأغنته بما لها ، ويسرت

له الطريق بأمر الله تعالى فكانت خير عون على تبليغ الرسالة .

لقد كانت خديجة " رضي الله عنها " بأمر الله خير معين لرسول الله ﷺ

تتبع خبره ، وتطمئن عليه ، وتسعى لتعرف حقيقة ما كان يراه الرسول ﷺ في

مبدأ بعثته ﷺ .

ولقد شاركت المرأة العربية في مكة في حركة الدعوة منذ البداية . . . وها هي

زوجة عمار ، تتحمل الأذى في سبيل الله تعالى ، وتتقبل الموت راضية مرضية ، لتصير

أول شهيدة في الإسلام .

وهناك عدد من السابقات إلى الإسلام، منهن من هاجر إلى الحبشة ، ومنهن

من هاجرت إلى المدينة ، ومنهن من بقيت صامدة في مكة .

وقد اشتركت امرأتان في بيعة العقبة الثانية، وبايعتا رسول الله ﷺ بيعة الحرب ، وصدقنا

في بيعتهما، فلقد سقطت أم عمار جريحة في غزوة أحد ، وفي جسدنا اثنا عشر جرحا

وتلك إشارات تؤكد دور المرأة في حركة الدعوة إلى الله تعالى، ويجب على

المسلمين تنشئة بناتهم على الإيمان الصادق، وحب الدعوة إلى الله، ومداومة الأمر

بالمعروف، والنهي عن المنكر لتكون المرأة هي المدرسة الصالحة لتخريج جيل صالح، مؤمن .

والمرأة في العصر الحديث يمكنها أن تؤدي للدعوة خدمات جليلة عن طريق أبنائها وبناتها، ويمكن أن تحيط أسرتها بسياسات يحميها من أى فساد في الخلق والسلوك . ويمكن للمرأة المسلمة أن تحول بيتها إلى مركز للإشعاع والخير لأولادها ولجاراتها ، وصديقاتها ، فتستفيد بأوقات الفراغ في مدارس فكرة دينية ، أو حفظ آية قرآنية ، أو قراءة حديث نبوي شريف .

إن المرأة المسلمة يمكنها عن طريق الاشتراك في الجمعيات الخيرية ، والوطنية من تقديم الإسلام عملياً لأخواتها ، وبذلك تكون سبباً في تعليم الإسلام للناس . إن الفراغ عند المرأة كثير، وبدل أن يضيع في متابعة الأفلام ، والمسلسلات ، والجلوس الطويل أمام التلفزيون يمكنها أن تحول بيتها إلى مدرسة صغيرة ، تلى فيه آيات الله والحكمة ، وذلك فضل يوفق الله من يشاء من عباده له .

إن الإسلام لم يقف حائلاً أمام المرأة أبداً، فهي نصف المجتمع، وأمهات وأخواتها ، وبناتها ، وصديقاتها ، وجاراتها في حاجة إليها .

ويوم أن تقوم المرأة المسلمة بواجبها فإنها تقدم عملاً عظيماً للمجتمع وللناس ولم يخل الإسلام على المرأة بعلم أو تعليم ، فطلبها العلم فريضة كطلب الرجل له ، وقيامها بالتدريس والدعوة أمر مقرر في دين الله تعالى ، وهما هي السيدة عائشة " رضي الله عنها " قروى الأحاديث لأصحاب رسول الله " ﷺ " وأتباعه ، وكانت مصدر فتوى للمسلمين ، ولقد شاركت في الحياة العامة، والأنشطة العملية .

ومن هنا نؤكد على ضرورة اشتراك المرأة المسلمة في حركة الدعوة استنباطاً من سيرة رسول الله " ﷺ " وحركته بالدعوة إلى الله تعالى .

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وبعد ..

فلقد انتهيت من كتابة المرحلة المكية ، ووقفت بها عند بدايات الهجرة لإتني أرى الهجرة بداية المرحلة المدنية .

وحاولت أن أكتب السيرة النبوية بالتفصيل لأعيش مع رسول الله " ﷺ " في حياته وأوصافه ، وشمائله لأحقق أملاً عشت طويلاً ، وعشت مع حركة الرسول " ﷺ " بالدعوة وهو ينتقل بها بين القبائل والأماكن العديدة ، لأرى منهجية العمل لخدمة الإسلام ، ونفع الناس أجمعين .

ثم كانت أهم الركائز التي استنبطتها من السيرة النبوية ، والحركة بالدعوة خلال هذه الفترة .

وأمل ..

أن يكون كتابي هذا مفيداً في السيرة والدعوة ، ومرجعاً للمسلم العادي ، وللدارس المثقف ، والعالم المجتهد .

وأعتذر عن كل تقصير وقع مني لأن التقصير من لوازم أى عمل بشري ..
وأسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه سبحانه وتعالى ، وأن يجعله لى فى الدنيا ذكرى ، وفى الآخرة نوراً وذكراً ، وأن ينفعنى به يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

المؤلف

فهرست الموضوعات



فهرس الموضوعات

الموضوع	وع	رقم الصفحة
المقدمة	٧
الفصل الأول		
الواقع العالمى قبيل مجئ الإسلام		
التمهيد	٢٧
المبحث الأول (العرب)		
جغرافية بلاد العرب	٢٨
الأوضاع السياسية والاجتماعية	٣٢
أوضاع العرب الدينية	٤١
المبحث الثانى (الروم)		
جغرافية الدولة الرومانية	٥٦
الأوضاع السياسية والاجتماعية للرومان	٥٩
الأوضاع الدينية للرومان	٦٥
المبحث الثالث (الفرس)		
جغرافية الفرس	٧١
الأوضاع السياسية والاجتماعية	٧٢
أوضاع الفرس الدينية	٧٥
المبحث الرابع (الهنود)		
الموطن الجغرافى	٧٨
الأوضاع السياسية والاجتماعية	٨٠
الأوضاع الدينية	٨٣

المبحث الثاني

ملاءمة الواقع العالمى للحركة بالإسلام

- | | | |
|-----|------------------------------|--|
| ٨٧ | ١ — شيوع الضلال الدينى | |
| ٩٢ | ٢ — هوان الإنسان | |
| ٩٣ | ٣ — سهولة التواصل | |
| ٩٥ | ٤ — تعدد الصراع | |
| ٩٨ | ٥ — النضج الفكرى | |
| ١٠٣ | ٦ — إنتظار رسول جديد | |

الفصل الثانى

السيرة النبوية من الميلاد إلى الهجرة

- | | | |
|-----|--|--|
| ١٠٩ | التمهيد | |
| ١١٢ | المبحث الأول (النسب الشريف) | |
| ١٢٧ | المسألة الأولى : أصالة النسب | |
| ١٣٣ | المسألة الثانية : بعد الآباء عن الشرك | |
| ١٤٤ | المسألة الثالثة : صلة بنى هاشم بسائر العرب | |

المبحث الثانى (إرهابات الميلاد)

- | | | |
|-----|--------------------------------------|--|
| ١٥٣ | الإرهابات ومناقشة الآراء حولها | |
|-----|--------------------------------------|--|

المبحث الثالث

- | | | |
|-----|-------------------------------|--|
| ١٧١ | ميلاد اليتيم محمد " ﷺ " | |
|-----|-------------------------------|--|

المبحث الرابع

- | | | |
|-----|----------------------------------|--|
| ١٨٤ | محمد " ﷺ " فى ديار بنى سعد | |
|-----|----------------------------------|--|

المبحث الخامس

- ١٩٣ شق صدره " ﷺ "

المبحث السادس

- ٢٠٢ محمد " ﷺ " في مرحلة الصبا
- ٢٠٣ — عناية عبد المطلب بحفيده
- ٢٠٦ — عناية أبي طالب بابن أخيه
- ٢٠٨ — الرحلة الأولى إلى الشام (مقابلة بحيرى)
- ٢١٥ — رعى الغنم
- ٢٢١ — حرب الفجار
- ٢٢٨ — حلف الفضول
- ٢٣٣ — الرحلة الثانية إلى الشام (التجارة لخديجة)

المبحث السابع

- ٢٣٧ الزواج بخديجة " رضى الله عنها "

المبحث الثامن

- ٢٤٣ بناء الكعبة
- ٢٥٤ بناء عبد الله بن الزبير للكعبة
- ٢٥٧ الكعبة والمسجد الحرام

المبحث التاسع

المقدمات العملية للبعثة النبوية

- ٢٦١ أولاً : كثرة الميشرات
- ٢٧٠ ثانياً : إنتشار العلم بخاتم النبوة
- ٢٧٤ ثالثاً : منع الجن من الاستماع

الموضوع وع

رقم الصفحة

٢٨١ رابعاً : تكامل شخصية محمد ﷺ
٢٨٢ ١ — سمو السلوك
٢٨٦ ٢ — جمال الخلقه
٢٩١ ٣ — عظمة الخلق
٢٩٧ ٤ — حلاوة المنطق
٢٩٨ ٥ — كمال العقل
٣٠٠ خامساً : تحبيب الخلاء لمحمد ﷺ

المبحث العاشر

٣٠٩ بداية الوحي
٣١١ ١ — الرؤيا الصادقة
٣١٤ ٢ — نداءات الملائكة
٣١٦ ٣ — كلام الشجر والحجر
٣١٧ ٤ — لقاء الملائكة
٣١٩ ٥ — مجئ جبريل بالقرآن
٣٢٤ فتور الوحي

المبحث الحادى عشر

تواصل الوحي

٣٢٦ صور الوحي
-----	-----------------

المبحث الثانى عشر

السيرة المحمدية من الرسالة حتى الهجرة

٣٣٦ تمهيد
-----	-------------

الموضوع	رقم الصفحة
أولاً : المرحلة السرية والسابقون إلى الإسلام	٣٣٦
ثانياً : صلته بأعمامه في المرحلة السرية	٣٣٩
ثالثاً : مرحلة الجهر بالدعوة ومواجهة المتاعب	٣٤٢
١ — السؤال عن صدقه " ﷺ "	٣٤٢
٢ — موقف أبي طيب وزوجته	٣٤٣
٣ — السخرية والاستهزاء	٣٤٤
٤ — بث الدعاية الكاذبة	٣٤٦
٥ — مساومات وتخليط	٣٤٨
٦ — الاضطهاد البدني	٣٤٩
٧ — محاولة قتل محمد " ﷺ "	٣٥٢
٨ — نتائج الاضطهاد	٣٥٥
٩ — أبو طالب يحتاط لابن أخيه	٣٥٩
١٠ — المقاطعة العامة	٣٦٠

المبحث الثالث عشر

٣٦١ عام الحزن
٣٦٢ الاستعانة بغير أهل مكة
٣٦٣ المحاولة الأولى
٣٦٥ المحاولة الثانية

المبحث الرابع عشر

زواج النبي ﷺ " بعد وفاة خديجة " رضي الله عنها "

أولاً : سودة بنت زمعة ٣٧١

ثانياً : عائشة بنت أبي بكر ٣٧٤

الموضوع	وع	رقم الصفحة
ثالثاً : أم حبيبة بنت أبي سفيان	٣٧٦	
المبحث الخامس عشر		
تتابع مجئ نصر الله		
النصر الأول " إسلام عداس "	٣٧٧	
النصر الثاني " إسلام الجثن "	٣٧٨	
النصر الثالث : إجارة المطعم بن عدي "	٣٧٩	
النصر الرابع " أضواء وسط ظلام القبائل "	٣٨١	
— إسلام سويد بن الصامت " ﷺ "	٣٨١	
— إسلام إلياس بن معاذ " ﷺ "	٣٨١	
— إسلام أبي ذر الغفاري " ﷺ "	٣٨٢	
— إسلام الطفيل بن عمرو " ﷺ "	٣٨٣	
— إسلام ضماد الأزدي " ﷺ "	٣٨٤	
النصر الخامس " الإسراء والمعراج "	٣٨٥	
١ — مفهوم الإسراء والمعراج	٣٨٥	
٢ — ثبوت الإسراء والمعراج	٣٨٥	
— رواة حديث الإسراء	٣٩١	
— الزيادات عن رواية حديث أنس	٣٩٢	
— التعارض في أحاديث الإسراء	٣٩٧	
— فك تعارض الأحاديث	٣٩٩	
٣ — كيفية وقوع الإسراء والمعراج	٤٠٠	
— مناقشة الآراء	٤٠٠	
— التوفيق ورد الاختلاف	٤٠٤	

الموضوع	وع	رقم الصفحة
النصر السادس " إسلام الأنصار "	٤٠٥
اللقاء الأول	٤٠٥
بيعة العقبة الأولى	٤٠٧
بيعة العقبة الثانية	٤٠٩

الفصل الثالث

حركة النبي ﷺ " بالدعوة

إلى الله تعالى

التمهيد ٤١٩

المبحث الأول " تحديد مفاهيم الحركة بالدعوة ٤٢١

أولاً : مناهج الدعوة ٤٢١

ثانياً : المضمون الفكري للحركة ٤٢٣

ثالثاً : أسلوب الدعوة ٤٢٧

رابعاً : وسائل الدعوة ٤٣٦

خامساً ، وسادساً : الداعى والمدعو ٤٤١

المبحث الثانى " حركة الرسول " ﷺ " بالدعوة خلال المرحلة السرية ٤٤٢

أولاً : الدعوة إلى العقيدة ٤٤٣

ثانياً : الاتصال الفردى ٤٤٦

ثالثاً : تخيير المدعوين ٤٤٨

رابعاً : تجنب ضلالات القوم ٤٤٩

خامساً : دعوة الأقربين ٤٥٠

سادساً : إسلام الضعفاء ٤٥١

سابعاً : الاكتفاء بأهل مكة ومن يأتونها ٤٥٢

٤٥٦	ثامناً : التخفى في العبادة والتوجيه
٤٥٨	تاسعاً : حمل المسلمين مسئولية الدعوة ..
	المبحث الثالث
٤٦٣	الوسائل والأساليب خلال المرحلة السرية ..
	المبحث الرابع
٤٦٤	المسلمون خلال المرحلة السرية
	المبحث الخامس
٤٦٨	المرحلة الأولى للجهر بالدعوة
٤٨١	اسلام حمزة
٤٨٢	اسلام عمر بن الخطاب
	المبحث السادس
٤٨٧	مرحلة الجهر العام بالدعوة
	المبحث السابع
	الحركة بالدعوة خلال مرحلة الجهر العام
	وسائل الدعوة
٤٨٩	المسألة الأولى :تنوع وسائل الدعوة
٤٨٩	أولاً : الاتصال بصوره المختلفة
٤٩٦	ثانياً : الدعوة بالحوار والمفاوضة
٤٩٩	ثالثاً : الدعوة بالانتقال إلى القبائل
٥٠٠	رابعاً : الدعوة بمقابلة الوفود
٥٠٣	خامساً : الدعوة بإرسال الرسائل

الموضوع	رقم الصفحة
سادساً : الدعوة بالعمل والتطبيق	٥٠٧
سابعاً : الاستفادة من عادات المجتمع الجاهلي	٥٠٨

المسألة الثانية

أساليب الدعوة

أساليب البلاغة القرآنية	٥١٠
(١) التصوير الحسي بالكلمات	٥١٩
(٢) التصوير بالتشبيه	٥٢١
(٣) التصوير بضرب المثل	٥٢٢
(٤) التصوير القصصي	٥٢٤
(٥) التشويق والإثارة	٥٢٩
(٦) التصوير الصوتي بالترتيل	٥٣١
(٧) إظهار عوامل الطاعة	٥٣٣

المبحث الثامن

توافق الأسلوب والموضوع

في مجال العقيدة	٥٣٤
في مجال العبادة	٥٣٧
في مجال المعاملات	٣٥٧

المبحث التاسع

مواجهة عدوان الكفار

محاولات الكفار في إيقاف حركة الدعوة	٥٣٩
---	-----

الموضوع	رقم الصفحة
مواجهة محاولات الكفار	٥٤٥
أولاً : تقوية إيمان المعذبين	٥٤٦
ثانياً : تحرير الأرقاء	٥٤٧
ثالثاً : هجرة المسلمين إلى الحبشة	٥٤٩
رابعاً : إنتهاء المقاطعة	٥٥١
المبحث العاشر	
استمرار الحركة بالدعوة	٥٥٦
المبحث الحادى عشر	
المسلمون فى نهاية المرحلة المكية	٥٦٠
الفصل الرابع	
الركائز المستفادة من المرحلة المكية	
تمهيد	٥٦٣
الركيزة الأولى " المعرفة الشاملة للمدعوين "	٥٦٤
الركيزة الثانية " دور الداعية بين الله والناس "	٥٧٠
أولاً : توثيق صلته بالله	٥٧٣
ثانياً : توثيق ارتباطه بالناس	٥٨٠
الركيز الثالثة " صفات الدعاة "	٥٨٢
أولاً : صفات التكامل الذاتى	٥٨٣
١ - الصدق	٥٨٤
٢ - الأمانة	٥٨٦
٣ - الإخلاص	٥٨٦
٤ - الذكاء	٥٨٧

الموضوع	رقم الصفحة
ثانياً : صفات الترابط والمودة ...	٥٩٠
١ — الحلم	٥٩٠
٢ — التواضع	٥٩٢
٣ — القناعة	٥٩٤
٤ — الكرم	٥٩٥
ثالثاً : صفات الريادة والتوجيه	٥٩٦
١ — المشاركة الوجدانية	٥٩٦
٢ — القوة والعزة	٦٠٠
الركيزة الرابعة " الملاءمة بين الدعوة والواقع "	٦٠٤
الركيزة الخامسة " إدراك مسئولية الدعوة "	٦٠٨
الركيزة السادسة : دور المرأة المسلمة في الدعوة "	٦١٠
الخاتمة	٦١٢
فهرس الموضوعات	٦١٥

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين